



Bibliotheca Alexandrina



0109132



إهداء الكتاب

بكل خضوع وخشوع ، أقدم كتابي هذا إلى سيدنا محمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم .
إلى من أنزل عليه الفرقان ونشر لواء الإسلام وقضى على الشرك وعبادة
الأصنام ، وعلم الخلق كيف يعملون لدينام الفانية وآخرتهم الباقية .
إلى نور الهدى الذى بلغ من حُسن الخلق ورُجحان العقل وثبات العقيدة ،
غايةً ليس وراءها مُطلَعٌ لناظر ، ولا نهايةً لاستزید ، ولا فوقها مُرتقى لمُتَمِّ .
من أتى عليه ربُّ السالمين قال : (وَإِنَّكَ لَمَعْلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .
هذه بإرسول الله سيرتك الطاهرة العاطرة ، أرجو أن تنال عطفك وتحظى
برضاك . فإني لم أرِدْ غيرَ وجه الله الكريم والتبرك برسوله الأمين . وخدمة
المسلمين أجمعين .

مُقَدِّمَةٌ

كتاب محمد رسول الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

من الكتب الإسلامية التي كتب لها التوفيق ، وقوبلت بالنبطة والرضا ، وانتشرت في جميع العالم الإسلامي ، واتفق بها طلاب التاريخ العربي ، ومحبو السيرة الحمديدية ، كتاب « محمد رسول الله » للأستاذ محمد رضا .

جمع هذا الكتاب ما يتفرق في الكتب من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما اشتملت عليه من معان رفيعة ، وأعمال جليلة ، تدل على رضة قدر ، وعلو همة ، وقوة عزيمته لم تتعب لغيره .

ولم يكن جمع مثل هذا الكتاب بالمهين ، ولكن الأستاذ محمد رضا عكف سنين طويلة على دراسة سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، لا في كتب السيرة لغيب ، ولكن أيضا في كتب التاريخ ، والتفسير ، وشروح الأحاديث ، ومعاجم اللغة ، وتراجم الرجال ، وأيضا فيما كتبه المستشرقون : للنصفون منهم والمعرضون ، ولم يفقه أن يفند أقوال المعرضين من هؤلاء ، ويهدم ما ينشره المظفلون من مفتريات وأكاذيب .

وعلى الرغم من أن الإحاطة بالسيرة الحمديدية مهمة شاقة ، فإن الأستاذ محمد رضا قد بذل الجهد ، وأفرغ الوسع في جمع سنتها . وقد قال مقدمته :

« وحقت مختلف الروايات ، فلم أثبت إلا ما صح منها ، وما أجمع عليه أكابر الصحابة والعلماء ، وذكرت الآيات عند المناسبات حتى قلم أسباب النزول . وشرحت مواقع البلدان والفترات ، والألفاظ القوية ، وقيدت الوقائع بالتواريخ المجرية مع ما يقابلها من السنين الميلادية .

ولم أترك صحابيا ذكر في كتابي هذا إلا كتبت نبذة عن ترجمته ؛ لتعرف سيرته وعلاقته بالحوادث ، فجاء الكتاب بدون الله مرجعا تاريخيا ، وبمحا علميا ، مدعما بالأدلة القاطعة ، معرزا بالحجج القاطعة مؤيدا بكتابات الله عز وجل ، وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

فهو كتاب ، لا غرو أن جاء جامعا لسيرة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأيضا فإنه كتاب إسلامي لم يقتصر على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، بل تعرض لفتح ما يوجه أعداء الإسلام إلى الإسلام من شبه ومفاسد خفية ، لا يستطيع غير العلماء ردّها .

- ٦ -

وقد اضطر المؤلف في بعض المناسبات أن يترجم العبارات التي يقصد بها الطعن في تعاليم الإسلام ونبي الإسلام ليطلع الناس على مقاصد المستشرقين المفرضين ونواياهم الخبيثة .

وقد شارك المؤلف بقسط وافر في الرد على المستشرقين المفرضين ، والمبشرين المضللين ، لأنه يرى أن ترك هذه الشبهات تنتشر بين المسلمين مما يزيد ضررها ، ويفسح المجال لأعداء الإسلام فيزداد شرهم ، وتنتشر مصائبهم . وقد أحسن صنعا بما فعل .

ومن هنا كتب لهذا الكتاب القيم النجاح ، وانتشر في البلاد الإسلامية انتشاراً استنفد طبعاته الثلاث في مدة وجيزة .

الطبعة الأولى : كانت في مايو سنة ١٩٣٤ .

الطبعة الثانية : كانت في أكتوبر سنة ١٩٣٧ وقد اشتملت على زيادات وتحقيقات لم تكن في الأولى .
الطبعة الثالثة : كانت في نوفمبر سنة ١٩٤٨ وقد اشتملت على زيادات مهمة وتحقيقات لم تكن في الطبعة الأولى ، ولا في الثانية . ولولا قيام الحرب العالمية الثانية الذي عطل الطبعة الثالثة — رغم فساد الطبعة الثانية — بسبب علم الورق ، لتعدت الطبعة الثالثة عن موعدها بسنتين كثيرة .

وكانت وفاة المؤلف من أقوى الأسباب التي أخرت طبع الكتاب الطبعة الرابعة رغم فساد الطبعة الثالثة منذ سنتين كثيرة .

الطبعة الرابعة سنة ١٩٦١ وهي هذه التي تقدم بها هذا الكتاب لقراء العربية ومحبي السيرة الحمدي ليجدوا فيه أوثق المصادر ، وأصوب الآراء لسيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ولو قدر لهذه الطبعة وما يستجد بعدها من الطبعات أن تخرج والمؤلف على قيد الحياة لأضاف إليها من بحوثه وتحقيقاته الشيء الكثير ، رحمه الله وشكر له .

ولقد كان « لنار إحياء الكتب العربية » النضل في إخراج هذا الكتاب الجليل ، والعناية بطبعه وتصحيحه عليها وفنيا ونشره في البلاد الإسلامية وتقدمه إلى القراء في نظام عصري جميل ، كعادتها في كل ما تخرجه من كتب مما يزيد رغبة القراء في الإقبال على اقتناء مطبوعاتها . وهماي تقدمه إلى قراء السيرة في طبعته الخامسة سنة ١٩٦٦ .

والله يوفق العاملين لتحقيق السيرة الحمدي ، وإظهار أجداد الأمة العربية ٪

الطاهر أحمد الزاوي

شوال سنة ١٣٨٥
فبراير سنة ١٩٦٦

كلمة عن بلاد العرب

بلاد العرب هي شبه جزيرة في الطرف الجنوبي الغربي لقارة آسيا، يحدها شمالاً، الشام وفلسطين والجزيرة، وجنوباً، خليج عدن والمحيط الهندي. وشرقاً، خليج عُمان والخليج الفارسي. وغرباً، خليج ومضيق باب المندب والبحر الأحمر وترعة السويس.

ويبلغ مجموع مساحة شبه جزيرة العرب مليون ميل مربع، وأعظم طول لها ١٤٠٠ ميل من العقبة إلى عدن.

وبلاد العرب عبارة عن هضبة تتخلل نحو الشرق. وجوفاً حار ويبلغ عدد سكانها نحو سبعة ملايين وهي موطن السلميين. وينقسم إلى عدة أقسام، أشهرها، اليمن والحجاز وتهامة ونجد واليمامة وبلاد البحرين. وتنقسم بلاد اليمن إلى خمسة أقسام: حضرموت وشحر ومهرة ومُحمان ونجران.

ويقال إن سبب تسمية «حضرموت» بهذا الاسم، هو أن حضرموت بن قحطان كان أول من نزلها. وكان اسمه عامراً وإذا حضر حرباً أكثر فيها القتل. فصاروا يقولون عنه، حضرموت. فأطلق هذا الاسم على الأرض التي كانت تسكنها قبيلته. ثم أطلق بعد ذلك على جهة مقسمة شرق عدن بالقرب من البحر وهي كثيرة الرمال. ويقال إن بها قبر هود عليه السلام. ويقال إن اليمن سمي بذلك لوقوعه عن يمين السكبة إذا استقبلت الشرق. ومن أشهر مدن اليمن (صنعاء) وهي قاعدته. وكانت عاصمة ملوك اليمن. وبقرها معادن للذهب الحجري لم تستعمل الآن. وهي حسنة الأسواق واسعة التجارة وبقرها مدينة (مأرب) السماء (سبأ) نسبة لعبد شمس الملقب بسبأ. يقال إنه بنى هناك سداً عظيماً وساق إليه السيول من مكان بعيد. وشيد جزءاً كبيراً من المدينة على السد المذكور. وفي بعض السنين تراكت الأمطار فدفع السد وهاك خلق كثير. فسعى السيل (سيل الغرم) والعرم هو الذي لا يطاق دفعه. وفي تلك الجهات كتابات بالحرف السند المعروف بالخط الحيري.

ومن مدن اليمن (صنعاء) إلى الشمال الغربي من صنعاء

(زبيد) إلى الغرب من صنعاء و (بيت الفقيه)

وبلاد الحجاز واقعة في شمال اليمن، شرق البحر الأحمر. وتمتد إلى خليج العقبة، وعلى ساحلها جزائر صغيرة تلجئ إليها سفار السفن عند الحاجة. وسمى «حجازاً» لوقوعه بين نجد وتهامة.

وأشهر بلاد الحجاز، مكة السماء قديماً عند علماء الإغريق (ماكورايا). والمدنية للنورة - مدينة الرسول - وكانت تسمى مدينة (يثرب) وبها قبر الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي شمالها، جبل (أحد) ويقال للبلدية طيبة

ولها أسماء كثيرة (والطائف) بلدة خصبة، طيبة المناخ، كثيرة البساتين والعيون والجداول واقعة شرق مكة .
ومن أشهر بلادها خير ، وهي واقعة بالشمال الشرقي من المدينة على طريق قوافل الشام . وبها سبعة حصون مشهورة عند العرب هي : ناعم والقصوص ، حصن أبي الحقيق . وحصن الشق وحصن النطايط . وحصن السلام وحصن الوطيط وحصن الكتيبة . وتوصف خير بكثرة الحيات .

وقسم تهامة ، وهو على ساحل البحر الأحمر بين اليمن جنوبا والحجاز شمالا . وسميت تهامة لشدة حرها وركود ريحها .

ونجد ، وهو جنوبي الشام وغربي العراق وشرق الحجاز وشمال اليمامة . وأراضيها خصبة وقاعدتها مدينة (الرياض) وكانت مركزاً للوهابيين . وهدمها الروم لإبراهيم باشا . وإلى الشمال منها ، جبل شمر أى جبل (طى) قصبته مدينة الحائل . وأشهر مدنها (أبانا) وهي التي ولد فيها محمد بن عبد الوهاب ، شيخ مذهب الوهابية .

وقسم اليمامة . وهو بين نجد واليمن ، ويتصل بالبحرين شرقاً ، والحجاز غرباً . ومن مدنه (اليمامة) وكانت مدينة عظيمة ، ذات مياه ونخل . وهي مدينة مسيلة الكذاب .

ومن أشهر ثغور بلاد العرب ، (عَدَن) وهي على الساحل الجنوبي من بلاد العرب ، واسعة التجارة . وبها . وهي من الثغور الشهيرة على البحر الأحمر والمركز الأصلي لتجارة اليمن .

والحديدة . وهي من أشهر مدن اليمن ، واقعة على البحر الأحمر . وترسو عليها سفن حجاج الهند .
وجُلَّة . على ساحل الحجاز على بعد ٦٥ ميلاً غربي مكة . وهي أحسن ثغور البحر الأحمر .

والعرب أقدم الأمم بد الطوفان وتنسب إلى يقطان أو قحطان . وامتاز العرب بالقوة والشجاعة . وقد قسم المؤرخون العرب إلى ثلاثة أقسام : بائدة وعاربة ومستعربة .

أما البائدة ، فهم العرب الأول الذين ذهب عنا تفاصيل أخبارهم لقدم عهدهم واقطاع أسباب العلم بأنهم وهم عاد وثمود وطسم وجديس وجُرم الأولى . وكانت مواطن عاد بأحفاف الرمل بين اليمن وعمان إلى حضرموت والشعر . ولما انتحلوا عبادة الأصنام أباهم الله . وأما ثمود فكانت ديارهم بالحجر ووادي القرى بين الحجاز والشام . وكانوا ينعثون بيوتهم في الجبال وكانوا أهل كفر وبني . وأما جديس فكانت ديارهم باليمامة وهي إذ ذاك من أخصب البلاد وأمرها وأكثرها ثماراً وحدائق وقصوراً وأما جُرم الأولى ، فكانت ديارهم باليمن وكانوا يتكلمون بالبرانية فكانوا على عهد عاد واندثروا .

وأما جُرم الثانية ، فهم من ولد قحطان ، وبهم أصل إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليها السلام . وكانت

مساكن بنى قحطان بالحجاز ولما أسكن إبراهيم الخليل ابنه إسماعيل في مكة نشأ بينهم وتزوج منهم وصار يطلق على أولاده العرب المستعربة . لأن أصل إسماعيل ولسانه كان عبرانياً ولذلك قيل له ولولده (العرب) .

وأما العرب العاربة ، فهم بنو سبأ . واسم سبأ عبد شمس . وقالوا إنه لا أكثر الغزو والسبي ، سبأ (سبأ) وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان . وكان لسبأ عدة أولاد ، منهم حمير وكهلان وعمر وأشعر وعاملة ، بنو سبأ . وجميع قبائل العرب باليمن وملوكها التبابعة من ولد سبأ ، وجميع تبابعة اليمن من ولد حمير بن سبأ خلا عمران وأخيه موزقياء فإنهما ابنا عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلب بن مازن بن الأزد . والأزد من ولد كهلان بن سبأ . وقيل لم (عاربة) لنزولهم بالبادية مع العرب البائدة وتخلقهم بأخلاقهم .

أما من حيث المعتقد في الجاهلية ، فكانت العرب أصنافاً : فنصف أنكروا الخلق والبعث وقالوا بالطبع والحين والدمر المفى كما أخبر الله عنهم في كتابه العزيز :

(وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحى وما نهلكنا إلا الدهر) وصنف اعترفوا بالخلق وأنكروا البعث . وهم الذين أخبر الله عنهم بقوله (أضيئنا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد) .

وصنف عبدوا الأصنام . وكانت أصنامهم مخصصة بالقبائل ، فكان ود لكلب وهو يدومة الجندل ، وسوابع لهذيل . ويثوث ويثوث لمذحج وقبائل من اليمن . ونسر لدى السكلاء بأرض حمير ، ويثوث لهمدان . واللوات للثقيف بالعلاف . والمرى لقريش وبنى كنانة . ومناة للأوس والخزرج . وهبل أعظم أصنامهم وكان على ظهر الكعبة . وكان إساف ونائلة بين الصفا والمروة . وكان منهم من يميل إلى اليهودية . ومنهم من يميل إلى النصرانية . ومنهم من يميل إلى الصابئة ويمتد في أنواء المنازل . وكان منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الجن . وكانت علومهم : علم الأنساب والأنواع والتواريخ وتفسير الرؤيا . وكانت الجاهلية تفعل أشياء جاءت الشريعة الإسلامية بها . فكانوا لا ينكحون الأمهات والبنات ، وكان أقيح شيء . عندهم الجمع بين الأختين . وكانوا يسيبون المتزوج بأسراء أخيه ويسمونهم (الضيزن) وكانوا يحجون البيت ويعتصرون ويحرمون ويطوفون ويسمون ويقفون المواقف كلها ، ويرمون الحجارة ، وكانوا يكتسون في كل ثلاثة أعوام شهراً وينقلون من الجنبات الخ .

وملوك التبابعة هم بنو حمير ، وقيل لم تبابعة لأنه يتبع بعضهم بعضاً ، كلما هلك واحد منهم ، قام آخر . ولم يكونوا يسمون الملك منهم يتبع حتى يملك اليمن والشعر وحضرموت .

ولم تزل تتوالى الملوك على حمير حتى صار الملك إلى ذى نواس سنة ٤٨٠ م واسمه زُرعة . ولما قلب على ملك آباءه التبابعة تسمى (يوسف) وتصب لدين اليهودية وحمل عليه قبائل اليمن فاستجعت معه حمير على ذلك ، وأراد أهل نجران عليها وكانوا من بين العرب يدينون بالنصرانية ، وكان هذا الدين وقع إليهم قديماً من بقية أصحاب الحوارين . ولما كان ذو نواس يدين باليهودية ويتعصب لها ، اتخذ أخنوخاً وأضرعه ناراً ، وكان كل من

لم يتهود أقاته في الأخدود . قيل له (صاحب الأخدود) ويقال : إن رجلاً من أهل نجران أظلت من القتل وصار حتى قلم على قيصر ، صاحب الروم يستنصره على ذى نواس . فبعث إلى ملك الحبشة بأمره بنصره . فغلبه النجاشي وهزمه واقرض أمر التباينة سنة ٥٢٩ م ودخل أرباط اليمن بالحبشة وأذل حير وهدم حصون الملك . وعلى ذلك انتهى ملك حير من اليمن مدة ذى نواس . وبعد ذلك خرج على أرباط أحد رؤساء الحبشة وحاربه وقتله ، ثم أقاموا أبرهة ملكاً وهو الملقب (بالأشرم) وسيأتي ذكره في قصة القليل . ولما مات أبرهة ، تولى بعده ابنه يكسوم سنة ٥٧١ م وأذل حير وقبائل اليمن .

هذا ملخص عن بلاد العرب وتاريخها تقدمه للقراء . وبعدئذ نبدأ بذكر السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

نسبه الشريف

صلى الله عليه وسلم

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف^(١) بن قصي^(٢) بن كلاب بن مرة بن كعب ابن لؤي^(٣) بن غالب بن فهر^(٤) بن مالك بن النضر^(٥) بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس^(٦) بن مضر^(٧) بن نزار^(٨) بن معد بن عدنان^(٩)

إن نسب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لا يختلف التسابون فيه إلى معد بن عدنان كما هو مذكور ها هنا وإنما اختلف التسابون من عدنان إلى إسماعيل ، لكنهم أجمعوا على أنه ينتهي إلى إسماعيل . وكره الإمام مالك رفع النسب إلى آدم لعدم ثبوته ، وعن ابن عباس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم لا بلغ نسبه الكرم إلى عدنان قال « من هاهنا كذب التسابون » .

ومُضَرَّ وربيعة هم صريح ولد إسماعيل باتفاق جميع أهل النسب .

وهذا النسب أشرف الأنساب . عن العباس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم ، ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ، ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً » . وعن واثلة بن الأسقع رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله اصطفى

(١) منافاسم صنّ أضيف إلى عبد كما يقولون : عبد قنوت ، وعبد العزى ، وعبد اللات . (٢) قصي يقال اسمه زيد ويقال اسمه محم . (٣) لؤي تصغير لأى وهو الدور الوحى ، وقد يكون تصغير لأى وهو البطء . والمصهور فيه الهزئة (٤) فهر : الحير على مقدار ملء الكعب يذكر ويؤنث (٥) النضر : القصب الأحمر (٦) إلياس يختلف فيه : فمنه من يقول إلياس موافقاً للنسب هو خلاف الرجاء ، وهو مصدر يئس ، قيل سى بذلك لأنه ولد بعد ذكر سن أبيه ، وبضمهم يقول فيه إلياس بكسر الهزئة (٧) مضر : الأبيش مشتق من اللين للآخر وهو اللامنى (٨) نزار : من التزارة وهى القلة (٩) معد : من تعد إذا اشتد (١٠) عدنان : مأخوذ من عدن في السكان إذا كان فيه ، ومنه جنات عدن أى جنات إلامة وخلود .

من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم .

مناقب أجداد

صلى الله عليه وسلم

النبى صلى الله عليه وسلم من سلالة آباء كرام ، وكلهم سادة وقادة ، ولم يكن مكان ومقام بين العرب عظيم . وقد اشتهروا بالحكمة والشجاعة والإقدام والكرم كما يتبين ذلك مما نذكره بالاختصار من مناقبهم وأخبارهم .

قد كان (معد) صاحب حروب وغارات على بنى إسماعيل ، ولم يجارب أحداً إلا رجع بالنصر . وهو أبو العرب .

وكان (نزار) أجل أهل زمانه وأرجحهم عقلاً .

وكان (مضر) جليلاً كذلك . ولم يره أحد إلا أحبه ، ومن حكمة للأتورة :

« خير الخيل أمجله ، فأجاولوا أنفسهم على مكروها ، واصرّفوها عن هواها فبها أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق . »

والتقوا ما بين الحلبتين . ومضر أول من حدا للإبل وكان من أحسن الناس صوتاً .

وكان (إلياس) في العرب مثل لقمان الحكيم

« من يزرع خيراً يحصد غبطة ، ومن يز

وأما (فهر) فإليه جماع قريش ، وما كان فوق مهره من

فهر كرمياً ينقش على حاجة المحتاج فيسدها بماله ، وهو الجلد السادس لآبى عبيدة بن الجراح .

(كعب) وهو الجلد الثامن لعمر بن الخطاب رضى الله عنه . كان يجمع قومه يوم التروبة أى يوم الرحمة وهو يوم الجمعة ، فيعظهم ويذكرهم بميثم النبى صلى الله عليه وسلم ، وينبئهم بأنه من ولده ويأمرهم باتباعه .

(ثمرة) وهو الجلد السادس لرسول الله صلى الله عليه وسلم والجلد السادس أيضاً لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، وفي ثمره أيضاً يجتمع نسب الإمام مالك بنسب الرسول صلى الله عليه وسلم .

(كلاب) اسمه حكيم ، وقيل عروة . وتقب بكلاب لأنه كان يكثر الصيد بالكلاب ، وهو الجلد

الثالث لآمنة أمه صلى الله عليه وسلم فهو ملتقى نسب أبيه بنسب أمه . وقيل : إنه أول من سمى الأئمة المريية المستعملة إلى الآن .

(قصي) ولد حوالي سنة ٤٠٠ م اسمه زيد ، ويقال له مُجَمِّع وبه جمع الله القبائل من قريش في مكة بعد تفرقها فأتزلم أبليح مكة، وكان بعضهم في الشباب يورسون الجبال بمكة، قسم منازلهم فقسى مجماً، وهذا عمل جليل وفضل عظيم لا يتم إلا على يد ذوى النفوس الأبية والمهم المالية . وقصى أول من أوقد ناراً للزدقة وكانت توفد حتى يراملن دفع من عرفة . وهو أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم . وقيل إنما قُبِّ قصياً لأنه أبعد عن أهله ووطنه مع أمه بعد وفاة أبيه ، فلما تزوجت ربيعة بن حرام فرحل بها إلى الشام . وفيه يقول حنيفة بن غاتم :

أبوكم قصي كان يدعى مجماً به جمع الله القبائل من فهد

وكان إلى قصي في الجاهلية حجابة البيت^(١) وسقاية الحاج^(٢) وإطعامه المسمى بالرفادة^(٣) ، والثلثة وهى الشورى لا يتم أمر إلا فى بيته ، ولا يقعد عقد نكاح إلا فى داره ولا يقعد لواء حرب إلا فيها ، فكان بيته عبارة عن ناد للرب ، بل هو ملجؤهم فى جميع المشكلات سواء كانت هذه المشكلات قومية أو شخصية . ولما حضرته الوفاة نعى بنوه عن الخمر ، ولا بد أنه أدرك مضرتهما فعفى أحب الناس إليه عن احتسابها . وتوفى قصي عام ٤٨٠ فاش ٨٠ عاماً .

ومن كلامه الدال على تجاربه ورجاحة عقله :

« من أكرم لثيماً شاركه فى لؤمه ، ومن استحسن قبيحاً تركه إلى قبحه . ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الموان ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان . والخسود هو العدو الخفى » وإذنا كنما نحكم على الإنسان بكلامه فهذا يدل على أن قصياً كان ينفذ الأوامر والتعيب بنفساً شديداً ، وكان شجاعاً كارهاً للفرور والحدس .

(عيد مناف) اسمه الغيرة وكان يقال له « قر البطحاء » لحسنه وجماله ، وكانت قريش تسميه الفياض لكرمه ، وهو الجد الرابع لثمان بن عفان والجد التاسع للإمام الشافى .

(هاشم) واسمه عمرو بن عيد مناف ، ويقال له عمرو الملا لمرتبته ، وهو أخو عبد شمس ، وقد ساد قومه بعد أبيه عيد مناف ، وقد وقت مجاعة شديدة فى قريش بسبب جذب شديد حصل لهم ، فخرج هاشم إلى الشام فاشترى دقيقاً وكعكاً وقدم به مكة فى الموسم ففشم الخبز والكعك ونحر جُرُراً^(٤) وجعل ذلك تريداً وأطعم الناس حتى

(١) الحجابة هى سداة البيت : أى تولية مفتاح بيت الله تعالى (٢) السقاية : سقى المذبح كالماء الذهب ، وكان عزيزاً بمكة يجب إليها من الخارج فيسقى الحاجته وينذ لهم الخمر والزبيب فيعطيهم لياه ، وكانت وظيفة لهم . (٣) الرفادة : إطعام الطعام لساكني الحجاج بعد لهم الأمانة فى أيام الحج ، وكانت السقاية والرفادة مستمرة إلى أيام الخلفاء ومن بعدهم من الملوك والسلاطين ، وكان قصي يطعم الحجاج لأنهم ضيوفه .

(٤) جرد جمع جزور ، من الإبل ، ويقع على الذكر والأنثى .

أشبههم فسمى بذلك «هاشمًا» وكان يقال له «أبو البطحاء» و«سيد البطحاء» . و«البطحاء» مسيل الوادى - ولم تزل مائتته منصوبة فى السراء والضراء ، وكان موسراً يؤدى الحق ويؤمن الخائف . وهو أول من سن الرحلتين لقريش : رحلة الشتاء ورحلة الصيف ، فكان يرحل فى الشتاء إلى اليمن وإلى الحبشة ، وفى الصيف إلى الشام . قال الشاعر :

عمرو الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مستنون بحفاف
سنتُ إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصيف

وقد جاء ذكر الرحلتين فى القرآن الكريم بسورة « قريش » قال تعالى : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ كَيْمَعِدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ . »
ومات هاشم بفزة من أرض الشام تاجراً سنة ٥١٠ م .

(عبد المطلب) وأمه سلمى بنت زيد التجارية . واسم عبد المطلب شيبه الحمد لأنه ولد له شيبه ، مع رجاء حمد الناس له ، وإنما قيل له عبد المطلب لأن عمه المطلب أردفه خلفه وكان بهيمة رثة لقره قتيل له من هذا ؟ قال : عبدى ، حياءً ممن سأله ، وكان عبد المطلب بحباب الدعوة . وكان يرفع من مائتته الطير والوحوش فى رؤوس الجبال ، وهذا إحساس لطيف ورفق بالحيوان الأعجم ؛ ولما كان يقال له « معلم الطير » ويقال له « الفياش » . وكان مفرغ قريش فى التوائب وملجأهم فى الأمور وشريفهم وسيدهم كما لا وضلا ؛ وهو أول من تحت (قبد) بجرا . كان إذا دخل شهر رمضان ؛ صعد حرا . وأطمع المساكين ؛ وطاش مائة وعشرين سنة أو أكثر وقد انتهت إليه الرئاسة بعد عمه المطلب . وكان يأمر أولاده بترك الظلم والبنى ؛ ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن ديئات الأمور . ورفض عبد المطلب فى نهاية عمره عبادة الأصنام ووحد الله . وقال دغفل النسابة : إن عبد المطلب كان أبيض ، مديد القامة حسن الوجه فى جبينه نور النبوة وعز الملك ، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب . وهو الذى كشف عن زمزم بئر إسماعيل ؛ وأقام سقايتها للحجاج ؛ فكانت له نفراً وعزاً على قريش وعلى سائر العرب .

وكان يكرم النبي صلى الله عليه وسلم ويظفه وهو صغير ويقول « إن لابنى هذا لثأراً عظيماً » وذلك مما كان يسمه من الكهان والرهبان قبل مولده وبهده . وكانت كنية عبد المطلب « أبا الحارث » كنى بذلك لأن الأكبر من ولده الذكور كان اسمه الحارث .

أولاد عبد المطلب : أعمام رسول الله وعماه

أولاد عبد المطلب عشرة ذكرور : عبد الله وأبو طالب « واسمه عبد مناف » والزيبر (أمهم فاطمة) بنت عمرو الخزومية) . العباس - جد الخلفاء العباسيين - وضرار (أمها ثقيبة العمرية) . حمزة والقوم (أمهم هالة بنت وهب)

أبو لهب وهو عبد العزى (أمة لبني الخزاعية) الحارث (أمة صفية من بنى عامر بن صعصعة) النيدلج (أمة منعمة) واسمه حجل .

وست نسوة وهن : صفية وأم حكيم البيضاء وعاتكة وأمية وأروى وبيرة^(١) .
أما (عبد الله) فهو أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ويكنى أبا قثم وقيل أبا محمد وقيل أبا أحمد وهو أصغر أولاد عبد المطلب .

وقيل إن عبد المطلب أول من خضب بالوسمة أى السواد لأن الشيب أسرع إليه وكان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم الساكنين جميع الشهر ؛ وكان صموده للتخلل عن الناس يتفكر فى جلال الله وعظمته .

ويؤثر عن عبد المطلب سنن جاء القرآن وجاءت السنة بها . منها الوفاء بالنذر ؛ والمنع من نكاح الحارم ، وقطع يد السارق ؛ والنهى عن قتل المومودة وتحريم الخمر والزنا والحد عليه وألا يطوف بالبيت عريان ؛ وتفضيل الأئمة الحرم . وهو أول من سنّ دية النفس مائة من الإبل فجرت فى قريش ، ثم نشأت فى العرب وأقرها رسول الله .

وكان نديته فى الجاهلية حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف والد أبى سفيان ، وكان فى جوار عبد المطلب يهودى فأغلظ ذلك اليهودى القول على حرب فى سوق من أسواق تهامة فأغرى عليه حرب من قتله ؛ فلما علم عبد المطلب بذلك ترك منادمة تحرب ؛ ولم يفارقه حتى أخذ منه مائة ناقة دفعها لابن عم اليهودى حفظاً لجواره . ثم تادم عبد الله بن جُدعان التميمى .

نذر عبد المطلب

جد النبي صلى الله عليه وسلم

كان عبد المطلب نذر حين لقي من قريش المَنَتَ^(٢) فى حفر بئر زمزم لئن ولد له عشرة نفر وبلنوا معه حتى ينموا لينجرن أحدهم عند الكعبة لله تعالى ؛ ولم يكن له ولد إلا الحارث .

وقد ارتاب بعضهم فى حكاية هذا النذر ؛ لكننا لا نرى مندوحة عن ذكرها لأنها وردت فى أمهات كتب التاريخ التى استقينّا منها ، فقد رواها ابن إسحاق وشيخها الطبري وابن الأثير وابن سعد فى طبقاته .

ولما بلغ أولاد عبد المطلب عشرة وعرف أنهم سينمونه أخبرهم بنذرهم فأطاعوه وقالوا كيف نصنع ؟ قال يأخذ

(١) لم يعلم من أعمام رسول الله إلا حمزة والعباس ، وأسست عمته صفية لإجماع وهى أم الزبير بن العوام ، وعاشت كثيراً وتوفيت سنة عشرين فى خلافة عمر بن الخطاب ، ولها ثلاث وسبعون سنة .

(٢) الفتى : الولوع فى أمر شاق .

كل رجل منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه^(١) فقلوا وأتوه بالقدح ؛ فدخلوا على هبل في جوف الكعبة وكان أعظم أمتهم ؛ وهو على بئر يجمع فيه ما يهدى إلى الكعبة ؛ قال عبد المطلب لصاحب القدح اضرب على بئر هؤلاء بقداحهم هذه وأخبره بنذره الذي نذر ؛ وكان عبد الله أصغر إخوته وأحبهم إلى أبيه ؛ فلما أخذ صاحب القدح يضرب ؛ قام عبد المطلب يدعو الله تعالى ؛ ثم ضرب صاحب القدح فخرج قدح عبد الله ؛ فأخذ عبد المطلب بيده ثم أقبل إلى (إساف ونائلة) وهما الصنان اللذان ينحر الناس عندهما . فقامت قريش من أنديةها فقالوا ماذا تريد أن تصنع ؟ قال أذبحه ، قتلت قريش وبنوه : والله لا نلتك تذبحه أبداً حتى تمدر فيه ، ولئن قلت هذا لا يزال الرجل منا يأتي بابنه حتى يذبحه . فقال له الغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم : والله لا تذبحه حتى تمدر فيه فإن كان فداؤه بأموالنا فديناها . وقالت قريش وبنوه لا نلتك ، وانطلق إلى كاهنة بالحجر فسلها ، فإن أمرتك يذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بلاك وله فيه فرج قبلته . فانطلقوا حتى أتوها فحبر قصص عليها عبد المطلب خبره ، فقالت لم ارجعوا اليوم حتى يأتي نبي تأملي فأسأله ، فرجموا عنها ، ثم غلوا عليها فقالت : نعم قد جاءني الخبر فكم دية الرجل عنكم ؟ قالوا : عشرة من الإبل وكانت كذلك ، قالت ارجعوا إلى بلادكم وقرّبوا عشرة من الإبل واضربوا عليها وعليه بالقدح ، فإن خرج على صاحبكم فزيدوا في الإبل عشرة ثم اضربوا أيضاً حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فاتخروها فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى أتوا مكة ثم قرّبوا عبد الله وعشرة من الإبل فخرجت القدح على عبد الله ، فزادوا عشرة فخرجت القدح على عبد الله ، فاجروا يزيدون عشرة وتخرج القدح على عبد الله حتى بلغت الإبل مئة ثم ضربت فخرجت القدح على الإبل قال من حضر قد رضى ربك يا عبد المطلب . فقال عبد المطلب لا والله حتى أضرب ثلاث مرات فضربوا ثلاثاً فخرجت القدح على الإبل فنهزت . ثم تركت لا يعد عنها إنسان ولا سبع .

إن خروج القدح على عبد الله في كل مرة حتى بلغت الإبل مئة من غرائب الصدف ، ولولا معارضة قريش وبنيه ومشورة الكاهنة لأذهب عبد الله قرباناً لنذر عبد المطلب . ولكن شا- الله سبحانه وتعالى أن يحفظ أبا محمد حتى يظهر محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قد التجأ عبد المطلب إلى هذا النذر لما عارضه عدى بن نوفل بن عبد مناف في حفر زمزم وآذاه وقال له : « يا عبد المطلب أنت طيل علينا وأنت فذ لا ولد لك ؟ » قال « أبالغة تمرى ! فوالله لئن أتاني الله عشرة من الولد ذكوراً لأنخرن أحدهم عند الكعبة » وقيل سفه عليه وعلى ابنه ناس من قريش ونازعوه وقتلوا فاشتت بذلك بلواه وكان معه ولده الحارث ولم يكن له سواء ، فنفذ ذلك النذر الذي ذكرناه .

(١) القدح : هو السهم الذي لا نسل فيه .

انصرف عبدالمطلب بعد أن نحر الإبل آخذاً بيد ابنه عبدالله فر بهلى امرأة من بني أسد بن عبدالمزى بن قصو وهي عند الكعبة ، فقالت له حين نظرت إلى وجهه أين تذهب يا عبد الله ؟ قال مع أبي ، قالت لك مثل الإبل التي نحرمت منك وقع على الآن فأبى وقال إن معي أبى لا أستطيع خلاؤه ولا فراقه ، وكان عبد الله أحسن رجل رؤى في قريش ، وكان ذا عفة وسلمة . وكانت ولادة عبد الله نحو سنة ٥٤٥ م .

زواج عبد الله

خرج عبدالمطلب ببسبب الله يريد تزويجه حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد بني زهم سناً وشرافاً ، فزوجه ابنته آمنه بنت وهب^(١) وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضماً ، فحلت برسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل النور منه إليها ، ثم خرج من عندها فأتى المرأة التي عرضت عليه نفسها فقال « مالك لا تعرضين علي اليوم ما كنت عرضت علي بالأمس ؟ » فقالت له : فارقك النور الذي كان معك بالأمس . فليس لي بك اليوم حاجة^(٢) وقد كانت تسمع من أخيها ورقة بن نوفل - وكان قد تنصر واتبع الكتب - أنه كان لهذه الأمة نبي . وكان تزويج عبد الله من آمنه بعد حفر زمزم بمصر سنتين ، وكان اسم عبد الله عبد الدار ، فلما كان في السنة التي فدى فيها قال عبدالمطلب « هذا عبد الله » فسماه يومئذ كذلك .

وبعد زواج عبد الله بقليل خرج من مكة قاصداً الشام في تجارة وبعد أوجه منها ، نزل بالمدينة وهو مريض وبها أحواله من بني النجار ، فأقام عندهم شهراً وهو مريض وتوفي لشهرين من الحمل بابنه محمد صلى الله عليه . ودفن في دار النابتة^(٣) في الدار الصغرى إذا دخلت الدار على يسارك في البيت وله خمس وعشرون سنة ، وه هو المشهور . وقيل ثمان وعشرون سنة . وترك عبدالله جاريته أم أيمن بركة الحبشية ، وخسة جمال وقطعة من غنم وقد رثته آمنه بهذه الأبيات :

عفا جانبُ البطحاء من آل هاشم وجاور لحداً خارجاً في الناعم
دعته للنال دعوةً فأجابها وماتركتني الناس مثل ابن هاشم
عشيّة راحوا يحلون سريره تلوره أصحابه في الترام
فإن تلك غائته للبنون وريثها فقد كان ميطاء كثير الترام

إن آمنه وعبد الله لم يلبا غير رسول الله ولم يتزوج عبد الله غير آمنه ، ولم تتزوج آمنه غيره .

(١) تجميع آمنه من عبد الله في كلاب

(٢) لأن عمر عبد الله عليه السلام لم يكن ربية بل ليصتين الأمر الذي دعا إلى بطلان القدر الكثير من الإبل في مقابلة القدر على خلاف عادة النساء مع الرجال .

(٣) هو رجل من بني عدى بن النجار

أصحاب الفيل

من الحوادث المهمة التي وقعت عام مولده صلى الله عليه وسلم حوالى سنة ٥٧٠ م قدوم أبرهة الأشرم ملك اليمن إلى مكة لهدم الكعبة وهذه خلاصتها :

إن الحبشة ملكوا اليمن بعد حير فلما صار الملك إلى أبرهة بن الصنابع الأشرم ، بنى كنيسة عظيمة بصنماء إلى جنب عُمدان يقال لها القائس^(١) لم ير مثلها في زمانها بناها بالرغام وجيد الخشب الذهب وقصد أن يصرف حج العرب إليها ويبتلع الكعبة ، فلما تحدث العرب بذلك غضب رجل من النساء من بني ققيم بن عدى : ابن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة بن خزيمية بن مدركة بن إلياس بن مضر .

والنساء الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب في الجاهلية فيجعلون الشهر من الأشهر الحرم ويعزمون مكانه الشهر من الأشهر الحلال ويؤخرون ذلك الشهر ، فقيه أنزل الله تبارك وتعالى : **إِنَّمَا التَّحْيِيَةُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفَرِ يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُحْلُوهُ عَامًا وَيُخْرِمُوهُ عَامًا لِيُؤْاطِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ** قال ابن هشام ليؤاطنوا ليؤاقوا . وكان أول من نسا الشهر على العرب فأحلت منها ما حل وحرم منها ما حرم القلمس وهو حذيفة بن عبد الله بن ققيم ، وأول الأشهر الحرم « الحرم » . فخرج الكنانى حتى أتى القائس « الكنيسة » وتغوط فيها ليلاً ثم خرج فلحق بأرضه ، فلما أخبر بذلك أبرهة غضب وحلف ليسير إلى البيت حتى يهلمه (وسمى هذا العام بعام الفيل) فلما وصل إلى الطائف بعد أن هزم من تعرض له من العرب ، بث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود إلى مكة فساق أموال أهلها وأصاب فيها مائتي بعر لعبد المطلب بن هاشم وأحضرها إلى أبرهة ، وأرسل أبرهة حناطة الحيرى إلى مكة وقال له سل عن سيد أهل هذا البلد وشرقيهم ، فقال قتل لعبد المطلب قال له إن للابك يقول إنى لم آت لحربكم إنما جئت لهدم هذا البيت . فقال له عبد المطلب والله ما نريد حربيه ولا لنا بذلك طاقة . هذا بيت الله الحرام وبيت خليله إبراهيم فإن لم يمنعه منه فهو بيته وحرمة وإن يخل بيته ويذنه فوالله ما عندنا دفع عنه . ثم انطلق عبد المطلب مع رسول أبرهة إليه فلما استؤذن لعبد المطلب قالوا لأبرهة هذا سيد قريش فأذن له فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يخلصه تحته وكره أن تراه الحبشة معه على سريره فزول أبرهة عن سريره فجلس على بساطه وأجلس معه عليه إلى جنبه ، ثم قال له : حاجتك ؟ فذكر عبد المطلب أبا عره التي أخذت له ، فقال أبرهة : قد كنت أعجبني حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتك ،

(١) القائس كجيز متقى من قيس العذرة ، إذا ارتفع ، وقد خربت هذه الكنيسة في زمن السجاح أول خلاف بين البساس فإنه أمر عامله على اليمن فأخذ خشبها الرصم بالذهب والآلات المنقضة التي تساوى قناطر من الذهب ، لحمل له منها مال عظيم وحبثت عفا رسمها واطلع خبرها واندرست آثارها .

أنكلمني عن مائتي نسيم أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آباءك قد جئت لهدمه لا تكلمني فيه ؟ قال له عبد المطلب : أنا رب الإبل وإنك لبيت ربك سيئته ، فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل فأنصرف عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر وأمرهم بالخروج من مكة والتحيز بالجبال والشعاب تخوفاً عليهم مرة الجيش^(١) وقد كانوا أكثر من قريش عدداً . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجيشه . فقال عبد المطلب وهو أخذ بحلقة باب الكعبة :

لأهم إن العبد يـ نـح رحله فامنع حـلـاك^(٢)
لا ينـالـين صـليـهـم ومـحـالـم غـدوـاً محـالـك^(٣)
إن كـنت تـارـكـهـم وقـد لـمـنـا فأمـر مـا بـدا لك

فلما تهيأ أبرهة لدخول مكة وهياً فيه الأعظم (محمداً) وهو جمع على هدم البيت فكانوا كلما وجهوا القبيل إلى مكة برك ولم يبرح ، وإذا وجهوه إلى سائر الجهات قام يهرول . ويقال كان عدد القيلة في هذه اللقمة ثلاثة عشر فيلاً . وبيناهم كذلك أرسل الله عليهم طيراً أبابيل من البحر^(٤) أمثال الخطاطيف مع كل طائر ثلاثة أحجار ، واحد في منقاره واثنتان في رجليه فتذقهم بها وهي مثل الحصص والندس لا تصيب أحداً منهم إلا هلك . وليس كلهم أصاب . ثم أرسل الله تعالى سيلاً فألقاهم في البحر والذي سلم منهم ولي هارباً مع أبرهة إلى اليمن بيندر الطريق وأصيب أبرهة بمساقط أعضائه وخرجوا به معهم تتساقط أعضاؤه حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر في يات حتى انصدع صدره عن قلبه . وقيل أول ما رؤيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام . ولما مات أبرهة ، ملك مكانه ابنه يكسوم سنة ٥٧١ م .

ونظراً لأهمية هذا الحادث صار العرب يؤرخون به ؛ إذ لو تغلب أبرهة على قريش وتم له هدم الكعبة لأدخلت الديانة المسيحية مكة وأرغم العرب على اعتناقها ؛ لأن اليمن كانت تابعة لأمراء الحبشة المسيحيين وأرغم كثير من أهلها سواء من عباد الأصنام أو اليهود على اعتناق المسيحية وكانت قريش تؤرخ السنين بموت قصي بن كلاب لجلالة قصي . فلما كان عام القبيل أُرخت به .

وقد ذكرت حادثة القبيل في القرآن قال تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ

(١) مرة الجيش : عدته .

(٢) لا يم أصله « اللهم » فإن العرب تحذف الألف واللام وتكتفي بما يلي . والحلال - بكسر الحاء - جمع حلة وهي جماعة البيوت . والحلال - يفتح الحاء - خلاف الحرام .

(٣) الحلال : القوة والعبية . والندو أصله الند .

(٤) الأبابل : الجماعات ، ولم يتكلم لها العرب بواحد ، قال بعضهم واحده ليل ولإبول .

كَثِيرُهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَائِرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَصَفِ
مَا كُولٍ » .

يخبر الله تعالى رسوله بما حدث لأصحاب القيل أى الجيش الذى سار لهدم الكعبة ، ومعهم القيل وما كان من
انهزامهم بما سلطه الله عليهم من جماعات الطير ترمى المدو بحجارة من سجيل . وتفسير السجيل ، طين يابس
أو متحجر . وورد ذكر السجيل أيضا فى القرآن فى سورة الحجر ، قال تعالى : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ
سِجِّيلٍ » أى على قوم لوط . وقال فى سورة هود « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنضُودٍ » .

وقد أخطأ من فسره باليكروب . لأن اللفظ لا يفيد ذلك فى اللغة . وقد فتكت هذه الأحجار الصغيرة
بالجيش الهاجم فساد موزوما من غير أن يبلغ مأربه . وجعلهم كصف ما كُول أى كورق زرع تأكله الدواب .
فلما أصيبوا بهذه الحجارة تساقطت لحومهم فإن قيل : كيف يتصور أن هذه الحجارة الصغيرة فتكت
بالجيش ؟ فهذه قدرة الله سبحانه وتعالى ، وقد كان قادراً على أن يهزمهم ويردهم من غير أن يسلط عليهم الطير
ولكنه جعل ذلك سبباً .

وبانهزام الحبشة كما تقدم حفظ الله بيته الحرام من أن يهدم ، وقد صار فيما بعد قبة المسلمين فى جميع
أقطار الأرض .

مولده

صلى الله عليه وسلم

٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠ م

ولد النبي صلى الله عليه وسلم فى فجر يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة مضت من ربيع الأول ٣٠ أغسطس
سنة ٥٧٠ م (وأهل مكة يزورون موضع مولده فى هذا الوقت) فى عام القيل . ولأربعين سنة خلت من حكم
كسرى أنوشروان خسرو بن قباديزنبروز بمكة^(١) فى المكان المعروف بسوق الليل فى اليلاب التى صارت تسمى بدار
محمد بن يوسف التقي أخى الحجاج بن يوسف وأدخل ذلك البيت فى الدار حتى أخرجه الخيزران أم الهادى
والرشيد لمحمد مسجداً يصلى فيه وكانت قبل ذلك لعقيل بن أبى طالب . ونزل على يد الشفاء أم عبد الرحمن بن عوف
ففى قابلته ، رافقاً بصره إلى البهاواضاً يده بالأرض وكانت أمه تحدث أنها لم تجد حين حملت به ما تجد الحوامل من

(١) كان علماء الجغرافيا من الإغريق يلقون على اسم مكة ما كورابا Makoraba

قتل ولا وح ولا غير ذلك . ولما ولدته أمه عليه الصلاة والسلام أرسلت إلى جده وكان يطوف بالبيت تلك الليلة فجاء إليها فقالت له يا أبا الحارث ولد لك مولود عجيب . فذعر عبد المطلب وقال أليس بشراً سوياً ؟ قالت نعم ولكن سقط ساجداً ثم رفع رأسه وأصبعه إلى السماء فأخرجته ونظر إليه وأخذه ودخل به الكعبة وعوّذه ودعا له ثم خرج ودفنه إليها . وهو الذي سماه محمداً . فقيل كيف سميت بهذا الاسم وليس لأحد من آبائك ؟ قال إنني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلها . وكانت تلك السنة التي حل فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم سنة الفتي والابتهاج فإن قريشا كانت قبل ذلك في جذب وضيق عظيم فآخضرت الأرض وحملت الأشجار وأنعم الرغد في تلك السنة . ومن عجيب ما وقع عند ولادته ماروى من ارتجاج إيوان كسرى وسقوط أربع عشرة شرفة من شرفها وذلك إشارة إلى أنه لم يبق من ملوكهم المستبدين بالملك إلا أربعة عشر ملكاً . فهلك عشرة في أربع سنين وهلك أربعة إلى زمن عثمان رضى الله عنه . وغضب بحيرة طبرية بفلسطين^(١) إشارة إلى أنه يحصل لأصحابها بأمر شديد ، وخود نارفارس وكان على ما يقال لها ألف عام لم تحمد كما رواه البيهقي وأبو نعيم والخراطي في المواقف وابن عساکر . ومن ذلك أيضاً ما وقع من زيادة حراسة السماء بالشهب وقطع رصد الشياطين ومنعهم من استراق السمع . ولقد أحسن الشتراطيسى حيث قال :

ضاعت لمولدم الآفاق واتصلت شرى المواقف في الإشراف والطفل^(٢)
وصرح كسرى تدعى من قواعده واقض منكر الأجزاء ذاميل
ونارفارس لم تود وما خمدت مذ ألف عام ونهر القوم لم يسلم
خرت لمبعثه الأوثان وانبعث ثواقب الشهب ترى الجن بالشهب

وينسب بعضهم ذلك إلى أنه حدث في ذلك الوقت زلزال عظيم . قال البيهقي في تاريخه : « وأصاب الناس زلزلة عمت جميع الدنيا » الخ . ويروى أن الرشيد أراد هدم إيوان كسرى فقال له وزيره يحيى بن خالبرهكي : يا أمير المؤمنين ، لا تهتم ببناء هو آية الإسلام . وقال البوصيرى في الحمزية :

وتدعى إيوان كسرى ولولا آية منك ما تدعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كان لنيرانهم بها إطفاء

وفي سابع يوم من ولادته صلى الله عليه وسلم عَقَّ^(٣) عنه جده بكبش .

(١) بحيث صارت بابية

(٢) المواقف : جمع ماقف وهو ما يسمع صوته ولا يرى شخصه

(٣) يقال عقر عن ابنه : أى ذبح عنه شاة .

الاحتمال بمولده

صلى الله عليه وسلم

قال الإمام أبو شامة شيخ النووي : ومن أحسن ما ابتدع في زماننا ما يفعل كل عام في اليوم الموافق ليوم مولده صلى الله عليه وسلم من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسرور ، فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان للقراء ، مشعر بمحبة النبي صلى الله عليه وسلم وتمظيمه في قلب فاعل ذلك وشكر الله تعالى على ما من به من إجماع رسوله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله رحمة للعالمين .

قال السخاوى : إن عمل الولد حدث بعد القرون الثلاثة ثم ما زال أهل الإسلام في سائر الأقطار وللدن الكبار يعملون الولد ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عظيم . وقال ابن الجوزى : من خواصه أنه أمان في ذلك الدماء وبشرى عاجلة بنيل البقية والبرام . وأول من أحدثه من الملوك ، الملك المنصور أبو سعيد صاحب إربل ، وألف له الحافظ بن دحية تأليفاً أسماه « التنوير في مولد البشير النذير » فأجازه الملك المنصور بألف دينار . وصنع الملك المنصور الولد وكان يصعله في ربيع الأول ويحتفل به احتفالاً هائلاً ، وكان شهماً شجاعاً بطالاً عادلاً . وقيل إنه كان يصرف على الولد ثلاثمائة ألف دينار .

وكان السلطان أبو حو موسى صاحب تلسان يحتفل ليلة الولد غاية الاحتفال كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله . ومن احتفاله له ما حكاه الحافظ سيدى أبو عبد الله التميمي ، ثم التلساني في كتابه « راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حو من الشعر وقيل فيه من الأمداح » وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح ونصه . إنه كان يقيم ليلة الميلاد النبوى على صاحبه الصلاة والسلام بمشورة من تلسان الجروسة مدعاة حفلة يحضر فيها الناس خاصة وعامة فاشتت من تمارق مصفوفة وزراى مبنوثة ، وبسط موشاة ووسائد بالذهب مفشاة ، وشمع كالأسطوانات وموائد كالملاط ، ومباخر منصوبة كالتباب يخالها المبصر تيراً مذاباً ، ويفاض على الجميع أنواع الأظفمة كأنها أزهار الربيع المنمنمة ، فتشميها الأنف وتستلذها النواظر ويخالط حسن رباها الأرواح ويخامر رب الناس فيها على مراتبهم ترتيب احتفال وقد علت الجميع أبهة الوفا والإجلال . ويبقى ذلك يحتفل المستمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومفكرات ترغب في الإقلاع عن الآثام يخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ويأتون من ذلك بما تقارب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب ، ويأقرب من السلطان رضوان الله تعالى عليه خزنة المنجاة قد خرفت كأنها حلة يمانية لها أبواب موحجة على عدد ساعات الليل الزمانية فها مضت ساعة وقم انقر بقدر حسابها وفتح عند ذلك باب من أبوابها وبرزت منه جارية صورت في أحسن صورة ،

في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة فتضعها بين يدي السالمان بلطافة ويسراه على فيها كالنؤدية بالبابية حق الخلافة . هكذا حالم إلى انبلاج عهود الصباح ونداء المنادى حتى على الفلاح . انتهى .

وفي زماننا هذا يحتفل المسلمون بيوم مولده صلى الله عليه وسلم في جميع الأمم الإسلامية . وفي القطر المصري تنلى الأذكار وتوزع الصدقات على الفقراء والاحتاجين . وفي القاهرة يتحرك موكب أرباب الطرق بعد الظهيرة أمام المحافظة ويسير قاصداً ميدان الاحتفال بالعباسية مجتازاً شوارع تحت الربيع فالسكينة فالنورية فيدان الإثرائية فالقهامين فالحسينية فالعباسية ويشدد الإحام في هذه الشوارع ويتقدم الموكب كوكبة من فرسان رجال الشرط وتحف به من الجانبين قوة من رجال الجيش . وقد جرت عادة الحكومة أن تحتفل بهذا اليوم المبارك احتفالاً رسمياً في العباسية حيث تقام سرادقات للوزارات ويتوجه جلالة الملك أو نائبه إلى مكان الاحتفال وهناك يستعرض الحاميا المصرية على أثر وصوله . ثم ينتقل إلى السراشق ويستقبل رجال الطرق الصوفية بأعلامهم وبعدئذ يقصد سرادق شيخ مشايخ الطرق الصوفية فيستمع لتلاوة القصة النبوية وبعد سماعها يتلخ على تاليها الخلمة الملكية وتدار الرطببات والحلوى على الحاضرين ثم ينصرف بعد ذلك بموكبه الحافل أثناء قصف المدافع . وفي المساء تزار الزينات القائمة على السراشق وتطلق الأبواب النارية البديعة ، وفي الصباح تطل الحكومة وزاراتها ومصالحها وتتل القصة النبوية الشريفة في الشهد الحسيني بحضور محافظ مصر . وقد أبطلت بدع كثيرة بفضل عناية رجال الدين وبقظة رجال الإدارة .

هذا ولا نزل نطالب ولاء الأمور بمنع كل ما يخالف الدين من آثام وما يجري في الموالد عادة لأن ذلك يشوّه محاسن الإسلام ويقصد المقاصد الشريفة من إقامة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أسماءه

صلى الله عليه وسلم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لي أسماء : أنا محمد وأنا أحمد وأنا المسمى الذي يحبو الله في الكدر . وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي . وأنا العاقب (والعاقب الذي ليس بعده نبي) وقال : « أنا محمد . وأنا أحمد . وأنا نبي الرحمة ونبي التوبة . وأنا الملقى وأنا الحاشر وأنا نبي الملامح » وفي التهذيب سَمَّاهُ الله عز وجل في القرآن رسولاً ، نبياً أمياً ، شاهداً ، مبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله إذا نهت عن سراجاً منيراً . وروفاً رحماً . وجعله رحمة ونعمة وهداياً صلى الله عليه وسلم . ومن أسمائه الفاتح . وطه . ويس . وعبد الله وخاتم الأنبياء والمختار . وكنيته أبو القاسم وكناه جبريل « أبا إبراهيم » .

مرضعاته

صلى الله عليه وسلم

أرضعته صلى الله عليه وسلم من النساء ثمان وقل أكثر ، أولاهن أمه آمنة ثم ثوبية الأسلمية جارية عمه أبي لهب التي أعنتها حين بشرته بولادته أياماً قبل قدوم حليلة . وخولة بنت النضر وأم أيمن . وامرأة سمعية غير حليلة ، وثلاث نسوة من العواتك .

وأكثرهن إرضاعاً له حليلة بنت أبي ذؤيب السمعية وتكنى أم كبشة . وكان من عادة العرب إذ ولد لمولود أن ياتمسوا له مرضعة من غير قبيباتهم ليكون أنجب للولد وأفصح له . فباتت نسوة من بني سعد إلى مكة ياتمن الرضماء ومعهن حليلة السمعية في سنة شديدة القحط . فكل امرأة أخذت رضيعاً إلا حليلة وقد كانت تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها - الحارث بن عبد العزى - وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد ابن بكر ياتمن الرضماء . قالت : وهى سنة شهباء^(١) لم تبق لنا شيئاً ، فخرجت على أنان لي قراء^(٢) معنا مشارف^(٣) لنا والله ما تبض^(٤) بقطرة وما تنام ليلنا من صبينا^(٥) الذى معنا من بكائه من الجوع . ما في ثديي ما يفيقه وما في شارفنا ما يفيقه ولكننا كنا نرجو النيث والفرج . فخرجت على أناني تلك فلقد أدمت^(٦) بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجزاً^(٧) حتى قلعتنا مكة تاتمن الرضماء فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يقيم وذلك أنا إنما كنا نرجو العروف من أبي الصبي فكنا نقول يقيم وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟ فكنا نسكره لتلك فابقيت امرأة قلعت معي إلا أخذت رضيعاً قلت لزوجي والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلا خذه . فقال لا بأس عليك أن تغلى عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة . فذهبت إليه فأخذه وما حانى على أخذه إلا أنى لم أجده غيره ، فلما أخذه رجعت به إلى رحلي فلما وضعت في حجرى أقبل على ثديي بما شاء من لبن فشرب حتى روى وشرب معه أخوه حتى روى ثم تأما وما كنا ننام منه قبل ذلك ، وقام زوجي إلى شارفنا فإذا إنها لحافل^(٨) غلب منها ما شرب وشربت معه حتى انتهينا ربياً فبتنا بغير ليلة ، وقال صاحبي حين أصبحنا ، تغلى والله ياحليلة لقد أخذت نسمة مباركة قلت والله إنى لأرجو ذلك ، ثم خرجنا وركبت أناني وحملته عليها معي فو الله لقطعت بالركب . ألا يقدر عليه شيء من محرّم حتى إن صواحبي ليقان لي

(١) سنة شهباء يعنى سنة الجذب والقسط لأن الأرض تكون فيها يضاء (٢) على أنان لي قراء ، الأني من المجر ، والغصبي النى لو نهاياض (٣) المشارف - بضم الميم - . الناقة المسنة (٤) ما تبض معناه لا ترضع (٥) اسم هذا الصبي عبد الله بن الحارث وهو أخو رسول الله من الرضاعة وأخواته غيره أنيسة بنت الحارث وجذامة بنت الحارث وهى الشهباء غلب ذلك على اسمها فلا تعرف في قومها إلا به وبم الحليلة (٦) أدمت بالركب أى أطالت عليهم المسافة لتبهاهم عليها ، مأخوذ من الثنى الذى أدام (٧) العجب - بفتح العين والجيم - الهزال . (٨) الحائل : المثلثة الضرع من اللبن .

يا ابنة أبي ذؤيب ويحك اربى علينا^(١) أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لمن بلى والله إنما لم يبقن والله إلى لما شأنا . ثم قدمنا منازلنا في بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها فسكانت غنى تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً فنحلب ونشرب وما نحلب إنسان قطارة لبن ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب فتروح أغنامهم جباعاً وما تبض بقارة لبن وتروح غنى شباعاً لبناً فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً^(٢) قدمنا به على أمه ونحن أحرص شيء على مكثه فيها لما كنا نرى من بركته فلم نزل بها حتى رده معنا .

شق الصدر

قالت حليلة فرجنا فوالله إنه بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه لني بهم لنا^(٣) خاف بيوتنا إذا أتاننا أخوه يشتد فقال لي ولأبيه ذاك أجنى الترضي قد أخذ رجلاً علينا ثياب بيض فأضجناه فشقا بطنه فهما يسوطانه^(٤) قالت ففرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقماً وجهه^(٥) فالتزمته والتزمه أبوه فأتانا له مالك يابني؟ قال جاء في رجلان عليهم ثياب بيض فأضجنا وشقا بطني فالتسما فيه شيئاً لأدرى ما هو؟

قالت فرجعنا إلى خباتنا وقال لي أبوه يا حليلة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فأخفيه بأهله قبل أن يظهر ذلك به . فاحتبنااه فقدمنا به على أمه . قالت ما أقدمك به يا ذئير^(٦) وقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك؟ قلت قد بلغ الله يابني وقضيت الذي عليّ وتخوفت الأحداث عليه فأدبته إليك كاتحين . قالت ما هذا شأنه فاصدقني خبرك قالت فلم تدعني حتى أخبرتها . قالت أفتخوفت عليه الشيطان؟ قلت نعم . قالت كلا والله لا لا شيطاناً عليه من سبيل ، وإن لا بني لشأناً أفلا أخبرك خبره؟ قلت بلى . قالت رأيت حين حلت به أنه خرج مني نور أض لي به قصور بُصرى^(٧) من أرض الشام ، ثم حلت به فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف ولا أيسر منه ووزا حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء . دعبه عنك وانطاني راشدة كان أول ماشق صدره عا الصلاة والسلام في السنة الثالثة من عمره وقيل في الرابعة وذلك لتعاطيه وإخراج حظ الشيطان منه . وشق صدره صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء كما رواه البخاري . ويقول مؤرخو الافرنج ومنهم

(١) اربى علينا أي اصطنع علينا بالرفق وعدم العدة في السير .

(٢) شق كان غلاماً جفراً أي غليظاً شديداً .

(٣) اللهم افتح الباء : الصغار من الفم واحسبها مهمة (٤) فهما يسوطانه . يقال سطل اللبن والدسم وغيرها أسوطه إذا ضربت بها بيض وحركته . واسم العمود الذي يضرب به الميوط (٥) منتقماً وجهه : أي متغيراً (٦) يا ذئير . أصل الذئير الناقة التي تصط (٧) بُصرى — بضم الباء — مدينة من أرض الشام

الأستاذ نيكولسون في كتابه تاريخ أدب العرب صفحة (١٤٧ - ١٤٨) طبعة ١٩٠٧ وكذا الأستاذ مور في كتابه « حياة محمد » إن هذه نوبة صرعية ، وهذا مردود لأنه لم تشهد فيه علامات الصرع طول عمره .
وإلى قصة إرضاعه صلى الله عليه وسلم ينشر صاحب الحمزية حيث يقول :

وبدت في رضاعه معجزات ليس فيها عن العيون خفاء
إذ أبتمه ليطمه مرضعات قان ما في اليتيم عنا غناء
فأتمته من آل سعد فسات قد أبتمها لقرها الرضعا
أرضعته لبائها فستبها وبينها ألبائهن الشفاء
أصبحت شولا عجافاً وأمت ما بها شائل ولا عجاف
أخصب العيش عندها بندهل إذ غدا للنبى منها غداء
يا لها منه لقد ضوعف الأج ر عليها من جنبها والجزاء
وإذا سخر الإله أناساً لسعيد فإلهم سمداء

الحض على قتله صغيراً

وكانت حليلة كلما من جماعة من اليهود وحدثهم بشأنه صلى الله عليه وسلم ، حضوا على قتله وكلا عرضته على المرافيق في الأسواق ، صاحوا بقتله وكانوا يقولون اقتلوا هذا الصبي فليقتل أهل دينكم وليكسرن أصنامكم وليظهروا أمره عليكم . وعن حليلة رضى الله عنها أنه مر بها جماعة من اليهود فقالت ألا يتحدثون عن ابنى هذا حملته أمه كذا ووضعته كذا ورأت عند ولادته كذا وذكرته لهم كل ما سمعته من أمه وكل ما رأت أنه هو بعد أن أخذته وأسندت الجميع إلى نفسها كأنها هي التي حملته ووضعته . قال أولئك اليهود بعضهم لبعض اقتلوه فقالوا أو يتيم هو ؟ قالت لا . هذا أبوه وأنا أمه . فقالوا لو كان يتيماً قتلناه لأن ذلك عندهم من علامات نبوته . وعن حليلة أيضاً رضى الله عنها أنها نزلت به صلى الله عليه وسلم بسوق عكاظ وكان سوقاً للجاهلية بين العائفة ونخلة ، أهل المروء ، كانت العرب إذا قصدت الحج أقامت بهذا السوق شهر شوال يتفاحرون ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشتررون . فلما وصلت به حليلة سوق عكاظ رآه كاهن من الكهان قال : يا أهل عكاظ اقتلوا هذا الغلام فإن له ملكاً فإت به وحادث عن الطريق فأنجاه الله .
وقد رأت حليلة السعدية من النبي صلى الله عليه وسلم الخير والبركة وأسندها الله بالإسلام هي وزوجها وبنوها .

وفاة أمينة

بعد أن ردت حلينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خرجت به أمه مرة إلى المدينة سنة ٥٧٥ - ٥٧٦ م لزيارة أخواله من بني النجار أى أحوال جده عبد المطلب فرضت وهي راجعة به وماتت ودفنت بالأبواء بين مكة والمدينة وعمره ست سنين وكان عمر أمينة حين وفاتها ثلاثين سنة .

وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زار قبر أمه بالأبواء في ألف مَنَعَفٍ فبكى وبكى أى في ألف فارس مغطى بالسلاح .

لخصته أم أيمن بركة الحبشية التي ورثها من أبيه^(١) وحملته إلى جده عبد المطلب بن هاشم الذي كان يحبه ويكرمه فقد كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه لا يجلس عليه أحد من بنيه لإجلال له فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام حتى يجلس عليه فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه . فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم :

« دعوا ابني فوالله إن له لساناً » .

ثم يجلسه معه عليه ويمسح ظهره بيده ويسره ما يراه يصنع .

وبوفاة أمه صار يتيماً وقد أشير إلى يسه في القرآن قال تعالى : (أَلَمْ يَجْعَلْ يَتِيمًا قَاوِي) وفي السنة التي استقل جده صلى الله عليه وسلم فيها بكفالاته رمد الرسول رمداً شديداً .

عبد المطلب

يهي سيف بن ذي يزن

لما ظهر سيف بن ذي يزن الحميري بالحبشة وذلك بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم أتهو فود العرب وأشرفا وكان من جلته وفد قریش وفهم عبد المطلب بن هاشم جد النبي صلى الله عليه وسلم وأمية بن عبد شمس وأسد ابن عبد العزى وعبد الله بن جُدعان قدما عليهما وهو في قصر يقال له عُمدان - بضم النين - فطلبوا الإذن . عليه فأذن لهم وتكلم عبد المطلب مهتماً . ولما فرغ أدناه وقربه ثم استنهضوا إلى دار الضيافة فقاموا ببابه شهراً لا يصلون إليه ولا يؤذن لهم في الانصراف . ثم اتبعه إليهم انتباهة فدعا بعبد المطلب من بينهم فغلا به وأدى مجلسه وقال^(٢) :

(١) أسلمت أم أيمن قديماً أول ظهور الإسلام وهاجرت إلى الحبشة وإلى المدينة وبايعت رسول الله وكان عليه السلام يقول : « أم أيمن أي بعد أمي » وكان يزورها في بيتها . ولما بعث رسول الله بكت ، قيل لها ما يبكيك على رسول الله ؟ فقالت إني علمت أن النبي صلى الله عليه وسلم سيبت ولكن أبكى على الوحي الذي رفع عنا .

(٢) راجع الجزء الأول من القدر الفريد لابن عبد ربه والجزء الأول من تاريخ ابن عساكر .

يا عبد المطلب إني مفوض إليك من علي أمراً لو غيرك كان لم أبح له به ولكنني رأيتك معدته فأطعته عليك
فليكن مصوناً حتى يأذن الله فيه فإن الله بالغ أمره . إني أجد في العلم الخزون والكتاب المسكون الذي
ادخرناه لأفئتنا واحتجبتناه دون غيرنا خبراً عظيماً وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة وفضيلة الوفاة للناس كافة ولرهطك
علامة ولنفسك خاصة » .

قال عبد المطلب :

« مثلك يا أيها الملك بر ، وسر ، وبشر ، ما هو ؟ فذاك أهل البر زمرأ بعد زمر » .

قال ابن ذي يزن :

« إذا ولد حموود بتهامة^(١) . بين كنفه شامة . كانت له الإمامة . إلى يوم القيامة »

قال عبد المطلب :

« أبيت اللعن لقد أثبت بخير ما آت به أحد ففولا لإجلال الملك لسانته عما ساره إلى ما ازداد به سروراً »

قال ابن ذي يزن :

« هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد . يموت أبوه وأمه . ويكفله جده وعمه وقد وجدناه مراراً والله باعته
جهلاً ، وجاعل له منا أنصاراً يميز بهم أولياده . ويذل بهم أعداءه . ويفتح كرائم الأرض . ويضرب بهم الناس
عن عرض . يخد الأديان . ويكسر الأوثان ويعبد الرحمن . قوله حكم وفصل . وأمره حزم وعدل يأمر بالعرف
ويقعله . وينهى عن النكر ويبطله » .

قال عبد المطلب :

« طلال عرك . ودام ملكك . وعلا جلدك . وعز نورك . فهل الملك يسرى بأن يوضح فيه بعض

الإيضاح ؟ »

قال ابن ذي يزن :

« والبيت ذي الطنب . والعلاجات والنصب . إنك يا عبد المطلب لجدد من غير كذب » .

نفر عبد المطلب ساجداً . وقال ابن ذي يزن :

« ارفع رأسك . تلج صدرك . وعلا أمرك . فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك ؟ »

قال عبد المطلب :

« أيها الملك . كان لي ابن كنت له محباً وعليه حديثاً مشفقاً . فزوجته بكريمة من كرائم قومه . يقال لها آمنة

(١) تهامة بالسكسر سميت تهامة لعدة أجيال وركود ريمها ، من الهم وهو شدة الحر . يحدها بحر القنوم غرباً والحيجاز
شمالاً واليمن جنوباً .

بنت وهب بن عبد مناف . فقامت بنلام بين كتفيه شامة فيه كل ما ذكرت من علامة ، مات أبوه وأمه وكفله أنا وعمه .

قال ابن ذى رزن :

« إن الذى قلت لك كإقت . فاحفظ ابنتك واحذر اليهود فإنهم له أعداء ولن يجعل الله لهم عليه سبيلا . اطلو ما ذكرت لك دون هؤلاء الرهط الذين معك فإنى لست آمن أن تدخلهم النفاسة من أن تكون لكم الرئاسة . فينبون لك العوائل وينصبون لك الحياثل وهم فاعلون وأبناءؤهم ، ولولا أنى أعلم أن اللوت يجتاحى قبل مبعثه لسرت بخيلى ورجلى حتى أصير يثرب دار مهاجرة . فإنى أجد فى الكتاب الناطق والعلم السابق أن يثرب دار هجرته ، وبيت نصرته ، ولولا أنى أقيه الآفات ، وأحذر عليه المعاهد لأعلنت على حداثة سنه وأوطأت أقدام العرب عقبه ولكنى صارف إليك ذلك عن تقصير منى بمن معك . »

ثم أسمر لكل رجل منهم بشرة أعبد وعشر إماء سود وخمسة أرطال فضة وحتلين من حلل اليمن وكرش مملوءة عتيراً ، وأسمر لعبد المطلب بشرة أضاعف ذلك وقال :

« إذا حال الحول فأبشئ بما يكون من أمره . »

فأحال الحول حتى مات ابن ذى رزن . فكان عبد المطلب بن هاشم يقول « يامعشر قريش لا ينفطى رجل منكم يجزىل عطاء الملك فإنه إلى بغداد ولكن ينفطى بما يبقى لى ذكره وغره ولعتقى . » فإذا قالوا له وما ذاك قال سيظهر بعد حين اه .

وفى أسد الغابة أن سيف بن ذى رزن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره جده عبد المطلب بنو محمد صلى الله عليه وسلم .

كأنت العين نائمة للعبشة فكره أهلها حكمهم ونهض سيف بن ذى رزن لا سترداد عرش آباءه فسمى لدى الإمبراطورية الرومانية لشدة أزره فلم يفلح فالتجأ إلى ملك الفرس فأمدته بجيش فخارب الحبشة وانتصر عليها وقتل واليها الذى كان يدعى مسروقاً وذلك حوالى سنة ٥٧٥ م ويوافق العام الذى توفيت فيه أمنة أم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فليس هناك اعتراض على ذهاب الوفود العربية لتهنئة ابن ذى رزن من الوجهة التاريخية . أضف إلى ذلك أن الواجب يقضى على رؤساء العرب بذلك قرابتهم وجوارهم واشترائك مصالحهم التجارية لأنهم كانوا يرحلون إلى اليمن للتجارة فى الشتاء كما كانوا يرحلون إلى الشام صيفاً .

وقد اعترض الأستاذ « فيل » Wel على صحة القصة المتقدمة من الوجهة التاريخية وفيما شرحه الأستاذ « برسيغال » M.C. de perceval رد على اعتراضه لأنه أثبت انهزام الحبشة لأول مرة فى سنة ٥٧٥ م وإن كانت لم تطلد نهائياً من اليمن إلا سنة ٥٩٧ م . أما الأستاذ موير فإنه لم يستطع تكذيب ذهاب الوفود ومعهم

عبد المطلب (الذى كان وقتئذ حاكم مكة) تكذيباً بأننا بل قال إن القصة تشمل مبالغت كثيرة فيما يتعلق بالإخبار عن النبي المنتظر وهذا ما جله يرتاب فيها . على أن المتبع للسيرة النبوية يجد أن هذه القصة ليست فريدة في بابها من حيث الإخبار برسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن ما أخبر به بييت عبد المطلب قاله بغيره لأبي طالب وعرفه سلمان الفارسي وأذاعه أخبار اليهود مما سننى بذكره مفصلاً في كتابنا هذا إن شاء الله تعالى .

ولعل ما أخبر به ابن ذى رزن عبد المطلب كان من الأسباب التي جعلت عبد المطلب يكرم النبي صلى الله عليه وسلم ويقول لأولاده إذا نموا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مجلسه لصفه : (دعوا ابني فوالله إن له لشأناً) .

إن الطفل الصغير ، ذا المستقبل العظيم ، تظهر عليه آيات العظمة والذكاء منذ نموه أطفاله . ويكون له جاذبية خاصة تميزه عن سائر الأطفال بل تميزه عن إخوته إذا كان له إخوة . ويكون محبوباً مفضلاً على غيره أنها حل . وهذا هو شأن عظماء الرجال كما تلونا من سيرهم .

فكان عبد المطلب ، جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يرعاه رعاية خاصة ويؤثره على أولاده بسبب تلك الجاذبية والعظمة الكامنة فيه منذ الصغر . وهذه العظمة كانت تزاد وصوحاً كلما ترعرع وكبر . وقد ثبت بما رواه الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له جاذبية غريبة فكانوا يجلبونه بحبة فائق ولا يخافون له أمراً .

إن عبد المطلب لم يكن يعلم أن محمداً ، ذلك الطفل الصغير ، سيكون رسول الله ، لكنه كان يشعر في قرارة نفسه بتلك الجاذبية التي لازمته طول مدة حياته وتلك العظمة الكامنة فيه . وهذا هو السر في محبته وشدة رعايته له ولا سيما أن عبد المطلب كان رجلاً عظيماً جليلاً ذا فطنة وفراسة فكان يقول لأولاده (دعوا ابني فوالله إن له لشأناً) .

- ٣٠ -

وفاة جده عبد المطلب

سنة ٥٧٨ م

وكفالة عمه أبي طالب

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى سنوات توفي جده عبد المطلب بمكة سنة ٥٧٨ م بعد عام الفيل بثمانى سنين وله عشر ومائة سنة . وقيل أكثر من ذلك وكان رسول الله يبكى خاف سريره ودفن بالحجون، جبيل يأطى مكة عنده مدافن أهلها عند قبر جده قصى . ولما حضرته الوفاة أوصى به إلى عمه شقيق أبيه « أبي طالب » واسمه عبد مناف وعبد الكعبة وكان كريماً لكنه كان قديراً كثير الأولاد . وكان يرى منه صلى الله عليه وسلم الخير والبركة ويحبه حباً شديداً ولذا لا ينأى إلا إلى جنبه ويخرج به متى خرج . وأوصى عبد المطلب إلى أبي طالب أيضاً بسقاية زمزم وإلى ابنه الزبير بالحكومة وأمر الكعبة .

وفى هذه السنة مات حاتم الطائي وكسرى أنو شروان .

وقد أخرج ابن عساکر عن جلهمة بن عرفطة قال :

قدمت مكة وهم فى قحط فقاتل قريش : يا أبا طالب أقطع الوادى وأجذب فهم فاستسقى فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دحى تجلت عنه سحابة قماء حوله أغيلة (جمع غلام مصغر) فأخذته أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولأذ الغلام بأصبعه (أشار بأصبعه إلى السماء كالمتضرع المتجنى) وما فى السماء قزعة (قطعة من سحاب) فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا وأغلق وأغدودق (كثر مطره) وانفجر الوادى وأخصب الزادى وفى ذلك يقول أبو طالب مادحاً النبي صلى الله عليه وسلم :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى نعمة وفراول

(الثال) بكسر المثلثة للملجأ والغيث وقيل المظم فى الشدة . (عصمة للأرامل) أى يمتنعهم من الضياع والحاجة .

هذان بيتان من قصيدة طويلة لأبى طالب^(١) . وقد شاهد أبو طالب هذا الاستسقاء فنظم هذه القصيدة وقد شاهده مرة أخرى قبل هذه ، فروى الخطاطين حديثاً فيه أن قريشاً تناهت عليهم سنو جذب فى حياة عبد المطلب فارتقى هو ومن حضره من قريش أبى قيس (بالتصغير اسم الجبل المشرف على مكة) فقام عبد المطلب واعتضده

(١) ذكر القصيدة ابن إسحاق وهى أكثر من ثمانين بيتاً .

صلى الله عليه وسلم فرضه على عاتقه وهو يومئذ غلام قال أبلغ أو قرب ثم دعا فسقروا في الحال قد شاهد أبو طالب مادلّه على ما قال أعنى قوله :

« وأبيض يستسقى الغمام بوجهه »

وكان الاستسقاء في الجاهلية الأولى بخلاف هذه الطريقة فكانوا إذا تتابعت عليهم الأزمان واشتد الجذب واحتاجوا إلى الأمطار يجمعون بقرًا. معلقة في أذنانها وعراقيبها السلق والعُشر^(١) ويصعدون بها إلى جبل وعمر يشعلون فيها النار ويفرقون بينها وبين أولادها ويسوقون البقر إلى ناحية المغرب دون سائر الجهات وتسمى هذه الناز التي يشعلونها نار استطار قال ابن أبي الحديد وإنما ضرموا النيران في أذنان البقر قاذولا للبرق بالنار ويضجون بالدعاء والتضرع وكانوا يرون ذلك من الأسباب المتوصل بها إلى نزول الغيث .

كان عبد الله أبو رسول الله وأبو طالب من أم واحدة وروى أن أبا طالب قال لأخيه العباس ألا أخبرك عن محمد بما رأيت منه قال بلى قال : إني ضمته إلى فكنت لا أفارقه ساعة من ليل ولا نهار ولا آتمن عليه أحداً . إني كنت أنومه في فراشي فأمرته ليلة أن يخلع ثيابه وينام معي فرأيت الكراهة في وجهه لكنه كره أن يخالفتني وقل بإيمانه اصرف بوجهك عني حتى أخلع ثيابي إذ لا ينبغي لأحد أن ينظر إلى جسدي فتعجبت من قوله وصرفت بصري حتى دخل الفراش فلما دخلت معه الفراش إذا بيني وبينه ثوب والله ما أدخلته فراشي فإذا هو في غاية اللين وطيب الرائحة كأنه غس في المسك فحببت لأنظر إلى جسده فإني كنت أرى شيئاً كثيراً ما كنت أفقده من فراشي فإذا قت لأطلبه ناداني ها أنا لائم فأرجع ولقد كنت كثيراً ما أسمع منه كلاماً يعجبني وذلك عند مضى بعض الليل ، وكنا لا نسمى على الطعام والشراب ولا نحمد بعده وكان يقول في أول الطعام باسم الله الأحد فإذا فرغ من طعامه قال الحمد لله فتعجبت منه ثم لم أر منه كذبة ولا ضحكاً ولا جاهلية ولا وقف مع صبيان يلعبون^(٢)

(١) السلق والعُشر : نوعان من الفجر .

(٢) تضيء الفجر الرازي ج ٦ ص ٥٦٨ ، ٥٦٩ طبعة سنة ١٣٧٨ هـ .

السفر إلى الشام

سنة ٥٨٢ م

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة سنة ، خرج مع عمه أبي طالب إلى الشام في ركب للتجارة سنة ٥٨٢م فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وهي قصبة حوران وكانت في ذلك الوقت قصبة للبلاد العربية التي كانت تحت حكم الرومان وكان ببصرى راهب يقال له بَجِيرَا في صومعة له . وكان ذا علم من أهل النصرانية ولم يزل في تلك الصومعة راهباً ، إليه يصير عليهم عن كتاب يتوارثونه كابراً عن كابر .

فلما نزلوا ذلك العام ببصرى وكانوا كثيراً ما يمترون به قبل ذلك فلا يكلمهم ولا يمرض لهم حتى كان ذلك العام نزلوا به قريباً من صومعته . فصنع لهم طعاماً كثيراً وذلك عن شيء رآه وهو في صومعته .

فقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركب حين أقبلوا وغامة قفاه من بين القوم ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً منه فنظر إلى الغامة حتى أظلت الشجرة وتهصرت أغصانها (مات) على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استغل تحتها .

فلما رأى ذلك بجيرا نزل من صومعته وقد أمر بذلك الطعام فصنع ثم أرسل إليهم فقال : إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش . فآثنا أحب أن تحضروا لكم صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحرركم .

قال له رجل منهم والله يا بجيرا إن لك لشأناً اليوم ما كنت تصنع هذا بنا وقد كنا نمر بك كثيراً فاشأناك اليوم ؟ قال له بجيرا صدقت قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فآكلون منه كلكم . فاجتمعوا وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحداثة سنه في رحال القوم تحت الشجرة . فلما نظر بجيرا في القوم ولم ير الصفة التي يعرف ويحمد عنده قال يا معشر قريش لا يتخلف أحد منكم عن طمأني ، قالوا يا بجيرا ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلاماً وهو أحدث القوم سنّاً فتخلف في رحالهم . فقال لا تفعلوا ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم ثم قام إليه رجل من قريش فاحتضنه وأجلسه مع القوم . فلما رآه بجيرا جعل يلحفه لحفاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بجيرا فقال يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه ؟ وإنما قال له بجيرا ذلك لأنه سمع قومه يخلفون بهما فأبى رسول الله أن يستحلنه بهما ، فقال له بجيرا فبالله إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ؟ فقال له : سئني عما بدا لك . فجعل يسأله عن أشياء من حاله

ومن نومه وهيئته لجعل رسول الله بخبره بخبره فيوافق ذلك ما عند تحجرا من صفته ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه وكان مثل أثر الحجة (يعني أثر الحجة القابضة على اللحم حتى يكون نائفاً) فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له ما هذا الغلام منك؟ قال أبني. قال له بحيرا ما هو بابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. قال فإنه ابن أخي. قال فما فعل أبوه قال مات وأمه حيتي به. قال صدقت فارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً فإنه كائن له شأن عظيم فأسرعه إلى بلده. فخرج به عمه أبوه طالب سرياً حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام^(١)

إن بحيرا لما عرف رسول الله تخوف عليه من اليهود فتصح لأبي طالب بالرجوع به سرياً والحفاظة عليه. وقد روت حليلة أن اليهود كانوا إذا رأوه وعرفوه حض بعضهم بعضاً على قتله حتى إنها كانت تضطر إلى الاختباء به والابتعاد عنهم. وعلى كل حال كانوا ينتظرون في ذلك الوقت ظهور نبي وكان بعض التسمقين في الدين يرفون علامات ذلك النبي، وسند ذكر فيا بعد أوصافه صلى الله عليه وسلم للذكوة في التوراة ولا شك أن عالم مثل بحيرا كان يرفها.

الرد على مستر مور

قال مستر ويليام مور في كتابه (حياة محمد) بشأن رحلته صلى الله عليه وسلم مع عمه إلى الشام: «إن جميع الذين دونوا سيرة الرسول قد ذكروا تفاصيل كثيرة مضحكة عن هذه الرحلة تدل على عظمة نبوته للنتظرة».

ثم أورد قصة سفره كما ذكرت في هذا الكتاب وكما ذكرها المؤرخون. وإنما لا ندري لماذا كانت هذه التفاصيل مضحكة في نظر مستر مور! إنه يعترف بأن جميع المؤرخين رويوا هذه التفاصيل ولا شك أنه يستقي منهم سيرة الرسول. ومن بينهم من يعتمد عليه ويحتج بكلامه ويرفض ما يريد رفضه إذا لم تكن الحادثة أو الرواية واردة في كتبهم أو إذا طرأ تحريف في نص كلامهم، فهو يوصل مثلاً على ابن إسحاق وعلى الطبري والواقدي وغيرهم فكان الواجب عليه باعتبار كونه مؤرخاً أن يقر هذه التفاصيل التي ذكرها جميع المؤرخين بلا استثناء. هذا وليس لديه رواية أثبت من روايتهم تعارض أو تنفي ما ذكره: أما كون هذه التفاصيل مضحكة، فهذا ما لم يقل به أحد من أكابر المؤرخين الذين استند منهم مادته. وكان ينبغي عليه أن يقدّر موقعه ويعلم أنه إنما يكتب تاريخ نبي لا شخص عادى. فالأنبياء والرسل تقع في حياتهم أمور خارقة تدل على

(١) راجع قصة بحيرا في سيرة ابن هشام وتاريخ الطبري وطبقات ابن سعد. ولصلاصة لا زعم الدكتور اشبرنجر من أن أبا طالب رد محمداً مع بحيرا إلى مكة. - Dr. Sprenger's life, p. 79.

نبوتهم وتؤيد رسالتهم فالتى تقع قبل النبوة كالخوارق التى حدثت فى مولده صلى الله عليه وسلم وما شاهدت: حليلة من تيسير الرزق والبركة وشق الصدر وماحدث أثناء سفره إلى الشام تسمى لإرهاصات ، والتى تقع بم النبوة تسمى معجزات . وكرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء غير أنهم لم يدعوا النبوة . ويجب الإيمان بالأولياء قال تعالى : (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) ولا شك أن محمداً صلى الله عليه وس وقت منه خوارق العادات قبل النبوة وبعدها ولاسبيل إلى إنكار مجموع إرهاباته ومعجزاته (أولا من الوجهة التاريخية لأن معاصريه وكبار الصحابة قد شاهدوها ورووها ورواها عنهم كبار المؤرخين ولو أبطلوا مشاهدتهم وروايتهم لم يبق للتاريخ قيمة (ثانياً) من الوجهة الدينية لأن الدين يقر معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، فمن ذلك معجزات عيسى عليه السلام فإنه تكلم فى المهد صبيّاً وأبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الميت ومع ذلك لم يقل أحد من المسلمين إن هذه أمور مضحكة ، وكذا معجزات موسى عليه السلام وهى مذكورة فى التوراة والقرآن .

وفى العالم أنس ليسوا بأنبياء ولا أولياء ترام فى كل زمان ممتازين على أبناء جيلهم بأتون أعمالا يستحيل على غيرهم الإتيان بها . ولقد شاهدنا فى مصر فتى أمياً من أبناء أحد للزارعين ذاع صيته ونشرت الجرائد صورة هذا الطفل يضرب أرقاماً طوالاً وينطق بالجوالب الصحيح بسهولة وبسرعة مذهشة من غير أن يخط بقلم ، وقد رأيت شخصياً ، أكثر من مرة وحار فيه علماء الرياضة وامتنعته كبار رجال الحكومة والصحافة . فهذا إنسان عادى له موهبة خاصة أذهلت عقول الخاصة . فكيف يمكن إنكار هذه للموهبة المخارقة والفتى لايزل حياً بين ظهرائنا يخل السائل فى الطرق ويجب كل سائل (١) .

فإذا جاء رجل مثل مستر موير بعد ذلك بجيل أو أكثر وزعم أن هذه خرافة مضحكة ابتدعها المصريون ، يغير ذلك شيئاً من الحقيقة .

وقد توارت الروايات أن زكريا عليه السلام كان يجد عند سريره فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء فثبت أن الذى ظهر فى حق سريره كان فضلاً خارقاً للعادة . ولم يقل أحد إن ذلك مضحك .

وبرؤى أن عيسى عليه السلام لما ادعى النبوة وأظهر للمعجزات أخذوا يستمتتون عليه ومطالبوه بخلق خفاش فأخذ طيناً وصوره ثم تنفخ فيه فإذا هو يطير بين السماء والأرض قال تعالى (أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله) فهل قال أحد إن هذا أمر مضحك ؟! فلماذا يستبدلون الإرهابات والمعجزات على رسول الله ؟ وروى القرآن أن عيسى تكلم فى المهد . وقد سأله الحواريون أن ينزل عليهم مائدة من السماء فسأل عيسى الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون عيداً لهم وآية من الله فاستجاب الله دعاه . فهل قال المسلمون إن هذا مضحك؟! (١) كان هذا الكلام حياً فى أيام المؤلف .

من هو بحيرا؟

كان بحيرا الذي مر ذكره راهباً مسيحياً في الشام في ذلك الوقت وقد ذكر في الآداب البيزنطية أنه راهب نسطوري على مذهب أريوس ونسطور، وكان ينكر لاهوت المسيح ويقول إن تسميته بإله غير جائزة بل يجب أن يدعى كلمة وأن تدعى والدته مريم والدة الناسوت الذي هو مظهر الكلمة السامي لا والدة الله وكان بحيرا قساً عالمًا فلكيًا منجباً وقد اتخذ صومعته. يقرب الطريق للوصول إلى الشام وأقام هناك مدة تمر عليه الرمان والتوافل فكان يأمرهم بعبادة الله الواحد وينهاهم عن عبادة الأصنام، له تلميذ اسمه مذهب، وكان من جملة المتتلمذين له سلمان الفارسي قبل إسلامه، ولإسلامه قصة غريبة ستذكر في موضعها.

قال مذهب: إن بحيرا توفي قتيلاً بدسيسة بعض يهود أشنار، ومعنى بحيرا في السريانية عالم متبعر^(١) وجاء في دائرة المعارف الإسلامية أن اسم بحيرا مشتق من الكلمة الآرامية بحيرا ومعناها المنتخب فهو لقب له، قيل: إن اسم بحيرا للمسيحي هو سرجيوس أو جرجيوس.

رعية رسول الله النعم عكة^(٢)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من نبي إلا قد رعى النعم » قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال « وأنا ». وقال « ما بعث الله نبيًا إلا رعى النعم » قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال « وأنا رعيته لأهل مكة بالقراريط^(٣) » وعن جابر بن عبد الله قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم نجني الكعبك^(٤) فقال: عليكم بالأسود منه فإنه أطيبه فإني كنت أجنبيه إذ كنت راعي النعم، قلنا وكنت رعى النعم يا رسول الله؟ قال نعم وما من نبي إلا قد رعاها. قيل: من حكم ذلك أن راعي النعم التي هي من أضف البهائم تسكن في قلبه الرأفة والعطف فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هذب أولًا.

(١) راجع بحيرا في دائرة المعارف العربية للبستاني

(٢) راجع طبقات ابن سعد الجزء الأول.

(٣) القراريط هي أجزاء من الدوام والذنانير تفتى بها الهوامج الحفيرة. وقيل: إن القراريط موضع.

(٤) قال ابن سيده: الكعبك بالفتح نفضج ثمر الأراك.

حرب الفجار^(١)

(٥٨٠ - ٥٩٠)

أيام الفجار أربعة فالفجار الأول كان بين كنانة وهوازن. والثاني بين قريش وكنانة والثالث بين كنانة وبنو نضر بن معاوية ولم يكن فيه كبير قتال، والفجار الأخير بين قريش وكنانة كلها وهوازن وكان بين هذا الأخير ومبعث النبي صلى الله عليه وسلم خمس وعشرون سنة. وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم الفجار الأخير وهو ابن خمس عشرة سنة وكان سببها أن النعمان بن المنذر أمير الحيرة بث بطليمة^(٢) له إلى سوق عكاظ للتجارة وأجارها له عروة الرجال من بني هوازن فزولوا على ماء يقال له أورات، فوثب البراء بن خديج من بني كنانة على عروة فقتله وهرب إلى خيبر فاستخفى بها ولقي بشر بن أبي خازم الأسدي الشاعر فأخبره الخبر وأمره أن يعل ذلك عبد الله بن جدعان وهشام بن النيرة وحرب بن أمية ونوفل بن معاوية الديلمي وبلعام بن قيس. فوافي عكاظ فأخبرهم فخرجوا موافقين إلى الحرم وبلغ قديماً الخبر آخر ذلك اليوم فقال أبو براء رئيس هوازن: ما كنت من قريش إلا في خدعة فخرجوا في آثارهم فأدركهم وقد دخلوا الحرم فناداهم رجل من بني عامر يقال له الأدرم بن شعيب بأعلى صوته: إن ميعاد ما بيننا وبينكم هذه الليالي من قابل وأنا لا تأتلي في جمع.

ولم تبق تلك السنة سوق عكاظ^(٣) فكتبت قريش وغيرها من كنانة وأسد بن خزيمة ومن لحق بهم من الأحابيش سنة يتأهبون لهذه الحرب وتأهبت قيس عيلان، ثم حضروا من قابل ورؤساء قريش: عبد الله بن جدعان وهشام ابن النيرة وحرب بن أمية وأبو أحجية سعيد بن العاص وعتبة بن ربيعة والعاص بن وائل ومعمر بن حبيب الجهمي وعكرمة بن عامر بن هاتم بن عبد مناف بن عبد الدار وخرجوا متساندين^(٤) ويقال بل أمرهم إلى عبد الله ابن جدعان وكان في قيس أبو براء عامر بن مالك بن جعفر وسبيع وربيعة ابنا معاوية النضري ودريد بن الصمّة ومسمود ابن معتب وأبو عروة بن مسمود وعوف بن أبي حارثة المزي وعباس بن رعل السلي. وهؤلاء هم الرؤساء والقادة.

(١) الفجار بكسر الفاء بمعنى المجاعة الكتلل والمقاتلة، وذلك أن قتالا كان في الشهر الحرام فغضبوا فيه (٢) العالمية: الإبل تحمل التجارة كالإبل والزب وأشباهها.

(٣) عكاظ. قال الليث: سمى عكاظ عكاظاً لأن العرب كانت تجتمع فيه فيبسط بعضهم بعضاً بالاضار أي يمدح. وعكظ فلان خصمه باليد والمجيع عكظاً. وحكى السبيل، كانوا يتفاحرون في سوق عكاظ إذا اجتمعوا. وعكاظ اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية وكانت قبائل العرب تجتمع بها في كل سنة ويتفاحرون بها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون. قال الرازي: عكاظ بين نخلة والطائف، وذو الحجاز خلف عروة. وجمعة من الظهران. وهذه أسواق قريش والعرب ولم يكن فيها أعظم من عكاظ. فلما كانت العرب تقيم سوق عكاظ شهر شوال ثم تنتقل إلى سوق مجنة فقيم فيها عشرين يوماً من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي الحجاز فقيم فيها إلى أيام الحج.

(٤) أي ليس لهم أمير واحد يجمعهم

ويقال بل كان أمروهم جميعاً إلى براء وكانت الزاية بيده وهو الذي سوى صلوفهم فالتقوا فكانت الدبرة (المزبعة) أول النهار لقيس وكثانة على هوازن ومن سوى إليهم . ثم صارت الدبرة آخر النهار قريش وكثانة على قيس فتلوم قتلاً ذريعاً حتى نادى عتبة بن ربيعة يومئذ - وإنه لشاب ما كات له ثلاثون سنة - إلى الصلح فاصطالحوا على أن يبدوا القتلى وودت قريش لقيس ما قتلت فضلاً عن قتلاهم ووضعت الحرب أوزارها فانصرف قريش وقيس .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر التجار يقال « قد حفرته مع عموقي ورميت فيه بأهمهم وما أحب أني لم أكن فلتا » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كنت أنبل على أعمى » يعني أغاظم النبل .

حلف الفضول^(١)

كان حلف الفضول منصرف قريش من التجار وكان أشرف حلف . وأول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب فاجتمع بنو هاشم وزهرة وتيم في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً فتعاهدوا وتعاهدوا بالله لتكون من المظلوم حتى يؤدي إليه حقه ما بل بحر صوفة ، وفي التآخي في المماش ، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار ابن جدعان حر النعم وإني أعذر به هاشم وزهرة وتيم . تعاقبوا أن يكونوا مع المظلوم ما بل بحر صوفة ولو دعيت به لأجبت وهو حلف الفضول » .

هل سافر النبي إلى اليمن ؟

قال الأستاذ فيل الأمانى Well إن رسول الله سافر في السادسة عشرة من عمره إلى اليمن مع عمه الزبير في رحلة تجارية . ورد عليه الدكتور اشبرنجر Dr Sprenger إن هذا الخبر ليس له أساس صحيح وإنه لم يجد في الكتب الموثوق بها . والحقيقة كما قال الدكتور اشبرنجر . نعم قد ذكر العابري رواية جاء فيها أن خديجة إنما كانت استأجرت رسول الله ورجلاً آخر من قريش إلى سوق حياشة بتهامة الخ ، غير أنه جاء في العابري بعد ذلك أن الواقدي قال « فكل هذا خطأ وللشهور رواية ابن إسحاق وهي رحلته إلى الشام » كذلك لم يسافر الرسول إلى الحبشة بطريق البحر ولا إلى فارس ولا إلى مصر فكل هذا من الأوهام الكاذبة .

(١) الحلف بالله المائدة والمأمدة على التضامن والتعاون والاتفاق لما كان منه في الجاهلية على الفتن والفتن والغارات فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام وما كان منه في الجاهلية على نصر المظلوم وصد الأرحام فذلك الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وما أحب حلف كان في الجاهلية لم يزد الإسلام إلا شدة » يريد المائدة على الخير ونصرة الحق .

ابتهاده صلى الله عليه وسلم عن معايير الجاهلية

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بكرة كشف العورة قبل البعثة . وسمع وهو صغير من دار من دور مكة غناء وصوت دفوف في حفلة زواج فنام فما أيقظه إلا حر الشمس ، وكان يأبى أن يحضر مع قومه العبد الذي كانوا يقيمونه لصنم يقال له (بوانة) حتى غضب عليه عمه أبو طالب وعمانه . ولم يذق شيئاً ذبح على الأصنام حتى أكرمه الله برسالته . ولم يدخل في يهودية أو نصرانية ، واعتزل الأوثان ونهى عن الوأد^(١) وكان يحبها وإذا أراد أحد ذلك أخذ للموودة من أبيها وتكفلها . ولم يلبس اللبس ولم يشرب خمرأ قط مع أنها كانت منتشرة إلا أن تحريم الخمر ليس من خصائصه صلى الله عليه وسلم بل حرما على نفسه كثير في الجاهلية لما في شربها من آفات وسيئات ، وحرما من أجداده صلى الله عليه وسلم قضي وعبد الطلب . لكن الإسلام حرما تحريماً عاماً وسنَّ عقوبة لشارها .

وعادة وأد البنات من أفزع الجرائم التي تشعر منها الأبدان فخرها واستأصل شأقتها الإسلام وطهر العرب منها . قال تعالى في سورة التكاوير : (وَإِذَا لِلْمُؤَدَّةِ سَبَلَتْ بَأَى ذَنْبٍ مَحْتَلَتْ) .

الى حلة الثانية

الى الشام ٥٩٥م

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة ، قال له أبو طالب أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا وهذه غير قومك^(٢) وقد حضر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبث رجلاً من قومك في غيرنا فلو جئتها فرضت عليها نفسك لأسرعت إليك . وبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له فأرسلت إليه في ذلك وقالت له أنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلاً من قومك . فخرج مع غلامها ميسرة وجعل عمومته يوصون به أهل العير حتى قدم بعري^(٣) من الشام وهي مدينة على طريق دمشق فنزل في ظل شجرة ، فقال نسطور الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي . ثم قال لميسرة : أفي عيني حرة ؟ قال : نعم لا تفارقه . قال : هو نبي وهو آخر الأنبياء . وكان ميسرة إذا كانت المهاجرة واشتد الحر ، يرى ملكين يظلان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشمس فوعى ذلك كله ميسرة وباعوا تجارتهم وربحوا ضعف ما كانوا يربحون ، فلما رجعوا أخبرها ميسرة بما قال الراهب نسطور . فلما رأت خديجة الربح الكثير أضمت له ضعف ما سمعت له .

(١) الوأد : هو أن يعبد الرجل إلى ابنته فيذبحها في حفرة من الأرض ويهيل عليها التراب ثم يدعها إلى أن تموت . والقبائل التي عرف عنها الوأد ربيعة وكنتة ونجم وبعض أفراد من القبائل الأخرى . وكان مصعب بن نجبة التميمي يبدل المال في سبيل شراء المولودة ليخلصها من الوأد وكان زيد بن عمرو بن نفيل الهزلي ينع ذلك أيضاً .

(٢) العير ، الإبل التي تحمل اللبن . (٣) Bostru

قال مستر موير عند ذكر هذه الرحلة « إن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن في وقت من الأوقات طامعاً في الغنى ، إنما كان سعيه لتغييره ولو ترك الأمر لنفسه لآثر أن يعيش في هدوء وسلام قائماً بمجتهد ولما فكر في رحلة كهذه ، ولكن : اعرض عليه عه السفر شعرت فسه الكريمة بضرورة تبريج كربة عه فأجاب طابيه مسروراً » .

تزييح رسول الله

خديجة رضى الله عنها

كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة غنية جميلة من أواسط قريش نسباً وأعظمهم شرقاً ، وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة وبسيدة قريش . وقد عرض كثيرون عليها الزواج فلم تقبل . فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من رحلته إلى الشام ، أرسلت إليه من رغبة في الزواج وقيل : إنها أرسلت أختها وقيل : أرسلت غيسة مولاة لها . قال : ما بيدي ما أتزوج به . فقالت : فإن كفت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ؟ قال : فن هي ؟ قالت له : خديجة . قال : فانا أفضل . فذهبت فأخبرت خديجة فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا وأرسلت إلى عها عمرو بن أسد ليزوجها لحضر ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عموته فزوجه أحدهم . قال عمرو بن أسد : « هذا البضع لا يفرع . أنه ^(١) » . وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة . وذلك بعد عودته من الشام بشهرين .

وقد حضر رؤساء مضر وحضر أبو بكر رضى الله عنه ذلك العقد فقال أبو طالب :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل وضئفى معد (معدنه) وعنصر مضر (أصله) وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا الحكماء على الناس . ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا يرجع به شرقاً ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، فإن كان في المال قل فإن المال ذل زائل وأمر حائل . ومحمد من قد عرفتم قرابته وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها ما آجله وعاجله كذا ^(٢) ، وهو والله يعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل جسيم » . فلما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل ابن عم خديجة فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا كذا ذكرت وفضلنا على ما عدت فتن سادة العرب وقادتها وأنتم أهل ذلك كله لا تنكر المشيرة فضلكم ولا يرد أحد من الناس نفركم ونفركم ؛ وقد رغبنا في الاتصال بمجلكم وشرفكم فانهبدوا

(١) أى لا يضرب أغه لكونه كرمياً لأن غير الكرم إذا أراد ركوب الناقة الكريمة يضرب أغه ليرتدع عن الكرم .
(٢) أصدقها رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشرة أوقية ونصفاً من الذهب والأوقية أربعون درهماً شريعياً ، وقيل : كان صداها عشرين بكرة (البكرة الأذن من الإبل) ولا مائة بلواز كون البكراب عوضاً عن ذلك الفدر .

على معاصر قريش بأن قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على كذا « ثم سكت .

قال أبو طالب : قد أحببت أن يشاركك عمها . فقال عمها عمرو بن أسد :

« انهدوا على يامسبر قريش أنى قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد » قبل النبي صلى الله

عليه وسلم النكاح وشهد على ذلك صناديد قريش .

وأولم عليها صلى الله عليه وسلم ففخر جزوراً وقيل جزورين وأطمع الناس وأمرت خديجة بجواربها أن يرقصن ويضربن الدفوف ، وفرح أبو طالب فرحاً شديداً وقال : الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب ودفع عنا الغموم ، وهى أول ولية أولها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدي : ويقولون أيضاً إن خديجة أرسلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم تدعوه إلى نفسها (نفي التزويج) وكانت امرأة ذات شرف وكان كل قرشي حريصاً على نكاحها قد بذلوا الأموال لو طعموا بذلك فدعت أباهام ففتحه خراً حتى ثمل وبحرت بقره وخلقته بخلق وألبسته حلة حيرة ثم أرسلت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في عومته فدخلوا عليه فزوجوه . فلما سما قال : ما هذا الصغير وما هذا الكبير وما هذا الحبير ؟ قالت : زوجتى محمد بن عبد الله . قال : ما فعلت ، أتى أفضل هذا وقد خلتك أكابر قريش فلم أفضل . قال الواقدي : وهذا غلط والثابت عندنا المخطوط من حديث محمد بن عبد الله بن مسلم عن أبيه عن محمد بن جبير بن مطعم ومن حديث ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ، ومن حديث ابن أبي حنيفة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس « أن عمها عمرو بن أسد زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أباهما (خويلد بن أسد) مات قبل الفجار ^(١) » .

تزوج خديجة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهى بكر - عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ثم هلك عنها وتزوجها بعده أبو هالة النباش بن زرة .

وولدت خديجة لعتيق ، هنذا بنت عتيق وولدت لأبى هالة هنذا بنت أبى هالة وهالة بن أبى هالة ، فهنذا بنت عتيق وهند وهالة ابنا أبى هالة وكلهم إخوة أولاد رسول الله صلى الله عليه وسلم من خديجة . وبعد زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بخديجة لم يسافر في رحلة للتجارة بل أقام بمكة إلى أن هاجر إلى المدينة .

وولدت خديجة لرسول الله جميع ولده إلا إبراهيم فإنه من مارية القبطية . فأكبر أولاده القاسم وبه كان يكنى « أبا القاسم » ثم الطيب ، ثم العاصم ، ثم رقية ، ثم زينب ، ثم أم كلثوم ، ثم فاطمة . قال الواقدي : ولم أر أصحابنا يثبتون الطيب ويقولون هو العاصم .

(١) راجع أيضاً طبقات ابن سعد الجزء الأول طبع ليدن ص ٨٥ وقال المصنف في سيرته « وفي كون الزوج لها أباهما خويلداً أو كونه حضر تزويجها نظر لأن المخطوط عن أهل العلم أن خويلد بن أسد مات قبل حرب الفجار » .

تجديد بناء الكعبة

سنة ٦٠٥ م

الكعبة هي بيت الله الحرام ، وهو بناء مزيج الشكل في وسط المسجد الحرام ، بابه مرتفع على الأرض نحو قامة . وقد بنى الكعبة إبراهيم عليه السلام لعبادة الله وهو رسول من أولى العزم أرسله الله إلى الكلدانين في جنوب بابل وكانوا يعبدون النجوم والأوثان . ثم ترك إبراهيم قومحين عصوه وهاجر إلى مدين وهناك أمره الله تعالى بالمهجرة بولده إسماعيل ^(١) وأمه هاجر إلى بلاد العرب قصدوا مكة ثم أمره الله ببناء الكعبة . قال السيد الإمام التقي الفاسي : بناء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام الكعبة ثابت بالكتاب والسنة . وروى الأزرقي في تاريخه عن ابن إسحاق أن الخليل عليه الصلاة والسلام لما بنى البيت جعل طوله في السماء تسع أذرع وجعل طوله في الأرض من قبل وجه البيت الشريف من الحجر الأسود إلى الركن الشامي اثنين وثلاثين ذراعاً وجعل عرضه في الأرض من قبل الميزاب من الركن الشامي إلى الركن الغربي الذي يسمى الآن الركن العراقي اثنين وعشرين ذراعاً وجعل طوله في الأرض من جانب ظهر البيت الشريف من الركن الغربي المذكور إلى الركن الشمالي إحدى وثلاثين ذراعاً وجعل عرضه في الأرض من الركن الشمالي إلى الحجر الأسود عشرين ذراعاً ، وجعل الباب لاصفاً بالأرض غير مرتفع عنها ولا مبوب حتى جعل لها تيع الحيري باباً .

ومقام إبراهيم عليه السلام بإزاء وسط البيت الذي فيه الباب . قال ياقوت في معجم البلدان : إن خصائص الكعبة كثيرة وفنائها لا تحصى ولا يسع كتابنا هذا إحصاء الفضائل وليست أمافي الأرض إلا وهي تعظم ذلك البيت وتقرقر بقدمه وفضله وأنه من بناء إبراهيم حتى اليهود والنصارى والمجوس والصابئة . وقد بقيت الكعبة على هيئتها من عمارة إبراهيم عليه السلام إلى أن بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة من عمره غفقت قريش أن تهدم لتصعد جدرانها بسيل دخلها بعد حريق أصابها وكانت روضاً ^(٢) فوق القامة وكان البحر قد رى بسفينة إلى جدة ^(٣) فحطمت فخرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش فابتاعوا خشبها وأعدوه للسفينة .

(١) إسماعيل أكبر ولد إبراهيم كان اسمه إسماعيل فحرب ، وأمه هاجر من القط من قرية أمام العرمي قرية من فسطاط مصر هاجر إبراهيم إلى مكة ومعه إسماعيل وهو ابن سبعين وأمه هاجر ثم أصرف إبراهيم إلى الشام ، وإسماعيل أول من تكلم بالعربية وهو ابن ثلاث عشرة سنة وكان كلام الناس قبل ذلك البرانية . ولما بلغ إسماعيل عشرين توفيت أمه هاجر وهي ابنة تسعين سنة فدفنها إسماعيل في الحجر وأوحى الله إلى إبراهيم أن يبني البيت فبناءه معه وبني إسماعيل بعد أبيه فدفن داخل الحجر بما على الكعبة مع أمه هاجر .

(٢) الرض أن تضد البحارة يضها على يمين من غير ملاط .

(٣) في حديث بناء الكعبة عن وهب بن منبه - أن سفينة حجتها الريح إلى المدينة وهو مرفأ السن من ساحل بحر العجاز وكان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة . ومعنى حجتها الريح : دفنتها .

وكان بمكة نجار يدعى باقوم مولى سعيد بن الماعى وصانع للنير الشريف فأمره أن يبنى الكعبة وكان صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة معهم فلما بلغ البناء موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يضع الحجر موضعه وأرادت كل قبيلة رفعه وتواعدوا للقتال ثم تشاوروا بينهم فعملوا أول من يدخل من باب بنى شيبه يقضى بينهم . فكان أول من دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رأوه ، قالوا هذا الأمين رضينا به وأخبروه الخبر فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم رداءه ويسطه على الأرض ثم أخذ الحجر فوضه فيه ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفضوه . ففعلوا فلما بانوا موضعه ، وضه هو بيده الشريفة فوضوا بذلك وانتهوا عن الشرور . وكانت قريش تسمي رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن ينزل عليه الوحي الأمين . لوقاره وهديه وصدق لهجته وبعده عن الأدناس . وفى كتاب تهذيب الأسماء أن أول امرأة عربية كست الكعبة الحرير ، نقيلة أم العباس وسببه أن العباس ضاع وهو صغير فنظرت إن وجدته أن تكسوها فوجدته فعملت .

تسميته بالأمين

صلى الله عليه وسلم

جاء فى دائرة المعارف البريطانية فى ترجمة حياته صلى الله عليه وسلم أن تسميته بالأمين مأخوذة من اسم أمه (آمنة) وإن كان العرب لا يميلون لعلاقة بينهما فى هذه التسمية . هذا ما زعمه كاتب الترجمة فى دائرة المعارف البريطانية فهو يريد أن يقول إن العرب لم يسموه أميناً لأمانته بل لأن اسم والدته آمنة فلا نحر ولا فضل . والحقيقة التاريخية هى أنه صلى الله عليه وسلم سمي أميناً لأمانته ولذا استخدمته خديجة فى تجاريتها فربحت ربحاً طائلاً ثم تزوجته لثقتها به ، وكانوا يستأمنونه على ودائعهم وقد جملة قومه حكماً بينهم فى بناء الكعبة عن طيب نفس . قال للسيو سيدو Sédillot فى كتابه تاريخ العرب ^(١) « ولما بلغ محمد من العمر خمساً وعشرين سنة استحق بحسن سيرته واستقامة سلوكه مع الناس أن يلقب (بالأمين) وقال مور Muir ^(٢) إنه لقب بالأمين بإجماع أهل بلده لشرف أخلاقه . وكتب لفظة أمين بالإنجليزية هكذا Faithful .

وكان أهل مكة يستأمنونه صلى الله عليه وسلم ويودعون عنده وداائعهم إلى أن هاجر إلى المدينة وترك علياً مكانه فبقى حتى رد الودائع إلى أربابها ثم هاجر .

أ^(١) الطبعة الثانية سنة ١٨٧٧ الجزء الأول صفحة ٥٨ (٢) كتاب تاريخ حياة محمد صفحة ٧٠ طبعة سنة ١٩١٢

خلقه صلى الله عليه وسلم

في طفولته وشبابه

الأخبار عن حاله صلى الله عليه وسلم في طفولته قليلة غير مستفيضة لعدم العناية بتدوين السيرة وفتنذ .
ونذكر هنا أنه كان صلى الله عليه وسلم في صغره يابب ذات مره مع غلمان قریش فكلوا يحملون الحجارة في
أزروهم فتبدو عوراتهم ، فغالبهم صلى الله عليه وسلم وصار يحملها على رقبته لئلا ترى عورته .

وعن علي - رضي الله عنه - قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما هممت ببقيع مما هم به
أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بالنبوة إلا مرتين من الدهر كلتاها عصمني الله عز وجل من فعلها : قلت لفتي
كان معي من قریش بأعلى مكة في غم لأهله يرعاه : أبصر لي غنى حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان^(١)
قال : نعم ، فلما جئت أدنى دار من مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزمارير . قلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان
تزوج فلانة . فلم هو بذلك الصوت حتى غلبني النوم فمت ، فما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي .
قال : ما فعلت ؟ فأخبرته ، ثم فعلت الليلة الأخرى مثل ذلك .

إن الله تعالى إذا أراد أن يحفظ شخصاً ، سد عليه أبواب اللامه والفساد وأوجه العقبات في طريقها وصده
عن سبيلها بكيفية لا تخفى على بال . لذلك ساطع جل شأنه عليه صلى الله عليه وسلم النماس حتى لا يشاهد
شيئاً مما كان يجري في أفراح الجاهلية من لهو وفرح وخر وما شاكل ذلك ، ليبقى نقياً طاهرًا من كل شائبة بل
من كل ريبه .

وعن أم أيمن قالت : كانوا في الجاهلية يعملون لهم عيداً عند بوانه ، وهو صنم من أصنام مكة تبده قریش
وتعظمه وتنسك أي تذبح له وتحاف عنده وتسكف عليه يوماً إلى الليل في كل سنة ، فكان أبو طالب يحضر
مع قومه ويكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معه فيأبى ذلك . قالت حتى رأيت أبا طالب
غضب عليه ورأيت حماته غضبن عليه أشد الغضب وجعان يقطن : إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا
وما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تنكث لهم جمعاً فلم يزالوا به حتى ذهب معهم . ثم رجع فرجعاً مرعوباً .
فكان : ما دهلك ؟ قال : إني أخشى أن يكون بي أم (أي لة وهي للسن من الشيطان) فكان : ما كان الله ليبطلتك

بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك . فما الذى رأيت ؟ قال : إني كلما دنوت من منمنم تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : « ورائك لا محمد لا تمسه » قالت : فما عاد إلى عيديم حتى تنبأ صلى الله عليه وسلم .

ولم يذق صلى الله عليه وسلم شيئاً ذبح على الأصنام . وقيل له عليه الصلاة والسلام : هل عبدت وثناً قط ؟ قال : لا . قالوا : هل شربت خمرًا ؟ قال : ما زلت أعرف أن الذى هم عليه كفر . وما كنت أدرى ما الكتاب ولا الإيمان (أى كيفية الدعوة إليهما) . وعنه صلى الله عليه وسلم : إنما نشأت بنفضت إلى الأصنام والشمر .

وكان عليه الصلاة والسلام يرى النعم في صفوه لزيادة الرحمة في قلبه فكان يراها لأهل مكة كما تقدم . وحضر النبي صلى الله عليه وسلم حرب الفجار . قيل وكان له من العمر ١٤ سنة وكان يتناول صومته السهام .

وحضر صلى الله عليه وسلم حلف الفضول :

ولما سافر إلى الشام في تجارة بخديجة - رضى الله عنها - ظهرت أماته ونجح في تجارته ورجع ربحاً كثيراً . قال ميسرة غلام خديجة : يا محمد اتجروا بخديجة (كذا سفرة) ما رأينا ربحاً قط أكثر من هذا الربح . وقد أحبه ميسرة حباً عظيماً لما رآه من أماته وحسن أخلاقه .

وما يدل على راحة عقله وحضور بديته لحل للمشكلات ، الطريقة التى ابتكرها لإبشرك المتنازعين في وضع الحجر الأسود .

وقد وثقت به خديجة لما بلتها من صدق حديثه وعظم أماته وكرم أخلاقه فاستأجرت ليتاجر لها وضاعفت له الأجر وكانت - رضى الله عنها - امرأة عاقلة شريفة فلما عاد صلى الله عليه وسلم وأخبرها غلامها عن حيد صفاته دعت عليه الصلاة والسلام وقالت له : إني رغبت فيك لترايتك منى وشرتك في قومك وأماتك عندهم وحسن خلقك وصدق حديثك ثم عرضت عليه نفسها فلما تزوجها كان مثال الزوج الصالح وكان موضع احترامها وتهديرها . يدل على ذلك قولها له بعد نزول الوحي ومضى تهدي روعه : « والله لا يميزك الله أبداً . إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المصوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق » وقد كانت أول من آمن به . وقال رسول الله في حقها : « أفضل نساء الجنة خديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، ومريم ابنة عمران وآسية بنت مزاحم » (امرأة فرعون) . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبنى عليها كثيراً أمام عائشة - رضى الله عنها - حتى أدركتها النيرة . فالواقع بينهما في الليشة الزوجية كان بالناحده ولا شك أن هذا من حسن الخلق وصفاء السيرة والسريرة . ولما أدركت عائشة رضى الله عنها - النيرة من حسن ثنائه صلى الله عليه وسلم على خديجة قالت : هل كانت

الإجموزاً فقد أبدلك الله خيراً منها . فضض رسول الله حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال : « لا والله ما بدلتني الله خيراً منها . آمنت في إذ كفر الناس ، وصدقتني وكذبتني الناس ، وواسقتني في ملأ إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء » قالت عائشة قتلت في نفسي لأذكرها بشيئة أبداً . فكان عليه السلام متجلياً في صفوه وشبابه بخير الخلال وأجل الصفات . بعيداً عن الشبهات .

رسالة محمد

صلى الله عليه وسلم

إتيانها من التوراة والإنجيل

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة بأسعاً بشرىته الشرائع الماضية ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة سبأ وقال : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾

سورة الفرقان

وقد وردت البشارة به في التوراة والإنجيل والزبور

فجاء في قول يوحنا حكاية عن المسيح عليه السلام (ص ١٤ ف ١٥) ما يأتي :

(إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصايتي وأنا أطلب من الآب فيعطيك فارقليطاً آخر ليكن معكم إلى الأبد . روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه وأما أنتم تعرفونه لأنه ماكن معكم وفيكم) .

وفي ص ١٦ ف ٥ : (وأما الآن فأنامض إلى الذي أرسلني وليس أحد منكم بإناني أين تمضي لكن لأنني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم لكنني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطق لأنه إن لم أنطق لا يأتيكم الفارقليط . Paraclet . لكن إن ذهبت أرسله إليكم وفي جاء ذلك يسكن العالم على خطيتكم وعلى دينونة . أما على الخطية فلاهم لا يؤمنون بي ، وأما على بر فلائي ذاهب إلى أبي ولا تروني أيضاً . وأما على دينونة فلائي رئيس هذا العالم قد دين . إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تسمعوا الآن وأما متى جاء ذلك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية . ذلك يمجدي لأنه لا يأخذ مما لي ويخبركم)

إن هذه الترجمة رديئة فالأسلوب ضعيف والألفاظ مكررة تكراراً لا مبرور له والجل مفككة خالية

من الروح ولذا لا يتأثر منها القارئ وترجمة الفارقليط أو البارقليط بالبرية (أحد) كما قال تعالى في كتاب العزيز: (وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَدْئِ أَمْرِ أَهْلِكَ) ^(١) وقد تصرف اللزجون في هذه اللفظة فكانوا تارة يقولونها عن الثقات الثلاث الأصلية وهي: العبرانية والسكلدانية واليونانية بالدرى وأخرى بالخلص أو يكتبونها البارقليط كما هي:

ومن يقرأ هذه النصوص وينعم النظر في معناها ومرباها يجد أن عيسى عليه السلام بشر برسالة نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام فسماه فارقليطاً آخر يعني رسولا غيره تبق شريعته إلى قيام الساعة ولا يأتي بعده نبي ولا رسول. وقال إنه إن لم ينطق لا يأتي الفارقليط وقد بكت النبي صلى الله عليه وسلم النصرى واليهود الذين أنكروا نبوة المسيح وأسأوا إليه وحرفوا دينه وقد أرشد النبي عليه الصلاة والسلام الناس كافة إلى الحق وكان لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به أى لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وثبت أنه أخبر بأمور آتية وقد وقع ما أخبر به وتجد عيسى عليه السلام وتدل آيات القرآن الكريم على ما ورد في الإنجيل فإذ النبي صلى الله عليه وسلم (الفارقليط الذى أتى بعد عيسى عليه السلام) لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به وأنه يرشد إلى الحق. قال تعالى: (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنْ أَرْسَلٍ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُكُمْ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ) (تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ). وإذا كان الفارقليط لا يشير إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فإلى من يشير إذن؟ وأين الذى جاء بعد عيسى عليه السلام؟ ومن هو الذى بكت العالم على خطيئته ومن هو روح الحق الذى لا يتكلم من نفسه الخ، أليس هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وجاء في وصية موسى الكليم عليه السلام كافي ص ٢٣ ف ٢: من الثنية ولفظه:

(قال جاء الرب من سيناء وأشرق من ساعير واستعان من فاران ومعه ألوف الأطهار في يمينه سنة من نار. أحب الشعوب جميع الأطهار بيده والذين يقربون من رجله يقبلون من تعليمه)،

هذه الوصية هي آخر وصايا موسى عليه السلام. وقد أخبر بعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ووضح لهم أن

(١) سورة الصف. وقد سأل المرحوم الشيخ عبد الوهاب الزهار الدكتور كلولو طينو المستشرق الإيطالى عن معنى كلمة بارقليط فقال: إن معناها «الذى له حد كبير». وهذا يوافق أصل التفضيل من حد.

الله جاء من سيناء ^(١) وأوصاكم بواسطى باتباع التوراة ويستشرق عليكم بواسطة عيسى من ساعير وهى جبال فلسطين فلم يبق إلا أن يستعان من جبال فاران (وللراد بها مكة وهى البلدة التى سكنها إسماعيل) وأوف الأظهار هم الصحابة رضوان الله عليهم . فى ميمنه سنة من نار وهى الشريعة الإسلامية لأنها أحرقت للشركين .

ولما كان من المهم أن نعرف مكان فاران التى وردت فى وصية موسى بحث عنها فى أشهر المراجع الموثوق بها فقد جاء فى معجم ياقوت جزء ٦ صفحة ٣٢٣ طبع مصر سنة ١٣٢٤ (فاران هى من أسماء مكة ورد ذكرها فى التوراة فىل هى اسم لجبال مكة) وجاء فى كتاب صفة جزيرة العرب للهمداني طبع ليدن ١٨٨٣ صفحة ١٧٠ : وأما معدن فران فإنه نسب إلى قرآن بن علي بن عمرو كاقيل فى جبال الحرم جبال فاران وذكرت بذلك فى التوراة وهى نسبة إلى فاران بن عمليق . وجاء فى كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام تأليف قطب الدين التبروانى المسكى طبع ليبسك سنة ١٨٥٧ ص ١٨ عند ذكر أسماء مكة ما يأتى :

(ومن أسماء كوفى لأن كوفى اسم لحل من قيقعان وفاران والمقدسة وقرية النمل لكثرة نملها والحاطة لحطامها للجبايرة والوادى والحرم الخ) فلم يبق شك فى أن فاران جبال بمكة أو هى مكة نفسها سميت باسم تلك الجبال .

وجاء فى سفر أشعيا الإصلاح الحادى والأربعين (أنصتى إلى أيتها الجزائر وتجدد القبائل قوة ليقربوا ثم يتكلموا . لتتقدم معاً إلى الحماكة من أنهب من للشرق الذى يلاقى النصر عند رجليه دفع أمامه أممًا وعلى ملوك سلطه . جعلهم كالتراب بسيفه وكالتش للنزى بقوسه . طردهم . مر سائلاً فى طريق لم يسلكه برجليه من فعل وصنع داعياً الأجيال من البدء أنا الرب الأول ومع الآخرين أنا هو) وللراد بالقبائل قبائل العرب وصاحب السيف والقوس هو محمد صلى الله عليه وسلم فإن عيسى لم يحارب أصلاً .

وجاء فى الفصل ١٨ من الكتاب الخامس من سفر التثنية أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام (قل لبني إسرائيل إلى أقيم لهم آخر الزمان نبياً مثلك من بنى إخوانهم) وكل نبى بعث بعد موسى كان من بنى إسرائيل وآخرهم عيسى عليه السلام فلم يبق أن يكون من بنى إخوانهم إلا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنهم ولد لإسماعيل وإسماعيل أخو إسماعيل وإسماعيل جد بنى إسرائيل فهذه هى الأخوة التى ذكرت فى التوراة ولو كانت هذه البشارة بنى من أنبياء بنى إسرائيل لم يكن لذكر إخوانهم معنى .

وجاء فى كتاب الرؤيا المنسوب إلى يوحنا الإنجيلى فى ص ١٩ ف ١١ ما نصه : (ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعى أميناً صادقاً وبالعدل يحكم ويحارب وعيناه ككهرب نار وعلى رأسه تيجان

(١) يريد بجميعه ظهور دينه وتوحيده بما أوحى إلى موسى بدينه .

كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو) وهناك قال إنه يجارب ولا شك أنه محمد صلى الله عليه وسلم . وقد كان يدعى قبل الرسالة بالأمين الصادق كما أسلفنا .

وجاء في رؤيا يوحنا اللاهوتي ص ١٩ ف ١٥ (ومن فيه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم وهو سیرعام بصا من حديد وهو بدوس مصصرة خر سخط وغضب الله القادر على كل شيء) والبراد من قوله يخرج من فيه سيف ماض الخ هو القرآن الكريم . وقد داس النبي صلى الله عليه وسلم مصصرة خر أعنى أنه حرم الخمر تحريماً قطعياً . أما عيسى فقد روى عنه المسيحيون أنه قلب للماء خراً في عرس قانا وروى عنه أنه قال عن الخمر إنها دمه .

هذه النصوص المذكورة في التوراة والإنجيل ناطقة برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، لهذا لما كان بحيرا الراهب متبحراً في علم النصرانية فقد عرف النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره برسالته مما اطلع عليه في الكتب المقدسة فيها أوصافه عليه الصلاة والسلام وشيء من إرهاباته ومعجزاته وكانت حليلة السمعية تعرض للنبي صلى الله عليه وسلم على اليهود والكهان وتحدثهم بشأنه فيعرفونه من أوصافه وأحواله وقد أخبر برسالته عليه الصلاة والسلام ورقة بن نوفل ابن عم خديجة وكان شيخاً نصرانياً عند ما أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى من الوحي إذ قال له « هذا هو الناموس الذي نزل الله على موسى » إلى آخر ما قال مما سأتى ذكره في موضعه . هذا وقد أئذر اليهود برسول الله صلى الله عليه وسلم وإليك ما جاء في سيرة ابن هشام :

إنذار يهود

برسول الله صلى الله عليه وسلم

قال ابن إسحاق وحديثي عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إن ما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله وهداه لنا ما كنا نسع من رجال يهود وكنا أهل شرك وأصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور فإذا قلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن فتتلكم معه قتل عاد وإرم فكننا كثيراً ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله أجبناه حين دعانا إلى الله وعرفنا ما كانوا يوعظونا به فبادرناهم إليه فأمننا به وكفروا به وفيهم نزلت هذه الآيات من البقرة : (وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ) قال ابن هشام : يستفحون : يستنصرون ، ويستفحون أيضاً يصحكون . وفي كتاب الله تعالى : (رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) .

قال ابن إسحاق : وحديثي صالح بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف بن محمود بن ليبد بن عبد الأشمل عن

سلمة بن سلامة بن وقش وكان سلمة من أصحاب بدر . قال كان لنا جار من يهود في بني عبد الأشهل قال فخرج علينا يوماً من بيتي حتى وقف على بني عبد الأشهل قال سلمة وأنا يومئذ من أحدث من فيه سئاً على بركة لي مضطجع فيها بفناء أهلي فذكر القباية والبعث والحساب والميزان والجنة والنار قال فقال ذلك لتمام أهل شرك أصحاب أوثان لا يرون أن يبتأ كائن بعد الموت . فقالوا له ويحك يا فلان أترى هذا كائناً أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار ويميزون فيها بأعمالهم ؟ قال : نعم والذي يُخلف به . ولو دان له بحظه من تلك النار أعظم تنور في الدار يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطعنونه عليه بأن ينجو من تلك النار غداً . فقالوا له ويحك يا فلان فما آية ذلك ؟ قال : نبي مبعوث من نحو هذه البلاد وأشار بيده إلى مكة والمين . قالوا : ومتى تراه ؟ قال : فنظر إلّ وأنا أحشهم سئاً . فقال : إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه . قال سلمة فوالله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم وهو حي بين أظهرنا قائلنا به وكفر به بنياً وحسداً . قال : قلنا له ويحك يا فلان أأنت بالذي قلت لنا فيه ما قلت ؟ قال : بلى ولكن ليس به . قال ابن إسحاق وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة قال : قال لي هل تدري عم كان لإسلام نعلية بن سمية وأسد بن عبيد غر من همل إخوة بني قريظة كانوا معهم في جاهليتهم ثم كانوا سادتهم في الإسلام ، قال قلت لا والله . قال فإن رجلاً من يهود من أهل الشام يقال له ابن الهبيان قدم علينا قبل الإسلام بسنين غل بين أظهرنا لا والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلح الخس منه فأقام عندنا فنكنا إذا قطع عنا المطر قلنا له اخرج يا ابن الهبيان فاستسقى لنا فيقول لا والله حتى تقدموا بين يدي مخرجكم صدقة فنقول له كم ؟ فيقول صاعاً من تمر أو مدين من شعير قال فنخرجها ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقى الله لنا فوالله ما يبرح مجلسه حتى يمر السحاب ونسقى . قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً ثم حضرته الوفاة عندنا فلما عرف أنه ميت قال : يا معشر يهود ما ترونه أخرجني من أرض الحمر والخمر إلى أرض البؤس والجوع ؟ قلنا أنت أعلم . قال فإني إنما قدمت هذه البلدة أنوكف خروج نبي قد أغل زمانه وهذه البلدة مهاجرة فكنت أرجو أن يبعث فأتبعه وقد أغللك زمانه فلا تُسبِقن إليه : يا معشر يهود فإنه يبعث بشفك السماء وسبي الذراري والنساء ممن خالقه فلا تمنعنكم ذلك منه . فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحاصر بني قريظة قال هؤلاء الفتية - وكانوا شباباً أحياناً - يا بني قريظة والله إنه للنبي الذي كان عهد إليكم فيه ابن الهبيان ، قالوا ليس به ، قالوا بلى والله إنه لهو بصفته ، فتركوا فأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهليهم . قال ابن إسحاق فهذا ما بلغنا عن أخبار يهود .

قال تعالى يوحى أهل الكتاب على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وجحودهم بنبوته (يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون) أي تشهدون أن نعت محمد في كتابكم ثم تكفرون به ولا تؤمنون به وأنتم تجحدونه عندكم في التوراة والإنجيل والنبي والامى .

سلمان الفارسي

وقصة إسلامه

سلمان الفارسي أبو عبد الله ويعرف بسلمان الخير مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصله من جى وهو مدينة أصفهان وكان اسمه قبل الإسلام مابه بن بوذخشان بن مورسلان بن بهروزان بن فيروز بن سهرق من ولا آب للث وكان بيلاد فارس مجوسياً سادن النار^(١). وكان أبوه مجوسياً فاتفق أنه هرب منه يوماً ولحق بالرهبار وصحبهم ثم قدم الحجاز عند ظهور النبي مع العرب فباعوه إلى يهودى من قريظة فأتى به للمدينة فلما دخلها النبي أسلم وشهد معه أكثر المتأهدين وأول مشاهدته وقعة الخندق وكان من فضلاء الصحابة وزهادهم وعلمائهم وذوؤ القربى من الرسول وهو الذى أشار على الرسول بنجر الخندق حين جاءت الأحزاب، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلمان منا أهل البيت » وكان يعدل الخوص بيده ويأكل من ثمنه وأخى الرسول بينه وبين أذرباء وروى عنه جماعة من العلماء . توفى سنة ٣٥ للهجرة وقيل ٣٤ ودفن فى اللدائن شرق بشارد وله مقام إذا إيوان كسرى يزار حتى الآن ويعرف بمقام سلمان بالك وهو لفظة فارسية معناها الطاهر . قيل عاش ١٥٠ سنة وقيل أكثر من ذلك وهو من معمرى العرب .

وهذه قصة إسلامه عن ابن عباس رضى الله عنه .

عن ابن عباس رضى الله عنه قال حدثنى سلمان الفارسي وأنا أسمع من فيه قال : كنت رجلاً من أهل فارس من أصفهان من جى ابن رجل من دهاقينها^(٢) وكنت أحب خلق الله إليه فأجسنى فى البيت كالجوارى فأجهدت فى الفارسية^(٣) وكان أبى صاحب ضيعة وكان له بناء يعالجه فقال لى يوماً يا بنى قد شغلنى ما ترى فانطلق إلى الضيعة ولا تحتبس فتشغلنى عن كل ضيعة بهى بك : فخرجت لذلك ففررت بكنيسة النصارى وهم يصلون فلت إليهم وأعجبني أمرهم وقلت هذا والله خير من ديننا فأفقت عندهم حتى غابت الشمس لا أنا أتيت الضيعة ولا رجعت إليه فالتبطنأتى وبشت رسلاً فى طلبة وقد قلت للنصارى حين أعجبني أمرهم أين أصل هذا الدين ؟ قالوا بالشام فرجعت إلى والدى . قال يا بنى قد بشت إليك رسلاً . قلت مررت بقوم يصلون بكنيسة فأعجبني ما رأيت من أمرهم وعلت أن دينهم خير من ديننا . قال يا بنى دينك ودين آبائك خير من دينهم قلت كلا والله تخافنى وقيدنى فبشت إلى النصارى وأعجبهم ما وافقنى من أمرهم وسألهم لإعلاهم من يريد الشام ففعلوا فأقنيت الحليد من رجلى وخرجت معهم حتى أتيت الشام فسألهم عن عالمهم فقالوا الأسقف فأتيته فأخبرته وقلت

(٢) دهاقين جمع دهقان وهو شيخ القرية

(١) راجع سيرة ابن هشام وأسد الغابة لابن الأثير

(٣) ولى حديث على بن جابر « لى المجوسية »

أكون مملك . أخذمك وأصلب مملك . قال أقم . فكشكت مع رجل سوء كان يأمرهم بالصدقة فإذا أعطوه شيئاً أمسكه لنفسه حتى جمع سبع لقال ملوءة ذهباً وورقاً^(١) فتوفي فأخبرتهم بغيره فزجروني فدللتهم على ماله فضلبوه ولم ينيبوه ورجوه وأجلسوا مكانه رجلاً فاضلاً في دينه زهداً ورغبة في الآخرة وصالحاً فألقى الله حبه في قلبي حتى حضرته الوفاة فقلت أوصني فذكر رجلاً بالموصل وكنا على أمر واحد حتى هلك فأثبتت بالموصل فلقيت الرجل فأخبرته بغيري وأن فلاناً أمرني بإتيانك فقال : أقم فوجدته على سبيله وأمره حتى حضرته الوفاة . فقلت له أوصني ، فقال : ما أعرف أحداً على ما نحن عليه إلا رجلاً بمورية فأتيت به بمورية^(٢) فأخبرته بغيري فأمرني بالمقام وثاب لي شيئاً واتخذت غنيمة وبقرات فخضرته الوفاة فقلت إلى من توصي بي ؟ فقال : لا أعلم أحداً اليوم على مثل ما كنا عليه ولكن قد أطاك نبي^ﷺ يبعث بدين إبراهيم الحنيفية . مهاجرة بأرض ذات نخل وبه آيات وعلامات لا تخفى ، بين منكم خاتم النبوة يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة فإن استطعت فتخلص إليه فتوفي فر بي ركب من العرب من بني كلاب فقلت أصحبكم وأعطيكم بقراتي وغني هذه وتمهلوني إلى بلادكم فخلوني إلى وادي القرى فباعوني من رجل من اليهود . فرأيت النخل فقلت أنه البلد الذي وصف لي فأقت عند الذي اشترايت وقدم عليه رجل من بني قريظة فأشتراني منه وقدم لي المدينة ففرقتها بصفتها فأقلت معه أعل في نخله وبعث الله نبيه ﷺ وغفأت عن ذلك حتى قدم المدينة فنزل في بني عمرو بن عوف . فأتني لرأس نخلة إذ أقبل ابن عم لصاحبي^(٣) ، فقال أي فلان قاتل الله بني قيلة^(٤) سهرت بهم آفأاً وهم مجتمعون على رجل قدم عليهم من مكة يزعم أنه نبي^ﷺ . فوالله ما هو إلا أن سمعها ، فأخذني القر فرفجت في النخلة حتى كدت أسقط وزلت سريعاً فأقبلت على عملي حتى أمسيت فجمعت شيئاً فأتيت به وهو بقاء عند أصحابه . فقلت اجتمع عندي شيء أردت أن أتصدق به فبلغني أنك رجل صالح ومملك رجال من أصحابك ذوو حاجة فرأيتهم أحق به فوضعت بين يديه فكف يده وقال لأصحابه كلوا فأكلوا . فقلت هذه واحدة ، ورجعت وتحول إلى المدينة فجمعت شيئاً فأتيت به فقلت أحببت كرامتك فأهديت لك هدية وليست بصدقة فد يده فأكل وأكل أصحابه فقلت هاتان اثنتان ، ورجعت فأتيت به وقد تبع جنزارة في بقيع الفرقد^(٥) وحوله أصحابه . فسلمت وتحول أنظر إلى الخيام في ظهره فطمع ما أردت فألقي رداءه فرأيت الخيام قبلته وبكيت فأجلسني بين يديه فحدثته بشأن كله كما حدثتك يا ابن عباس ، فأعجبته ذلك وأحب أن يسمعه أصحابه فأتاني معه بدر وأحد بالرق فقال لي : كاتب

(١) الورق بكسر الراء مفتوحاً ما قبلها : الفضة

(٢) عمورية بفتح أوله وتشديد ثانيه : بلد من بلاد الروم فتحها الخليفة سنة ٢٢٣ هـ

(٣) كان ذلك في يوم الجمعة ١٦ من ربيع الأول بعد وصول رسول الله إلى المدينة بأربعة أيام (٢ يولية سنة ٦٢٢ م)

(٤) بني قيلة : يريد عرب المدينة

(٥) بقيع الفرقد : أصل البقيع في اللغة الموضع الذي فيه أروم الحجر من صروب شق وبه سمي بقيع الفرقد . والفرقد كبر الوسج ، وجميع الفرقد هو مغبرة أهل المدينة وهي داخل المدينة

باسلمان عن نفسك فلم أزل يصلحني حتى كاتبته على أن أغرس له ثلاثمائة ودية^(١) وعلى أربعين أوقية من ذهب فقال النبي صلى الله عليه وسلم أعينوا أخاكم بالنخل فأعانوني بالنخل والشمر حتى اجتمع لي أنقر لها ولا تضع منها شيئاً حتى أضعه بيدي فقلت فأعانتني أصحابي حتى فرغت فأتيته فكنت آتية بالنخلة فيضعها ويسوي عليها تراباً فأنصرف . والذي بعثه بالحق فما مانت منها واحدة وبقي الذهب فيينا هو قاعد إذ أتاه رجل من أصحابه بمثل البيضة من ذهب أصابه من فضض المادن . فقال ادع سلمان المسكين الفارسي المكاتب . فقال أذ هذه قتلت يا رسول الله وأين تقع هذه مما على^(٢) ؟

هذه قصة سلمان الفارسي وهي كما يتضح للقارئ للنصف معقولة وليس فيها شيء من اللبالة ، وبلا حظ أن سلمان كان من صفه ميلاً إلا التدين والتشفق فصاحب كبار أهل الدين وتعلم منهم وهذه التهمة تدل على صدق رسالة نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام ، لأن سلمان ما عرف النبي إلا بالعلامات التي أخبره بها صاحبه بمعمورية ولم يسلم إلا بعد أن تحققت صحة هذه العلامات فيه صلى الله عليه وسلم . ومن المحقق من ترجمة حياة سلمان أن أباه كان مجوسياً من بلاد الفرس وأنه هرب منه ولحق بالرهبان وصاحبهم واحداً بعد واحد إلى أن لقي النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم .

ونلاحظ أن سلمان لم يذكر أسماء الرهبان أو الأساقفة الذين كان يلزمهم وإن كان قد ذكر بلادهم . وشهد رسول الله سلمان الفارسي بالطهارة والحفظ الإلهي والمصمة حيث قال : « سلمان منا أهل البيت » وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كان الإيمان بالثرى لكان للثريا رجال من فارس » وأشار إلى سلمان الفارسي .

وكان سلمان من خيار الصحابة وزهادهم وفضلاهم وذوى القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت عائشة كان سلمان مجلس من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالليل حتى كان يثلبنا على رسول الله . وسئل على عن سلمان ، قال ، علم العلم الأول والعلم الآخر وهو بحر لا ينزف وهو منا أهل البيت وهو الذي أشار على رسول الله بمغفر الخندق لما جاءت الأحزاب . فأمر رسول الله بمغفره فاحتسب للمهاجرين والأنصار في سلمان وكان رجلاً قويا . وتوفي سنة ٣٥ هـ في آخر خلافة عثمان وقيل إنه عاش ٣٥ سنة فأما ٢٥٠ فلا يشكون فيه .

من تسمى في الجاهلية بمحمد

كانت العرب تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أن نبياً يبعث من العرب اسمه (محمد) فسي

(١) الودية : واحدة الودي : صغار فيل النخل
(٢) راجع الجزء الثاني من أسد الغابة لابن الأثير

من بلغه ذلك من العرب ولده محمداً طمعاً في النبوة . سعى محمد بن الخزاعي بن خزابة من بني ذكوان من بني سليم طمعاً في النبوة فأتى أبرهة باليمن فسكران معه على دينه حتى مات فلما قال أخوه قيس بن خزاعي :
فذلّكم ذو التلج . منا محمد ورايته في حومة الحرب تحقّق .
وكان في بني تميم محمد بن سفيان بن مجاشع وكان أسقفاً قبل لأبيه إنه يكون للعرب نبي اسمه محمد فسماه محمداً .
ومحمد الجشعي في بني سؤدة . ومحمد الأسدي ومحمد القيسي سمرهم طمعاً في النبوة .
هذا ما وجدته في طبقات ابن سعد فليرجع إليه من شاء . ومن هذا كله يتضح أنهم كانوا ينتظرون ظهور نبي في ذلك الزمان .

عبادة الأصنام والأوثان

الصنم ينحت من خشب ويصاغ من فضة ونحاس . والجمع أصنام . وقيل هو ما كان له جسم أو صورة ، فإن لم يكن له جسم أو صورة فهو وثن . قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ماله جثة معموله من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الأدي تعمل وتصبّ قنعبه والصنم : الصورة بلا جثة . ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على اللغتين . قال وقد يطلق الوثن على غير الصورة ^(١) .
الوثنية بلاد العرب ترجع إلى عهد بعيد جداً . قيل إن إسماعيل بن إبراهيم لما سكن مكة وولد له بها أولاد كثيرة حتى ملأوا مكة ونفوا من كان بها من العالقي ، ضاقت عليهم مكة ووقعت بينهم الحروب والمداوات وأخرج بعضهم بعضاً فتنسحوا في البلاد لالتماس العاش ^(٢) .

وكان الذي حدا بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة فالتعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصباية بمكة فخيموا حلوا وضموه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمناً منهم وصباية بالحرم وجباً له . وهم بعد يظلمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمر على إرث إبراهيم وإسماعيل .
ثم أدى بهم إلى أن عبدوا ما استحبوا ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدین إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم واتبعوها ^(٣) ما كان يعبد قوم نوح منها على إرث ما بقي فيهم من ذكرها وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس منه .

وكان أول من غيّر دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان وسبب السائبة ووصل الوصيلة وبجّر البحيرة

(١) راجع لسان العرب (٢) كتاب الأصنام لأبي النضر هشام (٣) استخرجوا .

وحى الحامية ، عمرو بن ربيعة ، وهو لُحَيّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدي وهو أبو خزاعة .
 وكانت أم عمرو بن لُحَيّ فهبيرة بنت عمرو بن الحارث .
 وكان الحارث هو الذي بلى أمر الكعبة فلما بلغ عمرو بن لُحَيّ نازعه في الولاية وقاتل جرهما بيني إسماعيل
 فظفر بهم وأجلاهم عن الكعبة وقام من بلاد مكة وتولى حجابة البيت بعدهم .
 ثم إنه مرض مرضاً شديداً ، فقيل له : إن بالبقاء من الشام حجة ^(١) إن أتيتها برأت فأتاها فاستحم بها
 فبرأ ووجد أهلها يبكون الأصنام ، قال : ما هذه ؟ قالوا : نستقي بها الماء ونستنصر بها على الصلوة .
 فسألهم أن يعطوه منها فعملوا قدّم بها مكة ونصبها حول الكعبة . وقيل إنهم أعطوه صنماً يقال له هُبَل قدّم به مكة
 فوضعه عند الكعبة فكان أول صنم وضع بمكة .

قال ابن هشام : فعدنا الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : رفعت لي النار
 فرأيت عمراً (أي عمرو بن لُحَيّ) رجلاً قصيراً أحمر أزرق يمر قُصْبِي النار . قلت : من هذا ؟ قيل هذا عمرو بن
 لُحَيّ أول من بمر البهيرة ووصل الوصلة وسبب السائبة وحى الحامية وغير دين إبراهيم ودعا العرب إلى
 عبادة الأوثان .

وقد جاء في القرآن ذكر الأصنام الخسة التي كان يعبدونها قوم نوح ؛ قال تعالى :
 ﴿ قَالَ مُوسَىٰ رَبِّ اٰیْهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوْا مَنْ لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَّلَوْلَآءُ اِلَّا خَسَارًا وَمَكَرُوْا مَكْرًا كَبِيْرًا
 وَقَالُوْا لَا تَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِْكَةٌ وَلَا تَنْزِلْ وَدًّا وَلَا سَوَآءًا وَلَا يَذُوْثُ وَيَتَّقُوْا وَتَسْرَآوَقَدْ اَضْلٰوْا كَثِيْرًا وَلَا تَزِدْ
 الظَّٰلِمِيْنَ اِلَّا ضَلٰلًا ۝۱۰ ﴾ .

ولم يرد ذكر هُبَل في القرآن .

ويقال إن هذه الأصنام وجدها عمرو بن لُحَيّ في ساحل جُذّة وفرقها فأتخذتها الرب آلهة .
 ومن الأصنام المشهورة القديمة إساف ونائلة عبيدتها خزاعة وقريش ومن حج البيت بعدُ من العرب وكانوا
 ينحرون وبذبحون عندها .

ومِنَها كان منصوباً على ساحل البحر من ناحية للشلل بقديد بين مكة والمدينة وكانت العرب جميعاً تعظمه
 وتدبج حوله ولم يسكن أحد أشد إعظاماً له من الأوس والخزرج . وقد ورد ذكر مناة في القرآن . قال تعالى ﴿ وَمَنَاةَ
 الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝۱۱ ﴾ .

وكانت لمذيل وخزاعة . وقد هدمها على رضى الله عنه عند فتح مكة بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 والفيلس وهو صنم طيبي هدمه على رضى الله عنه بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) الحجة : مادة حارة يشتق بها .

واللات (تأنيث الله) وهي أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة وكانت قریش كلها تعظمها وهي بالطائف ذكرها الله في القرآن فقال ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴾ ولم تزل كذلك حتى أسلمت قتيبة فبث رسول الله صلى الله عليه وسلم للغيرة بن شعبة فهدمها وأحرقها بالنار . والطاغية هي اللات كانوا يقولون لها الربة . وجاء في قاموس الإسلام ^(١) « أن هيرودت لم يشر إلى الكعبة لكنه ذكر اللات وقال إنها من أعظم آلهة العرب وهذا دليل قوي على وجود ذلك الصنم للمسي باللات وقد كان من معبودات ذلك الزمن » .

ومن أصنامهم العزى (تأنيث الأعز) والأعز بمعنى المزير ويقال إنها أحدث من اللات ومناة . كانت بوادي نخلة الشامية وكانت أعظم الأصنام عند قریش وكانوا يزورونها ويهدون لها ويقرّبون عندها بالذبح . قال ابن حبيب : العزى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطفان . وفي التنزيل ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ .

ولم تزل العزى كذلك حتى بعث الله نبيه صلى الله عليه وسلم فهاها وغيرها من الأصنام ونهّاهم عن عبادتها ونزل القرآن فيها فاشتد ذلك على قریش ، ومرض أبو أحيجة سميد بن العامي بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف مرضه الذي مات فيه فدخل عليه فدخل عليه أبو لهب فوجده يبكي فقال له ما يبكيك يا أبا أحيجة ؟ أمن الموت تبكي ولا بد منه ؟ فقال : لا ولكني أخاف ألا تعبد (العزى) بعدى ! قال له أبو لهب : ما عبدت في حياتك لألاك ولا تترك عبادتها بعدك موتك . قال أبو أحيجة : الآن علمت أن لى خليفة وأعجبه شدة نصبه في عبادتها ^(٢) . وتدل القصة على شدة التمسك بعبادة الأصنام . وكان بعضهم يعبد لللائكة وكانوا يقولون : اللائكة بنات الله . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْإِنثَىٰ ﴾ .

فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ، بعث خالد بن الوليد فهدم العزى ، وكانت لقریش أصنام حول الكعبة وفي جوفها وكان أعظمها عندهم هبل . قيل إنه كان من عتيق أحرر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى . أدركته قریش كذلك فبعلوا له يداً من ذهب وكان أول من نصبه خزمية بن مدركة بن إلياس بن مضر وكان يقال له بعل خزمو عنهده ضرب عبد المطلب على ابنه عبد الله بالقتل . ومن الأصنام التي كانت عند الكعبة إساف ونائلة فلما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة أخرجت من المسجد وأحرقت وكان يبلغ عددها ٣٦٠ صنماً . ومن أصنامهم مناف . وكان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه فلذا أراد أحدهم السرّكان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به وإذا قدم من سفره ، كان أول ما يصنع الرجل إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً وكانوا يسهون الحجارة التي ينصبونها حول الحرم « الأصنام » .

(1) Dictionary of Islam by Hughes p 292. 2nd edition

(٢) راجع معجم البلدان (عزى) وكتاب الأصنام لابن الكلبي ص ٢٣ .

ومن أصنامهم : ذو النخلصة وسعد وذو الكفين وذو الشرى والأقيصر وسعير وعيانس والأسحم والأشم وأوال وباجر والبجة والبيم وبلج وبوانة وتيم وجريش ، وعبدة الأصنام ينكبون بعث الأجساد . وكان العرب من يعتقد التناسخ وتنقل الأرواح في الأجساد وكانوا يعتقدون وقوع المسخ ونسبوا أكثر الأمهات إلى الجن وعبدها بعضهم ومن هذا يرى أن آلهة العرب كانت متعددة .

الأربعة الباحثون عن دين إبراهيم

قد استنكر بعض العرب عبادة الأصنام وأدرك أنها لا تنفع ولا تضر وذلك في الجاهلية قبل أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقد حدث أنه بينما كانت قريش مجتمعمة يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم يتكفون عناء ويدورون به وكان ذلك عيداً لهم كل سنة ، إذ خالص منهم أربعونهم : ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، وعبيدا ابن جحش بن رثبان وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزى وزيد بن عمرو بن نفل بن عبد العزى فها بعضهم بعض تملوا والله ما قومكم على شيء . لقد أخطأوا دين إبراهيم ماجر نطف به لا يسمع ولا يبصر ولا ينف ولا ينفق ؟ يا قوم اتمسوا لأنفسكم ديناً فإنكم والله ما أنتم على شيء . ففرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية ، دين إبراهيم . ١ - فأما ورقة بن نوفل وهو ابن عم خديجة فاستحکم في النصرانية واتبع الكتب في أهلها حتى علم من أهل الكتاب .

٢ - وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الوثنية حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة ومعه امرأته أم حبيبة ابنة أبي سفيان مسلمة ثم تنصر وفارق الإسلام حتى هلك هناك نصرانياً . وخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على امرأته أم حبيبة .

٣ - وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر ، ملك الروم فتنصر وحسنت منزلته عنده .

٤ - وأما زيد بن عمرو بن نفل ، فوقع فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان .

الرد على مستر كانون سل

قال مستر كانون سل في كتابه « حياة محمد ^(١) » (قال زيد وأصحابه إنهم رغبوا في اتباع دين إبراهيم . ويطا أن محمداً أخذ منهم هذه الفكرة) ثم قال : (بقي زيد حنيفاً وعاب على أهل مكة عبادة الأصنام فأثار ذلك غضب

(1) The Life of Muhammad by The Rev. Canon Sell.

فأرغم على ترك مكة والإقامة في جبل حراء وبعد أن أمضى هنالك زمناً يفكر ، توفي ودفن بأصل الجبل وقد كان له تأثير عظيم في محمد الذي كان يحمل شأنه ويقدره قدره . ولا ريب أن هؤلاء الرجال وأمثالهم من ذوى العقول الراجحة كانوا كثيراً ما يتشاورون ويتجادلون فيما وصلت إليه حالة العرب الاجتماعية من الانحطاط وبأسفون لا تنشر الوثنية وضعف مركزهم السياسى . ولم ينبج عثمان بن الحويرث في تأسيس سلطنة مركزية لا تعتمد على دولة أجنبية . الامبراطورية الرومانية . ومع ذلك كانت الحاجة تدعو إلى وجود سلطة مركزية والاعتراف بالكعبة وجعلها قوة دينية للعرب جميعاً ، فكيف الوصول إلى ذلك ؟ وكيف يمكن إبطال عبادة الأصنام ؟ إلى أن قال وهنا سعت الفرصة لظهور نبي . وقد كان الاستعداد لظهوره قريباً وما لبث أن ظهر نبي قوى الشخصية ذو فطنة سياسية فائقة برسالة محدودة للأمة العربية اه هذا مازعه مستر كانون سل . فنقول :

نعم إن هؤلاء تحدّثوا في أمر انتشار عبادة الأصنام وأخذوا يبعثون عن الدين الصحيح لكن محادثتهم كانت قليلة . وليس لها شأن ولم يبلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجتمع بهم ويحادثهم في شؤون العرب الدينية أو السياسية وقد كان زيد بن عمرو مضطهداً ولجأ إلى حراء لكن لم تكن له اجتماعات برسول الله حتى يقال إنه تذكر معه مسائل الدين وترك في نفسه أثراً عميقاً أو أنه أخذ منه الفكرة لأن المسألة ليست مسألة اقتباس فكرة فالتقرآن وما حواه من فصاحة وبلاغة خارقة وحكم بالغة وأمثال محكمة وذكر أحوال المؤمنين من أنبياء وأمم وأبناء المستقبل وعلاقة الإنسان بخلقه وعلاقته بغيره والتشريع العظيم الشأن الذى صار موضوع بحث الأئمة المجتهدين والعلما والأعلام . لا يكون مصدره اجتماع زيد بن عمرو برسول الله مصادفة في حراء أو في الطريق . ثم إننا فوق ذلك لا نعلم من تاريخ رسول الله أنه كان يتذكر مع رجال أو كانوا يعلمونه من صفه إلى أن صار نبياً بالثابت أنه كان أمياً لا يدرى ما الكتابة والقراءة ولا الدين وأصوله حتى أوحى إليه ثم إن رسالة النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن محدودة للأمة العربية كما ظن سل وأمثاله بل كانت رسالته عامة بنص القرآن ؛ قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

وإليك ترجمة حياة زيد بن عمرو إن شاء الله :

ترجمة زيد بن عمرو^(١)

هو زيد بن عمرو بن قنيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرظ بن رزاح بن عدلى بن كعب ابن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك القرشى العدوى والد سعيد بن زيد أحد العشرة وابن عم عمر بن الخطاب يجتمع هو وعمر في قيل . سئل عنه النبي صلى الله عليه وسلم فقال « يبعث أمة وحده يوم القيامة » وكان يتبع في الجاهلية ويطلب دين إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم ويوحى الله تعالى ويقول إلهي إله إبراهيم ودينى دين

إبراهيم وكان يسب على قريش ذبايحهم ويقول : (الشاة خلقها الله وأنزل لها من السماء ماء وأبنت لها من الأرض ثم تدمجونها على غير اسم الله تعالى) إنكاراً لذلك وإعظاماً له وكان لا يأكل مما ذبح على النصب (الأوثان) واجتمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيد بن عمرو بأسفل بلدح^(١) قبل أن يوحى إليه وكان يحى للوودة . ومن زيد بن حارثة قال : خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً حاراً من أيام مكة وهو مردف فلقينا زيد ابن عمرو بن نفيل فحى كل واحد منا صاحبه فقال النبي صلى الله عليه وسلم يازيد مالى أرى قومك قد شنفوا لك^(٢) قال والله يا محمد إن ذلك لغير نائلة ترة فيهم ولكن خرجت أبتنى هذا الدين حتى أقدم على أخبار خير فوجدتهم يبدلون الله ويشركون به قلت ما هذا الدين الذى أبتنى . فخرجت فقال لى شيخ منهم إنك لتسأل عن دين مانع أحداً يريد الله به إلا شيعاً بالحيرة . قال فخرجت حتى أقدم عليه فلما رأى قال ممن أنت ؟ قلت أنا من أهل بيت الله من أهل الشوك والقرط . قال إن الذى تطالب قد ظهر ببلادك . قد بُعث نبي قد طلع نجمه وجميع من رأيتهم فى ضلال قال فلم أحس بشئ .

قال زيد بن حارثة ومات زيد بن عمرو وأنزل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي فى زيد « إنه يبعث يوم القيامة أمة وحده » .

وقال أبو بكر الصديق يذكر اجتماعه بزيد بن عمرو :

« كنت جالساً بفناء الكعبة وكان زيد بن عمرو بن نفيل قاعداً . فر به أمية بن أبى الصلت فقال ، كيف أصبحت يا أباغى الخير ؟ قال ، بخير . قال هل وجدت ؟ قال لا ولم آل من طاب . قال :

كل دين يوم القيامة إلا ما قضى الله والخليفة بور

أما إن هذا النبي الذى ينتظر منا أو منكم أو من أهل فلسطين؟ قال ولم أكن سمعت من قبل ذلك بنى ينتظر أو يبعث . فخرجت أريد ورقة بن نوفل وكان كثير النظر فى السماء ، كثير مهمة الصدر . فاستوقفته ثم قصصت عليه الحديث . قال : نعم يا ابن أختى . أبى أهل الكتاب والعلماء إلا أن هذا النبي الذى ينتظر من أوسط العرب نسباً . ولى علم بالنسب ، وقومك أوسط العرب نسباً . قلت يا عم ، وما يقول الذى ؟ قال : يقول ما قيل له (أى بايوحى إليه) إلا أنه لا ظلم ولا ظالم . فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، آمنتُ وصدقتُ » .

وعن أسماء بنت أبى بكر قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول : يا معشر قريش والذى نفس زيد بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى . وكان يقول : اللهم لو أنى أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به ولكنى لا أعلمه ثم يسجد على راحته . وقال ابن إسحاق : حدثنى بعض آل زيد كان إذا دخل الكعبة قال : « لييك حقاً حقاً ، تعبدوا ورقاً . عُدت بما عاذ به إبراهيم » ويقول وهو قائم « أنفى لك عان

(١) بلدح واد قبل مكة من جهة الغرب (٢) أى أفضوك

راغم . مهما تجمشنى فإنى جاشم . البر أبى لا لال وهل مهجر كن قال ؟ « وكان الخطاب بن ثعلبة قد آذى زيد ابن عمرو بن نفيل حتى خرج إلى أعلى مكة فنزل حراء مقابل مكة وكل به الخطاب شباباً من شباب قريش وسفهاً من سفهاهم فلا يتركونه يدخل مكة وكان لا يدخلها إلا سرّاً منهم فإذا علموا به آذنوا به الخطاب فأخرجوه وآذوه كراهية أن يفسد عليهم دينهم وأن يتأبه أحد منهم على فراقهم . وتوفى زيد قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم^(١) فرائه ورقة بن نوفل :

رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنا
بدينك ربنا ليس رب كمثل
وقد يدرك الإنسان رحمة ربه
ولو كان تحت الأرض ستين وادياً

وكان يقول « يا مشعر قريش إياكم والرياء فإنه يورث الفقر » .
هذه ترجمة زيد بن عمرو وهو مع اعتناقه دين إبراهيم هرباً من الوثنية لم يكن يعلم أحب الوجوه إلى الله تعالى ليعبده به ولم يذكر أنه اجتمع برسول الله غير مرة ولا بأبى بكر غير المرة التي ذكرناها .

بدء الوحي

٦ أغسطس سنة ٦١٠ م

لما قربت أيام الوحي حُبب إليه صلى الله عليه وسلم الخلوة فكان يختل في غار حراء ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد ثم يرجع إلى أهله فيتزود لئلا يلهو ، وكانت عبادته على دين إبراهيم عليه السلام وقيل كان يتعبد إلهاماً من الله ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وكانت تلك الرؤيا الصادقة مقدمات الوحي قيل مدتها ستة أشهر .

فلما تم له أربعون سنة جاءه جبريل بالنبوة وذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده ، فيكون عمره إذ ذاك أربعين سنة قرية وستة أشهر وثمانية أيام ، وذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠ م وهو بغار حراء .

جاء في صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت :

« أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرؤيا الصالحة في النوم^(٢) فكان لا يرى رؤيا إلا

(١) وفي تاريخ القرون الوسطى لجائمه كامبردج أن زيدا مات في صبا النبي (صل الله عليه وسلم) .
(٢) إن عائشة لم تذكر هذه القصة لكن الظاهر أنها سمعت ذلك منه صلى الله عليه وسلم لقولها قال فأخذني فغطى . وكانت مدة الرؤيا ستة أشهر وجبئذ يكون اجتهاد النبوة بالرؤيا حصل في شهر ربيع الأول وهو شهر مولده

جاءت مثل فُلَّق الصبح^(١) ثم حُب إلى الخلاه^(٢) وكان يحل بشار حراء^(٣) فيتحدث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع^(٤) إلى أهله ويتزود لذلك^(٥) ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق^(٦) وهو في غار حراء فجاءه الملك^(٧) فقال له اقرأ ، فقال ما أنا بقارى^(٨) فأخذني فغطني^(٩) حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني . قال اقرأ قلت ما أنا بقارى^(١٠) فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارى^(١١) فأخذني فغطني الثالثة^(١٢) ثم أرسلني فقال اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم . فخرج بها^(١٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها قال زملوني ، زملوني^(١٤) فزملوه حتى ذهب عنه الروع . فقال لخديجة وأخبرها الخبر : لقد خشيت على نفسي^(١٥) . قالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبدا^(١٦) ، إنك لتصل الرحم^(١٧) وتحمل الكل^(١٨) وتكسب للعلوم^(١٩) وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد المطلب^(٢٠) ابن عم خديجة ، وكان امرأاً قد تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني^(٢١) فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب وكان شيخاً كبيراً قد همى . قالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك^(٢٢) فقال لي ورقة يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس^(٢٣) الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً^(٢٤) ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك^(٢٥) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يخرجني^(٢٦) ؟ قال : نعم . لم يأت رجل قط بمثل ما جئت

-
- (١) كضياء الصباح (٢) بمعنى الملوة أى الاختلاط (٣) حراء جبل بين مكة ثلاثة أميال على يسار الداعب إلى مى ، والفار قرب فيه وهو أول موضع نزل فيه القرآن (٤) يحن ويشفق ويرجع (٥) يتخذ الزاد للخلوة أو التعبد (٦) هو الوحي (٧) جاءه الوحي يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان (٨) مانافية وفي رواية كيف اقرأ أو ماذا اقرأ فتكون مانافية (٩) صغى وعصرني (١٠) ذكر السبيل أن النطق ثلاثا إشارة إلى أت النبي صلى الله عليه وسلم يحصل له شدائد ثلاث ثم يحصل له الفرج بعد ذلك فكانت الأولى إدخال فريش له صلى الله عليه وسلم في الثوب والتضييق عليه والثانية إغاثهم على قله صلى الله عليه وسلم والثالثة خروجه من أحب البلاد إليه (١١) أى بالآيات (١٢) أى لتفوتى لعدة مالمقه من هول الأمر . والعادة جارية بسكون الهمزة بالتلف . (١٣) الموت أو المرض لعدة الرعب (١٤) أى مايفضحك الله (١٥) القرابة (١٦) وهو الذى يستقل بأمره . (١٧) أى تطلى الناس مالايجبونه عند غيرك . (١٨) أى مايفضحك الله (١٩) أى مايفضحك الله (٢٠) أى مايفضحك الله (٢١) وهو الذى يستقل بأمره . (٢٢) أى الذى صلى الله عليه وسلم لأن الأب الثالث لورقة هو الأخ للاب الرابع لرسول الله صلى الله عليه وسلم . أو فاته على سبيل الاحترام . (٢٣) صاحب الوحي والمراد به جبريل عليه الصلاة والسلام . وأهل الكتاب يسمونه الناموس الأكبر . (٢٤) أى فى مدة النبوة . (٢٥) أى باليتنى كنت شابا عند ظهور نبوتك حتى أقوى على المبالغة فى نصرتك . والباذع هو الصغير من البهائم ، واستعير للانسان . (٢٦) من مكة .

به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا^(١) ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي^(٢) .
أول ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم من القرآن « اقرأ » كما صح ذلك عن عائشة وروى ذلك عن أبي موسى الأشعري وعبيد بن حمير . قال النووي : وهو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف .

النبي المنتظر

اتفق مؤرخو العرب وأصحاب السير أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون ظهور نبي في ذلك الزمان وكانوا يعلمون أوصافه وأحواله . من ذلك أنهم ذكروا :

(١) أنه ثبت بالأخبار القريبة من التواتر أن شقا وسطيحًا كانا كاهنين يخبران بظهور نبينا محمد صلى الله عليه وسلم قبل زمان ظهوره .

(٢) قصة حليلة السعدية وأنها كانت تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود كلما مر بها جماعة منهم وتحدثهم بشأنه فكانوا يحضون على قتله فتهرب منهم .

(٣) أنهم اتفقوا على أن يحيرا الراهب عرف الرسول بعلامات فيه وقال لأبي طالب « ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبيغنه شرًا فإنه كائن لثأن عظيم فأمرع به إلى بلده » .

(٤) في سيرة ابن هشام فصل عن إنذار يهود برسول الله قلا عن رواية ابن إسحاق فليراجع في موضعه وقد أوردته في هذا الكتاب .

(٥) قصة سلمان الفارسي الذي أسلم بعد أن استدل على رسول الله بعلامات كان يعرفها من الراهب الذي صحبه أخيرًا . وقصة إسلام سلمان مشهورة ومذكورة في المصادر المعتبرة التي يؤمل عليها المؤرخون ولا يمكن أن تكون مختلفة ، فقد رواها ابن عباس عن لسان سلمان الفارسي نفسه . والقصة مذكورة في هذا الكتاب أيضًا لأهميتها .

(٦) إسلام عبد الله بن سلام بن الحارث فإنه كان حبرًا عالمًا . قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكل له فكنت مسرًا لذلك صامتًا عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة إلى آخر ما قال ما هو مذكور في هذا الكتاب قلا عن سيرة ابن هشام .

(٧) كانت العرب تسمع من أهل الكتاب ومن الكهان أن نبيًا يبعث في العرب اسمه محمد فسمي

(١) أي بالفأ شديدًا وهذا ظاهر في أنه أقر بنبوته ولكنه مات قبل الدعوة إلى الإسلام فيكون مثل مجرا ،
ودفن بمكة .

(٢) أي احتبس ثلاث سنين .

من بلنه ذلك من العرب ولده محمداً طمعاً في النبوة ، وقد ذكرت في كتابي هذا أسماء بعضهم قلا عن طبقات ابن سعد كاتب الواقدي .

(٨) ما جاء في صحيح البخاري في باب بدء الوحي من أن ورقة بن نوفل (ذلك الشيخ العالم بالنصرانية والذي كان يكتب الإنجيل بالعبرانية) قال لرسول الله حين عرضته عليه خديجة : « هذا الناموس الذي نزل على موسى » الخ .

(٩) أن النبي صلى الله عليه وسلم لما جمع بني قينقاع - وهم طائفة من اليهود - قال لهم : « يامعشر اليهود احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النعمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم » ،

(١٠) كان قيس بن نُسَبة في الجاهلية منجماً متفلسفاً واعداً بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم فأناه فقال له ياحمداً ما كُفِّتُ ؟ قال : السماء . قال : وما كُفِّتُ ؟ قال : الأرض . فأمن به وقال لا يعرف هذا إلا نبي . فقال - قيس في ذلك :

تأملتُ دينَ محمدٍ ورضيئتهُ كلَّ الرضـا لأمانتي ولديني
مازلتُ آمُلُهُ وأرغبُ وقتهُ واللهُ قدرُ أنه يهديني
أعني ابنَ أَمَنَةِ الأَمِينِ ومن به أرجو التخلصَ من عذابِ الهونِ
فكان قومُ قيسٍ إذا وردوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال لهم « كيف هبركم ^(١) » .

كل هذا وغيره يؤيد أنهم كانوا ينتظرون نبياً يظهر في ذلك الزمان وليس ذلك بمستغرب فإن البشارة به صلى الله عليه وسلم قد وردت في التوراة والإنجيل وقد أثبتنا ذلك في فصل سابق من هذا الكتاب مستشهدين بآيات من الكتاب المقدس المطبوع باللغة العربية (راجع ص ٥٧ - ٦٠) فلا بد أن أهل الكتاب في ذلك الزمان كانت لديهم كتب أخرى ألهاها علماءهم شرحاً للكتاب المقدس فاستقوا منها تلك المعلومات والعلامات التي عرفوا بها صفة رسول الله وموطنه وزمنه واضطهاد قومه له وهجرته . إننا نرجح ذلك بل نؤكد أنه إذا كنا قد استخرجنا من الكتاب المقدس المطبوع في أيامنا آيات تبشر برسالة صلى الله عليه وسلم وتصفه وتصف شريعته وموطنه وأصحابه فلا بد أن يكون أهل الكتاب قديماً - ولا سيما العلماء منهم - قد اطلعوا في النسخ العربية القديمة التي كانت لديهم ، ولم تتوصل إليها ، على معلومات أوفى خاصة بالرسول تعد غريبة بالنسبة لنا .

هكذا ما يستنتجه المؤرخ النصف ، بل هذا ما يتبادر إلى ذهن من تتبع سيرة الرسول .

أما مستر مورف فإنه انبرى في الجزء الثاني من كتابه يكذب جميع المصادر التاريخية ويرفض ما جاء فيها من

(١) الفحص لابن سيده الجزء التاسع . ص ٧ طبعة بولاق سنة ١٣١٩ هـ

أن أهل الكتاب كانوا ينتظرون نبياً يبعث ، زاعماً أن هذه الروايات لا أساس لها من الصحة وأنها من مخترعات المؤرخين لأنه لو اعترف بصحتها أو بصحة بعضها لوجب عليه أن يمتدح برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، في حين أنه حاول في جميع ما كتبه واستنبطه إثبات أنه لم يكن نبياً بل كان رجلاً يدعى النبوة لبسط نفوذه ۱۱

النبي الأمي

أول ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم من القرآن « اقرأ » كما صح ذلك عن عائشة وروى ذلك عن أبي موسى الأشعري ، وعبيد بن عمير . قال النووي وهو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف . وقوله « ما أنا بقارى » أى إلى أمي فلا اقرأ الكتاب . قال الزجاج : الأمي الذى على خلقه الأمة لم يتعلم الكتاب فهو على جبلته . وفى التنزيل العزيز ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَتْلُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أُنثَاءً ﴾ سورة البقرة . فعنى الأميين فى هذه الآية الذين لا معرفة لهم بقراءة ولا كتابة .

قال أبو إسحاق : معنى الأمي للنسب إلى ماعليه جيلة أمه أى لا يكتب وهو فى أنه لا يكتب أمي لأن الكتابة مكتسبة فكانت نسب إلى مايولد عليه . أى على مولده أمه عليه . وكانت الكتابة فى العرب من أهل الطائف تعلموها من رجل من أهل الحيرة وأخذها أهل الحيرة عن أهل الأنبار . وفى الحديث « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » أراد على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب فهم على جبلتهم الأولى . وفى الحديث « بنيت إلى أمة أمية » قيل للعرب الأميون لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة . هذا معنى كلمة « أمي » فى اللغة العربية وهكذا كان يفهمها العرب .

قال تعالى فى سورة الأعراف ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي الْتُورَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَقْلُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُ بِمَبِينِكَ ﴾ الآية . قال الفخر الرازى فى تفسيره : « فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون والنبي عليه الصلاة والسلام كان كذلك ، فلما السب وصفه بكونه أمياً . قال أهل التحقيق وكونه أمياً بهذا التفسير كان من جملة معجزاته وبيانه من وجوه :

(الأول) أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوماً مرة بعد أخرى من غير تبديل ألقاها ولا تغيير كلماته . والتعطيل من العرب إذا ارتجل خطبة ثم أعادها فإنه لا بد أن يزيد فيها بالقليل والكثير . ثم إنه عليه الصلاة والسلام - مع أنه ما كان يكتب وما كان يقرأ - يتلو كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير فكان ذلك من المعجزات ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : (سَنَقَرُكَ فَلَا تَنْتَسَى) .

(الثانى) أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لصار متبهماً فى أنه ربما طالع الأولين فحصل هذه العلوم

من تلك المطالعة ، فلما أتى بهذا القرآن العظيم للشمول على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات ، وهذا هو المراد من قوله : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحْطُ بِبَيِّنَاتِكُمْ إِذَا لَارْتَابَ الْمُشْكِكُونَ ﴾ .

(الثالث) أن تعلم الخطأ شيء سهل فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتململون الخط بأدنى سعى . فعدم تعلمه يدل على نقصان عظيم في الفهم . ثم إنه تعالى أتاه علوم الأولين والآخرين وأعطاه من الحقائق ما لم يصل إليه أحد من البشر ومع تلك القوة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلاً وفهماً فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جارياً مجرى الجمع بين الضدين وذلك من الأمور المخارقة للعادة وجار مجرى المعجزات « اهـ » .

وقد طالعت ما كتبه الذين تعرضوا لهذا البحث من الافرنج الذين ترجوا حياة النبي صلى الله عليه وسلم فوجدت تحبذا مدعياً قد بحث الأستاذ تولدك الأسا في كتابه « تاريخ القرآن ^(١) » هل كان النبي يعرف القراءة والكتابة ؟ فلم يجزم بشيء . بيد أنه زعم أن لفظة « أمي » المذكورة في القرآن لا تدل على أنه يجمل القراءة والكتابة بل تفيد أنه لا يعرف الأسفار القديمة !!

والثابت من التاريخ والقرآن والحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يعرف القراءة والكتابة بالرغم من أن بعض المستشرقين يحاولون أن يثبتوا عكس ذلك من غير برهان . إتمامهم يستنجون بقولهم . ليتعجبوا ما شاءوا من أميته ولكن يجب عليهم أن يعترفوا بأنه ما كان يعلم القراءة والكتابة . وجاء في قاموس الإسلام ^(٢) : « ومع ذلك فمن الحق أن (النبي صلى الله عليه وسلم) كان يتظاهر بأنه يجمل القراءة والكتابة كي يعمل لإنشاء القرآن معجزاً » .

فهل بعد ذلك تسف لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ أو يكتب لتحط بذلك أصحابه أو أعداؤه ، ولما أمكن أن يكون سرّاً مكتوماً طويلاً حياته خصوصاً أن جميع صفات النبي وأعماله قد روتها الصحابة بالتفصيل حتى خصوصياته في منزله مع نسائه . على أن للنصفين من مؤرخي الافرنج وفلاسفتهم قد اعترفوا بأميته فمن ذلك ما كتبه للسيو سيديو في كتابه « تاريخ العرب » الجزء الأول ص ٥٩ من الطبعة الثانية . . . « ولما كان (رسول الله صلى الله عليه وسلم) غير متعلم مثل أبناء وطنه كان لا يعرف القراءة » .

(1) Geschichte des Qurans

(2) Dictionary of Islam by Thomas Patrick Hughes. 2nd, edition, p. 392

وقال الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل في كتاب الأبطال الذى عنى بترجمته الأستاذ محمد السباي رحمه الله :

« ثم لا نسى شيئاً آخر وهو أنه لم يتلق دروساً على أستاذ أبداً وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك فى بلاد العرب . ويظهر لى أن الحقيقة هى أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة وكل ما تعلم هو عيشة الصحراء وأحوالها » .

وجاء فى كتاب الإسلام تأليف الكونت هنرى دى كاسترى ترجمة للرحوم أحمد فضى زغلول باشا :
« إن محمداً ما كان ليقرأ أو ليكتب بل كان - كلوصف نفسه ماراً - نبياً أمياً ، وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه . ولا شك أنه يستحيل على رجل فى الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يفهمه الناس لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان ، على أن القراءة والكتابة كانت مددومة فى ذلك الحين من تلك الأقطار الخ » .
ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً احتاج إلى كتاب يكتبون له وقد ذكرهم الحافظ أبو القاسم فى تاريخ دمشق ، وروى ذلك كله بأسانيدهم وهم :

أبو بكر الصديق . وعمر بن الخطاب . وعثمان وعلى . والزبير . وأبى بن كعب بن قيس وزيد بن ثابت . ومعاوية بن أبى سفيان . ومحمد بن مسلمة . والأرقم بن أبى الأرقم وأبان بن سعيد بن العاص وأخوه خالد بن سعيد وثابت بن قيس . وحنظلة بن الربيع . وخالد بن الوليد . وعبد الله بن الأرقم . وعبد الله بن زيد بن عبد ربه . والملاء بن عتبة . والمغيرة بن شعبة . والسجل . وزاد غيره نرحبيل بن حسنة . وقالوا وكان أكثرهم كتابة زيد بن ثابت ومعاوية رضى الله عنهم .

وسبأنى فى غزوة أحد أن العباس كان بككة وكتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً يخبره بجمع قريش وخروجهم . فلما جاء كتاب العباس وكان أرسله مع رجل من بنى غفار ، فك رسول الله ختمه ودفعه لأبى بن كعب فقرأه عليه فاستكتم أمياً^(١) .

فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرف القراءة لما دفع كتاباً يحوى أخباراً سرية إلى أحد لقراءته .
قال زيد بن ثابت رضى الله عنه : كنت جاور رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان إذا نزل عليه الوحي يث إلى فكنتبه له .

وذكر ابن ماكولا أن تميم بن جراشة وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه أنه قال : قدمت على النبي صلى الله عليه وسلم فى وفد ثقيف . فأسلفناه وسألناه أن يكتب لنا كتاباً فيه شروط قتال اكتبوا ما بدا لكم

(١) راجع السيرة النبوية لهـللان . الجزء الأول ٢٥٨ طبعة المطبعة الوهية سنة ١٢٨٥ هـ

ثم اثنوني به فأسأله في كتابنا أن يحلّ لنا الربا والزنا فأبى عليّ أن يكتب لنا فأسأله خالد بن سعيد بن العاص فقال له عليّ: تدري ما تكتب؟ قال أكتب ما قالوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم أولى بأمره . فذهبنا بالكتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال للقارئ اقرأ . فلما انتهى إلى الربا قال : ضع يدي عليها فوضع يده فقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ الآية . ثم محاهما وألقيت علينا السكينتين فراجعتاه فلما بلغ « الزنا » وضع يده عليها وقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ الآية ثم محاهما وأمر بكتابنا أن يمسح لنا ^(١).

وقد زعم بعضهم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتلو الكتب الدينية القديمة ومنها استقى معلوماته ، وهذا الزعم لا أساس له ، إذ لم يكن في جزيرة العرب كتب دينية باللغة العربية في ذلك الوقت . ومن المؤكد أنه ما كان يعرف أى لغة من اللغات الأجنبية .

وقد قيل أيضاً إنه صلى الله عليه وسلم اقتبس بعض تعاليم المسيحية أثناء سفره إلى الشام عند ما كان يتاجر ، وبديهي أن التاجر العربي الذي لا يعرف اللغة الآرامية واليونانية كان يتنصر عليه الحصول على معلومات دينية من مسيحي الشام . أما الذين كانوا يتكلمون العربية من هؤلاء المسيحيين فقد كانوا جهالاً أميين .
وأما ما قيل من أن ورقة بن نوفل ترجم جزءاً من الكتب المسيحية إلى العربية فغير محتمل بارة ^(٢) ومع ذلك يزعم درمنغم في كتابه « حياة محمد » أن ورقة ترجم الأنجيل إلى العربية وهذا زعم لا أساس له إنما هو مجرد ظن .

فالمشترقون الذين زعموا أن رسول الله كان يعرف القراءة والكتابة غضوا الطرف عن الآيات التي صرحت بأنه كان أمياً . ذلك لأنهم وجدوا أن القرآن معجز ويحتوى على قصص الماضين وعلى شريعة عظيمة فاقّت كل الشرائع وفيه عظمت باللغة وحكم وأمثال رائعة وأن أبناء هذا العصر مع تقدم العلوم والفنون وانتشار الجامعات لم يستطيعوا أن يعضوا شريعة للناس كالشريعة الإسلامية ولا آداباً وأخلاقاً كالآداب والأخلاق الواردة في القرآن ، فهلم الأنسر وتحيروا وقالوا في أنفسهم من أين جاء لحمد (صلى الله عليه وسلم) هذا العلم كله ، وكيف كان أمياً ؟ فإن قيل لم هذا دليل على نبوته وأنه صلى الله عليه وسلم كان يوحى إليه ، لم يسئلوا لأنهم لو سئلوا بنزول الوحي عليه لزمهم التصديق برسائله تخلصاً من هذا المأزق ، وغفوا عنه الأمية وقالوا إنه كان يقرأ ويكتب

(١) زاعم أسد الغابة الجزء الأول « تبين من جراحة » .

(٢) راجع الجزء الثاني من كتاب تاريخ الفرون الوسطى لجامعة كامبردج ص (٣٠٥ ، ٣٠٦) .

ويقلو الكتب القديمة ولما وجدوا أن التاريخ لا يساعد على هذا الزعم لأن معاصريه صلى الله عليه وسلم أقروا أنه كان أمياً وأن ذلك يطابق ما جاء في القرآن ، قال قائلهم إنه كان يخفى أمره ويكتفى عن الناس (وعن الناس جميعاً حتى عن زوجاته وأولاده وجميع أصحابه !) علمه بالقراءة والكتابة . وهذا قول مصحك لأن الذي يقرأ ويكتب لا بد أن يراه أحد بل يراه كثير من الناس ، فإن هذا أمر لا يمكن إخفاؤه كالأكل والشرب . هذه هي الحقيقة وهذا ما نعتقد وما يجب أن يستنده كل باحث في السيرة الحميدة والشريعة الإسلامية .

فترة الوحي^(١)

جاء في صحيح البخارى عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنهما^(٢) وهو يحدث عن فترة الوحي فقال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديثه : بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء فرجفت بصري فإذا الملك^(٣) الذى جاءني بجبراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرجعت منه فرجعت^(٤) فقلت زملوني زملوني فأنزل الله تعالى : ﴿ يَأْيُهَا الْمَذْمُورُ^(٥) قُمْ فَأَنْذِرْ^(٦) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَتِيَابِكَ فَطَهِّرْ وَالزُّجُرْ^(٧) فَهَاجِرْ ﴾ فمضى أَلُوْحِي^(٨) وتتابع .

قال ابن إسحاق : ابتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في شهر رمضان يقول الله تعالى : ﴿ شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ . لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ . نَزَّلَ الْمَلَكُ الْبَرَكَةَ وَالرُّوحُ فِيهَا يُنْزِلُ رَبُّهُم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ حَمَّ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِنَّا كُنَّا نُنْذِرُ فِيهَا بِفَرْقٍ كُلِّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِن كُنْتُمْ تَحِبُّونَ لَإِنَّ إِلَهَكُمْ لَشَدِيدٌ ﴾ بالله وما أنزلنا على عبدنا يومَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ اتَّفَقَ الْجَمْعَانِ ﴾ وذلك ملق رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشرّكين بيديهم يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان .

ولما قرأ الوحي حزن النبي صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً غدا منه مراراً كي يتردى من رموس الجبال فكلما أوفى على

(١) فترة الوحي : احتباس الوحي عن النزول .

(٢) توفي جابر بعد أن عمى سنة أربع وسبعين وهو آخر الصحابة موتاً بالبلدنة وله في البخاري تسعون حديثاً .

(٣) جبريل (٤) إلى أهل بيت الرعب . (٥) التدوير والتبريل بمعنى واحد .

(٦) انصرف على الإنذار لأن التدوير إنما يكون إن دخل في الإسلام ولم يكن إذاً من دخل فيه .

(٧) الأوتان . (٨) كثرة نزول الوحي بعد هذه الآية .

ذروة جبل لسكى يلقى نفسه منه تبدي له جبريل فقال يا محمد إنك رسول الله حقاً . فيسكن لذلك جأشه وتقرض
وكانت مدة فترة الوحي ثلاث سنين كما جزم به ابن إسحاق ثم نزل عليه جبريل بسورة الضحى يقسم له ربه ، و
الذى أكرمه بما أكرمه به ، ماودعه وما قلاه ، فقال تعالى :

﴿ وَالضُّحَى
إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ، وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى . وَلَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرَى . أَلَمْ يَخْذُكَ يَتِيماً فَكَوَّى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ يعرفه الله
ماقطعه قطع الودع وما أنفضه .

روى أن الوحي لما تأخر عنه قال للشركون إن محمداً ودعه ربه وقلاه فتزات ردوا عليهم : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ فإنها باقية خالصة من الشوائب وهذه فانية مشوبة بالمضار .

أول من آمن به

أول من آمن به من الرجال البالغين الأحرار أبو بكر ، ومن الصبيان علي ، ومن النساء خديجة ، ومن المو
زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال بن رباح الحبشى .

قال أهل الأثر وعلماء السير إن أول الناس إيماناً به صلى الله عليه وسلم على الإطلاق خديجة رضى الله عنه
وصلى رسول الله معها آخر يوم الاثنين وهو أول يوم من صلاته وكانت الصلاة وقتئذ ركعتين بالنس
وركعتين بالشى .

وكان علي بن أبي طالب رضى الله عنه لم يبلغ الحلم حين أسلم وكان ابن عشر سنين وكان عند النبي صلى
عليه وسلم قبل أن يوحى إليه بطعمه ويقوم بأمره وهو أصغر إخوته وسياق سبب إسلامه رضى الله عنه
في ترجمة حياته .

وأول من أسلم من النساء بعد خديجة أم أيمن وأم الفضل زوج العباس وأسماء بنت أبي بكر وأم جر
فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب .

- ٦٩ -

أبو بكر الصديق

وإسلامه

هو عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي القرشي التيمي .

ولد أبو بكر سنة ٥٧٣ م وهو أول الخلفاء وأمه أم الخير سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، وهي ابنة عم أبي قحافة وهو صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم في الفار وفي الهجرة والخليفة بعده . روى عن النبي صلى الله عليه وسلم . وروى عنه عمر وعثمان وعلي وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عمر وابن عباس وحذيفة وزيد بن ثابت وغيرهم . وقبل اختاف في اسمه قيل كان عبد الكعبة فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله . وقيل إن أهله سموه عبد الله ولا يبعد ذلك لأن التسمية بعبد الله كانت موجودة قبل الإسلام ويقال له عتيق أيضاً . واختلفوا في السبب الذي قيل له لأجله « عتيق » فقال بعضهم قيل له عتيق لحسن وجهه وجهاله . قاله الليث بن سعد وجماعة معه . وقال الزبير بن بكار وجماعة معه إنما قيل له عتيق لأنه لم يكن في نسبه شيء ياب به . وقيل إنما سمي عتيقاً لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « أنت عتيق الله من النار » وعن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له « أنت عتيق من النار » فيومئذ سمي عتيقاً . وقيل له « الصديق » أيضاً . قالت عائشة رضي الله عنها : لما أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى المسجد الأقصى أصبح يحدث الناس بذلك فارتد ناس ممن كان قد آمن وصدق وفنوا به ، فقال أبو بكر إني لأصدقك فيما هو أبعد من ذلك . أصدقك بخبر السماء غدوة أو روحة . فلذلك سمي أبو بكر الصديق ، وقال أبو محجن الثقفي :

وسميت صديقاً وكل مهاجر سواك يسمى باسمه غير منك

سبقت إلى الإسلام والله شاهد وكنت جليساً في العريش المشهر

وكان رضي الله عنه صديقاً لرسول الله قبل البعثة وهو أصغر منه سنّاً بثلاث سنوات ، وكان يكثر غشيانه في منزله ومحادثته وقيل كنى بأبي بكر لا بتكائه الخصال الحميدة فلما أسلم أزر النبي صلى الله عليه وسلم في نصر دين الله تعالى بنفسه وماله وكان له لما أسلم أربعون ألف درهم أنفقها في سبيل الله مع ما كسب من التجارة . قال تعالى : ﴿ وَسَيَجْزِيهَا الَّذِي يُوْفِّي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴾ وقد أجمع المفسرون على أن المراد منه أبو بكر ؛ قال النضر الرازي ردّاً على من قال إنها نزلت في حق علي رضي الله عنه :

« ولما ذكر ذلك بعضهم في محضرى قلت أقيم الدلالة العقالية على أن المراد من هذه الآية أبو بكر .
وترقررها أن المراد من هذا الأتقى هو أفضل الخلق فإذا كان كذلك وجب أن يكون المراد هو أبو بكر فهاتان
اللتيمتان متى صحتا صح للقصد إلى أن قال - لأن الأمة مجمعة على أن أفضل الخلق بعد رسول الله إما أبو بكر
أو علي ولا يمكن حل هذه الآية على علي بن أبي طالب فتعين حلها على أبي بكر . وإلما قلنا لا يمكن حلها على
علي بن أبي طالب لأنه قال في صفة هذا الأتقى « وما لأحد عنده من نعمة تجزى » وهذا الوصف لا يصدق على
علي بن أبي طالب لأنه كان في تربية النبي صلى الله عليه وسلم ولأنه أخذه من أبيه وكان يطعمه ويسقيه ويكسوه
ويربيه وكان الرسول منما عليه نعمة يجب جزاؤها . أما أبو بكر فلم يكن للنبي عليه السلام عليه نعمة دنيوية بل
أبو بكر كان يتفق على الرسول عليه السلام . بل كان للرسول عليه السلام عليه نعمة الهداية والإرشاد إلى الدين
إلا أن هذا لا يجزى لقوله تعالى : « ما أسألكم عليه من أجر » والمذكور هاهنا ليس مطابق النعمة بل نعمة
تجزى فقلنا أن هذه الآية لاتصاح لعل رضى الله عنه ،

كان أن أبو بكر رضى الله عنه من رؤساء قريش في الجاهلية محبباً فيهم مؤلفاً لهم وكان إليه الأشتان في
الجاهلية^(١) كان إذا حل شيئاً صدقته قريش وأمضوا حالته وحالته من قام معه وإن احتسبوا غيره خذوه ولم
يصدقوه فلما جاء الإسلام سبق إليه وأسلم على يده جماعة لمحبتهم له وميلهم إليه حتى إنه أسلم على يده خمسة من
الشجرة وقد ذهب جماعة إلى أنه أول من أسلم . فالشعبي سألت ابن عباس من أول من أسلم ؟ قال أبو بكر،
أما سمعت قول حسان :

إذا تذكرت شجواً من أخى نمة فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية ألقاها وأعد لها بعد النبي وأوقاها بما حملا
والثاني التالي المحمود مشهده وأول الناس قدماً صدق الرسالة

وكان أعلم العرب بأنساب قريش وما كان فيها من خير وشتر وكان تاجراً ذا نزوة طائفة وكرماً حسن الجالس
عالمًا بتعبير الرؤيا ، ولما أسلم جعل يدعو الناس إلى الإسلام . قال ابن إسحاق بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبرة ونظر وتردد إلا ما كان من أبي بكر رضى الله عنه ما عمة
عنه حين ذكرته له أى أنه باذر به . وتزل فيه وفي عمر « وشاورهم في الأمر » فكان أبو بكر بمنزلة الوزير
من رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان يشاوره في أموره كلها ولما اشتد أذى كفار قريش لم يهاجر إلى
الحبيشة مع المهاجرين بل بقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهاجر معه إلى المدينة تاركاً عياله وأولاده

(١) الأشتان : الديات

وأقام معه في النار ثلاثة أيام . قال الله تعالى : ﴿ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ يُسَمَّى الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَمَحَّرْ عَلَى نَفْسِكَ ﴾ .

ولما كانت الهجرة جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر وهو نائم فأيقظه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أذن لي في الخروج قالت عائشة فلقد رأيت أبا بكر يبكي من الفرح ، ثم خرجا حتى دخلا النار فأقاما فيه ثلاثة أيام . قال تعالى : ﴿ لَا تَنْصَرُوا لَهُمْ نَصْرَهُ هَذَا الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ ﴾ .

وقد دلّت هذه الآية على فضيلة أبي بكر لأن رسول الله لولا فتنه السامة بأبي بكر لما استصحبه في هجرته واستخلصه لنفسه وكل من سوى أبي بكر فارق رسول الله وأنه تعالى سماه ثانی اثنين . وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكرمه ويحبه ويعرف أصحابه مكانه ويثني عليه في وجهه ، واستخلفه في الصلاة وشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا وأحُدًا والخندق وبيعة الرضوان بالحديبية وخيبر وفتح مكة وحنينًا والطائف وتبوك وحجة الوداع .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كنت متخذًا خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً » ، ودفع أبو بكر عقبة ابن أبي معيط عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خنق رسول الله وهو يصلي عند الكعبة خنقاً شديداً وقال : « يقوم أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » وأعتق أبو بكر سبعة كانوا يذبون في الله تعالى منهم بلال بن رباح بن فهيرة . وكان أبو بكر إذا مدح قال « اللهم أنت أعلم بعملي مني ، وأنا أعلم بنفسي منهم اللهم اجعلني خيراً مما يظنون واغفر لي ما لا يصلون ولا تؤاخذني بما يقولون » وهذا من تواضعه رضي الله عنه ، وما يدل على قوة إرادة أبي بكر ما قاله أبو السفر وهو : دخلوا على أبي بكر في مرضه فقالوا يا خليفة رسول الله ألا ندعو لك طبيباً ينظر إليك ؟ قال : قد نظر إلي . قالوا : ما قال ؟ قال : « إني فعّال لما أريد » .

قال عمر رضي الله عنه : أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدق ووافق ذلك ما ألقى عندي فقلت اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته ، فحُفَّت بنصف مالي . قال : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت مثله . وجاء أبو بكر بكل ما عنده فقال يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك ؟ قال أبقيت لهم الله ورسوله . قلت لا أسبقه إلى شيء أبداً .

ومن أخبار تواضعه رضي الله عنه أنه كان يحب للحي أغنامهم ، فلما يبيع بالخلافة قالت جارية من الحي : الآن لا يحب لنا مناخنا ، فسميها أبو بكر فقال : بلى لعمري لأحببها لكم ولإني لأرجو ألا يفيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه ، فكان يحب لهم ، فربما قال للجارية أتحبين أن أرعى لك أو أن أصرح ؟ فأبى ذلك قالت فضل .

والآن يقولون إننا في عصر المدينة والحربة والديمقراطية ومع هذا تجد الموظف الصغير يأنف أن يكلم الناس أو يقضى حوائجهم .

وعن سالم بن عبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اشتد مرضه أغشى عليه فلما أفاق قال : مروا بلالا فليؤذن ومروا أبا بكر فليصل بالناس ؟ قال ثم أغشى عليه فقالت عائشة إن أبي رجل أسيف فلو أمرت غيره . فقال أقيمت الصلاة ؟ فقالت عائشة : يا رسول الله إن أبي رجل أسيف فلو أمرت غيره . قال : إنكن صواحبنا يوسف مروا بلالا فليؤذن ومروا أبا بكر فليصل بالأس . ثم أفاق فقال : أقيمت الصلاة ؟ قالوا : نعم . قال ادعوا لى إنساناً أعتمد عليه فجات بريرة وإنسان آخر فانطلقوا يمشون به وإن رجليه تحيطان فى الأرض ، فأجلسوه إلى جنب أبى بكر فذهب أبو بكر يتأخر فضبسه حتى فرغ الناس فلما توفى - قال وكانوا قوماً أميين لم يكن فيهم نبي قبله - قال عمر : لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا . فقالوا له اذهب إلى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فادعه يعنى أبا بكر . فذهبت : فوجدته فى المسجد قال : فأجهشت أبكى . قال : لعل نبي الله توفى . قلت : إن عمر قال لا يتكلم أحد بموته إلا ضربته بسيفي هذا . قال : فأخذ بساعدي ثم أقبل يمشى حتى دخل فأوسعوا له فأكب على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كاد وجهه يمس وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظار نفسه حتى استبان أنه توفى . قال : إنك ميت وإنهم ميتون ، قالوا يا صاحب يا رسول الله توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم : فقلوا أنه كما قال .

قال ابن إسحاق توفى أبو بكر رضى الله عنه يوم الجمعة لسبع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤) وصلى عليه عمر بن الخطاب .

توفى بعد النبي صلى الله عليه وسلم بستين وأشهر بالمدينة وهو ابن ثلاث وستين سنة .

وكان أبو بكر رجلاً أبيض نحيفاً خفيف العارضين أحنى معروق الوجه غائر العينين . ناقى الجبهة . عارى الأشابع . يخضب بالحناء والكتم ، وكان أول من أسلم من الرجال وأسلم أبواه . له ولو لديه ولولده وولدولده صحبة رضى الله عنهم ، واختلاف فى سبب موته . فقيل إنه مات مسموماً . وقيل إنه انقلص فى يوم بارد فحم خمسة عشر يوماً ثم مات بعدها ، وقيل إنه مات كذاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

هذه ترجمة حياة أبى بكر أثبتناها هنا بمناسبة إسلامه وما كان له من الشأن العظيم والقدر الرفيع ، ولأنه قد بذل الجهد فى نصرته الرسول فدل بذلك على غاية الوفاء ومنتتهى الإخلاص . ولم يكن - رضى الله عنه - رجلاً ضعيفاً كما ظن بعض المستشرقين ، بل كان شجاعاً وكان مع شجاعته مخلصاً لأبائى بالأحوال وبمحتمل المشقات كاستغداد من سيرته ، فبقى مع الرسول ولم يهاجر إلى الحبشة مع المهاجرين عند اشتداد أذى الكفار على المسلمين ، ولما دعاه النبي صلى الله عليه وسلم إلى الهجرة معه بكنى من فرط السرور واشترك معه فى غزواته وهو ممن ثبت مع رسول الله

في غزوة أحد . ولما توفي النبي فقد الناس صوابهم وقال عمر : من قال : إن محمداً مات ضربه يسفئ هذا . أما أبو بكر فلك شعوره ولم يفدته وقع الصاب الجبال صوابه ، قال : إنك ميت وإنهم ميتون ، وسيتأتى تفصيل ذلك عند ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا كانت هذه مواقف ضعف وخلال وهن فأين مواطن القوة ؟ ولم نذكر هنا أعماله الجليلة في خلافته ^(١) ، (راجع كتاب أبي بكر الصديق للؤلؤف) .

يقول هؤلاء للمستشرقون إنه كان يصدق الرسول تصديقاً أعجى وإنه كان كالنساء سريع البكاه ، وهو قول عجيب ، فكيف لا يصدق الرسول وهو يعلم أنه صادق لا يكذب ، بل هو أعلم خلق الله بصدقه عليه الصلاة والسلام لصحبته له تلك الصعبة الطويلة . إن تصديقه لرسول الله في كل ما قال نتيجة الثقة به ولأجل هذه الثقة المتينة كان لا يتردد في التصديق به ، ولأجلها تحمل معه الشدائد والاضطرابات ، ولأجلها أفتق أمواله كلها وهذا شأن العاقل الذي إذا ثبت يقينه على أساس قوى لم يبال بما يصادفه من عقبات في سبيل نصرة الحق . أما بكأوه عند سماع القرآن فهذا أظهر دليل على إخلاصه وتوقد ذكائه وقوة فهمه لكلام الله عز وجل إذ بقدر الفهم يكون التأثير ، وقد أجمعوا على كثرة علمه ووفور عقله وفهمه وزهده وتواضعه .

كلماته المأثورة

كان رضى الله عنه يقول :

« أكيس الكياسة التقوى ، وأحق الحق الفجور ، وأصدق الصدق الأمانة ، وأكذب الكذب الخيانة . إن العبد إذا داخله العجب بشيء من زينة الدنيا مقته الله تعالى حتى يفارق تلك الزينة . ليقى كنت شجرة تعضد ثم توكل . وكان يأخذ بطرف لسانه ويقول : هذا الذي أوردني للوارد » .
وقال : « لاخير في قول لا يراد به وجه الله ولا في مال لا ينفق منه في سبيل الله . ولا فيمن يغلب جهله حلمه . ولا فيمن لا يخاف في الله لومة لائم » .

« وجدنا السكرم في التقوى والفناء في اليقين والشرف في التواضع » .

« من مقت شدة في ذات الله ، أمنه الله من مقتته » .

« فاز بالروة من امتضى التفاضل ، وهان على الترفي من عرف بالتجاع »

« إياكم والفخر . وما غر من خاق من تراب ثم إليه يعود ، ثم يأكله الدود » .

« لاخير في خير بعده النار . ولا بشر في شر بعده الجنة » .

(١) كانت مدة خلافة أبي بكر سنتين قضى فيها على المريدين قصاصاً مبرماً وأخضع بني عسان وبني نلب وهم الفرس ودخل جيوشه عاصمتهم وتلقب على العراق وجيز جيهناً يبلغ عنه ثلاثين ألفاً لحاربة الروم في التام — كل ذلك في سنتين .

على ابن أبي طالب وإسلامه

على بن أبي طالب بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد سنة ٦٠٠ - ٦٠١ بعد الميلاد وأُمُّه عليّ فاطمة بنت أسد بن هاشم وكنيته أبو الحسن وصهر رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة وأبو السباعين، وهو أبو هاشم ولد من هاشميين . والخليفة الرابع وأول خليفة من بني هاشم وكان حين أسلم لم يبلغ الحلم . وقال ابن إسحق إنه كان يومئذ ابن عشر سنين وكان في كفالة النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه لأن قريشاً أصابتهم أزم شديدة وكان أبو طالب كثير المال قليل المال فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وضمه إليه وأخذ العيال جعفرًا وضمه إليه تخفيفاً عن أبي طالب ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

وسبب إسلامه أنه دخل على النبي ﷺ ومعه خديجة رضى الله عنها وهما يصليان سواء . قال : ما هذا ؟ قال رسول الله ﷺ : دين الله الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسوله ، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له وإلى عباد والكفر باللات والعزى قال على رضى الله عنه : هذا أمر لم أسمع به من قبل اليوم فقلت بقباض أمرأ حتى أحدث أبا طالب . وكره رسول الله ﷺ أن يشى سره قبل أن يستعلن أمره . فقال له ياعلى إذ لم تسلم فأكن هذا . فكش على يمينه ثم إن الله تعالى هداه إلى الإسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله ﷺ فأسلم على يديه^(١) وكان على رضى الله عنه يخفى إسلامه خوفاً من أبيه إلى أن اطلع عليه وأمره بالثبات عليه فأظهره حينئذ . أ. أبو طالب فلم يرض أن يفارق دين آبائه ، وعن أنس بن مالك قال : بعث النبي ﷺ يوم الاثنين وأسلم على أبو الثلاثة . وأمره رسول الله ﷺ أن يضطجع على فراشه ليلة خرج مهاجراً وقال : إن قريشاً لم يقدوني ما رأوا فاضطجع على فراشه . وسأني ذكر ذلك عند الكلام على الهجرة ، ثم لحق برسول الله ﷺ بالمدينة بعد قضاء ديور رسول الله ﷺ ورد الودائع التي كانت عنده ، فلما وصل إليها كانت قلماء قد ورمتا من المشى وكنا قطران دما فاعتنت رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم وبكى رحمة لا أصاب قدميه وتفل في يديه ومسح بهما رجله ودعا له بالعافية في يشتكهما حتى استشهد رضى الله عنه . وشهد بدراً وغيرها من المشاهد، ولم يشهد غزوة تبوك لا غير لأن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم خلفه على أهله . وأصابته يوم أحد ست عشرة ضربة . وكان على رضى الله عنه مع شجاعة الفاتحة عللاً .

واستخلف على رضى الله عنه ، وبويع بالمدينة في مسجد رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم بعد قتل عثمان وذلك

(١) لم يكن على رضى الله عنه حين أسلم يبلغ الحلم وكان يومئذ ابن عشر سنين وعلى ذلك لم يعبد الأصنام وقيل كان عمره ثمان سنين .

في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين (٢٤ يونيو ١٩٥٦) .

قتله رضى الله عنه

انتدب ثلاثة نفر من الخوارج : عبد الرحمن بن ملجم للرادى وهو من حير وعداده في بنى مراد وهو حليف بنى جبلة ، من كندة ، والبرك بن عبد الله التميمي ، وعمر بن بكير التميمي ، فاجتمعوا بمكة وتماهدوا وتعاقدوا اليقنان هؤلاء الثلاثة على بن أبي طالب ومعاوية وعمر بن العاص ويريجون العباد منهم . قال ابن ملجم أنا لكم بلى ، وقال البرك أنا لكم بمعاوية ، وقال عمرو بن بكير أنا أكفيكم عمرو بن العاص فتماهدوا على ذلك وتعاقدوا عليه وتواتروا ألا ينكص منهم رجل عن صاحبه الذي سمى له ويتوجه له حتى يقتله أو يموت دونه . فخذلوا ليلة سبع عشرة من رمضان ثم توجه كل رجل منهم إلى اللصر الذي فيه صاحبه . قدم عبد الرحمن بن ملجم الكوفة فلقى أصحابه من الخوارج فكاتبهم ما يريد وكان يزورهم ويؤدونه فزار يوماً من بنى تيمم الرباب فرأى امرأة منهم يقال لها قطام بنت سخبه بن عدى بن عامر بن عوف بن ثعلبة بن سعد بن ذهل بن تيمم الرباب وكان على قتل أبائها وأخاها بالهرمزان فأعجبته فغلبها . فقالت لا أتزوجك حتى تسمى لى . قال لتأمنى شيئا إلا أعطيتك . قالت : ثلاثة آلاف وقتل على بن أبي طالب . قال : والله ما جاء به إلى هذا اللصر إلا قتل على . وقد أعطيتك مئالاً : ولقى ابن ملجم شبيب بن بجرة الأشجعي فأعلمه ما يريد ودعا أن يكون معه فأجابه إلى ذلك وظل ابن ملجم تلك الليلة التي عزم فيها أن يقتل علياً في صبيحتها بنجى الأشعث بن قيس الكندى في مسجده حتى طلع الفجر . فقال له الأشعث ، فضحك الصبح . قام ابن ملجم الكندى وشبيب بن بجرة فأخذ أسياهما ثم جاءا حتى جلسا في مقابل السدة التي يخرج منها على . فلما خرج اعترضه الرجلان فضرب الاثنان بسيفيهما ، فأما سيف ابن ملجم فأصاب جبهته إلى قرنه ووصل إلى دماغه وكان قد سن سيفه شمرًا . وأما سيف شبيب فوقع في الطاق فسمع على يقول لا يفوتكم الرجل وشد الناس عليهما من كل جانب . فأما شبيب فأقلت وأخذ ابن ملجم فأدخل على . على فقال « أطيّبوا طعامة وألينوا فراشه فإن أعش فأنا لى دى عفو أو قصاص ، وإن أمت فأطقوه لى أخاصمه عند رب العالمين » ضرب على رضى الله عنه في السابع عشر من شهر رمضان سنة أربعين (٢٤ يناير سنة ١٦١) واستشهد بعد ذلك بثلاثة أيام ودفن بالكوفة ليلة الأحد التاسع عشر من شهر رمضان وغسله الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر . وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة على الأصح وكانت خلافته خمس سنين إلا ثلاثة أشهر . قال على الباقر كان على آدم اللون مقلب العينين عظيمهما ذا بطن . أصلم . ربة لا يخضب . وقال أبو إسحاق السبيعي رأيت أبيض الرأس واللحية وكان ربما خضب لحيته . وقال أبو رجاء الطمارى : رأيت علياً ربة صخم البطن . كبير اللحية قد ملأت صدره . أصلم شديد الصلح .

هذا وقد اقتصر في تاريخ حياة علي رضي الله عنه على هذا القدر الضروري لأن اللقائم لا يسع أكثر من ذلك (راجع كتاب «الإمام علي بن أبي طالب» رضي الله عنه للدولف).

زيد بن حارثة

وإسلامه

زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد المزي • ويقع في نسبه خلاف وتفسير وزيادة وقص وهو أشهر موالى رسول الله • ويقال له جبر رسول الله وهبته خديجة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وهو ابن ثمان سنين وأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبناه وذلك أن أباه قد وجد (حزن) لقتله وجداً شديداً وكان قد أخذ في السبي • فلما علم أبوه أنه بمكة قدمها ليفديه فدخل حارثة وأخوه كعب على النبي صلى الله عليه وسلم فقالا : يا ابن عبد المطلب ، يا ابن هاشم ، يا ابن سيد قومه ! جئناك في ابنا عندك فامن علينا وأحسن إلينا في فداءه • فقال من هو ؟ قال : زيد بن حارثة • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهذا غير ذلك ؟ قالاهما هو ؟ قال : ادعوه وخبروه • فإن اختاركم فهو لكم وإن اختارني فوالله ما أنا بالنبي اختار علي من اختارني أحداً • قالاهما قد زدنا على النصف وأحسن فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم • فقال : هل تعرف هؤلاء ؟ قال نعم • هذا أبي وهذا عمي ، قال : فأنما من قد عرفت ورأيت صحابي لك فاخترني أو اخترهما • قال : ما أريدهما وما أنا بالنبي اختار عليك أحداً • أنت مني مكان الأب والعم • قالاه : وبمك يا زيد أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وأهل بيتك ؟ قال نعم • ورأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالنبي اختار عليه أحداً أبداً • فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحجر فقال يا من حضر اشهدوا أن زيدا ابني برئتي وأرثته • فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت نفوسهما وانصرفا^(١) وهاجر زيد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وشهد بدرًا وأحداً والخندق والحديبية وخيبر وكان هو البشير إلى المدينة بنصر المؤمنين يوم بدر ، وكان من الرعاة للذكورين وزوجه رسول الله ﷺ مولاته أم أيمن فولدت له أسامة ، وتزوج زينب بنت جحش أم المؤمنين^(٢) ثم طلقها ثم تزوجها رسول الله ﷺ • وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : « لو كان رسول الله ﷺ كاتباً شيئاً من الوحي لكتب هذه الآية : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ فإن رسول الله ﷺ لما تزوجها - يعني

(١) زيد بن حارثة من أبيون مسيحين لكنه لم يكن يلم شيئاً عن المسيحية لأنه سبي صغيراً ووهبته خديجة للنبي قبل النبوة وهو ابن ثمان سنين .

(٢) وهي ابنة عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

زينب - قالوا إنه تزوج حليمة ابنة فاطمة الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَحَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ وكان زيد يقال له زيد بن محمد فأنزل الله تعالى : ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ الآية .

قال العلماء ولم يذكر الله عز وجل في القرآن باسمه العلم من أصحاب نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم إلا زيدا في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَكْرًا وَزَوَّجْنَا كَمَا ﴾ .

وأخى رسول صلى الله عليه وسلم بينه وبين حمزة . وأرسله رسول الله أخيراً أميراً على الجيش في غزوة مؤتة قتال فيها حتى قتل وذلك في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة ، وكان زيد أبيض أحر وكان ابنه أسامة آدم شديد الأدمة (أى أسمر) .

الدعوة إلى الإسلام خفية

بعد أن نزلت سورة « يا أيها المدثر » أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الله تعالى وتتابع الوحي . وتزول هذه السورة ابتداء رسالته صلى الله عليه وسلم فهي متأخرة عن نبوته ، وصار عليه الصلاة والسلام يدعو الناس إلى الإسلام خفية ثلاث سنين لعدم الأمر بالإظهار إلى أن أمر بإظهار الدعوة وكان من أسلم إذا أراد الصلاة ذهب إلى بعض الشباب ليستخفي بصلاته من للشركين حتى اطلع نفر من للشركين على سعد بن أبي وقاص وهو في نفر من المسلمين يصلون في بعض الشباب فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون وقاتلهم فغضب سعد رجلاً منهم فشنجه وهو أول دم أهرق في الإسلام . فبعد ذلك دخل رسول الله ﷺ هو وأصحابه دار الأرقم مستخفين بصلاتهم وعبادتهم إلى أن أمره الله تعالى بإظهار الدين . ودار الأرقم هي دار للأرقم بن أبي الأرقم من السابقين في الإسلام وهي في أصل الصفا .

وقد أسلم من الصحابة بدعاء أبي بكر : عثمان بن عفان . والزبير بن العوام . وعبد الرحمن بن عوف . وسعد بن أبي وقاص . وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا^(١) وهنا يجب أن نذكر شيئاً عنهم لرفعة شأنهم :

١ - عثمان بن عفان هو الخليفة الثالث : هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ويقال له ذو النورين لأنه تزوج بنتي رسول الله ﷺ رقية ثم أم كلثوم بعد وفاة رقية . ولد في السنة السادسة بعد الفيل وقتل شهيداً يوم الجمعة لثمان عشرة خلون من ذي الحجة سنة خمس وثلاثين وهو ابن ٨٢ سنة وكانت خلافته ثلثي عشرة سنة . وفي زمنه كانت غزوة الإسكندرية ثم ساوير ثم إفريقية ثم قبرس وإصطخر الآخرة وفارس الأولى ثم خوز وفارس الآخرة ثم طبرستان ودارا وجرمد وكرمان وسجستان ثم الأساورة في البحر وغيرهن ثم مرو .

(١) كان كل من أبي بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عوف ، وكان الزبير بن جراح وسعد بن أبي وقاص يصنع البيل .

وكان رضى الله عنه حسن الوجه رقيق البشرة كث اللحية أسمر كثير الشعر بين الطويل والتقصير وكان محبباً من قريش^(١) . .

٢ - الزبير بن العوام أمه صفية بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أخى خديجة بنت خويلد زوجة النبي وكان عمره حين أسلم اثنتى عشرة سنة ، وهو أحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه الخلافة في أحدهم : عثمان وعلى وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف . هاجر الزبير إلى الحبشة ثم إلى المدينة وهو أول من سل سيفاً في سبيل الله . شهد بدرأً وأحداً والخندق والحديبية وخيبر وفتح مكة وحصار الطائف والمشاهد كلها مع رسول الله ﷺ وشهد اليرموك وفتح مصر . وكان أسمر ربة معتدل اللحم خفيف اللحية . وكان الزبير يوم الجمل قد ترك القتال وانصرف فلتحه جماعة من التوفاة قتلوه بوادى السباع بناحية البصرة وقبره هناك ، قتل في جمادى الأولى سنة ست وثلاثين وكان عمره حينئذ سبعاً وستين وقبل ستاً وستين سنة .

٣ - عبد الرحمن بن عوف ولد بعد القليل بمصر سنين قبل دخول رسول الله دار الأرقم . أحد العشرة المشهود لهم بالجنة وأحد الستة الذين هم أهل الشورى الذين أوصى إليهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه بالخلافة . هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة وشهد مع رسول الله بدرأً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وسائر المشاهد . وجرح يوم أحد إحدى وعشرين جراحة وجرح في رجله وسقطت ثنيتاه . وكان كثير الإنفاق في سبيل الله . أعتق في يوم واحد ثلاثين عبداً . وكان كثير المال محظوظاً في التجارة ، غنياً . وكان أبيض مشرباً بجمرة ، حسن الوجه ، رقيق البشرة أعين أهدب الأنفار أقرى له جمة ضخم الكفين غليظ الأصابع لاتغير بشعره . توفى سنة ثنتين وثلاثين وهو ابن ثنتين وسبعين ودفن بالبيع .

٤ - سعد بن أبي وقاص - وكان عمره حين أسلم تسع عشرة سنة وهو أحد العشرة وأحد الستة أصحاب الشورى وهو أول من رى بسهم في سبيل الله وأول من أراق دمًا في سبيل الله هاجر إلى المدينة قبل قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها . شهد مع رسول الله بدرأً وأحداً والخندق وسائر المشاهد وكان يقال له فارس الإسلام . وأبلى يوم أحد بلاء شديداً وكان مجاب الدعوة . استعمله عمر بن الخطاب على الجيوش التي بعثها إلى بلاد الفرس ، وكان أمير الجيش الذي هزم الفرس بالقادسية وبجولاء وغنهم وفتح مدائن كسرى وبني الكوفة وولاه عمر بن الخطاب رضى الله عنه العراق . ورى سعد يوم أحد ألف سهم . ولما قتل عثمان رضى الله عنه اعتزل سعد الفتن فلم يقاتل في شيء من تلك الحروب . توفى سنة خمس وخمسين بقصره بالقيظ على عشرة أميال من المدينة ودفن بالبيع وكان آدم طوالاً ذاهلماً .

(١) راجع كتاب « عثمان بن عفان » للمؤلف .

• — طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشورى وسماه رسول الله ﷺ طلحة الخير وطلحة الجود وهو من المهاجرين الأولين لم يشهد بدرًا وشهد أحدًا وما بعدها من المشاهد : قتل يوم الجبل لشر خلون من جمادى الأولى سنة ست وثلاثين . وكان عمره أربعًا وستين سنة وقبره بالبصرة مشهور بزار ويثيرك به .

هذا جزء يسير من تراجم الخمسة الذين أسلموا بدعاء أبي بكر ، وهم من الرجال الذين ذاع صيتهم في الإسلام لما قاموا به من جلائل الأعمال ، وقد أسلم بسد هؤلاء أبو عبيدة الجراح واسمه عامر بن عبد الله بن الجراح ابن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر ، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان ابن مظعون وأخوه قدامة وعبد الله ابنا مظعون ، وعبيدة بن الحارث وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب وأسماء بنت أبي بكر وعائشة بنت أبي بكر وهي صغيرة وخباب بن الأرت حليف بنى زهرة وعمر بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود ومسعود بن القارى وهو مسعود بن ربيعة وسليط بن عمر وأخوه حاطب بن عمر، وعياش بن أبي ربيعة بن للنيرة وامرأته أسماء بنت سلامة وخنيس بن حذافة بن قيس وعامر ابن ربيعة وعبد الله بن جش وأخوه أبو أحمد بن جش وجعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عُميس وحاطب ابن الحارث وغيرهم .

الرد على مستمررجوليوث

قدمنا أن عثمان بن عفان قد أسلم إجابة لدعوة أبي بكر لكن الأستاذ مرجوليوث في كتابه محمد ^(١) يزعم أن سبب إسلامه أنه كان يحب رقية بنت رسول الله ﷺ ويريد أن يتزوجها . فلما بلغه أنها خطبت لغيره حزن وأخبر أبا بكر بما بلغه وصادف مرور رسول الله ﷺ فأسرَّ أبو بكر كلمات في أذن الرسول وبذلك انتهى الأمر وأسلم عثمان وتزوج رقية، ولم يذكر لنا مستر مرجوليوث المصدر الذي استقى منه هذا الخبر حتى نناقشوه فننده فاكل رواية يؤخذ بها ويوصل عليها . ثم يعرض بعد ذلك إلى خالد بن سعيد وسبب إسلامه . فقد كان خالد من السابقين إلى الإسلام فكان ثالثًا أو رابعًا وقيل كان خامسًا في الإسلام . وسبب إسلامه أنه رأى في النوم أنه وقف على شفير النار فذكر من سبغها ما الله أعلم به وكان أباه يدفعه فيها ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم آخذًا بمحتويه ^(٢) لايقع فيها فتزع من نومه وقال : أحلف لإنها لرؤيا حق ولقي أبا بكر رضى الله عنه فذكر ذلك له . فقال له أبو بكر أريد بك خيرا ، هذا رسول الله ﷺ فأنبئة فإنك ستنبئه في الإسلام الذي يحجزك من

(1) Mohammed by D. S. Marglouth, 3 rd edition, Page 97

(٢) الحفان بالكسر والفتح : الحاصرتان .

أن تقع في النار وأبوك واقع فيها فلقى رسول الله ﷺ وهو بأجناد^(١) قال : يا محمد إلى من تدعو ؟ قال : أدعو إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضرب ولا ينفع ولا يدرى من عبده ممن لم يعبد . قال خالد فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فسر رسول الله ﷺ بإسلامه . وبعد أن ذكر مرجوليوت رؤيا خالد باختصار وتعبير أبي بكر لها وأن هذه الرؤيا كانت سبب إسلام خالد بن سعيد ، تسأل هل الناس حقيقة يحملون هكذا ؟ لكنه قال « إن فلا ماريون وميرز (Flammarion and Myers) يميّزانهم يرون مثل ذلك » وهما من العلماء المشهورين . والمدهش أن الأستاذ مرجوليوت لا يعلم أن الناس يرون أحلاماً هكذا مع إقرار علماء النفس في أوروبا وأمريكا بذلك . والأحلام على العموم شائعة بين الناس وليست رؤيا خالد من الأحلام المستغربة حتى يشك فيها مثل مرجوليوت . أما إذا كان الشك لترض فهذا أمر آخر .

إن الناس يرون أحلاماً يتحقق بعضها وبعضها يحتاج إلى تأويل . ويستبعد جداً أن يقص إنسان حداً مختلفاً وليس للأحلام حدود أو ضوابط حتى يقال إن هذا حلم وهذا ليس بحلم . فلا محل لتحكم مستر مارجوليوت واستنكاره رؤيا خالد بن سعيد للنار . وهذا يوسف عليه السلام ورؤياه التي قصها على أبيه قد تحققت بعد أربعين عاماً وما رآه الفتيان اللذان كانا معه في السجن مما ورد ذكره في القرآن قد عبّر يوسف عليه السلام رؤيائهما وتحققت حسب تفسيره ، إذ عاد أحدهما إلى مركزه السابق لدى الملك وأعدم الآخر . إلا أن مستر مارجوليوت غرضه التهم على الإسلام لا استنكار الأحلام . وهذا لا يليق بمستشرق مثله .

إيذاء المشركين

لأبي بكر الصديق

عبادة الأصنام مع أنها واضحة البطلان فإن العرب كانوا متمسكين بها تمسكاً شديداً لرسوخها في نفوسهم منذ زمن طويل فلا يطيقون سماع من يعيبها أو يطن فيها بل لا يقبلون إرشاد ناصح يحاط بهم بالحسنى ويناقشهم بالعدل والبرهان . فإذا قيل لهم كيف تعبدون الحجارة التي لا تنفع ولا تضر ، ولا تبصر ولا تسمع ، ولا تعلم من يعبدها ، ومن لا يعبدها ، ثارت نائرتهم . وقالوا : هذا ما وجدنا عليه آبائنا واعتدوا على أعز الناس لديهم وأشرفهم وأعظمهم وأسهلهم أخلاقاً . فلم يكن من الحكمة وأمهالة الرأي أن يجهر النبي ﷺ وأصحابه القليلون بالإسلام ويؤدوا شأئهم الدينية أمام أمة بأسرها متعصبة لدينها الوثني تمسباً أعمى .

وقد أدرك بعض أفراد بعقلهم الثاقب وفطرتهم السليمة أن قومهم في خطأ مبين فنهزم من مات وهو منكر

(١) أجناد ، علة بكة .

لعبادة الأصنام قبل الإسلام . ومنهم من آمن برسول الله عند ما بلغته رسالته كسلمان الفارسي أو عند ما دعاه رسول الله إلى اتباع الدين القويم كأبي بكر ، ومن أسلم بدعائه وغيرهم ولم يبالوا بما يصيبهم من سخط قومهم ولذاتهم مع ما يعلمونه من قلة عدد المؤمنين في بادئ الأمر .

فما وقع لأبي بكر رضي الله عنه من الأذى ما ذكره بعضهم كما في السيرة الحلبية أن رسول الله ﷺ لما دخل دار الأرقم ليعبد الله هو ومن معه من أصحابه سرّاً ألح أبو بكر رضي الله عنه في الظهور ^(١) قال له النبي ﷺ يا أبا بكر إنا قليل . فلم يزل به حتى خرج رسول الله ﷺ ومن معه من الصحابة رضي الله عنهم وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله ﷺ جالس ودعا إلى رسول الله . فهو أول خطيب دعا إلى الله تعالى ، فثار للشركون على أبي بكر رضي الله عنه وعلى المسلمين يضربونهم فضربوه ضرباً مبرحاً ، ووطئ أبو بكر بالأرجل وضرب ضرباً شديداً . وصار عتبة بن ربيعة ^(٢) يضرب أبا بكر بنملين مخصوصتين ويحرفهما إلى وجهه حتى صار لا يعرف أهله من وجهه فجاءت بنو تيم يصادون فأجلت المشركين عن أبي بكر إلى أن أدخلوه منزله ولا يشكون في موته . ثم رجعوا فدخلوا المسجد فقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة . ثم رجعوا إلى أبي بكر وصار والده أبو قحافة وبنو تيم يكلمونه فلا يجيب حتى آخر النهار . ثم تكلم وقال : ما فعل رسول الله ﷺ فذلوه فصار يكرر ذلك . فقالت أمه والله مالي علم بصاحبك . قال : اذهبي إلى أم جميل فاسألها عنه فخرجت إليها وفات لها أن تسأل عن محمد بن عبد الله . فقالت لا أعرف محمداً ولا أبا بكر . ثم قالت تريدن أن أخرج منك ؟ قالت نعم . فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر فوجدته صريعاً فصاحت وقالت : إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق . وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم ، قال لها أبو بكر رضي الله عنه : ما فعل رسول الله ﷺ . فقالت له هذه أمك تسمع . قال فلا عين عليك منها : أي إنها لا تفتش شرك . قالت : سالم هو في دار الأرقم . قال والله لا أذوق طعماً ولا أشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ ، قالت أمه فأمهلناه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس خرجنا به يشكي على حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فرق له رقة شديدة وأكب عليه فينبهه وأكب عليه المسلمون كذلك . قال يابى أنت وأمي يارسول الله ما بيني وبينك إلا ما نال الناس من وجهي وهذه أمي برة بولدها ففسى الله أن يستنقذها بك من النار ، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاها إلى الإسلام فأسلمت .

(١) هذا دليل على أن أبا بكر لم يكن ضيقاً لأنه لو كان كذلك لما ألح في الظهور وهو يعلم عداة قريش للمسلمين ودليل على قوة إيمانه بصديق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم .

(٢) عتبة بن ربيعة قتل حجة بن عبد المطلب يوم بدر كانراً .

لأنك أن المسلمين في ذلك الوقت كانوا في خطر شديد . قد كان لا يهدأ للشركين بال إلا إذا أساءوا إليهم ولذلك كان الاستخفاف في غاية الحكمة . وبقي المسلمون مستخفين في دار الأرقم حتى كلوا أربعين رجلاً ، وكان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب . فلما كلوا به أربعين خرجوا وأظهروا إسلامهم .

تلك شجاعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقوة إيمانه وصدق يقينه . لقد وقف أمام المشركين وجهاً لوجه ولم يبال بكثرةهم وعرض حياته الغالية للخطر ليدعوهم إلى الحق ، إلى عبادة الله الواحد القهار ونبذ الشرك وخلع الوثنية فأصيب بشر ما يصاب به إنسان وكاد يقضى عليه ، فلما أفاق كان أول ما تلفظ به السؤال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم ترح نفسه وتطمئن حتى رآه بعينه سالماً معاف . فأين هذا من الذين يخالفون عقائدهم ويميلون مع الأهواء وينضمون إلى من يأنسون فيه القوة ويمنون على الباطل لناع مؤقت لا يلبث أن يزول ؟ لو كان للمسلمين في بادئ أمرهم متعاونين مذهبين لما ثبت دعائم الإسلام وصار قوى الأركان ، منيع البنيان . بل قبر في مهده ، لكنه ارتفع على كواهل رجال أقوياء صادقين أدهشوا العالم بأعمالهم وجهادهم حتى خضعت لهم أم الأرض ! فبمثل عمل هؤلاء فلينبتد المصلحون .

إظهار الإسلام

سنة ٦١٣ م

أمر الله سبحانه وتعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يصدع بما جاءه منه ، وأن يدعو الناس إليه وأمرهم به . وكان بين إخفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره واستتاره به وبين أمر الله تعالى إياه بإظهار دينه ثلاث سنين من بعثه ، ثم قال الله تعالى له ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ^(١) ﴾ أي لا تبال بهم ولا تلتفت إلى لومهم إليك على إظهار الدعوة . وقال تعالى ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ^(٢) ﴾ . فصد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصفا ^(٣) . قال : يا معشر قريش . قسأت قريش محمد على الصفا يهتف . فأقبلوا واجتمعوا . فقالوا مالك يا محمد ؟ قال أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوني ؟ قالوا نعم أنت عندنا غير متهم وما جربنا عليك كذباً قط . قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد . يا بني عبد المطلب . يا بني عبد مناف . يا بني زهمرة - حتى عدد الأخخاذ من قريش - إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ، وإني لا أملك لكم من الدنيا منفعة ولا من الآخرة نصيباً

(١) سورة المجر .

(٢) سورة الشعراء .

(٣) مكان مرتفع في أسفل جبل أبي قحس في مواجهة الكعبة من الجهة الغربية .

إلا أن تقولوا لا إله إلا الله . قال أبو لهب « تبأ لك سائر اليوم . لهذا جمعنا » ؟ أنزل الله تبارك وتعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ السورة كلها . فلما سمع أبو لهب قوله ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ قال إن كان ما يقول محمد حقا أفديت منه بمالي وولدي فزل ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ وكان أبو لهب إذا سأله وفد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال إنه ساحر ومجنون لينصرفوا عنه قبل لقائه . وقد أغضبت هذه السورة أبا لهب فأظهر شدة العداوة وصار متهاكما فلم يقبل قوله في رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنه خاب سعيه وبطل غرضه . وروى عن طارق الخماري أنه قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في السوق يقول : أيها الناس : قولوا لا إله إلا الله تنلحوا ، ورجل خلفه يرميه بالحجارة وقد أدمى عقيقه . ويقول لا تطعموه فإنه كذاب . قلت من هذا ؟ قالوا محمد وعه أبو لهب . أما امرأته فهي أم جميل بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان بن حرب عمة مملوكة فكانت أيضا في غاية العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وترعى الشوك في طريقه .

وعن الزهري أنه قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام سرا وجهراً فاستجاب الله من شاء من أحدث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به وكفار قريش غير منكربن لما يقول . فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون إليه أنه غلام بن عبد المطلب يكلم من السماء فكان ذلك حتى عاب أقتهم التي يبيلونها وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر فشنقوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك وعداوه .

وعن ابن عتبة أنه قال : ما أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام ومن معه وفشا أمره بمكة ودعابضهم بعضا فكان أبو بكر يدعو ناحية سرا ، وكان سعيد بن زيد مثل ذلك ، وكان عثمان مثل ذلك ، وكان عمر وحمزة بن عبد المطلب وأبو عبيدة بن الجراح يدعون علانية ، فضبت قريش من ذلك وظهر منهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم الحسد والبغى وأشخص به منهم رجال فيأدوه وتستر آخرون وهم على ذلك الرأي إلا أنهم ينزهون أنفسهم عن القيام والإشخاص برسول الله ﷺ . وكان أهل العداوة والمباذاة رسول الله ﷺ وأصحابه الذين يطلبون الخصومة والجلل : أبو جهل بن هشام وأبو لهب بن عبد المطلب ، والأسود بن عبد نفث ، والحارث بن قيس بن عدى وهو ابن النخيلة ، والوليد بن المغيرة وأبى بن خلف ، وأبو قيس بن الناكه بن المغيرة والعاص بن وائل ، والنضر بن الحارث ومنه بن الحجاج وزهير بن أبى أمية والسائب بن صفي بن عابد ، والأسود بن عبد الأسد ، والعاص بن سعيد بن العاص ، والعاص بن هاشم وعقبة بن أبى معيط ، وأبو الأصدى المذلل والحكم بن أبى العاص وعدى بن الحراء . وذلك أنهم كانوا جيرانهم . والذين كانت تنتهى عداوة رسول الله إليهم أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبى معيط . وكان عتيبة وشيبة بنى ربيعة وأبو سفيان بن حرب أهل عداوة ولكنهم لم يشخصوا بالنبي صلى الله عليه وسلم نحو قريش ولم يسلم منهم أحد إلا أبو سفيان ^(١) .

(١) راجع طبقات ابن سعد .

عبد الله بن مسعود أول من جهر بالقرآن

كان أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله ﷺ عبد الله بن مسعود ، اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ : فقالوا والله ما سمعت قریش هذا القرآن يجرها به قط . فن رجل يسمعون ؟ فقال عبد الله بن مسعود^(١) أنا . فقالوا إنا نخشع عليه إنما نريد رجلاً له عشيرة تمنع من القوم إن أرادوه . فقال دعوني ؟ فإن الله سيمعني ، فنادى عبد الله حتى أتى للقمام في الضحى وقریش في أنديتها حتى قام عند اللقمام . فقال رافعاً صوته ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ . فاستقبلها قراء بها فتأملوا . فجعلوا يقولون : ما يقول ابن أم عبد ؟ ثم قالوا إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد . فقاموا فجلسوا يضربون في وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ . ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا بوجهه . فقالوا : هذا الملقى خشينا عليك . فقال : ما كان أعداء الله قط أهون علىّ منهم الآن ، ولئن شئتم غاديتهم بمثلها غداً . قالوا حسبك قد أسمعهم ما يكرهون .

وقيل إن أبا جبل لطمه فشق أذنه وأمامه فانصرف وعينه تنمّع فلما رآه النبي عليه السلام رق قلبه وأطرق رأسه فمضوا . فإذا جبريل عليه السلام يحیی . ضاحكاً مستبشراً فقال يا جبريل تضحك وابن مسعود يبكي ؟ قال : ستعلم ، فلما غفر للسلون يوم بدر التمس ابن مسعود أن يكون له حظ في الجهاد ، فقال عليه السلام : خذ دحلك والتمس في الجرحى من كان به رمق فأقتله فإنك تنال ثواب المجاهدين . فأخذ يطالع القتلى فإذا أبو جهل مصروع يخور ، فخاف أن تكون به قوة فيؤذيه فوضع الرمح على منخره من بعيد فطمعته^(٢) .

الضرب والشتم حيلة الجاهل المتعصبين

إن كندر قریش ، لم يفكروا في مناقشة ما يسمعون من الآيات القرآنية التي كان يتلوها رسول الله ﷺ وأصحابه ، بل كانوا يبهمون بالكلية تارة أو بالجنون أو بالسحر ويضربون من يجهر بالقرآن . وهذا سلاح الضعيف الجاهل . إن رسول الله كان يسيب آلتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ويقول : إنها أصنام صنعتوها بأيديكم وهي لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر . فتركوها واعبدوا الله خالق السموات والأرض ويدد لهم

(١) كان عبد الله بن مسعود قصيراً جداً طوله نحو ذراع خفيف اللحم دقيق الرجلين . يقال إن عبد الله سادس من أسلم . وقد هاجر المجرمين وشهد بدرًا وأُخذوا والتمذق وبيعة الرضوان وسائر المناشد مع رسول الله .

(٢) تفسير القصر الرازي جزء ٦ ص ٥٨٥ .

صفاته وقدرته جل شأنه ، فلولاً رسوخ للعقيدة الباطلة في نفوسهم ، والعقائد الباطلة القديمة ، نزل عقل معتقدها ،
نقول لولا رسوخ العقيدة ، لحسكوا عقولهم وبلدوا إلى الإيمان بالله : لكن عز عليهم أن يأتي رجل منهم
ويتهمهم بالكفر والضلال ويعيب تلك الآلهة القديمة التي وجدوا آباءهم وأجدادهم يسجدون لها ويقدمون لها
الذبائح والمهدايا . فالتجأوا إلى الضرب والشتم وهذا شأن كل جاهل متعصب . ولما دخل رسول الله مكة فاتحاً
وأمر يهدم تلك الأصنام التي كانوا يعتقدون أنها مقدسة لا يقدر أحد على إيصال الأذى إليها ، وهدمت بالفعل
ووجد أن لاحول لها ولا قوة وقتل من كان فيها من المشعوذين ، أبقوا أنهم كانوا في ضلال مبين قتال الرسول :
﴿ جاءَ الْخَلْقُ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ فالله طهر قلوبنا من الشرك وأمتنا مسدين .

القرآن يحجّر ألباب العرب

تحجّرت ألباب العرب في القرآن الذي نزل بأنهم وهم أهل فصاحة وبلاغة . وخشيت قريش أن ينتشر
الإسلام وينتصر النبي ﷺ بدنه على الأصنام . فاتفقوا على إطلاق اسم على رسول الله ﷺ ينزع أقباله منه ،
ويشوه سمته ، ويكون عقبة في سبيل نشر دعوته . ذلك أن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قريش وكان
ذا سن فيه . وقد حضر للوسم قال لهم : يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الوسوم . وإن وفود العرب ستقدم
عليكم فيه . وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ورد
قولكم بعضه بعضاً . قالوا : فأنتم يا أبا عبد شمس هل وأنتم لنا رأياً هل به . قال : بل أنتم قولوا أسمع . قالوا
قول كاهن قال والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فها هو بزومة الكاهن ولا سجمه^(١) قالوا فنتول مجنونون
قال ما هو بمجنون ، لقد رأينا المجنون وعرفناه فها هو بخنفة ولا تخلفه ولا وسوسته^(٢) . قالوا فنتول شاعر . قال :
ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجّزه ، وهزّجه ، وقريضه ، مقبوضه ، ومبسوحه^(٣) فها هو بالشعر . قالوا فنتول
ساحر . قال : ما هو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرم فها هو بنفثه ولا عتده^(٤) . قالوا فها قول يا أبا عبد شمس ؟
قال والله إن لقوله حلالة ، وإن أصله لذني^(٥) . وإن فرعه لجناة^(٦) وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرّف

(١) الزمّة كلام خول لا يفهم . والسجع أن يكون الكلام المنثور له نهايات كنهايات الشعر
(٢) بخنفة . يريد الاختناق الذي يصيب المجنون . والتخالف : اختلاج الأعضاء وتحركها عن غير إرادة . والوسوسة ما يلقى الشيطان
في نفس الإنسان .
(٣) هذه كلها أنواع من الشعر (٤) إشارة إلى ما كان يعمل الساحر من أن ينفث خيخام ينفث عليه . ومنه قوله تعالى : « ومن
شر النائنات في القدح » يعني الباحرات (٥) الذقن الكثير اللبب والأطراف في الأرض .
(٦) أي غير يميني .

أنه باطل، وإن أقرب القول لأن تقولوا ساحر جاء يقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، ففزعوا عنه بذلك. فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا للوسم لا يمر أحد إلا حذروه إياه. لكن النتيجة جاءت عكس ذلك قد انتشر ذكره صلى الله عليه وسلم في بلاد العرب.

وقد كان ضماد بن ثعلبة الأزدي صديقاً للنبي صلى الله عليه وسلم في الجاهلية. وكان رجلاً يتطلب ويرق ويطلب العلم. فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون إن محمداً مجنون. فجاءه وقال إني راق فهل بك من شيء فأريته؟ فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله: « الحمد لله نحمده ونستعينه. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أما بعد »، قال له ضماد أعد عليّ كتابك هؤلاء، فأعادهم النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً. قال: والله لقد سمعت قول الكهنة، وسمعت قول السحرة، وسمعت قول الشعراء، فما سمعت مثل هؤلاء الكلمات لقد بلغت ناعوس البحر^(١) فديك أبايكم على الإسلام فد النبي صلى الله عليه وسلم يده فبايعه وأسلم.

ومكنا أخفق مسام وسقط إفاكهم والحسود لا يسود، والكذب لا تقوم له قائمة فلا بد أن يسود الحق ويكتسح الباطل أميابه.

قريش تفاوض أبا طالب

في أمر رسول الله ﷺ

المفاوضة الأولى

لما رأت قريش أن أبا طالب قد قام دون النبي ﷺ ولم يسلمه لهم، مشى رجال من أشrafهم إلى أبي طالب: عتبة وشيبة ابنا ربيعة. وأبو البختري بن هشام. والأسود بن الخطاب، والوليد بن النخيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل السهوي وبنوه ومنبّه ابن الحجاج، وغيرهم. قالوا يا أبا طالب: إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا، وسفه أحلامنا، وضلل آباءنا، فلما أن تسكنه عنا وإما أن تحلى بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه. قال لهم أبو طالب قولا جميلا، وردهم ردّا رقيقاً، فأنصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ لما هو عليه. هذه هي للمفاوضة الأولى، لكنها لم تدر شيئاً، إذ غل الرسول يدعو إلى عبادة الله كما كان.

(١) هكذا جاء في رواية مسلم « ناعوس البحر » وفي غيره « ناموس البحر » وهو الصحيح كما في الروايات الأخرى. وناموس البحر: وسطه ولبته. والتي بلغت غاية القابلات.

المفاوضة الثانية

ثم لما تباعد الرجال وتضامنوا ، وأكثر قريش ذكر رسول الله ﷺ فكروا في مفاوضة أبي طالب مرة أخرى . فمشوا إليه وقالوا : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا وإنا قد اشتبهناك أن ننهي ابن أخيك فلم نعمل . وإنا والله لأنصير على هذا من شتم أهلكنا وآبائنا ، ونسفيه أحلامنا حتى نكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين أو كما قالوا ، ثم انصرفوا عنه . ومعنى ذلك أنهم هددوا أبا طالب في هذه المرة وأظهروا له العداوة ، فعلم عليه فراق قومه وعداوتهم له ، ولم تطب نفسه بإسلام رسول الله ﷺ وخذلانه ، فبعث إلى رسول الله ﷺ فأعلمه بما قالت قريش ، وقال له أبق على نفسك وعلى ولا تمنأ من الأمر مالا أطيع . فظن رسول الله ﷺ أن همه قد خذله وضعف عن نصرته . فقال له « يا عمه والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه متركته » ثم بكى رسول الله ﷺ وقام . فلأولى ناداه أبو طالب فأقبل عليه وقال : (اذهب يا ابن أخي قتل ما أحبت فوالله لأسلمك لشيء أبداً) فغدير أبيه القاري في قوة رسول الله ﷺ تلك القوة المعنوية العظيمة أمام شعب معاد معاند وشدة تمسكه بعبده إلى النهاية !!

المفاوضة الثالثة

أصر أبو طالب على الدفاع عن ابن أخيه قياماً بالواجب عليه نحو من تربى في كنفه ونشأ في بيته وعمل بالمروءة . ولكنه مع ذلك بقى على دينه ولم يعتنق الإسلام لذلك صارت مهمته شاقة ومركزه حرجاً فأمامه قريش متعصبة لدينها وقد أغضبها قيام محمد صلى الله عليه وسلم بنشر الإسلام ومحاربة الأصنام ، وصاحب الدعوة لا يثنيه عن القيام بما أمر به سخرية ساخر أو اضطرار مضطرب فلو أن أبا طالب أسلم لكان دفاعه أعظم وحجته أبلغ أمام العرب وأحكم ، ولكنه ظل على دين آباءه ودافع عن رسول الله ﷺ لاعتقاده بل أداء لواجب القرابة . وفي هذه المرة مشوا إلى أبي طالب بعبارة بن الوليد . فقالوا : يا أبا طالب هذا حمارة بن الوليد فني قريش وأشعرهم وأجلمهم نخذه فلك عقله ونصرته فاحمذه ولداً وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي سفه أحلامنا وخالف دينك ودين آبائك وفرقت جماعة قومك قتله فإتما رجل برجل . فقال والله لبئس ماتسوموني ! انطعوني ابكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تتلونه ؟ هذا والله لا يكون أبداً يقال للظلم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف : لقد أضفك قومك ومأراك تريد أن تقبل منهم شيئاً . فقال والله ما أنصفوني ولكنت قد أجمعت خذلا في مطاهرة القوم على فاضح ما بدا لك . وكل عاقل يرى أن ماعرضته قريش على أبي طالب في غاية السخف لكهم كانوا يتلوسون الحيل للخلاص من صاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم بأي حال فلما يتسوا من إجابة طلبهم اشتدت قريش على من

أسلم فوجئت كل قبيلة على من فيها من المسلمين يذبونهم ويقتنونهم عن دينهم . وقام أبو طالب بنى هاشم فدعاهم إلى منع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابوا إلى ذلك .

تعذيب المسلمين

أخذت قريش تؤذى النبي ﷺ وتؤذى من آمن به حتى عذبوا جماعة من المستضعفين عذاباً شديداً يدل على مبلغ قسوتهم وقسوتهم .

فن الذين عذبوا لأجل إسلامهم بلال بن رباح الحبشي مولى أبي بكر . وكان أبوه من سبي الحبشة وأمه حمامة سبية أيضاً وهو من مولى الشراء وكتبته أبو عبد الله نصار بلال لأمية بن خلف الجهمي فكان إذا حيت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره ^(١) ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره ويقول لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ، فكان بلال وهو في هذه الحال يقول : « أحد . أحد » فرأه أبو بكر يذب ، قال لأمية بن خلف الجهمي ألا تنقي الله في هذا المسكين ؟ قال أنت أفدته فأفدته فقال : عندي غلام على دينك أسود أجلد من هذا أعطيك به قال : قبلت ، فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذ بلالاً فأفدته . وقبل اشتراه أبو بكر بخمس أواق . أما أمية بن خلف فقتله بلال ، واشترك معه معاذ بن عفراء وخارجة بن زيد وحبيب بن أساف . قال ابن إسحاق : أما ابنه علي فقتله عمار بن ياسر وحبيب بن أساف وذلك في موقعة بدر . ومن المذنبين - عمار بن ياسر أبو البقطان النسبي وهو بطن من مراد . وعنس هذا أسلم هو وأبوه وأمه وأسلم قديماً ورسول الله صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بن أبي الأرقم بعد بضعة وثلاثين رجلاً . أسلم هو وصهيب في يوم واحد . وكان ياسر حليفاً لبني مخزوم فكانوا يخرجون عماراً وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حيت الرمضاء يذبونهم بحر الرمضاء فر بهم النبي صلى الله عليه وسلم . قال : « صبراً أكل ياسر فإن موعدكم الجنة » فأت ياسر في العذاب وأغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل فضعها في فرجها بحربة فماتت ١١ وهي أول شهيد في الإسلام وشهدوا العذاب على عمار بالحرارة وبوضع الصخر في شدة الحر على صدره تارة أخرى . فقالوا لا تتركك حتى تسب محمداً وتقول في اللات والعزى خيراً . قتل فتركوه فأتى النبي صلى الله عليه وسلم يبكي قال : ما وراءك ؟ قال شمر يارسول الله كان الأمر كذا وكذا قال : فكيف تجد قلبك ؟ قال أجده مطمئناً بالإيمان قال يا عمار إن عدواك ضد . فأذن الله تعالى : ﴿ إِنْ مِنْكُمْ أَكْثَرٌ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ .

ومنهم خباب بن الأرت وكان إسلامه قديماً . قيل سادس سنة قبل دخول رسول الله دار الأرقم فأخذه الكفار

(١) ويكنى ذلك تعذيباً لكثرة حر مكة في فصل الصيف .

وعذبه عذاباً شديداً فكانوا يبرونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ثم بالرصف وهي الحجارة الحماة بالنار ولووا رأسه فلم ينجهم إلى شيء مما أرادوا وهاجر وشهد للشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل السكوة ومات سنة سبع وثلاثين . وقال علي رضي الله عنه : رحمه الله إن خيلاً بأسلم وأغياً وهاجر طائفاً وعاش مجاهداً وابتنى في جسمه ولن يضيع الله أجر من أحسن عملاً .

ومنهم صهيب بن سنان الرومي كناه رسول الله ﷺ « أبا يحيى » قبل أن يولد له . وكان ممن يذب في الله فذب عذاباً شديداً فلما أراد الهجرة منته قريش فاخذوا نفسه منهم بماله أجمع وجعله عمر بن الخطاب عند موته يصلى بالناس إلى أن يستخلف بعض أهل الشورى .

ومنهم عامر بن فيرة مولى الطفيل بن عبد الله . وكان القليل أخا عائشة لأُمها أم رومان أسلم قديماً قبل دخول رسول الله دار الأرقم وكان من المستضعفين يذب في الله فلم يرجع عن دينه واشتراه أبو بكر وأعتقه . ولما خرج رسول الله وأبو بكر إلى الفارمهاجرين أسر أبو بكر مولاه عامر بن فيرة أن يروح بنم أبي بكر عليه أو كان يرعاه وهاجر معها إلى المدينة يخدمهما . وشهد عامر بدرًا وأحدًا وقتل يوم بدر مائة سنة أربع من الهجرة وهو ابن أربعين سنة .

ومنهم ليبة جارية بني مؤمل بن حبيب بن كعب أسلت قبل إسلام عمر بن الخطاب وكان يذبها حتى تقتل ثم يدعها ويقول إنى لم ادعك إلا سامة فتقول كذلك يفعل الله بك إن لم تسلم فأشترها أبو بكر فأعتبها .

هذه أمثلة ذكرتها ليتضح للقارئ اشتداد المذاب على هؤلاء الساكنين رجالاً ونساء

ومما أصاب النبي ﷺ من الإيذاء ما قاله ابن عمر كما في البخارى : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ فأنفثه خنقاً شديداً فجاء أبو بكر فأخذ بمنكبه فذعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفي رواية ثم قال : أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله !

وفي رواية البخارى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى عند الكعبة وجمع من قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم ألا تنظرون إلى هذا المرائى ؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان فيميد إلى فرها ودعها وسلاها فيجيء به ثم يمله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه . فأنبت أشقام فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع بين كتفيه وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً فضحكوا حتى مال بعضهم على بعض من الضحك فأنطلق منطلق إلى فاعلة فأقبلت تسمى وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجداً حتى ألقته عليهم تسبهم . فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : اللهم عليك بقرش ، ثم سعى فقال اللهم عليك بعمر بن هشام وعقبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف وعقبة بن أبى معيط وعمارة بن الوليد وقد سفلوا جميعهم صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى قليب بدر . أما عقبة بن أبى معيط فكان من أسرى بدر وأمر رسول الله ﷺ بقتله .

ما عرضته قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال عتبة بن ربيعة يوماً وهو جالس في نادي قريش والنبي عليه الصلاة والسلام جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكله وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون . قالوا بلى يا أبا الوليد قم إليه فكله . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله فقال يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السعة في العشرة^(١) وللمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفقت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم كفرت به من مضي من آبائهم فاسمع مني أعرض عليك أموراً ننظر فيها لملك قبل منا بعضها . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد اسمع . قال يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مآلاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مآلاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا قطع أمراً دونك وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك رتيماً نراه لا نستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطلب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبوءك منه فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يذأوى منه ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه قال : أقصد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال نعم . قال فاسمع مني قال : أفضل قال : **(يَسْمِعُ اللَّهُ الرَّغِيصَ حَمَّ تَنْزِيلٍ مِنَ الرَّغْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ أَنْ يَسْمَعُوهُ سُورَةُ فَصَّلَتْ ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللَّهِ فِيهَا يَقْرؤها عليه ، فلما سمعها عتبة منه أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتدلاً عليهما يستمع منه ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد . ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذلك .**

قام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض نحاف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش أطيعوني واجملوها بي . خافوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه . فوالله ليكون قولوه الذي سمعت منه نبأ عظيم فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم وإن يظهر على العرب فلكم ملككم وعزه عزكم وكنتم أسد الناس به . قالوا سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأي فيه فاصنعوا ما بدا لكم^(٢) .

(١) الحلقة مثل القعدة بمعنى الوسط . الخيار . قال تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً » .

(٢) راجع سيرة ابن هشام .

لقد غلن أبو الوليد في بادئ الأمر أن النبي ﷺ قبل ما يعرضه عليه من مال وجاه وملك فأظهر له استعداد قريش لمنحه كل ما ينبغي على ألا يتعرض لدينهم ولا يدعوهم إلى ترك عبادة الأصنام . فلن ذلك لأن الإنسان ولا سيما الفقير يحتاج قطع في المال وتفره أهله لذلك فيثبت بها ويسعى إليها ما وجد للسعي سبيلا ولو كان أبو الوليد عرض ذلك كله أو بعضه على غير النبي ﷺ لاغبط به واتفق مع قريش في الحال وأراح نفسه وأصحابه من الغناء والإيذاء والتعذيب والتهديد بالقتل في كل وقت . ولكن النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن طامحا إلى شيء من ذلك أصلا ولم يكن في وسعه أن يتنحى عن الدعوة إلى الإسلام مهما حاولت قريش صرفه عنها . ألا ترى أنه قال لعمه أبي طالب ه والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته . - وما ذلك إلا لأن الله سبحانه قد أمره بنشر الدعوة حيث قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ وقال عز شانه ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ أى اصبر على مشاق التكاليف وأذى الشركين . فكيف بعد هذا الأمر الإلهي تغور عزيمته وتفرق قوته ولا يصبر على كل ما يصيبه من الإيذاء ؟ بل كيف يفتر بحطام الدنيا وينخدع لما تعرضه عليه قريش من ملك وجاه ومال .

ولما رأت قريش أن رسول الله قد رفض ما عرضه عليه قالوا له يا محمد إن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك ، فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلاء ولا أشد عيشا منا هل نأربك الذى بعثك بما بعثك به فليسير عنا هذه الجبال التى ضيقت علينا وليبسط لنا بلادا وليخرب لنا فيها أبارا كأنهار الشام والعراق وليبعث لنا من مضى من آبائنا وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب فإنه كان شيخ صدق فسنألم عما تقول أحق هو أم باطل ؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقك وعرفنا منزلناك من الله وأنه بعثك رسولا كما تقول . قال ما بهذا بعثت إليكم إنما جئتكم من الله بما بعثني به وقد بعثكم ما أرسلت به فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا فإذا لم تفعل هذا لنا فخذ لنفسك ، سل ربك أن يبعث مملكا يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك ، وسأله فليجعل لك جناحا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يفتنيك بها عما نراك تبغى ، فإنك قوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما تلتمسه حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم . قال لهم رسول الله ما أنا بفاعل وما أنا بالذى يسأل ربه هذا . وما بُعثت إليكم بهذا ولكن الله بعثني بشيرا ونذيرا - أو كما قال - فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم . قالوا فأنسط السماء علينا كيفما زعمت أن ربك إن شاء فعل فإننا لن تؤمن لك إلا أن نعمل . قال رسول الله ذلك إلى الله إن شاء أن يفعل بكم فعل . قالوا يا محمد فما علم ربك أن نستجيب معك ونسألك عما سألناك عنه

ونطلب منك ما نطلب فيقدم إليك فيملك ما تراجسنا به ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا إذا لم تقبل منك ما جئنا به ، إنه قد بلغنا أنك إنما يملك هذا رجل بالجماعة ^(١) يقال له الرحمن وإن لا يؤمن بالرحمن أبداً فقد اعتدنا إليك يا محمد، وإن الله لا تتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا ، وقال قائلهم نحن نعبد لللائكة وهي بنات الله . وقال قائلهم لن يؤمن لك حتى تأتي بالله ولللائكة قبيلاً . فلما قالوا ذلك لرسول الله قام عنهم وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن النيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وهو ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب قال يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم يقبله منهم ، ثم سألوكم لأنفسهم أموراً ليصرفوا بها منزلتكم من الله كما تقول ويصدقون ويقبوك فلم تفعل ، ثم سألوكم أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتكم من الله فلم تفعل ، ثم سألوكم أن تعجل لهم بعض ما يخوفهم به من العذاب فلم تفعل ثم قال له فوالله لا أومن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيهم ثم تأتيهم بك بصكك معهم أربعة من الللائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وإيم الله لو ضلت ذلك ما ظننت أني أصدقك ! ثم انصرف رسول الله إلى أهله حزناً أسفاً لما فاته مما كان يطعم به من قومه حين دعوه ولما رأى من مبعادتهم إياه ^(٢) .

إن هذه المطالب التي طلبها قريش من النبي ﷺ مطالب مدعشة تدل على شدة تعنتهم وعنادهم وعلى أنهم لا يريدون أن يؤمنوا إلا إذا شاهدوا المستحيلات ورأوا خوارق العادات ولذلك سألو رسول الله أشياء عجيبة لا تخطر على البال بقصد تعجزه والتشهير به فسألوه أن يغير طبيعة بلادهم فيسير الجبال ويفجر الأنهار ويحيي الموتى أو أن يجعل الله له الجنان والقصور ويعطيه الكنوز . فهذه مطالب عبادة المادة عبادة الأصنام . ثم ما أسخط مأسأله عبد الله بن أبي أمية بن النيرة الذي طلب أن يتخذ النبي عليه الصلاة والسلام مسلماً إلى السماء ويأتي بصك وأرامة ملائكة يشهدون معه على حجة ما يقول . ولماذا كل هذا ؟ ليؤمن عبد الله بن أبي أمية ! هذا وقد قاسى الأنبياء صلوات الله عليهم الصعاب في سبيل هداية الكفار الذين كانوا يرمونهم بالضلال والسفاهة والجنون والسحر . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ فإذا أجابوه على ذلك ؟ ﴿ قَالَ أَلَمْ أَتَاكُمْ بِالْحَقِّ إِنِّي لَمَّا آلَمُ بِقَوْمِهِمْ فَوَعَدْتُهُمْ لَأَنبَلِّغَنَّكُمْ إِلَىٰ سَفَاةٍ مِّنْ أَلْسِنَتِكُمْ وَلَأَنبَلِّغَنَّكُمْ إِلَىٰ سَفَاةٍ مِّنْ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ .

ولما دعا هود عليه السلام قومه إلى عبادة الله رموه بالسفاهة والكذب . قال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ . قَالَ أَلَمْ أَتَاكُمْ بِالْحَقِّ إِنِّي لَمَّا آلَمُ بِقَوْمِهِمْ فَوَعَدْتُهُمْ لَأَنبَلِّغَنَّكُمْ إِلَىٰ سَفَاةٍ مِّنْ أَلْسِنَتِكُمْ وَلَأَنبَلِّغَنَّكُمْ إِلَىٰ سَفَاةٍ مِّنْ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ .

(١) الجماعة ويقال لها العروش باعتبار موقعها من البين كلها ممتزجة . فهي بين نجد وتهامة والبحرين وعمان والحر وحضرموت وسبأ ، وهي مقام سفيلة الكذاب .

(٢) راجع سورة ابن هشام . وسبأ في ذكر إسلام عبد الله بن أبي أمية عند فتح مكة .

ولما أظهر موسى عليه السلام المعجزة وألقى العصا فاضطربت لمباتها ادعوا أنه ساحر . قال تعالى : ﴿ تَأْتِيهِمْ مِصْرَاءَ فَأَظْفِرُوهُمْ فَيَضْرِبُهُمُ اللَّهُ يَضْرِبُ حَتَّى يَحْمِلُوهُمْ أَثْقَالَهُمْ فَتَرْجُلُهُمْ مُطَّوِّئِينَ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَأَتَذَكَّرُكُمْ لَأَلْتَمِلَا مِنْ قَوْمٍ مَفْرَعُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ فالمتمتعون لا يؤمنون مهما رأوا من الآيات البينات وخوارق العادات (وَقَالُوا مَتَى تَأْتِينَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنُشْهِرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ فهل بعد ذلك مكابرة وإصرار على الكفر ١٩ .

هشاشة أبي جهل .

١- عاد رسول الله أسفاً من عناد قومه وتفتنهم بالكفر قال أبو جهل : يامعشر قريش إن يهدأ قدي إلا ما ترون من عيب ديننا وشتم آبائنا وتسفيه آلهتنا ، وإنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، ومن هذا تظهر شدة عداوة أبي جهل للنبي ﷺ وهذه العداوة أخرجه عن حد العقل فأخذ يسلك سلوك الجهال ولكن الله سبحانه وتعالى أقعد النبي من شره ونجاه من غلوه .

كان أبو جهل فرعون هذه الأمة اسمه عمرو بن هشام ، قتل يوم بدر كافراً وكانت بدر في السنة الثانية من الهجرة . قتله عمرو بن الجوح وابن عفراء الأنصاريان ، وكانا حديثين وحديثهما في الصحيح مشهور . وفي كتب السنن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآه مقتولاً قال : (قتل فرعون هذه الأمة) وقد كان سيئ الخلق فظلاً غليظ القلب . فمن ذلك أنه ظلم تاجراً قدم من زبيد بثلاثة أجمال حسان فسامها منه أبو جهل بثلاث أثمانها ثم لم يسما لأجله سائماً فأكد عليه سلته ولم ينصفه غير رسول الله لأنه سلوه حتى ألحقه برضاه وأخذها رسول الله فباع جملين بالثمن وأفضل ببيعاً بأعوا أعطى أرامل بن عبد المطلب ثمنه . وكان وصياً على يقيم فأكل ماله وطرده فاستعان باليتيم بالنبي صلى الله عليه وسلم فشى معه ورد إليه ماله منه .

وابتاع من شخص يقال له الأراشي أجمالاً بأثمانها فلما استعان الرجل برسول الله وذكر له أنه غريب وابن سبي وأن أبا جهل غلبه على حقه قام معه إلى أبي جهل وضرب عليه يابه فقال من هذا ؟ قال محمد فخرج إليه وقد امتنع لونه . فقال أعط هذا الرجل حقه فامتلاً رعباً وأعطى الرجل حقه . هذا هو أبو جهل وهذا شيء من غلظته وجوره وهضمه للحقوق .

وفي كتاب قاموس الإسلام الطبعة الثانية سنة ١٨٩٦ ص ٨ « إن أبا جهل كان غوراً فاجراً » .

قريش تمتحن رسول الله ﷺ

لم تكف قريش بهذا كله بل أرادوا إحراجة عليه الصلاة والسلام بالأستلة فبمشوا النضر بن الحارث^(١) وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهم سلام عن محمد وصفا لم صفته وأخبرهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء . فخرجوا حتى قدما للمدينة فسألا أحبار يهود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصفا لم أمره وأخبرهم ببعض قوله وقالوا لهم إنكم أهل التوراة وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ، فقالت لهم أحبار يهود : سلوه عن ثلاثة نأمركم بهن فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل . وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم . سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجيب . وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه . وسلوه عن الروح وما هي . فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي وإن لم يفعل فهو رجل متقول . فأقبل النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط حتى قدما مكة على قريش فقالا لبايعهم قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد . قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء فإن أخبركم عنها فهو نبي وإن لم يفعل فالرجل متقول فروا فيه رأيكم .

فبعادوا رسول الله ﷺ قالوا يا محمد أخبرنا عن فتية ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجيب . وعن رجل كان طوفاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها . وأخبرنا عن الروح وما هي ؟

فقال لهم رسول الله ﷺ بما سألتهم عنه غداً ولم يستثن . فانصرفوا عنه فكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يحدث الله ﷻ إليه حياً ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها لا يخبرنا بشئ مما سألفناه عنه . فشق على الرسول تأخير الوحي وما يتكلم به أهل مكة . ثم جاءه جبريل بسورة أصحاب الكهف فيها معانيته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سأله عنه .

قال للمفسرون إن القوم لما سألوا النبي ﷺ عن المسائل الثلاث قال عليه السلام أجيئكم عنها غداً ولم يقل إن شاء الله ، فاحتبس الوحي خمسة عشر يوماً ثم نزل قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِيْءَ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ والسبب في أنه لا بد من ذكر هذا القول - إن شاء الله - هو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلاني غداً لم يبعد أن يموت قبل مجيء الند ولم يبعد أيضاً لو بقي حياً أن يموت عن ذلك الفعل ثنىء من العوائق فإذا كان لم يقل إن شاء الله صار كاذباً في ذلك الوعد ، والكذب منفّر وذلك لا يليق بالأنبياء عليهم السلام .

(١) صحة نسبة : النضر بن الحارث بن علقمة بن كلدنة ، بخلاف مارواه ابن إسحاق ، ثم ابن منده وأبو نعيم عن ابن إسحاق من أنه كلدنة بن علقمة . وأجمع أهل السير على أنه قتل يوم بدر كافراً . قتله على بن أبي طالب .

جاء جبريل من الله عز وجل يخبر ما سأله عنه ، فقال تعالى في شأن الفتية ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا حُجُبًا ﴾ وقال فيما سأله عنه من أمر الرجل الطواف ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا . إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَابْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾ إلى آخر القصة .

وقال تعالى فيما سأله عنه من أمر الروح ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

وقد أيد هذه الرواية الدكتور ولغسون الإسرائيلي مدرس اللغات السامية بالجامعة المصرية ودار العلوم قال في رسالته (تاريخ اليهود في بلاد العرب) صفحة ٩٨ ما يأتي :

« وبني بعض المستشرقين صحة هذه القصة الخطيرة دون أن يأتوا بدليل نطعن إليه . والحق أن من السير إنكار رواية تاريخية كانت سبباً في نزول سورة الكهف والآيات الخاصة بالروح وذى القرنين وعندنا دليل يميلنا على الاعتقاد بأن هذه الرواية من المحتمل أن تكون واقعية ^(١) وهي أن في التلويح قصة مشهورة تشبه قصة أهل الكهف ومن هذه القصة أخذ أحبار اليهود الأسئلة التي وجوها للرسول بواسطة وفد قريش . ويؤيد هذه القصة مذهبنا إليه من أنه لم يكن بمكة أحد من اليهود ، إذ لو وجد منهم في مكة ما وفد قريش وفدهم إلى المدينة ليسألوا أحبار اليهود عن شأن النبي وإذا وجد منهم أحد فلا بد أن يكون غير عالم » .

وأُنزل الله عليه ﷺ فيما سأله قومه لأنفسهم من تسيير الجبال وقطع الأرض وبث من معنى من آياتهم من التلويح ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْتَوَى بَلْ لَغَى الْأَمْرُ حَيْثُمَا ﴾ أى لا أصنع من ذلك إلا ما شئت .

وأُنزل عليه في قولهم خذ لنفسك ما سأله أن يأخذ لنفسه أن يحمل له جناحاً وقصوراً وكنوزاً ويصنع ملكاً وصدق بما يقول ويرد عنه ، ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ

(١) قوله من المحتمل أن تكون واقعية - تعبير خفيف لأنه يرد على المستشرقين الذين أنكروا هذه الرواية بلاينة وثبتها بأن لها شبهة في التلويح فكان الأجدر به أن يقول « إنها واقعية » ولابد أن نذكر أن الأستاذ مرجوليوت أنكر صدور هذه الأسئلة من اليهود وعدا ذلك فقد أخطأ وقال : « الإسكندر الأكبر » بدلا من ذي القرنين . وفري بين الاثنين فالأول روى والثاني عني كما أثبت ذلك القرطبي وغيره . واسم ذي القرنين الصبب بن ذي . والله بن الحارث الرائي بن الهام ذي سعد . وقد أخطأ القسرون والمؤرخون الذين قالوا : إن ذا القرنين هو الاسكندر المقدوني .

إِنْ تَقْبَلُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْخُورًا ، أَنْظَرُ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا . تَبَارَكَ
الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ ﴿ أَنْ تَمْشِيَ فِي الْأَسْوَاقِ وَتَلْمِزَ الْعَامَّ ﴾ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَيَجْمَعُ لَكَ قُصُورًا ۝

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِيمَا قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمِيَّةٍ : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْفَجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَكُونُ مَا
أَوْ تَكُونُ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَيْنٌ فَتَنْفَجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا فَتَجِيرَ أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءُ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كَيْفَا
أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفِيقِكَ حَتَّى
تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا هَرَوَهُ كُلُّ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ إِنْ أُنْقِضَ بَيْنُنَا أَنْتَ إِنَّمَا يَمْلِكُ رَجُلٌ بِالْإِيمَةِ يَقَالُ لَهُ الرَّحْمَنُ وَلَنْ نُؤْمِنَ بِهِ أَبَدًا ﴿ كَذَلِكَ
أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ أُمَمٌ لِيَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ
هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ مَتَابُ ۝

وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ فِيمَا قَالَ أَبُو جَهْلٍ وَمَاهِمٌ بِهِ : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا صَلَّى . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ
عَلَى الْهَدَى أَوْ أَمَرَ بِالْقَنَاقَةِ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى . أَلَمْ يَسْمَعْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى كَلَّا لَئِنْ لَمْ
يَنْتَهَ لَنَسْفَعْنَا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُلْعَبُ وَاسْجُدْ
وَاقْرَبْ ۝

وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِيمَا عَرَضُوا عَلَيْهِ مِنْ أُمُومِهِمْ : ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى
اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝

إسلام جابر بن عبد الله

بحث الأستاذ مرجوليوت وأجهد نفسه في البحث على ما يظهر في كتابه (محمد) صفحة ١٠٦ عن الأستاذة
الذين كانوا يملكون رسول الله الكتب للقدسة فقال ما ترجمته :

« كان جابر بن عبد الله مولى بنى عبد النازر يهوديًا صائغًا في مكة فكان يجلس هو ويأسر - يهودي
آخر - يقرأ القرآن للقدس أثناء اشتغالها بالتجارة ، وكان النبي يمر عليهما ويستمتع منهما » ومعنى ذلك
حسب رأيه أنه كون أفكاره الخاصة بالتوراة من سماع جابر بن عبد الله وهو يتلو عليه لكنه قال بدئذ
« إن جابرًا اعتنق الإسلام عند سماعه النبي يقرأ سورة يوسف » فإذا كان جابر اليهودي قد أسلم عند سماعه

قصة يوسف وهى فى التوراة التى كان يتلوها على النبى صلى الله عليه وسلم كما ادعى فلا بد أن القصة المذكورة فى القرآن بنائية الدقة والإحكام والتفصيل للبعث حتى إنها حيرت لب جابر الذى ذكره مرجوليوث كعلم لرسول الله ، على أن الأستاذ مرجوليوث اعترف بإسلام جابر لأنه مذكور فى كتب السير ، وإنا نند إسلامه دليلاً على إعجاز القرآن الكريم وعلى أنه منزل على رسول الله . أما ياسر فقد أسلم أيضاً وعذب لإسلامه عذاباً شديداً حتى مات .

وقال الأستاذ مرجوليوث « ويُظن أن الجزء الخاص بالسيحية فى القرآن قد تعلمه النبى من صهيبي الذى أسلم قديماً وقد كان رومياً من الوصل » وإنا نقول إن إسلام هؤلاء دليل على رسالة رسول الله وصدقته وقد أسلم صهيبي ورسول الله فى دار الأرقم وكان من المستضعفين بمكة للمذنبين فى الله عز وجل وهاجر إلى المدينة وشهد للشاهد كلها مع رسول الله . هذا وقد ذكرنا أن الأستاذ نولدكه اعترف بأن رسول الله ما كان يعرف الأسفار القديمة . وما قاله مرجوليوث قاله كنفار فريش قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ اقْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ﴾ قال الكلبي ومقاتل نزلت فى النضر بن الحارث فهو الذى قال هذا القول وأعانه عليه قوم آخرون ، يبنى عداساً مولى حويطب بن عبد العزى ويساراً غلام عامر بن الحضرمي وجبراً مولى عامر وهؤلاء الثلاثة كانوا من أهل الكتاب وكانوا يقرأون التوراة ويعيدون أحاديث منها فلما أسلموا كان النبى صلى الله عليه وسلم يتعهدهم ومن أجل ذلك قال النضر ما قال .

الهجرة الأولى إلى الحبشة

شهر رجب السنة الخامسة من المبعث (سنة ٦١٥ م)

لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء والمذاب وما هو فيه من العافية لساكنه من الله عز وجل ودفاع أبى طالب عنه وأنه لا يقدر أن ينعمهم قال لهم : « لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يميل الله لكم فرجاً ومخرجاً عما أنتم فيه ومكث هو فلم يبرح يندعو إلى الله سرّاً وجهراً .

وكان اسم النجاشي وقتئذ أحمدة بن أبير ، ومعنى أحمدة بالبرية عطية . والنجاشي اسم لكل ملك على الحبشة وكان الأحباش مسيحيين نسطوريين فخرج للمهاجرين متسللين سرّاً وذلك فى شهر رجب سنة خمس من بعد النبوة (سنة ٦١٥ م) .

وكان الذين خرجوا اثني عشر رجلاً وأربع نساء حتى انتهوا إلى الشعيبة^(١) ، ففهموا راكبين للثبتي ، ووفق الله

(١) تصغير شعبة فى مكة قبل جنة .

للسلمين ساعة جاءوا سفيتين للتجار حلوم فيها إلى أرض الحبشة وخرجت قريش في أثرهم حتى جاءوا البحر حيث ركبوا فلم يدرکوا منهم أحداً . فكان خروجهم سراً .
قالوا قدمننا أرض الحبشة فجاورنا بها خير جارة ، أمناعلى ديننا وعبدنا الله لا تؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه . وكانت الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها ويجدون فيها رزقاً وأمنأ حسناً .
كان عدد المهاجرين قليلاً ولكن كان لهجرتهم هذه شأن عظيم في تاريخ الإسلام فإنها كانت برهانا ساطعاً لأهل مكة على مبلغ إخلاص المسلمين وتقانيهم في احتمال ما يصيبهم من المشقات والخسائر في سبيل تمسكهم بعقيدتهم .
وكانت هذه الهجرة الأولى مقدمة للحجرة الثانية إلى الحبشة ثم الهجرة إلى المدينة . وهذه أسماء المهاجرين والمهاجرات :
• عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله . أبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سملة بنت سهيل .
مصعب بن عمير . الزبير بن العوام . عبد الرحمن بن عوف . أبو سلمة بن عبد الأسد ومعه امرأته : أم سلمة .
عثمان بن مظعون . عبد الله بن مسعود . عامر بن ربيعة ومعه امرأته : لیلی بنت أبي هيثمة . أبو سبرة . حاطب بن عمرو . سهيل بن بيضاء وهو سهيل بن وهب .

شفاعة الغرائيق

افتراء الزنادقة على رسول الله ﷺ

روى بعض المؤرخين ونقل عنهم المفسرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من قومه كفراً عنه ، جلس خالياً وتحنن فقال لبيته لا ينزل عليّ شيء . ينفرهم عنى وقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ودنا منهم ودنوا منه فجلس يوماً مجلساً في ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم : ﴿ وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ ﴾ حتى بلغ ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴾ ألقى الشيطان كلمتين على لسانه : « تلك الغرائيق العلاء وإن شفاعتهن لترتجى » فحكم رسول الله ﷺ بها ثم مضى فقرأ السورة كلها وسجد وسجد القوم جميعاً ورفع الوليد بن المغيرة تراباً إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود ، ويقال إن أبا أحبيحة سعيد ابن العاص أخذ تراباً ورفعه إلى جبهته فسجد عليه وكان شيخاً كبيراً فبعض الناس يقول إنما الذي رفع التراب الوليد وبعضهم يقول أحبيحة ، وبعضهم يقول كلاهما فلذلك فرضوا بما تكلم به رسول الله ﷺ وقالوا قد عرفنا أن الله يحيى ويميت ويخلق ويرزق . ولكن أكلتنا هذه تشفع لنا عنده وأما إذا جلست لها نصيباً فنحن معك . فكبر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قولهم حتى تجلس في البيت ، فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام ففرض عليه السورة

(١) الغرائيق في الأصل الذكور من طير الماء واحدها غرنوق وغرنيق ، سمى به ليياضه وقيل هو الكركر . والغرنوق أيضا العباب الأبيض الناعم . وكانوا يزعمون أن الأسمان تقربهم إلى الله وتشفع لهم فشبعت بالطيور التي تملو في السماء وترتفع .

قال جبريل ما جئتكم بهاتين الكلمتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قلتُ على الله ما لم يقل فأوحى الله إليه ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنْ أَلَدَىٰ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لَتَلْقَاكَ عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِنَّا لَا نَعْتَذِرُكَ خَيْلًا﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ .

قل هذه الرواية ابن سعد في طبقاته عن عبد الله بن حنطب . وقد قال الترمذي إن عبد الله بن حنطب لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم أخرجه الثلاثة^(١) . أما الآية التي قيل إنها نزلت بسبب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال على الله ما لم يقل بذكره شفاعته الغرائيق وهي : ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنْ أَلَدَىٰ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الآية فلم تنزل بهذه المناسبة . فقد قال ابن عباس في رواية عطاء ، نزلت هذه الآية في وفد حيف أنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأوه شططا وقالوا متعنا باللات سنة وحرم وادينا كما حرمت مكة من شجرها وطيرها ووحشها فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يجهم فكرروا ذلك الالتماس وقالوا إنا نحب أن ترف العرب فضلا عليهم فإن كرهت ما نقول وخشيت أن تقول العرب أعطيتهم ما لم تعطنا قل الله أمرني بذلك فأمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم وداخلهم الطمع فصاح عليهم عمر وقال أما ترون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمسك عن الكلام كراهية لما تذكرونه ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية^(٢) .

وروى صاحب الكشف أنهم جاءوا بكتابهم فكتب : سم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من محمد رسول الله إلى قبيلا لا يعشرون ولا يحشرون ، ولا يجبون ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قالوا للكتاب أكتب ولا يجبون والكتاب ينظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . قام عمر بن الخطاب وسل سيفه وقال : أسعرت قلب نبينا يامعشر قريش أسعرت الله قلوبكم نارا . فقالوا لسا نكلمك إنما نكلم محمدا . فنزلت هذه الآية . وهذه القصة إنما وقعت بالمدينة فلها السبب قالوا إن هذه الآية مدنية .

وذكر الطبري مسألة شفاعته الغرائيق قال : حدثني محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد اللدي عن محمد بن كعب القرظي . ثم سرد رواية محمد بن كعب القرظي بما يقارب رواية عبد الله بن حنطب التي قلناها عن طبقات ابن سعد إلا أنه قال فأقبل الله عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَسَّ أَلَى الشَّيْطَانِ فِي أُمِّيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فأذهب الله عز وجل عن نبيه الحزن وآمنه من الذي كان يخاف ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم لأنها الغرائيق العلاوان شفاعتهن ترجى يقول الله عز وجل حين ذكرت اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴿الْكُفْرَ الَّذِي كَرِهْتُمْ﴾ إلى قوله ﴿لَنْ يَنَالَهُ أَثَرُكُمْ﴾ .

(١) راجع الجزء الثالث من كتاب أسد الغابة .

(٢) تخيير الفخر الرازي . (٣) أي عواء .

وَرَوَى أَيُّ فَكَيْفَ تَنْفَعُ شَفَاعَةُ آلِهِمْ عِنْدَهُ الْح.

أما محمد بن كعب القرظي - منسوب إلى بني قريظة الطائفة المعروفة من اليهود - فهو تابعي توفي سنة ثمان ومائة . جاء في تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني ما يأتي :

« وما تقدم نقله عن قتيبة من أنه ولد في عهد النبي ﷺ لا حقيقة له وإنما الذي ولد في عهده هو أبوه قد ذكروا أنه من سبي قريظة ممن لم يحتم ولم يثبت نفلوا سبيله . حكى ذلك البخاري في ترجمة محمد . قال الفخر الرازي في تفسيره الآية المتقدمة بعد أن ذكر قصة شفاعة الترانيق : هذه رواية عامة للمفسرين الظاهرين . أما أهل التحقيق فقد قالوا : هذه الرواية باطلة موضوعة واحتجوا عليه بالقرآن والسنة والمعقول . أما القرآن فمن وجوه :

أحدها - قوله تعالى ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾

وثانيها - قوله ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْذُلَهُ مِنْ بَيْنَاقِهِمْ فَلَا تَتَّبِعِ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيْكَ ﴾ .

وثالثها - قوله ﴿ وَمَا يَنْطَلِقُ إِلَّا بِأُوحَى مِنْهُ ﴾ . فلو أنه قرأ عقيب هذه الآية تلك

الترانيق العلاء ، لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال . وذلك لا يقوله مسلم .

ورابعا - قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنْ آلِدِي أَوْ حِينًا إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَةً وَإِذَا لَا تُخَذِّلُكَ حِيلًا ﴾ . وكلمة كاد معناها قرب أن يكون الأمر كذلك مع أنه لم يحصل .

وخامسا - قوله ﴿ وَلَوْ لَا أَنْ مَبْتَئْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْنِهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾ . وكلمة لولا تفيد انتفاء

الشيء لوجود غيره فدل على أن ذلك الركون القليل لم يحصل لوجود التثبيت .

وسادسا - قوله ﴿ كَذَلِكَ لَيُخْبِتَ بِهِ فُؤَادُكَ ﴾ .

وسابعا - قوله ﴿ سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ .

أما السنة فهي ما روى عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه سئل عن هذه القصة فقال : هذا من وضع الزنادقة وصنف فيه كتابا . .

وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البهقي : هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل ثم أخذ يتكلم في أن رواية هذه القصة معلوم فيهم . وأيضاً قد روى البخاري في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ سورة النجم وسجد فيها للمسلمون والمشركون والإنس والجن وليس فيها حديث الترانيق .

ورى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها ألبتة حديث الترانيق . وأما المعقول فمن وجوه :

أحدها - أن من جوز على الرسول صلى الله عليه وسلم تعظيم الأوثان قد كفر لأن من المعلوم بالضرورة

أن أعظم سعيه كان في نفي الأوثان .

وثانيها — أنه عليه السلام ما كان يمكنه في أول الأمر أن يصلي ويقرأ القرآن عند الكعبة أمّا أذى المشركين له حتى كانوا ربما مدوا أيديهم إليه ولما كان يصلي إذا لم يحضرها ليلا أو في أوقات خلوة وذلك يبطل قولهم .

وثالثها — أن معاداتهم الرسول كانت أعظم من أن يقرأوا بهذا القدر من القراءة دون أن يفواعلى حقيقة الأمر فكيف أجمعوا على أنه عظم آلهتهم حتى خروا سجداً مع أنه لم يظهر عندهم موافقة لم ؟
 راجعاً — قوله : ﴿ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ﴾ وذلك لأن أحكام الآيات لا تزال متمايلية الشيطان عن الرسول أقوى من نسخه بهذه الآيات التي تبقى الشبهة معها فإذا أراد الله أحكام الآيات لتلا بلبس ما ليس بقرآن بالقرآن فإن يمنع الشيطان من ذلك أصلاً أولى .

وخامسها — وهو أقوى الوجوه — أنا لو جوزنا ذلك ارتفع الأمان عن شرعه وجوزنا في كل واحد من الأحكام والشرائع أن يكون كذلك ويبطل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَضْحَكُ مِنَ النَّاسِ ﴾ فإنه لا فرق في العقل بين النقصان من الوحي وبين الزيادة فيه . فبهذه الوجوه عرفنا على سبيل الإجمال أن هذه القصة موضوعة وكل ما في الباب أن جمعاً من المبشرين ذكروها هنا لكنهم ما بلنوا أحد التواتر وخبر الواحد لا يعارض الدلائل القليلة والعقيدة للتواتر .

ثم ذكر الفخر الرازي تفصيلات أخرى فتراجم . وإنا نعتقد أن هذه القصة باطلة ومندسوسة ومن وضع الزنادقة الذين يريدون بالإسلام سوءاً ومع هذا فليس من المقول أن يمتدح النبي ﷺ بشفاعته الترائيق وهو يدعو إلى عبادة الله تعالى ويحارب الأصنام ولو كان الشيطان له سلطان عليه ﷺ بدرجة أنه يعل عليه ويحرك لسانه بالكفر لكان الموت له ليس في هذه القصة فقط بل في غيرها أيضاً ، والنبي معصوم من الشيطان . قال البيضاوي في تفسيره بعد ذكر قصة الترائيق : (ثم نبه جبريل فاعلم به فزاه الله بهذه الآية وهو مردود عند المحققين وإن صح فابتلاء يتميز به الثابت على الإيمان عن التزلزل فيه) قال إسماعيل التنوخي في حاشيته : وهو مردود عند المحققين ، بل يجب أن يكون مردوداً عند جميع المسلمين لما عرفته من أمارات الكذب . قوله وإن صحح إشارة إلى منع صحة رواية لما قاله القاضي عياض في الشفاء إنه لم يوجد في شيء من الكتب الممتدة بسند صحيح وقال إنه من وضع الزنادقة . وقال القاضي عياض إن هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل إتماماً وأولع بالمفسرون والمؤرخون للمؤمن بكل غريب .

قال ابن حزم في كتاب الللل والنحل جزء ٤ ص ٢٣ : وأما الحديث الذي فيه وأنهم الترائيق العلوان شفاعتهم لترجي فكذب بحت لأنه لم يصح قط من طريق النقل ولا معنى للاشتغال به إذ وضع الكتاب لا يعجز عنه أحد .

وقال البيهقي : رواة هذه القصة كلهم مطعون فيهم . وقال الإمام النووي قتلناه وأما ما يرويه الأخياريون وأنفسهم أن سبب سجود المشركين مع رسول الله صل الله عليه وسلم ماجرى على لسانه من الثناء على آلهتهم فباطل لا يصح منه شيء . لا من جهة النقل ولا من جهة العقل لأن مدح إله غير الله كفر ولا يصلح نسبة ذلك إلى رسول الله ﷺ ولا أن يقوله الشيطان على لسانه ﷺ ولا يصح تسلط الشيطان عليه وإلا لزم عدم الوثوق بالوحي . اهـ .

وقال الألوسي في تفسيره : « وأقبح الأقوال التي رأيناها في هذا الباب وأظهرها فساداً أنه ﷺ أدخل تلك الكلمة من لقاء نفسه حرصاً على إيمان قومه ثم رجع عنها . ويجب على قائل ذلك التوبة ، كبرت كلمة خرجت من أفواههم إن يقولون إلا كذباً . وقريب منه ما قيل إنها كانت قرآناً منزلاً في وصف لللائكة عليهم السلام . فلما توم المشركون أنه يريد عليه الصلاة والسلام مدح آلهتهم بها نسخت . وأنت تعلم أن تفسير الآية أى قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا ﴾ الخ ، لا يتوقف على ثبوت أصل لهذه القصة » .

أما معنى قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ ﴾ الخ الآية إن الرسل الذين أرسلهم الله تعالى ، وإن عصمهم عن الخطأ مع العلم فلم يصممهم عن جواز السهو ووسوسة الشيطان بل حالم في جواز ذلك كحال سائر البشر . فالآية ليست بخصوص قصة الفرائق بل هي بخصوص وسوسة الشيطان على العموم للأنبياء والرسل فالواجب ألا يتبعوا إلا فيما يفعلونه عن علم . فذلك هو الحكم . وقال أبو مسلم معنى الآية أنه لم يرسل نبياً إلا إذا تمى كأنه قيل وما أرسلنا إلى البشر ملكاً . وما أرسلنا إليهم نبياً إلا منهم وما أرسلنا نبياً خلا عند تلاوته الوحي من وسوسة الشيطان وأن باقى في خاطره ما يضاد الوحي ويشغله عن حفظه فيثبت الله النبي على الوحي وعلى حفظه ويعلم صواب ذلك ويطلان ما يكون من الشيطان . قال وفيما تقدم من قوله ﴿ قُلْ بَشَائِرَ النَّاسِ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ مِنْهُ تَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ توبة لهذا التأويل فكانه تعالى أمره أن يقول للكافرين أما نذير لكم لكفى من البشر لا من اللائكة ولم يرسل الله تعالى مثلي ملكاً بل أرسل رجالاً قد يوسوس الشيطان إليهم .

فأمثال هذه القصص المدسوسة للكتابة على رسول الله هي التي جعلت للطاعين في الإسلام مجالاً للنقد وتشويه الحقائق وتضييع الحامس ، وقد حشرت في كتبنا من غير تحقيق . وهالك دليلاً آخر على كذب هذه القصة من الوجهة التاريخية وهو :

.. إن الهجرة الأولى إلى الحبشة كانت في رجب سنة خمس من النبوة وكانت السجدة في رمضان من السنة

نفسها^(١) أى قبل إسلام وعمر لأنها أسلمت في السنة السادسة^(٢).

وقد أجمع المؤرخون على أن المسلمين قبل إسلام عمر كانوا يستخفون في دار الأرقم ويؤدون شعارهم الدينية في منازلهم ، وكان أصحاب النبي ﷺ لا يقدرون أن يصلوا عند الكعبة حتى أسلم عمر . فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة وصلوا معه وانفقوا على تسميته « الفاروق » .

فإذا كان للمسلمون قبل إسلام عمر ما كانوا يستطيعون الصلاة عند الكعبة فكيف مع هذا يقال إن رسول الله سجد عند الكعبة وسجد معه القوم جميعاً ؟؟ الحقيقة أن الرواية كذب واختلاق محض .

قال موير في الجزء الثاني من حياة محمد : إن حزة وعمر أسلمتا في السنة السادسة من النبوة ، وقال إن المسلمين لم يهودوا يمتحنون صلاتهم في منازلهم بل كانوا يعدنهم يجتمعون حول الكعبة ويصلون وهم آمنون مطمئنون .

إن المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة عادوا إلى مكة بسبب ما بهم من تحسن الأحوال أو أنهم سمعوا إشاعة كاذبة تعلمتهم قتلوا في شوال سنة خمس إلا أنه لم يدخل أحد منهم إلا بجوار عثمان بن مظعون فإنه دخل بلا جوار ومكث قليلاً ثم أسرع الرجوع إلى الحبشة لأن المسلمين كانوا لا يزالون يضطهدون وكان النبي صلى الله عليه وسلم ييبب الأصنام .

فكل هذه البراهين تؤيد أن قصة شفاعة الفرائق أو أن النبي ﷺ ذكر آلهة قريش بخير ، افتراء واختلاق ولا يمكن أن يصدق هذه القصة أحد من المؤرخين الحقيقين . وقد ذكرت في كتاب تاريخ القرون الوسطى للجامعة كامبردج الجزء الثاني ص (٣١٠ ، ٣١١) باعتبار أنها صحيحة . وأنه ﷺ ندم على ما قال ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه ، واستنتج الكاتب أنه (عليه الصلاة والسلام) لم يكن يعتقد أنه إنما ينبع أسراً إلى هنا سواء عند تلفظه بهذه الكلمات أو عند عدوله عنها . لكنه عاق في الهامش بما يأتي :

« إن كثيراً من الحقيقين المسلمين يعتبرون هذه القصة خرافية وهذا ما كان ينتظر منهم . لكن من المدهش أن مؤرخاً غير متحيز مثل (كاتاني) ينكرها أيضاً » .

وأنا أقول لا وجه للدهشة لأن المؤرخ الذي يقدر موقفه ولا يتحيز لأحد يعترف بالحقيقة بنض النظر عن أى اعتبار آخر فإذا كان الأستاذ (كاتاني) وهو ذلك المؤرخ الإيطالي الكبير الذى يصدر مؤلفات الضخمة عن تاريخ الإسلام ينكر هذه القصة فما ذلك إلا أنه لم يرد أن يثبت إلا ما وصل إليه تحقيقه في هذه المسألة دون تحيز .

(١) راجع الجزء الأول من طبقات ابن سعد طبع ليدن سنة ١٩١٧ م ١٣٨ .
(٢) راجع تهذيب الأسماء للأنووى طبع جوتينج ص ٤٤٩ وراجع ابن إسحاق وكتاب موير الجزء الثاني وراجع فاموس الإسلام

Dictionary of Islam p. 650

(3) Cambridge Medieval History vol 2 (1913) pp. 310-311

إسلام حمزة

حمزة بن عبد المطلب . وأمه هالة بنت وهب ، وهو عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة أرضعتها ثويبة مولاة أبي لهب . وكان رضى الله عنه أسن من رسول الله بسنتين ، وهو سيد الشهداء وأخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن حارثة . أسلم سنة ست من النبوة وكنيته أبو عمارة وكان شجاعاً ، محارباً ، قوى الجسم ، طويل القامة .

وكان سبب إسلامه أن أبا جهل اعترض رسول الله ﷺ فأذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه والتضعيف له فلم يكلمه رسول الله ﷺ وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان التيمي في مسكن لها فوق الصفا تسع ذلك ثم انصرف عنه فعبد إلى ناد قريش عند الكعبة فجلس معهم ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قصص له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له فكان إذا رجع من قصصه لم يرجع إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز قريش وأشدّها شكيمه وكان يومئذ مشركاً على دين قومه . فلما مر بالولادة وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع إلى بيته قالت له يا أبا عمارة لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد من أبي الحكم أفكأ ؛ وجده هاهنا فأذاه وشتمه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد . فاحتل حمزة الغضب فخرج سرياً لا يثق على أحد كما يصنع ، يريد الطواف بالبيت معداً لأبى جهل أن يقع به . فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها ضربة شجه بها شجعة منكورة وقامت رجال من قريش من بنى مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، قالوا ما تراك يا حمزة إلا قد صبأت^(١) . قال حمزة وما يمننى وقد استبان لى منه ذلك . أنا أشهد أنه رسول الله ﷺ وأن الذى يقوله الحق فوالله لا أنزع فامنمنى إن كنتم صادقين . قال أبو جهل دعوا أبا عمارة فأبى والله لقد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً وثبت حمزة على إسلامه . فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنع ، فكفوا عن بعض ما كانوا يتناولونه به ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا وأبلى فيها بلاء عظيمًا مشهوراً . وقاتل يوم بدر بسيفين وشهد أحدًا قتل بها يوم السبت النصف من شوال من السنة الثالثة من الهجرة بعد أن قتل من المشركين قبل أن يقتل أحدًا وثلاثين فسكاً وبينما كان يقاتل إذ عثر عثرة وقع فيها على ظهره فانكشف الدرع عن بطنه فزرقه^(٢) وحشى الحيشى مولى جبير بن مطعم بحربة قتله ، ومثل به للمشركون وبجميع قتلى المسلمين وجعل نساء

(١) كان يقال للرجل إذا أسلم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم قد صبأ ، يسنون أنه خرج من دين إلى دين كما تصبأ النجوم أى تخرج من مطالها . وكانت العرب تسمى النبي صلى الله عليه وسلم الصابى لأنهم اعتبروه خارجاً من دين قريش إلى الإسلام .

(٢) زرقه : رماه بالزرق .

المشركين ، هند وصواحيبها يجدعن أنوف المسلمين وآذانهم ويقرن بطونهم ، وبقرت هند بطن حمزة رضى الله عنه فأخرجت كبده فجعلت تلوكها فلم تسنها فلفظتها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لو دخل بطنكم لم تمسها النار » وبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رآه قتيلاً . ومع ذلك عفا رسول الله عن هند يوم الفتح . ودفن عند أحد في موضعه وكان عمره تسعا وخمسين سنة وكان حمزة أول شهيد صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عمر بن الخطاب

وسبب إسلامه

عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى وأمه حنتمة بنت هاشم . ولد بعد القيل بثلاث عشرة سنة . روى عن عمر أنه قال ولدت بعد الفجار الأعظم بأربع سنين ويوافق مولده سنة ٥٨١ م . وكان مديد القامة . ناجراً مشهوراً من أشرف قريش . وكانت إليه السفارة في الجاهلية ، وذلك أن قريشاً إذا وقعت بينهم حرب أو بينهم وبين غيرهم بشئ عسير ، وإن نافرهم منافر أو فآخروهم منافر رضوا به وبشئ منافر أو مفاخرأ ، وأمايت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديداً عليه وعلى المسلمين . وقد ذكرنا أنه كان يذب جارية بنى مؤمل للإسلامها فاشترأها أبو بكر وأعتقها .

إسلامه رضى الله عنه

عن ابن عباس أنه قال : « أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة وثلاثون رجلاً وامرأة ثم إن عمر أسلم فصاروا أربعين » وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر ابن الخطاب أو عمرو بن هشام » يعنى أبا جهل .

وحكى عمر عن سبب إسلامه قال :

كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ فيينا أنا في يوم حار شديد الحر بالهجرة في بعض طارق مكة إذ لقيني رجل من قريش فقال أين تذهب يا ابن الخطاب أنت تزعم أنك هكنا وقد دخل عليك هذا الأمر في يترك؟ قال قلت وماذا لك؟ قال أختك قد صابت^(١) فرجعت مغضبا . وقد كان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصبيان من طاعمه ، وقد كان ضم إلى زوج أختي رجلين

(١) أخت عمر فاطمة بنت الخطاب ، أسلمت قبله هي و زوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل . وقد قدم الكلام عن زيد وهو أحد الأربعة البايعين عن دين إبراهيم قبل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا غرابة إذا بدر سعيد إلى اعتناق الإسلام فإن أباه كان في الجاهلية رفض عبادة الأصنام وبحث عن خير الأديان .

فجئت حتى قرعت الباب . قتل من هذا ؟ قلت ابن الخطاب . وكان القوم جلوساً يقرأون في صحيفة معهم . فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم فقامت المرأة ففتحت لي . قلت : يا عدوة نفسها قد بانى أنك صبا . قال فأرض شيئا في يدي فأضرب به فسال الدم فلما رأت للراء الدم بكت ثم قالت يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافضل قد أسلت . فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير ففطرت فإذا بكتاب في ناحية البيت . قلت ما هذا الكتاب ؟ أعطنيه . وكان عمر كاتباً . فقالت لا أعطيك ، لست من أهله . أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تنظف وهذا لا يمس إلا للظاهر . قال لم أزل بها حتى أعطتنيه . بعد أن اغتسل . فإذا فيه (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) . فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي ثم رجعت إلى نفسي فإذا فيها (سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) قال فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت ثم ترجع إلى نفسي حتى بلغت (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحَافِينَ فِيهِ) حتى بلغت إلى قوله (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) قال قلت أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . ففرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني وحمداً لله عز وجل ، ثم قالوا يا ابن الخطاب بأشر فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال : اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين إما عمرو بن هشام وإما عمر بن الخطاب . وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك فأبشر . قال فلما عرفوا مني الصدق قلت لهم أخبروني بمكان رسول الله ﷺ . قالوا هو في بيت في أسفل الصفا وصفوه . فخرجت حتى قرعت الباب قيل من هذا ؟ قلت ابن الخطاب ، قال وقد عرفوا شدتي على رسول الله ﷺ ولم يملوا بإسلامي فما اجتراً أحد منهم أن يفتح الباب . فقال رسول الله ﷺ : افتحوا له فإنه إن يرد الله به خيراً يهده . ففتحوا لي وأخذ رجلان بضدي حتى دنوت من النبي ﷺ فقال أرسلوه فأرسلوني فجلست بين يديه فأخذ بجميع قبضي فجذبني إليه . ثم قال : أسلم يا ابن الخطاب اللهم اهده ، قال قلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة .

وكان إسلام عمر في السنة السادسة من النبوة ، وكان في السادسة والعشرين من عمره بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام . وسماه رسول الله ﷺ الفاروق لأنه لما أسلم قال لرسول الله : أسأنا على الحق إن متنا أو حيينا ؟ قال : بلى والذي نفسي بيده إنكم لعلى الحق إن متم أو حيتم قال قلت فقيم الاختفاء ! والذي بعثك بالحق لتخرجن ، فأخرجناه في صفيح حمزة في أحدهما وأنا في الآخر حتى دخلنا المسجد فنظرت إلى قريش وإلى حمزة فأصابهم كآبة لم يصبرهم مثلها ، فسأني رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم الفاروق ، وفرق بين الحق والباطل . قال مررضي الله عنه : لما أسلت تلك الليلة تذكرت أي أهل مكة أشهد لرسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم عداوة حتى أتته فأخبره أني أسلت . قال قلت أبو جهل ، فأقبلت حين أصبحت حتى ضربت عليه بابه ففرج إلى أبو جهل . فقال مرحباً ما جاء بك ؟ قال جئت لأخبرك أني آمنت

بالله وبرسوله محمد وصدقت بما جاء به . ففرض البساب في وجهي وقال : تجبلك الله وقبح ماجئت به فكان إسلام عمر ضربة قاضية على أبي جهل^(١) .

ولا شك أن عمر رضى الله عنه قد أسلم لما قرأ آى الذكر الحكيم مع أنه كان قبل إسلامه يذب جارية بنى مؤمل لإسلامها أشد العذاب بلا رحمة ولا شفقة ولا يتركها إلا إذا ملّ وكلّ ، وهذا يدل على أنه كان شديد البغض للإسلام شديد التعصب لدينه ، وقد تعدى على أخته وشجها ، ولم يكن أحد يتصور أن صاحب هذا الخلق الشديد الحائق على الإسلام والنسليين والمتعدى على الرجال والنساء بالتعذيب والضرب يسلم بمجرد قراءته آى القرآن . نعم لم يكن أحد يتصور ذلك لكن لما كان القرآن ليس كلام البشر بل كلام الله سبحانه وتعالى كان له تأثير عجيب في النفوس ، ولا بد أن سامعه يرق قلبه مهما كان قاسياً . لذلك لم يسع عمر بن الخطاب هذا العربى الصميم إلا الاعتراف بأن ما تلاه هو كلام الله سبحانه وتعالى وليس فى استطاعة البشر الإتيان بمثله فصدق بما جاء به محمد ﷺ وإن فى ذلك لبرة لأولى الألباب . وعمر رضى الله عنه ثانى الخلفاء الراشدين وقد ضرب المثل الأعلى ببلده وزعمه^(٢) .

قال على رضى الله عنه : ما علت أحداً هاجر إلا مخضياً إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تملد سيفه وتنسكب قوسه وانتضى في يده أسهماً ، وأتى الكعبة وأشرف قریش فقاتلها فطأف سبعاً ثم صلى ركعتين عند المقام ثم أتى قتلهم واحدة واحدة وقال : شامت الوجوه ، من أراد أن تشكبه أمه ويترمى ولده وترمل زوجته فليخضنى وراء هذا الوادى فأتبعه أحد منهم .

ومن مناقب عمر بن الخطاب العظيمة رضى الله عنه أن الوحى نزل على وفق قوله فى آيات كثيرة منها :
(١) آية أخذ الفداء عن أسارى بدر (٢) آية تحريم الخمر (٣) آية تحويل القبلة (٤) آية أمر النساء بالحجاب
(٥) النهى عن القيام على قبر من مات من المنافقين .

وطئن عمر رضى الله عنه يوم الأربعاء لأربع ليال يقين من شهر ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة ودفن يوم الأحد هلال الحرم سنة أربع وعشرين (يوافق سنة ٦٤٤ م) وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح للشهور .

والذى طعن عمر : المايج أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة بن شعبة وهو قائم فى صلاة الصبح حين أحرم بالصلاة طعنه بسكين ذات طرفين فضربه فى كتفه وخاصرته وقيل ضربه ضربات قتال : الحمد لله الذى لم يجعل منيقي بيد رجل يدعى الإسلام . والظاهر أن المايج هذا كان مجنوناً لأنه طعن مع عمر ثلاثة عشر رجلاً . توفى منهم سبعة وعاش الباقون ، ولما أحس أنه مقتول قتل نفسه .

(١) أبو جهل عم عمر . (٢) المؤلف كتاب واف فى سيرته رضى الله عنه .

وكانت خلافته - رضى الله عنه - عشر سنين وخمسة أشهر وواحدًا وعشرين يومًا وثبت في صحيح البخارى وغيره أنه أول من جمع الناس لصلاة التراويح لجمعهم على أبى بن كعب بن قيس رضى الله عنه ، وأجمع المسلمون في زمنه ويسعد على استصحابها . وروى عن على رضى الله عنه أنه أمر على المساجد في رمضان وفيها القناديل فقال : « نور الله على عمر قبره كما نور علينا مساجدنا » .

قال النزالي رحمه الله : لما ولى عمر رضى الله عنه الخلافة ، كانت له زوجة يحبها فطلقها خيفة أن تشير عليه بشقاعة في باطل فيطيعها ويطلب رضاها ، وذلك لشدة تمسكه بالعدل .

الهجرة الثانية

إلى الحبشة

لما قدم أصحاب النبي ﷺ مكة من الهجرة الأولى (بسبب إسلام عمر وإظهار الإسلام) اشتد عليهم قومهم وسطت بهم عشائرم ولقوا منهم أذى شديدًا فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية . فكانت خرجتهم الآخرة أعظم مشقة ولقوا من قريش تنقيفًا شديدًا ونالهم بالأذى واشتد عليهم ما بانهم عن النجاشى من حسن جواره لهم ، وتوفاؤهم من حماية دولة أجنبية قوية للمسلمين المهاجرين . قال عثمان يارسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة إلى النجاشى ولست معنا . قال رسول الله ﷺ أنتم مهاجرون إلى الله وإلى لكم هاتان الهجرة جميعًا قال عثمان غسبنا يارسول الله . وكان عدة من خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلًا ومن النساء إحدى عشرة امرأة قرشية وسبعا غرائب ، فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشى أحسن جوار . فلما سمعوا بمهاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلًا ومن النساء ثمانى نسوة فمات منهم رجلان بمكة وجلس بمكة سبعة نفر .

حصار الشعب وخبر الصحيفة

(مقاطعة رسول الله ﷺ وأتباعه)

لما رأيت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلباء أصابوا به أمنا وقرارًا وأن النجاشى قد منع من لجأ إليه منهم وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة مع رسول الله ﷺ وجعل الإسلام ينتشر في القبائل ، اجتمعوا واتهموا أن يكتبوا كتابًا يتماقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب على ألا يناكحهم ولا يبايعهم ولا يتخالطهم ولا يقبلوا منهم صلحًا أبدًا ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل . أعنى أنهم اتفقوا وتماهدوا على مقاطعتهم مقاطعة تامة انتقامًا منهم لإسلامهم ودفاعهم عن رسول الله ﷺ وكتبوا بذلك صحيفة توكيدًا لأنفسهم

وعقوها في جوف الكعبة ملال الحرم سنة سبع من النبوة (٦١٧ م) . وكانت الصحيفة مكتوبة بخط بنيض ابن عامر بن هاشم فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فثلث يده . وانغاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبي طالب في شعبة مع بني هاشم وخرج أبو لب إلى قريش فظاهروهم على بني هاشم وبني المطلب وقطعوا عنهم الميرة والملادة فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم حتى بلغوا الجهد وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب . فن قريش من سره ذلك ومنهم من ساءه وقال انظروا ما أصاب بنيض بن عامر فأقاموا في الشعب ثلاث سنين حتى أنفق رسول الله صلى الله عليه وسلم ماله وأغنى أبو طالب ماله وأثقت خديجة مالها وصاروا إلى حد الضر والفاقة . ثم أطلع الله رسوله على أمر صبيتهم وأن الأرض قد أكلت ما كان فيها من جور وظلم وبقي ما كان فيها من ذكر الله ، فذكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب فذكر أبو طالب لأخوته وخرجوا إلى المسجد . فقال أبو طالب لكفار قريش إن ابن أخي قد أخبرني - ولم يكن يكذبني - قط أن الله قد ساطع على صبيتهم الأرض فلعنت ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم وبقي ما كان فيها من ذكر الله ، فإن كان ابن أخي صادقاً نزعتم عن سوء رأيكم وإن كان كاذباً دفعته إليكم تقتلوه أو أواستحيثوه . قالوا: قد أنصتنا فأرسلوا إلى الصحيفة فتصوها فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقط في أيديهم ونكسوا على رؤوسهم . قال أبو طالب علام نجس ونحسر وقد بان الأمر ، ثم دخل هو وأصحابه بين أستاذ الكعبة والكعبة فقال : اللهم انصرنا من ظلمنا وقطعنا أرحامنا واستحل ما يحرم الله منا ثم انصرفوا إلى الشعب - وتلاوم رجال من قريش على ما صنعوا ببني هاشم وكان فيهم معلم بن عدى وعدى بن قيس وزمعة بن الأسود وأبو البختري بن هشام وزهير ابن أبي أمية فلبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني المطلب فأمرهم بالخروج إلى مساكنهم قتلوا . فذا رأيت قريش ذلك سقط في أيديهم وعرفوا أن لن يسلموهم وكان خروجهم من الشعب في السنة العاشرة .

وفي سيرة ابن هشام أنهم أقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثا حتى جهدوا لا يصل إليهم شيء إلا سراً مستخفياً به من أراد صلهم من قريش . وقد كان أبو نجل بن هشام فيا يذكرون لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد معه غلام يحمل قمحاً يريد به حمة خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله ومعه في الشعب فضايق به وقال أتذهب بالعلم إلى بني هاشم ؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بكمة ، فجاءه أبو البختري وقال طعام كان لعمته عنده بشت إليه فيه أفضمه أن يأتيها بطعامها ؟ خل سبيل الرجل . فابى أبو جهل حتى نال أحداً من صاحبه . فأخذ له أبو البختري لحي بغير فضر به به فشجه ووطئه ووطئاً شديداً وحزته من عبد المطلب قريب يرى ذلك وهم يكوهون أن يبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيشتروا بهم ، ورسول الله على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً ومرراً وجهاراً مبادياً بأمر الله لا يبقى فيه أحداً من الناس . وهذا ومن المدهش أن مرجوليوث

يقول إن أبا جهل كان مشهوراً بالعقل والذكاء^(١)، وهل تدري لماذا أيها القارىء؟ لأنه كان معادياً لرسول الله لأن أعماله وصفاته التي ذكرناها لاتدل على أنه كان عقلاً ذكياً. إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو العرب إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم في دنياهم وأخراهم. كان يدعو إلى عبادة الله الواحد، وإلى نبذ عبادة الحجارة. ومعنى ذلك أنه كان يعمل على انقشاع من الانحطاط الديني الذي كانوا غارقين فيه ورفضهم إلى أعلى المراتب وأسمى المقائد. وعدا ذلك لقد كان عليه الصلاة والسلام يهذبهم ويعلمهم مكارم الأخلاق ويثبت في نفوسهم الآداب الاجتماعية العالية، فهل يقال عن رجل اتصف بشدة عدوانه لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه عاقل! ثم إن مرجوليوت يفاخر حنقه على من أسلموا ولا سيما إذا كانوا من الأبطال الأشداء فيرميهم بأوصاف ذميمة منفرة^{١١}.

الطفيل بن عمرو الدوسي

شاعر يحكم عقله ويسلم

كانت قريش إذا سمعت بتقدم أحد من العرب يقابلونه ويحذرونه من رسول الله ويصفونه بكل نقیصة خشية أن يسلم ويهود إلى بلاده ويدعواهم إلى الإسلام، لكن الطفيل بن عمرو الدوسي لم يعبأ بتحذيرهم بل حكم عقله وقابل مع رسول الله وسمع منه القرآن فسكر فيه وتذوقه لأنه شاعر فأسلم وهذه قصته:

هو الطفيل بن عمرو بن طريف بن العاص بن ثعلبة بن سليم بن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله ابن زهران بن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن نصر بن الأزد الدوسي. يلقب ذا الون.

كان الطفيل بن عمرو الدوسي يحدث أنه قدم مكة ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها فمشى إليه رجال من قريش وكان الطفيل شرفاً شاعراً لبيكاً. فقالوا بالطفيل إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل بين أظهرنا قد أعضل بنا^(٢) وفرق جماعتنا وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبينه وبين زوجته، وإنما نخشى عليك وعلى قومك فلا تكلمه ولا تسمع منه. قال فوالله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه حتى حشوت أذنى كرسفاً^(٣)، فرقاً أن يباينني من قوله وأنا أريد أن لا أسمعه. قال: فندوت إلى المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة قال قممت قريباً منه فأبى الله إلا أن يسمعي قوله. فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي وائشكل أمي، والله إنى لرجل شاعر لبيب ما يخفى على الحسن من التبيين فما يمتنى أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟ إن كان الذي يأتي حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته، فسمكت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته فاتبته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت يا محمد إن قومك قالوا لي كنذا وكذا ثم إن الله أبى إلا أن أسمع قولك فسمعت قولاً حسناً فاعرض على أمرك.

(١) راجع هذا الكتاب صفحة ١٦٢ (٢) قد أعضل بنا: أي اشتد أمره (٣) الكرسف - بضم الكاف - : الغضب.

فرض على الإسلام وتلا على القرآن فوالله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أمراً أعدل منه فأسلت وقالت يا رسول الله إني امرؤ مطاع في قومي وأنا راجع إليهم وداعيمهم إلى الإسلام فادع الله أن يجعل لي آية تكون لي عوناً عليهم فيما أدعوم إليه . قال اللهم اجعل له آية . قال : ففرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية تعلقى على الحاضر^(١) وقع نور بين عيني مثل المصباح فقلت اللهم في غير وجهي فإني أخشى أن يظنوها . ثلثة فراق دينهم فتحوط في رأس سوطي فجعل الحاضرون يترامون ذلك النور في سوطي كالتدليل للملوك وأنا أهبط إليهم من الثانية فلما نزلت أتاني أبي وكان شيخاً كبيراً فقلت إليك عني يابأت فقلت منك ولست مني . قال ولم أرى بني أقلت إني أسلمت . قال أي بني فدينك دينك . فأسلم . ثم أتتني صاحبتى فقلت لها مثل ذلك فأسلت . وقالت أيعافى على من ذى الشرى . صم لم . قلت لا . أنا ضامن لذلك . ثم دعوت دوساً فأبطأوا عن الإسلام . فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فقلت يا رسول الله قد غلبني على دوس الربا فادع الله عليهم . قال اللهم اهد دوساً إلى . ارجع إلى قومك فادعهم وارقق بهم ، قال فرجعت فلم أزل بأرض قومي دوساً أدعومهم إلى الإسلام حتى هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وقضى بديراً وأحلكم والخنلق ثم قدمت على رسول الله ﷺ بن أسلم معي من قومي ورسول الله ﷺ بخير حتى نزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخير فأنهم لنا مع المسلمين . ثم لم أزل مع رسول الله ﷺ حتى فتح الله عز وجل عليه مكة فقلت يا رسول الله ابعتني إلى ذى الكفين - صم هرو بن حمزة - حتى أحرقه . فخرج إليه فجعل طفيل يقول وهو يحرقه وكان من خشب :

يا ذا الكفين لست من عبادة * ميلادنا أقدم من ميلادكا * إني حشوت النار في قوادكا

ثم رجع طفيل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان معه بالمدينة حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم^(٢).

وفاة أبي طالب

سنة ٦٢٠ م

كان أبو طالب بن عبد المطلب من أشد الناس دفاعاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن نفسه لم تطاوعه على اعتناق الإسلام وفراق دين آبائه . روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما زالت قریش كاعقني^(٣) حتى مات عمي وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يسلم عنه لأنه هو الذي كفله وذاد عنه إلى آخر لحظة من حياته . ولما اشتد مرضه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأعمى ، قلباً أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة (يعني قل الشهادة)

(١) الثنية : الطريق في الجبل . والحاضر : القوم التازلون على الماء (٢) رابع أسد الغابة والبرية النبوة لابن هشام . (٣) الكاعة : جمع كاع ، وهو الجبان . أراد أنهم كانوا يجبنون عن أذى النبي في حياته .

- ١١٢ -

قال له أبو طالب : يا ابن أخى ! لا تخافه للمسبة وأن تظن قريش إنما قتلها جزعاً من الموت لقتلها فأُتزل الله تعالى ﴿ إِنَّكَ لَا يَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ سورة القصص . قال الزجاج أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله أن يقول لا إله إلا الله فأبى أن يقولها خشية أن يعيره قريش على أن الذى منعه من الإسلام هو خوف للام والشم وأنه فارق دين آبائه واتبع دين ابن أخيه وقد ربه صغيراً ، فالشهور أنه مات كافراً وكان له من الولد جعفر وعلي وعقيل وطالب وأم هانىء واسمها فاخنة وجمانة وكلهم أعقب إلا طالباً . وكان أبو طالب أعرج وتوفى بعد النبوة بعشر سنين وقبل الهجرة بثلاث سنين بالغا من العمر نحو ثمانين سنة . وقالت الشيعة إن أبا طالب مات مسلماً .

وفى أسد الغابة - لما اشتد بأبى طالب مرضه دعا بنى عبد المطلب فقال : إنكم لن تزالوا ينخبر ما سمعتم قول محمد واتبعتم أمره فاتبعوه وصدقوه ترشدوا .

ولما مات أبو طالب قال له رسول الله ﷺ - رحمك الله - وغفر لك لا أزال أستغفر لك حتى ينهى الله . فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون فأُتزل الله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ .

وفاة خديجة

سنة ٦٢٠ م

توفيت خديجة زوج رسول الله بعد أبى طالب بثلاثة أيام وقيل بأكثر من ذلك . فى شهر رمضان قبل الهجرة بثلاث سنين ولها خمس وستون سنة وكان مقامها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما تزوجها أربعاً وعشرين سنة وستة أشهر ودفنها رسول الله ﷺ بالحجون ولم تكن الصلاة على الجنائز يومئذ . وحزن عليها النبي ونزل فى حفرتها . وتابعت على رسول الله بموت أبى طالب وخديجة للصائب لأنهما كانا من أشد المضدين له للدافعين عنه فاشتد أذى قريش عليه حتى نثر بعضهم التراب على رأسه وطرح بعضهم عليه سلى الشاة وهو يصلى (السلى الجلدة التى يكون فيها الولد) وسعى العام الذى مات فيه أبو طالب وخديجة « عام الحزن » ولم ينس رسول الله محبته لخديجة بعد وفاتها وكان دائماً يثنى عليها ولم يتزوج عليها حتى ماتت إكراماً لها . وقد كانت مثال الزوجة الصالحة الوفية ، فبذلت نفسها وما لها لرسول الله وصدقته حين نزل عليه الوحي .

سفرة إلى الطائف

الطائف بلدة فى الحجاز على مسافة ٦٥ ميلاً جنوباً شرقياً من مكة ، وهى مشهورة بجودة مناخها وخصب أرضها .

وفوا كهها ولا سيما العنب والبرقوق والرمان والخوخ وبها مياه جارية ويضرب بمنها المثل في الحسن وربما جلدوا فيها في الشتاء . والجبل الذي هي عليه يقال له (غزوان) وهي مصيف أغنياء مكة^(١) ، ومقر عبادة العزى وقسافر إليها النبي ﷺ ثلاث بقين من شوال سنة عشر من البعث (يناير - فبراير سنة ٦٢٠ م) ومعه مولاة زيد بن حارثة يبتس من ثيف النصره فعمد إلى جماعة من أشراف ثيف ودعاهم إلى الله فقال واحد منهم : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ وقال الآخر والله لا أكلك أبدا لأنك إن كنت رسولا من الله كما تقول لأنك أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ولئن كنت تكذب على الله فما يبنى لي أن أكلك . وأغروا بسفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويرمونهم بالحجارة ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وأجأوه إلى حائط وقد أدموا رجليه فلما اطمأن ورجع عنه السفهاء قال عليه الصلَام والسلام : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس . اللهم بأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلفني ؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع ، إنى أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى لاحول ولا قوة إلا بك » وهذا الدعاء مشهور بدعاء الطائف . فلما رأى ابنا ربيعة عتبة وشيبة مائتي رسول الله ﷺ تحركت له رحمة فذعوا له غلاما لها نصرا يقال له عداس . فقال له : خذ قطعاً من هذا العنب وضعه في ذلك الطبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل قتل له يأكل منه فقبل عداس ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ فلما وضع رسول الله ﷺ يده قال ، باسم الله . فنظر عداس إلى وجهه ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة . قال له رسول الله ﷺ ومن أهل أى البلاد أنت يا عداس وما دينك ؟ قال أنا نصراني وأنا رجل من أهل نينوى^(٢) ، فقال له رسول الله ﷺ : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ قال له وما يدريك ما يونس بن متى ؟ قال رسول الله ﷺ ذلك أخى كان نبيا وأنا نبى . فأكب عداس على رأس رسول الله ﷺ وقبل رأسه ويدهور عليه . فقال ابنا ربيعة أخذهما صاحبه : أما غلامك قد أفسده عليك . فلما جاءهما عداس قال له : ويلك يا عداس ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال يا سيدى ما فى الأرض خير من هذا الرجل . لقد خبرنى بأمر لا يعلمه إلا نبى ؟ فقال : ويحك يا عداس لا يصرفك عن دينك فإن دينك خير من دينة . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انصرف من الطائف راجعا إلى مكة حين يس من خير ثيف فوجد قومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلا مستضعفين ممن آمن به . وفى الطبرى : أن بعضهم ذكر أن رسول الله ﷺ لما انصرف من الطائف مريدا مكة سر به بعض أهل مكة فقال رسول الله ﷺ : هل أتت مبلغ عنى رسالة أرسلك بها ؟

(١) وكان يطلق اسم الطائف على ما اكتسبته من البلاد واسمها القديم « وج » ثم سميت بالطائف بحالها العليل بها . ومقرها يطل من جبل غزوان وهو أبرد مكان في الجواز لأن الثلج يقع أحيانا على ذروة الجبل فوق البلدة

(٢) قرية يونس بن متى عليه السلام بالموصل

قال : نعم . قال : أنت الأخنس بن شريق^(١) قل له يقول لك محمد هل أنت مجبرى حتى أبلغ رسالة ربى ؟ قال فأتاه فقال له ذلك . قال الأخنس : إن الحليف لا يجبر على الصريح . فأتى النبي ﷺ فأخبره . قال : تعود ؟ قال : نعم . قال : أنت سهيل بن عمرو قل له إن محمداً يقول لك هل أنت مجبرى حتى أبلغ رسالات ربى ؟ فأتاه فقال له ذلك . قال إن بنى عامر بن لؤى لا يجبر على بنى كعب . فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره . قال : تعود ؟ قال : نعم . قال : أنت اللطعم بن عدى قل له إن محمداً يقول لك : هل أنت مجبرى حتى أبلغ رسالات ربى ؟ قال : نعم فليدخل . فرجع إليه الرجل فأخبره ، وأصبح اللطعم قد لبس سلاحه هو وبنوه وبنو أخيه فدخلوا المسجد . فلما رآه أبو جهل قال : عجبر أم متابع ، قال : بل مجبر . قال : قد أجرتنا من أجرت . فدخل النبي ﷺ مكة وأقام بها ، فدخل يوماً للمسجد الحرام والمشركون عند الكعبة فلما رآه أبو جهل قال : هذا نبيكم يا بنى عبد مناف . قال عتبة بن ربيعة : وما تنكر أن يكون منا نبى أو ملك ؟ فأخبر بذلك النبي ﷺ أو سمعه فأتاهم فقال : أما أنت يا عتبة بن ربيعة فوالله ما حبيت الله ولا لرسوله ولكن حبيت لأهلك . وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتى عليك غير كبير من الدهر حتى تضحك قليلا وتبكي كثيراً . وأما أنتم يا معشر الملأ من قريش فوالله لا يأتى عليكم غير كبير من الدهر حتى تدخلوا فيما تنكرون وأنتم كارهون .

وبقال إن رسول الله صلى الله وسلم أقام بالطائف عشرة أيام ، وظاهر أن الذى دعاه إلى السفر هو الناس النصرة ، ولكنهم خذلوه وما اتس النصرة من عقيف إلا بعد أن توفى أبو طالب وخديجة . أضف إلى ذلك أن فريقاً من المسلمين هاجروا إلى الحبشة ، ولما عاد من الطائف لم يستطع دخول مكة إلا بمحوار رجل كالمطمع بن عدى .

وفى رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف مر به نفر من جن أهل نصيبين الذين وهو يقرأ سورة (الجن) فاستمعوا له وآمنوا به ، ولم يشعر بهم صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّنْذِرِينَ ۚ وَكَانُوا سَاعِتًا قَلِيلًا ۝۱۸ ﴾ .

الإسراء والمعراج

سنة ٦٢١ - م

كان الإسراء قبل الهجرة بسنة، وبه جزم ابن حزم في ليلة سبع وعشرين من شهر رجب وهو المشهور وعليه عمل الناس وكان ليلة الاثنين . وكان بعد خروجه صلى الله عليه وسلم إلى الطائف .

كان الإسراء إلى بيت المقدس والمعراج إلى السموات ، وفرضت عليه في تلك الليلة الصلوات الخمس وقد ذكر

(١) هو ابن أبي شريق

الإسراء في القرآن . قال تعالى :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ .

واختلف في كيفية الإسراء فالأكثر من طوائف المسلمين اتفقوا على أنه أسرى بمجد رسول الله ﷺ^(١) والأقول قالوا إنه مأسرى إلا بروحه . حكى عن محمد بن جرير الطبري في تفسيره عن حذيفة أنه قال: ذلك رؤيا وأنه ماقد جد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما أسرى بروحه . حكى هذا القول أيضاً عن عائشة رضي الله عنها وعن معاوية رضي الله عنه وحديث عائشة ليس بالثابت لأنها لم تكن حينئذ زوجة . قال الترمذي وكان الإسراء في الليلة . وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : والله ماقد جد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه . وعن معاوية مثله ، وعلى الأول الجمهور إذ لا فضيلة للحلم ولا مزية للثنام .

واتفق الأكثر من طوائف المسلمين على أنه أسرى بمجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصحيح . جاء في زاد للماد لابن قيم الجوزية :

« وقد نقل ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنها قالتا : إنما كان الإسراء بروحه ولم يفتد جسده ، ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك . ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال كان الإسراء مناماً وبين أن يقال كان بروحه دون جسده وبينهما فرق عظيم . وعائشة ومعاوية لم يقلوا كان مناماً وإنما قالوا أسرى بروحه ولم يفتد جسده وقرئ بين الأمرين فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعروف في الصور المحسوسة فيرى كأنه عرج به إلى السماء أو ذهب به إلى مكة وأقطار الأرض وروحه لم تصمد ولم تذهب وإنما ملك الرؤيا ضرب له اللال . والذين قالوا عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم طائفتان : طائفة قالت عرج بروحه وبدنه ، وطائفة قالت عرج بروحه ولم يفتد بدنه ، وهؤلاء لم يريدوا أن للعراج كان مناماً وإنما أرادوا أن الروح ذاهباً أسرى بها وعرج بها حقيقة وباشرة من جنس ما تابشر به بعد للفارقة ، وكان حالها في ذلك كحالها بعد للفارقة في صعودها إلى السموات سماء حتى يتبى بها إلى السماء السابعة ففتق بين يدي الله سبحانه وتعالى فيأمرها بما يشاء ثم تنزل إلى الأرض ، فقلبي كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء أكل مما يحصل للروح عند للفارقة . ومعلوم أن هذا الأمر فوق ما يراه النائم » الخ قال الإسراء ما كان مناماً قطعاً لأنه لو كان مناماً لما كذب المشركون فإن من الناس من يرى أنه صمد إلى السماء قطع مسافات شاسعة لا يتصورها العقل ، وليس للثنام معجزة خارقة للمادة ، والروح في للثنام لا تخارق الجسم

(١) وفي اللغات القاموس عيسى : ذهب بمنظ السلف والمسلمين إلى أنه أسراء بالجسد وفي الليلة وهذا هو الحق وهذا قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وابن مارية ومالك بن مسمعة وابن جة البدرى وابن مسعود والشعك وسعيد بن جبير وقائدة وابن السكيت وابن شهاب وابن زيد والمنس وإبراهيم وسروق وعجماد وعكرمة وابن جريج

كذلك لو كان الإسراء مناماً لصرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١)

والطبري في تفسيره ينكر أن الإسراء كان بالروح قط وقد رد على من قال بذلك فقال :

« والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرى بعبد محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله حمله على البراق حتى أتاه به وصلى هنالك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ما أراه من الآيات ، ولا معنى لقول من قال أسرى بروحه دون جسده لأن ذلك لو كان كذلك لم يكن في ذلك ما يوجب أن يكون دليلاً على نبوته ولا حجة له على رسالته ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك يذفون به عن صدقه فيه إذ لم يكن منكراً عندهم ولا عند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بنى آدم أن يرى الرأى منهم في المنام ما على مسيرة سنة فكيف ماعو على مسيرة شهر أو أقل ، إلى أن قال : ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق إذ كانت الدواب لا تحمل إلا الأجسام إلا أن يقول قائل إن معنى قولنا أسرى بروحه رأى في المنام أنه أسرى بجسده على البراق فيكذب حيثئذ بمعنى الأخبار التي رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن جبريل حمله على البراق لأن ذلك إذا كان مناماً على رأى صاحب هذا القول ولم تكن الروح عنده مما يركب الدواب ولم يحمل على البراق جسم النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم على قوله حمل على البراق لا جسده ولا شيء منه وصار الأمر عنده كبعض أحلام النائمين وذلك دفع لظاهر التنزيل وما تناهت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاءت به الآثار عن الأئمة من الصحابة والتابعين »

ومما قاله الفخر الرازي في تفسيره : قال أهل التحقيق إن الذي يدل على أنه تعالى أسرى بروح محمد وجسده من مكة إلى المسجد الأقصى القرآن والخبر . أما القرآن فهذه الآية . وقرر الدليل أن العبد اسم لمجموع الجسد والروح فوجب أن يكون الإسراء حاصلًا لمجموع الجسد والروح الخ وأما الخبر فهو الحديث للروى في الصحاح وهو مشهور وهو يدل على الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم منه إلى السموات اه .

وللمراجع به صلى الله عليه وسلم إلى السموات ليطاع على عجائب الملكوت كما قال تعالى : ﴿ لَنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ وإلا فاته تعالى لا يحويه زمان ولا مكان ورأى به تلك الليلة وأوحى إلى عبده ما أوحى وفرض عليه خمس صلوات وجمع له الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فصلى بهم في بيت المقدس ثم استقبلوه في السموات ورجع صلى الله عليه وسلم من ليالته إلى مكة . وقد أنكر المسيحيون إسراء رسول الله ومراحه وليس ذلك بمستغرب منهم ، إنما الغريب أنهم يؤمنون بقيام المسيح وصعوده إلى السماء ، ففي آخر إنجيل مرقس :

(ثم إن الرب يبد ما كلمهم ، ارتفع إلى السماء وجلس عن يمين الله)

(١) ذهب فريق من المعتزلة إلى القول بأنه أسرى به في النوم لاقى القطة ، خلافاً لأهل السنة والجماعة

وجاء في آخر إنجيل لوقا:

(وفيما هو « السليح » يباركهم ، انفردهم وأصعد إلى السماء)

تأثير خبر الإسراء

في قريش

لما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الناس بما رآه فضدقه الصديق وكل من آمن به إيماناً قوياً وارتدّ ناس ممن آمن به . وكذبوا الكفار واستوصفوه مسجود بيت المقدس فوصفه لهم وسألوه عن أشياء في المسجد فثقل بين يديه فجعل ينظر إليه ويصفه ويدأبوا به لم يابأ يابأ فيطابق ما عندهم . وسألوه عن غيرهم فأخبرهم بها وبوقت قدومها فكان كأخبر .

ويروى أنه ﷺ لما رجع إلى مكة من ليانه أخبر بمسراة أم هانئ بنت أبي طالب أخت علي رضي الله عنه وأمره أن يخرج إلى قومه ويخبرهم بذلك لأنه ما أحب أن يسلمهم قدرة الله وما هو دليل على علو مقامه ﷺ فثقلت بردائه أم هانئ وقالت أنشدك الله يا ابن عم ألا تحدث بها قريشاً فيكذبك من صدقك فضرب يده على رداءه فانزع منها . قالت : وسطع نور عند فؤاده كاد يخطف بصري فغررت ساجدة فلما رفت رأسي فإذا هو قد خرج . قالت صلت لجاريتي نعمة وكانت حبشية أتبعيه وانظري ماذا يقول فلما رجعت أخبرته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى إلى نفر من قريش في الحطيم وفيهم مطعم بن عدي وأبو جهل بن هشام فأخبرهم بمسراة .

ولما قص رسول الله خبر الإسراء على جمع من قريش أعظموا ذلك الإسراء وصار بعضهم يصفق وبعضهم يضع يده على رأسه تعجباً (فلو كان الإسراء رؤياً منامية لما كانت مستغربة ولما أحدث تلك الضجة وكذب المسلمون اللهم إلا من كان منهم قوى العقيدة ثابت الإيمان) . قال مطعم بن عدي إن أمرك قبل اليوم كان أمراً يسيراً غير قولك اليوم ، هو يشهد أنك كاذب . نحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس مصداً شهراً ومنتحلاً شهراً . أتزعّم أنك أتيت في ليلة واحدة ؟ واللات والعزيز لأصدقك وما كان هذا الذي تقول قط . قال أبو بكر رضي الله عنه ياطعمهم بشئ ما قلت لابن أخيك جبهته وكذبت به أنا أنشد أنه صادق وفي رواية فسئ رجال من المشركين إلى أبي بكر رضي الله عنه فقالوا : هل لك إلى صاحبك يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس ؟ قال وقد قال ذلك ؟ قالوا نعم . قال لئن قال ذلك لقد صدق . قالوا أتصدق أنه ذهب إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح ؟ قال : نعم إني لأصدقك فيما هو أبعد من ذلك ، أصدقك في خبر السماء في غداة وروحة . قال مطعم : يا محمد صف لنا بيت المقدس . قال أبو بكر رضي الله عنه صف لي يارسول الله فإني قد جئت فيه جبريل بصورته ومثاله فجعل يقول : باب منه في موضع كذا وباب منه في موضع كذا وأبو بكر رضي الله عنه يقول : أشهد أنك رسول الله حتى أتى على أوصافه .

وهذه هي الأحاديث الواردة في صحيح البخارى الخاصة بالإسراء والمراج مشروحة في الهامش شرحاً موجزاً
تقلاً عن التسلافي :

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا كذبتنى قريش قت
في الحجر فجلا الله لى بيت المقدس ^(١) فطلعت أخبرهم عن آياته ^(٢) وأنا أنظر إليه » .

المراج ^(٣)

عن مالك بن ميمونة رضى الله عنهما أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسرى به قال : بينا أنا في الحطيم وريما
قال في الحجر - مضطجماً إذ أتاني آت ^(٤) قد قال وسمعت يقول فشق ما بين هذه إلى هذه - قال الراوى من ثمرة
نحوه ^(٥) إلى شترته - فاستخرج قلبى ثم أتيت بطست من ذهب ^(٦) مملوءة إيماناً ففصل قلبى ثم حشيت ثم أعيد ^(٧) ثم أتيت
بداية دون النبل وفوق الحمار أبيض - قال الراوى وهو البراق يضع خطوه عند أقصى طرفه ^(٨) فحملت عليه فانطلق بى
جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح فقبل من هذا ؟ قال جبريل . قيل : ومن معك ؟ قال محمد . قيل وقد أرسل
إليه ؟ قال نعم . قيل مرحباً به فتم الحىء جاء فتفتح ^(٩) فلما خلصت فإذا آدم فقال هذا أبوك آدم فسلم عليه ^(١٠)
فسلمت عليه فرد السلام . ثم قال مرحباً بالابن الصالح . ثم صعد بى إلى السماء الثانية فاستفتح فقبل من هذا ؟ قال
جبريل قيل ومن معك ؟ قال محمد قيل وقد أرسل إليه ؟ قال : نعم . قال : مرحباً فتم الحىء جاء . فتفتح فلما خلصت
إذا يحيى وعيسى ^(١١) وما ابنا الخالة . قال هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما فسلمت فردا ثم قال مرحباً بالأخ الصالح
والنبي الصالح . ثم صعد بى إلى السماء الثالثة فاستفتح . قيل من هذا ؟ قال جبريل . قيل ومن معك ؟ قال محمد .
قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم . قيل مرحباً فتم الحىء جاء . فتفتح فلما خلصت إذا يوسف فسلم
عليه فسلمت عليه فرد ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بى حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح فقبل
من هذا ؟ قال جبريل . قيل ومن معك ؟ قال محمد . قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم . قيل مرحباً فتم الحىء جاء .

(١) أى أزال الحجاب بينى وبينه (٢) علاماته (٣) للمراج بكسر الميم من المروج وهو الصعود (٤) قوله في الحجر لأنه حجر
عليه جدار قصير . مكان معروف ملاصق لبيت وفيه ستة أذرع من أصل البيت الشريف وقيل كله من البيت . ورجح . ويقال
له الحطيم وهو ما بين البيت والمقام . سعى حلياً لأنه حطم عن مساواة البيت أو لأن الذنوب تحطم أى تزال فيه . وقوله أتاني آت أى
جبريل عليه السلام (٥) ثمرة نحوه : الموضع المنخفض بين الترفوتين (٦) قبل يحرم استعماله (٧) ثم أعيد في موضعه من الصدر
القدس (٨) عند أقصى طرفه . أى يضع رجله عند منتهى ما يرى بصره وهو يدل على أنه كان يسعى على وجه الأرض . وسعى البراق
لشدة بريقه أو لسرعة سيره (٩) فتفتح خزنها الباب (١٠) فسلم عليه لأن المار يسلم على القاعد وإن كان المار أفضل من القاعد
(١١) يحيى بن زكريا وعيسى بن مريم وما ابنا الخالة لأن أم يحيى لإشعاف بنت فافوذ أخت حنة بنت فافوذ أم مريم وذلك أن عمران
ابن ماثان تزوج حنة وذكرها تزوج لإشعاف فولدت يحيى وولدت حنة مريم فتكون لإشعاف حنة مريم وحنة خالة يحيى فيها ابنا خالة
بهذا الاعتبار وليس عمران هذا أباً موسى . ولأين ذر ابنا خالة

فتفتح فلما خاست إذا إدريس قال هذا إدريس فلم عليه فسلمت عليه فرد . قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح . قيسل من هذا ؟ قال جبريل . قيل ومن معك ؟ قال محمد^(١) . قيل وقد أرسل إليه . قال نعم . قال مرحباً به فتم المجيء جاء . فلما خلعت فإذا هارون . قال هذا هارون فلم عليه . فسلمت عليه فرد . ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح . ثم صعد بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح قيل من هذا ؟ قال : جبريل . قيل ومن معك ؟ قال محمد . قيل وقد أرسل إليه ؟ قال نعم . قال مرحباً . فتم المجيء جاء . فلما خلعت فإذا موسى . قال هذا موسى فلم عليه فسلمت عليه ، ثم قال مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح فلما تجاوزت بكى قيل له ما يبكيك ؟^(٢) قال أبكي لأن غلاماً بثت بدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي^(٣) ثم صعد بي إلى السماء السابعة فاستفتح جبريل . قيل من هذا ؟ قال جبريل . قيل ومن معك قال محمد . قيل وقد بثت إليه ؟ قال نعم . قال مرحباً فتم المجيء جاء ، فلما خلعت فإذا إبراهيم . قال هذا أبوك إبراهيم فلم عليه فسلمت عليه فرد السلام . فقال مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح^(٤) . ثم رفت إلى سدرة المنتهى^(٥) فإذا بنتها^(٦) مثل قلال هجر^(٧) وإذا ورقها مثل آذان النيلة . قال هذه سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان . قتلت ما هذا بجبريل ؟ قال أما الباطنان قهران في الجنة ، وأما الظاهران فالليل والنهار . ثم رفع إلى البيت للمور فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ، ثم أتيت بإنامن خرواً وإنامن لبن وإناء من عسل فأخذت اللبن فقال هي القطرة التي أتت عليها وأمتك . ثم فرضت على الصلوات بخمس صلاة كل يوم فرجت فررت على موسى فقال بم أمرت ؟ قلت أمرت بخمس صلاة كل يوم . قال إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم ، وإني والله خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فأرجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك فرجت فوضع عنى عشرأ ، فرجت إلى موسى فقال مثله ، فرجت فوضع عنى عشرأ ، فرجت إلى موسى فقال مثله فرجت فوضع عنى عشرأ ، فرجت إلى موسى فقال مثله ، فرجت فوضع عنى عشرأ ، فأمرت بعشر صلوات كل يوم فرجت فقال مثله ، فرجت فأمرت بخمس صلوات كل يوم ، فرجت إلى موسى فقال بم أمرت قلت بخمس كل يوم . قال إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم وإني خبرت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة فأرجع إلى ربك فأسأله التخفيف لأمتك ، قلت وسألت ربي حتى استحييت ولكن أرضى وأسلم قال فلما

(١) سقطت التصلة لأي ذكر

(٢) خطاب موسى (٣) ليس بكأوه حداً خاشاً لله بل أسفاً على ما فاتته من الأجر المربى على رفع درجته بسبب ما حصل من أنه من كثرة الخالفة المتعصية لتفويض أجورهم المحترمة ذلك لنفس أجرة لأن لكل نبي مثل أجر جميع من أتبعه وقوله غلام مراده به أنه صغير السن بالنسبة إليه وقد أسم الله عليه بما لم ينم به عليه مع طول عمره (٤) قد استغفل رؤية الأنبياء في السموات مع أن أجسادهم مستقرة في بيوتهم بالأرض وأجيب بأن أرواحهم تفككت بصور أجسادهم أو أحضرت أجسادهم للافاته صلى الله عليه وسلم تلك الليلة تصريفاً له وتكريراً (٥) سدرة المنتهى التي ينتهي إليها ما يرجع من الأرض (٦) النبي : ثمرة السمرة (٧) هجر : اسم بلد مراده أن ثمرها في الكبر كالحرير التي تصنع بهجر ، وكانت معروفة عند المخاطبين .

جاوزت نادافى مناد : أمضيت فريضتى وخفت عن عبادى^(١) .

عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ قال هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسرى به إلى بيت المقدس^(٢) . قال والشجرة الملعونة فى القرآن هى شجرة الزقوم .

هل رأى رسول الله ربه ليلة الإسراء ؟

أنكرت عائشة رؤية رسول الله ربه ليلة الإسراء وروى عن ابن عباس أنه رآه بعينه ومثله عن أبي خذر وكعب رضى الله عنهما وكان الحسن رحمه الله يخلف على ذلك . ومن القائلين بالرؤية ابن مسعود وأحمد بن حنبل وجماعته من الصحابة وعن ابن عباس أنه قال : « أمتجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكرام موسى والرؤية ل محمد صلى الله عليه وسلم » ، وعن عكرمة سئل ابن عباس هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ؟ فقال نعم . قال النووي فى شرح صحيح مسلم « والأصل فى الباب حديث ابن عباس خبر الأمة وللرجوع إليه فى المعضلات وقد راجعه ابن عمر رضى الله عنهم فى هذه المسألة وراسله هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه ! فأخبره أنه رآه . ولا يقدح فى هذا حديث عائشة رضى الله عنها فإنها لم تغير أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لم أر ربي وإنما ذكرت ما ذكرت متأولة لقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾ ولقول الله تعالى : ﴿ لَا تَدْرِيكَ أَهْلًا بِصَارَ ﴾ والصحابة إذا قال قولاً وخالفه غيره منهم لم يكن قوله حجة وإذا صحت الروايات عن ابن عباس فى إثبات الرؤية وجب المصير إلى إثباتها فإنها ليست مما يدرك بالعقل ويؤخذ بالظن ، وإنما يتلقى بالسمع ولا يستجيز أحد أن يفتن بابن عباس أنه تكلم فى هذه المسألة بالظن والاجتهاد، وقد قال معمر بن راشد حين ذكر اختلاف عائشة وابن عباس ما عائشة عندنا بأعلم من ابن عباس . ثم إن ابن عباس أثبت شيئاً فناه غيره وللمثبت مقدم على الناقى .

والراجع عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعينى رأسه ليلة الإسراء . والظاهر أن إخباره صلى الله عليه وسلم بالمعراج لم يكن عند إخباره بالإسراء بل تأخر عنه بناء على أنها كانا فى ليلة واحدة ولم تنزل قصة المعراج فى سورة الإسراء بل أنزل ذلك فى سورة النجم ، وما يؤيد أنها كانا فى ليلة واحدة قول البخارى فى صحيحه « باب كيف فرضت الصلاة ليلة الإسراء » لأن من المعلوم أن فرض الصلوات الخمس إنما هو فى المعراج .

(١) هذه من أقوى ما يستدل به على أنه صلى الله عليه وسلم كره ليلة الإسراء فغير واسطه

(٢) وبذلك تمسك من قال كان الإسراء فى المنام . ومن قال كان فى اليقظة فسر الرؤيا بالرؤية من قوله أريها ليلة أسرى به . والإسراء إنما كان فى اليقظة لأنه لو كان نائمًا ما كذبه فريش فيه ، وإذا كان ذلك فى اليقظة وكان المعراج فى تلك الليلة لزم أن يكون فى اليقظة أيضاً إذ لم يقل أحد إنه نام لا وصل بيت المقدس ثم عرج به وهو نائم وإنما كان فى اليقظة ، فإضافة الرؤيا إلى اليقظة احتراز عن رؤيا القلب .

قول وقد خالفت عائشة ابن عباس في هل كان الإسراء بالجسد أو بالروح فقالت عائشة والله ما نجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن سعد بروحه وابن عباس يقول إنه إسراء بالجسد وفي البقعة وهذا مذهب إليه معظم الصحابة أما ما يتصوره بعضهم من أن الصعود بالجسد إلى السموات مستحيل عقلا فنقول إن هذا الصعود بالجسم معجزة لرسول الله لا تدرك بالعقل كجميع معجزاته وكميزات الرسل عليهم صلوات الله ولو كان الصعود بالروح فقط لصرح به رسول الله ولا كذبه قريش .

وإذا كان أمر الإسراء والمعراج عجيبا فأعجب منه أن المسيح يصلب ويقتل ويدفن ثم يقوم من بين الموتى ويصعد إلى السماء ويجلس على يمين الله كما يعتقد المسيحيون .

فريضة الصلاة

فرضت الصلوات الخمس ليلة الإسراء قبل الهجرة بسنة ولا خلاف في ذلك . قيل كما هي الآن في عدد الركعات وهو الأصح . والصلاة هي فريضة قائمة وشريعة ثابتة عرفت فرضيتها بالكتاب وهو قوله تعالى ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى ﴾ فإنه يدل على فرضيتها وعلى كونها خمسا لا بأمر بالخافضة على جميع الصلوات وعطف الصلاة الوسطى وأقل جمع يتصور معه وسع على هو الأربع . وبالسنة قوله عليه الصلاة والسلام « إن الله فرض على كل مسلم ومسلمة في كل يوم وليلة خمس صلوات » .

وحكمة مشروعيها التذلل والخضوع بين يدي الله تعالى ومناجاته بالقراءة والذكر واستعمال الجوارح في خدمته وهي أفضل العبادات البدنية الظاهرة .

جاء في رسالة الصلاة لابن سينا : أن الصلاة تشبه النفس الإنسانية الناطقة بالأجرام الملكية والتبديع الدائم للحق المطلق طلبا للتوابع السرمدي . قال رسول الله ﷺ (الصلاة عماد الدين) والدين هو تصفية النفس الإنسانية عن الكدورات الشيطانية والهواجس البشرية والإعراض عن الأعراض الدنيوية الدنية . والصلاة هي التبديع للمعبود الأعظم الأعلى ، فلي هذا لا يحتاج إلى تأويل قوله تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ يعرفون لأن العبادة هي المعرفة أي عرفان واجب الوجود وعلمه بالسر الصافي والقلب النقي والنفس الفارغة . فإذا حقيقة الصلاة علم الله سبحانه وتعالى بوحده لا بغيره وجوب وجوده وتنزيه ذاته وتقديس صفاته في سرائح الإخلاص في صلواته ، وأعني بالإخلاص أن تعلم صفات الله بوجه لا يبقى للكثرة فيه مشرع ولا للإضافة فيه منزع ، فن قل هذا قد أخلص وصلى وماضل وما غوي ومن لم يفعل فقد افترى وكذب وعصى . والله أجل وأعلى وأعز من ذلك وأقوى اه .

قال صلى الله عليه وسلم (لا إيمان لمن لا صلاة له ولا إيمان لمن لا أمانة له) وقال (صلوا كما رأيتموني أصلي)

قال تعالى ﴿ إِنِ الصَّلَاةَ تَنهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَسْمَعُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

عرض الرسول ﷺ نفسه على قبائل العرب

أخفى رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالته بادئ الأمر ثم أعلنها في السنة الرابعة من النبوة ودعا إلى الإسلام عشر سنين يوافي اللواسم كل عام يبيع الحجاج في منازلهم مبنى وللوقف يسأل عن القبائل قبيلة قبيلة ، ويسأل عن منازلهم ويأتي إليهم في أسواق اللوسم وهي عكاظ ومجنة وذو الحجاز ، وكانت العرب إذا حجت تقيم بمكاظ شهر شوال ، ثم تحجى إلى سوق مجنة تقيم فيه عشرين يوماً ، ثم تحجى إلى سوق ذي الحجاز فتقيم به أيام الحج وكان صلى الله عليه وسلم يمرض نفسه عليهم ويدعوهم إلى أن يمنعوهم حتى يبلغ رسالة ربه ، وكان يطوف على الناس في منازلهم ويقول : « يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تميذوه ولا تشرکوا به شيئاً » وكان أبو لهب يمشى وراءه ويقول : إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم ، وروى ابن إسحاق أنه صلى الله عليه وسلم عرض نفسه على كندة وكتب وعلى بني حنيفة وبني عامر بن صعصعة فقال له رجل منهم أ رأيت إن نحن بأيمانك على أمرك ثم أظفرك الله على من خالفك أن يكون لنا الأمر من بعدك ؟ فقال الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء . فقال له أهاطل العرب دونك فإذا أظفرك الله كان الأمر لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرك وأبو لهب عليه ، فلما رجعت بنو عامر إلى منازلهم وكان فيهم شيخ أدركتة السن لا يقدر أن يوافي معهم اللوسم . فلما قدموا عليه سألهم عما كان في موسمهم فقالوا : جاءنا فتى من قريش أحد بني عبد المطلب يزعم أنه نبي يدعونا أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا فوضع الشيخ يده على رأسه ثم قال : يا بني عامر هل لها من تلاف ؟ أي هل لهذه القصة من تدارك ، والذي نفس فلان بيده ما يقولها كاذبا من بني إسماعيل قط وإنما لحق وإن رأيكم غلب عنكم .

وروى الواقدي أنه صلى الله عليه وسلم أتى بني عبس وبني سليم وبني محارب وفزارة ومررة وبني النضر وعذرة والحضارمة فردوا عليه صلى الله عليه وسلم أقبح الرد وقالوا أسرتك وعشيرتك أعلم بك حيث لم يقبضوك ، ولم يكن أحد من العرب أقبح عليه من بني حنيفة وهم أهل البليمة ، قوم منسيلة الكذاب ، ومن ثم جاء في الحديث « شر قبائل العرب بنو حنيفة » ومن أقبح القبائل في الرد عليه صلى الله عليه وسلم قتيق ، ومن ثم جاء « شر قبائل العرب بنو حنيفة وهيف » وما زال صلى الله عليه وسلم يمرض نفسه على القبائل في كل موسم يقول لا أكره أحداً على شيء . من رضى الذى أدعو إليه فذاك ومن كرهه لم أكرهه وإنما أريد معنى من القتل حتى أبلغ رسالة ربي فلم يقبله صلى الله عليه وسلم أحد من تلك القبائل ويقولون : قوم الرجل أعلم به ، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفقد قومه ؟

- ١٢٣ -

بدء إسلام الأنصار

بيعة العقبة الأولى - إسلام سعد بن معاذ

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يمرض شقه على قبائل العرب وحجاجهم كما كانت عادته كل موسم ، فبينما هو عند العقبة التي تضاف إليها الجرة فيقال جرة العقبة وهي على يسار القاصد منى من مكة إذ لقي رهطا من الأوس والخزرج كانوا يحجون من العرب . وهما قبيلتان مشهورتان عظيمتان من العرب في يثرب وقد لفهم رسول الله بالأنصار لما هاجر إليهم ومنموه ونصروه ، وكان الذين لتبهم ﷺ من الخزرج هم أسد بن زرارة وعوف بن الحارث ويعرف بآبن عفرأ وهما من بنى النجار . ورافع بن مالك بن العجلان وعامر بن عبد حارثة وهما من بنى زريق . وقطبة بن عامر بن حديلة من بنى سلة وعقبة بن عامر بن باقى من بنى غنم وجابر بن عبد الله بن رباب من بنى عبيدة فرض النبي عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فقبلوا ذلك منه وأثر في قلوبهم وكان اليهود مع الأوس والخزرج بالمدينة وكانوا أهل كتاب والأوس والخزرج أهل نرك وأوثان . وكانوا إذا كان بينهم شىء يقول اليهود إن نبيا سيبعث الآن قد أظلم زمانه تبعه فتقتلكم معه قتل عاد وإرم وكانوا يصعوه بصفاته لم فامأ فقدموا للمدينة ذكروا قومهم النبي ﷺ ودعوم إلى الإسلام فأسلم كثيرون منهم حتى إذا كان العام للقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا وذلك سنة اثنى عشرة من النبوة (٦٢١هـ) فلقوه بالعقبه فبا يومه بيعة النساء ، وسميت بذلك لأنها كانت على الأمور التي ورد ذكرها في سورة للمتحنه خاصة ببيعة النساء هي هذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبِيَّنَكَ عَلَىٰ الْأَيْدِيْنَ وَلَا يَسْرِفْنَ وَلَا يَزِينَنَّ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِيْهْتَانٍ يَقْتَرِبْنَهُ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَأَرْجُلَيْهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَنَّهُنَّ لَئِنْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْفُذَ فِيهِمْ مَقْرَرٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وبعد أن تمت هذه البيعة بعث ﷺ معهم مصعب بن عمير بن هاشم إلى المدينة بقرشم القرآن وسامهم الإسلام وكان يسمى مصعب بالمدينة للقرى فأسلم على يده سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، وكان سعد من أجل رؤسائهم ثم فشا فيهم الإسلام في المدينة . وقال سعد لما أسلم لبنى عبد الأشهل : « كلام رجالكم وسائكم على حرام حتى تساموا » فأساموا . فكان من أعظم الناس بركة في الإسلام . وشهد بدراً . لم يختلفوا فيه وشهد أحدًا وانطلق وفيها أصيب بسهم وهو الذي حكم على بنى قريظة بالقتل كما سيأتى وبعد أن حكم عليهم انجبر عرقه فاحتضنه رسول الله فجعلت الدماء تسيل على رسول الله . فجاء أبو بكر وقال : وا انكسار ظهره !! فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « مه » . فقال عمر : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ولما دفنه رسول الله وانصرف من جنازته ، جعلت دموعه تحادر على لحيته ويده في لحيته ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان

من دار بني أمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف؛ وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت (وهو صيني) وكان شاعراً لم يقاتلوا يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإسلام ولم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة .

بيعة العقبة الثانية

انفق جماعة من الأنصار على لقاء النبي ﷺ مستخفين لا يشعرون أنهم أحد فوافوا مكة في الموسم في ذي الحجة مع كفار قومهم واجتمعوا به وواعدوه أو وسط أيام التشريق^(١) فلما كان الليل خرجوا بعد مضي ثلثه يتسللون حتى اجتمعوا بالعقبة وحضر معهم عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر^(٢) وأسلم تلك الليلة وجاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عمه العباس بن عبد المطلب وكان لا يزال على دين قومه وأحب أن يوثق لابن أخيه وكان أول من بايع تلك الليلة وهو أول من تكلم . قال يامعشر الخزرج (وكانت العرب تسمى الخزرج والأوس به) إن محمداً منا حيث قد علم في عز ومنعة وإنه قد أتى إلا الاقطاع إليكم فإن كنتم ترون أنكم تفعلون له بما دعوتوه إليه وما نوه فأنتم وذلك . وإن كنتم ترون أنكم مسلموه فمن الآن فدعوه فإنه في عز ومنعة . فقال الأنصار قد سمعنا ما قلت ففعلكم يارسول الله وخذ نفسك وربك ما أحببت ففعلكم وتلا القرآن ورغب في الإسلام ثم قال فتمنوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم وكان للبراء بن معرور في تلك الليلة اللقائم الحمدود في الإخلاص والتوفيق لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أخذ بيده وقال : والذي يثبك بالحق لنمنحك بما تمنع من ذراريها فبايعنا بارسول الله فنحن والله أهل الحرب ، فاعترض الكلام أبو الهيثم بن التيهان حليف بني عبد الأشهل فقال يارسول الله إن بيننا وبين الناس حبلا وإننا فاطمواها يعني اليهود فهل عسيت إن أظهرتك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فقسم رسول الله ﷺ وقال بل الدم الدم ، المدم المدم ، أنتم مني وأنا منكم أسلم من سالم وأحارب من حاربه وكانت عدة الذين بايعوا في تلك الليلة سبعين رجلاً وامرأتين : نسبية بنت كعب أم عمارة وأسما بنت عمرو بن عدى من بني سلمة^(٣) واختار رسول الله ﷺ اثني عشر قتيلاً يكونون على قومهم : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وقال لهم أنتم كفلاء على قومكم ككفالة الحوارين لعيسى بن مريم . وأنا كفيل على قومي . والبقاء هم :

- (١) سعد بن عباد (٢) أسعد بن زرارة . (٣) سعد بن الربيع . (٤) سعد بن خيشمة . (٥) المنذر بن عمرو
- (٦) عبد الله بن رواحة . (٧) البراء بن معرور . (٨) أبو الهيثم بن التيهان . (٩) أسيد بن حضير . (١٠) عبد الله ابن عمرو بن حرام . (١١) عباد من الصامت . (١٢) رافع بن مالك بن العجلان . وروى أنه قب على النقباء أسعد بن زرارة قوفى بعد والمسجد النبوي يعني . فكان أول من دفن بالبقيع من المسلمين .

(١) وهي ثلاثة أيام بعد النحر لأن لحم الأضاحي يفرق فيها للشمس أي يشرى وقال ابن الأعرابي سميت بذلك لأن الهدى والضحايا لا تنحر حتى تشرق الشمس أي تطالع (٢) قل عبد الله بن عمرو يوم أحد وقد مثل به . (٣) بايعته المرأتان من غير مصافحة .

فلما بايوا النبي صلى الله عليه وسلم رجعوا إلى المدينة فكان قدومهم في ذي الحجة فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بقية ذي الحجة والحرم وصفر وهاجر إلى المدينة في شهر ربيع الأول وقدمها لانتقى عشرة ليلة خلت منه وقد كانت قريش لما بلغهم إسلام من أسلم من الأنصار اشتدوا على من بمكة من المسلمين فأصابهم جهد شديد . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالمهجرة إلى المدينة فخرجوا أرسلا حتى لم يبق أحد من المسلمين بمكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر وعلي بن أبي طالب فإنهما أقاما بأمره وكان صلى الله عليه وسلم ينتظرا أن يؤذنه في الهجرة . وإسلام الأنصار له شأن كبير في تاريخ الإسلام بل في تاريخ الدنيا .

مؤامرة قريش

على قتل رسول الله ﷺ

لقد بلغ اضطهاد قريش للمسلمين أنهم اضطروهم إلى الهجرة ففريق هاجر إلى الحبشة ثم هاجر من بقي مع رسول الله إلى المدينة . ولما علمت قريش تنابع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمهجرة أخيرا إلى المدينة وقد صاوت له شيعه وأنصار من غيرهم وأنه أجمع على اللحاق بهم؛ تشاوروا فيما يصنعون في أمره فاجتمعوا في «دار الندوة» وهي دار قصى بن كلاب^(١) وتشاوروا في حبه أو إخراجهم عنهم (فيه) ثم اتفقوا على أن يتخيروا من كل قبيلة منهم فتى شابا جلدا فيقتلوه جميعا فيتفرق دمه في القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعا ويقال إن هذا كان رأى أبي جهل . وهكذا نجد دائما اسم أبي جهل وأبي لهب في كل مؤامرة ضد النبي صلى الله عليه وسلم وكل إيذاء واضطهاد كان لا عمل لها غير ذلك .

استعدوا لقتله عليه الصلاة والسلام من ليثهم وأتى جبريل رسول الله فقال : لا تبث هذه الليلة على فراشك الذي كنت تنبت عليه فلما كانت الثنية اجتمعوا على بابه يرصدونه متى نيام فيثبون عليه فأمر عليا أن ينام على فراشه ويتشج ببرده الأخضر وأن يتخلف عنه ليؤدى ما كان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم من الودائع إلى أربابها فامتثل أمره فكان أول من شرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ووقى بنفسه رسول الله ﷺ .

وهنا قول إن الأستاذ مرجوليوت اعتاد أن يصف أعداء رسول الله برجاجة العقل والنبل ولا يعلم أن نجد كتابا يذكره كمصدر له من من غير تحقيق فقد قال عن أبي جهل في كتابه (محمد) «إنه حاز شهرة عظيمة في العقل حتى إنه دخل دار الندوة في سن الثلاثين في حين أنه كان لا يسمح لأحد من أهل مكة بدخولها إلا إذا بلغ

(١) دار الندوة بمكة أحدها قصى بن كلاب لا تملك مكة . كانوا يجتمعون بها للمشاورة وصارت يد ولده الحارثية بن أبي سفيان وليل وهي أول دار بنتها قريش بمكة . قال الحلبي دار الندوة من جهة الحجر عند المقام الحزني الآن وكان لها باب إلى المسجد أهدت للاجتماع للندوة وكانت قريش لا تفضي أمرا إلا إليها وكانوا لا يدخلون فيها غير قريش إلا إن بلغ أربعين سنة بخلاف القرشي .

الأربعين » والحقيقة أنهم كانوا لا يدخلون فيها غير قرشى إلا إن بلغ أربعين سنة بخلاف القرشى تمييزاً له وبما أن أبا جهل قرشى فكان يسوغ له دخول دار النبوة قبل الأربعين وليس ذلك لأنه كان شديد الذكاء وراجح العقل بل لأنه كان قرشياً .

القرآن

وما نزل منه بمكة

عن ابن عباس ، قال أنزل القرآن جملة واحدة إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ثم نزل بعد ذلك في عشرين سنة . أما إقامته بالمدينة عشرًا فهذا مما لا خلاف فيه . وأما إقامته بمكة بعد النبوة فالشهور ثلاث عشرة سنة لأنه صلى الله عليه وسلم أوحى إليه وهو ابن أربعين سنة وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة على الصحيح . والقرآن منه مكى ومنه مدنى . فلكى ما نزل قبل الهجرة أى بمكة وللذى ما نزل بعد الهجرة سواء كان بالمدينة أو بغيرها من أى البلاد حتى ولو كان بمكة أو عرفة

والسفير بين الله تعالى ومحمد صلى الله عليه وسلم ، جبريل عليه السلام .. كما قال تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ وقال ﴿ إِنَّهُ يَقُولُ رَسُولُ كَرِيمٍ ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ مُطَاعٍ ثُمَّ آمِينَ . وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ الآيات .

وقد تخدام الله تعالى بأن يأتيوا بسورة من مثله ، ففجزوا . فالقرآن معجزة رسول الله الباقية إلى يوم القيامة . وقد احتوى على العلوم الكثيرة والأخبار الصادقة عن الغيوب للماضية والآتية والأحكام العادلة . ونزل القرآن بلغة قریش وقریش خلاصة العرب . وللقرآن أسماء كثيرة منها الفرقان والتنزيل والحديث الخ . ومعناه ، القراءة . قال ابن عباس « القرآن والقراءة واحد » .

ويشتمل على ١١٤ سورة ، أطولها « البقرة » ونزل من القرآن بمكة اثنتان وثمانون سورة ونزل تمام بعضها بالمدينة وكان أول ما نزل على رسول الله ﷺ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . ثم ن والقلم وما يسطرون . ثم والضحى . ثم يأتيها الزمّل ثم يأتيها اللذثر . ثم فاتحة الكتاب . ثم تبت . ثم إذا الشمس كورت . ثم سبح اسم ربك الأعلى . ثم الليل إذا يشئ . ثم والفجر . ثم ألم نشرح لك صدرك . ثم الرحمن . ثم والمصر . ثم إنا أعطيناك الكوثر . ثم ألهاكم التكاثر . ثم أ رأيت الذى يكذب بالدين . ثم ألم تركيف فل ربك بأصحاب الفيل . ثم والنجم إذا هوى . ثم عبس وتولى . ثم إنا أنزلناه في ليلة القدر . ثم والشمس وضحاها . ثم والسماء ذات

البروج . ثم واليتين والزيوت . ثم لإيلاف قريش . ثم القارة . ثم لا أقسم بيوم القيامة . ثم ويل لكل همزة . ثم والمرسلات عرفاً . ثم ق والقرآن المجيد . ثم لا أقسم بهذا البلد . ثم والسماء والطارق . ثم اقتربت الساعة . ثم ص والقرآن ذي الذكر . ثم الأعراف . ثم سورة الجن . ثم سورة يس . ثم تبارك الذي نزل الفرقان . ثم حد لللائكة . ثم سورة مريم . ثم سورة طه . ثم طسم الشعراء . ثم طس النمل . ثم طسم القصص . ثم سورة بني إسرائيل . ثم سورة يونس . ثم سورة هود . ثم سورة يوسف . ثم الحجر . ثم الأنعام . ثم الصافات . ثم لقان . ثم حم المؤمن . ثم حم السجدة . ثم حم عسق . ثم الزخرف . ثم سبأ . ثم تنزيل الزمر . ثم حم الدخان . ثم حم الشورى . ثم حم الأحقاف . ثم والذاريات . ثم هل أذاك حديث الفاشية . ثم سورة الكهف . ثم سورة النحل . ثم إنا أرسلنا نوحاً . ثم سورة إبراهيم . ثم اقترب للناس حسابهم . ثم قد أفلح المؤمنون . ثم الرعد . ثم والطور . ثم تبارك الذي بيده الملك . ثم الحاقة . ثم سأل سائل . ثم عم يسألون . ثم والنازعات عرفاً . ثم إذا السماء انفطرت . ثم سورة الروم . ثم المكشوكات .

وعن ابن عباس أنه قال : كان القرآن ينزل مفرقاً لا ينزل سورة سورة فأنزل أولها بمكة أئبنتها بمكة ثم إن كان تمامها بالمدينة وكذلك ما نزل بالمدينة وإنه كان يعرف فصل ما بين السورة والسورة إذا نزل باسم الله الرحمن الرحيم فيعلمون أن الأولى قد انقضت واجتدئ أخرى .

الهجرة إلى المدينة

١٢ ربيع الأول (سنة ٦٢٢ م)

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم برصدونه فأخذ حفنة تراب وجعل ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو قوله تعالى يس إلى قوله : ﴿ فَأَعْشَيْنَاهُمْ فِيهِمْ لَا يَبْصُرُونَ ﴾ ثم انصرف فلم يروه . فلما أفاقوا من غشيتهم جعلوا يظلمون فيرون علياً نائماً وعليه برد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولون إن محمداً لناثم . فأقاموا بالباب يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ حتى يقوم في الصباح . فلما أصبحوا قام علي عن الفراش فقالوا له أين صاحبك؟ قال لا أدري فدلوا أن النبي ﷺ قد نجا . فلما على أقام بمكة حتى يؤدى ودائع النبي ﷺ وقصد النبي ﷺ دار أبي بكر رضي الله عنه وأعلمه بأن قد أذن له بالهجرة ، فقال أبو بكر : الصحبة يارسول الله . قال الصحبة فكي أبو بكر رضي الله عنه فرحاً واستأجر عبداً بن أرقطال الديلمي وكان مشركاً ليلدبها إلى المدينة ويتكسب عن الطريق الغلوى . ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أبي بكر وعلي وآل أبي بكر ، وكان خروجه صل الله عليه وسلم من مكة يوم الخميس أول يوم من ربيع الأول وقدم المدينة لثلاثي عشرة خلت منه ، وذلك يوم الاثنين الظاهر لثلاث وخمسين سنة من مولده ٢٨ يونيه (٦٢٢م) وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حين خروجه من مكة إلى المدينة « اللهم إناك

تلم أنهم أخرجوني من أحب البلاد إلى فأسكني أحب البلاد إليك » رواه الحاكم في المستدرک وكان مدة مقامه بمكة بعد البعثة ثلاث عشرة سنة . ثم أتيا الغار الذي بجبل (ثور) على ثلاثة أميال من جنوب غربي مكة ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يستمع لها بمكة ثم يأتيها ليلاً وأمر عمر بن فهيرة موله أن يرعى غنمه نهاره ثم يأتيها بها ليلاً ليأخذها حاجتهما من لبنها وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيها بطعامها فأقاما في الغار ثلاثاً . ولما قدته قریش اتبعوه ومعهم القائف قتاف الأثر حتى وقف عند الغار وقال هنا انقطع الأثر^(١) . وإذا بنسج العنكبوت على فم الغار وقد عشت على بابها حمامتان . فقالت قریش ما وراء هذا شيء . وجعلوا مئة ناقة إن يردده عليهم . فلما مضت الثلاث وسكن الناس أماناً دليلها ببيمرين فأخذ أحدهما رسول الله ﷺ من أبي بكر بالثمن لتسكون هجرته إلى الله بنفسه وماله رغبة منه عليه الصلاة والسلام في استكمال فضل الهجرة إلى الله تعالى . ثم ركبوا وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة يخدمهما في الطريق وأتتهما أسماء بصفة لها وشقت نطاقها وربطت السفرة فسميت « ذات النطاقين » وحمل أبو بكر جميع ماله وكان نحو ستة آلاف درهم وبينهما في الطريق مجردين من كل سلاح بصر بهما سراقا بن مالك بن جشم فاتمهما ليردهما فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت : (غاضت) قوائم فرسه في أرض صلبة . فقال ادع لي يا محمد ليخلصني الله أن أرد عنك الطلب فدعا له نخلص . فدأ بتيها . فدعا عليه الثانية فساخت قوائم فرسه في الأرض أشد من الأولى . فقال يا محمد قد علمت أن هذا من دعائك على قاذع الله أن نجني عما أنا فيه ولك عهد الله أن أرد عنك الطلب . فدعا له نخلص وعاهدهم أن لا يقاتلهم ولا يخبر عنهم وأن يكتم عنهم ثلاث ليال . فرجع سراقا ورد كل من لفيه عن الطلب بأن يقول ماها هنا .

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضى الله عنها قالت :

« فينا نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة^(٢) قال قائل^(٣) لأبي بكر هذا رسول الله ﷺ متقناً^(٤) في ساعة لم يكن يأتينا فيها ، قال أبو بكر فدأ له أبي وأمي والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أمر . قالت عائشة فجاء رسول الله ﷺ فاستأذن فأذن له فدخل فقال النبي ﷺ لأبي بكر أخرج من عندك فقال أبو بكر إنا هم أهلك^(٥) بأبي أنت يا رسول الله قال : فإني قد أذن لي في الخروج^(٦) ، قال أبو بكر العجبة بأبي أنت يا رسول الله . قال رسول الله ﷺ نعم . قال أبو بكر نغذ بأبي أنت يا رسول الله إحدى راحتي هاتين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثمن^(٧) قالت عائشة فجهزناهما أحث الجاهز^(٨) وصنمنا لم سفر في جراب فغطت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها^(٩) فربطت به على فم الجراب فبذلك سميت ذات النطاقين ، وأسماء بنت أبي بكر

(١) لا يخفى أن العرب شهيرة في انقطاع الأثر .

(٢) أول الزوال عند شدة الحر . (٣) في الطبراني أن قائل ذلك أسماء بنت أبي بكر رضى الله عنها . (٤) مغنياً رأسه .

(٥) يريد عائشة وأنها (٦) الخروج إلى المدينة (٧) أى لا تأخذ إلا بالثمن (٨) أحث الجاهز : أسرع ، والجاهز ما يحتاج إليه في السفر وغيره . (٩) النطاق ما يشد به الوسط .

الصدق كانت أسن من عائشة وهي أختها لأبيها وكان عبد الله بن أبي بكر أخا أسماء شقيقا ، قالت ثم لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بنار في جبل نور (جبل بمكة) فكننا فيه ثلاث ليال يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام شاب تنف (١) لقن (٢) فبدلج (٣) من عندهما بسحر فيصبح مع قريش بمكة كبائث (٤) فلا يسمع أمرا يكتادان به (٥) إلا وعاه (٦) حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام ويرى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منعة (٧) من غنم (٨) فيريهما عليهما حين تذهب ساعة من المشاء فيبيتان في رسل وهو لين منتحما ورضيفهما (٩) حتى ينمق بهما (١٠) عامر بن فهيرة بفلس (١١) ، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث . واستأجر رسول الله ﷺ وأبو بكر رجلا من بني الدليل (١٢) وهو من بني عبد بن عدى هاديا خريتا - والخريتا الماهر بالمهابة - قد غس حلقا في آل العاص بن وائل السهمي (١٣) وهو على دين كفار قريش فأمناه فدفعنا إليه براحتيهما ووعدهما غار ثور بعد ثلاث ليال فجاهما براحتيهما صبح ثلاث وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل (١٤) قال سراقة ابن جشم : جاءنا رسل كفار قريش يحملون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره . فبينما أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مدلج إذ أقبل رجل منهم حتى قام علينا ونحن جلوس قتال بإسراقة إلى قد رأيت آتيا أسودة (١٥) بالساحل أراه (١٦) محمدا وأصحابه . قال سراقة ففرت أنهم هم قتل له إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلا تأ ولا تأ فلا تأ انطلقوا بأعيننا ثم لبث في المجلس ساعة ثم قت فدخلت فأمرت جاري أن تخرج بفروسي وهي من وراء أكمة (١٧) فحسبها علي وأخذت رمحي ففجرت به من ظهر البيت فخطت بزج (١٨) الأرض وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها فرضتها تقرب بي حتى دنوت منهم ففترت بي فرسي ففترت عنها فقت فأهويت يدي إلى كنانتي (١٩) فاستخرجت منها الأزلام (٢٠) فاستقسمت بها أضرم أم لا فخرج الذي أكره فركبت فرسي تقرب بي وعصيت الأزلام حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الالتفات ساخت (٢١) يدا فرسي في الأرض حتى لفتنا الركبتين ففترت عنها ثم زجرتها فهبزت فلم تسكد تخرج يديها فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عثان (٢٢) ساطع في السماء مثل الدخان . فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره فناديتهم بالأمان . فوقفوا فركبت فرسي حتى جثمت ووقع في نفسي حين لقيت مالتيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل له إن قومك قد جعلوا فيك الدية وأخبرتكم أخبار ما يريد الناس بهم وعرض

(١) لحلق (٢) لقن : سريع الهم (٣) بدلج : يفرج (٤) كبائث بها ائمة رجوعه بالفلس . (٥) أي يهلك لها ماله الكسوة (٦) وعاه : حفظه . (٧) منعة : شاة تحمل آتاء بالهداة وآتاء بالمضى (٨) من غنم كانت لأبي بكر رضي الله عنه (٩) هو الابن الموضوع فيه المجازاة للمصاة للذهب وعائنه وقفله (١٠) ينمق بها : يزجرها (١١) الفلس ظلام آخر الليل (١٢) هو عبد الله بن أريقط مسفر (١٣) يعني أنه حليف لم وأخذ نصيب من عقدهم ، وكانوا إذا تمألقوا غموا أيديهم في دم أو خالق أو شيء . يكون فيه تلويح فيكون ذلك تأ كيدا للحلف (١٤) أسفل من عصفان (١٥) أسفلا (١٦) أظنها (١٧) أكمة : ربوة مرتفعة (١٨) الج : الحديد الذي في أسفل الريح (١٩) الكنانة : كيس السهم (٢٠) الأزلام مع زلم : أقلام كانوا يكتبون على بعضها اسم وعلى بعضها لا ، وكانوا إذا أرادوا أمرا استقسموا بها فإذا خرج السهم الذي عليه اسم خرجوا وإذا خرج الآخر لم يخرجوا . ومعنى الاستقسام معرفة قسم الخير والفلس (٢١) ساخت : غامت (٢٢) عثان : دخان من نار . (٢٣) - محمد (١٧)

عليهم الزاد واللتاع فلم يرزآني^(١) ولم يسألني إلا أن قالاً أخف عنا فسألته أن يكتب لي كتاب أمن فأمرهم بن
فهيبة فكتب في رقعة من^(٢) أدبهم ثم مضى رسول الله ﷺ . وما وقع لها في الطريق أنها ألقيت طالعة بن عبيد الله
في الطريق وكان راجعاً من تجارة غنماها وكسائها ثياباً بيضاً وقيل لقيها الزبير كذلك ولعلها لقيها معاً أو متعاقبين
فكسواه وأما بكر ما ذكره

* * *

غادر رسول الله مكة مستط رأسه بعد أن سخر به قومور فضوا دعوته وتمسكوا بعقيدتهم القديمة التي ألّفوها
ولم يحكموا عقولهم ، ولم يعترفوا أن عبادة الأصنام من دون الله تعالى كفر . وليس بعد الكفر ذنب ولا
بعد الشرك ضلال . قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

غادر رسول الله مكة وهو آسف لفرار قومه بعد أن صبر على أذاهم وجاهد وكافح سنين طويلة ، فنادرهم
ذلك النور الساطع والعلم الواسع والهمة العالية والنفس الأبية والروح الطاهرة النقية والشخصية الجذابة المحبوبة
والوجه المشرق النائم الابتسام والخلق العظيم والقلم الذي لا ينطق عن الهوى .

فقد غادرهم ذلك الرسول الأمين ، الهادي إلى الصراط المستقيم ، مبلغ رسالات رب العالمين .

ولو علت قرش الحقيقة وتخلوا عن التعصب ، لتسكوا بأهدابهم وتعلقوا بأذيالهم واغترفوا من فيض علمه وبحور
حكيمته وامتدوا بهديه وتخلوا بمحلقته وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة .

إن الرسول بهجرته قد ترك مكة في ظلام دامس فلما وصل المدينة ، أشرقت أنواره في جميع أرجائها فخرج
القوم يستقبلونه بالبشر والسرور ويتساقطون لمشاهدة وجهه الصبوح ويتبركون به ويستضيفونه ويستمعون إلى
حكمه البالغة . وقد عبروا عن شعورهم بذلك النور بقولهم « طلع البدر علينا »

وصوله ﷺ إلى المدينة

وصل رسول الله للمدينة يوم الاثنين من شهر ربيع الأول قرب الظهر . ونزل قباء على كلثوم بن الهدم^(٣)
شيخ بني عمرو بن عوف وهم بطن من الأوس . وقباء قرية على ميلين من جنوب المدينة وهي خصبة بها حدائق من
أعناب ونخيل وتين ورمان وأقام بها رسول الله يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وأسس مسجد قباء وهو

(١) فلم يرزآني : لم يتقصاني

(٢) أدبهم : جلد مدبوخ .

(٣) كلثوم بن الهدم بن امرئ القيس ويرف بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت شيخاً كبيراً أسلم قبل وصول
رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وأقام عنده أربعة أيام وتولى كلثوم قبل بدر بيبر ولم يدرك شيئاً من المشاهد .

الذي أسس على التقوى من أول يوم ، ونزل أبو بكر رضى الله عنه على حبيب بن إسماعيل بالنسخ^(١) ثم قدم على رضى الله عنه ومعه القواطع وأم أيمن وولدها أيمن وجماعتهم ضعفاء المؤمنين بعد أن أدى عن رسول الله الودائع التي كانت عنده إلى الناس ، ولما وصل نزل على كلثوم بن الهدم اقتداء بالنبي ﷺ وكان على رضى الله عنه في طريقه يسير الليل ويكون النهار حتى تفطرت قلعهاء فاعتنقه النبي صلى الله عليه وسلم وبكى رحمة به لما تقدمه من الورم وتقل في يديه وأمرهما على قلعيه فلم يشكهما بعد ذلك ، ثم ركب النبي ﷺ يوم الجمعة يريد المدينة وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف فصلاها في المسجد الذي يبطن الوادي بمن معه من المسلمين وكانوا مئة ومئة أول جمعة صلاها بالمدينة وأول خطبة خطبها في الإسلام ثم ركب راحلته (التصوى) يريد المدينة وأرخص زمامها فكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا قالوا لهم يا رسول الله إلى العدد والعدة والمنة ويعترضون ناقته فيقول خلوا سبيلها فلها مأمرة حتى بركت عند موضع مسجده اليوم وكان مريداً للتمتع^(٢) فلما لم يبق من الليل إلا قليل وسهيل ابن عمرو من بني النجار فلما بركت لم ينزل عنها ثم وثبت فسارت غير بعيد ورسول الله ﷺ واضع لها زمامها لا يشيها به فالتفت خلفها ثم رجعت إلى مبركها الأول فبركت فيه ووضعت جرائنها (مقدم عقبا) فنزل عنها رسول الله ﷺ واحتل أبو أيوب الأنصاري^(٣) رحل ناقته إلى بيته فأقام عنده حتى بنى حجره ومسجده ودعا رسول الله ﷺ صاحباً للريد - وكان غلامين - فساومهما بالريد ليأخذاه مسجداً فقالا بل نهبه لك يا رسول الله فأي أن يقتل منهما مئة حتى اجتاعه منها بمشرة دنائير ذهباً أداها من مال أبي بكر ثم بنى مسجداً وطلق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللين (الطوب النى) في بنيانه ويقول وهو ينقل اللين :

هذا الجمال لاجمال خير هذا أبر ربنا وأطهر^(٤)

ويقول :

إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار وللهاجرة

ثم وادع رسول الله ﷺ اليهود وكتب يمينهم بكتاب صلح وموادعة وسأنى على نص الكتاب فيما بعد وقبل أن يتم رسول الله ﷺ مسجده مات سعد بن زرارة بالذبح والشقة وكان قريبا لبني النجار فطلبوا إقامة قبيب مكانه فقال أنا قبيبكم ولم يخص منهم أحداً دون آخر فكانت من مناقبهم . وأقام رسول الله ﷺ يبنى مسجده

(١) السنج إحدى عمال المدينة (٢) للريد : موضع يجفف فيه الثمر (٣) اسمه خالد بن زيد كليب بن لبلبة بن عوف بن غنم بن مالك ابن النجار الأنصاري الخزرجي المنزجي التجارى شهد العبة وبدراً وأحداً والمنفق وسائر الشاهد وكان مع علي بن أبي طالب رضى الله عنه ومن خاصته وغزا أيام معاوية أرس الروم مع يزيد بن معاوية سنة إحدى وعشرين فتولى عند مدينة القسطنطينية فدفن هناك . (٤) الجمال بكسر الميم الهاء وفتح الميم مخففة . ولأن ذر الجمال بفتح الميم الهاء اللينة أى هذا المحمول من اللين أير عنده الله وأطهر من محمول (خير) الذي يعمل منها الثمر والريب ونحوها التي ينتبط به حاملوه . تتخل بشعر رجل من المسلمين هو عبد الله بن رواحة قال ابن شهاب الزهري : ولم يلحقنا في الأحاديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تتخل بيت شعر تام غير هذا البيت والبيت على الصلبي لإنشاء الشعر لإنشاده .

من ربيع الأول إلى صفر ، فكان مسجداً بسيطاً ، جذرانه من اللبن ، على قاعدة من الحجارة . والسقف من جريد النخل ، مقاما على الجذوع ولم يكن فيه أثر للزخرفة أو النقش وليس به منبر . فكان الرسول يخطب في بادي الأمر بلا منبر .

فرح أهل المدينة بمقدم النبي ﷺ فرحاً شديداً وقابلوه بالأنهاج وصعدت ذوات الخلدور على الأسطحة . ومن عائشة رضى الله عنها : لما قدم رسول الله ﷺ للمدينة جلس النساء والصبيان والولائد يملن جهراً :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع^(١)

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

أيها البعوث فيفا جئت بالأمر المطاع

ولعبت الحبشة بحراهم فرحاً بقدمه صلى الله عليه وسلم . وكانت الأنصار يتقربون إلى رسول الله بالهدايا رجالهم ونسأؤهم .

قال ابن عباس ولد النبي ﷺ يوم الاثنين ، واستنبت يوم الاثنين ، ورفع الحجر الأسود يوم الاثنين ، وقبض يوم الاثنين ، وابتدئ التاريخ في الإسلام من هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة ، وأول من أرخ بالهجرة عمر ابن الخطاب رضى الله عنه سنة سبع عشرة من الهجرة إلا أن التاريخ المجرى يبدأ قبل الهجرة بشهرين . وذلك أنهم جعلوا مبدأ التاريخ الحرام من تلك السنة والنبي ﷺ بعد بمكة ، ثم كانت الهجرة بعد ذلك في ربيع الأول .

ذكر الهجرة في القرآن

قال تعالى : ﴿لَا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَمَانِينَ إِذْ هُمَا فِي مَقَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَمْحِزْنِ إِنَّ اللَّهَ مَنَّآ﴾ وهذا إعلام من الله لأصحاب رسول الله ﷺ أنه للتوكل بنصر رسوله على أعداء دينه وإظهاره عليهم دونهم ، أعانوه أولم يعينوه . إذ يقول لصاحبه ، يقول : إذ يقول رسول الله ﷺ لصاحبه أبي بكر لا تمحزن ، وذلك أنه خاف من الطلب أن يدلوا بمكانها فجزع من ذلك فقال له رسول الله ﷺ لا تمحزن إن الله معنا وإن الله ناصرنا قلنا يعلم للمشركون بنا ولن يصلوا إلينا ، وقد نصره الله على عدوه وهو بهذه الحال من الخوف وقلة العدد .

(١) ثنية معرفة على المدينة بطؤها من يربد مكة ، وهي موضع وداع المسافرين من المدينة إلى مكة

خطبة رسول الله ﷺ

في أول جمعة صلاها بالمدينة

هذا نص الخطبة التي خطبها رسول الله ﷺ في أول جمعة صلاها بالمدينة في بني سالم بن عوف ^(١) .

« الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأومن به ولا أكفره ، وأعادي من يكفره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترت من الرسل وقت من العلم وضلالة من الناس واقطاع من الزمان ودنو من الساعة وقرب من الأجل . من يطلع الله ورسوله قد رشد ، ومن يعصها فقد غوى وفرط وضل ضلالاً بعيداً . وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم ، ثم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ولا أفضل من ذلك نصيحة ولا أفضل من ذلك ذكر ، وأن تقوى الله لمن عمل به على وجل وعقابة من ربه عون صديق على ما ينفون من أمر الآخرة . ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلاية لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن له ذكراً في عاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتر المرء إلى ما قدم ، وما كان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد . والذي صدق قوله وأبجز وعده لا خلف لثلك فإنه يقول عز وجل ﴿ مَا يَبْدُلُ أَقُولُ لَدَيَّ ﴾ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْمَبْدِيِّ ﴿ فاقهوا الله في عاجل أمركم وآجله ، في السر والعلاية فإنه من يتق الله يكثر عنه سيئاته ويعظم له أجر ، ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً ، وإن تقوى الله يوفى مثته وبرق سطخته ، وإن تقوى الله يبيض الوجه ويرضى الرب ويرفع الدرجة . خذوا بحظكم ولا تفرطوا في جنب الله . قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم وعادوا أعداءه ، واجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم للمسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة ولا قوة إلا بالله ، فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفله الله ما بينه وبين الناس ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقصون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم ^(٢) » .

هذه هي أول خطبة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة في أول جمعة وتلاحظ أن رسول الله ﷺ لم يذكر فيها أهل مكة ولا ما كان من عنادهم وإصرارهم على الكفر وإيذانهم المسلمين وتأمرهم على قتله بل قصر خطبته على حوض

(١) صلى رسول الله ﷺ على الله عليه وسلم أول جمعة بالمدينة في المسجد الذي في بطن الوادي بين منه من المسلمين وهم مائة وسمى هذا المسجد بمسجد الجمعة وهو على بين السالك نحو بقاء . (٢) راجع تاريخ الطبري .

للمسلمين على التقوى وتذكيرهم بالله تعالى وهذا في الحق غاية الأدب ومنتهى ما يصل إليه حلم الحليم . ولو كان غير رسول الله لاستغزه الغضب وعند مثالبهم لأنهم الذين خذلوه واضطهدوه وأخرجوه من أحب البلاد إليه وكانوا عقبة في سبيل تبليغ رسالة ربه وقد صدق الله تعالى حيث قال ﴿ وَإِنَّكَ لَكَلِّ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

نعم إن هذا خلق عظيم وأدب كريم ونحن نرى رجال الأحزاب يستعملون في خطبهم أقبح الألفاظ وأشنع الشتائم لأسباب تافهة ومع ذلك يزعمون أنهم قادة وسادة بنشرون العلم والدنية وينشدون الإصلاح والحرية !!

معاهدة رسول الله ﷺ اليهود

قال ابن إسحاق وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدم وأقرم على دينهم وأموالهم وشرط عليهم واشترط لهم :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس للمهاجرين من قريش على ربهم^(١) يتعاقلون بينهم وهم ينفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عوف على ربهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو ساعدة على ربهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الحارث على ربهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو جشم على ربهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على ربهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على ربهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النبيت على ربهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى وكل طائفة منهم تقضى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وأن المؤمنين لا يتركون مغرباً بينهم أن يعاولوه بالمعروف في فداء أو عقل ولا يخاف مؤمن مولى مؤمن من دونه وأن المؤمنين للمؤمنين على من بنى منهم أو ابنتى دسمة^(٢) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان لأحدكم ولا يقتل مؤمن في كافر ولا ينصر كافر على مؤمن . وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم

(١) الرية والرابعة : الحالة التي جاء الإسلام وهم عليها . ويقال فلان يقوم برباعة أهله إذا كان يقوم بأمرهم وشأنهم .

(٢) الماني الأسير ، والمفضل الذي تركه قومه ولم يواسوه .

(٣) الدسمة هي ما يخرج من خلق البعير إذا رغا فاستمارة هنا للعطية وأراد به هنا ما ينال منهم من ظلم .

أدناهم وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا منتصرين عليهم وأن سلم المؤمنين واحدة لا يسلم مؤمن دون مؤمن في قتال سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم وأن كل غزاة غزت معنا تعقب بعضها بعضاً وأن المؤمنين بي^(١) بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله وأن المؤمنين للقتين على أحسن هدًى وأقومه وأنه لا يجير مشرك مالا قريش ولا نكساً ولا يحول دونه على مؤمن وأنه من اعتبط^(٢) مؤمناً قتلاً عن يمينه فإنه قود به إلا أن يرضى ولي القتل وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤوي مؤناً من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم . وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ^(٣) إلا نكسه وأهل بيته وأن يهود بني النجار مثل ماليه يهود بني عوف وأن يهود بني الحارث مثل ماليه يهود بني عوف وأن يهود بني ساعدة مثل ماليه يهود بني عوف وأن يهود بني جشم مثل ماليه يهود بني عوف وأن يهود بني الأوس مثل ماليه يهود بني عوف وأن يهود بني ثعلبة مثل ماليه يهود بني عوف إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نكسه وأهل بيته وأن جفنة بطن من ثعلبة كأفسهم وأن لبني الشظنة مثل ماليه يهود بني عوف وأن البردون الإثم وأن موالى ثعلبة كأفسهم وأن بطانة^(٤) يهود كأفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم وأنه لا ينتجز على ثار جرح وأنه من فكك فينفسه فكك وأهل بيته إلا من ظلم وأن الله على أبر هذا وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وأن يهود النضر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأنه لم يأتهم امرؤ بمخيلة وأن النصر للمظلوم وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ؛ وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار^(٥) يخاف فساداً فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها وأن يبنهم النصر على من دهم يثرب^(٦) وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويأبسونه فإنهم يصلحونه ويأبسونه وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإنه لم على المؤمنين إلا من حارب في الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر الحسن من أهل هذه الصحيفة وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم وأثم ، وأنه من خرج آمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وأن الله جار لمن بر وأتقى ومحمد الله صلى الله عليه وسلم .

(١) بي : يجمع ويكف (٢) اغتبط : إذا قتل من غيرى ، يوجب قتله (٣) لا يوتغ : لا يهلك (٤) بطانة الرجل : خاصته وأهل سره (٥) الاشتجار : الاختلاف ، يقال اشتجار القوم إذا اختلفوا . (٦) من دهم يثرب : يريد من قجأها . يقال دهمهم الخيل تدهمهم

الخزرج والأوس

وما كان بينهما وبين اليهود

الخزرج والأوس ما قبيلتان مشهورتان من العرب في يثرب وقد لقبهم رسول الله ﷺ بالأنصار لما هاجر إليهم لأنهم هم الذين نصره ومنعوه . وقد مر ذكرهم في بيعتي العقبة الأولى والثانية ولا شك أن الباحث يشاق إلى الوقوف على تاريخ هاتين القبيلتين ، وما كان بينهما وبين اليهود من علاقات وحروب لأن ذلك يساعده على فهم تاريخ سكان المدينة ، وعلى موقف الأنصار واليهود إزاء الإسلام والمسلمين وليكون على بينة من أمرهم عند ذكرهم في الحوادث التي وقعت بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة .

خزرج وأوس أخوان أبوهما حارثة بن ثعلبة العقفاء ، بن عمرو مزيقياء بن عامر بن ماء السماء بن حارثة الغطريف ابن امرئ القيس البطريق بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن النوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وأم أوس وخزرج قبيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد من قضاة ولذلك يقال لها ابنة قبيلة . وكان منهما قبيلتان مشهورتان عظيمتان من العرب في يثرب تذكرا أن غالباً معاً يقال الأوس والخزرج . لكن غلب اسم الخزرج وسبوا أيضاً الأنصار لأنهم أول من قام بنصرة النبي ﷺ وساعدوه في حروبه وأووه إلى أرضهم .

أما أصلهم فقد جاء في كتب السير ، أنه لما خرج مزيقياء من اليمن بعد تفريق أهل سبأ ، بسيل العرم^(١) ملك غسان بالشام ثم هلك وملك ابنه ثعلبة العقفاء . ولما هلك ملك بعده عمرو ابن أخيه جفنة فسخط مكانه ابنه حارثة وأجمع الرحلة إلى يثرب ونزل على يهود خيبر وسألهم الخلف والجوار على الأمان والمنعة فأعطوه من ذلك ما سأل وقيل لما سار ثعلبة بن عمرو بن عامر في من معه اجتازوا يثرب فمتخاف بها أوس وخزرج ابنا حارثة فيمن معها فزول بعضهم بضرار وبعضهم بالقرى مع أهلها ولم يكونوا أهل نعم ولا شاة لأن البلاد لم تكن بلاد مرعى ولا تفلح لهم ولا زرع إلا الأعذاق اليسيرة فكانوا يحمون الأرض الموات ويترعونها والأموال اليهود فلبثوا حينئذ آمن الدهر على ذلك وهم في ضيق مال وسوء حال ، ثم قدم منهم مالك بن عجلان على أبي جبيلة الغنصاء فسأله عن حالهم فأخبره بضيق معاشهم : فقال : ما بالك لا تغلبونهم كما غلبنا أهل بلدنا ووعدته أنه يسير إليهم فينصرهم فرجع مالك وأخبر

(١) أثبتت بحوث الأستاذ جليزر Glosser في سنة ١٨٩٦ أن السيل قد حدث وتكرر حدوده وقد أهمل البدقشأ عن ذلك تصدع جوانبه ويرى الأستاذ ولقدسون أن سيل العرم ليس هو السبب الوحيد في هجرة جميع البطون الأزدية إلى شمال الجزيرة بل لابد أن تكون هناك أسباب أخرى .

قومه بوعد أبي جبيلة فاستعدوا له ، وقدم عليهم وخشى أن يتحصن منه اليهود فاعتذ حائراً ^(١) وبث إليهم فبال خواسمهم وحشمهم وأذن لهم في دخول الحائر ثم أمر جنوده قتلهم عن آخرهم . وقال للأوس والخزرج : إذا لم تغفلوا على البلاد بعد قتل هؤلاء فلا تحرقكم ورجع إلى الشام . فأقاموا في عداوة مع اليهود ثم صنع لهم مالاً بن عجلان طعاماً ودعاهم فامتنعوا خوفاً من القدر فاعتذر إليهم مالاً عن فعل أبي جبيلة ووعدهم أنه لا يقصد مثل ذلك فأجابوه وجاءوا إليه فقدرهم وقتل ٨٧ من رؤسائهم وفر الباقون وصورت اليهود مالاً في كنانهم وبيعهم وكانوا يلعنونه كلما خلوا .

وذكر ابن الأثير رواية أخرى وهي أن اليهود كان لهم ملك اسمه الفيلون وكان ثالماً فلسقاً . وقد سن سنة أن كل امرأة تزوج يدخل عليها قبل زوجها . فاتفق يوماً زفاف أخت مالك هذا فأنت مجلساً فيما خوها وكشفت عن ساقها . فقال لها أخوها : قد أنيت بسوء . قالت : الذي يراد بي الليلة أشد من هذا فثارت النخوة في رأسه واحتال على الدخول معها عند الملك في زى امرأة فلما خلا المكان قتله ^(٢) وفر إلى أبي جبيلة ولم يكن هذا ملكاً لناس بل معظماً عند ملوك غسان وقد ذلوا بعد هذه القصة وخافوا ولجأ كل قوم إلى بطن من الأوس والخزرج يستقرون بهم ويكونون لهم أخلاقاً ، وعظم شأن مالاً وسوده الحيان . ولم يمض زمان طويل حتى أثرى الأوس والخزرج وامتنع جانبهم وقد تناسلوا وتكاثروا وتشعبوا عدة بطون فكان بنو الأوس كلهم للمالك بن الأوس فمنهم خطبة بن جشم بن مالك وعلبة ولوزان وعوف كلهم بنو عمرو بن عوف بن مالك . ومن بني عوف حنش ومالك وكلفة . ومن مالك معاوية وزيد . ومن زيد عبيد وضبيعتو أمية ومن كلفة جججيا . ومن مالك بن الأوس الحارث وكعب ابنا الخزرج بن عمرو بن مالك . فن كعب بنو ظفر . ومن الحارث بن الخزرج حارثة وجشم . ومن جشم بنو عبد الأشمل . ومن مالك بن الأوس أيضاً بنو سعد وبنو عامر ابنا مرة بن مالك فبنو سعد الجعادرة . ومن بني عامر عطيقة وأمية ووائل بنو زيد بن قيس بن عامر . ومن مالك بن الأوس أيضاً أسلم وواقف ابنا امرئ القيس بن مالك . فهذه بطون الأوس كما ذكر ابن خلدون .

وأما الخزرج فحفصة بطون من كعب وعمرو وعوف وجشم والحارث .

١ — فن كعب بن الخزرج ، بنو ساعدة بن كعب .

٢ — وعمرو بن الخزرج بنو النجار وهم : تيم الله بن ثعلبة بن عمرو وهم شعوب كثيرة : بنو مالك وبنو عدى

(١) الحائر : هو المكان المظلم الوسط الارتفاع الجوانب (٢) قتل الأستاذ ولمسون في كتابه تاريخ اليهود في بلاد العرب هذه القصة عن خلاصة الوفا وقال إنها خرافية لأنه ليس من المقول أن ملكاً يهودياً يرتكب جريمة متكررة كهذه ناقض روح التوراة وتحالف الإيمان بالله موسى دون أن يجد مقاومة عنيفة وإنكاراً شديداً من شعبه وأبناء جلدته وقال ومن التريب أن قصة كهذه تأنس قصها الطبري عن طمس وجديس وأنكر الأستاذ ولفسون أيضاً القصة الأولى الخاصة بمالك بن العجلان بعد أن قلنا عن الأعلى . وعلى كل حال لم يكن اليهود والخزرج على وفاق بل كانوا في شقاق في هذه السنة بسبب أن اليهود كانوا أصحاب الأموال والخزرج والأوس لبثوا حيناً من الدهر وهم في عسر .

وبنو مازن وبنو دينار ، كلهم بنو النجار . ومن مالك بن النجار ، مبدول واسمه عامر وغانم وعمر : ومن عمرو عدلى ، ومعاوية .

٣ - ومن عوف بن الخزرج ، بنو سام والقواقل وما : عوف بن عمرو بن عوف والقواقل ثعلبة ومرضخة بنو قوقل بن عوف ، ومن سالم بن عوف ، بنو المجلان بن زيد بن عصم بن سالم وبنو سالم بن عوف .

٤ - ومن جشم بن الخزرج بنو غضب بن جشم وي زيد بن جشم . فمن غضب بنو بياضة وبنو زريق وبنو عامر بن زريق بن عبد حارثة بن مالك بن غضب . ومن يزيد بن جشم بنو سلمة بن سعد بن علي بن راشد بن ساردة بن يزيد .

٥ - ومن الحارث بن الخزرج ، بنو خندرة وبنو حرام ابني عوف بن الحارث بن الخزرج . فلما ضلوا ماضوا باليهود واعتزوا وكثروا ففرقوا في عالية يثرب وسافلتها وملكوا أمرها في حلفهم من جاورهم من قبائل مضر ثم قامت الفتن بين الحيين وكل منهم يستنصر بمن حاله من مضر واليهود ورحل عمرو بن الإطابة من الخزرج بن للنذر ملك الحيرة فلكه على الحيرة واتصلت الرياسة للخزرج والحرب بينهم وبين الأوس

العداوة بين الأوس والخزرج

كانت أول فتنة وقتت بين الأوس والخزرج « حرب سمير » وذلك أن رجلاً حليفاً يقال له كعب فاخر الأوس بشيء فغضب منهم رجل يقال له سمير وشتمه ثم رصده حتى خلا به فقتله فغضب مالك بن عجلان وطلب الرجل من عشيرته فأ نكروا معرفته وعرضوا عليه الدية قبلها فأرسلوا إليه نصف دية لأن الرجل حليف لأنسيب فأبى إلا دية كاملة فامتنوا ولج الأمر حتى أفضى إلى الحاربة فقاتلوا مرتين كانت النصر في الثانية منهما الأوس فلما افرقوا أرسلت الأوس إلى مالك أن حكم بيننا للنذر بن حرام النجاري الخزرجي وهو جد حسان بن ثابت فأجابهم إلى ذلك فحكم بأن يؤدى الأوس إلى مالك دية الصريح ثم يمدون إلى ستمتهم القديمة فرضوا بذلك وافترقوا وقد شبت البغضاء في قلوبهم وتمكنت العداوة بين القبيلتين .

ثم إن كعب بن عمرو المازني الخزرجي تزوج امرأة من بنى سالم فأمر أحيحة بن جلاح رئيس بنى جحجامان الأوس جماعة أن يرصدوه ويقتلوه فعملوا فدعا أخوه عامر قبيلته للنصرة فاستعملوا والتقواهم والأوس واقتتلوا قتالا شديداً فانهزمت بنو جحججا وانهزم أحيحة فركض وراءه عامر فأدركه وقد دخل الحصن وأغلقه فرماه بسهم فلم يصبه فقتل أخاً له فزعم أحيحة أن يكبس بنى النجار وكان متزوجاً بامرأة منهم فلم يرهم بذلك وخافت على قومها فارتدت إليهم ليلاً وقد نام أحيحة بعد سهر طويل وأنذرتهم فلما هم أحيحة إذا هم على سلاحهم فلم يقدر عليهم فغضب امرأته حتى كسر يدها لما يلته ما فلتت وطلقتها .

ثم كانت حرب بين بنى وائل بن زيد من الأوس وبنى مازن بن النجار من الخزرج . وذلك أن الحديين بن الأسلت الأوسى نازع رجلا من بنى مازن وقتله فقبضه قوم من بنى مازن فقتلوه فبلغ ذلك أخاه أبا قيس بن الأسلت فجمع قومه وانضمت الأوس والخزرج كلها فاقتتلوا قتالا شديداً فانهمزت الأوس .

ثم كانت حرب بين بنى ظفر من الأوس وبنى مالك بن النجار من الخزرج ، وذلك أن رجلا من ظفر كان يمر إلى أرضه في أرض رجل من بنى النجار فتمنع ففازعه فقتله الظفري فاجتمع قومه وقاتلوا فانهزم بنو مالك بن النجار .

ثم إن رجلا من بنى النجار أصاب غلاماً من قضاة وقته وكان عم النيلام جاراً لمعاذ بن النعمان الأوسى فطلب معاذ دية من بنى النجار فامتنعوا فلقبهم بقومه عند فارح أطم^(١) حسان بن ثابت ولم يزل القتال بينهم حتى حل الدية إليه عامر بن الإطناية فاصطالحوا حالا .

ثم كانت الوقعة المعروفة بمحاطب وهو حاطب بن قيس من بنى أمية بن زيد بن مالك بن عوف الأوسى وبينها وبين حرب سمير بنحو مائة سنة وكان سبب هذه الحروب أن حاطباً كان رجلاً شريفاً سيداً فأتاه رجل من بنى ثعلبة بن سعد بن ذبيان فزول عليه ثم إنه غدا يوماً إلى سوق قينقاع فرآه يزيد بن الحارث المعروف بابن فصح وهو أمه وهو من بنى الحارث بن الخزرج فقال يزيد لرجل يهودى لك ردائي إن كسفت هذا الثعالب فأخذ رداءه وكسبه^(٢) كسمة سمها من بالسوق فنادى الثعالب يا حاطب كسع ضيفك وفضح . وأخبر حاطب بذلك فجهأ إليه فسأله من كسبه فأشار إلى اليهودى فضربه حاطب بالسيف فقاتل هامة فآخبر ابن فصح الخبر وقيل له قتل اليهودى قتله حاطب ، فأسرع خلف حاطب فأدركه وقد دخل بيوت أهله فلقى رجلاً من بنى معاوية فقتله (ولاندرى السبب الذى دعا ابن فصح أن يمرض ذلك اليهودى على ضرب الثعالب في دبره) فثارت الحرب بين الأوس والخزرج وكان الظفر فيها للخزرج وهذا اليوم من أشهر أيامهم ، وكان بعده عدة وقائع كلها من حرب حاطب فنها يوم الربيع ، ويوم البقيع ، والفجار ، الأول والثاني ، ويوم بعث وهو آخر الأيام بينهم .

وفى يوم الفجار الثاني حالقت قريظة والنضير الأوس على الخزرج وجرى بينهم قتال سعى ذلك اليوم يؤم النجار الثاني ، وسبب حرب يوم بعث هو أن قريظة والنضير جددا اليهود مع الأوس على المؤازرة والتناصر واستصحب أمرهم وجدوا في حربهم ودخل منهم قبائل من اليهود غير من ذكرنا فلما سمعت بذلك الخزرج جمعت وحشدت وأرسلت حلفاءها من أشجع وجهينة وأرسلت الأوس حلفاءها من مزينة ومكثوا أربعين يوماً يتجهزون للحرب بوالثقوا (ببمات) وهى من أعمال قريظة . وعلى الأوس حضير الكاتب والد أسيد بن حضير وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البيضاء وتختلف عبد الله بن أبى ابن سلول فيمن تبعه عن الخزرج . وتختلف بنو حارثة بن الحارث

(١) الأطم : الحسن . (٢) كسه : ضرب دبره بيده .

من الأوس . فلما التقوا اقتتلوا قتالا شديداً وصبروا جميعاً ، ثم إن الأوس وجدت من السلاح ، فولوا منهزمين نحو المريض فلما رأى حضير هزيمتهم برك وطمعن قدمه بسنان رعبه وصاح واعتراه كقر الجبل والله لا أعود حتى أقتل فإن شئت يامعشر الأوس أن تسلموني فافعلوا ، فمطقوا عليه وقتلوا عنه غلامان من بني عبد الأشهل يقال لهما محمود ويزيد ابنا خليفة حتى قتلا وأقبل سهم لا يدري من رمى به فأصاب عمرو بن النعمان البياضى رئيس الخزرج فقتله فينما عبد الله بن أبي ابن سلول يتردد راكباً قريباً من بعث يتجسس الأخبار إذ طلع عليه بمرؤ بن النعمان قتيلاً في عباءة يحمله أربعة رجال كما كان قال له . فلما رآه قال ذق وبال البنى . وانهزمت الخزرج ووضعت فيهم الأوس السلاح فصاح صائح يامعشر الأوس أخصنوا ولا تهلوا إخوانكم فجوارهم خير من جوار الثعالب فانتهوا عنهم ولم يسلبوهم وإنما سلبهم قريظة والنضير وحملت الأوس حضيرا مجروحاً فأت وأحرق الأوس دور الخزرج ونخيلهم فأجار سعد بن معاذ الأنصلي أموال بني سلمة ونخيلهم ودورهم جزاء بما فعلوا له في الرعل ، ونجى يومئذ الزبير بن إياس بن باطا ثابت بن قيس بن شماس الخزرجى أخذه فجز ناصيته وأطلقه ، وهى اليد التى جازاه بها ثابت في الإسلام يوم بنى قريظة .

الخلاصة

تبين لنا من تاريخ الخزرج والأوس أنهما ابنا حادثة بن لعابية العنقاء بن عمرو مزيقياء الذى خرج من اليمن بعد تفرق أهل سبأ بسبيل العرم وأن هذا السيل ليس خرافة بل حدث مراراً وخرب السد ففرقت البلاد . وقد لبث الخزرج والأوس حيناً من الدهر مع اليهود يحيمون الأرض الموات ويزرعونها وهم في عسر شديد وكان اليهود هم أرباب الأموال فحدث نزاع وشجار بينهم وبين اليهود وهو أشبه شئ بالثورات التى حدثت بين المزارعين أو العمال والمتولين في القرون الأخيرة .

ثم نشبت حروب بين الأوس والخزرج فثارة كان النصر فيها للخزرج وأخرى للأوس وكان الفقر في أكثرها للخزرج . وأخيراً حالقت قريظة والنضير الأوس على الخزرج وانضم بنو قينقاع إلى الخزرج على أن تلك الحروب الطاحنة بين القبيلتين الأخنين كان سببها - بناء على ما وصل إلينا من تاريخها - حزازات شخصية كان في الإمكان ملاقاتها . لكن الدماء اشتد بينهما لما في طبيعة العرب من التمسك بالأخذ بالثأر . وقد بلغت العداوة بين الخزرج والأوس مبلغاً عظيماً قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة . وآخر الحروب بينهم يوم بعث الله هزم فيه الخزرج وكان حوالى سنة ٦١٦ م فلما سثموا القتال أجمعوا على تتويج عبد الله بن أبي ابن ^(١) سلول ملكاً عليهم وابن سلول هذا هو للقب برأس المناقير وكان رئيس الخزرج ولما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرعاً على النفاق والضغن فكان رأس المناقير وإليه يجتمعون . وقد حسد النبي لأن الإسلام منع تتويجهم وأخذته

(١) يقال عبد الله بن أبي ابن سلول بتثوين أبى ، وكتابه ابن سلول بالألف ، ويرب إعراب عبد الله لأنه صفة لا لأبى .

العمة فاضهر الشر وهو الذي قال في غزوة المصطلق ﴿لَنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ قال ابنه عبد الله للنبي هو والله الدليل وأنت العزيز يا رسول الله إن أنت أذنت لي في قتله قتلته فوالله لقد علمت الخنزرج ما كان بها أحد أبر بوالده مني . ولكنني أخشى أن تأمر به رجلا مسلما فيقتله فلا تدعى نفسي أنظر إلى قاتل أبي يمشي على الأرض حيًّا حتى أقتله . قال صلى الله عليه وسلم : بل نحسن محبته ونترقب به ما يحبنا ولا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ولكن بر أباك وأحسن محبته .

ولما أنعم الله على الخنزرج والأوس بنعمة الإسلام اتفقت الكلمة واجتمع الشمل وتأخى الفريقان فوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمهما لقبهما بالأنصار لأنهم نصره . وتوحيد الاممين تحت راية الإسلام كان له أعظم أثر في النفوس ؛ إذ بذلك امتنع الشقاق وتصافت النفوس وساروا جميعاً نحو غرض واحد ومبدأ واحد ونشر الإسلام جاء في دائرة المعارف الإسلامية في مادة أنصار (Ansar) : «لكن محمداً أراد أن يشابه بين كلمة الأنصار والنصارى للعلامة على المسيحيين » وهذا خطأ واضح لأن كلمة أنصار جمع نصير أما نصارى فنسبة إلى قرية بالشام تسمى ناصرة أو نصران وفوق ذلك فإن سبب تسمية الخنزرج والأوس بالأنصار معروف وهو لأنهم نصره صلى الله عليه وسلم وقد جل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التشبه والتقليد .

مدينة يثرب

سميت يثرب بعد الإسلام بالمدينة ، مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي عبارة عن جملة قرى تقع في سهل خصب وبينها وبين مكة ٢٠٠ ميل وهي في شمالها . جاء في معجم البلدان لياقوت « إن لهذه المدينة تسعة وعشرين اسماً » ثم سردها . وكذا أحصى المجد الشيرازي اللغوي نحو ثلاثين اسماً وذكر السهوي في كتاب (وفاء الوفا) أربعة وتسعين اسماً وقال إن كثرة الأسماء تدل على شرف للمسى وتدل ابن زبالة أن عبد العزيز بن محمد الدراوردي قال : بلغني أن للمدينة في التوراة أربعين اسماً .

فمن أسماها أثرب كسجد ويثرب : قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ والبلد . قال تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ ودار الهجرة والسنة وطيبة وطابة وقرية الأنصار ومدينة الرسول ومضجع الرسول وأكالة البلدان واللياركة والمسكنة والمذراء والبارة والفاضحة^(١) .

أما قدرها فهي في مقدار نصف مكة وهي في حرة سبخة ولها نخيل كثير ومياه ، ونخيلهم وزروعهم تنقى من الآبار عليها العبيد وللمدينة سور والمسجد في نحو وسطها وقبر النبي ﷺ في شرق المسجد وهو بيت مرتفع وليس بينه

(١) لأن من أضر فيها شيئاً من سوء أظهر الله ما أضره وانفض به .

وبين سقف المسجد إلا فرجة وهو مسدود لا باب له وفيه قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقبر أبى بكر وقبر عمرو والنبي الذي كان يخطب عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غشى بمنبر آخر والروضة أمام المنبر بينه وبين القبر ومصلاه صلى الله عليه وسلم الذي كان يصل فيه الأعياد في غربي المدينة داخل الباب .

و (يتبع الفرقه) خارج المدينة من شرقها وهو مدفن أكثر أمواتها ^(١) و (قباه) خارج المدينة على نحو ميلين إلى ما على القبلة وهي شبيهة بالقرية و (أحد) جبل في شمال المدينة وهو أقرب الجبال إليها مقسدار فرسعين وقربها مزارع ونخيل وضياح لأهل المدينة (وادى العقيق) فيما بينها وبين القرع و (القرع) من المدينة على أربعة أيام في جنوبها . وبها مسجد جامع غير أن أكثر هذه الضياح خراب وكذلك حوالى المدينة ضياح كثيرة أكثرها خراب . وأعذب مياه تلك الناحية آبار العقيق .

وحرم رسول الله ﷺ شجر المدينة بريداً في بريد من كل ناحية ورخص في المشى وفي متاع الناضح ونهى عن الخبط (ضرب الشجر بالعصا ليقترها) وأن يعصد ويهصر . ولم تكن المدينة بلداً خصباً مشراً ، إنما كان بها بعض النخيل والماشية ومن خصائص المدينة أنها طيبة الريح وللطر فيها فضل رائحة لا توجد في غيرها وتمرها الصبحاني لا يوجد في بلد من البلدان مثله ولمحب اللبان ومنها يحمل إلى سائر البلدان . وجبلها أحد قد فضله رسول الله ﷺ قال « أحد جبل يحبنا ونحبه وهو على باب من أبواب الجنة » وحجارة أحد من الجرايت .

الساقت . من المدينة إلى مكة نحو عشر مراحل ^(٢) ومن الكوفة إلى المدينة نحو عشرين مرحلة وطريق البصرة إلى المدينة نحو من ثمان عشرة مرحلة ويلتقى مع طريق الكوفة بقرب معدن النقرة ومن الرقة إلى المدينة نحو من عشرين مرحلة . ومن البحرين إلى المدينة عن طريق الساحل .

. ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة وجد أهلها من أخبت الناس كيلاً فأنزل الله تعالى « ويل للمطففين الآية » فأحسنوا الكيل بعد ذلك .

مرض المهاجرين بحمى المدينة

حاول رؤساء قريش منع المسلمين من الهجرة إلى المدينة لكنهم استطاعوا الهجرة بعد بضعة أسابيع وقد اعتاد المهاجرون جو مكة الجاف فلما قدموا المدينة أصيب أكثرهم بالحمى وربما كانت انفلونزا أو ملاريا لأن صيفها رطب وشتاها قارس والمطر دائم تقريباً . قالت عائشة « لما قدم رسول الله ﷺ المدينة وهي أول أرض أصاب أصحابه منها بلاء وسقم . وصرف الله ذلك عن نبيه ﷺ وأصابته الحمى أبا بكر وبلاؤا وطاهر بن فهيرة . فاستأذنت

(١) وبه قبر إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وسلم وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب وإلى جانبه قبر العباس وقبر عثمان وقبر مالك بن أنس إمام المذهب المعروف . (٢) تبلغ الرحلة عشرين ميلاً .

- ١٤٣ -

رسول الله ﷺ في عبادتهم وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب من شدة الحى فأذن لى فدخلت عليهم ومم فى بيت واحد فوجدتهم يهذون من شدة الحى فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت فنظر إلى السماء وقال : « اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، اللهم بارك لنا فى صاعنا ومدنا وصحبنا لنا واهل مُحَمَّدًا إلى الجحفة »^(١) فاستجاب الله له فطيب هواءها وترابها وسكنها والعيش بها ، وكان أبو بكر إذا أخذته الحى أنشد :

كل امرئ مصيب فى أهله وللوت أدنى من شركه

وهذا من شعر حنظلة بن يسار وليس من شعر أبى بكر . وحى المدينة كانت لللاريا لما كان يحيط بها من البرك والآبار حتى إن الجمال كانت تمرض من الشرب منها وكانت قرش تسيب على أهل يثرب ما يترهبهم من الحى وتسايط اليهود عليهم وتسمى الحى (أم ملهم) قال رسول الله ﷺ لزيد الخليل وكان قد أتى مع وفد طمى وأسلم « يا زيد تقتلك أم ملهم » يعنى الحى فأصيب بها أثناء الطريق عند عودته ومات بها .

مسجد رسول الله ﷺ

قال ابن عمر كان بناء المسجد على عهد رسول الله ﷺ وسقته جريد وعمده خشب النخل فلم يزد فيه أبو بكر شيئا فزاد فيه عمر وبناءه على ما كان من بنائه ثم غيره عثمان وبناءه بالحجارة المنقوشة والفضة وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقته ساجا وزاد فيه .

وفى الصحيح فى ذكر بناء المسجد : وكنا نحمل لبنة لبنة وعمار^(٢) لبتين لبتين فراءه النبي ﷺ فجعل ينفذ التراب عنه ويقول « ومع عمار قتله القنعة الباغية » .

وروى البيهقى فى الدلائل عن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال لما بنى النبي ﷺ للمسجد وضع حجرا ثم قال ليضع أبو بكر حجره إلى حجرى ثم ليضع عمر حجره إلى جنب حجر أبى بكر ثم ليضع عثمان حجره إلى جنب حجر عمر . قال رسول الله ﷺ هؤلاء الخلفاء من بعدى .

وعن مكحول قال : لما كثر أصحاب رسول الله ﷺ قالوا اجعل لنا مسجدا فقال خشبات وثلمات عريش كمرش أخى موسى صلوات الله عليه . الأمر أجل من ذلك . ورواه رزين وزاد فيه : فطفقوا ينقلون اللبن وما يحتاجون إليه ورسول الله ﷺ ينقل معهم الخ (التمائم ما ليس من الأغصان) .

وكان الذين أسسوا المسجد جعلوا طوله مما إلى القبلة إلى مؤخره مائة ذراع وجعل قبلته إلى بيت المقدس ، وجعل له ثلاثة أبواب ، باب فى مؤخره وهو فى جهة القبلة إلى اليوم وباب عاتكة الذى يدعى باب عاتكة ويقال له

(١) الجحفة قرية قريبة من رابع محل إلهرام من يمين من جهة مصر حابا وكان سكانها ذاك من اليهود .

(٢) هو عمار بن ياسر وقد قتل يوم صفين وكان يجارح مع على بن أبى طالب وقد جاوز التسعين .

بل الرحمة . والباب الذى كان يدخل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو باب آل عثمان اليوم وهذا الباب لم يبق
بعد أن صرفت القبلة ، ولما صرفت القبلة سد رسول الله صلى الله عليه وسلم الباب الذى كان خلفه وفتح هذا الباب
ومحاذيه هذا الباب الذى سد .

ولما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجده ، بنى بيتين لزوجتيه عائشة وسودة رضى الله عنهما على نمت بناء المسجد من اللبن
وجريد النخل ، وكان لبيت عائشة مصراع واحد من عرعر (شجر السرو) أو سلاج . ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم
بنى لمن حجرأ وهى تسعة أبيات وذلك فى أوقات مختلفة . وحجر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليست من المسجد ولكن
أبوابها شارة فى المسجد .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحط إلى جذع يتكىء عليه فقالت امرأة من الأنصار أو رجل يارسول الله ألا نجعل
لك منبرأ ؟ قال إن شئتم ، فجعلوا له منبرأ . ولما فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الجذع وصعد المنبر ، حنَّ الجذع وسمع له صوت
كصوت المثار فقال النبي صلى الله عليه وسلم ألا تعجبون من حين هذه الخشبة ؟ فأقبل الناس عليها فسمعوها من حينها حتى
كثر بكاءهم فنزل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فضمه فسكن .

وفى صحيح البخاوى عن ابن عمر . قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يحط إلى جذع فلما اتخذ المنبر تحول إليه فحنَّ الجذع
فأناه فمسح بيده عليه .

ولا شك أن حين الجذع من معجزاته صلى الله عليه وسلم وحديث الجذع مشهور رواه من الصحابة بضعة عشر . وكان
المنبر من خشب الأثل ومن درجتين وله مجلس .

وذكر ابن بطوطة فى رحلته « الجذع » قال :

« دخلنا الحرم الشريف واتبعنا إلى المسجد الكرم فوقفنا بباب السلام مسلمين وصلينا بالروضة الكريمة
بين القبر والمنبر الكرم واستلمنا القطعة الباقية من الجذع الذى حنَّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى ماصدة بمود قائم
بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة » وقال عند ذكر القبر الكريم :

« وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحط إلى جذع نخلة بالمسجد فلما صنع له المنبر وتحول إليه ،
حن الجذع حينئذ الناقة إلى حوارها . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل إليه فاتزمه فسكن وقال لو لم أتزمه
لحن إلى يوم القيامة . واختلفت الروايات فيمن صنع المنبر الكرم فروى أن تميا البارى رضى الله عنه هو الذى
صنعه . وقيل إن غلاما للعباس رضى الله عنه صنعه . وقيل غلام لامرأة من الأنصار وورد ذلك فى الحديث الصحيح
وصنع من طرفه الناقة وقيل من الأثل وكان له ثلاث درجات فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد على عليان ويضع
رجليه الكريمين فى وسطاهن . فلما ولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، قعد على وسطاهن ووضع رجله على
أولاهن . فلما ولى عمر رضى الله عنه جلس على أولاهن ووضع رجله على الأرض . وفصل ذلك عثمان رضى الله عنه

صدراً من خلافته ثم ترقى إلى الثالثة ولما أن صار الأمر إلى معاوية رضى الله عنه أراد نقل المنبر إلى الشام فضع المسلمون فلما رأى ذلك معاوية ، تركه وزاد فيه ست درجات من أسفل فبلغ تسع درجات .

ولما حج الهلدي بن المنصور العباسي سنة ٢٦١ أراد أن يعيده إلى ما كان عليه فأشار عليه الإمام مالك بتركه خشية التهاافت فتركه . ويقال إن المنبر الذي صنعه معاوية ورفع منبر النبي ﷺ عليه ، تهافت على طول الزمان وجدده بعض خلفاء بني العباس واتخذ من بقايا أعواد منبر النبي ﷺ أمشاطاً للتبرك ثم احترق هذا المنبر لما احترق المسجد في مستهل رمضان سنة ٦٥٤ أيام المستعصم بالله واشتغل المستعصم عن عمارته بقتال التتار فعمل المنظر صاحب المنبر المنبر وبعث به إلى المدينة سنة ٦٥٦ فنصب في موضع منبر النبي ﷺ فبقى إلى سنة ٦٦٦^(١) .

تزوج النبي ﷺ

بمأثشة رضى الله عنها

عائشة رضى الله عنها هي بنت أبي بكر الصديق وأما أم رومان بنت عامر بن عويمر . ولدت في السنة الثامنة أو التاسعة قبل الهجرة (٦١٣ - ٦١٤ م) أسلمت صغيرة وتزوجها رسول الله ﷺ بمكة في شهر شوال قبل الهجرة ودخل بها في المدينة في منزل أبي بكر بالسنع بعد الهجرة بثمانية أشهر في شهر شوال وكان صداقها أربعمائة درهم وكانت أحب نسائه إليه وكنيتها أم عبد الله . كنيته بابن أختها أسماء وهي أم عبد الله بن الزبير وكان يدعوها أمًا لأنه تربى في حجرها وروت عن النبي ﷺ أكثر من ألف حديث وكانت من أكبر النساء عقلاً . فصيحة السكّام صحيحة المنطق ، تحفظ كثيراً من القصائد ، كريمة لا تدخر شيئاً . أحفظ أهل زمانها للحديث وقد روت عنها الرواة من الرجال والنساء .

وأثبت بعض المؤرخين أن عائشة كان لديها نسخة من القرآن^(٢) ، وقبض رسول الله ﷺ وهي بنت ثمانى عشرة ولم يتزوج بكراً غيرها وقبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجرها ودفن في بيتها وتوفيت سنة سبع وخمسين للهجرة ليلة الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان (١٣ يولية سنة ٦٧٨ م) وقد قاربت سبعمائة وستين سنة وصلى عليها أبوهريرة بالبقيع ودفنت ليلاً وذلك زمن ولاية مروان بن الحكم على المدينة خلافة معاوية وكان مروان استخلف أبا هريرة لما ذهب إلى العمرة في تلك السنة .

روى القاسم بن محمد عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : فضلت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بمشرك خصال : تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم بكراً دون غيري . وأبواي مهاجران . وجاء جبريل عليه السلام

(١) صبح الأعشى الجزء الرابع ص ٢٨٨ .

(٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية تحت اسم عائشة (Aisha) .

- ١٤٦ -

بصورتي في حريرة . وأمره أن يتزوج بي . وكنت أغفل مع في إبناء واحد . وجبريل عليه السلام ينزل عليه بالوحي وأنا معه في لحاف واحد . وتزوجني في شوال وبني بي في ذلك الشهر . وقبض بين سحري ونحري وأنزل الله تعالى عنري من السماء ودفن في بيتي ، وكل ذلك لم يساوي غيري فيه^(١) .

صرف القبلة

عن بيت المقدس إلى الكعبة

١٥ شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة (نوفمبر سنة ٦٢٣)

لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً وكان يحب أن يصرف إلى الكعبة لما بلغه أن اليهود قالوا : يخالفنا محمد ويقيم قبلتنا فقال ياجبريل : وددت أن الله صرف وجهي عن قبلة يهود . قال جبريل إنما أنا عبد فادع ربك وسله ، وجعل إذا صلى إلى بيت المقدس يرفع رأسه إلى السماء ينظر أمر الله لأن السماء قبلة الدعاء ، فنزلت عليه : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ فوجه إلى الكعبة إلى الميزاب . ويقال صلى رسول الله ﷺ ركعتين من الظهر في مسجده بالمسلمين ثم أمر أن يتوجه إلى المسجد الحرام فاستدار إليه ودار معه المسلمون . ويقال بل زار رسول الله ﷺ أم بشر بن البراء بن معرور في بني سلمة فصنعت له طعاماً وحانت الظهر فصلى رسول الله ﷺ بأصحابه ركعتين ثم أمر أن يتوجه إلى الكعبة فاستدار إلى الكعبة واستقبل للميزاب فمسى المسجد مسجد القبايتين وذلك يوم الاثنين للنصف من رجب على رأس ثمانية عشر شهراً^(٢) قال الجمهور الأعظم ، إنما صرفت في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة . وفي البخاري بينا الناس بقاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال : إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها فاستداروا إلى الكعبة .

قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْكَافِرُ هَذَا بَشَرٌ أَلِيتْ عَلَيْهِمْ سَنَاسٌ وَلَوْلَا فِئْتَانٌ مِنْ آلِهَا لَقَانُوا وَلِيَّهُمْ سَبْعِينَ أُسْبُكًا ﴾ وهذا رد على اليهود والمناقين الذين ساءم ذلك . وعن يزيد النخعي عن عكرمة والحسن البصري قال : أول ما نسخ من القرآن ، القبلة

(١) راجع تفسير الفخر الرازي الجزء الرابع صفحة ٦٥٦ .

(٢) راجع طبقات ابن سعد .

- ١٤٧ -

الأذان

عن عبد الله بن عمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أراد أن يجعل شيئاً يجمع به الناس للصلاة فذكر عنده البوق وأهله وذكر الناقوس وأهله ، ففكره حتى رأى رجل من الأنصار يقال له (عبد الله بن زيد^(١)) الأذان وأراه عمر بن الخطاب تلك الليلة فأما عمر فقال إذا أصبحت أخبرت رسول الله ﷺ وأما الأنصارى ففارق رسول الله ﷺ في الليلة فأخبره وأمر رسول الله ﷺ « بلالا » فأذن بالصلاة وذكر أذان الناس اليوم . قال : فزاد بلال في الصبح « الصلاة خير من النوم » فأتوها رسول الله ﷺ وليست فيها رأى الأنصارى وله ﷺ من المؤذنين بلال وابن أم مكتوم بالمدينة ، وبلال أول من أذن في الإسلام وأذن في جامع عمر بن الخطاب بالقدس ومات بدمشق . وكان الأذان في السنة الأولى من الهجرة بعد ما بنى رسول الله ﷺ مسجده . أما تخصيص الأذان بروياً رجل ولم يكن يوحى فلما فيه من التنويه بالنبي صلى الله عليه وسلم والرفع لذكره إذا كان على لسان غيره كان أرفع لذكره . ويقال إن الوحي قد سبق الرؤيا .

والأذان لغة : الإعلام وهو مصدر أذن تأذيتاً . وشرعاً ، إعلام مخصوص على وجه مخصوص بألفاظ مخصوصة . وهو سنة مؤكدة للرجال في مكان عال . للفرائض المجلس في وقتها ولو قضاء ، لالتبرها ، وللؤذنون الآن يتنفون في الأذان وليس ذلك من السنة ولا المستحب . وللمطالب تحسين الصوت بما لا يخرج ألفاظه عن للشروع . كذلك زادوا فيه ما ليس منه !

فرض صيام شهر رمضان وزكاة الفطر

لما قل العرب أسماء الشهور عن اللغة القديمة ، سموها بالأزمنة التي هي فيها . فوافق رمضان أيام رمض الحر أى شدته وقد نزل فرض صيام شهر رمضان بعد ما صرفت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ الآية وقال عز وجل ﴿ قَدْ شَهِدْنَا مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ فأنبت صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للريض والمسافر وأنبت الإطعام للكبير الذى لا يستطع الصيام .

(١) عبد الله بن زيد بن قيلة يكنى أبا محمد ، شهد القبة وبنوا والمشهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . أتى عبد الله بن زيد رسول الله فقال يا رسول الله إنه طاف بى طائف فى هذه الليلة . مر بى رجل عليه ثوبان أخضران يحمل ناقوساً فى يده ، فقلت يا عبد الله أنبئ هذا الناقوس ؟ فقال وما تصنع به قلت تدعو به إلى الصلاة قال ، ألا أدلك على خير من ذلك ؟ قلت وما هو ؟ قال يقول : « الله أكبر . الله أكبر . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن محمداً رسول الله . أشهد أن محمداً رسول الله . حى على الصلاة . حى على الصلاة . حى على الفلاح . حى على الفلاح . الله أكبر الله أكبر . لا إله إلا الله » .

- ١٤٨ -

عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصومه موافقة لهم ولم يأمر أحداً من أصحابه بصيامه ، فلما قدم المدينة ^(١) صامه وأمر بصيامه فلما فرض رمضان كان رمضان هو الفريضة وترك عاشوراء فمن شاء صامه ومن شاء تركه » وكان يهود المدينة يصومونه ويعظمونه لأن الله أنجى فيه موسى وقومه من الفرق وأغرق فرعون وقومه ، فصامه موسى شكراً لله وصامه رسول الله وأمر بصيامه قاتلاً : نحن أحق بموسى منكم ، وفي رواية أنا أولى بموسى . ويوم عاشوراء هو اليوم المأثر من الحرم .

وركن الصيام الإسلامي عن المفطرات وأمر في هذه السنة بركة الفطر وذلك قبل أن تفرض الزكاة في الأموال وكان يحطّب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الفطر بيومين فيأمر بإخراجها قبل أن يذهب إلى المصلى وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة عشر سنين يضحي في كل عام . وكان يضحي بكبشين سميين أقرنين أملحين أحدهما عن أمته والآخر عن نفسه وآله ، فيأكل هو وأهله منهما ويطعم المساكين .

فريضة الزكاة

الزكاة ركن من أركان الإسلام الخمس وقد فرضت في السنة الثانية من الهجرة : قال رسول الله ﷺ « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . وإقام الصلاة . وإيتاء الزكاة وصوم رمضان . وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً » .

وقال تعالى : ﴿ وَأَتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وقال : ﴿ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ وقال ﴿ إِنَّمَا أَسْأَلُكَ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسْكِينِ وَالْمَآمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالنَّارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .
وقال عليه الصلاة والسلام : (أدوا زكاة أموالكم) .

وإيجاب الزكاة علاج لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب . ومانع من طغيان الأغنياء . قال تعالى ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴾ .

وإخراج الزكاة يحجب الأغنياء إلى الفقراء والمساكين فيزول عنهم الحقد والحسد والخط . والمال الفاضل إذا أمسكه الإنسان صار معطلاً . فيجب صرف طائفة منه إلى الفقير لإصلاح شأنه . وهذا من أعظم نعم الإسلام ومحاسنه .
وقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ يثبت للإمام حق الأخذ من كل مال وكذلك كان رسول الله ﷺ

(١) من سفرة سافرها من المدينة بعد الهجرة .

والخليفتان بعده يأخذون الزكاة من الناس ويوزعونها على المحتاجين إلى أن فوض عثمان بن عفان رضى الله عنه في خلافته أداء الزكاة من الأموال الباطنة إلى ملاكها . إلا أن هذا لا يسقط طلب الإمام أصلاً . ولذا لو علم أن بلدة لا يؤدون زكاتها طالبهم بها . والسواد الأعظم من الأغنياء لا يؤدون الزكاة من تلقاء أنفسهم ، فاشتدت حالة الفقراء كرباً وحرماً وحققوا على الأغنياء وامتدت إليهم أيديهم بالقتل والسرقة . لذلك ترى الخير كل الخير في أن يجبي الحكومة الزكاة المفروضة وتنقها فيما يصلح شأن الفقراء من إيوائهم وإطعامهم وكسوتهم وعلاجهم وتعليمهم بدلاً من تركهم يمانون آلام الفاقة من جوع وعري ومرض وتشريد واعتناق للبلادي الاشتراكية المقترقة التي نشأت من الخلاف القائم بين الأغنياء والفقراء .

فعلى الحكومات الإسلامية الرجوع إلى نظام الزكاة وجبايتها لصالحه للموزين ولاستتباب الأمن ، أما ترك الأغنياء لضمايرهم في إخراج الزكاة فهو تعطيل لها وإبطال لحسنتها .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه قبل هجرته بالمجرة إلى المدينة فخرجوا أرسلاً فكان أولهم قدوماً إليها أبو سلمة بن عبد الأسد وعامر بن ربيعة وعبد الله بن جحش وبعد قدومه صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بخمسة أشهر آخى بين المهاجرين والأنصار لتذهب عنهم وحشة القرية وليؤنسهم من مفارقة الأهل والشيرة ويشد بعضهم أزر بعض . وقد آخى بينهم على الحق والمواصلة ويتوارثون بد المات دون ذوى الأرحام وكانوا تسعين رجلاً خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار ، ويقال كانوا مائة وخمسين من المهاجرين وخمسين من الأنصار وكان ذلك قبل بدر فلما كانت وقعة بدر أنزل الله تعالى ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ نسخت هذه الآية ما كان قبلها واقتضت المؤاخاة في البرات ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثته ذوو رحمه . وإنما لنذكر هنا بعض من آخى بينهم :

أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب قال هذا أخى .

أبو بكر الصديق وخارجة بن زيد بن أبي زهير الأنصارى^(١) . عمر بن الخطاب وعتياب بن مالك الأنصارى . جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل الأنصارى . حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة . أبو عبيدة الجراح وسعد ابن معاذ الأنصارى . عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الأنصارى . الزبير بن العوام وسليمة بن سلامة الأنصارى . طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك الأنصارى . عثمان بن عفان وأوس بن ثابت الأنصارى . سعيد بن زيد

(١) كان خارجة بن زيد صهر لأبي بكر وكانت ابنته حبيبة تحت أبي بكر وقتل خارجة يوم أحد شهيداً .

وأبى بن كعب الأنصاري . مصعب بن عمير وأبو أيوب الأنصاري . أبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر الأنصاري .
 عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان العنسي الأنصاري . حاطب بن أبي بلتعة وعموم بن ساعدة الأنصاري . سلمان
 الفارسي وأبو الدرداء الأنصاري . أبو ذر الغفاري والنذر بن عمرو الأنصاري . أبو سبرة بن أبي رهم وسلامة بن
 وقش الأنصاري . خباب بن الارت وتميم مولى خراش بن الصمة . صفوان بن وهب ورابع بن العجلان .
 صهيب بن سنان والحارث بن الصمة . غن الله بن مخزومة وفروة بن عمرو بن ورقة . مسعود بن ربيعة وعبيد بن
 التيهان . معمر بن الحارث بن معمر ومعاذ بن عفراء ، واقد بن عبد الله بن عبد مناف وبشر بن البراء . زيد بن
 الخطاب ومعن بن عدي . الأرقم بن أبي الأرقم وطاحه بن زيد .

قال المهاجرون لرسول الله ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل ولا أحسن بذلا في كثير .
 كفونا للثؤنة وأشركونا في الهنة حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله . قال لا ، ما أتيتم عليهم ودعوتهم لهم ، أى
 فإن ثناءكم عليهم ودعاءكم لهم حصل منكم به نوع مكافأة . قال تعالى يثني على الأنصار في سورة الحشر :
 ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا
 أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأِنَّكَ لَهُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .
 للراد من البار في هذه الآية ، للدينة وهى دار الهجرة تبوأها الأنصار قبل المهاجرين .

ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا أى حسداً وحزاة وغنيظاً مما أوتى المهاجرون دونهم .
 ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . يقال آثره بكنا إذا خصه به . ومفعول الإيثار محذوف
 والتقدير ، ويؤثرون بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم .

عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار ، إن شئتم قسمتم المهاجرين من دوركم وأموالكم
 وقسمت لكم من الغنيمة كما قسمت لهم ، وإن شئتم كان لهم الغنيمة ولكم دياركم وأموالكم ، قالوا : لا . بل
 قسم لهم من ديارنا وأموالنا ولا نشاركهم في الغنيمة . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ
 بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ .

فالأنصار أكرموا المهاجرين إكراماً عظيماً ليدفعوا عنهم غوائل الحاجة فكانوا يحرمون أنفسهم لمساعدة
 إخوانهم في الإسلام على حداثة عهدهم به حتى صاروا مثلاً يضرب للتعاون وحسن الخلق .

إسلام عبد الله بن سلام بن الحارث

الإسرائيلي

كان عبد الله بن سلام كما قال بعض أهل علمه حبراً عالمًا . قال سمعت برسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرف صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكل له فكنت مسرراً لذلك صامتاً عليه حتى قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم للدينة فلما نزل بقباء إلى بني عمرو بن عوف أقبل رجل حتى أخبر بقدمه وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها وحمى خالدة بنت الحارث تحتي جالسة فلما سمعت الخبر بقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كبرت . قالت لي عمتي حين سمعت تكبيرى : خيلك الله والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادمًا ما زدت ، قال قلت لها أى حمة هو والله أخو موسى بن عمران وحلى دينه بعث بما بعث به . قالت أى ابن أخى أهو النبي الذى كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة ؟ قلت لها نعم . قالت فذاك إذن . قال ثم خرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت ثم رجعت إلى أهل بيتي فأمرتهم فأسلموا وكنتم إسلامى من يهود . ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يا رسول الله إن يهود قوم بهت^(١) وإنى أحب أن تدخلخ في بعض بيوتك فتبينى عنهم ثم تسألم عني حتى يغبروك كيف أنا فيهم قبل أن يملوا بإسلامى لأنهم إن علموا به يهتوني وطاؤوني . فأدخاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض بيوته ودخلوا عليه فكلموه وسألوه ثم قال لهم : أى رجل الحصين بن سلام فيكم ؟ قالوا سيدنا وابن سيدنا وحبرنا وعالمنا . قال فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم فقلت لهم ياه مشريه يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به فوالله إنكم تعلمون إنه لرسول الله تجذونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته فإني أشهد أنه رسول الله وأومن به وأصدقته وأعرفه . قالوا كاذبت ثم قموا بي فقلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ألم أخبرك يا بني الله أنهم بهت أهل غدر وكذب ؟ قال فأظهرت إسلامى وسلام أهل بيتي وأسلمت عمتي خالدة ابنة الحارث فحسن إسلامها^(٢).

وذكرت دائرة المعارف الإسلامية أنه كان من يهود المدينة واسمه الحصين وسماه النبي ﷺ عبد الله أسلم وأنه توفي سنة ٤٣ هـ (٦٦٣ - ٦٦٤ م) .

وقد كان عبد الله بن سلام حليفاً لبني الخزرج كنيته أبو يوسف كنى بابنه وهو من قبيلة قريظة وكان اسمه في الجاهلية حصينا ونزل في فضله قوله تعالى ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ قَامَنَ وَاتَّقَىٰ كِبَرَهُمْ ﴾ وقول الله تعالى ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا . بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾^(٣)

(١) قال ابن الأثير هو جمع يهوت من بناء المبالغة في البهت مثل صور وصبر ثم يكن تخفيفاً . والبهت التحجير . قال أبو إسحاق البهتان الباطل الذى يحجر من بطلانه وهو من البهت : التحجير ، والألف والثون زائدتان .

(٢) راجع الجزء الثاني من السيرة النبوية لابن هشام . (٣) راجع كتاب تهذيب الأسماء ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ طبع أوروبا

وفي صحيح البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : باغ عبد الله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأنابه . فقال : إني أسألك عن ثلاث لا يلهين إلا نبي . قال : ما أول أشراف الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أى شئ ينزع الولد إلى أبيه ومن أى شئ ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله ﷺ خبرني بهن أنفأ جبريل . قال : فقال عبد الله ذلك عدو اليهود من الملائكة فقال رسول الله ﷺ . أما أول أشراف الساعة فنار تحترق التمس من للشرق إلى الغرب . وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت^(١) . وأما الشبه في الولد فلأن الرجل إذا غشى المرأة فسبقتها ماؤه كان الشبه له وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها . قال أشهد أنك رسول الله . الحديث . قال العابري مات (عبد الله بن سلام) في قول جميعهم بالمدينة سنة ثلاث وأربعين .

عداء اليهود ومناقشتهم

عُرف بعض اليهود بالمدينة بشدة عدائهم لرسول الله ﷺ مع أن علماءهم كانوا يعرفون أنه سيثبت نبي وكانوا يعرفون صفاته من التوراة ، فن أعدائه الذين انتصبوا لعداوته حتى وأبوياس . وسلام بن من مشكم . وكنانة بن الربيع . وكعب بن الأشراف . وعبد الله بن صوريا وابن صلوبا ، وغيرهم الذي أسلم بعد ، ولبيد بن الأعصم الذي حرضه اليهود وسجر النبي ﷺ ثم جاء جبريل وأخبر بذلك السحر وبمكانه وعفا عنه رسول الله ﷺ ، وقال أما أنا فقد عافى الله وكرهت أن أثير على الناس شراً (يعنى بقتله) .

ومنهم مالك بن الصلت . وقد كان من أحرار اليهود ورئيساً فإنه قال ما أنزل الله على بشر من نبي ، فانظر كيف أدى به عداؤه لرسول الله ﷺ إلى الكفر بنينا وبموسى عليهما السلام وبما أنزل عليهما . قتلت اليهود له ما هذا الذي بلغنا عنك ؟ فقال إنه أغضبني فقلت ذلك فنزعوه من الرياسة وجعلوا مكانه كعب بن الأشراف . ومن كان من أحرار اليهود حريصاً على رد الناس عن الإسلام شاس بن قيس اليهودي . كان شديد الظن على المسلمين ، شديد الحسد لهم . مر يوماً على الأنصار : الأوس والخزرج وهم مجتمعون يتحدثون فأنابه ما رأى من ألفتهم بعد ما كان بينهم من المداواة . قال : قد اجتمع بنو قبيلة والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا من قرار . فأمر فقي شابا من اليهود قال : اعد إليهم فاجلس معهم ثم اذكر يوم بعث : أى الحرب التي كانت بينهم وما كان فيه وأنشدكم ما كانوا يتناولون به من الأشعار ، فقبل فتكلم القوم عند ذلك وذكر كل أقوال شاعرهم وتنازعوا وتواعلوا على القاتلة فنادى هؤلاء : يا آل الأوس ونادى هؤلاء : يا آل الخزرج ثم خرجوا للحرب وقد أخذوا السلاح واصطفوا للقتال .

(١) من قلعة متعلقة بالكبد ومى أليه . قيل من أهاط طعام وأمرؤه .

فدا بلغ الخبير رسول الله ﷺ خرج إليهم فيمن كان معه من المهاجرين فقال يا مشر للسلين الله الله اتقوا الله . أيدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم كبد أن هذا ك الله إلى الإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية واستفدكم بهم الكفر وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفرا ؟ فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد من علومه فبكوا وعانق الرجال من الأوس الرجال من الخزرج ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين . وأنزل الله في شاس بن قيس ﴿ يَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْصِدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ تَبَيَّنَتْ عَنْهَا ﴾ وأنزل الله في الأنصار ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ آوَوْا إِلَى الْكِتَابِ يَرْدُوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ . (سورة آل عمران)

وقد كان اليهود يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء تعنتا وحسداً وبنياً ليلبسوا الحق بالباطل . فجاءه يهوديان إلى رسول الله فسألاه عن قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ ﴾ . فقال لهما : لا تشركوا بالله شيئاً . ولا تزنا . ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق . ولا تسرقوا ولا تسحرُوا . ولا تمشوا بيري إلى سلطان . ولا تأكلوا الربا . ولا تغدوا الحصنة ، وعليكم يا يهود خاصة ألا تمدوا في السبت . قبيلا يديه ورجليه . وفلا تشهد أنك نبي . قال ما يمنعكما أن تسلا ؟ قالا : نخاف أن أسلفنا قتلنا اليهود .

وسأله صلى الله عليه وسلم مرة . قالا : أخبرنا عن علامة النبي . فقال : « تمام عيناه ولا ينم قلبه » . وسأله أى طعام حرمه إسرائيل على نفسه قبل أن ينزل التوراة . قال : أنشدكم باللهى أنزل التوراة على موسى هل تمدون أن إسرائيل وهو يعقوب عليه السلام مرض مرضاً شديداً ومال سقمه ففذر لئن شفاه الله تعالى من سقمه ليحر من أحب الشراب إليه وأحب الطعام إليه . فكان أحب الطعام إليه لحم الإبل ، وأحب الشراب إلينا ألبانها . قالوا اللهم نعم .

وقالوا مرة إنفاضة له صلى الله عليه وسلم ما يرى لهذا الرجل همة إلا في النساء والنكاح فلو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء ، فأنزل الله تعالى ﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ . قد جاء أن سايان عليه السلام كان له مائة امرأة وتسعمائة سيرة .

وقد انضم إلى اليهود جماعة من الأوس والخزرج مناقبون على دين آباؤهم من الشرك والتكذيب بالبعث إلا أنهم دخلوا في دين الإسلام خشية القتل لما قهرهم الإسلام بظهوره واجتماع قومهم عليه فكان هوام مع اليهود في البر وفي الظاهر مع المسلمين وهؤلاء هم المناقون. وقد ذكر بعضهم أن المناقين الذين كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثمائة منهم عبد الله بن أبي بن سلول وهو رأس المناقين ولاشهره بالنفاق لم يبد في الصحابة . وكان من أعظم أشراف أهل المدينة وكانوا قبل هجرته صلى الله عليه وسلم قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه . وكان عبد الله بن أبي جميل الصورة ممتلئ الجسم فصيح اللسان وهو اللعين بقوله تعالى ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ .

مثال من ثقاب ابن أبي .

من شافه ما أخرجه الثعالي عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال نزلت : ﴿ وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من الصحابة . فقال ابن أبي أنظروا كيف أرد عنكم هؤلاء السفهاء فأخذ بيد أبي بكر رضى الله عنه ، قال : مرحباً بالصدديق سيد بنى تميم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في النار ، البازل نفسه وماله لرسول الله ثم أخذ بيد عمر رضى الله عنه وقال : مرحباً بسيد بنى عدى القاروق والتوى في دين الله البازل نفسه وماله لرسول الله . ثم أخذ بيد عبد رضى الله عنه فقال : مرحباً بابن عم رسول الله وخننه وسيد بنى هاشم ، ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال لعلى رضى الله عنه : انتق الله يا عبد الله . ولا تناق فإن المناقين شر خليفة الله . قال له عبد الله مهلاً يا أبا الحسن أقول لى هذا والله إن إيماننا كإيمانكم ونصديقتنا كنصديقكم ، ثم افترقوا . قال لأصحابه : كيف رأيتموني فلت فأتفوا عليه خيراً فرجع المسلمون إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبروه بذلك فنزلت الآية : ﴿ وَإِذَا قَالُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا إِلَى شَيْطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾ إلى آخر الآيات التي في المناقين كلها فيه وفي أصحابه .

وبالجملة قد لاقى النبي صلى الله عليه وسلم من شدة الأذى من المناقين واليهود بالمدينة شيئاً كثيراً ولكنه بالنسبة لأذى أهل مكة كالأذى كان بالمدينة في غاية العزة واللعة والقوة من أول يوم . وأذى اليهود غابته الجادلة والتمنت في السؤال . ولما قويت شوكة الإسلام واشتد الجناح أذن له صلى الله عليه وسلم بالقتال .

أهل الصفة^(١)

أهل الصفة هم قراء المهاجرين إلى المدينة ومن لم يكن له منزل يسكنه ولا عثائر وكانوا نحو ٤٠٠ فكانوا يأوون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه ويتعلمون القرآن ويصومون ويحجرون في كل غزوة . وكان رسول الله يدعوهم بالليل إذا تشى فيفرقهم على أصحابه وتمشى طائفتهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاء الله بالنبي وكان أبو هريرة من أهل الصفة وكان رسول الله إذا أتته صدقة بث بها إليهم .

(١) الصفة : موضع مظلل في مؤخر مسجد النبي صلى الله عليه وسلم يأوى إليه المساكين .

عن أبي هريرة قال : خرج النبي ﷺ ليلة قال : ادع لي أصحابي - يعني أهل الصفة - فجعلت أنبئهم رجلا رجلا فأوقفهم حتى جمعتهم فجمعتنا باب رسول الله ﷺ فاستأذننا فأذن لنا فوضع لنا صحيفة فيها صنيع من شير وضع عليها يده . وقال : خذوا باسم الله فأكلنا ماشتنا . قال ثم رفنا أيدينا . وقد قال رسول الله ﷺ حين وضعت الصحيفة والذي نفس محمد بيده ما أسمى في آل محمد طعام ليس شيئا ترونه . قلنا لأبي هريرة قدر كم هي حين فرغتم ؟ قال : مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر الأصابع وكان رسول الله يؤثر على نفسه وأولاده فيعطى ما بيده المحتاجين (ومنها أهل الصفة) حتى إن ابنته فاطمة رضي الله عنها جاءت تشكو مائاتي من الرحي وخدمة البيت وكانت سمعت سبي جاءه فطلبت منه خادما . قال : لأعطيك وأدع أهل الصفة تعالوا بطونهم من الجوع وأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول : « الله الذي لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع ، ولقد قعدت يوما على طريقيم الذي يخرجون منه فر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ما سألته إلا ليشعني فر ولم يفعل . ثم مر بي عمر فسألته عن آية من كتاب الله تعالى ما سألته إلا ليشعني فر فلم يفعل . ثم مر بي أبو القاسم ﷺ فقبس حين رأيته وعرف ما في شمي وماني وجهي ثم قال أباهر . قلت لبيك يا رسول الله . قال الحق ومضى فقبته فدخل فاستأذن لي فدخل فوجد لبنا في قلع فقال من أين هذا اللبن ؟ قالوا أهدى لك فلان أو فلانة قال أباهر . قلت لبيك رسول الله ، قال الحق إلى أهل الصفة فادعهم لي . قال وأهل الصفة أضياف الإسلام لا يأوون إلى أهل ولا مال ولا على أحد . إذا أتته صدقة بث بها إليهم ولم يتناول منها شيئا وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها فساءني ذلك فقلت وما هذا اللبن في أهل الصفة ؟ كنت أحق أنا أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فإذا جاءوا أمرني فكنت أنا أعطيهم وما عسى أن يبلغني من هذا اللبن ولم يكن من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بد فأتيتهم فدعوتهم فأقبلوا فاستأذنوا فأذن لهم فأخذوا مجالسهم من البيت . قال يا أباهر قلت لبيك يا رسول الله . قال خذ فأعطهم . فأخذت التذح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على التذح فأعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على التذح حتى انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقد روى التوم كلمهم فأخذ التذح فوضعه على يده فنظر إلى قبسم . فقال يا أباهر قلت : لبيك يا رسول الله . قال بقيت أنا وأنت . قلت صدقت يا رسول الله . قال أقعد فاشرب فقبلت فشربت . فقال اشرب فشربت فزال يقول اشرب حتى قلت لا والذي بئتك بالحق ما أجد مسلكا . قال فأرني فأعطيته التذح فغدا الله وسمى وشرب الفضلة » - رواه البخاري في كتاب الاستئذان . قال الله تعالى يذكر أهل الصفة : ﴿ لِّلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُخْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

عن ابن عباس وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحاب الصفة فرأى قمرهم وجهدهم ، فطبيب قلوبهم .
 فقال : أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن تقبني من أمتي على النعت الذي أنتم عليه راضيا بما فيه فإنه من رفاقي .
 وقد ترك أغلب المهاجرين أملاكهم وأموالهم بمكة عدا عثمان فإنه تمكن من أخذ جميع أمواله معه . وقد كان
 غنياً واشتغل المهاجرون بالزراعة . أعطاهم أهل المدينة أرضاً يستثمرونها .

عن أبي سعيد الخدري . قال : كنا مع مقدم النبي صلى الله عليه وسلم للمدينة إذا حضر مناليت أتينا فغيرناه فحضر واستغفر
 له حتى إذا قبض انصرف من معه ، وربما قد جئ يدفن وربما طال ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم من حبه . فلما
 خشينا مشقة ذلك عليه قال بعض القوم لبعض والله لو كنا لا نؤذن النبي صلى الله عليه وسلم بأحد حتى يتقبض فإذا قبض آذناه
 فلم تكن تلك مشقة عليه ولا حرج قال قفلنا ذلك . قال فكنا نؤذنه باليت بعد أن يموت فيأتيه فيصلي عليه
 ويستغفر له فرمى انصرف عند ذلك وربما مكث حتى يدفن لليت فكنا على ذلك أيضاً حيناً ؛ ثم قالوا والله لو أنا
 لم ننشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم وحملنا الليت إلى منزله حتى نرسل إليه فيصلي عليه عند بيته لكان ذلك أرفق به
 وأيسر عليه . قال قفلنا ذلك . قال محمد بن عمر : فمن هناك سمي ذلك الموضع موضع الجنائز حملت إليه . ثم جرى
 ذلك من فعل الناس من حمل جنازتهم والصلاة عليهم في ذلك الموضع إلى اليوم .

الإذن بالقتال

أذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم في القتال لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر صفر في السنة الثانية من الهجرة وقد مكث
 النبي صلى الله عليه وسلم يدعو كفار قريش ثلاث عشر سنة إلى نبذ الأصنام وعبادة الله الواحد بغير قتال صابراً على شدة أذى
 العرب فلم يزدادوا إلا تمسكاً وتمسكاً واضطهدوا النبي وأصحابه اضطهاداً شديداً وألجأهم إلى هجر بلادهم وترك
 أموالهم ، وكان الصحابة رضى الله عنهم يأتون إليه ما بين مضروب ومشجوج فيقول لهم : اصبروا فإنني لم أؤمر
 بقتالهم . وقال جماعة من الصحابة منهم عبد الرحمن بن عوف ولقداد بن الأسود وقدامة بن مظعون (وهو أخو
 عثمان بن مظعون) وسعد بن أبي وقاص : يا رسول الله كنا في حمز ونحن مشركون فلما آمننا صرنا أكلة فائذن لنا
 في قتال هؤلاء . فقال كفوا أيديكم عنهم فإنني لم أؤمر بقتالهم .

لم يبق بعد ذلك غير استعمال السلاح للدفاع عن كيانهم والتغلب على عبدة الأصنام ، فالسألة صارت مسألة
 حياة أو موت ، فلما انتصار يحق نشر الدين أو انكسار لا تقوم للسلمين بدعة قائمة ، ولو تمكنت قريش من
 مهاجمة المدينة والانتصار على السلمين لكان في ذلك القضاء على الإسلام ، وكان المسيحيون في الإمبراطورية
 الرومانية في ذلك الوقت يقاتلون القرس ويتصرفون عليهم .

لما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وكثر أتباعه وقام الأنصار بنصره صلى الله عليه وسلم وأصر المشركون على الكفر والتكذيب أذن لهم بالقتال فيمض على السلام البعث وغزا بنفسه .

وأول ما أنزل في أمر القتال قوله تعالى في سورة الحج :

﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَنِي حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبُيُوعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ . الَّذِينَ إِن مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ اللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

هذا أول ما أنزل في الإذن بالقتال بعد ما نهى عنه في نيف وسبعين آية .

بعث حمزة

كان أول بعثته ﷺ أن بعث معه حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه في شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة (٦٢٣ م) في ثلاثين راكباً من المهاجرين . قال بعضهم كانوا شطرين من المهاجرين والأنصار والجميع عليه أنهم كانوا جميعاً من المهاجرين ولم يبعث رسول الله ﷺ أحداً من الأنصار مبعثاً حتى غزا بهم بدرًا . وذلك أنهم شرطوا له أنهم ينعمونه في دارهم . خرج حمزة ومن معه يترضون عبراً لقرش جاءت من الشام تريد مكة وكان فيها أبو جهل في ثلاثمائة راكب ولما بلغوا ساحل البحر من ناحية العيص من بلاد جبهة التقوا وتضافوا للقتال ثم حيز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى وكان مصالحاً للقرنين فانصرف القوم بنير قتال ولم يكن صلى الله عليه وسلم معهم ، وكان يحمل اللواء أبو مرثد كنان بن الحصين القنوى وهو أول لواء عقده رسول الله وكان لواء أبيض .

سرية عبيدة بن الحارث

وفي شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة (٦٢٣ م) بعث عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف إلى بطن رابغ وعقد لواء أبيض وكان الذى حمله مسطح بن أثامة بن عبد المطلب بن عبد مناف ، وكانوا ستين رجلاً من المهاجرين ليس فيهم أنصارى ، فلقى أبا سفيان بن حرب^(١) وهو في مائتين من أصحابه وهو على ماء يقال له أحياء من بطن رابغ على عشرة أميال من الجصفة وأنت تريد قديداً عن يسار الطريق ، وإتاما نكبوا عن الطريق

(٢) أبو سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشى الأموى والد معاوية ولد قبل الفيل بمرسنتين وكان من أشرف قريش وكان تاجراً يجهز التجار باله وأموال قريش إلى الشام وغيرها من أرض الحجاز وكان يخرج أحياناً بنفسه وكانت إليه راية الرؤساء التي تسمى العقاب وهو الذي نادى قريشاً كلها يوم أحد . أسلم إليه الفتح .

ليرعوا ركا بهم فكان بينهم الرمي ولم يسلاوا السيوف ولم يصطفوا للقتال وإنما كانت بينهم المناوشة إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم فكان أول سهم رمى به في الإسلام ثم انصرف الفريقان على حاميتهم .

سرية سعد بن أبي وقاص

ثم سرية سعد بن أبي وقاص إلى الخرار وهو واد في الحجاز يصب في الجحفة وذلك في ذى القعدة على رأس تسعة أشهر من الهجرة ، عقد له لواء أبيض حمله للقداد بن عمرو البهرواني ، وبثه في عشرين رجلاً من المهاجرين يعترض لمير قریش تمر به وعهد إليه ألا يجاوز الخرار . قال سعد نفرجنا على أقدامنا فكنا نكن النهار ونسير الليل حتى صبحناها صبح حمس فوجد العير قد مرّت بالأمس فانصرفنا إلى المدينة .

غزوة ودان أو غزوة الأبواء

أول منازية التي خرج فيها بنفسه ﷺ غزوة ودان . قال زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم « كنا نعلم مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نعلم السور من القرآن » وعن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كان أبي يملنا للمغازي والسرايا ويقول : يا بني إنما شرف آبائكم فلا تضيعوا ذكرها . فأول غزوة خرج فيها ﷺ (ودان) وهي قرية جامعة من أعمال القرع . وبعضهم يسميها غزوة الأبواء ، فمنهم من أضافها إلى ودان ومنهم من أضافها إلى الأبواء لأنها مقاربان في وادي القرع بينهما ستة أميال . خرج رسول الله إليهما في صفر على رأس اثني عشر شهراً من الهجرة (يونيه سنة ٦٢٣ م) يريد عيراً لقريش وبني ضمرة وقيل لم يكن صلى الله عليه وسلم يريداً لهم بل يريداً للعير التي لقريش فلما لقي بني ضمرة عقد بينه وبينهم صلحاً وكان خروجه في ستين ركباً ليس فيهم أنصاري فلم يدرك العير التي أراد . وكانت للصالحه بينه وبين بني ضمرة على أنهم لا يفترون ولا يكتفون عليه جمعاً ولا يمينون عليه عدواً وأن لهم النصر على من رامهم بسوء وأنه إذا دعاهم لنصر أجاوبوه وعقد ذلك معهم سيدهم غنشى بن عمرو الضمري وكتب بينهم كتاباً فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لبني ضمرة بأنهم آمنون على أموالهم وأنفسهم وأن لهم النصر على من رامهم بسوء بشرط أن يحاربوا في دين الله ما بل بحر صوفة وأن النبي صلى الله عليه وسلم إذا دعاهم لنصر أجاوبوه . عليهم بذلك ذمة الله ورسوله » .

وكان لولاه أبيض وكان مع حمزة رضي الله عنه واستخلف على المدينة سعد بن عباد . وكانت غيبته خمس عشرة ليلة .

غزوة بواط^(١)

ثم غزوة بواط في شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة (يوليه ٦٢٣ م) وكان يحمل لواءه سعد بن أبي وقاص وكان اللواء أبيض واستخلف على المدينة سعد بن معاذ . خرج رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه من المهاجرين خاصة حتى بلغ بواط يعترض لغير قريش فيها أمية بن خلف الجحى ومائة رجل من قريش و (٢٥٠٠) بغير قناتته ورجع ولم يلق حرباً .

غزوة بدر الأولى

أو غزوة سفوان

وفي شهر ربيع الأول أيضاً خرج رسول الله ﷺ لطلب كرز بن جابر الفهري وكان لواءه أبيض وكان يبد على بن أبي طالب ، واستخلف على المدينة مولاة زيد بن حارثة . وكان كرز بن جابر قد أغار على سرح المدينة فاستاقه وكان يرعى بالجماء^(٢) فطلبه رسول الله ﷺ حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر وفاته كرز بن جابر فلم يلحقه فوج رسول الله ﷺ إلى المدينة . وهذه الغزوة هي غزوة بدر الأولى .

أما كرز فإنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وولاه رسول الله ﷺ الجيش الذي بمه في أثر العرينين الذي قتلوا راعية وقتل كرز يوم الفتح وذلك سنة ثمان من الهجرة .

وقد ذكر ابن إسحاق هذه الغزوة بعد المشيرة . قال ابن حزم بعثرة أيام .

غزوة المشيرة

كانت غزوة المشيرة في جمادى الأولى وقيل الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة (اكتوبر سنة ٦٢٣ م) وحمل لواءه حمزة بن عبد المطلب وكان لواءه أبيض واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي وخرج في خمسين ومائة ويقال في مائتين من المهاجرين ممن انتدب ولم يكره أحداً على الخروج وخرجوا على ثلاثين بيراً . خرج يعترض غير قريش حين أبلت إلى الشام وكان قد جاءه الخبر بقولها من مكة فيها أموال قريش فبلغ المشيرة وهي لبني مدلف بن ناحية ينبع وبين ينبع وللمدينة تسعة برد فوجد العير التي خرج لها قد مضت قبل ذلك بأيام وهي العير التي خرج لها أيضاً يريدونها حين رجعت من الشام فأساحت على البحر وبلغ قريشاً خبرها

(١) بواط : جبل من جبال جبهة ناحية رضوى .

(٢) السرح مارعوا من تسميم . والجماء : جبل ناحية البقيع إلى الجرف بينه وبينه ثلاثة أميال .

نفرجوا يمنونها فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فواقهم وقتل منهم من قتل ، وبالعشرة كفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي طالب أبا تراب وذلك أنه رآه نائماً متمرعاً في البوغة^(١) قال اجلس أبا تراب فجلس ، وفي هذه الغزوة وادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة ثم رجع إلى المدينة ولم يلق حرباً .

كانت قريش قد جمعت أموالها في تلك العير ويقال إن فيها خمسين ألف دينار وألف بغير وكان قائد تلك العير أبا سفيان بن حرب ومعه سبعة وعشرون وقيل تسعة وثلاثون رجلاً ، منهم مخزومة بن نوفل وعمر بن العاص .

سرية عبد الله بن جحش^(٢) الأسدي

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عبيدة بن الجراح أن يتجهز للغزو فتجهز فلما أراد السير بكى صباية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبث مكانه عبد الله بن جحش الأسدي في اثني عشر رجلاً من المهاجرين كل اثنين يتقبان بغيراً إلى نخلة وهو بستان ابن عامر الذي كان قرب مكة ، وذلك في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة (نوفمبر سنة ٦٢٣ م) وكتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لا أمره به ولا يكره أحداً من أصحابه ففعل ذلك ، ثم قرأ الكتاب وفيه أمره بنزول نخلة بين مكة والطائف فيرصد قريشاً ويعلم أخبارهم فأعلم أصحابه فساروا معه حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع أضل بغيراً ، وكان زميله عتبة بن غزوان فأقام يومين ينيبانه ومضى عبد الله وبقية أصحابه ، حتى نزل بنخلة فرت به عير لقريش تحمل خمرأ وأدماً وزبيبا جاءوا به من الطائف ، فيها عمرو بن الحضرمي وعثمان بن المغيرة وأخوه نوفل والحكم بن كيسان فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم وأشرف لهم عكاشة بن محسن الأسدي وقد حلق رأسه ، فلما رأوه وقالوا عمار لا بأس عليكم ، وذلك آخر يوم من رجب ، ثم إنهم تشاوروا فأجمعوا على القتال ، فرمى واقد بن عبد الله التيمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، وهو أول قتيل قتل للمسلمون وشد المسلمون عليهم فاستأثر عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان وهرب نوفل وغنم المسلمون مامعهم . ويقال إن عبد الله بن جحش لما رجع من نخلة خمس ما غنم وقسم بين أصحابه سائر الغنائم فكان أول خمس خمس في الإسلام وذلك قبل أن يفرض وكانت أول غنيمة غنمها للمسلمون . وعمر بن الحضرمي أول من قتل للمسلمون وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر للمسلمون ، وكان الذي أسر الحكم القناد بن عمرو فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإسلام فأسلم وقتل بيتر موعة شهيداً^(٣) .

أما سعد بن أبي وقاص وزميله عتبة بن غزوان ، فلم يشهدا هذه الغزوة وقدمتا للمدينة بعد عودة السرية بأيام .

(١) البوغة : مزار من البيار وحقاق الزاب .

(٢) الجحش لغة ، السيد .

(٣) الحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة والد أبي جهل . كان إسلامه في السنة الأولى من الهجرة .

أقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالمرير والأسرى إلى المدينة فلما قدموا قال لهم رسول الله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، فوقف المرير والأسيرين فسقط في أيديهم وعنقهم المسلمون وقالت قريش قد استحل عمد وأصحابه الشهر الحرام فأنزل الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . فلما نزل القرآن وفرج الله عن المسلمين قبض رسول الله المرير وفدى الأسيرين .

وفي هذه السرية سمي عبد الله بن جحش « أمير المؤمنين » .

غزوة بدر الثانية أو غزوة بدر الكبرى

١٧ رمضان في السنة الثانية من الهجرة — يناير سنة ٦٢٤ م

بدر بلدة بالحجاز إلى الجنوب الشرقي من الجار ، وهو ساحل البحر بينهما نحو مرحلة ويسمونها بدر حنين ، وهي في سهل يليه من الشمال إلى الشرق جبال وعرة ومن الجنوب آكام صخرية ومن الغرب كثبان رملية .

كانت غزوة بدر الكبرى يوم الجمعة في شهر رمضان في السابع عشر على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة (يناير سنة ٦٢٤ م) وكان سيدها قتل عمرو الحضرمي الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش وإقبال أبي سفيان بن حرب من الشام في غير لقريش عظيمة وفيها أموال كثيرة تبلغ (٢٠.٠٠٠ رطل) ومعها ثلاثون أو أربعون رجلاً من قريش منهم مخزومة بن نوفل الزهري بن العاص .

فلما سمع بهم رسول الله تدب المسلمين إليهم وقال هذه غير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكهم ، فالتدب الناس ففخ بعضهم وقتل بعضهم لأنهم ظنوا أن الرسول لا يأتي حرباً .

وكان أبو سفيان قد سمع أن رسول الله ﷺ يريد غزوة ، واستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري بشرين مثقالاً وبشه إلى مكة يستغفر قريشاً ويخبرهم بالخبر ، فسار وألقى فيهم النفير فخرجوا مسرعين ومن تخلف أرسل مكانه آخر . ولم يتخلف أحد من أشراف مكة إلا أبو لهب ^(١) وبش مكانه العاص بن هشام ^(٢) نظير أجر قدره ٤٠٠٠ درهم ؛ وكان السبب في خروجهم حماية المرير وإتخاذها .

(١) تخلف أبو لهب خوفاً من رؤيا كانت رأتها عائشة بنت عبد المطلب عمة النبي صل الله عليه وسلم أنزعته وقصتها لقياس ثم تحدث بها الناس (٢) قتله عمر بن الخطاب في هذه الغزوة .

- ١٦٢ -

قوة قريش

كان الذين خرجوا من قريش نحو ١٠٠٠ منهم ٦٠٠ دارع ومعهم ١٠٠ فرس عليها ١٠٠ درع سوى دروع المشاة .

وكان حامل لوازمهم السائب بن يزيد ثم أسلم رضى الله عنه وهو الأب الخامس للإمام الشافعي رضى الله عنه . وكان معهم أيضاً ٧٠٠ بئر . وخرجوا ومعهم القتيان - وهن الإمامة الفتيان - يضر بن بالدقوف وبغين بهجاء المسلمين وهم في غاية البطر والخيلاء حين خروجهم اعتماداً على كثرة عددهم وعددهم ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ حَظِيرٌ ﴾ .

وكان الطعمون لهذا الجيش اثني عشر رجلاً . وكان كل واحد منهم ينحر كل يوم عشرة جزر وهوؤلاء الاثنا عشرم : أبو جهل . وعتبة وشيبة ابنا ربيعة . وحكيم بن حزام . والعباس بن عبد المطلب . وأبو البختري . وزعمة بن الأسود . وأبى بن خلف . وأممية بن خلف . والنضر بن الحارث . ونبية ومنبه ابنا الحجاج ، وفيهم أنزل الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ﴾ .

قوة المسلمين

كان عدة الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ ٣١٣^(١) . وقيل لما عد أصحابه فوجدهم ثلاثمائة وثلاثة عشر فرح وقال : عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر . وخرجت الأنصار ولم تكن قبل ذلك خرجت معه . وكان عددهم ٢٠٧ وسائرهم من المهاجرين وكانت الإبل ٧٠ والأفراس خمسة . ولما أراد رسول الله ﷺ الخروج لبس درعه ذات الفضول وقتل سيفه المضرب ورد رسول الله ﷺ من استصغر فكان ممن رده أسامة بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأسيود بن ظهير وزيد بن أرم وزيد بن ثابت ورد عسير بن أبي وقاص فبكي فأجازه .

وتخلف ثمانية من أصحابه ﷺ بسهامهم وأجورهم : ثلاثون المهاجرين : عثمان بن عفان خليفه رسول الله ﷺ على امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ . وكانت مريضة فأقام عليها حتى ماتت . وطلحة بن عبيد الله . وسعيد بن زيد

(١) هذا قول عامة السلف كما قاله ابن جرير الطبري .

- ١٦٣ -

بشهما يتجسسان خبر العير وخرجا في طريق الشام . وكان أبو أمامة بن ثعلبة الأنصاري أجمع الخروج إلى بدر . وكانت أمه مريضة فأمره ﷺ بالمقام على أمه .

وخسة من الأنصار : أبو لبابة بن عبد المنذر الأوسى خلفه على المدينة وعاصم بن عدى المجلفى خلفه على أهل المالية . والحارث بن حاطب العمري رده من الروحاء إلى بني عمرو بن عوف لشيء بلغه عنهم . والحارث بن الصمة كسر بالروحاء . وخوات بن جبير كسر أيضاً . وهؤلاء ثمانية لا اختلاف فيهم .

وكانت الإبل سبعين بغيراً يتعاقب النفر البعير وكانت الخيل فرسين : فرس للقناد بن عمرو ، وفرس لمزند بن أبي مرثد الغنوى . وكان اللواء مع مصعب بن عمير . وكان أمام رسول الله ﷺ رايقان سوداوان أحدهما مع علي بن أبي طالب يقال لها العقاب وكانت من مربط عائشة أى ثوبها وكان عمر على يومئذ عشرين سنة والأخرى مع بعض الأنصار ، وجعل على الساقة (للؤخرة) قيس بن أبي صمصمة الأنصاري فكانت قوة المسلمين قليلة بالنسبة لقوة عدوهم .

واستعمل ﷺ أبا لبابة والبياع على المدينة وردة ، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس بالمدينة .

رسول الله ﷺ يستشير أصحابه

كان رسول الله ﷺ بث رجلين يتجسسان أخبار عير أبي سفيان وما يبس بن عمرو وعدى بن أبي الزغباء فضيا حتى نزلا فأناخا إلى تل قريب من الماء وأخذوا يستقيان من الماء فسمعا جاريته تقول إحداها لصاحبتها إن أتاني العير غداً أو بعد غد أعلم لهم . أى أخدمهم ، ثم أفضيك الذي لك . فانطلقا حتى أتيا رسول الله ﷺ فأخبراه بما سمعا .

فاستشار النبي ﷺ أصحابه في طلب العير وفي حرب النفر ، معنى أن النبي ﷺ خير أصحابه بين أن يذهبوا للعير أو إلى محاربة النفر وأخبرهم بمسير قريش . وقال لهم : إن الله وعدكم إحدى العاتقتين : إما العير وإما قريش . وكانت العير أحب إليهم ليستمينوا بما فيها من الأموال على شراء الخيل والسلاح . وقال بعضهم هلا ذكرنا لنا القتال حتى نتأهب له إنا خرجنا للعير . وفي رواية يارسول الله عليك بالعير ودع العدو ، فتغير وجه رسول الله ﷺ .

وتكلم المهاجرون فأحسنوا ثم استشارهم فقام أبو بكر فقال فأحسن ، ثم قام عمر ، فقال فأحسن .

وكان ﷺ يمشي أن تكون الأنصار لا ترى وجوب نصرته عليها إلا بمن دمه فجاءه من العدو بالمدينة ققط وأن ليس عليهم أن يسير بهم من بلادهم إلى عدو . فلما قال لهم أشيروا علي ، قال له سعد بن معاذ رضى الله عنه ، وهو سيد الأوس ، بل هو سيد الأنصار . وكان فيهم كالصديق رضى الله عنه في المهاجرين . قال والله لكأنك

تريدنا يا رسول الله . قال : أجل . قال قد آمنّا بك ، وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهداً وميثاقاً على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء . لعل الله يريك فينا ما نقر به عبيك ، فصر بنا على بركة الله . فصر رسول الله ﷺ لقوله ونشطه ذلك للقاء الكفار . ثم قال رسول الله ﷺ سيروا على بركة الله وأبشروا فإن الله وعدني إحدى الطائفتين إماما المعير وإماما النفير .

الخلافا بين أبي سفيان وأبي جهل

كان أبو سفيان قد ساحل وترك بدرأ يساراً ثم أسرع فنجاً فلما رأى أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش وم بالجنحة أن الله قد نبى عيركم وأموالكم فارجموا .

قال أبو جهل والله لا ترجع حتى نرد بدرأ (وكانت بدر موسماً من مواسم العرب تجتمع لهم بها سوق كل عام) فنقيم بها ثلاثاً فننحر الجزور ونطعم العظام ونسقى الخمر فتنعم بنا العرب فلا يزالون يهابونا ، ويقال كان أبو جهل وقتئذ يبلغ من العمر سبعين سنة ولكنه كان لا يزال قوى الجسم .

فلما بلغ أبا سفيان كلام أبي جهل قال : هذا بنى والبنى منقصة وشؤم لأن القوم إنما خرجوا لنجاة أموالهم وقد نجحوا الله . ولما قال أبو جهل مقال رجع من قريش بنو زهرة وكانوا نحو المائة وقيل ثلاثمائة فلذا قيل لم يقتل أحد منهم بيد . وكان قائد بنى زهرة الأخنس بن شريق الثقفي وكان حليفاً لهم . فقال لهم : يا بنى زهرة قد نبى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم مخزومة بن نوفل فإنه كان في العير وإنما نقرتم لتمعوه وماله فارجموا فإنه لا حاجة لكم أن تخرجوا في غير منفعة . دعوا ما يقول هذا ، يعنى أبا جهل ، وكذلك لم يخرج من قريش بنو عدى ابن كعب فلم يشهد بدرأ من هاتين القبيلتين أحد . لكن هذا الخلافا لم يمنع نشوب الحرب .

سير الجيشين ونزول المطر

مضت قريش حتى نزات بالمدوة^(١) القصوى من الوادى .

ونزل المسلمون على كتيب أغفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب . وسبقهم للشركون إلى ماء بدر فأحرزوه وحفروا القباب لأنفسهم ليحملوا فيها الماء من الآبار المنيعة فيشربوا منها ويسقوا دوابهم .

(١) المدوة : جانب الوادى . والقصوى : البعدى .

وأدرك السليفي النعاس وأصبحوا لا يصلحون إلى لاء للشرب والنسل والوضوء . فأرسل الله عليهم مطراً سال منه الوادي فشرب المسلمون واتخذوا الحياض على عدوة الوادي واغتسلوا وتوضأوا وسقوا الركاب وملأوا الأسقية وأطفأوا لظمر الثمار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام والخوافر وضرب ذلك بالشركين لكون أرضهم كانت سهلة لينة وأصابهم مالا يقدرون معه على الارتحال وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله ﴿ يَذَّكَّرُ بِهِ نَبِيُّكُم ۚ لَأَتَأْتِيَ النَّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ۝ ﴾ .

وبات رسول الله ﷺ يدعو ربه . يصلى تحت شجرة وبكث في سجوده « يا حي يا قيوم » يكرر ذلك حتى أصبح .

قال على رضى الله عنه فلما أن طلع الفجر نادى رسول الله ﷺ للصلاة - عبادة الله - لجاء الناس من تحت الشجر والحجف فولى بنا رسول الله ﷺ ثم خطب وحض على القتال .

بناء حوض على القليب

قال ابن إسحاق : خرج رسول الله ﷺ بيادهم إلى لاء حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به فقال الحباب ابن المنذر بن الجوح رضى الله عنه يارسول الله هذا منزل أنزلكه الله تعالى لا تتقدمه ولا تتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال بل الرأى والحرب والمكيدة . قال فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى تأتى أدنى ماء من القوم فأتى أعرف غزارة مائه فنزل به ثم نوره ماوراءه من القلب ثم نبى عليه حوضاً فملاؤه ماء قشرب ولا يشربون . فقال ﷺ أنشئت بالرأى . فنهض ﷺ ومن معه من الناس حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه ثم أمر بالقليب فنورت وبنى حوضاً على القليب الذى نزل عليه فلى ماء ثم قذفوا فيه الآنية وقد كان الحباب خبيراً بالأبار في تلك الجهة ، وقد قبل رسول الله ﷺ مشورته وهى فكرة سديدة لها أهمية حربية فإن الجيش يكون على اتصال دائم باللاء الذى لا غنى عنه . ومن يومئذ قيل للحباب « ذو الرأى » .

بناء العريش

وبعد ذلك قال سعد بن معاذ رضى الله عنه يارسول الله ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ونعد عندك ركائبك ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك. ما أحببنا وإن كانت الأخرى ، جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا وقد تحلف عنك أقوام يابى الله ما نحن بأشد لك حبا منهم ولو ظنوا أنك تلقى حرباً لما تحفظوا

عنك إنما غلنا أنها العير يئتمك الله بهم يناصحونك ويجاهدونك فأتى عليه عليه السلام خيراً ودعا له بجهر وقال يقضى الله خيراً من ذلك بإسعاد . ثم بنى له العريش فوق تل مشرف على المعركة فدخله النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق وقام سعد بن معاذ متوشحاً بالسيف .

وعن علي رضي الله عنه أنه قال : أخبروني من أشجع الناس ؟ قالوا : أنت . قال : أشجع الناس أبو بكر رضي الله عنه لما كان يوم بدر جلسنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريشاً قتلنا من يكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لئلا يهوى إليه أحد من المشركين ؟ فكان أبو بكر رضي الله عنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فوالله ما دنا منه أحد إلا وأبو بكر رضي الله عنه شاهر بالسيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوى أحد إليه إلا أهوى إليه أبو بكر رضي الله عنه . وجاء أنه لما التحم القتال وقف أيضاً على باب العريش سعد بن معاذ رضي الله عنه وجماعة من الأنصار . والعريش شىء يشبه الخيمة يستظل به وكان من جريد . قال السيد السموهوى ومكانه (العريش) عند مسجد بدر وهو معروف عند النخيل والعين قريبة منه .

عتبة بن ربيعة ينصح قريشاً بالرجوع

تقدم قبل ذلك أن أبا سفيان كان من رآه الرجوع لتجاة عير قريش وأموالها وأن أبا جهل كان مصماً على الحرب . فلما اطأنت قريش بالجهة التي تزلوا فيها أرسلوا عمير بن وهب الجهمي ^(١) يستطلع ، فجال بفرسه حول عسكر النبي صلى الله عليه وسلم فوجد أنهم يلبثون ثلاثمائة رجل يزيدون أو ينقصون وقال لم لقد رأيت بامشر قريش البلبلا يحمل الناياب . رجال يثرب تحمل الموت الناقع ، ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون يتلهظون تلهظ الأفاعي لا يرفقون أن يقبلوا إلى أهلهم ، زرق العيون كأنهم الحصى تحت الحجف ^(٢) قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم والله ما ترى أن تقتل منهم رجلاً حتى يقتل رجل منكم فإذا أصابوا منكم عددهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم . فداسمع حكيم بن حزام ذلك ^(٣) مشى في الناس فأقى عتبة بن ربيعة . قال : يا أبا الوليد إنك كبير قريش والمطاع فيها هل لك أن تذكر بجهر إلى آخر الدهر ؟ قال : وما ذاك يا حكيم ؟ قال : ترجع بالناس . فقام عتبة خطيباً . قال : يا معشر قريش والله ما تصنعون شيئاً أن تلقوا محمداً وأصحابه والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه قد قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلاً من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب فإن أصابه غيركم فذاك إذا أردتم وإن كان غير ذلك أفأكم ولم تعلموا منه ما تريدون . يا قوم اعصبوها اليوم برأسى (أى اجعلوها عاراً متعلقاً بى) وقولوا جبن عتبة وأنتم تعلمون أنى لست بأجبنكم .

(١) أسلم عمير بعد ذلك وحن إسلامه وشهد أهدأ مع رسول الله .

(٢) ينى الأصار . (٣) هو ابن أخى خديجة بنت خويلد وابن عم الزبير بن العوام ، ولد في الكعبة وهو من سلالة الفتح وكان من أشرف قريش ووجهها في الجاهلية والإسلام .

فلما بلغ أبا جهل هذا الكلام عن عتبة رماه بالجنب . وقال : (والله لا ترجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد) فأنفد أبو جهل على الناس رأى عتبة وتشتب بضرورة قتال المسلمين .

تعديل صفوف المسلمين ودعاء رسول الله ﷺ

لما أصبح المسلمون ، عدل النبي ﷺ صفوف أصحابه وأقبلت قريش ورآها ﷺ فقال :
« اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وغرها : تحادك وتكذب رسولك . اللهم ففصرك الذي وعدتني » .

اقتحام الخوض

خرج الأسود الخزومي وكان شرساً سيئ الخلق . قال أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموئن دونه . فلما أقبل قصده حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه فضربه دون الخوض فوقع على ظهره تشعب (تسيل) رجه دماً ثم اقتحم الخوض زاعماً أن تبر يمينه فقتله حمزة في الخوض . والأسود هذا هو الأسود بن عبد الأسد الخزومي أخو عبد الله بن عبد الأسد الخزومي رضى الله عنه زوج أم سلمة رضى الله عنها . وهو أول قتيل قتل يوم بدر من المشركين وهو أول من يأخذ كتابه بشالاه يوم القيامة . وأما أخوه عبد الله بن عبد الأسد فهو أول من يأخذ كتابه يمينه كما جاء ذلك في أحاديث متعددة .

المبارزة

التس عتبة بن ربيعة بيضة أى خوذته يدخلها في رأسه فجا وجد في الجيش بيضة تسع رأسه لعظامها تقعم بهرد له^(١) وخرج بعد أن تعمم بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة حتى انفصل من الصف ودعا إلى المبارزة فخرج إليه فتية من الأنصار وهم عوف ومعاذ ابنا الحارث الأنصارين وعبد الله بن رواحة الأنصارى . فقالوا لهم من أنتم ؟ قالوا رهط من الأنصار . قالوا : مالنا بكم من حاجة إنما نريد قومنا ونادى مناديتهم : يا محمد أخرج إلينا أ كفاءنا من قومنا فنأدهم أن ارجعوا إلى مصافكم ولينم إليهم بنو عمهم . ثم قال ﷺ قم يا عبيدة بن الحارث . قم يا حمزة . قم يا بلال ، فبارز عبيدة . وكان أسن المسلمين - عتبة وكان أسن الثلاثة ، وبارز حمزة شيبة ، وبارز على الوليد بن عتبة ، فقتل حمزة شيبة وعلى الوليد واختلف عبيدة وعتبة ضربتين كلاهما أثبت صاحبه ؛ وكر حمزة على أسياهما على عتبة فذققا عليه واحتملا عبيدة فحاذياه إلى أصحابه . وكانت الضربة التي أصابت عبيدة في ركبته فأت منها لا رجوعاً بالصفراء . قيل وهذه للمبارزة أول مبارزة وقعت في الإسلام .

(١) قد كان المشركون مجهزين بأسلحة تفوق أسلحة المسلمين ، فدروع المسلمين كانت قليلة والظاهر أنه لم تكن لديهم خوذ فيجن أن المشركين كانوا يضعون خوذاً على رؤوسهم يقيهم النبال والسيوف .

تمديد صفوف المسلمين والحث على الجهاد

قال ابن اسحاق : لما قتل البارزون خرج عليه السلام من العريش لتمديد الصفوف فسلمهم بفتح ^(١) في يده فرأى عليه السلام بسواد بن غزية حليف النجار وهو خارج من الصف فطمعته رسول الله عليه السلام في بطنه بالقدح وقال : « استو ياسواد » قال : يا رسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذني من نفسك ^(٢) فكشف رسول الله عليه السلام عن بطنه وقال : « استعد » فاعتنق سواد النبي عليه السلام وقبل بطنه . فقال ما حالك على هذا ياسواد ؟ قال : يا رسول الله حضر ماترى ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي بجلدك . فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بخير ^(٣) ثم لما عدل الصفوف قال لهم : « إن دنا القوم منكم فانصحوهم واستبقوا نبلكم ولا تسلاوا السيوف حتى يشعروكم » وخطبهم خطبة ختم فيها على الجهاد والمصابرة ثم عاد إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه غيره وسعد بن معاذ فأثم على باب العريش موشح بسيفه مع نفر من الأنصار يحرسون رسول الله ويحافون عليه ككرة العدو .

ألوية المسلمين والمشركون

كان لواء رسول الله الأعظم - لواء المهاجرين - مع مصعب بن عمير ولواء الخزرج مع الحباب بن المنذر ولواء الأوس مع سعد بن معاذ وجعل رسول الله عليه السلام شعار المهاجرين « يا بني عبد الرحمن » وشعار الخزرج « يا بني عبد الله » وشعار الأوس « يا بني عبيد الله » . ويقال بل كان شعار المسلمين جميعاً يومئذ « يا منصور أمت » وكان مع المشركين ثلاثة ألوية : لواء مع أبي عزيز بن عمير ، ولواء مع النضر بن الحارث ، ولواء مع طلحة بن أبي طلحة وكلهم من بني عبد الله .

تزاحم الناس والتحام القتال

بعد أن عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض وأقبل نفر من قريش حتى وردوا حوضه صلى الله عليه وسلم فقال دعوهم فأشرب بمنبر رجل يومئذ لا تقتل إلا حكمين بن حزام فإنه أسلم وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يعملوا على المشركين حتى يأمرهم وكان صلى الله عليه وسلم قد أخذ : سنة من النوم فاستيقظ وقد أراه الله إياهم في منامه قليلاً فأخبر أصحابه فكان ثلثيتاهم ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرض المؤمنين وأخذ حفنة من الحصيا فاستقبل بها قريشاً وقال : شأبت الوجوه (أى قبحت الوجوه) ونفخهم بها ثم أمر أصحابه فقال شدوا فكانت المزيمة .

(١) سهم لانس فيه ولا ريش (٢) أى مكى من القود أى القصاص

(٣) قال صاحب أسد الغابة . « رويت هذه القصة لسواد بن عمرو لا لسواد بن غزية » .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال وهو في العريش يوم بدر : اللهم إني أُنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إني تهلك هذه العصابة اليوم فلا تُعيد . وفي رواية إني تهلك هذه العصابة من أهل الإيمان اليوم فلا تُعيد في الأرض .

وروى النسائي والحاكم عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه قال : قاتلت يوم بدر شيئا من قتال ، ثم جئت لاستكشاف حال النبي ﷺ فإذا رسول الله ﷺ يقول في سجوده « يا حي يا قيوم » لا يزيد على ذلك فرجعت قاتلت ثم جئته فوجدته كذلك . فصل ذلك أربع مرات وقال في الرابعة ففتح عليه . وهذا يدل على عظم هذا الاسم . لما رمى رسول الله ﷺ للمشركين بالحصى ، لم يبق من المشركين رجل إلا امتلأت عينه وأذنه وفه لا يدري أين يتوجه يمالج القرب لينزعه من عينيه فأنزموه وردفهم المسلمون يقتلون ويأسرون ، وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله : ﴿ وَمَا رَمَيْتْ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ . وهذه إحدى معجزات رسول الله ﷺ .

خرج رسول الله ﷺ وهو يقول ﴿ سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤْتُونَ اللَّهَ بَرًّا ﴾ . وقال والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة . قتل عير بن الحام الأنصاري - ويده تمرات يأكلهن - « بفتح ما يبنى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء » . ثم ألقي الترات من يده وقال حتى قتل . ورُمي مهجع مولى عمر بن الخطاب بسهم فقتل فكان أول قتيل . ثم رمى حارثة بن سراقه الأنصاري قتل . وقاتل عوف بن غفراء حتى قتل . واقتل الناس اقتتالاً شديداً فأنهزم المشركون قتل من قتل منهم وأسر من أسر . كان بدء القتال في الصباح ، وكانت الهزيمة في الظهر . وبلغ عدد القتلى من المشركين سبعين والأسرى أربعة وسبعين وعدد القتلى من المسلمين أربعة عشر : ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

وفي يوم بدر دعا أبو بكر الصديق ابنه عبد الرحمن إلى المبارزة وكان أسن أولاده فقال له النبي ﷺ « متعنا بنفسك أما علمت أنك مني بمنزلة سمى وبصرى » . ثم أسلم عبد الرحمن في هذة الحديبية وكان اسمه قبل الإسلام عبد الكعبة وقيل عبد المزى فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن وكان من أشجع قریش وأرماهم : وقتل أبو عبيدة بن الجراح أباه وكان مشركاً .

قتل بلال أمية بن خاف الجعفي صديق عبد الرحمن بن عوف في الجاهلية لأنه كان يعذبه بمكة على أن يترك الإسلام ^(١) وكان ابن غفراء ضرب أبا جهل حتى أثبتته وقطع ابن الجوح رجله . فلما أمر رسول الله ﷺ الناس بأن ياتمسوا أبا جهل في القتل خرج معهم عبد الله بن مسعود فوجده وهو يأخر رمق ، فوضع رجله على عنقه وحز رأسه وحمل رأسه إلى رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم . ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم بعد إلقاء الرأس بين

(١) راجع تهذيب المسلمين في هذا الكتاب .

بديه خرج يمشي مع ابن مسعود حتى أوقفه على أبي جهل . قال : الحمد لله الذى أخذاك بإعدو رسول الله . هذا كان فرعون هذه الأمة ورأس قاعدة الكفر . قال ابن مسعود : وفانى سيفه وكان قصيراً عريضاً فيه قبائح فضة وحلق فضة .

إمداد المسلمين بالملائكة يوم بدر

وردت الآيات والأحاديث على أن الله تعالى أمد المسلمين بالملائكة يوم بدر فقاتلوا معهم . فلما انقضى أمر بدر أنزل الله عز وجل فيه من القرآن سورة الأفعال فما أنزل خاصاً بالملائكة قوله تعالى :

﴿ إِذْ سَأَلْتُمُونِ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ . وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .
وقوله تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَالِيَ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَخْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَخَرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ .

وقال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَانْتَصَرْنَا أَذِلَّةً فَأَقْبَحُوا اللَّهُ لِبَلَكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .
﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُنْصِرَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ . عَلَىٰ أَنْ تَضَرُّوا وَتَنْفَقُوا وَمَا تَوْكَلُكُمْ مِنْ قُوْرِهِمْ هَذَا يُنْصِرُكُمْ رَبُّكُمْ بِمِثْلِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْغَزِيْرُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وجاء في صحيح البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر : هذا جبريل أخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب .

إن إمداد المسلمين بالملائكة من معجزات رسول الله التى نص عليها القرآن الكريم ولا سبيل إلى إنكارها روى عن سهل بن حنيف عن أبيه رضى الله عنه قال : لقد رأيتنا يوم بدر وإن أحدنا ليشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف .

سيا الملائكة يوم بدر

كانت سيا الملائكة يوم بدر غائم يضا قد أرسلوها خاف ظهورهم إلا جبريل عليه السلام فإنه كان عليه عمامة صفراء ، وقيل حراء ، وقيل بعض الملائكة كانوا بهائم صفر ، وبعضهم بهائم بيض ، وبعضهم بهائم سود ، وبعضهم بهائم حمر .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه : كانت سبأ لللائكة يوم بدر عما ثم قد أرخواها بين أكتافهم خضراً وصفرًا وجرأً .

وكان الزبير بن العوام رضى الله عنه يوم بدر متممًا بهامة صفراء ، وكانت خيل اللائكة بلقاء مسومة^(١) .
وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النعام الذى ظلل بنى إسرائيل فى التيه هو الذى جاءت فيه اللائكة يوم بدر .

إلقاء القتلى فى القليب

أمر رسول الله ﷺ بالقتلى من المشركين أن ينقلوا من مصارعهم وأن يطرحوا فى القليب فطرحوا فيه إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ فى درعه فلاه فذهبوا ليحركوه فتقطعت أوصاله فألقوا عليه ماغيه من التراب والحجارة . والسبب فى إلقاء قتلى المشركين فى القليب كثرة جبينهم . فكان جرم إلى القليب أيسر من دقهم .
ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقف على شفير القليب بعد ثلاثة أيام من إلقاءهم فيه وكان ذلك ليلا ومعه أصحابه وقال : يا أهل القليب بئس عشيرة النى كنتم ، أمنتكم فكذبتمونى وصدقنى الناس . ثم قال : يا عبدة ، يا شعبة ، يا أمية بن خلف ، يا أبا جهل بن هتمام (وعدت من كان فى القليب) هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا فأنى وجدتم ما وعدنى ربى حقًا . فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله كيف تكلم أجسادًا لأرواح فيها ؟ قال : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى .

الأسرى وفداؤهم

كان فداء الأسرى أربعة آلاف إلى مادون ذلك . فكان يفادى بهم على قدر أموالهم . وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعملهم فإذا حذقوا فهو فداؤه . فكان زيد بن ثابت ممن علم^(٢) .

وكان من بين الأسرى العباس عم النبي ﷺ وصنو أبيه يكنى أبا الفضل بابنه الفضل ، وكان أسن من رسول بسنتين . وقيل بثلاث سنين . وكان فى الجاهلية رئيسًا فى قريش وإليه كانت عمارة للمسجد الحرام والسقاية فى الجاهلية . خرج مع المشركين يوم بدر فأسر وشد وثاقه فصره النبي ﷺ تلك الليلة ولم ينم . فقال له بعض أصحابه : ما يسهر بك يا بنى الله ؟ فقال أسهر لأنين العباس فقام رجل من القوم فأرخى وثاقه فقال له رسول الله ﷺ مالى

(١) البلى جمع البلى وبلقاء : أى فيها سواد ويابس ، ومسومة : معلقة من السومة وهى العلامة ، ولما مى آخر يعدها اه .

(٢) راجع طبقات ابن سعد .

لا أسمع أنين العباس . قال الرجل أنا أرخيت من وثاقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فاضل ذلك بالأمرى كلهم . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب فلك يا عباس وابني أخوك عقيل بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عتبة بن عمرو بمائة أوقية وكل واحد بأربعين أوقية . فقال للنبي صلى الله عليه وسلم تركتني فقير قريش ما بقيت . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأين المال الذي دفعته لأُم الفضل^(١) وقلت لما إن أصبت فهذا لبي : الفضل وعبد الله وقيم ؟ قال والله إني أشهد أنك رسول الله ، إن هذا شيء ماعله إلا أنا وأُم الفضل . أشهد أن لا إله إلا الله وأنت عبده ورسوله .

وفي رواية قال للنبي صلى الله عليه وسلم لقد تركني فقير قريش ما بقيت . فقال له كيف تكون فقير قريش وقد استودعت بنادق الذهب أُم الفضل (زوجته) وقلت لما إن قتلت فقد تركتكم غنية ما بقيت ، قال أشهد أن الذي تقوله قد كان وما أطلع عليه إلا الله . ونطق بالشهادتين . بحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد قيل إن العباس كان قد أسلم . وكان يكتم إسلامه لليون له كانت متفرقة في قريش ، وكان يخشى أن أظهر إسلامه ضاعت عندهم . وقد جاء في بعض الروايات أن العباس رضى الله عنه قال علام يؤخذ منا القداء وكنا مسلمين ؟ وفي رواية وكنت مسلماً ولكن القوم استكروهني . قال النبي صلى الله عليه وسلم : الله أعلم بما تقول إن يك حقاً فإن الله يميزك . ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا . وقد أنزل الله تعالى في العباس رضى الله عنه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُوَفِّيكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَنْفَعَكُمْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾^(٢) وعند نزول هذه الآية قال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم : وددت أنك كنت أخذت مني أضعاف ما أخذت . وقد صدق الله وعده له فأعطاه الله مالا عظيماً حتى كان عنده مائة عبد في يد كل عبد مال يتجر فيه . وبلغ ماله فداء للأسرى أكثر من ٢٠٠٠ ر ٢٠ درهم .

وكان من الأسرى : النضر بن الحارث العبدي وكان من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم . وكان يقول في القرآن إنه أساطير الأولين . ويقول : لو نشاء لقلنا مثل هذا وغير ذلك من الأقاويل . فأمر النبي صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب رضى الله عنه فضرب عنقه . فلما بلغ الخبر أخته قتيلة ، وقيل إماما هي بنته ، رثته بأبيات تم أسلمت . وفي أسد الغابة أن قتيلة بنت النضر . قال الواقدي هي التي قالت الأبيات التالية في رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قتل أباهما النضر بن الحارث يوم بدر وهي :

يلركباً إن الأئمة مظنة	من صبح خامسة وأنت موفق
أبلغ بها ميتاً بأن تحية	ما إن تزال بها النجائب تخفي
مضى إليك وعبرة مسفوحة	جادت بواكفها وأخرى تخفي

— ١٧٣ —

ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تشقى
قمرًا يقاد إلى للنية معتبًا رسف المقيّد وهو عان موثق
أحمد أو لست صفوً نجبية من قومها والفعل لخل مرق
ما كان ضرك لو مننت وربما من الفتى وهو المغيظ الحنق
فالنضر أقرب من أسرت قرابة وأحقهم إن كان عشق يعتق
وحين سمع ذلك صلى الله عليه وسلم بكى وقال . لو بلغت هذا الشعر قبل قتله لمنت عليه^(١) .

وكان من الأسرى أيضًا عقبة بن أبي معيط بن ذكوان المكنى بأبي عمرو بن أمية بن عبد شمس وكان من أشد الناس عداوة للنبي صلى الله عليه وسلم ومن المستهزئين به . جاء عن ابن عباس أن عقبة لما قدم للقتل نادى بامعشر قريش مالى أقتل بينكم صبرًا ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : بكفرك واجترائك على الله ورسوله . وعقبة هذا هو الذي وضع سلا الجزور على ظهر النبي صلى الله عليه وسلم وهو ساجد بمكة .
فالنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط هما الأسيران اللذان أمر صلى الله عليه وسلم بقتلهما ، أما سائر الأسرى فقد استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم في أسرهم ، فاستشار أبا بكر وعمر وعليّ رضي الله عنهم فإيا هو الأصحاب من الأمرين القتل أو أخذ الفداء .

رأى أبي بكر رضي الله عنه

في الأسرى

قال أبو بكر « يا رسول الله . أهلك وقومك . وفي رواية هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان قد أعطاك الله الظفر بهم ونصرك عليهم أرى أن تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا لنا عضداً » وقد وافق الصحابة أبا بكر على أخذ الفداء .

رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قتل الأسرى

قال يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك وفاتلوك ، ما أرى ما أرى أبو بكر . ولكنى أرى أن تمكنني من (فلان) قريب لعمر فأضرب عنقه ، وتمكن عليّ من عتيل أخيه فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من أخيه العباس فيضرب عنقه حتى يعلم أنه ليس في قلوبنا مودة للمشركين ، ما أرى أن تكون لك أسرى فأضرب أعناقهم . هؤلاء صناديدهم

(١) أي يتبل شفاعتها عنده .

وأُتِمَّتْهم وقادتهم . فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال سعد بن معاذ « الإغنان في القتل أحب إلى من إبقاء الرجال » . أما على رضى الله عنه فلم يذكر عنه جواب مع أنه أحد الثلاثة المستشارين . قال العلامة الزرقاني لأنه لما رأى تغير المصطفى صلى الله عليه وسلم حين اختلف الشيخان ، لم يجب أو لم تظهر له مصلحة حتى يذكرها .
وكان رأى عبد الله بن رواحة إحقاقهم في واد كثير الخطب .

لكن رسول الله أخذ برأى أبى بكر رضى الله عنه . وقال لا يفلتن أحد منهم إلا فداء أو ضرب عنق . وأنزل الله تعالى : « مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُبْذَرَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَبْخُنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْ لَا كِتَابٌ مِنْ اللَّهِ سَبَقَ لَكُمْ فِيهَا أَنْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِنْمَا غَنِمْتُمْ حَلَالًا حَلَالًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَفِيعٌ ذَرِيمٌ » فبكى النبي ﷺ وأبو بكر رضى الله عنه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إن كاد ليمسنا في خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل المذاب ما أقلت منه إلا ابن الخطاب . ولم يقل ابن رواحة لأنه أشار بإضرام النار وليس بشرع .

وهذه الآية موافقة لرأى عمر رضى الله عنه . وهى من اللواضع التى جاء القرآن فيها موافقا لقول عمر رضى الله عنه ، وهى كثيرة نحو بضعة وثلاثين أفردت بالتأليف .

ولا استقر الأمر على الفداء فرق رسول الله ﷺ الأسرى في أصحابه . وكان أول أسير فدى أبووداع الحارث فداء ابنه للطلب (وكان كيسان تاجرا) بأربعة آلاف درهم ثم أسلم وقد عده بعضهم من الصحابة . وعند ذلك بعث قريش في فداء الأسارى وكان الفداء فيهم على قدر أموالهم وكان من أربعة آلاف درهم إلى ثلاثة إلى ألفين إلى ألف . ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن الكتابة دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة يعلمهم الكتابة فإذا تعلموا كان ذلك فداء كما تقدم .

وكان من الأسرى أبو العاص بن الربيع فإنه أسلم بعد ذلك وهو زوج زينب بنت النبي ﷺ ورضى عنها وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد أخت خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها . ولم يكن في ذلك الوقت تزوج الكافر بالمسلمة محرما ، وإنما حرم ذلك بعد لأن الأحكام إنما شرعت بالتدريج .

وقدمت زينب المدينة بعد شهر من بدر . وقد جاء بها زيد بن حارثة بأمر رسول الله ﷺ ثم أسلم زوجها وهاجر وردعا إليه ﷺ بنى عقد بل بالنكاح الأول . وقبل عقد عليها عقدا آخر وولدت له (أمانة) التى كان يحملها صلى الله عليه وسلم على ظهره وهو يرضى . ثم لما كبرت تزوجها على رضى الله عنه بعد خالتها فاطمة رضى الله عنها بوصية من فاطمة لعل بذلك .

وكان في الأسارى وهب بن عمير رضى الله عنه فإنه أسلم بعد ذلك وأسرته رفاعه بن رافع . وكان أبوه عمير شيطانا من شياطين قريش وكان ممن يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه بمكة فجلس يوما مع صفوان بن أمية وكان جلوسه معه

في الحجر فذاكر أصحاب القلب ومصاهبهم . فقال صفوان : ما في العيش خير بدم . فقال حمير والله صدقت ، أما والله لو لا دين عليّ ليس له عندي قضاء وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، كنت آتي محمداً حتى أقتله فإن لي فيهم علة ، ابني أسير في أيديهم . فاغتنمها صفوان وقال له ، عليّ دينك أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالي وأسيهم ما بقوا قال حمير ، فاكتم عني شأني وشأنك . قال : أفضل . ثم إن حميراً أخذ سيفه وشحذه وسمه ثم انطلق حتى قدم المدينة فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدّثون عن يوم بدر ، إذ نظر إلى حمير حين أناخ راحته على باب المسجد متوشحاً بالسيف . فقال هذا الكلب عدو الله حمير . ما جاء إلا بشر . فدخل عمر على رسول الله . فقال : يا نبي الله هذا عدو الله حمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه . قال رسول الله ، فأدخله عليّ . فأقبل عمر رضى الله عنه حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فأمسكه بها وقال لرجال من كانوا معه من الأنصار ادخلوا على رسول الله فاجلسوا عنده . فإن هذا الخبيث غير مأمون .

ثم دخل به على رسول الله . فذا رآه وعمر أخذ بحمالة سيفه في عنقه ، قال أرسله يا عمر . إذن يا حمير فذنا . ثم قال حمير : أنهوا صباحاً ، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم ، فقال رسول الله : قد أكرمنا الله تحية خير من تحيتك يا حمير يا سلام تحية أهل الجنة . ما جاء بك يا حمير ؟ قال ، جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم (يعني ولده وهباً) فأحسنوا فيه . قال ، فما بال السيف ؟ قال ، قبيحاً اللهم سيوف ، وهل أغنت عنا شيئاً ؟ قال رسول الله ، اصدقني ما الذي جئت له ؟ قال ، ما جئت إلا لتلك . قال ﷺ ، بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في الحجر فذكرتما أصحاب القلب من قريش ، ثم قلت لولا دين عليّ وعيالي لخرجت حتى أقتل محمداً فتجعل لك صفوان بدنيك وعيالك على أن تقتلني له . والله حائل بينك وبين ذلك . قال حمير :

« أشهد أنك رسول الله . قد كنا يارسول الله نكذبك بما تأتي به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي . وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان . فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله تعالى ، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام وساقى هذا المساق .

ثم شهد شهادة الحق .

ثم قال رسول الله فتحوا أحكام في دينه وأقرئوه القرآن وأطلقوا أسيره ففعلوا ذلك .

ومر رسول الله ﷺ على نفر من الأسرى بنير فداء منهم أبو عزة عمرو الجهمي الشاعر . وقد كان يؤذي النبي ﷺ والمسلمين بشعره . فقال : يارسول الله إني فقير وذو عيال وحاجة قد عرفتها فأمعن عليّ فنّ عليّ رسول الله ﷺ وأطلقه وأخذ عليه عهداً أن لا يظهر عليه أحد . ولما وصل إلى مكة قال سحرت محمداً ورجع لما كان عليه من الإيذاء بشعره . ولما كان يوم أحد خرج مع المشركين يحرض على قتال المسلمين بشعره فأمر أُمّ الدعيّ ﷺ بضرب عنقه . فقال : أعنتني وأطلقني فإني نائب . فقال ﷺ « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » فضربت عنقه وحمل رأسه إلى المدينة وأُنزل الله فيه ﴿ وَإِنْ يَرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ﴾ .

تأثير الانتصار في المدينة

كان لنبايا الانتصار تأثير عظيم في النفوس فخاف رسول الله ﷺ كل عدو بالمدينة وما حولها وأسلم كثير من اليهود منهم عبد الله بن أبي ، لكنه لم يكن مخلصاً في إسلامه بل ظل منافقاً إلى أن مات ومع انتصار المسلمين في بدر ، لم تنقطع معارضة اليهود ودسائسهم فكان لابد من القضاء عليهم واستئصال شأقهم . وقد كان المنافقون من الرجال ثلاثمائة ومن النساء سبعين ، وكانوا يؤذونه ﷺ إذا غاب ويملقونه إذا حضر .

ثم أرسل رسول الله ﷺ عبد الله بن رواحة بشيراً لأهل المدينة^(١) وزيد بن حارثة بشيراً لأهل السافلة بما فتح الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين .

رجوعه ﷺ إلى المدينة

وتقسيم الغنيمة

لما قارب رسول الله ﷺ المدينة خرج المسلمون للقائه بما فتح الله عليه فلاقوا معه بالروحاء وتلقته الولائد عند دخوله المدينة بالدخوف . والولائد جمع وليدة وهى الصبية تملأ :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا مادعا لله داع

وقسم رسول الله ﷺ النفل وكانت ١٥٠ من الإبل وعشرة أفراس ، ومتاعاً وسلاحاً وأنطاعاً وثياباً وأدماً كثيراً حمله المشركون للتجارة وبأدى منادى رسول الله ﷺ من قتل قتيلاً فله سابه ، ومن أسر أسيراً فهو له ، وتنفل رسول الله ﷺ زيادة على سهمه سيفه ذا الفقار وجمل أبي جهل .

وقع خبر الانتصار على قريش

سمعت قريش خبر انتصار رسول الله ﷺ ممن رجع منهم من ساحة القتال^(٢) وقص أبو سفيان بن الحارث مراءى على أبي لهب فقصد رشده وضرب أبا رافع ضرباً مبرحاً ، ولم يشع بعدها أبو لهب إلا سبع ليال ومات مصاباً بالجلدى وبقي بعد موته ثلاثة أيام لا يقرب أجد منه خوفاً من الدوى حتى أتن^(٣) ولما تحققت قريش خبر الهزيمة وما أصابهم من قتل وأسر ، ناحت على قتلاها شهراً ، وجز النساء شعورهن . ثم اتفقوا على عدم الاسترسال في الجزع لئلا يشمت بهم المسلمون وتواصوا على الأخذ بالتأمر .

(١) هو موضع قريب من المدينة .

(٢) قال السكلى أن المسيبان بن لياس هو الذى جاء بخبر قتل أهل بدر إلى مكة ، وكان شهد بدر مع المشركين ثم أسلم

(٣) كانت قريش تنق الجبرى كما تنق الطاعون وتخفى عدواها .

- ١٧٧ -

أسباب انتصار المسلمين

في وقعة بدر

كانت وقعة بدر أول انتصار للمسلمين في حروبهم ولم تكن من الوقائع الكبيرة من حيث عدد جيوش المتحاربين واستعدادهم الحربي فإن عدد المسلمين كان نحو ٣١٣ يقابلهم نحو ألف من أهل مكة ولكنها وقعة مهمة لأنها كانت بمثابة الحجر الأساسي في انتصار الرسول في الوقائع المقبلة وهي بدء تحول خطير في تاريخ الإسلام وتاريخ العالم . في هذه الوقعة انهزم أهل مكة وظهر ضعفهم في القتال على كثرة عددهم وفرسانهم وقد أبدى بعض المؤرخين استغرابه لما أصاب أعداء المسلمين من القتل مع أنهم كانوا أكثر منهم عدداً وكان معهم مئة فرس وسبعمائة بعير ومع ذلك لم يكسحهم أمامهم فرسانهم وركبانهم بل ولوا هاربين . والظاهر أن المسلمين كانوا أحسن نظاماً فقد عدل صفوفهم النبي ﷺ وخطب فيهم مستنهضاً معهم . وكان يشرف على الوقعة من ذلك العرش العالي ويصدر الأوامر فكان قائداً عاماً ، ولم يصدر من أصحابه أي مخالفة لأوامره . أما أبو سفيان فلم يكن قائداً ماهراً . وقد ساعد بناء الحوض وتوفر الماء على النصر ، والقرآن الكريم والأحاديث النبوية تنص صراحة على أن الله سبحانه وتعالى أمد نبيه بمدد باطنى فحاربت الملائكة مع المسلمين ونصروهم على أعدائهم وقد رآهم بعض الصحابة وبعض أهل مكة في ميدان القتال وذكروهم بنبيهم . قيل كانت سبأ الملائكة يوم بدر عائم قد أرخواها بين أكتافهم خضراً وصفراً وحمراً وكان الزبير بن العوام متعمداً بعمامة صفراء فقال ﷺ نزلت للملائكة - أى بعضهم - بسيا أبي عبد الله ، يعنى الزبير . وكانت خيل الملائكة بلقاء مسومة - مزينة - وعن على كرم الله وجهه قال هبت ريح شديدة يوم بدر مارأيت مثلاً قط ثم جاءت أخرى كذلك ثم جاءت أخرى كذلك ، فنزل في الأولى جبريل في ألف من الملائكة أمام النبي ﷺ ونزل في الثانية ميكائيل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله ﷺ ونزل في الثالثة إسماعيل في ألف من الملائكة عن يسرة رسول الله ﷺ . هذا وقد جى بالبأس يوم بدر ، أسره أبو اليسر وكان مجموعاً وكان العباس جسيماً قيل لأبي اليسر كيف أسرته ؟ قال أعانني عليه رجل مارأيت من قبل ذلك بهيئة كذا وكذا قال رسول الله ﷺ قد أعانك عليه ملك كريم^(١) . وقد كان رسول الله ﷺ قال لأصحابه قد رايت جبريل وعلى ثنائه النفع . قال رجل من بني غفار أقيبت أنا وابن عمى لي فصعدنا جبلاً يشرف بنا على بدر ونحن مشركان ننظر لمن تكون الدائرة ففتنبت فذنت منا سبابة فسمعت فيها حمزة الخليل وسمعت قائلاً يقول أقدم حيزوم . قال فما ابن عمى قلت مكبانوما أنا فكنت أهلك فتأسكت . وقال أبو داود المازني إنى لأتبع رجلاً من المشركين لأضربه إذ وقع رأسه قبل أن يصل سيقى إليه

(١) راجع تاريخ ابن الأثير .

- ١٧٨ -

فمرفت أنه قتله غيرى . وقال سهل بن حنيف كان أحدنا يشير بسيفه إلى المشرك فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه السيف ^(١) فكيف بد هذا كله نكذب إمداد الله رسوله بالملائكة في وقعة بدر !! إن الله قد اختص نبيه بمجرات وهذه إحداهما ولا سبيل لإنكارها وإن أنكرها المستشرقون الذين كتبوا سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فقد وزدت في القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة .

وروى الصحابة رضي الله عنهم الذين شهدوا بدرًا أنهم رأوا الملائكة بسياهم وهم يحاربون . قال حويطب بن عبد العزى شهدت بدرًا مع المشركين فرأيت عبرًا ، رأيت للملائكة تقتل وتأسر بين السماء والأرض ولم أذكر ذلك لأحد ^(٢)

ومن أسباب انتصار المسلمين قوة العقيدة لما لها تأثيرا عظيما في الحروب ، فشتان بين من يحارب بعتيدة راسخة لينصر الله ورسوله فإن قتل فاز بنعمة الشهادة وتنعم في دار الخلد وبين من يحارب وهو لا يشعر بقوة العقيدة التي تدفع خصمه إلى القتال من غير مبالاة . فالمسلمون كانوا يتوقون إلى الموت في سبيل الله . فمن ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج من العريش يوم بدر وهو يقول ﴿ سَيَهْزِمُ أَجْمَعُ وَيُؤَلِّقُونَ الذُّبُرَ ﴾ وحرص المسلمين وقال « والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محمدا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » قال عمير بن الحمام الأنصاري ويده تمرات بأكلهن : يخ بخ ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ثم ألقى التمرات من يده وقاتل حتى قتل ^(٣) .

ويؤكد سير وليام موير William Muir أن الخوف الذي كان مستوليا على أهل مكة من إراقة دماء أنصارهم مع ما يقابل ذلك من رغبة المسلمين في القتال . كان هو العامل للمهم في انتصار المسلمين في وقعة بدر .

فضل أهل بدر

جاء بعض الصحابة إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إن ابن عمي نافق أناذن لي أن أضرب عنقه ؟ فقال ﷺ : إنه شهد بدرًا وعسى أن يكفر عنه . وفي رواية وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر وقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : اطلع الله على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم أو قال قد وجبت لكم الجنة . وعن الإمام أحمد عن حفصة رضي الله عنها ، قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنى لأرجو أن لا يدخل النار إن شاء الله تعالى أحد شهد بدرًا أو الحديبية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرم أهل بدر ويقتلهم على غيرهم . وفي الخصائص الصغرى : وخمس أهل بدر من أصحابه صلى الله عليه وسلم بأن زادوا في صلاة الجنائز على أربع تكبيرات تمييزاً لفضلهم .

(١) راجع تاريخ ابن الأثير (٢) راجع ابن الأثير .

(٣) راجع أسد الغابة الجزء الثاني تحت اسم حويطب بن عبد العزى .

وفاة رقية

ابنة رسول الله

تزوجت رقية ابنة رسول الله عثمان بن عفان بمكة وهاجرت معه إلى الحبشة وولدت له هناك ولداً سماه عبدالله . وكان عثمان يكنى به . فبلغ الغلام ست سنين فنقر عينه ديك فوراً في وجهه ومرض ومات . وكان موته في جمادى الأولى سنة أربع .

ولما سار رسول الله إلى بدر ، كانت ابنته رقية مريضة فتخلف عليها عثمان بأمر رسول الله له بذلك فتوفيت يوم وصول زيد بن حارثة مبشراً بنظر رسول الله وكانت قد أصابها حصبة .

زواج فاطمة بنت رسول الله

سنة ٢ هـ

فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم هي سيدة نساء العالمين ماعداً مريم ابنة عمران صلى الله عليها . أمها خديجة بنت خويلد . وكانت تكنى أم أيها وكانت أحب الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . زوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم من علي . بعد أن ابنتي بمائشة بأربعة أشهر ونصف ، وابتنى بها بعد تزويجه إياها بسبعة أشهر ونصف وكانت سنهما يوم تزويجهما خمس عشرة سنة وخمسة أشهر . واشتد نيل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا منها فإن الذكور من أولاده ماتوا صغاراً .

خطب أبو بكر وعمر فاطمة إلى رسول الله فأنى عليهما فقال عمر أنت لما ياعلى فقال مالى من شيء إلا درعى أرهنها ، فزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة . فلما بلغ ذلك فاطمة بكّت . فدخل عليها رسول الله فقال : مالك تبكين يا فاطمة ؟ فوالله لقد أنكحتك أكثرم علماً وأفضلهم حلاً وأولهم سلماً .

وعن علي رضي الله عنه قال : خطبت فاطمة إلى رسول الله ﷺ فقالت لى مولاة لى : هل علمت أن فاطمة خطبت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت لا . قالت قد خطبت فما ينمك أن تأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيزوجك قلت : وهل عندى شيء أتزوج به ؟ فقالت إنك إن جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجك . فوالله ما زالت ترجئى حتى دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جلالته وهيبته فلما فصلت بين يديه أخفت فوالله ما أستطيع أن أنكم . فقال ما جاء بك ؟ فسكت . فقال : لعلك جئت تخضب فاطمة ؟ قلت نعم . قال وهل عندك من شيء تستحلي به ؟ قلت لا والله يا رسول الله . فقال ما فعلت بالدرع التى

سأحتكم؟ قلت عندى ، والذي شس على يده إنها لحطمة^(١) ما تمئها أربعائة درهم . قال قد زوجتك فابيت بها فإن كانت لصدائق فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعل ليلة البناء فاطمة : لا تحدثن شيئاً حتى تلقانى . فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بماء فتوضأ منه ثم أفرغه على على وقال « اللهم بارك فيها وبارك عليها وبارك لها فى نسلها » .

قال ابن إسحاق وحدثنى من لآتهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان يبار لبناته غير شديدة . كان لا يكسح بناته على ضرة .

وعن السور بن خزيمة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر: إن بنى هشام بن المنيرة استأذنى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب فلا أذن ثم لا أذن ثم لا أذن إلا أن يريد على بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم فلها بضعة منى . يربى ما رابها ويؤذى ما آذاها .

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجهزوا فاطمة . فنجعل لها سرير مشروط ووسادة من آدم حشوها ليفاً وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أسماء بنت عميس فهيأت البيت فصلى العشاء وأرسل إلى فاطمة رضى الله عنها فاجأت مع أم أيمن بركة الحبشية مولاته صلى الله عليه وسلم حتى قصدت فى جانب البيت وعلى رضى الله عنه فى جانب آخر ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ما صلى العشاء الآخرة فقال : أهاننا أختى ؟ قالت أم أيمن : أخوك وقد زوجته ابتك ؟ قال نعم . إى هو كأتى فى اللزلة وللؤاخاة فلا يمتنع على تزويجى إياه بنتى . ودخل صلى الله عليه وسلم وقال لفاطمة رضى الله عنها : اتقى بماء . فصامت تعتر فى ثوبها من الحياء إلى قب فى البيت . فأتى فيه بماء فأخذه ومج فيه (أى وضعه فى فيه ورعى فى القعب والقعب إناه ضخم كالقصة) ثم قال لها تقدمى فتقدمت ، فنضح بين يديها وعلى رأسها وقال : اللهم إنى أعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم . ثم قال : أدبرى فأدبرت فنصب بين كفتيها ، ثم قل مثل ذلك بلى ، ثم قال له : ادخل بأهلك باسم الله والبركة ، وكان مهرها رضى الله عنها ٤٠٠ درهم فضة . وخر على رضى الله عنه ساجداً شكراً لله تعالى .

وكانت وليمة على رضى الله عنه أصعاً من شعير وتمر وخيس (وهو تمر يخالط بسمن) وقيل أولم يكبش من سعد وأصع من ذرة من عند جماعة من الأنصار . وكان فرئهما ليلة عرسهما جلد كبش . وكانت سن على يومئذ ٢١ سنة وخمسة أشهر .

ونكح فاطمة بالبترول لاقطاعها الدنيا . ولدت لعل الحسن والحسين وزينب . أم كلثوم . وكانت مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لحقت بالله تعالى وكانت أول أهلها لحوقاً به وهى أول من غطى نعشها فى الإسلام

(١) حطمة : دروع أنبت إلى بطن من عبد ليس يقال لهم حطمة بن عارب كانوا يملون الدروع .

وأوصت أن تدفن ليلاً . قبل توفيت ثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة وكان عمرها ٢٩ سنة وقيل ٣٠ رحبها الله تعالى .

غزوة بني سليم

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم للمدينة من بدر لم يبق إلا سبع ليال حتى شزا بنفسه يريد بني سليم واستعمل على المدينة سباع بن عرفة الغفاري - وهو من مشاهير الصحابة - وعلى الصلاة ابن أم مكتوم^(١) وكان لواؤه أبيض حمله على بن أبي طالب رضى الله عنه . فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء من مياههم يقال له (الكدر^(٢)) فأقام صلى الله عليه وسلم ثلاث ليال . ثم رجع إلى المدينة ولم يبق حرباً وارفع القوم وهو بواو يقيت منهم ، فظفر بها صلى الله عليه وسلم والمحدري بها إلى المدينة وقسمها بصرار ، وهو مكان على ثلاثة أميال من المدينة وكانت خمسمائة بعير . وكانت مدة غيبته خمس عشرة ليلة .

غزوة بني قينقاع

سنة ٥٢ - ٦٢٤ م

قَيْنَقَاع اسم لشعب من اليهود الذين كانوا بالمدينة ، أضيف إليهم سوق كانت بها ، ويقال سوق بني قينقاع وهم من موالى الخنوزج وحلفاء عبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي سؤل ، وكان عددهم قليلاً وصناعتهم الصياغة وهم أغنى سكان المدينة، وكانت بينهم وبين بني النضير وبني قريظة عدواة قديمة في الجاهلية سببها اشتراهم مع الخنوزج في يوم بعاث . كما ذكرنا سابقاً .

(١) ابن أم مكتوم هو عمرو بن قيس بن زائدة بن الأهم . مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم . أمه أم مكتوم اسمها عاتكة بنت عبد الله بن عكرمة بن عامر بن عزم وهو ابن حال حديجة . بنت حويل . فإن أم حديجة رضى الله عنها فاطمة بنت زائدة بن الأهم هاجر إلى المدينة واستخلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة ثلاث عشرة مرة في غزواته على الصلاة فقط لأنه كان أعمى وقضاء الأعمى غير صحيح . وشهد ابن أم مكتوم فتح القادسية ومعه اللواء . قيل إنه قتل بالقادسية شهيداً وقيل إنه رجع إلى المدينة فأت بها .

وهو الأعمى الذي ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه في قوله (عيسى ونول أن جاءه الأعمى) وأجمع المفسرون على أن الذي عيسى ونول هو الرسول عليه الصلاة والسلام وأجموا على أن الأعمى هو ابن أم مكتوم . أتى رسول الله ابن أم مكتوم وعنده صنابير فريش يدعوهم إلى الإسلام وجاء أن يعلم بإسلامهم غيرهم فقال لبي صلى الله عليه وسلم أفرني وعلني مما عليك الله وكرر ذلك فذكره رسول الله قطعه لكلامه وأعرض عنه فزلت هذه الآية . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رآه يقول مرحباً بمن عاتقني فيعيرى ويقول هل لك من حاجة ، ولاشك أن في استخلافه على المدينة إكراماً له .

(٢) الكندر جمع كندر . وقرقر الكندر . قال الواقدي : بناحية المدن قريبة من الأرحسية بينها وبين المدينة ثمانية برد . وقال غيره ما ابن سليم وقيل لهذا الماء الكندر لأن به طيراً في ألوانها كدرة .

كانت غزوة بني قينقاع في شوال من السنة الثالثة من الهجرة (فبراير سنة ٦٢٤ م) قال ابن إسحاق : كان من أمر بني قينقاع أن رسول الله ﷺ جمعهم بسوق بني قينقاع ثم قال : « بامعشر اليهود اأخذوا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النعمة وأسلوا فإنكم قد عرفتم أئى نبي مرسل يمدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم » .

قالوا يا محمد إنك ترى أنا كقومك ، لا يتركك أهلك تقيت قومًا لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة إننا والله لنن حاربنا لتعلمن أنا نحن الناس . أى أنهم بذلك دعوه للقتال .

دعا رسول الله ﷺ بني قينقاع إلى الإسلام ، وإلى الاعتراف بنبوته لأنهم يمدون ذلك في كتابهم ، لكنهم مع ذلك وعلى قلة عددهم وإقامتهم مع المسلمين في المدينة نفسا أغاظوا له في الجواب ولم يقفوا عند حدود الأدب وادعوا الشجاعة .

قال الدكتور ولفسون في كتابه تاريخ اليهود في صدد ماردوا به على رسول الله : « إنهم أجابوه بكل جراءة وتبجح - ص ١٢٩ » وقال « يظهر من هذا الرد أن بني قينقاع كانوا يمتدون على معاضدة حلفائهم من الخزرج في نزاعهم مع الرسول قبل كل شئ ، إذ لا يتصور أن بطناً صغيراً كبطن بني قينقاع يجرؤ على إعلان الحرب ضد أغلب بطون يثرب ، ولكن بني الخزرج خذلوه ولم يتحركوا لتجلبتهم رغم أنهم من مواليهم ص ١٢٩ - ١٣٠ » . وقد كان بنو قينقاع أول يهود تقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ وحاربوا فيها بين بدر وأحد .

قال ابن هشام : وذكر عبد الله بن جعفر بن السور بن مخزومة عن أبي عون قال :

كان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت مجلب لها فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ بها فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبى فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فقتله إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا منها فضاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله . وكان يهودياً فشددت اليهود على السلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل السلم للمسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون فوق الشر بينهم وبين بني قينقاع .

ولم يرو هذه الحادثة ابن إسحاق وكذا لم يذكرها الطبري في تاريخه ولا ابن سعد في طبقاته . وليس في هذه القصة ذكر لاسم المرأة ولا اسم الصائغ الذي قتل ولا اسم المسلم القاتل له ، ولذلك نشك في صحة هذه القصة لأن ابن إسحاق لم يروها بل لأن روايتها بهذه الصفة تخالفنا على الشك إذ ليس فيها ما يساعدنا على البحث والتحقيق . لذلك لا نتمتع عليها .

وقد حاصرهم رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يطالع منهم أحد حتى نزلوا على حكمه فكتبوا وهو يريد قتلهم ويبيع عددهم ٤٠٠ - قام إليه عبد الله بن أبي ابن سلول حين أمكنه الله منهم (وكانوا حلفاءه وحلفاء عبادة بن الصامت) فقال يا محمد أحسن في موالى أ فأبطلأ عليه النبي ﷺ فقال يا محمد ، أحسن في موالى . فأعرض عنه النبي

صلى الله عليه وسلم فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرساني وغضب ﷺ حتى رأوا في وجهه غللا لا^(١) ثم قال: ويحك أرساني . قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن إلى موالى ، أربعائة جابر وثلاثمائة دارع ممنوعى من الأسود والأحمر تحصدكم في غداة واحدة وإني والله لا آمن وأخشى الدوائر . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هم لك لا بارك الله لك فيهم . وعن عمر بن قتادة أنه قال: خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم فأرسلوهم ، ثم أمر بإجلالهم وغنم الله عز وجل رسوله وللسلدين ما كان لهم من مال ولم تكن لهم أرضون إنما كانوا صاغرة فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم سلاحاً كثيراً وآلة صياغتهم . وكان الذى ولى إخراجهم من المدينة بنو راجهم ، عبادة بن الصامت ففضى بهم حتى بلغ ذباب^(٢) وهو يقول الشرف الأبد الأهمى فالأهمى . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم استخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر .

وقد استغرق خروجهم ثلاثة أيام وذهبوا إلى أذرع^(٣) ولم يدر الحول عليهم حتى هلكوا بدعوتهم صلى الله عليه وسلم في قوله لابن أبى : لا بارك الله لك فيهم . وكان عددهم ٤٠٠ جابر و٣٠٠ دارع فأسأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلى سيبلهم وأن يحلوا من المدينة وأن لهم النساء والذرية ويحلبوا بقية الأموال للنبي صلى الله عليه وسلم ومنها الحلقة التى هى السلاح ، ولم يكن لهم نخيل ولا أراض ترزع فصالهم على ذلك فمزوا نفقت أموالهم . جعل منها أربعة أخماس للؤميين المجاهدين وخمساً له صلى الله عليه وسلم فكان أول خبز قبضة رسول الله ، وقد وجد في منازلهم سلاح كثير فأخذ رسول الله ﷺ من سلاحهم ثلاث قوسى قوسا تدعى (الكثوم) لا يسمع لها صوت إذا رمى بها كسرت بأحد ، وقوساً تدعى (الروحاء) وقوساً تدعى (البيضاء) وأخذ درعين ، درعاً يقال لها (السعدية) يقال إنها درع داود التى لبسها حين قتل جالوت والأخرى يقال لها (فضة) وثلاثة أرماح وثلاثة أسياف . وهوب ﷺ درعاً لحمد بن مسلمة ودرعاً لسعد بن معاذ . وكان لواء رسول الله ﷺ يوم بنى قينقاع لواء أبيض مع حمزة بن عبد المطلب .

غزوة السويق

غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السويق في ذى الحجة من السنة الثانية من الهجرة (إبريل ٦٢٤ م) وولى تلك الحجة للمشركون من تلك السنة . وكان أبو سفيان حين رجع إلى مكة نذر أن لا يس رأسه ماء من جنباته . أى لا يأتي النساء حتى ينزوا محمدًا ﷺ فنخرج في مائتى راكب من قریش ليبر يمينه^(١) فملك النجدية حتى نزل بصدر قتاة إلى جبل يقال له نيب من المدينة على بريد أو نحوه . ثم خرج من الليل حتى أتى بنى النضير ليلا ،

(١) بنى تلونا . (٢) جبل بالمدينة (٣) بلدة بالنام .

(٤) الفيل من الجانية كان معمولاً به في الجاهلية بقبه دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما بي فيهم المح والنكاح ، فكان الحدث الأكبر معروفاً عندهم ، وأما الحدث الأصغر ، فلم يكن معروفاً عندهم قبل الإسلام .

فأتى حُيَ بن أخطب وهو من رؤساء بني النضير ، وهو أبو صفية أم المؤمنين ، فضرب عليه بابه فأبى أن يفتح له وخافه فانصرف عنه إلى سلام بن مشكم وكان سيد بني النضير في زمانه وصاحب كثرهم فاستأذن عليه فأذن له فتراه وسقاه خمرًا وبطان له من خير الناس ثم خرج في عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالا من قريش إلى المدينة فأتوا ناحية منها يقال لها المريض فحرقوا أصواراً^(١) من نخل بها ووجدوا بها معبد بن عمرو الأنصاري وحليفًا له في حرث لها فقتلوهما ثم انصرفوا راجعين ونذر بهم الناس .

نفرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبهم في ٢٠٠ من المهاجرين والأنصار واستعمل على المدينة بشير ابن عبد المنذر (وهو أبو لبابة) حتى بلغ قرقرة الكندر . ثم انصرف راجعًا وقد فاته أبو سفيان وأصحابه وقد رأوا أزوادًا من أزواد القوم قد طرحوها في الحرث يتخفون منها للنجاة . فقال المسلمون حين رجع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله أجمع لنا أن تكون غزوة ؟ قال نعم .

ولما سميت « غزوة السويق » لأن أكثر ما طرح القوم من أزوادهم « السويق » فرجع المسلمون بسويق كثير فسميت (غزوة السويق^(٢)) .

والظاهر أن أبا سفيان أراد بهذه الغزوة أن يبر يمينه قط ، لأنه لا يتصور أنه كان يريد بهذه القوة الصغيرة . (٢٠٠ راكب) الانتصار على المسلمين في هذه الغزوة بعد أن شاهد قوتهم في غزوة بدر . لذلك كانت هذه مناوشة لا قيمة لها .

غزوة ذي أمر

وهي غزوة غطفان

١١ رجع رسول الله ﷺ من غزوة السويق ، أقام بالمدينة بقية ذي الحجة أو قريبًا منها ثم غزا نجدًا يريد غطفان وهي غزوة ذي أمر لأن جمعًا من بني ثعلبة وحمارة تجمعوا بذى أمر يريدون الإغارة ، فجمع دُعُثُور بن الحارث الحارثي ، فخرج رسول الله ﷺ في ٤٥٠ رجلا واستعمل على المدينة عثمان بن عفان فلما سمعوا بمجيئهم ربوا في رموس الجبال فرجع رسول الله ﷺ ولم يلق كيدًا وأقام بنجد صفرًا كله أو قريبًا من ذلك . وأصاب المسلمون رجلا منهم يقال له جبار الثعلبي فدعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام فأسلم وضمه إلى بلال ليعلمه الشريعة الإسلامية كما هو دأبه من العناية بتعليم المسلمين وفي هذه الغزوة أسلم دُعُثُور بمعجزة من النبي ﷺ مع أنه هو الذي جمع قومه لحاربه ﷺ وكان سيدًا شجاعًا وبعد أن أسلم ذهب إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام فاهتدى به خلق كثير .

(١) جمع صور وهو النخل الصغير .

(٢) السويق موقع أو شمر يلى ثم يملحن ليف تارة بللاء وتارة بسن وتارة بسن وسمن .

- ١٨٥ -

زواج أم كلثوم

ابنة رسول الله ﷺ

أم كلثوم ، ابنة رسول الله من خديجة رضى الله عنها وهى أصغر سناً من رقية لأن رسول الله تزوج رقية من عثمان فلما توفيت زوجها أم كلثوم وما كان ليزوج الصنرى ويترك الكبرى ، وكان رسول الله تزوج رقية وأم كلثوم من عقبة وعقبة ابنى أبى لهب فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ تَبَتَّ بَدَأُ أَبِي لَهَبٍ ﴾ قال أبو لهب لابنيه: رأسى من رموسك حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد وقالت أم جميل أمهما « حمالة الحطب » بنت حرب بن أمية لابنيتها ، إن رقية وأم كلثوم قد صباأتنا فطلقاهما . ففعلتا فطلقاهما قبل الدخول بهما . فزوج النبي صلى الله عليه وسلم رقية من عثمان ، فلما توفيت زوجها أم كلثوم رضى الله عنهم ، وكان نكاحه إياها فى ربيع الأول من سنة ثلاث وبنى بها فى جمادى الآخرة من السنة ولم تلد منه ولداً وتوفيت سنة أربع وصلى عليها رسول الله .

زواج حفصة

فى شعبان من هذه السنة تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما بعد أن انقضت عدتها من زوجها خنيس بن حذافة^(١) ، قال عمر رضى الله عنه : ولدت حفصة وقرش بنى البيت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم بخمس سنين .

وقد كان عمر رضى الله عنه عرض حفصة على أبى بكر فلم يحبه بشئ ، وعرضها على عثمان فلم يحبه بشئ . فقال عمر لارسل الله قد عرضت حفصة على عثمان فأعرض عنى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد زوج عثمان خيراً من ابنتك وزوج ابنتك خيراً من عثمان ، فتزوج عثمان أم كلثوم وتزوج رسول الله حفصة وكان عمرها ٢٠ عاماً .

وتزوج رسول الله حفصة سنة ٣ بعد عائشة وطلقها تطليقة فبلغ ذلك عمر ثلثاً والتراب على رأسه وقال : ما يبأ الله بعمر وابنته ثم ارتجعها رسول الله . وتوفيت سنة ٤١ هـ فى زمن معاوية .

سرية زيد بن حارثة

سرية زيد بن حارثة إلى القرْد - ماء من مياه نجد^(٢) - وسببها أن قريشاً خانوا من طريقهم التى يسلكونها

(١) هو أخو عبد الله بن حذافة . كان من السابقين إلى الإسلام وهاجر إلى أرض الحبشة وعاد إلى المدينة ففهد بدياً . وأحداً وأصابته بأحد جراحه فأت منها .

(٢) نجد بماء الأرض المرتفعة وهو بين البصرة والحجاز ويحده من الشرق العراق .

إلى الشام حين كان من وقعة بدر ما كان فسلكوا طريق العراق فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب وصفوان ابن أمية وحويطب بن عبد العزى وكلهم أسلموا عام الفتح ومعهم فضة كثيرة . فبعث رسول الله ﷺ حارثة رضى الله عنه في ١٠٠ راكب فلقهم على ذلك للاء فأصاب العير وما فيها وهرب الرجال ، فقدم بالعير على رسول الله فخصمها فبلغت قيمة الخمس ، عشرين ألف درهم . وكانت هذه السرية في جمادى الآخرة من السنة الثالثة من الهجرة (سبتمبر سنة ٦٢٤ م) .

قتل كعب بن الأشرف

كعب بن الأشرف اليهودي كان أبوه عريباً من بني نهبان . أصاب دماً في الجاهلية فأقنى المدينة لخالف بني النضير فشرّف فيهم وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق فولدت له كعباً . وكان طويلاً جسيماً ذا بطن وهامة ، شاعراً مجيداً ، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله فكان يعطى أخبار يهود ويصلهم . وكان يهجو رسول الله ﷺ في أشعاره ويحرض كفار قريش على قتاله . وكان من عداوته أنه لما أصيب أصحاب بدر ، قدم زيد بن حارثة إلى أهل السافلة وعبد الله بن رواحة إلى أهل العالية ، بشيرين بشهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بالمدينة من المسلمين يخبرانهم بفتح الله عز وجل عليه وقتل من قتل وأسر من أسر من المشركين ، كبر عليه ذلك وقال : أحق هذا ؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذا الرجلان (البشيران) هؤلاء أشرف العرب وملوك الناس والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء لبطن الأرض خير من ظهرها . فلما تيقن الخبر ورأى الأسرى خرج إلى قريش يبكي قتلاهم ويحرض بأشعاره على قتال النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان ينتقل من قوم إلى قوم وأخباره تصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيذكره لسان فيهجوه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اكفني ابن الأشرف بما شئت » ، ثم رجع إلى المدينة فتفرزل في نساء المسلمين وذكرهن بسوء وأبى أن ينزع عن أذاه ، وكان يرمى إلى إحداث ثورة في المدينة ضد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فغضب رسول الله ﷺ وقال : من لي بابن الأشرف ؟ فقال محمد بن مسلمة أخو بني عبد الأشهل : أنا لك به يارسول الله هو خال ، أنا قتله . قال فافضل إن قدرت على ذلك ، فرجع محمد بن مسلمة فكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب إلا ما يعان به نفسه فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فدعاه فقال له : لم تركت الطعام والشراب ؟ فقال يارسول الله قلت لك قولاً لا أدرى أأفنيك لك به أم لا ؟ قال إيمانك عليك الجهد .

ثم أتى أبا نائلة ، وكان أخاً لكعب بن الأشرف من الرضاة وكان شاعراً وعبادين بشر والحارث بن أوس وأخبرهم بما وعد به رسول الله من قتل ابن الأشرف ، فأجابوه وقالوا كلنا بقتله ، ثم أتوا رسول الله وقالوا يارسول الله لا بد لنا أن نقول . قال : قولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك . ومعنى ذلك أنهم استأذنه أن يقولوا قولاً غير مطابق للواقع يسر كعباً ليتوصلوا به إلى قتله وكان لا بد لهم من التماس الحيلة لأنه كان يقيم في حصن

منبع خارج المدينة ، فأباح لهم الكذب لأنه من خدع الحرب ، فجاء محمد بن مسلمة ، كعب بن الأشرف فقال :
 إن هذا الرجل - يعني النبي ﷺ - قد سألنا صدقة ونحن مانعون ما نأكل وإنه قد عتانا^(١) وإن قد أتيتك
 أسئلتك . قال كعب وأيضاً والله لتملكنه^(٢) . قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شيء يصير
 شأنه وقد أردنا أن تسلفنا وسقاً أو وسقين . قال : ألم بأن لكم أن تعرفوا ما أنتم عليه من الباطل ؟ ثم أجابهم بأنه
 يسلفهم ، وقال : ارهنوني ، قالوا أى شيء تريد ؟ قال : ارهنوني نساءكم !! قالوا كيف نرهنا نساءنا وأنت أجل
 العرب ؟ قال فارهنوني أبناءكم ، قال وكيف نرهنا أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن وسق أو وسقين ؟ هذا عار
 علينا ولكن نرهنا الأمة يعنى السلاح مع عليك بما جئنا إليه قال نعم وإنما قالوا ذلك لئلا ينكر عليهم محيئهم إليه
 بالسلاح فواعده أن يأتيه وجاءه أيضاً أبو نائلة وقال له : ويحك يا ابن الأشرف إني قد جئت لك حاجة أريد أن أذكرها
 لك فاكتم عني . قال : أفضل . قال : كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء من البلاء عادتنا العرب ورميتنا من قوس
 واحدة وقطعت عنا السبل حتى جاع العيال وجهدت الأنفس وأصبحتنا قد جهدنا وجهد عيالتنا . قال كعب : أنا
 ابن الأشرف ، أما والله لقد كنت أخبرك بالابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول . قال : إني أردت أن تبعنا
 طمعاً ونرهنا ونوثق لك وتحسن في ذلك وإن معي أصحاباً على مثل رأيي وقد أردت أن أتيتك بهم فتبيهم
 وتحسن إليهم ونرهنا من الحلقة ما فيه وفاء . قال : إن في الحلقة لوفاء ، وكان أبو نائلة أخاً لكعب من الرضاة
 ومحمد بن مسلمة ابن أخيه من الرضاة ، فجاءه محمد بن مسلمة وأبو نائلة ومعهما عباد بن بشر والحارث بن أوس بن
 معاذ وأبو عيسى بن جبر وكلهم من الأوس . ولما فارقوا النبي صلى الله عليه وسلم ، مشى معهم إلى بقيع الفرقد
 ثم وجههم وقال انطلقوا على اسم الله اللهم أعنيهم . ثم رجع صلى الله عليه وسلم إلى بيته وكان ذلك بالليل وكانت
 الليلة مقمرة ، فأقبلوا حتى انتهوا إلى حصنه وكان حديث عهد بعرس فناداه أبو نائلة ثم بقية أصحابه ففرهم ووثب
 في ملحفته فأخذته امرأته بناحيها وقالت إنك امرؤ محارب وإن أصحاب الحروب لا يزلون في مثل هذه الساعة .
 قال لها إنه لأبو نائلة لو وجدني نائماً ما أيقظني ، فقالت : والله إني لأعرف في صوتك للشر . قال لها كعب لو يدعى الفتى
 لطمته لأجاب ، فنزل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا معه ثم قالوا : هل لك يا ابن الأشرف أن تمشي إلى شعب العجوز^(٣)
 تتحدث به بقية ليلتنا ؟ قال : إن شئتم . فخرجوا يتماشون فمشوا ساعة ، ثم إن أبا نائلة أدخل يده في باطن رأسه ثم
 شم يده وقال : مارأيت كالليلة طيباً أعطر قط ! ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمأن ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها
 وأمسكه من شعره وقال : اضربوا عدوا الله فضربوه بأسيا فمهم فوقع على الأرض فجزوا رأسه فخلوه في مخلاة

(١) عتانا : أى أعتبنا بما سألنا به من الأوامر والنواهي التي فيها نصب ، لكنه في مرصاة الله ، وهذا من التعريض بالمآثر .

(٢) أى تزيد ملكتك وتضجرون منه أكثر وأزيد من ذلك .

(٣) اسم موضع كان قريبا منهم .

كانت مهمهم إلى رسول الله ، وكان ذلك في السنة الثالثة من الهجرة شهر ربيع الأول (يولييه سنة ٦٢٤ م) .
هذه الحادثة قد أبوقت العرب في نفوس اليهود جميعاً ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من ظفرت به
من رجال يهود فاقتلوه . فلم يخرج من عظامهم أحد من شدة خوفهم .

قتل ابن سُنَيْتَةَ

ولما سمع مُحَيِّصَةُ بن مسعود ذلك من رسول الله وثب على ابن سُنَيْتَةَ اليهودي وهو من تجار يهود قتلته .
فقال له أخوه حُوَيْصَةُ وهو مشرك باعدوا الله قتلته أما والله لرب شحم في بطنك من ماله وضربه . فقال مُحَيِّصَةُ : لقد
أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لقتلتك ، قال فوالله لئن كان لأول إسلام حويصة فقال إن ديناً قد بلغ بك ما أرى
لحجب ثم أسلم .

هذه قصة مقتل كعب بن الأشرف ذكرنا ملخصها من أوثق المصادر التاريخية . وقد استنكر بعض الأفرنج
الذين كتبوا سيرة الرسول صلى الله عليه اغتيال كعب بأمر رسول الله لكن كعباً هو الذي أساء إلى نفسه
إذ قد سافه الضرور إلى ارتكاب مكن الشطط ببدء النبي معتصداً على ثروته وجاهه وشعره ، فإنه بد أن عاهد
النبي مع من عاهد من اليهود فمضى العهد ونشط يهجو رسول الله والمسلمين بأشعاره ، ورحل إلى مكة يبيت الدعوة
للقتل فلما عاد إلى المدينة تنزل ببناء المسلمين ولا ريب أن ذلك كله يوغر الصدور . والعرب لا يفرون إن يرى
نساءهم بسوء . ومن هذا نرى أنه كان عرضة للقتل بيد كل من يثار على حريمه ودينه من المسلمين .

ذكرنا مقتل كعب بن الأشرف قبل موقعة أحد لأن سرية محمد بن مسلمة كانت في شهر ربيع الأول من
السنة الثالثة ، وغزوة أحد في شوال من هذه السنة . ذلك أن كعباً لما جاء البشير أن اللذان أرسلهما رسول الله ليؤلفا
إلى المسلمين خبر انتصارهم في بدر وقتل من قُتل وأسر من أسر من أشرف قريش لم يصدقهما . فلما سأل الناس
وتثبت من صحة الخبر رحل إلى مكة وأخذ يحرض قريشاً على قتال المسلمين بأشعاره طارفاً أبوابهم ثم رجع إلى
للمدينة يشب ببناء المسلمين فأمر رسول الله بقتله وقتل وقد حدث ذلك بعد موقعة بدر وقبل أحد الذي دفعه
إلى الرحيل إلى مكة وإظهار عدائه شدة قنظته من انهزام المشركين وانقصار المسلمين ذلك الانتصار للمسلمين وقد ذكر
ابن هشام وابن الأثير وابن سعد في طبقاته وفي كتاب السير للإمام أبي العباس مقتل كعب قبل أحد وكذلك
أورده الطبري قبل أحد مع حوادث السنة الثالثة للهجرة وقد نقل عن الواقدي أن النبي وجع من وجهه (أي كعب)
في شهر ربيع الأول من هذه السنة (الثالثة) وأرخ مسير موير هذه الحادثة يولييه سنة ٦٢٤ (السنة الثالثة
من الهجرة) .

ومن الغريب أن الأستاذ ولقنسون يغمض عينيه عن هذه المراجع المهمة في رسالته (تاريخ اليهود) ويتشبت برأى اليعقوبي ويعتبره صحيحاً لأن اليعقوبي يقول إن النبي أمر بقتل كعب بن الأشرف بعد يوم أحد أى في ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة . لكن ما الذى ألجأ الأستاذ إلى ذلك ؟ إن الذى ألجأه إلى ذلك نفي التهمة عن كعب بن الأشرف وهى تحريضه قريشاً على قتال المسلمين وتشبيبه بنسبهم فاضرار إلى تكذيب رواية ابن هشام وغيره من كبار المؤرخين .

فليأذا قتل كعب إذن ؟

قال الأستاذ : إنه قتل في السنة الرابعة قبيل محاصرة النبي لبني النضير وكان قتله بمثابة إعلان حرب عليهم فإنه كان زعيماً من زعمائهم .

وبذلك نفي الأستاذ ولقنسون التهمة عن كعب وجوز على النبي قتل زعيم من زعماء بني النضير لا لشئ غير إعلان الحرب عليهم .

غزوة أحد

يوم السبت ١٥ شوال سنة ٨٣ (يناير سنة ٦٢٥ م)

أحد جبل مشهور بالمدينة في شمالها الغربي بينه وبين المدينة ثلاثة أميال . سُمي بذلك لتوحده واغراضه عن غيره من الجبال التى هناك وهو للوضع الذى دُفن فيه هارون أخو موسى عليهما السلام .

وسببها أن قريشاً لما أصابهم يوم بدر ما أصابهم مشى عبد الله بن أبي ربيعة . وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية^(١) . ومشى معهم رجال آخرون من أشراف قريش من أصيب آبائهم وأبنائهم وإخوانهم . فكلّموا أبا سفيان وكل من له تجارة في تلك العير التى كانت سبباً في وقعة بدر ، وكانت تلك العير موقوفة بدار الندوة ولم تعط لأربابها . فقالوا إن محمداً قد وترك قتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربنا لعلنا نترك منه ثأراً عن أصاب منا ونحن طيبو النفس أن تجهزوا بريح هذه العير جيشنا إلى محمد .

فقال أبو سفيان : وأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معى فجعلوا ذلك ربحاً لئلا يفسد لأهل العير رهوس أموالهم وكانت ٥٠٠ دينار وأخرجوا أربابها وكان الربح ديناراً لكل دينار . وتجهزت قريش ومن الأهم من قبائل كنانة وتهامة . وقال صفوان بن أمية لأبي عزة الجهمي : يا أبا عزة إنك رجل شاعر فأعنا بلسانك ولك على أن رجعت أن أغنيك . وأن أصبت أن أجعل بناتك مع بناتى يصيبهن ما أصابهن من عسر ويسر . فقال : إن محمداً قد من على وأطقتى وأنا أسير في أسارى بدر فلا أريد أن أظهر عليه . قال لى فأعنا بلسانك .

(١) أسلم هؤلاء بعد ذلك .

خرج أبو عزة ومسافع يستغفران الناس بأشعارهما . ودعا جبير بن مطعم غلاماً له حبشياً يقذف بالحرية قلماً بخطى بها ، فقال له اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة بن عبد المطلب بعمى طعيمة بن عدى فأنت حر . لأن حمزة هو الذى قتل طعيمة يوم بدر ، وقيل إن ابنة سيده طعيمة قالت له إن قتلتم محمداً أو حمزة أو علياً فى أبى فأنى لا أرى فى القوم كفاً له غيرهم ، فأنت عتيق .

وكان أبو سفيان بن حرب قائدهم وكانت عدتهم ٣٠٠٠ فيهم ٧٠٠ دارع ومعه ٢٠٠ فرس . وجملة النساء ١٧ امرأة من الدفوف والمازف أى آلات الملاهى والمجور والبضايأ وخرجت هند بنت عتبة زوج أبى سفيان التى قتل أبوها فى غزوة بدر لتفتن لأبيها وقالت « نحن بنات طارق * نمشى على النمارق * إن قتلوا نمانق * أو تدبروا فمارق * فراق غير وامق » وخرجت أم حكيم بنت طارق مع زوجها عكرمة وريطة بنت منبه السهمية مع زوجها عمرو بن العاص وغيرهن يبيكين قتلى بدر (إذا البكاء دأب النساء) وينحن عليهم ويحرضن على القتال وعدم الهزيمة والفرار .

وكان خروجهم من مكة لحس مضين من شوال . وكتب العباس للنبي ﷺ وأخبره بمصيرهم وخروجهم وأرادوه على الخروج معهم فأبى واعتذر بما لحقه يوم بدر ولم يساعدهم بشئ من المال . فجاء كتابه للنبي ﷺ وهو بقاءه وكان العباس أرسل الكتاب مع رجل من بنى غفار ، استأجره وشرط عليه أن يأتى للدينة فى ثلاثة أيام بلياليها فقبل ذلك . فلما جاء الكتاب فك ختمه ودفعه لأبى بن كعب قرأه عليه . وهذا مما يؤيد أن النبي ﷺ كان أمياً بمعنى أنه ما كان يعرف القراءة والكتابة وإلا لكان قرأ الكتاب بنفسه وكتب سره بدلاً من أن يطلب من أبى بن كعب تلاوته ثم يستكتبه .

ثم نزل ﷺ على سعد بن الربيع فأخبره بكتاب العباس فقال : والله إنى لأرجو أن يكون خيراً فاستكتبته إياه . ولما خرج رسول الله ﷺ من عنده ، ذلت له امرأته ، ما قال لك رسول الله ﷺ ؟ فقال لها : يا أم محمد ما أنت وذلك ! فقالت قد سمعت ما قال وأخبرته بما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاستخرج وأخذ يبيدوا ولحق النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره خبرها . وقال يا رسول الله : إنى خفت أن يقشو الخبر فترى أنى أنا القشى له ، وقد استكتبتهنى إياه . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خل عنها .

سارت قریش وهم ٣٠٠٠ رجل ومعه الأحابيش^(١) الذين حالفوا قریشاً وهم بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمه وخرج معهم أبو عامر الراهب فى ٧٠ فارساً . . . وسماه رسول الله ، الفاسق بدلاً عن الراهب ، وابنه حنظلة من فضلاء الصحابة وهو من المستشهدين بأحد . اجتمع الأحابيش عند حبش وهو جبل بأسفل مكة وتحالفوا على أنهم مع قریش يداً واحدة ما سجال ليل ووضح نهار ومارسا حبش مكانه .

(١) ليل سموا أحابيش باسم جبل بأسفل مكة : يقال له حبش ، وقيل سموا بذلك لتحبهم أى تحميمهم .

سارت قريش حتى نزلوا ببطن الوادي من قبل أحد مقابل المدينة بذي الحليفة . وكان وصولهم يوم الأربعاء ثاني عشر شوال فأقاموا به الأربعاء والخميس والجمعة ، وتشاور المسلمون في الخروج من المدينة . وكان رأى عبد الله ابن أبي سلول رأى النبي ﷺ فإنه كان يرى عدم الخروج منها . ولكن ألح عليه ﷺ بمضئ الصحابة فخرج فأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال .

وقد رأى النبي ﷺ رؤيا قبل خروجه ، وكانت ليلة الجمعة . فلما أصبح قال : والله إني قد رأيت خيراً رأيت بقرًا تذهب ورأيت ذباب سفي (طرفه) ثلماً ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة وكأني مردف كبشاً . فاما البقر فناس من أصحابي يقتلون . وأما الثلم الذي رأيت في سفي فهو رجل من أهل يثرب يقتل وأولت الدرع الحصينة المدينة ، وأولت الكبش بأني أقتل صاحب الكتبية . وقد صدق الله رؤياه ﷺ . فكان الرجل الذي من أهل بيته « حمزة » سيد الشهداء . وقتل على رضى الله عنه « طلحة بن عثمان العبدري » صاحب لواء المشركين . فهو صاحب الكتبية وكبش القوم سيدهم وكان الذي سيفه ما أصاب وجهه الشريف في النزوة كما سيأتي ذكره .

قال رسول الله ﷺ لأصحابه : امكنوا بالمدينة ، فإن دخل القوم للمدينة قاتلناهم ورموا من فوق البيوت وكانوا قد شبكوا المدينة بالبنان من كل ناحية فهي كالحصن . وكان ذلك رأى أكابر المهاجرين والأنصار وأرسل إلى عبد الله بن أبي ابن سلول يستشيرهم تألفاً له ولم يستشره قبل ذلك . فكان رأى عبد الله مع رأيه ﷺ . فقال رجال من المسلمين لم يحضروا بلداً وأسفوا على ما فاتهم من مشهدها : يا رسول الله ، إنا كنا نتمنى هذا اليوم ، اخرج بنا إلى أعدائنا ، لا يرون أننا جبناء عنهم وواقفهم حمزة بن عبد المطلب .

فقال ابن أبي : يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم . فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصاب منا . ولا دخلها علينا إلا أصبنا منهم . فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا ، أقاموا بشر مجلس ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا ، رجعوا خائبين كما جاءوا .

وقال حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عباد والتمنان بن مالك وطائفة من الأنصار إنا نغشى يا رسول الله أن يظن عدونا أننا كرهنا الخروج جبناً عن قتلهم ، فيكون هذا جرأة منهم علينا . وزاد حمزة قال : والذي أنزل عليك الكتاب ، لا أطعم اليوم طعاماً حتى أجالدهم بسيفي خارج للمدينة . وقال التمان : يا رسول الله لا تحرمنا الجنة . فوالذي نفس بيده لأدخلنها .

فترجع عنده ﷺ موافقة رأيهم وإن كرهه ابتداء ليقضى الله أمراً كان مفعولاً ولم يكن قد أوحى إليه في شأن البقاء أو الخروج فأفقد مشورتهم .

صلى رسول الله ﷺ بالناس الجمعة ثم وعظهم وأمرهم بالجد والاجتهاد وأخبرهم بأن النصر لهم ماصبروا وأمرهم

باليهود لندوم ثم صلى بالناس المصير . ثم دخل بيته ومعه صاحبه فعماء وألبساء وتقلد السيوف وخرج وقد لبس لأمنته درعه وقيل سلاحه) وألقى الترس في ظهره وأخذ قناته بيده .
اصطف الناس ينتظرون خروجه صلى الله عليه وسلم فقال لم سعد بن معاذ رضى الله عنه وأسيد بن حضير :
استكرهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخروج فردوا الأمر إليه . وكان سعد بن معاذ سيد الأوس وهو في الأنصار كالمهدي في المهاجرين .

ولما خرج رسول الله متقلداً سيفه ، ندم الطالبون لخروجه على ما صنعوا وفالوا ما كان ينبغي لنا أن نخالفك ، فاصنع ماشئت . وفي رواية فإن شئت فاقعد . فقال ما ينبغي لنبى إذا لبس لأمنته أن يضمها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه فخرج يوم الجمعة وأصبح بالشعب من أحد يوم السبت للنصف من شوال ومشى على رجله ولما خالف رسول الله رأى ابن أبى بنزوجه إلى القتال ، شق عليه ذلك ، وقال ، أطاع الولدان وعصاى .

واستعمل على المدينة « ابن أم مكتوم » رضى الله عنه . وعقد ثلاثة ألوية ، لواء للأوس جعله بيد أسيد بن حضير . ولواء للخزرج جعله بيد الحباب بن النضر ولواء للمهاجرين جعله بيد علي بن أبى طالب رضى الله عنهم . وكان في المسلمين مائة دارع (الدارع ، لابس الدرع) وركب عليه السلام فرسه وقيل خرج ماشياً وخرج السعدان أمامه يدوان - سعد بن معاذ وسعد بن عباد - وكانا دارعين . ورد عليه السلام جماعة من المسلمين نحو سبعة عشر لصفهم منهم : أسامة بن زيد وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري والنعان بن بشير ورافع ابن خديج وسمرة بن جندب . ثم أجاز رافع بن خديج لما قيل إنه رام . فخرج وأصيب بسهم في رقبته فززع السهم وبقى النصل إلى أن مات .

ورأى صلى الله عليه وسلم جماعة من اليهود مع عبد الله بن أبى يريدون الخروج فقال أوقد أسلوا ؟ قالوا : لا يا رسول الله . قال : مروهم فليرجموا ، فإننا لا نستعين بالمشركون على المشركين وكان للمسلمون الخارجون معه عليه السلام ١٠٠٠ ثم اغتزل عبد الله بن أبى ورجع هو ومن معه من المنافقين وكانوا ٣٠٠ فبقى للمسلمون ٧٠٠ وكان عدد للمشركين ٣٠٠٠ ولم يكن مع المسلمين يومئذ إلا فرسان : فرس لرسول الله وفرس لأبى بردة .
وقال ابن أبى حين أراد الرجوع : عصاى وأطاع الولدان ومن لارأى له علام قتل أغشنا ؟ أرجعوا أيها الناس .
لما اغتزل ابن أبى ومن معه سقط في أبدى طائفتين من المسلمين وهمتان تشلاهما : بنو حارثة من الخزرج وبنو سلمة من الأوس .

ثم مضى رسول الله حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادى في الجبل فجعل ظهره وعسكره إلى أحد وصلى الصبح بأصحابه صفوفاً . ثم اصطف للمسلمون بالبيضة وكان على ميمنة خيل المشركين خالد بن الوليد على يسرتها عكرمة بن أبى جهل وعلى الشاة صفوان بن أمية وقيل عمرو بن العاص .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم للزبير بن العوام : استقبل خالداً وكن بلازاه ، وأمر جماعة آخرين أن يكونوا بلازاء خيل أخرى للمشركين ولم يكن مع المسلمين إلا فرس أو فرسان . وجعل النبي صلى الله عليه وسلم على الرماة عبد الله بن جبير بن النعمان الأوسى وهو أخو خوات بن جبير . وكان الرماة خمسين رجلاً . فأقامهم النبي ﷺ على جبل صغير مرتفع . وقال لهم :

« احموا ظهورنا . لا يأتونا من خلفنا ، وارشقوهم بالنبل فإن الخيل لا تقوم على النبل . إنا لانزال غالبين ما نبهم مكانكم . اللهم إني أشهدك عابهم . »

وفى رواية قال لهم رسول الله :

« إن رأيتمونا تحططنا الطير ، فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم . وإن رأيتمونا هزمتنا القوم أو ظاهرناهم وهم قتلى فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم . »

ثم عرض رسول الله ﷺ سيفاً وقال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟ فقام رجال وبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول : أنا يارسول الله ، منهم أبو بكر الصديق وعمر وعلي والزبير . فأمسكه عنهم ولم يعطه لهم حتى قام إليه « أبودجانة » فقال : وما حقه يارسول الله ؟ قال : أن تضرب في وجه المدحوق بنعني . قال : أنا آخذه يارسول الله . قال : لعلك إن أعطيتك قتال في الكيول (مؤخر الصفوف) قال : لا يارسول الله . فأعطاه إياه وكان رجلاً شجاعاً يمثال عند الحرب . فلما رآه ﷺ تبيختر قال : إنها لمشية يبيغها الله تعالى في مثل هذا الوطن فحمل أبو دجانة لا يلقى أحداً من المشركين إلا قتله . وكان إذا كل السيف شحذه بالحجارة ثم يضرب به العدو . ولما اصطف القوم نادى أبو سفيان : يامشر الأوس والخزرج خلوا بيننا وبين بني عمناء ونصرف عنكم فشتموه أقبح شتم ولعنوه أشد اللعن .

وخرج طلحة بن أبي طلحة وكان بيده لواء المشركين فطلب للباررة مراراً فلم يخرج إليه أحد فخرج إليه على ابن أبي طالب رضى الله عنه فضربه فقطع رجله فوقع على الأرض وبدت عورته فرجع عنه ولم يجهز عليه . فأخذ لواء المشركين أخو طلحة وهو عثمان بن أبي طلحة فحمل عليه حمزة قطع يده وكشفه . فأخذه أخو عثمان وأخو طلحة هو أبو سعيد بن أبي طلحة فرماه سعد بن أبي وقاص فأصاب فخذه فقتله . فحمله مسافع بن طلحة ابن أبي طلحة الذي قتله على رضى الله عنه فرماه عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح فقتله . ثم حمله أخو مسافع وهو الحارث بن طلحة فرماه عاصم أيضاً فقتله . ثم حمل اللواء كلاب بن طلحة فقتله الزبير فحمله جلاس بن طلحة فقتله طلحة بن عبيد الله ثم حمله أرملة بن نرحبيل فقتله على رضى الله عنه ثم حمله أبو زيد بن عمرو فقتله قزمان . فحمله ولد الشرحبيل بن هاشم فقتله قزمان أيضاً . ثم حمله صواب غلامهم وكان عبداً حبشياً فقتله على . ثم لمزل اللواء طريقاً حتى أخذته عمره بذت علقمة الحارثية فرفسته لفريش فاستداروا حوله .

وقد كان لواء المشركين شؤماً عليهم ، فسكبا عمله أحد قتل وهكذا قُتل أحد عشر رجلاً حملوا اللواء بالتوالي وكان اهتمام المسلمين موجهاً إلى حامل العلم بنوع خاص لأنه كبش الكتبية . وتكبب بحمل العلم كل من مسافع والحارث وكلاب وجلاس . وهؤلاء الأربعة أولاد طلحة بن أبي طلحة فكلهم قُتلوا كأبيهم وعمهم وهما عثمان وأبو سعيد .

ولما قتل أصحاب اللواء صاروا كتاباً متفرقة فجاش للمسلمون فيهم ضرباً حتى أجهضهم وأزالوهم عن أمكنتهم وكان شعار المسلمين يومئذ (أمت ! أمت !) وشعار الكفار (يا لهزي !) (يا لهبل !) .

الكرّة على المسلمين

انهزم المشركون ووقع المسلمون يتهبون للمسكر ويأخذون ما فيه من الفنائم واشتغلوا عن الحرب . فقال أصحاب عبد الله بن جبير وهم الرماة الذين أمرهم النبي ﷺ بالبقاء بمكانهم « النغمية ! أي قوم قد غلب أصحابكم ، فما تنتظرون ؟ » ومعنى ذلك أن الرماة طعموا في النغمية تأسين أمر القائد العام وهو رسول الله فإنه أمرهم بالثبات في مراكزهم إذ قال لهم : إنا لا نزال غاليين مائتين مكانكم . فقال لهم قائدهم عبد الله بن جبير : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ يعني قوله لا تبرحوا . فأبوا أن يطيعوه ، وقالوا : والله لتأتين الناس ولنصيبن من النغمية فإن للمشركين قد انهزموا فما مقامنا هاهنا ؟ وقد غلب هؤلاء أن الحرب قد انتهت وأن قريشاً قد هُزمت وقد ثبت عبد الله ابن جبير في مكانه وثبت معه دون العشرة .

فلما توجه الرماة إلى محل النغمية كرت للمشركون راجعين . ونظر خالد بن الوليد إلى خلاء الجبل الذي كان فيه الرماة وقله أهله فكرّ بالخليل وتبّه عكرمة بن أبي جهل فحملوا على من بقي من الرماة قتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله ابن جبير ومثلوا به ووقعت الهزيمة في المسلمين بعد مدة وجيزة لأنهم خالفوا ما نهاهم عنه رسول الله ﷺ ففوقوا لخالفته . ووقع الاختلاط في جيش المسلمين وارتبكوا وصار يضرب بعضهم بعضاً !

ثبات رسول الله ﷺ

ثبت رسول الله ﷺ ولم يفارق مكانه الذي وصل إليه وقت انهزام المشركين ولم تزل قدمه شبراً واحداً عن موقعه مع أن الاختلاط كان شديداً حتى قد المسلمون التمييز بينهم وبين أعدائهم وترك المسلمون شعارهم الذي يعارفون به وهو (أمت ! أمت !) فوقع القتل في المسلمين بعضهم في بعض ، وحافظ المشركون على شعارهم . وعما زاد في ارتباك المسلمين أن رجلاً اسمه ابن قبيصة اللبثي قتل مصعب بن عمير وكان يشبه النبي ﷺ إذا لبس لأمته فظن أنه قتل رسول الله ﷺ فأذاع ذلك وكان مصعب يذب عن رسول الله ﷺ وكان عدة الشهداء من المسلمين ٧٠ رجلاً وعدة

القتلى من المشركين ٣٣ رجلا . وكان بين القتلى حفظة بن أبي سفيان . ووصل المدو إلى رسول الله وأصابته حجارتهم حتى وقع وأغشى عليه وخدشت ركبته ، فأخذ على يده ورفعه ملحة بن عبيد الله حتى استوى قائما ، وأصبحت رباعيته اليمنى السفلى وشج في وجهه وكلت شفته السفلى وكسرت الخوذة على رأسه . وامتنع مالك بن سنان الخلدري دم رسول الله ثم ازدردته .

ثم أراد رسول الله أن يعلو الصخرة التي في الشعب ، فلما ذهب لينهض لم يستطع لأنه ضعف لكثرة ماخرج من دم رأسه الشريف ووجهه مع كونه عليه درعان فجلس تحته طائفة بن عبيد الله فنهض به حتى استوى عليها . وعطش ﷺ عطشا شديدا ، فخرج محمد بن مسلمة رضى الله عنه يطلب له ماء فلم يجد ، فذهب إلى مياه فألقى منها بماء عذب فشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاه لبحر .

وفي بعض الروايات أن نساء المدينة خرجن وفيهن فاطمة بنت رسول الله ، فلما قتلت رسول الله اعتنقته وجعلت تنسل جراحاته وعلى رضى الله عنه يسكب الماء فتزايد الدم . فلما رأت ذلك أخذت شيئا من حصى مصنوع من البردى فأحرقته بالنار حتى صار رمادا . فأخذت ذلك الرماد وكدته حتى لصق بالجرح فاستمسك الدم .

المنهزمون من المسلمين

وصار للمسلمون ثلاث فرق : فرقة استمروا في المهجعة إلى قرب المدينة فأرجعوا حتى انقض القتال ، وهم الذين نزل فيهم قوله تعالى :

﴿ إِنَّا الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَاوَدَهُم بِمِثْلِهِمْ ﴾
وفرقة صاروا حيارى لما سمعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قتل . فصارت غاية الواحد منهم أن يدافع عن نفسه أو يواصل القتال إلى أن يقتل وهم أكثر الصحابة .

وفرقة ثبتت مع النبي ﷺ ثم تراجعت إليه الفرقة الثانية شيئا فشيئا لما عرفوا أنه حي . وكان في جملة من انهزم عثمان بن عفان ، والوليد بن عتبة ، وخارجة بن زيد ، ورفاعة بن معلى ، فأقاموا ثلاثة أيام ثم رجعوا إلى رسول الله فالت موسى بن عتبة : لا غاب النبي ﷺ عن أعين بعض القوم واختلط بعضهم ببعض وسمعوا الصراخ ، قال رجال من المنافقين : لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ، وقال بعض منهم لو كان نبيا ما قتل فارجوا إلى دينكم الأول ، وفي ذلك أنزل الله ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ وقال رجل منهم ليت لنا رسولا إلى عبد الله بن أبي ليثامن لنا من أبي سفيان . يقوم إن محمدا قد قتل فارجوا إلى قومكم ليؤمنوكم قبل أن يأتيكم الكفار فيقتلوك فإنهم يدخلون البيوت . قال أنس بن النضر عم أنس بن مالك رضى الله عنها : يا قوم إن كان محمد قد قتل فإن رب محمد لم يقتل . قاتلوا عليه . وشبهه بهذه

- ١٩٦ -

المقالة عند النبي ﷺ سعد معاذ رضى الله عنه ووافق أنس بن النضر جماعة كثيرون على هذه المقالة وم المؤمنون أهل الصدق واليقين الذين تمكن الإيمان من قلوبهم .

وروى ابن إسحاق أن أنس بن النضر ، عم أنس بن مالك رضى الله عنهما جاء إلى عمر بن الخطاب وطلحة ابن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار رضى الله عنهم ، فقال إن كان قد قُتِلَ (يعنى محمداً) فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه . ثم استقبل العدو مقاتل حتى قُتِلَ رضى الله عنه قال أنس : ولقد وجدنا بأنس بن النضر يومئذ سبعين ضربة . فما عرفه إلا أخته ، عرفتة بينانه (أى بأصابعه) .

وفى البخارى عن أنس رضى الله عنه قال : غاب عني أنس بن النضر عن قتال بدر فقال : يا رسول الله غيبُ عن أول قتال ليرين الله ما صنع . فلما كان يوم أحد وانكشف المسلمون ، قال اللهم إني أعتذر إليك بما صنع هؤلاء (يعنى أصحابه) وأبرأ إليك بما صنع هؤلاء (يعنى المشركين) ثم تقدم فاستقبله سعد بن معاذ . قال : يا سعد الجنة ورب النضر إني أبجد رجحاً دون أحد . قال سعد فما أستطيع أن أصف ما صنع .

وقد مثل به للمشركون . وما أفضح التمثيل بالقتلى لكن هؤلاء قد أعماهم حب الانتقام !!

وعن قال مثل مقالة أنس بن النضر ، ثابت بن الدحداح رضى الله عنه فإنه قال : يا معشر الأنصار إن كان محمد قد قُتِلَ فإن الله حي لا يموت قاتلوا عن دينكم فإن الله مظهركم ونامركم . فنهض إليه نفر من الأنصار لحملهم على كتيبة فيها خالد بن الوليد وعمر بن الماص وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب . فحصل عليه خالد بن الوليد بالرمح فقتله وقتل من كان معه من الأنصار .

رسول الله ومن ثبت معه

ذكرنا أن رسول الله قد ثبت ولم يتزعزع عن موقفه عندما انهزم المسلمون واختلطوا وقتلوا وفر من فر منهم قال ابن سعد : ما زال ﷺ يرمى عن قوسه حتى صارت شظايا ويرمى بالحجر ، وكان أقرب الناس إلى القوم . وهذا ما يؤيد أنه ﷺ كان أشجعهم وأثبتهم . وجاء عن علي رضى الله عنه وغيره : كنا إذا اشتد إليّ (أى حتى القتال) اتقينا رسول الله ﷺ . أى فيجعلونه في وجه القوم ويكونون خلفه .

وعن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه قال : لما جال الناس عن رسول الله ﷺ تلك الجولة يوم أحد ، قلت أذود عن نسي . فلما أن أستشهد وإما أن ألحق حتى ألقى رسول الله ﷺ فيينا أنا كذلك إذا برجل عمر وجهه ما أدرى من هو ، فأقبل للمشركون حتى قلت قد ركبه فلا يده من الحصى ثم رمى به في وجوههم فكتبوا على أعقابهم القهقري حتى أتوا الجبل . فقل ذلك مراراً وأدرى من هو ، وبينى وبينه القداد ، فيينا أنا أريد أن أسأل القداد عنه إذ قال القداد يا سعد هذا هو رسول الله ﷺ يدعوك فقلت وأين هو ؟ فأشار إليّ فممت وكانه

لم يصبني شيء من الأذى وأجاسنى أمامه وأقول : اللهم سهمك فارم به عدوك ورسول الله ﷺ يقول : اللهم استجب لسعد . اللهم سد رميته وأجب دعوته (فكان سعد مجاب الدعوة) حتى إذا فرغ النبل من كنفاتي ، نثر صلى الله عليه وسلم لى ما كان فى كنفاته وانكشف الناس عنه ﷺ .

. وعن سعد رضى الله عنه قال : لقد رأيتنى والنبي ﷺ ينساونى النبل ويقول : ارم فذاك أبى وأمى حتى إنه ليناولنى السهم ماله فصل فيقول : ارم به وجاء أن سعداً رمى يوم أحد ألف سهم ما فيها سهم إلا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ارم فذاك أبى وأمى ، ففداه ذلك اليوم ألف مرة . وعن علي رضى الله عنه قال : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فذاك أبى وأمى إلا لسعد رضى الله عنه (يعنى يوم أحد فلا ينافى أن النبي ﷺ قال مثل ذلك للزبير رضى الله عنه يوم الخندق) .

وثبت معه ﷺ أربعة عشر : سبعة من المهاجرين وهم :

(١) أبو بكر الصديق (٢) عمر بن الخطاب (٣) عبد الرحمن بن عوف (٤) سعد بن أبى وقاص (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام (٧) أبو عبيدة بن الجراح .

أما على بن أبى طالب رضى الله عنه فقد صحت الأحاديث بأنه ممن ثبت ، وبعض الرواة لم يذكره لأنه كان حامل اللواء بعد مصعب .

وسبعة من الأنصار وهم :

(١) أبو دجانة (٢) الحباب بن المنذر (٣) عاصم بن ثابت (٤) الحارث بن الصمة (٥) سهل بن حنيف (٦) سعد بن معاذ (٧) أسيد بن حضير .

وما زال النبي ﷺ يرمى عن قوسه حتى اندقت سيكتها (والسية ما انصرفت من طرفي القوس اللذين هما محل الوتر) وفى رواية حتى تقطع الوتر وبقي في يده قطعة قدر شبر .

شجاعة امرأة

وثبتها مع رسول الله ﷺ

لما انكشف المسلمون واختلط أمرهم ، ثبتت أم حمارة المازنية واسمها نسيبة وهى زوج زيد بن عاصم قالت : خرجت يوم أحد لأنظر ما يصنع الناس ومعى سقاء فيه ماء أسقى به الجرحى فانتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى أصحابه والريح للمسلمين ، فلما انهزم للمسلمون ، انحزرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقامت بأشرف القتال دونه وأذنب عنه بالسيف وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراحة إلى . روى أنه كان على عاتقها جرح أجوف له غور فقيل لها من أصابك بهذا ؟ قالت ابن قتيبة لما ولى الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أقبل ابن قتيبة

يقول دلونى على محمد فلا نجوت إن نجا فاعتزمت له أنا ومهصب بن عمير رضى الله عنه فضربنى هذه الضربة وضربت به ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان .

وجاء فى رواية : خرجت نسيبة يوم أحد وزوجها زيد بن عاصم وابناها حبيب وعبد الله وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله عليكم أهل بيت . قالت له نسيبة رضى الله عنها : ادع الله أن تراقك فى الجنة . قال اللهم اجعلهم رفقاءى فى الجنة . وعند ذلك قالت رضى الله عنها : ما أبالى ما أصابنى من أمر الدنيا .

وفال ﷺ فى حقها : ما التفت يميناً وشمالاً يوم أحد إلا ورأيتها تقاتل دونى . وقد جرحت رضى الله عنها اثنى عشر جرحاً ما بين طلعة برمح وضربة بسيف .

فهذه حقاً شجاعة مدهشة لامرأة وقد تحملت ما أصابها من الجراح فى سبيل الجهاد ، وهو ما يميز عن تحمله الرجال فضلاً عن النساء ، مع العلم بأن كثيراً قد فروا من القتال ، لا أصابهم من الفرع والاختلاط . ويلاحظ أن للسيدة فى قتالهم المشركين كانوا يرجون الاستشهاد كي يفوزوا بجنتها للخلد ، فأ كانوا يبالغون بحبائهم الدنيوية لأنها زائلة مشوبة بالأحزان والآلام . أما الآخرة فلإنها دار بقاء ينعم فيها أهل الشهادة والصالحون . وكان النساء يحاربن مع الرجال ويضمدن الجراح .

وجاء فى أسد الغابة أن أم عمارة شهدت بيعة العقبة ونهبت أحدًا مع زوجها وابنيها وشهدت بيعة الرضوان وشهدت اليمامة قالت حتى أصيبت يدها وجرحت بومئذ اثنتى عشرة جراحة . روى عنها عكرمة مولى ابن عباس أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : أرى كل شيء للرجال . ما أرى النساء يذكرن بشيء . فنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ وبمثل هذه الروح اتصفت المسلمون فى جميع حروبهم وافتقر الإسلام .

إحدى معجزات رسول الله ﷺ

رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزات كثيرة سيأتى ذكرها فى كتابنا هذا ، ومن هذه المعجزات المعجزة الآتية : أصيبت عين قتادة بن النعمان من بنى ظفر وقد تددت على وجنته فردها عليه رسول الله فضمعت وكانت أحسن عينيه (الطبرى) وقال ابن إسحاق : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضى عن قوسه حتى اندثرت سنيها فأخذها قتادة بن النعمان فمكأت عنده وأصيبت يومئذ عين قتادة حتى وقعت على وجنته . قال ابن إسحاق فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ردّها بيده فمكأت أحسن عينيه وأحدّها وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى .

قتل أبي بن خاف

أقبل: أبي بن خاف يوم أحد نحو النبي ﷺ وهو يقول: أين محمد؟ لا نجوت إن نجا، فاستقبله مصعب بن عمير رضي الله عنه فقتل مصعباً فاستقبله رجال من المسلمين فأمرهم رسول الله ﷺ أن يخلو طريقه فأقبل وهو يقول: يا كذاب أين تفر! فتناول النبي ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة أو من الزبير بن العوام رضي الله عنه فرماه ﷺ بها فأصاب عتقه وخدشته خدشاً كبيراً واحتقن الدم بذلك الخدش. فرجع وهو يقول: قتاني والله بمحمد فقالوا له: ذهب والله فؤادك. إنا لنأخذ السهام من أضلاعنا فترمي بها. فما بك والله من بأس. ما أجزعك! إنما هو خدش. ولو كان هذا الذي بك بعين أحدنا ما ضره. وقال والمات الذي. لو كان هذا الذي بي بأهل ذى الجواز (سوق من أسواق الجاهلية عند عرفة) لما تروا أجمعون. إنه قال لي بكة أنا أقتلك. فوالله لو بصبى على لفتاني. وكان أبي يقول بكة للنبي ﷺ: يا محمد إن عندى المود (يعنى فرساً له) أعافه كل يوم فرقاً (مكيال) من ذرة أقتلك عليها. فيقول رسول الله ﷺ: أنا أقتلك إن شاء الله.

ولم يقتل رسول الله ﷺ بيده الشريف أحداً إلا أبي بن خاف لا قبل ولا بعد. ثم مات أبي وم راجعون إلى مكة بسرف وقيل بيطن رابع.

إصابة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وصل العدو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قدمنا فأصابته حجارته حتى وقع وأصيبت رابعيته اليمنى السفلى وشج في وجهه وكلت شفته السفلى وكان الذي أصاب رسول الله عتبة بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص والدم يسيل على وجهه وهو يقول:

«كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم» فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَأَتَمَّ اللَّهُ ظَالِمُونَ﴾.

ودخلت حلقتان من المغر^(١) في وجنته ﷺ وهشمت البيضة على رأسه و. مال الدم وجهه ورموه بالحجارة حتى سقط لشفة في حفرة واحتضنه طلحة بن عبيد الله، حتى استوى قائماً. وانزع أبو عبيدة عامر بن الجراح الحلقتين اللتين كانتا غاصتا في وجنته ﷺ وعض عليهما حتى سقطت فنبته فكان ساقط الثنيتين. وامتنص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري رضي الله عنه الدم من وجنته صلى الله عليه وسلم ثم ازدردته فقال عليه الصلاة والسلام (من مس دمه دمي لم تصبه النار) فاستشهد في هذه الغزوة.

(١) المغر: زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس ليس تحت القلنوة.

— ٢٠٠ —

وكان سبب وقوع رسول الله ﷺ أن ابن قبيصة علاه بالسيف فلم يؤثر السيف فيه إلا أن تقل السيف أثرى عاتقه فشكا ﷺ منه شهراً وقُدِّف رسول الله بالحجارة حتى وقع لشقه .
ولما أصيب رسول الله ﷺ قالوا لو دعوت عليهم فقال : « إني لم أبش لئلا ولكن بمش دعايياً ورحمة الله لهم اهد قومي فإنهم لا يملون » فاعتذر عنهم وتضرع إلى الله أن يمهلهم حتى يكون منهم أو من ذريتهم من يؤمن وهذا غاية الحلم .

المثلة بالمسلمين

وبحمة رضى الله عنه

اشتغل للشركون ذكوراً وإناتاً يقتل المسلمين يمثلون بهم يقطعون الأذان والأنوف والفروج ويعيقون البطون وهم يظنون أنهم أصحاب رسول الله ﷺ وأشرف أصحابه .

واتخذت هند بنت عتبة زوج أبي سفيان من أذان الرجال وأنوفهم خدماً (أى خلاخل) وقلائد وأعطت خدماً وقلائد وأعطت قرطها وحشياً غلام جبير وبقرت عن كبد حمزة فلا كها (مضتها) فلم تستطع أن تسينها فلفظتها لأنها كانت نذرت إن قدرت على حمزة لتأكل من كبده . وهند هذه هي زوج أبي سفيان وأم معاوية وقد أسلمت في فتح مكة بعد زوجها كما سيأتى ومن مثل به عبد الله بن جحش ودفن هو وخاله حمزة في قبر واحد . ونهى الإسلام عن المثلة لأنها تدل على الوحشية وتنافى الإنسانية وقد قاتل حمزة ذلك اليوم قتالاً شديداً وكان يقاتل بسيفين وآخر قتيل قتله رضى الله عنه سباع بن عبد العزى الخزاعى . فلما أكب عليه ليأخذ دمه قتله وحشياً غلام جبير بن مطعم ثم أسلم بعد ذلك وكان قد استأجرته هند لقتل حمزة .

والتس رسول الله ﷺ حمة فوجده مبقور البطن ومجدوع الأنف والأذنين فساءه التمثيل به . فقال : لن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم . ولما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغضبه على من قتل بسمة ماضل ، قالوا والله لن أظهرنا الله بهم يوماً في الدهر لئننا بهم مثلة لم يمثله أحد من العرب . فالثلة كانت حققتها العرب في الجاهلية في الحرب انتقاماً من أعدائهم إذا بلغ منهم الغيظ مبلته . لكن الإسلام حرّمها لشناعته . فمن ابن عباس : إن الله عز وجل أنزل في قول رسول الله ﷺ وقول أصحابه :

﴿ قَاتِلْ عَاقِبَتَهُمْ فَأَقْبُوا بِمِثْلٍ بِمَا قُتِلْتُمْ بِهِ وَلَنْ صَبْرُكُمْ لَهُمْ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلَالٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴾

فما رسول الله صلى الله عليه وسلم ونهى عن المثلة وقال : « أصبر وأحتسب » .

- ٢٠١ -

هذا مانهى عنه الدين الإسلامى الحنيف . ونهى عنه قواد الجيوش الإسلامية جيوشهم . لكننا نرى بعض جيوش الدول المتمدنة فى القرن العشرين تقترف المثلثة بأعدائها . وهم يزعمون أن الدين الإسلامى دين همجية ووحشية ١١ . وتلك الوحشية ترتكب فى زمن المدينة .

وبينا رسول الله فى الشعب مع أصحابه إذا علت طائفة من قريش الجبل معهم خالد بن الوليد . فقال رسول الله : « اللهم إنيهم لا ينيى لهم أن يهلونا . اللهم لا قوة لنا إلا بك » فأنالهم عمر بن الخطاب وجماعة من المهاجرين حتى أهبطوا من الجبل .

أسباب انهزام المسلمين

فى واقعة أحد

كان أبو سفيان بن حرب هو الذى قاد قريشاً كلها يوم يكن بأعلم من رسول الله بقيادة الجيش وتنظيمه بل كان رجلاً تاجراً لكنه استطاع أن يجند عدداً كبيراً من قريش فكانت عدتهم ٣٠٠٠ فيهم ٧٠٠ دارع ومعهم ٢٠٠ فرس . ومجموع الذين خرجوا للقتال مع رسول الله ٧٠٠ منهم ١٠٠ دارع ولم يكن فيهم سوى فرسين لأن عبد الله بن أبى انخذل عن رسول الله بثث الناس وعاد بهم إلى المدينة .

ثم إن رسول الله ﷺ بعد أن صف للمسلمين بأصل أحد وجبل الرماة على جبل صغير وأمرهم ألا يبرحوا مكانهم فأثلا لهم « احموا ظهورنا حتى لا يأتونا من خلفنا » طمعوا فى الغنمية وهبطوا تاركين مركزهم . وبذلك تمكن خالد بن الوليد من الكر على المسلمين بالتخيل من الخلف فأنكشفوا ووقع الاختلاط بينهم وذاع فى الجيش أن محمداً قُتل فازداد ارتباك المسلمين وفروا منهزمين وفر بعضهم إلى المدينة .

نم إن رسول الله ﷺ لم يتزحزح عن مركزه وشاهده بعض الصحابة فالتفتوا حوله وثبتوا معه وقاتلوا قتالاً شديداً حتى إن سعد بن أبى وقاص وحده رمى يومئذ بألف سهم ورمى رسول الله عن قوسه حتى اندقت سبها واستطاع عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن يهبط الطائفة التى علت الجبل من قريش ، لكن هذا كله كان بعد أن وقعت الخزيمة بالمسلمين بسبب مخالفتهم أمر رسول الله فقد كانوا منتصرين فى بدء الواقعة . وقد قُتل فى هذه الواقعة ٧٤ من المسلمين و ٢٠ من المشركين .

نداء أبى سفيان

أشرف أبو سفيان على القوم بعد الواقعة قال : أفى القوم محمد ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجيبوه مرتين ، ثم قال أفى القوم ابن أبى قحافة ثلاثاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تجيبوه ، ثم قال أفى القوم

ابن الخطاب ، «لأننا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تحبوه . ثم التفت إلى أصحابه فقال : أما هؤلاء فقد قتلوا ، لو كانوا في الأحياء لأجابوا فلم يملك عمر بن الخطاب نفسه أن قال : كذبت يا عباد الله فقد أبق الله لك ما نجزيك . فقال اهل هُبَل . اعل هُبَل . وقيل إنه صرخ بأعلى صوته وقال : « أنعمت فقال إن الحرب سجال^(١) » يوم أحد بيوم بدر اعل هُبَل . وسبب ذلك أنه حين أراد الخروج كتب على سهم « نم » وعلى الآخر « لا » وأجالهما عند هُبَل فخرج بهم « نم » فتوجه إلى أحد فقال اعل هبل أى زد علوا^٢ ، فقال رسول الله ﷺ أجيئوه فقالوا : ما قول ؟ قال قولوا : الله أعلى وأجل . قال أبو سفيان : ألا لنا المزي ولا عزي لكم ، فقال رسول الله ﷺ أجيئوه . قالوا ما قول ؟ قال قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم »

ولما أجاب عمر أبو سفيان قال له أبو سفيان : هلم يا عمر . فقال رسول الله ﷺ فانتظر ماشأته ، فجاء فقال له أبو سفيان : أنشدك يا عمر أثننا محمداً ؟ فقال عمر « اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن » فقال أنت أصدق عندي من ابن قتيبة وأبر لقول ابن قتيبة له إنى قتلت محمداً .

ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان في قتلكم مَثَل ، والله مريضت وما سخطت وما نهيت وما أمرت ، وقد كان الحليس بن زبأن أخو بني الحارث بن عبد مناة وهو يومئذ سيد الأحابيش قد مرّ بأبي سفيان بن حرب وهو يضرب شداق حمزة بن عبد المطلب بزع الرح ويقول : ذق عقق . فقال الحليس يابني كنانة هذا سيد قریش يصنع بآبن عمه ما ترون ، فقال : وبمك اكتبها عنى فلها كانت زلة . وهذا اعتراف منه بأننا تركب شططا وأقأمرأمتكراً . ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدر للعام القابل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل من أصحابه : قل نعم هو بيننا وبينك موعد .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب . فقال : اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون . فإن كانوا قد جنّبوا الخليل وامتنعوا الإبل فلنهم يريدون مكة . وإن ركبو الخليل وساقوا الإبل فلنهم يريدون للدينة . والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأناجزنهم . قال على : « فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنّبوا الخليل وامتنعوا الإبل ونوجّهوا إلى مكة » بعد أن تشاوروا في نهب المدينة . فأشار عليهم صفوان بن أمية ألا تفعلوا .

من هذا يتضح أن أبو سفيان قد خشي عاقبة ماذهله من ضرب شداق حمزة . فقال للحليس اكتبها عنى فلها كانت زلة وبرأ نفسى ندائه قائلاً والله مريضت وما سخطت وما نهيت وما أمرت . أما ندائه «إن موعدكم بدر للعام القابل» فخطأ منه لأن هذا الإنذار يعطى للمسلمين مهلة للاستعداد لمحاربتهم والتغلب عليه ومع أن جيش مكة تغلبوا على

(١) متى سجال ، مرة لنا ومرة علينا . وقول أبي سفيان : اعل هبل ، أى أثار دينك أو ازدد علوا . وهبل هذا سنم تقدم الكلام عليه .

- ٢٠٣ -

السلمين في هذه الواقعة فإنهم اكتفوا بذلك ولم يحنوا ثمار انتصارهم ، فلم يحاولوا الهجوم على المدينة بل قتلوا راجعين إلى مكة . والظاهر أن أبا سفيان تخوَّف أن يقتل أثر السلمين إلى المدينة .

استشهاد سعد بن الربيع الأنصاري

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟ لأن النبي صلى الله عليه وسلم رأى الأسنة قد أشرعت إليه .

قال رجل من الأنصار هو أبي بن كعب رضى الله عنه : أنا أنظر إليك يا رسول الله ما فعل سعد فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق وقد ملن اثنتي عشرة طعنة ! قال له إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات . قال أنا في الأموات . فأبلغ رسول الله ﷺ عنى السلام وقل له إن سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خير ما جرى نبياً عن أمته . وأبلغ قومك عنى السلام وقل لهم إن سعد بن الربيع يقول لكم إنه لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى نبيكم ﷺ^(١) وفيكم عين تطرف . قال ثم لم أبرح أن مات فجيئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره . فقال رسول الله ﷺ : رحمه الله ، نصحه لله والرسول حياً وميتاً . وخلف سعد بنتين أعطاهما رسول الله من ميراثه الثنتين .

كان سعد بن الربيع كاتباً في الجاهلية ومن النقباء يوم العقبة وشهد بدماء واستشهد يوم أحد . إن سؤال رسول الله عن سعد بن الربيع في مثل هذا الألق الحرج هو من شدة عطفه ومحبة لأصحابه وهذا خلق عظيم قد كان يسأل عنهم في الحرب وفي السلم ويهتم بشئونهم وكانوا يحبونه حباً شديداً يفوق كل حب ويدافعون عنه إلى آخر رمق من حياتهم ويخشون أن يصل إليه أى أذى وإن نصيحة سعد بن الربيع لقومه بالحفاظ على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلفظ النفس الأخير من أبلغ الأدلة على فرط محبة أصحابه صلى الله عليه وسلم له لسمو مكانته في نفوسهم وقد كان قتادة بن النعمان يلقى السهام بوجهه دون وجه رسول الله ﷺ فكان آخرها سهمها ندرت منه حقيقته فأخذها بيده وسعى بها إلى رسول الله ﷺ فردها ﷺ وكانت أحسن عينيهِ فانظر كيف بانته محبة الصحابة لرسول الله ﷺ .

قتل مخيريق

قال ابن إسحاق وكان ممن قتل يوم أحد مخيريق ، وكان أحد بنى نعلبة بن الفيتلون . قال لما كان يوم أحد قال يامشر يهود والله لقد علمت إن نصر محمد عليكم لحق . قالوا إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم فأخذ

(١) أى يصل إليه شيء من الأذى .

— ٢٠٤ —

سيفه وعذته وقال إن أصبت فإلى الحمد يصنع فيه ما شاء ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال معه حتى قُتل . قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا « مخيريق خير يهود » .
وكان مخيريق أحد بنى النضير ، حبراً عالمًا غنيًا كثير الأموال من النخل وكان يعرف رسول الله ﷺ بصفته وما يجد في علمه . وخاف قوم يهود واشترك في موقعة أحد التي لم يشترك فيها أحد من اليهود غيره فلما قتل قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم أمواله وتصدق بها . وقيل لما حضرته الوفاة . قال : أموالى إلى محمد يضعها حيث شاء . وكان ذا مال كثير فتركها رسول الله .

انتحار قزمان

قال ابن إسحاق وحدثني عاصم بن عمر بن قتادة : قال كان فينا رجل أتى لا يدري من أين هو يقال له قزمان وكان رسول الله ﷺ يقول - إذا ذكر له - إنه لمن أهل النار . فلما كان يوم أحد قاتل قتالا شديداً قُتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين وكان ذا بأس فأثبته الجراحة فاحتمل إلى دار بنى ظفر . فجعل رجال من المسلمين يقولون له والله لقد أبليت اليوم يا قزمان فأبشر . قال بماذا أبشر فوالله إن قاتلت . إلا عن أحساب قومي ولولا ذلك ما قاتلت . فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهما من كنانته قطع رواجه فنزفه الدم فأت فأنخبر به رسول الله ﷺ فقال « أشهد أنى رسول الله حق » وذلك لأنه مات منتحراً .

دفن قتلى أحد

كثرت القتلى يوم أحد فكان الرجل والرجلان والثلاثة يكفنون في الثوب الواحد ثم يدفنون في القبر الواحد بدمائهم . وأمر النبي صلى الله عليه وسلم بدفن شهداء أحد ولم يصل على أحد منهم ولم يسلمهم^(١) وحمل أناس موتاهم ليدفنهم بالمدينة فجاءهم منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ردوا القتلى إلى مضاجعهم . فأدرك للنادى واحداً وهو شماس بن عثمان الخزومي فإنه قتل وحمل إلى المدينة وبه رمق فقال رسول الله ﷺ احملوه إلى أم سلمة فحمل إليها فأت عندها فأمر رسول الله ﷺ أن يرد إلى أحد فيدفن هناك ولم يكن قد دُفن بالمدينة أما من دفن فأبوه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انظروا عمرو بن الجوح وعبد الله بن عمرو بن حرام فإنهما كانا متصافيين في الدنيا فأجملوها في قبر واحد .

(١) وبهذا استدلت الأمة على أن العهد لا يسل ولو كان جنياً .

- ٢٠٥ -

رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة

لما أراد رسول الله ﷺ الرجوع إلى المدينة ركب فرسه وخرج واللسلون حوله وطعنهم جرحى ومعه أربع عشرة امرأة، فلما كانوا بأصل أحد قال، اصطفوا حتى أتني على ربي عز وجل (فكان عليه الصلاة والسلام يحب النظام) فاصطف الرجال خلفه صفوفاً وخلفهم النساء فقال :

« اللهم لك الحمد كله ، لا قابض لما بسطت ولا باسط لما قبضت ولا هادئ لمن أضللت ولا مضل لمن هديت ولا معطى لما منعت ولا مانع لما أعطيت ولا مقرب لما أبعدت ولا مبعد لما قربت » الحديث . ثم عاد إلى المدينة

يهدي روع نساء القتلى ويدعو لمن وقد نهان عن العلم وحلق الروس وتحنيش الوجوه وشق الجيوب . ولم يخاطب رسول الله ﷺ الذين اتبعوا وعادوا إلى المدينة بالتغليظ والتشديد وإنما خاطبهم بالكلام اللين وعنا عنهم افزد في الفضل والإحسان . قال تعالى (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لأفضوا من حولك) وهذا اللين والعفو من حسن خلق الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبانت وجوه الأوس والخزرج تلك الليلة على باب صلى الله عليه وسلم بالسجد يحرصونه خوفاً من قريش أن تعود إلى المدينة . لكنهم لم يسودوا .

شماتة اليهود والمنافقين

لما وصل صلى الله عليه وسلم للمدينة ، أظهر للناقون واليهود الشجاعة والسرور وصاروا يظهرن أقيع القول ومنه ما محمد إلا طالب ملك ، ما أصيب بمنزل هذا نبي قط ، أصيب في بدنه وأصيب في أصحابه ويقولون ، لو كان من قتل منكم عندنا ما قتل وصار ابن أبي يويح ابنه عبدالله الذي جرح في موقعة أحد . فقال له ابنه : الذي صنع الله لرسوله خير . وهكذا كان اليهود يتهمزون القرص لتخذييل المسلمين وتثبيط مهمهم !

(نزول الملائكة يوم أحد)

قال عبيد بن عمير ، لم تقاتل الملائكة يوم أحد . وقال الواقدي وحديثي ابن أبي سيرة عن عبد المجيد بن سهيل عن عمر بن الحكم ، قال لم يمر رسول الله ﷺ يوم أحد بملك واحد وإنما كانوا يوم بدر . قال ومثله عن عكرمة . قال وقال مجاهد حضرت الملائكة يوم أحد ولم تقاتل وإنما قاتلت يوم بدر . قال وروي عن أبي هريرة أنه قال : وعدمه أنه أن يمدح لو صبروا فلما انكشفوا لم تقاتل الملائكة يومئذ وإنما التابت بنص القرآن ورواية الصحابة أنهم نزلوا وقاتلوا في غزوة بدر .

- ٢٠٦ -

ذكر غزوة أحد

في القرآن

أنزل الله تعالى من القرآن في غزوة أحد ستين آية في سورة آل عمران : قال تعالى :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ هَمَّتْ خَاتَمَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قال أكثر العلماء بالمغازي إن هذه الآية نزلت في وقعة أحد . وقد كان المسلمون يومئذ كثيرين فلما انشقوا وخالفوا أمر الرسول انهزموا . وقال جل شأنه .

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ : إنه تعالى لما ذكر قصة أحد أتبعها بذكر قصة بدر لأن المسلمين كانوا في غاية الضعف والكفر في غاية القوة ، ولكن لما كان الله ناصراً لهم قهروا خصومهم . ثم قال تعالى :

﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُبَدِّدَ كُمْ رَبُّكُمْ بِنِجَالٍ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴾
إن هذا الوعد كان يوم بدر وهو قول أكثر المفسرين وقد قالوا إن الملائكة حاربوا يوم بدر ولم يقاتلوا في سائر الأيام وهذا اللد من المعجزات .

﴿ تَعْلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَبِأَنُوتِكُمْ مِنْ فَؤْرِهِمْ هَذَا يُبَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾

فجعل بجي خمسة آلاف من الملائكة مشروطاً بثلاثة أمور : الصبر ، والتقوى ، ومحبة الكفار على الفور . فلما لم توجد هذه الشروط لا جرم لم يوجد المشروط .

﴿ وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴾ والراد بالكبت الإخزاء والإهلاك والمزمنة والنفي والإذلال . فكل ذلك ذكره المفسرون في تفسير الكبت .

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ .

نزلت هذه الآية في قصة أحد لأن النبي ﷺ لما شجعه عتبة بن أبي وقاص وكسرت رباعيته جعل يمنح الدم عن وجهه وهو يقول « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم » فنزلت هذه الآية وقيل إنه لمن أقواماً فنزلت هذه الآية .

إلى أن قال تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَلْقَيْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمِنَ الْيَقِيلِ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَئِنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ .

لما وقع الصراع بأن محمداً قتل كما تقدم ذكره في غزوة أحد ، قال بعضهم لو كان نبياً لما قتل . ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم . فقال أنس بن النضر عم أنس بن مالك « يا قوم إن كان قد قتل محمد فإن رب محمد حي لا يموت . وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ . قاتلوا على ما قاتل عليه وموتوا على ما مات عليه . ثم قال : « اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء » ثم سئل سيفه مقاتل حتى قتل . ولما شج وجه رسول الله ﷺ وكسرت رباعيته احتمله طلحة بن عبيد الله ودافع عنه أبو بكر وعلى رضي الله عنهم وقرء آخرون معهم . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل ينادى ويقول « إلى عباد الله » حتى انحازت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هزيمتهم . فقالوا يا رسول الله فدينناك بآبائنا وأمهاتنا أتناها خبر قتلك فاستولى الرعب على قلوبنا فولينا مدبرين .

وقد ذكر الله تعالى الحكمة في ما أصاب المؤمنين بمخالفتهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم وعرفهم سوء عاقبة العصية وشؤم ارتكاب المخالفة بما وقع من ترك الرماة موقفهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ ألا يبرحوا عنه بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّاعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ . ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال تعالى تعزية لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما أصابهم من الجراح والقتل بأحد : ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . يعني لا تضعفوا بالنزول نالكم من عدوكم بأحد من القتل والقروح عن جهاد عدوكم وحربهم ولا تحزنوا ولا تأسوا فتجوزوا على ما أصابكم من العصية يومئذ فأنتم الأعلون ، أي الظاهرون عليهم ولكم العقبى في الظفر والنصرة عليهم إن كنتم مؤمنين .

غزوة حمراء الأسد

حمراء الأسد موضع على ثمانية أميال من المدينة . وكانت الغزوة صبيحة أحد . إذ وقعت أحد يوم السبت والنزوة المذكورة يوم الأحد لست عشرة مضت من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة وكانت لطلب العدو الذين كانوا بالأمس .

قال الواقدي بات وجوه الأنصار على بابة ﷺ فلما طلع الفجر وأذن بلال بالصلاة جاء عبد الله بن عمرو

الزنى فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه أقبل من عند أهله بملل - اسم موضع قرب المدينة - إذا قرئش قد نزلوا ، فسمعهم يقولون ما صنعتم شيئاً . أصبتم شوكة القوم وحدهم ثم تركتموهم ولم تبيدوهم . قد بقي منهم رؤوس يجمعون لكم فارجوا نستأصل من بقي ، وصفوان بن أمية يأبى ذلك عليهم ويقول لاتفعلوا فإن القوم قد غضبوا وأخاف أن يجتمع عليكم من تخلف من الخزرج . فارجوا والدولة لكم فإني لا آمن إن رجعت أن تكون الدولة عليكم . فقال صلى الله عليه وسلم أرشدكم صفوان وما كان يرشيد . والذي نفسى بيده لقد سوت لم الحجارة ولو رجعوا لكانوا كالأبوس الناهب .

ولما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصبح ندب الناس وأذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج أى أمر بلا أن ينادى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلب العدو وألا يخرج معاً أحداً إلا من خرج معاً أمس يمين من شهد أحداً وأراد بذلك إظهار الشدة بالعدو والزيادة في تعظيم من شهد أحداً ومع بذلك اختلاط المنافقين ولم يشهد هذه النزوة إلا من شهد أحداً عدا جابر بن عبد الله فإنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أبى خلفى يوم أحد عدلى أخواتى سيع فلم أشهد الحرب فاذن لى أن أسير ملك ، فاذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يخرج معه أحد لم يشهد القتال غيره . وبث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة نفر من أسلم طليعة في آثار القوم فلقى اثنتان منهم القوم بمجرء الأسد فصرخوا بالرجلين قتلوهما . ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودليله ثابت بن الضحاك بن ثعلبة بن الخزرج حتى عسكر بمجرء الأسد فوجد الرجلين فدفنهما . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مجروحاً وفي وجهه أثر الحقتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لطلحة : يا طلحة لن ينالوا منا مثلاً حتى يفتح الله علينا مكة وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا ابن الخطاب إن قرئشاً لن ينالوا منا مثل هذا حتى نستلم الركن .

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجرء الأسد الاثنتين والثلاثاء والأرباء وكان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسة نارا حتى ترى من السكان البعيد وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم في كل وجه فكبت الله بذلك عدوهم . وكان اللواء بيد على بن أبى طالب رضى الله عنه واستعمل صلى الله عليه وسلم على المدينة ابن أم مكتوم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن الله كذف في قلب أبى سفيان الرعب بعد الذى كان منه يوم أحد فرجع إلى مكة .

وظفر صلى الله عليه وسلم في حراء الأسد بأبى عزة الشاعر الذى من عليه وقد أسر ببدر من غير فداء لأجل بناته وأخذ عليه عهداً ألا يقتله ولا يكثر عليه جمعا ولا يظاھر عليه أحداً فنقض العهد وخرج مع قرئش لأحد وصار يستغفر الناس ويحرضهم على قتاله صلى الله عليه وسلم بأشعاره . فدعا رسول الله ألا يقتل فأمر قتال : يا محمد أقتنى وامتن على - ودعنى لبناتى وأعطيك عهداً ألا أعود مثل ما فعلت فقال رسول الله لا والله لا تتمسح

- ٢٠٩ -

عارضيك بمكة تجلس بالحجر تقول خدعت محمداً . اضرب يا زيد عنقه . « لا يدلع المؤمن من حجر مرتين » .
فضرب عنقه وحمل رأسه إلى المدينة وهذا للثل الذي ضربه رسول الله لم يسمع من غيره .
ثم رجع رسول الله ﷺ بأصحابه ووصلوا المدينة يوم الجمعة وقد غاب خمسا ونظروا صلى الله عليه وسلم عند رجوعه
إلى المدينة بمعاوية بن النخيرة بن أبي العاص بن عبد شمس وهو جد عبد الملك بن مروان فأمر بقتله .
قال الطبري : « وفيها - أي في السنة الثالثة من الهجرة - علفت فاطمة بالحسين صلوات الله عليهما وقيل لم
يكن بين ولادتهما الحسن وحملها بالحسين إلا خمسون ليلة (وفيها) حلت - فيا قيل - جميلة بنت عبد الله بن أبي
سبب الله بن حنظلة بن أبي عامر في شوال » .

بمات الرجيع

صفر . سنة ٨٤ - مايو سنة ٦٢٥ م

الرجيع ماء هذيل . وقال ابن إسحاق والواقدي : الرجيع ماء هذيل قرب الهدأة بين مكة والطائف .
وإنما أضيف البعث إلى اسم ذلك الماء لأن الوقعة كانت بالقرب منه .
وبعث الرجيع هي سرية عاصم بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه . وكان بمته في صفر من السنة الرابعة
(مايو سنة ٦٢٥ م) .

وسبب هذا أن بني لحيان من هذيل مشوا إلى عضل والقارة وهما قبيلتان من بني المون بن خزيمة بن مدركة
فصلوا لم يبالأ على أن يكلموا رسول الله ﷺ أن يخرج إليهم فقرأ من أصحابه تقدم سبعة نفر مظهرين الإسلام ،
فقالوا يا رسول الله إن فينا إسلاما فابث معنا فقرأ من أصحابك يقيمونا في الدين ويقرئونا القرآن ويعلمونا شرائع
الإسلام . وقيل إنه ﷺ أراد أن يبعث عيوناً إلى مكة ليأتوه بخير قريش . فلما جاء هؤلاء النفر يطلبون من
يقيمهم ، بعث معهم ستة من أصحابه للأمرين جميعاً وهذه البعثة مؤلفة من : عاصم بن ثابت . ومرثد بن أبي مرثد
الفنوي . وخبيب بن عدي الأوسي البدرى . وزيد بن الدائنة . وعبد الله بن طارق . وخالد بن البكير .

خرج هؤلاء حتى أتوا الرجيع فندروا بهم واستصرخوا عليهم هذيلاً ليعينهم على قتلهم ، فلم يرع القوم وهم في
رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف ، فأخذ عاصم ومن معه أسيافهم ليقاتلوا القوم . فقالوا إنا والله لا نريد قتلكم ولكنكم
عهد الله وميثاقه ألا تقتلكم . وقالوا ذلك لأنهم يريدون أن يسلوهم لكفار قريش وأنخذلوا في مقابلهم أجراً
لعلهم أنه لا شيء أحب إلى قريش من أن يأتوا بأحد من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يثقلون به ويقتلونه بمن
قتل منهم بيد واحد ، فأبوا أن يقبلوا منهم .

(٢٧ - محمد)

فأما مرثد وخاله بن البكير وعاصم بن ثابت قتلوا والله لا تقبل من مشرك عهداً ، وقاتلوا حتى قتلوا .
وأما زيد وخبیب وعبد الله بن طارق فلانوا ورقوا ورجعوا في الحياة فأعطوا بأيديهم فأمرهم ثم خرجوا بهم
إلى مكة ليبيعهم بها حتى إذا كانوا بالظهران انزع عبد الله بن طارق يده من القران ثم أخذ سيفه واستأخر عنه
القوم فرموه بالحجارة حتى قتله ، قُتِرَ بالظهران . وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة قدما بهما مكة فباعوهما
فابتاع خبيباً حُجَيْرَ بن أبي إلهب التميمي حليف بنى نوفل لعقبه بن الحارث بن عامر بن نوفل وكان حجير أخا
الحارث بن عامر لأنه ليقته بأبيه . وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقته بأبيه أمية بن خلف وكان
شراؤهما في ذى القعدة فبصوهما حتى خرجت الأشهر الحرم قتلوا زيداً . وأما خبيب فقد مكث أسيراً حتى خرجت
الأشهر الحرم ثم أجمعوا على قتله ، وكانوا في أول الأمر أساءوا إليه في حبسه فقال لهم : ما يصنع القوم الكرام هكذا
بأسيرهم ، فأحسنوا إليه بعد ذلك وجعلوه عند امرأة تحرسه وهي ماوية مولاة حجير وقد قالت ماوية كان خبيب
يتهدج بالقرآن فإذا سمع النساء بكين وورقن عليه . فقالت له هل لك من حاجة ؟ قال لا إلا أن تستقي الذئب
ولا تعلميني ما ذبح على النصب وتخبريني إذا أرادوا قتلى . فلما أرادوا ذلك أخبرته فوالله ما أكرهت بذلك ولما
خرجوا بحبيب من الحرم ليقته قال ذروني أصل ركنتين فتركوه فضلى سجدتين فبعت سنة لمن قتل صبراً أن
يصلى ركنتين ثم قال خبيب لولا أن يقولوا جزع لذت وما أبالي على أى شئ كان الله مصرعى ثم قال :

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو مزمع

« اللهم أحصهم عدداً وخذهم بلدًا » . ثم خرج به أبو سروعة بن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبدمناف
فضر به قتله . رحمه الله تعالى .

وعن عروة بن الزبير رضى الله عنه قال : لما أرادوا قتل خبيب ووضعوا فيه السلاح والرمح والحرا ب وهو
مصلوب نادوه ونادوه أنحب أم محمد مكانك ؟ قال والله ما أحب أن يذنبني بشوكة في قلعة . وقيل إن زيد
ابن الدثنة قالوا له ذلك أيضاً عند قتله فأجابهم بمثل ذلك فقال أبو سفيان : ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً
كحب أصحاب محمد محمد . وقد قتل زيداً نسطاس .

وقد كانت هذيل حين قتل عاصم بن ثابت قدأرادوا رأسه لبيعه من سلافة بنت سعد بن شهيدو كانت قد نذرت حين
أصاب ابنها يوم أحد لئن قدرت على رأس عاصم لتشرن في قحفها ففهمه الدبر (الزناير) فلما حلت بينهم وبينه قالوا
دعوه حتى يسمى فنذهب عنه فنأخذه فبعت الله سيلاً فاحتل عاصم فذهب به وكان عاصم قد أعطى الله عهداً ألا
يمسه مشرك أبداً ولا يمس مشركاً أبداً نتجساً منه . فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدبر منته : « عجباً
لحفظ الله العبد المؤمن إكان عاصم نذر ألا يمسه مشرك ولا يمس مشركاً أبداً في حياته ففهمه الله بعد وفاته كما
امتنع منه في حياته » .

- ٢١١ -

ولما قتل من وجهه النبي ﷺ إلى عضل والقارة من أهل الرجيع وبلغ خبرهم رسول الله ﷺ بث عمرو بن أمية الضمري إلى مكة مع رجل من الأنصار وأسرها يقتل أبي سفيان بن حرب . وكان عمرو بن أمية الضمري علماً بمكة جريئاً : فلما وصلا مكة طافا بالبيت أسبوعاً كفرف عمراً رجل منهم فضاح بأعلى صوته هذا عمرو بن أمية ففر هو وصاحبه ووصلا إلى المدينة ناجيين .

سرية بئر معونة

صفر سنة ٤ هـ - مايو سنة ٦٢٥ م

نسى هذه السرية سرية للنذر بن عمرو الخزرجي ، ونسى أيضاً بسرية القراء وكانت هذه السرية في شهر صفر في السنة الرابعة من الهجرة (مايو سنة ٦٢٥ م) على رأس أربعة أشهر من أحد . وكان من أمرها كما قاله ابن إسحاق عن شيوخه أنه قدم على رسول الله ﷺ أبو براء عامر بن مالك بن جعفر العامري . ويعرف بمَلْعَبِ الاسِنَّة ، فرض النبي صلى الله عليه وسلم عليه الإسلام فلم يسلم ولم يبعد وقال له : يا محمد إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً وقوياً خلقي ، فلو أنك بشت معي نفرأ من أصحابك لرجوت أن يقيموا أمرك فإن هم ابتعوك فإعز أمرك . فقال إني أخشى أهل نجد عليهم فقال أنا لم جار فبشت على الله عليه وسلم للنذر بن عمرو ومعه القراء وهم سبعون . فلما وصلوا إلى بئر معونة بشتوا حرام بن ملحان أخاً أم سليم خال أنس بن مالك رضى الله عنه بكتابه صلى الله عليه وسلم إلى عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر الكلابي العامري وهو ابن أخي أبي براء فلم ينظر في الكتاب بل وثب على حرام فقتله واستصرخ بنى عامر قومه فأبوا وقالوا لا يخفر بجوار أبي براء^(١) فاستصرخ عليهم فبائل من سليم عصية ورعلا وذكوان ، فنفروا معه ورأسوه واستبطلوا للمسلمون حراماً فأقبلوا في أثره فقتلهم القوم فأحاطوا بهم فكاثروهم فقتلوا فقتلوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر أهل بئر معونة فقال هذا سببه عمل أبي براء حيث أخذهم في جواره . قد كنت لهذا كارها متخوفاً . فبلغ ذلك أبا براء فأت عتب ذلك أسفاً على ما صنع ابن أخيه عامر بن الطفيل . ومات عامر بن الطفيل .

قال حسان بن ثابت يرنى قتل معونة :

على قتلى معونة فاستبلى بدمع العين سحاً غير نزر

على خيل الرسول غداة لا قوا ولا نكهم من أيام بدر

ولم يجد رسول الله ﷺ على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة لكونه لم يرسلهم لقتال إنما هم مبلتون رسالته . وقد جرت عادة العرب قديماً بأن الرسل لا تقتل لكنهم مع ذلك غدروا بهم .

قال العلامة الزرقاني : وإنما لم يخبره سبحانه وتعالى بما ترتب على ذهاب القراء وأهل الرجيع قبل خروجهم كما أخبره بنظير ذلك من الأشياء لأنه سبق في علمه تعالى لإكرامهم بالشهادة وأراد حصول ذلك بمجيء أبي براء ومن جاء في طلب أصحاب الرجيع .

وكان مع هذه السرية عمرو بن أمية الضمري وقد قتلوا جميعاً غيره وقد كان أسيراً في أيديهم قتال له عامر بن الطفيل : قد كان على أمي نسمة فأتت حرّاً عنها وجزّ ناصيته ^(١) فأعقته عن رقبة زعم أنها كانت على أمه فلما قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبت من بينهم ؟ وكان عمرو لما خرج إلى المدينة صادف بمحل يسمى الترقرة رجلين من بني عامر ثم من بني كلاب فنزل معه في ظل كان هو فيه وكان معهما عقد وعهد من رسول الله ﷺ لم يشعربه عمرو قتال لما عمرو : ومن أتانا فذكرنا له أنها من بني عامر فتركها حتى نأما قتلها وظن أنه غلر بنأار بعض أصحابه الذين قتلوا بيثر معونة وجاء وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك قال : بس ما صنعت قد كان لهما مني أمان وجوار ، لأديتهما فبث بديتهما إلى قومهما .

ومن جملة القراء الذين قتلوا بيثر معونة عامر بن فيرة مولى أبي بكر رضى الله عنه وهو الذي عُدّ في الله فاشترأه أبو بكر فأعقته ، واستشهد في هذه الواقعة وهو ابن أربعين سنة .

غزوة بني النضير

ربيع الأول سنة ٨٤ - يونيه سنة ٦٢٥ م

النضير اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة وكانوا هم وقرينة نازلين بظاهر المدينة في حدائق وأطامهم ^(٢)

قال غير واحد من أهل السير لما قدم اليهود للمدينة نزلوا الساقلة فاستوحوها فأتوا المالية فنزل بنو النضير بطلعان ونزل بنو قرينة مهزوراً وما واديان يهبطان من حرة هناك تنصب منها مياه عذبة ، فأتخذ بنو النضير الحدائق والأطام وأقاموا بها ^(٣) وكان بينهم وبين المدينة نحو مياثم أو ثلاثة وكانوا يمتلكون نخيلاً بموار المدينة

كانت هذه الغزوة في شهر ربيع الأول سنة أربع على رأس سبعة وثلاثين شهراً من الهجرة (يونيه سنة ٦٢٥ م) .

خرج رسول الله ﷺ يوم السبت ففصل في مسجد قباء ومعه نفر من أصحابه ، المهاجرين والأنصار . ثم أتى

(١) أي الشعر الجاور لها . (٢) أطام : حصون ، فردما أطم . (٣) راجع معجم البلدات :

بنى النضير فكلهم أن يمينوه في دية الكلبين الذين قتلها عمرو بن أمية الضمري . قالوا نضل بأبنا القاسم ما أحببت . وكان رسول الله جالساً إلى جنب جدار من بيوتهم فجلا بعضهم ببعض وهو بالندر به . وقال عمرو ابن جعاش بن كعب بن بسيل النضري أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة . فقال سلام بن مشكم : لا تفعلوا والله ليخبرن بما همتم به وإنه لنفض للمهد الذي بيننا وبينه . وجاء رسول الله ﷺ الخبر بما هموا فنهض سريعاً كأنه يريد حاجة فتوجه إلى المدينة ولحقه أصحابه .

ثم بعث إليهم رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدي (يعني المدينة) فلا تسكنوني بها وقد همتم بما همتم به من النذر وقد أجلكم عشراً فمن رثى بعد ذلك ضربت عنقه . فكتبوا على ذلك أيلماً يصيحون وأرسلوا إلى ظهر لهم بذى الجندر وتكاثروا من ناس من أشجع لإبلا فأرسل إليهم ابن أبي لا يخرجوا من دياركم وأقيموا في حصونكم فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم فيموتون عن آخرهم عندكم قريظة وحلفائكم من غطفان فطمع حتى فيا قال ابن أبي فأرسل إلى رسول الله ﷺ إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك . فأظهر رسول الله ﷺ البكبير وكبر المسلون لتكبيره . وقد حاربت يهود فصار إليهم النبي ﷺ في أصحابه فضلى المصر بفضاء بنى النضير وعلى رضى الله عنه يحمل رايته واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم . فداروا وارسول الله ﷺ قالوا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة واعتزلتهم قريظة فلم تنههم وخذلهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان فأيسوا من نصرهم . فحاصروهم رسول الله ﷺ وقطع نخلهم وعند ذلك قالوا بأبنا القاسم قد كنت نهي عن الفساد وتعييه على من صنعه ، فإ بال قطع النخل وتحريقها ؟ هل وجدت فيا زحمت أنه أنزل عليك الفساد للأرض ! ثم قالوا نخرج عن بلادك قال لا أقبله اليوم . ثم قال لم اخرجوا منها - ولكم دماؤكم وما حلت للإبل إلا الحلقة^(١) فرضوا بذلك ونزلوا عليه . وكان حصارهم خمسة عشر يوماً .

احتمل بنو النضير من أموالهم ما استقلت به الإبل فكان الرجل منهم يهدم بيته مما استحسن من خشبه كبابه وكجفاف به أى أسكنته فيضمه على ظهر بديره فينطلق به يفرجوا إلى خير ، ومنهم من سار إلى الشام . فكان من سار من أشرافهم إلى خير ، سلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب فلأزولها دان لم أهلها .

ولما أيقن بنو النضير بالجلاء حسدوا المسلمين أن يسكنوا منازلهم فجعلوا يجرؤونها من داخل وقد كانوا ينظرون إلى الخشية في منازلهم مما يستحسنونه أو الباب فيهدمون بيوتهم وينزعونها ويحملونها على الإبل .

لكن الدكتور إسرائيل ولفسون يقول في رسالته : (تاريخ اليهود في بلاد العرب) ، « إن هدم البيوت لم يكن القصد منه التخريب وأخذ الأخشاب بل إن هدم نجاف البيوت يتعلق بقيدة تلودية معروفة وهى أن كل يهودى يعلق على نجاف بيته صحيفة تشتمل على وصية موسى لبنى إسرائيل أن يحتفظوا بالإيمان بالله واحد ولا يبدلوه

(١) وهى الدروع والسلاح أى آله الحرب .

- ٢٩٤ -

ولو عذبوا وقتلوا . فاليهود حين يذبحون من منازلهم يأخذونها معهم وهي عادة متبعة عند اليهود إلى يومنا هذا . قال : ويظهر أن يهود بلاد العرب كانوا يضعون تلك الصحيفة في داخل النجاف خوفاً من إتلاف الهواء أو مفسد الأيدي فلما رحلوا عن ديارهم هدموا نجاف البيوت وأخذوها .

وإنما نسلّم أن هذه عادة اليهود ولا تنازعه في أنهم أخذوا تلك الصحف المقدسة مع ما أخذوا لكن أخذ الصحف قطع لا يستعمل في هدم البيوت وإلا كان الواحد منهم إذا انتقل من بيت إلى آخر هدم البيت الأول لاستخراج صحيفته وهذا محال . وعبارة ابن إسحاق صريحة في أن الرجل منهم كان يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق . والنجاف الذي يقال له الدوارة وهو الذي يستقبل الباب من أعلى الأسكفة . وفي السيرة الحلبية صاروا ينتفضون العمود والسقف وينزعون الخشب حتى الأوتاد . وينفضون الجدران حتى لا يسكنها للسلمون حسداً وينفضاً .

قال ابن إسحاق حدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث أنهم استقلوا بالنساء والأبناء والأموال معهم الدفوف والزامير والقيان يعزفن خلفهم وإن فيهم لأم عرو صاحب عروة بن ورد البسبي التي ابتاعوا منه . وكانت إحدى نساء بني غفار ، زهراء وضفر ما رأى مثله من حي من الناس في زمانهم .

وقد حلوا أمتعتهم على سبائهم بعير . وحزن للناقون عليهم حزناً شديداً لكونهم إخوانهم . وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تركوه من الأموال والدروع والسلاح . فوجد خمسين درعاً وخمسين بيضتوي الخوذة وثلاثمائة وأربعين سيفاً . فكانت أموال بني النضير مختاراً لرسول الله ﷺ . فكان ينفق منها على أهله ويدخر قوت سنة من الشعير والتمر لأزواجه وبني عبد المطلب وما فضل جملة في السلاح والكراع^(١) ، هذا ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه .

وذهب الشافعي رضي الله عنه إلى أنه ﷺ قسمها بين المهاجرين ليرفع بذلك ثلوتهم عن الأنصار ، وهذا يتفق مع ما رواه ابن إسحاق فإنه قال : وخلص الأموال لرسول الله ﷺ خاصة يضعها حيث يشاء قسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجانة سمك بن خرشة ذكرا قهراً فأعطاهما رسول الله ﷺ وأعطى رسول الله ﷺ سعد بن معاذ سيف ابن أبي الحقيق ، أحد سادات بني النضير وكان سيفاً له ذكر عندهم .

ولم يسلّم من بني النضير إلا رجلان : يامين بن عمير بن كعب بن عمرو بن جعاش ، وأبو سعد بن وهب أسلم على أموالهما فأحرزهما .

وقتل في هذه الغزوة عزوك . وكان شجاعاً رامياً من بنى النضير قتله على رضى الله عنه . ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا دجانة وسهل بن حنيف في عشرة ليدركوا الذين فروا من على رضى الله عنه يقتلهم وطرحوا رموسهم في بعض الآبار .

قال ابن إسحاق : ونزل في أمر بنى النضير سورة الحشر بأسرها يذكر فيها ما أصابهم الله به من نعمته وما سلط عليهم به رسول الله ﷺ وما عمل به فيهم .

وفي البخارى عن سعيد بن جبيرة قال : قلت لابن عباس رضى الله عنهما سورة الحشر قال : قل سورة النضير .

﴿ ملحوظة ﴾ لم أعر في المراجع التى اطلعت عليها على عدد بنى النضير الذى أجلاه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة .

وقد رحل بعض بنى النضير إلى خيبر على بعد مائة ميل من المدينة ، وبعضهم إلى جرش بمنحوت الشام . لذلك كان ابن عباس يسمي سورة الحشر سورة بنى النضير كما في البخارى .

تحريم الخمر

الإصلاح الاجتماعى العظيم

قال جماعة من الصحابة يارسول الله ، أفتنا في الخمر فإنها مذهب العقل مسلبة للمال فنزل فيها قوله تعالى : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴾ سورة البقرة ، فشرها قوم لوجود النفع وتركها آخرون لوجود الإثم . ثم دعا عبد الرحمن بن عوف ناساً فشربوها وسكروا فقام بعضهم يصل للزب وهو سكران قراً : ﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا الْكَافِرُونَ أَعْبُدُوا مَا تَعْبُدُونَ ﴾ فعلط في القراءة ، فنزل : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ سورة النساء . قل شاربوها . ثم اجتمع قوم من الأنصار وفيهم سعد بن أبى وقاص فلما سكروا اختصروا وتناشدوا الأشعار حتى أنشد سعد شعراً فبعجاءه لأنصار فضربه أنصارى بلعى^(١) بغير تشجيه شجة موضحة فشكا إلى رسول الله ﷺ فقال عمر اللهم بين لنا في الخمر بيناً شافياً فإنها تذهب بالعقل ولل مال فنزل : ﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا آتَمَّرُوا^(٢) وَالْأَنبِيَاءُ ﴾ إلى قوله : ﴿ قُلْ أَنْتُمْ مُنْتَهَوْنَ ﴾ سورة المائدة . قال عمر : انتهينا يارب . وكف الناس عن شربها . وحرمت الخمر بالمدينة . والحكمة في تحريم الخمر تدريجاً على الترتيب أن القوم كانوا ألغوا بشربها وكان اتضاعهم بذلك عظيماً فلم أنه لو منهم دفعة واحدة لثقت ذلك عليهم .

(١) الحصى : عظم الحنك وهو الذى عليه الأسنان .

- ٢١٦ -

روى أبو داود في سننه عن الشعبي عن ابن عمر رضی الله عنهما قال : نزل تحريم الخمر يوم نزل وهي من خسة : من المنب والتمر والحنطة والشعير والذرة . قال الخطابي : وتخصيص الخمر بهذه الأشياء الخمسة ليس لأجل أن الخمر لا يكون إلا من هذه الخمسة بأعيانها وإنما جرى ذكرها خصوصاً لكونها معهودة في ذلك الزمان . والخمر التي حرمها الشارع هي ما خامر العقل أو ستره . عن ابن عمر قال : سمعت عمر رضی الله عنه على منبر النبي ﷺ يقول : أما بعد أيها الناس ، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خسة : من المنب والتمر والمسل والحنطة والشعير . والخمر ما خامر العقل (البخاري) .

روى أبو داود عن جابر بن عبد الله . قال : قال رسول الله ﷺ « ما أسكر كثيره فقليله حرام » . وقالت عائشة سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كل مسكر حرام ، وما أسكر منه الفرق » ؛ فله الكف منه حرام . ونهى رسول الله ﷺ عن كل مسكر ومفتّر . والمفتّر كل شراب يورث الفتور والتخدير في الأعضاء . عن ديلم الحيرى قال : سألت النبي ﷺ قلت يا رسول الله إنا بأرض باردة نعالج فيها عملاً شديداً وإنا نتخذ شراباً من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا . قال ، هل يسكر قلت نعم . قال فاجتنبوه . قلت فإن الناس غير تاركيه . قال فإن لم يتركوه قاتلهم .

فالشرية الإسلامية أول شريعة حرّمت الخمر تحريماً باتاً لما في شربها من شرور وآثام ومضرات خلقية وجسدية ومالية وقد حدّ رسول الله ﷺ والخلفاء بعده شاربها . لكنّها مع ذلك مفقّرة في بلادنا الإسلامية . ونجّبي الحكومات رسوماً على الخمر كساكنات التجارات ١١

حد الخمر

عن أنس رضی الله عنه ، قال : ضرب النبي صلى الله عليه وسلم في الخمر بالجريد والنعال وجلد أبو بكر رضی الله عنه أربعين . وفي رواية للترمذي : أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل قد شرب الخمر فجلده بمجرّدة نحو أربعين وفضله أبو بكر .

وقد حرّمت الخمر في السنة الرابعة من الهجرة أثناء غزوة بني النضير .

وحرم بعض الناس الخمر في الجاهلية ، وقيل إن أول من حرّمها الوليد بن المغيرة ، وقيل قيس بن عاصم السعدي ومنهم مقيس بن صبابة السهمي وعبد المطلب وأبو طالب وقعي بن كلاب وورقة بن نوفل وشيبة بن ربيعة وغيرهم .

(١) الفرق بينه وبين مكّيال يقال إنه يسع ستة عشر رطلاً .

وقد انتشرت للسكرات في بلاد المسلمين وراحت تجارتها حتى دخلت القرى . وضعف رجال الدين عن إبطالها واقتصروا على الوعظ والإرشاد ولم تر منهم حركة اجتماعية قوية لحل الحكومات على سن قانون التحريم حتى تعجب الفرييون من إباحة للسكرات في بلاد يدين أهلها بالإسلام الذى يعتبر الخمر رجسا من عمل الشيطان !! فآلهم هبنا شجاعة وقوة وإقداما ووفقى الحكومات الإسلامية إلى العمل بتعاليم دينهم القويم .

غزوة ذات الرقاع

اختلف في سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع . قيل هى اسم شجرة في موضع الغزوة سميت بها . وقيل لأن أقدامهم قُتبت من المشى فلقوا عليها الخرق . وقيل بل سُميت برقاع كانت في أوليم . وقيل ذات الرقاع جبل فيه سواد وبياض وحمرة فكانها رقاع في الجبل فسميت الغزوة بذلك الجبل ، والأصح أنه موضع لقول دُعثور :

* حتى إذا كنا بذات الرقاع *

وتسمى هذه الغزوة غزوة محارب ، وغزوة بنى نعلبة ، وغزوة بنى أنمار ، وغزوة صلاة الخوف، لوقوعها فيها . قال ابن إسحاق : ثم أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد غزوة بنى النضير شهرى ربيع وبعض شهر جادى ثم غزا نجدا يريد بنى محارب وبنى نعلبة من غطفان نخل وهى ذات الرقاع فلقى بها جمعا من غطفان فقتلهم الناس ولم يكن بينهم حرب وقد خاف الناس بعضهم بعضا حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف ثم انصرف للمسلمون . وكانت أول صلاة للخوف صلاحها رسول الله .

صلاة الخوف - جاء في صحيح البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد فوازننا المدوة فصافقنا لم يقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى لنا فقامت طائفة معه وأقبلت طائفة على العدو وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن معه وسجد سجدتين ثم انصرفوا مكان الطائفة التى لم تصل فقاموا فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعة وسجد سجدتين ثم سلم قَامَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فَرَكَّ لِنَفْسِهِ رُكْعَةً وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ وَسَبَّحَ خُرُوجَهُ ﷺ إِلَى هَذِهِ الْغَزْوَةِ أَنَّهُ بَلَّغَهُ أَنَّهُمْ جَمَعُوا لِحَارِبَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ وَأَمَرَهُمْ بِالْتَّجَهِّ ثُمَّ خَرَجَ فِي أَرْبَعِيَّاتٍ مِنْ أَصْحَابِهِ وَقِيلَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَاسْتَعْمَلَ عَلَى الْمَدِينَةِ أَبَا ذَرٍّ الْغَفَارِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقِيلَ عُمَانُ بْنُ عَفَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَسَارَ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى مَوْضِعٍ يَسَى وَادَى الشَّقْرَةَ وَبَثَّ السَّرِيالَ فَرَجَعُوا إِلَيْهِ مِنَ اللَّيْلِ وَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْا أَحَدًا فَسَارَ حَتَّى نَزَلَ بِمَخْلَا وَهُوَ مَوْضِعٌ مِنْ نَجْدٍ مِنْ أَرَاخِيِّ غُطْفَانَ فَلَمْ يَجِدْ فِي مَجَالِسِهِمْ إِلَّا نِسَاءً فَأَخَذَهُنَّ ، فَبَلَغَ الْخَبَرَ الْقَوْمَ فَخَافُوا وَتَفَرَّقُوا فِي رِمَوسِ الْجِبَالِ ثُمَّ اجْتَمَعَ جَمْعٌ مِنْهُمْ وَجَاءُوا بِالْحَارِبَةِ جَيْشَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَخَافَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَوْمِ حَرْبٌ .

- ٢١٨ -

غزوة بدر الأخيرة

وتسمى غزوة بدر الصغرى وبدر للوعدة؛ للواعدة عليها مع أبى سفيان يوم أحد وتسمى بدر الثالثة وتسمى أيضاً غزوة السويق .

خرج رسول الله ﷺ إلى بدر ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه وعشرة أفراس وذلك فى شهر شعبان سنة أربع ليماد أبى سفيان . واستعمل على المدينة عبد الله بن رواحة الخزرجى رضى الله عنه وحمل اللواء على بن أبى طالب رضى الله عنه . وخرج أبو سفيان فى قريش وهم ألفان ومعهم خمسون فرساً حتى نزل موضعا قريبا من مر الظهران ثم بدا له الرجوع قال يامشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصب ترعون فيه الشجر وتشيرون فيها للين وإن علمكم هذا جام جذب وإلى راجع فارجعوا فرجع ورجع الناس فسامهم أهل مكة جيش السويق . يقولون إنما خرجتم تشربون السويق . وهو الناعم من دقيق الحنطة والشعير وهذه حيلة دبرها أبو سفيان لأنه لم يكن يريد حرباً بل خرج لثلاث قال أخلف وعده ولم يخرج ، على أنه لم يمارضه أحد من قريش فى الرجوع فكان الجيش كذلك لا يريد الحرب

وكان أبو سفيان قد بث إلى المدينة شخصاً اسمه نعيم ليرجف أصحاب رسول الله ﷺ بكثرة العدو ليحملهم على عدم الخروج وذلك ليكزن له بدر فى الرجوع إلى مكة ولكن رسول الله ﷺ لم يبال بما سمع من كثرة عدد الجيش وتبسيطه الناس ، قال الذى نفى بيده لو لم يخرج معى أحد لخرجت وحدى وأقام ﷺ ببدر ثمانية أيام ينتظر أبا سفيان وفى هذه اللدة باع للسلمون ماعهم من التجارة فرجعوا كثيراً .

وفى سنة أربع هذه تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة بنت أبى أمية . وفيها أمر رسول الله زيد بن ثابت أن يعلم كتاب يهود فعملها وفى جمادى الأولى من هذه السنة توفى عبد الله بن عثمان بن عفان وكان عمره ست سنين وهو ابن بنت رسول الله رقية وفيها ولد الحسين رضى الله عنه .

غزوة دومة الجندل

وهى أول غزوات الشام

دومة الجندل مدينة بينها وبين دمشق خمس ليال وبعلها من المدينة خمس عشرة ليلة وهى أقرب بلاد الشام إلى المدينة ويقرب تبوك

- ٢١٩ -

وكانت هذه الغزوة في ربيع الأول سنة خمس (يولية سنة ٦٢٦ م) واستعمل النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة سباع بن عُرْفَةَ الغناري . وسببها أنه بلغه أن بها جما كثيرا يظفون من مريهم وأنهم يريدون الدلو من المدينة يخرج صلى الله عليه وسلم في ألف من أصحابه ومعه دليل له من عذرة يقال له مذكور فأصاب أهل دومة الجندل الرعب وتفرقوا ثم عاد إلى المدينة . قال ابن الأثير وغنم المسلمون إبلا لهم . وقال ابن إسحاق ثم رجع رسول الله قبل أن يصل إليها ولم يلق كيذا فأقام بالمدينة بقية سنته .

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم

زينب بنت جحش

تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش بن رثاب الأسدية في شهر صفر من السنة الخامسة (يولية سنة ٦٢٦ م) وهي أخت عبد الله بن جحش وأما أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ وكانت قديمة في الإسلام . تزوج رسول الله ﷺ بعد أن طلقها زوجها زيد بن حارثة .

كان زيد بن حارثة مولى خديجة وبعثه لرسول الله ﷺ قبل البعثة وهو ابن ثمان سنوات فأعتقه وتبناه . وكانوا يدعونه زيد بن محمد . وقد تزوج رسول الله ﷺ بنت عته « زينب بنت جحش » ولما خطبها رسول الله على زيد امتنعت من إنكاحه فسما قال لها رسول الله أنكحيه فقالت يا رسول الله أوامر (أي أشار) نفسي وبينهما يتحدثان أنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ وعند ذلك قالت زينب رضيت لى رسول الله منكحا ، قال : نعم . قالت إذن لا أعصى رسول الله قد أنكحته نفسى . والسبب في إلأها بآدى الأمر أنها كانت ترى أن زيدا غير كفء لها وقالت إنها خير منه حسبا ونسبا وكانت امرأة فيها حدة فلما نزلت الآية رضيت .

ثم إن زيدا كان يشكوها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنها تؤذيه وتشكبه عليه بسبب النسب وعدم الكفاءة ، فكان يقول له « أسك عليك زوجك » : أى لا تطلقها . لكنه لم يطق معاشرتها وطلقها . وهذا طبيعي فإن الإنسان لا يستطيع معاشرة زوجة تشكبه عليه وترى نفسها أرق منه . وبعد أن اهضت عدتها تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم لإبطال عادة التبني بفعله ، فإن للشرع يستفاد من فعله كما يستفاد من قوله . وذلك أن الله أراد نسخ محرم زوجة التبني . قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾ وقال ﴿ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ فكان يدعى بعد ذلك زيد بن حارثة . وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا

وَكُنَّا زَوْجًا كَمَا لَكُنَى لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ
أَمْرُ اللَّهِ مَعْمُولًا .

وقد كان الله أوحى إلى رسوله أن زيدا سيطلق زوجته وتزوجها بعده إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم بالغ في الكتمان فزيد « أمسك عليك زوجك » فتابه الله على ذلك حيث قال ﴿ وَإِذْ قَوْلُكَ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ وهو عتاب على ترك الأولى ، وكان الأولى في مثل ذلك أن يصمت عليه الصلاة والسلام أو يفوض الأمر إلى رأى زيد رضى الله عنه . ولم يخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما أوحى إليه من طلاق زيد لزيب وتزوجه لإيها مخافة ما بين الأعداء وللناقين فزوب عليه ولأنه أيضا لم يؤمر بالإخبار به بل كان مجرد إعلام له خاصة . وللقصاص في هذه القصة كلام لا ينبغي أن يجعل في حيز القبول ويجب صيانة النبي صلى الله عليه وسلم عن مثله . وكانت زيب بنت جحش تنخر على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وتقول زوجي الله من السماء . وأولم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم بنجر . وكانت امرأة سالحة صوامة قوامة كثيرة الخير تفعل بيدها وتصلق به . وكان اسمها برة فهاها رسول الله زيب ، وهى وقتئذ بنت خمس وثلاثين سنة وبسبب زيب نزل الحجاب :

وتوفيت سنة عشرين وهى بنت ثلاث وخمسين سنة وهى أول نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم موتا بعده . أرسل إليها عمر بن الخطاب اثني عشر ألف درهم كما فرض لساء النبي صلى الله عليه وسلم فأخذتها وفرقتها في ذوى قرابتها وأبناها ثم قالت : « اللهم لا يدركني عطاء لمرء بن الخطاب بعد هذا » فأتت وصلى عليها عمر بن الخطاب ودخل قبرها أسامة بن زيد ومحمد بن عبد الله بن جحش . وعبد الله بن أبي أحمد بن جحش . قيل هى أول امرأة صنع لها النمش أشارت به أسماء بنت حميس كانت رأتها في الحبشة ، ودفت بالبيع فيما بين دار عقيل ودار ابن الحنفية .

وعن عائشة قالت يرسم الله زيب بنت جحش لقد نالت في هذه الدنيا الشرف الذى لا يلبسه شرف إن الله عز وجل زوجها بنبيه صلى الله عليه وسلم في الدنيا ونطق به في القرآن . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا ونحن حوله « أنزكنك بنى حقوقا أطولكن باعاً » فبشرها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسرعة لحوقها به عليه السلام وهى زوجته في الجنة .

غزوة المريسيع

أو غزوة بنى المصطلق

للمريسيع : ماء لبني خزاعة وتسمى هذه الغزوة غزوة بنى المصطلق وهم بطن من خزاعة . وكانت في شعبان سنة خمس من الهجرة (ديسمبر سنة ٦٢٦ م) وسببها أن الحارث بن أبي ضرار الخزاعي كان قد جمع الجموع لحاربة النبي ﷺ فخرج رسول الله ﷺ وخرج معه كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزوة قط مثلها وكان معه ثلاثون من الخيل ، عشرة للمهاجرين وعشرون للأَنْصار واستعمل على المدينة زيد بن حارثة مولاه وقيل أبا ذر الغفاري . وخرجت معه عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما . وقتل رسول الله ﷺ جاسوسا للشركيين وبلغ عليه السلام للمريسيع من ناحية قديد إلى الساحل وصف أصحابه للقتال ودفع راية للمهاجرين لأبي بكر رضى الله عنه وراية الأَنْصار لسعد بن عباد وحمل للمسلمين على الشركيين فقتلوا عشرة وأُسروا باقهم وكانوا أكثر من سبعائة ، وسبوا الرجال والنساء والقرية وساقوا النعم والشاة ولم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد وهو هشام بن صبابه وقد قتل خطأ ، أصابه رجل من الأَنْصار من رمط عبادة بن الصامت وهو يرى أنه من العدو .

وكان من جملة السبي جُويرية بنت الحارث بن أبي ضرار رئيس بنى المصطلق ، وكانت تحت مسافع ابن صفوان قتل في هذه الغزوة وكان اسمها برة فهاهما رسول الله ﷺ جويرية وعن عائشة قالت لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بنى المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له فكانت على نفسها وكانت امرأة حلوة مَلَّاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها . قالت عائشة فوالله ما هو إلا أن رأيتها فكرهتها وقتل برى منها ما قد رأيت فلما دخلت على رسول الله ﷺ قالت يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث سيد قومه وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك ، وقد كانت على نفسى فأعفى على كتابتي قال رسول الله ﷺ أو خير من ذلك أودى عنك كتابتك وأتزوجك فقالت نعم . قتل رسول الله ﷺ فبايع الناس أنه تزوجها فقالوا أصهار رسول الله ﷺ فأرسلوا ما كان في أيديهم من بنى المصطلق ، فلقد أعق بها مائة من أهل بيت بنى المصطلق فأعلم امرأة أعظم بركة منها على قومها . ولما تزوجها رسول الله ﷺ حببها وقسم لها . وكانت حين تزوجها رسول الله ﷺ بنت عشرين سنة وتوفيت سنة خمسين وهى بنت خمس وستين سنة ، وبسبب زواجها هدى الله أكثر بنى المصطلق إلى الإسلام ، ثم أسلم الحارث . ومن هنا تظهر حكمة رسول الله ﷺ في زواجها .

قتل هشام بن صباة

قلنا إن هشام بن صباة قُتل خطأ أصابه رجل من الأنصار . فبينما الناس على ذلك الماء (الرسيم) وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجبر له من بنى غفار يقال له جهجاه بن سعيد يقود فرسه فازدحم جهجاه وسنان الجهني حليف بنى عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا فصرخ الجهني يامعشر الأنصار وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين فضرب عبد الله بن أبي ابن سلول وعنده رھط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حديث السن فقال أقد ضلوهما قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا والله ما عدونا وجلايب قريش ما قال القاتل : سمن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها منها الأذل . ثم أقبل على من حضره من قومه فقال : هذما فاعلم بأفسك أحلتهم بولادكم وقامتهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوكوا إلى غير بلادكم . فسمع ذلك زيد بن أرقم وكان غلاماً فشى به إلى رسول الله ﷺ وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوه فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب . فقال يارسول الله مر به عباد بن بشر بن وقش فليقتله . فقال رسول الله ﷺ فكيف يامر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا ولكن أذن بالرحيل (وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرتحل فيها فارتحل الناس وقد مشى عبد الله بن أبي ابن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بلغه ما سمع منه خلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به . وكان عبد الله بن أبي في قومه شريفاً عظيماً فقال من حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه من الأنصار - يارسول الله عسى أن يكون التلام أوم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجل ، حداً على عبد الله بن أبي ودفاعاً عنه ، فلما استقل رسول الله صلى الله عليه وسلم وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه تحية النبوة وسلم عليه . ثم قال يارسول الله لقد رحلت في ساعة مبكرة ما كنت تروح فيها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو ما بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال وأى صاحب يارسول الله ؟ قال عبد الله بن أبي . قال : وما قال ؟ قال زعم أنه إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل . قال أسيد فأنت والله يارسول الله تخرجه إن شئت ، هو والله القليل وأنت العزيز . ثم قال يارسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استأبته ملكاً .

ثم متن رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى وليتهم حتى أصبح وصدر يومهم ذلك حتى آتتهم الشمس ثم نزل بالناس ، فلم يكن إلا أن وجدوا مس الأرض وقعوا نياماً . وإنا نأمل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمر من حديث عبد الله بن أبي . ثم راح بالناس وسلك الحجاز حتى نزل على ماء بالحجاز فَوَيْقُ التَّبَعِ يقال له نضاه فلما راح رسول الله صلى الله عليه وسلم هبَّت على الناس ريح شديدة آذتهم ونحوقوها قال رسول الله ﷺ لا تخافوا فإنا هبَّت لموت عظيم من عظام الكفار . فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعاً بن ثابت

ابن النابوت أحد بنى قينقاع وكان من عظماء يهود وكهناً للمناقين قد مات في ذلك اليوم ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في عبد الله بن أبي ابن سلول ومن كان على مثل أمره قال (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ) فبست رسول الله إلى زيد بن أرقم وقرأ الآية عليه ثم قال له إن الله قد صدقك .

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي الذي كان من أمراييه فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنه قد بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فبنا بيلك عنه ؟ فإن كنت فاعلا فربي به فأنا أحل إليك رأسه فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها رجل أبر بوالده مني وإلى أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدعى نفسي أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشى في الناس فأقتله فأقتل مؤمنا بكافر فأدخل النار . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ترفق به وتحسن صحبته ما بقي معنا .

وقدم مقيس بن صبابه من مكة مسلماً فبنا يظهر فقال يا رسول الله جئتكم مسلماً وجئت أطلب دية أخى قتل خطأ . فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدية أخيه هشام بن صبابه فأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غير كثير ثم دعا على قاتل أخيه فقتله ثم خرج إلى مكة مرتداً .

آية التيمم

نزلت آية التيمم في هذه الغزوة وذلك بسبب أن عائشة رضی الله عنه اقطم عقدها فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقام الناس معه على التمسح حتى اجتعدوا عن الماء ونام رسول الله ﷺ واضماً رأسه على نخذ عائشة رضی الله عنها فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء فأنزل الله آية التيمم فكان ضياع المقد سبباً في نزول هذه الآية . وقال أبو بكر لابنته بعد أن كان يصاتها « والله يا بنتي إنك كما علمت مباركة » وآية التيمم مذكورة في سورة النساء ولأئمة .

عائشة وحديث الإفك

كان حديث الإفك في غزوة بني المصطلق ولا خلاف في ذلك ولكن علماء السير اختلفوا هل قصة آية التيمم أسبق أو قصة الإفك . وخلاصة حديث الإفك أن عائشة رضی الله عنها بعد غزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحين أذنوا بالرحيل ابتعدت عن الجيش بقضاء شأنها ، وبينما هي مقبلة إلى رحلها وجدت أن عقدها قد اقطم فبادت تبحث عنه فوجدته . لكنها لما رجعت وجدت أن الجيش قد رحل فلبست وغلبها النوم فنامت فرأها صفوان اللعل الشامي وكان وراء الجيش فاستيقظت باسترجامه ^(١) . فأنزع راحته وأركبها وانطلق

(١) أى يقول إنا قد دللنا إليه راجعون .

حتى أتى الجليش في نحر الظهيرة وم نزول فأشاع عبد الله بن أبي في المسكر حديث الإنك^(١) وانتشر بعد دخوله المدينة لشدته عدوانته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومرضت عائشة رضي الله عنها شهراً واستاء رسول الله ﷺ استياء شديداً ثم ذهبت عائشة إلى بيت أبيها . وقد علت بحديث الناس . وقالت لأُمها ماذا يتحدث الناس ؟ قالت يا بنية هو في عليك فوالله لقد كانت امرأة قط وضيفة^(٢) عند رجل يحبها لما ضرائر إلا أكثرن عليها . فبكت بكاء شديداً مما يتحدث الناس . وكانت لا تنام الليل من شدة الحزن والبكاء .

قلق رسول الله ﷺ واشتد قلقه واستبطأ الوحى ، فلم يرغب استشارة أصحابه فدعا على بن أبي طالب وأسامة ابن زيد واستشارهما في فراق أهله . فأما أسامة فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما يعلم من براءة أهله . وأما على رضي الله عنه فقال لرسول الله ﷺ « لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير » وهذا القول بلغ عائشة فلم تنسه طول حياتها ثم قال على سل الجارية التي كانت تخدم عائشة تصدق فدعا رسول الله ﷺ بريرة وسألها فأقسمت أنها لم تر عليها شيئاً . وكانت عائشة رضي الله عنها ترجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئها الله بها . وما كانت تظن أن الله تعالى ينزل في شأنها وحياً . وبينما رسول الله ﷺ في حيرة إذ نزل الوحى عليه ببراءة عائشة رضي الله عنها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ^(٣) .

وعصبة الإفك حسان بن ثابت رضي الله عنه ومسطح بن أثانة وحننة بنت جحش^(٤) . وعبد الله بن أبي المنافق فلما نزلت براءة عائشة جلداهم رسول الله كل واحد ثمانين جلدة إلا عبد الله بن أبي فإنه لم يجلد بل أهله . وفي ذلك يقول عبد الله بن رواحة :

لقد ذاق حسان الذي هو أهله وحننة إذ قالوا هجيراً ومسطح

نماطوا برجم النيب زوج نبيهم وسخطة ذى العرش الكريم فأبرجوا^(٥)

قال السهيلي إن من نسب عائشة رضي الله عنها إلى الزنا كان كافراً لأن ذلك تكذيب للنصوص القرآنية ومكذبها كافر .

وقال عروة مارأيت أحداً أهل بقة ولا بطب ولا شعر من عائشة ، ولو لم يكن لعائشة من الفضائل إلا همة الإفك لكفى بها فضلاً وعلو مجد ، فإنها نزل فيها من القرآن ما ينال إلى يوم القيامة .

(١) وفي حديث ابن عمر فقال عبد الله بن أبي جريها ورب الكعبة .

(٢) من الوضأة وهي الحسن والجمال وكانت عائشة كذلك .

(٣) سورة النور (٤) حنة بنت جحش هي بنت عمته صلى الله عليه وسلم اخت زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها وزوجها مصعب بن عمير الذي اتهمه بغيره أحد (٥) أي بالقوا في الكذب .

جاء في صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أفرغ بين أزواجه فأتيهن خرج سهمها خرج بها معه . فأفرغ بيننا في غزاة غزاها فخرج سهمي فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب فأنا أحمل في هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقتل دوننا من المدينة فأذن ليلة بالرحيل فممت حين آذونا فمشت حتى جاوزت الجيش فلما قضيت شأني أقبلت إلى الرجل فلست صدرى فإذا عَقْدٌ لى من جَزَعٍ ^(١) فَلَقَارٍ ^(٢) قد انقطع فالتفت عقدي فحبسني ابتناؤه فأقبل الذين يُرَحِّلُونَ لى ^(٣) فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه وكان النساء إذا ذاك خفاً لم يتقلن ولم يدشن اللحم ^(٤) وإنما يأكلن المَلَقَةَ من الطعام ^(٥) فلم يستنكر القوم حين رفضوه قتل المودج فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن فيمشوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش فجئت منزله وليس فيه أحد فأملت الوضع الذى كنت فيه وطلعت أنهم سيقتلونى فيرجعون لى . فبينما أنا جالسة غلبنى عيناى فمست وكان صفوان بن المطلب الشاكى ثم الذكروانى من وراء الجيش فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم فأتانى وكان يرانى قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته فوطئ يدها . فركبتها فانطلق يقودنى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما زلوا موغرين في نحر الظهرة فهلك من هلك وكان الذى تولى الإفك عبد الله بن أبي ابن سلول فقدمنا المدينة فاشتكت بها شهراً والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك ويرينى في وجى أنى لأرى من النبي ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أمرض إنما يدخل فيسلم فيقول كيف تيكم لا أشعر بشيء من ذلك حتى تهت فخرجت أنا وأم مسطح فيك المناصع ^(٦) مَتَبَّرَنا ^(٧) لا يخرج إلا ليلاً إلى ليل وذلك قبل أن تتخذ السكف قريباً من يونسنا وأمرنا أمر العرب الأول في البرية أو في التنزه فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشى فَمَرَّتْ في مرطها ^(٨) قالت تمس مسطح فقلت لها بشما قلت أتسبين رجلاً شهيداً بدر؟ قالت يا هنتاه ^(٩) ألم تسمى ما قالوا ؟ فأخبرتني بقوا أهل الإفك فازدودت مرضاً على مرضى . فلما رجعت إلى بيتي دخل على رسول الله ﷺ فسلم . قال كيف تيكم فقلت أئذنى لى إلى أبوى . قالت وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قبلها فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته أبوى . قلت لأخى ما يتحدث الناس به ؟ قالت : يا بنية هوئى على نفسك الشأن فوالله قلما كانت امرأة قط وضية عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكَثَرْنَ عليها . قلت سبحان الله ولقد تحدثت الناس بهذا ؟ قالت فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . ثم أصبحت فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبت الوحى يستشيرها في فراق أهله . فأما أسامة فأشار عليه بالذى يعلم في

(١) هو خرز معروف فى سواده يابى . (٢) مدينة باليمن . (٣) أى يضمن الرجل على بعير .

(٤) وفى رواية : والنساء يؤمضن لم يهلبهن اللحم ، وهبله اللحم تهيباً إذا كثر عليه وركب بفسه بشماً . يقال رجل مهبل .

(٥) القليل من الطعام . (٦) موضع خارج المدينة . (٧) موضع قضاء حاجتنا . (٨) كساهما .

(٩) أى ياهذه .

فنه من ولدكم . فقال أسامة أهلك يا رسول الله ولا نعلم إلا خيراً . وأما عليّ فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك ، فدعا رسول الله ﷺ بريرة . فقال يا بريرة هل رأيت فيها شيئاً يريك ؟ قالت بريرة : لا والذي يبتك بالحق إن رأيت منها أمراً أغصه ^(١) عليها قط أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام على المجين فتأني الداجن فتأكله . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي ابن سلول . فقال رسول الله ﷺ : من يعذري من رجل يلفني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً . وما كان يدخل على أهلي إلا معي . فقام سعد بن معاذ فقال يا رسول الله أنا والله أعذر لك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه . وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا فقلنا فيه أمرك . فقام سعد بن عباد وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً ، ولكن احتمله الحمية قال : كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك . فقام أسيد بن الحضير فقال كذبت لعمر الله والله لا تقتله فإنك منافق تحمل عن المنافقين . فثار الحليان الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله على اللبر يخفضهم حتى سكتوا وسكت ، وبكى يومى لا يرقأ لى دمع ولا أكحل بنوم فأصبح عندي أبواى . وقد بكيت ليلتين ويوماً حتى أظن أن البكاء فالتى كبدي . قالت فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكى إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها جلست تبكى معي فبينما نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل لى ما قيل قبلها . وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني بشيء . قالت فتشهد ثم قال : يا عائشة لقد يلفني عنك كذا وكذا فإن كنت بريرة فسيرتك الله وإن كنت أملت بذنب فاستغفري وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه . فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحسن منه قطرة ، وقلت لأبي أجب عنى رسول الله ﷺ . قال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم . قلت لأبى أجب عنى رسول الله ﷺ فيما قال . قالت والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ قالت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن . قالت : والله لقد علمت أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر في أنفسكم وصدقتم به ولئن قلت لكم إني بريرة ، والله يعلم إني لبريرة لاتصدقونى ولئن اعترفت لكم بأمر الله يعلم إني لبريرة لتصدقنى ، والله ما أجد لى ولكم مثلاً إلا أبا يوسف إذ قال (قَصَبٌ جَعِلَ وَاللَّهُ أَلْمُسْتَمَانُ عَلَى مَا يَصِفُونَ) ثم تحولت على فراشى وأنا أرجو أن يبرئنى الله . ولكن والله ما ظننت أن ينزل الله في شأني وحياً يؤلى ولأنا أحقر في نفسى من أن يتكلم بالقرآن في أمرى ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فو الله ما رام مجلسه ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل الله عليه الوحى . فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجان ^(٢) من العرق في يوم شات فلما سُرئى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم

- ٢٢٧ -

بها أن قال لي . يا عائشة احدى الله قد برأك الله قالت لي أمي : قومي إلى رسول الله ﷺ قلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحد إلا الله فأنزل الله عز وجل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ الآية . فلما أنزل الله عز وجل هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه - وكان ينفق على مسطح بن أثانة لقرايته منه - والله لا أفنق على مسطح شيئاً أبداً بعد ما قال لعائشة . فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلَا يَأْتِلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِيَ الْقُرْبَى ﴾ إلى قوله ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ قال أبو بكر : يلى والله ، إنى لأحب أن ينفق الله لي ، فرجع إلى مسطح الذي كان يحرقى عليه . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل زينب بنت جحش عن أمرى فقال يا زينب ما علمت مارأيت ؟ فقالت يا رسول الله أحى سمى وبصرى . والله ما علمت عليها إلا خيراً . قالت وهى التى كانت تسمى فقصها الله بالورع اهـ .

هذه قصة الإفك وقد ظهر أن المنافقين قد افتروها وعلى رأسهم عبد الله بن أبي لشدة حقدم على رسول الله فسبوا إلى عائشة ، وهى من أشرف بيت ماهى بريئة منه ليلوثوا سمعتها الطاهرة النقية ، ولكن الحق تعالى برأها من كل سوء وأعلى قدرها فاطمناً زوجها رسول الله وأبوها وأما جميع المسلمين ، وإن كان هذا شأن الحاسدين فى كل زمان فإن الله عز شأنه لا بد أن يكلاً عباده الصالحين ويرعاهم وينصرهم على القوم الظالمين .

غزوة الخندق

وهى الأحزاب

كانت غزوة الخندق فى شوال من السنة الخامسة (فبراير سنة ٦٢٧ م) باتفاق المؤرخين لكن ابن خلدون يقول فى تاريخه (والصحيح أنها فى الرابعة ويقول ابن عمر يقول ردى رسول الله ﷺ يوم أحد وأنا ابن أربع عشرة سنة ثم أجازنى يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فليس بينهما إلا سنة واحدة وهو الصحيح فهى قبل دومة الجندل بلا شك)^(١)

تمحزب الأحزاب

لما وقع إجلال بنى النضير ، سار منهم جمع من كبارهم ومنهم سلام بن مشكم ورئيسهم كنانة بن أبي الحقيق النضرى وحى بن أخطب وهودبة بن قيس الوائلى وأبو عامر الفاسق إلى أن قدموا مكة على قريش يدعونهم ويحرضونهم على حرب رسول الله .

(١) راجع سيرة ابن هشام وتاريخ الطبرى والواقدي ومطبقات ابن سعد وحياة محمد لمستر موير .

قال الأستاذ ولقنسون : « لا نزل أشراف بنى النضير فى خير أخذوا يفسكرون فى الثأر من الأنصار وجعلوا يفسكرون فى الوسائل التى توصلهم إلى أطامهم وتردم إلى مزارعهم فى منطقة يثرب فزعم نفر من اليهود فيهم سلام ابن أبى الحقيق وحى بن أخطب وكفانة بن الربيع أن يحزبوا الأحزاب على المسلمين » .

أى الدينين خير ؟

لما دعت اليهود قريشاً لمحاربة النبی ﷺ وقالوا لهم سنكون معكم حتى نستأصله ارتابوا فى أمرهم لأن دين اليهود قريب فى جوهره من الإسلام وبعيد عن عبادة الأصنام كل البعد وقريش عباد أصنام . ولذلك قالوا لهم : يامعشر يهود إنكم أهل الكتاب الأول والعلم بما أصبحنا مختلف فيه نحن ومحمد . أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه وأنتم أولى بالحق منه . فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ما قالوا واستعدوا للحرب . ثم خرج أولئك النفر من يهود حتى جاءوا غطفان ودعوه إلى مشاركتهم فى الحرب وذبحكروا لهم استمداد قريش فأجابوهم .

إن اليهود أجابوا قريشاً بأن دين قريش (الوثنى) خير من دين محمد مخالفين بذلك دينهم الداعى إلى عبادة الله الواحد توصلوا إلى غرضهم وهو محاربة المسلمين وطردهم من المدينة وإعادة إخوانهم إلى ديارهم وكان خيراً لهم أن يعيشوا مع المسلمين فى وفاق ويكتفوا عن السامس والقتل والانضمام إلى الأعداء . فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيحًا مِّنَ الْكِتَابِ بَوْمِئِذٍ بِالْحِجْبِ وَالطَّاعُوتِ ﴾ الآيات . . .

وقد أدرك الأستاذ ولقنسون أنهم أخطأوا فى تفضيلهم دين قريش على الإسلام فقال فى كتابه تاريخ اليهود صفحة ١٤٢ مانصه :

« والذى يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء ، إنما هو تلك المحادثة التى جرت بين نفر من اليهود وبين قريش الوثنيين حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أدب قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية » .

ولا يخفى أن الذين أدلوا بهذا الحديث ليسوا من عامة اليهود حتى يقال إنهم لا يملكون ما يقولون أو إنهم لا يثقون اليهود بل هم من رؤسائهم وأصحاب النفوذ فيهم . فهل هؤلاء لا يستحقون التأديب ؟

خروج الأحزاب وقوادم

خرجت قريش وقائدها أبو سفيان بن حرب . وخرجت غطفان وقائدها عيينة بن حصن بن حذيفة بن بى فزارة . والمحارب بن عوف بن أبى حارثة المرى فى بنى مرة . ومسعود بن ربيعة بن نيرة بن طريفين تابعه من قومه من أشجع .

حفر الخندق

فلما سمع رسول الله ﷺ بتجزئهم وخروجهم لمحاربتهم أمر بحفر الخندق حول المدينة في الجهات التي لم تكن حصينة لتتوق العدو المهاجم ، والذي أشار عليه ﷺ بحفره سلمان الفارسي رضي الله عنه ، وقد كان الفرس يحفرون الخنادق للدفاع في الحرب . قال سلمان يا رسول الله كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا ، وعلى كل حال فإن كلمة خندق فارسية الأصل .

اشتغل رسول الله ﷺ بحفر الخندق بنفسه ليقتردى به المسلمون ، وليشجعهم على العمل فاشتغل للمسلمين معه . أما المنافقون فكانوا يتوانون وينصرفون بدون إذن رسول الله ﷺ ويستقلون العمل ويبطلون العزائم . وتباطأ رجال من المنافقين وصلوا الواحد منهم ينصرف إلى أهله من غير استئذان .

سلمان منا أهل البيت

خط رسول الله ﷺ الخندق ثم قطعه أربعين ذراعاً بين كل عشرة فاختلف المهاجرون والأنصار في سلمان الفارسي وكان رجلاً قوياً . قالت الأنصار سلمان منا . وقالت المهاجرون سلمان منا قال رسول الله ﷺ « سلمان منا أهل البيت » .

اعتراض صخرة بيضاء ومعجزة الرسول

بينما جماعة من المسلمين يعملون في حفر الخندق في الجزء النخص لم ومعهم سلمان الفارسي إذ ظهرت صخرة بيضاء مروة فكسرت حديد معاوهم وشقت عليهم . فقالوا يا سلمان ارق إلى رسول الله ﷺ فأخبره خبر هذه الصخرة فإذا أن تدل عنها فإن للعدل قريب وإما أن يأمرنا فيها بأمره فإننا لانحب أن نجاوز خطه^(١) فرقى سلمان حتى أتى رسول الله ﷺ وهو ضارب عليه قبة تركية فقال يا رسول الله بأيننا أنت وأمننا خرجت صخرة بيضاء من الخندق مروة فكسرت حديدنا وشقت علينا حتى مانحيك فيها قليلا ولا كثيرا . فرأينا فيها بأمرنا لانحب أن نجاوز خطك . فبهط رسول الله ﷺ مع سلمان في الخندق وأخذ المول من سلمان رضي الله عنه قال باسم الله ثم ضربها ففتر ثلثها وخرج منها نور أضاء ما بين لابتها بمعنى لابتى المدينة . قال : الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله إلى أبصر قصورها الجمر الساعة من مكاني . ثم ضرب الثانية قطع ثلثا آخر فبقرت بركة من جهة فارس أضاءت ما بين لابتها . قال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إلى أبصر قصر المدائن الأبيض الآن فأبشروا

(١) أي الخط الذي رسمه لهم الرسول .

بالنصر فسر المسلمون . ثم ضرب الثالثة وقال باسم الله قطع بقية الحجر وخرج نور من قبل العين فأضاء ما بين لابي المدينة حتى كأنه مصباح في جوف ليل مظلم . قال : الله أكبر أعطيت مفاتيح الدين والله إني لأبصر أبواب حصنها من مكاني الساعة .

وجاء في صحيح البخاري عن جابر رضى الله عنه قال :

« إنا يوم الخندق نحضر فرضت كدية شديدة^(١) فجاءوا النبي ﷺ قالوا هذه كدية عرضت في الخندق قال أنا نازل ثم قام وبطنه ممصوب بمجر^(٢) ولبثنا ثلاثة أيام لا ندوق ذواقاً^(٣) فأخذ النبي ﷺ للمول فضرب في الكدية فمادت كشيبة أهيل^(٤) .

عدد الجيشين

كان أهل الخندق ثلاثة آلاف . ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق أقبلت قريش حتى نزلت بمجمع الأسياح من دومة بين الجوف والثابة في عشرة آلاف من أحاديثهم ومن تابعهم من كنانة وأهل تهامة وأقبلت عطفان ومن تابعهم من أهل نجد حتى نزلوا بذي ندى بمجانب أحد .

تقضى العهد

كان كعب بن أسد القرظي سيد بني قريظة قد وادع النبي ﷺ على قومه وعاقده على ذلك فذهب إليهم حتى ابن أخطب النضري وهو أحد الذين حزبوا الأحزاب فلما سمع كعب حتى بن أخطب أغلق دونه باب حصنه فاستأذن عليه فأبى أن يفتح له فألح عليه ابن أخطب ففتح له وما زال يستميله ويفريه حتى نقض كعب عهده وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ وصار هو وقومه بنو قريظة مع الأحزاب على رسول الله ﷺ . وعلم بذلك رسول الله ﷺ وعظم عند ذلك البلاء واشتد الخوف .

اشتداد الحصار

اشتد الخوف من تحزب الأحزاب ولا سيما بعد أن نقض بنو قريظة العهد وانضوا إلى الأعداء وظن للؤمنون كل الظن وانتهر المناهقون هذه الفرصة لتثبيط الزايم وهم بالقتل بنو حارثة وبنو سلمة معترضين بأن بيوتهم عورة خارج المدينة ثم ثبتهم الله ودام الحصار على المسلمين قريباً من شهر ولم يكن بينهم غير الرمي بالنبال ، وكان لدى المسلمين من المؤونة ما يكفيهم أكثر من عام ..

(١) أى قلعة من الأرض لا تصل فيها الماول .. (٢) أى من ألم الجوع أو خشية انحناء عليه . (٣) أى من جلس ماطس أو يصرّب . (٤) أى رملاً سائلاً .

اقتحام الخندق

خرجت فوارس من قريش على خيلهم بعد أن تهيأوا للقتال حتى وقفوا خارج الخندق فلما رأوه قالوا والله إن هذه لكيدة ما كانت العرب تكيدها . ثم يعموا مكاناً من الخندق ضيقاً فضربوا خيلهم فالتصمت منه فجالت بهم السبيغة بين الخندق وسلع وخرج علي بن أبي طالب في نفر من المسلمين حتى أخذ عليهم الثغرة التي اقتحموها وخرج عمرو بن عبد ود وطلب للبارزة وكان عمره تسعين سنة فبارزه علي بن أبي طالب فقتله . وذكر ابن إسحاق أن للشركين بشوا إلى رسول الله ﷺ يشترون جيفة عمرو بمشرة آلاف . قال رسول الله : هو لكم ولا تأكل نمن اللوق ، وخرجت خيلهم منهزمة ، حتى اقتحمت من الخندق هاربة وقتل مع عمرو رجلاً من بني عثم بن عبيد بن السباق بن عبد البار أصابه سهم فقتل منه بمسكة . ومن بني مخزوم نوفل بن عبد الله بن النخيلة وكان اقتحم الخندق فتورط فيه فرموه بالحجارة فقال يامعشر العرب قتلة أحسن من هذه فتزل إليه علي فقتله . ومن الذين كانوا يناوشون المسلمين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وذلك قبل إسلامهما . ورعى سعد بن معاذ يومئذ بهم رماء رجل يقال له ابن العرق العامري ^(١) قال خذها وأنا ابن العرق . قال سعد عرق الله وجهك في النار فأصاب الأكل منه قطعه . قال سعد اللهم لا تمنى حتى ترق عني في (بن قريظة) وكانوا حلفاء ومواليه في الجاهلية . ونقل سعد وهو مجروح إلى خيمة رفيدة وقد كانت امرأة تدأوى الجرحى في المسجد .

حسان بن ثابت يخشى القتال

كانت صفية بنت عبد المطلب في فارع - حصن حسان بن ثابت - قالت وكان حسان معنا فيه مع النساء والصبيان . قالت صفية فر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا ورسول الله ﷺ والمسلمون في محور عدوم لا يستطيعون أن ينصرفوا إلينا عنهم إن أنانا آت . قالت قتلت يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن وإلى والله ما آمنه أن يدل على عورتنا من وراءنا من يهود وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقته ، قال ينفر لك يا بنت عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا . قالت ، فلما قال ذلك لي ولم أر عنده شيئاً احضرت ثم أخذت حموداً ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالموود حتى قتله . فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن قتلت يا حسان انزل إليه فأسابه ، فإنه لم يمتنع من سابه إلا أنه رجل . قال : مالي بسلبه من حاجة يا بنت عبد المطلب ^(٢) . فكانت صفية أشجع من حسان .

(١) العرق - بفتح العين وكسر الراء - وهي أمه واسمها قلاية بنت سعيد بن سعد بن سهم وتكنى أم طاطمة . سميت العرق لطلب ربهما ، وهي جدة خديجة رضي الله عنها أم أيما . وابن العرق هذا اسمه حيان بن عبد مناف .

(٢) راجع تاريخ الطبري - غزوة الخندق .

استمرار القتال وفوات الصلاة

استمر القتال في يوم من أيام الخندق من سائر جوانب الخندق إلى الليل ولم يصل ﷺ ولا أحد من المسلمين صلاة الظهر والعصر والغروب والعشاء وصار المسلمون يقولون ماصلينا فيقول رسول الله ﷺ ولا أنا فلما انكشف القتال وجاء ﷺ إلى قبته أمر بلالا فأذن وأقام للظهر فضلى ، ثم أقام لكل صلاة وصلى هو وأصحابه . وجاء في رواية جابر رضى الله عنه أنه أذن وأقام لكل صلاة . وجمع النووي بأنها قضيتان جرتا في أيام الخندق فإنها كانت خمسة عشر يوماً . وفي رواية أن التي فاتت صلاة العصر وبحمل ذلك على أنه وقع في بعض تلك الأيام وجاء في بعض الروايات : « شغلونا عن الصلاة الوسطى ، صلاة العصر حتى غابت الشمس ملأ الله أجيافهم وقبورهم نارا » .

إن الحرب خدعة

جاء نعيم بن مسعود بن عامر بن أنيف بن ثعلبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله إني قد أسلت وإن قومي لم يملوا بإسلامي فرني بما شئت . قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة ^(١) ، فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة وكان لهم نديافي الجاهلية قال لهم : يا بني قريظة قد عرفتم دى إياكم وخاصة ما بيني وبينكم . قالوا صدقت لست عندنا بجهنم فقال لهم إن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وقد ظاهروا محمد عليه ، وإن قريشاً وغطفان ليسوا كهيتكم . البلد بلدكم ، به أموالكم وأبناؤكم ونسأؤكم لا تقدرن على أن تحولوا منه إلى غيره وإن قريشاً وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونسأؤهم وبلدهم يبره فليسوا كهيتكم إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلصوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاعة لكم به إن خلا بكم . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشrafهم يكونون بأيديكم فقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمداً حتى تانجزوه ، قالوا لقد أشرت برأى ونصح . ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش : يا معشر قريش قد عرفتم دى إياكم كدفراف محمداً وقد بلغنى أمر رأيت حقاً على أن أبلغكموه نصحاً لكم فآكتموا على . قالوا فصل ذلك . قال فاعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه أن قد ندمنا على ما فعلنا فهل يرضيك عنا أن نأخذ من التيتيين من قريش وغطفان رجالاً من أشrafهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون ملك على من بقى منهم ؟ فأرسل إليهم أن نعم : فإن بث إليكم يهود يبتسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفوا إليهم منكم رجلاً واحداً . ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان أنتم أصلى وعشيري وأحب الناس إلى ولا أراكم

(١) قال النووي : اتفقوا على جواز خداع الكفار في الحرب كجاء أمكن إلا أن يكون فيه هنى عهد أو أمان فلا يجوز .

تتموننى . قالوا صدقت . قال فاكتموا على . قالوا فعل ، ثم قال لهم مثل ما قال قرئش وحذرهم ما حذرهم . فلما كانت ليلة السبت في شوال سنة خمس ، وكان مما صنع الله عز وجل لرسوله أرسل أبو سفيان وروؤس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل في خبر من قرئش وغطفان قالوا لهم إنا لسنا بدار مقام قد هلك الخلف والحافر فاعدوا للقتال حتى نناجز محمدا ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا وقد كان أجلدت فيه بعضنا حدثا فأصابه ما لم يخف عليكم ولستم ذلك بالذى تقاتل معكم حتى تعملونا رهنا من رجالكم يكونون بأيدينا فمة لنا حتى نناجز محمدا فلما نحشى إن ضررناكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تسمروا إلى بلادكم وتتركوا الرجل والرجل ، ولا طائفة لنا بذلك من محمد . فلما رجعت إليهم الرسل بالذى قالت بنو قريظة قالت قرئش وغطفان : تعلمون والله إن الذى حدثكم نعم بن مسعود لحق . فأرسلوا إلى بنى قريظة أنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدا من رجالنا ، فإن أنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . قالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا : إن الذى ذكر لكم نعم بن مسعود لحق ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا ، فإن وجدوا فرصة انتهزوها وإن كانوا غير ذلك تسمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلادكم . فأرسلوا إلى قرئش وغطفان : إنا والله لا نقاتل معكم حتى تعملونا رهنا . فأبوا عليهم وحل الله بينهم . وبذلك نجحت الخديعة .

وفي طبقات ابن سعد : حُصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بضع عشرة ليلة حتى خلص إلى كل امرئ منهم الكرب فأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعالج غطفان على أن يعطيه ثلث الثمر ويخذوا بين الناس وينصرفوا عنه فأبى ذلك الأنصار فترك ما كان أراد من ذلك . وقد تبين لنا أن نعم بن مسعود قد قام بذلك خير قيام .

حرب الطليعة

نجح نعم بن مسعود في خديعته وأوقع الفشل بين بنى قريظة وقرئش . ثم جاءت بهم الرياح في ليل شامية شديدة البرد فجعلت تسكتهم قذورها وتطرح أبنيتهم وأصيديا بالبرد وماتت مواشيهم ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أجهم وما فرق الله من جماعتهم ، دعا حذيفة فبعثه إليهم لينظر ما فعل القوم ليلا . وكان حذيفة صاحب سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المناقذين لم يعلمهم أحد إلا حذيفة . أعلمهم بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال حذيفة فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تفر لهم قدرا ولا بارأ ولا بناء قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ .

خطبة أبي سفيان

قام أبو سفيان بن حرب . قال « يا معشر قريش لينظر امرؤ جليسه » قال حذيفة فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي . قلت من أنت ؟ قال : أنا فلان بن فلان . ثم قال أبو سفيان : « يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع والخلف وأخلفتنا بنو قريظة وبائنا عنهم الذي نكره ولقيتنا من هذه الريح ما ترون والله ما تعلمن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء فارتحلوا فإني مرتحل » ثم قام إلى جله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فا أطلق عقاله إلا وهو قائم .

هذه خطبة أبي سفيان في الجيش . وكان قائدهم ولا بقاء للجند بعد رجوع القائد ونصيحته لهم بالعودة ، ولا شك أنهم شنوا الإقامة ولم يروا فائدة من الانتظار أكثر مما اعتظروا . وقد سادت حالهم بسبب اشتداد البرد وهبوب الريح وعدم رغبة بني قريظة في القتال . وقد كانوا يؤملون دخول المدينة . فكان الخندق عقبة في سبيلهم بالرغم من كثرة عددهم . ولما سمعت غطفان بما فعلت قريش تشمروا راجعين إلى بلادهم تاركين ما استقبلوا من قتالهم فتنه للسلمون . وانصرف للسلمون عن الخندق ورجعوا إلى المدينة ووضعوا السلاح بعد أن حاصرم للشركوف خمسة عشر يوماً . وانصرف صلى الله عليه وسلم من غزوة الخندق يوم الأربعاء لسيح بقين من ذى القعدة .

قال عليه السلام بعد انصراف الأحزاب لن تفزواكم قريش بعد عامكم هذا . وقد كان كما أخبر عليه السلام . وكانت هذه النزوة آخر محاولة من جانب أشراف مكة للقضاء على الدين الجديد ألا وهو الإسلام .

خسائر المسلمين

ذكر ابن إسحاق أنه استشهد من المسلمين يوم الخندق ستة لا غير : ثلاثة من الأوس وهم : سعد بن معاذ ، وأنس بن أوس ، وعبد الله بن سهيل . وثلاثة من الخزرج وهم : الطفيل بن النعمان ، ومجلبة ابن غنمة ، وكعب بن زيد .

خسائر المشركين

أما عدد قتل المشركين الثلاثة : فمني بن عبد المبدري أصابه سهم فسات منه بمكة ، ونوفل بن عبد الله الحزومي ، وعمر بن عبد ود .

غزوة بنى قريظة

ذو القعدة سنة خمس - إبريل سنة ٦٢٧ م

بنو قُرَيْظَةَ قوم من اليهود بالمدينة من حلفاء الأوس . وسيد الأوس حينئذ سعد بن معاذ

ذكرنا أن بنى قريظة نقضوا العهد وحاربوا رسول الله مع الأحزاب واشتد البلاء على المسلمين ثم كفوا عن القتال لما أوقفه نعيم من الفشل بينهم وبين قريش فكان تأديبهم أمراً لا مناص عنه لأن وجودهم بالمدينة فتنه تهدد للمسلمين ، ولأنهم هم الذين حاربوا الأحزاب ، وانضموا إلى الأعداء ، في غزوة الخندق .

لما انصرف رسول الله ﷺ من الخندق دخل المدينة لسبع بقين من ذي القعدة سنة خمس هو وأصحابه ووضعوا السلاح وكان قد صلى الصبح ودخل بيت عائشة رضى الله عنها . فلما كان وقت الظهيرة أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ معتجراً بعمامة^(١) من إستر على بفتل عليها رحالة عليها قطيفة من ديباج قال أود وضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال نعم . قال جبريل فما وضعت للملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالسير إلى بنى قريظة فأبى عاهد إليهم فزول بهم . وروى البخاري عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ لما رجع يوم الخندق ووضع السلاح واغتسل فأثابه جبريل وقد عصب رأسه الثياب فقال وضعت السلاح فوالله ما وضعت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فأين ؟ قال : هاهنا وأوماً إلى بنى قريظة . قالت فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذناً فأذن في الناس من كان مسلماً مطيعاً فلا يصلين العصر إلا في بنى قريظة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم فبما قال ابن هشام .

وقدم رسول الله ﷺ على بن أبي طالب برايته إلى بنى قريظة وابتدروا الناس . وكان عدد من خرج إلى القتال ثلاثة آلاف واخيل ستة وثلاثين فارساً .

دنا على كرم الله وجهه من الحصن^(٢) ، ومعه نفر من المهاجرين والأنصار وغرز اللواء عند أصل الحصن ، فسمع من بنى قريظة مقالة قبيحة في حقه ﷺ وحق أزواجه فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق فقال يا رسول الله لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابث . قال لم ؟ أظنك سمعت لى منهم أذى . قال نعم يا رسول الله قال لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً . فلما دنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم قال يا إخوتان القردة هل أخراكم الله وأنزل بكم حكمته ؟ قالوا يا أبا القاسم ما كنت جهولاً .

(١) احتجر عمامته : لفها على رأسه . (٢) حصن بنى قريظة يبعد عن المدينة بنحو ميلين أو ثلاثة إلى الجنوب الغربي .

- ٢٣٦ -

ومر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من أصحابه بالصَوْرَيْنِ^(١) قبل أن يصل إلى بني قريظة فقال هل منكم أحد؟ قالوا يا رسول الله قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بنة يضاء عليها رحالة . عليها قطفة ديباج فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك جبريل بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم ويقذف الرعب في قلوبهم^(٢).

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمساً وعشرين ليلة كما قال ابن إسحاق وقال الواقدي إحدى وعشرين ليلة . حتى جهدم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب ، وكان طعام الصحابة التمر يرسل به إليهم سعد بن عباد .

وقد كان حبي بن أخطب دخل على بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان وفاء لكمب ابن أسد بما كان عاهده عليه . فلما أيقنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منصرف عنهم حتى يناجزهم (قاتلهم) قال كعب بن أسد لهم :

يا مشرك اليهود إنه قد نزل بكم من الأمر ما ترون وإني عارض عليكم خلافاً ثلاثاً نغذوا أيها شتم . قالوا وما هن؟ قال : تنابع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد كان تبين لكم أنه نبي مرسل وإنه اللذي كنتم تعجلونه في صكتابكم فتأمنون على دماءكم وأموالكم وأبنائكم ونساءكم . قالوا لا فارق حكم التوراة أبداً ولا نستقبل به غيره .

قال فإذا أتيتم على هذه فمهل فامتلأ أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مُصلتين بالسيف^(٣) ولم تترك وراءنا قلاعاً يهمننا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن هلك ، نهلك ولم تترك وراءنا سلا نغشى عليه وإن نظفر فاعمرى لنجدن النساء والأبناء .

قالوا قتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بدمهم؟

قال فإذا أتيتم هذه على فإن الليلة ليلة السبت وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غيرة (غفلة) .

قالوا فندس سبتنا ونحدث فيه ما لم يكن أحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه من السخ مالم يخف عليك .

قال ما لبث رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً .

ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ : أن ابعث إلينا أبا ليابة وهو رفاعة بن عبد المنذر أخو بني عمرو بن عوف وكانوا حلفاء الأوس نستشيرهم في أمرنا . فأرسله رسول الله ﷺ إليهم فلما رأوه ، قام إليهم الرجال وجهش إليه

(١) الصورتين : موضع بالبيتة بالبيع . (٢) سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق وكذا في تاريخ الطبري عن ابن إسحاق .

(٣) مجرد دين السيوف :

- ٢٣٧ -

النساء والصبيان (أى أسرعوا إليه) ييكون في وجهه من شدة المحاصرة فرقمهم وقالوا له : ياأبا لبابة أترى أنى نزل على حكم عمده ؟ قال نعم . وأشار بيده إلى حلقه « إنه الذبح » قال أبو لبابة : فوالله ما زالت قدامى من مكاتهما حتى عرفت أنى قد خُنتُ الله ورسوله (بإذاعة سره) ومن هذا يتبين أن أبا لبابة كان يعلم أنهم سيقتنون قبل أن يحكم فيهم سعد .

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في للسجدة إلى عمود من عمده ^(١) وقال : لا أبرح مكانى هذا حتى أموت أو يعوب الله على ما صنعت وعاهد الله أن لا يبطأ بنى قريظة أبداً . وقال لا يرانى الله في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً . فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره وأبطأ عليه وكان قد استبطأه قال : أما لو جاءنى لاستغفرت له . فأما إذ فعل ما فعل فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يعوب الله عليه . ثم إن توبة أبى لبابة أنزلت على رسول الله ﷺ وهو في بيت أم سلمة فبشرت أبا لبابة بذلك ثم أطلقه رسول الله ﷺ .

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ . فتواثب الأوس فقالوا يارسول الله إنهم موالييندون الخزرج وقد فلتت في موالى الخزرج بالأمس ماقد علمت وقد كان رسول الله ﷺ قبل بنى قريظة حاصر بنى قريظة . وكانوا حلفاء الخزرج فنزلوا على حكمه . فسأله إمام عبدالله بن أبى ابن سلول فوهبهم . فلما كلمه الأوس قال رسول الله ﷺ : ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ قالوا : بلى قال فذاك إلى سعد بن معاذ وكان سعد ابن معاذ قد جعله رسول الله ﷺ في خيمة امرأة من المسلمين يقال لها ربيعة في مسجده كانت تداوى الجرحى وتحتسب شهما على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين . وقد قال رسول الله ﷺ لقومه حين أصابه السهم . ياخذننى : اجعلوه في خيمة ربيعة حتى أعوده من قريب ^(٢) .

حكم سعد بن معاذ

كان أبو لبابة بن عبد المنذر قد عرف حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنى قريظة لأنه لما ذهب إليهم أشار بيده إلى حلقه « إنه الذبح » ثم ندم على هذه الإشارة واعتبرها خيانة لله ورسوله ﷺ وكان ما كان منه . أما سعد بن معاذ فقد كان حكمه في بنى قريظة معروفاً أيضاً لأنه لما أصيب في غزوة الخندق قال : « اللهم لا تمنى حتى تفر عني في بنى قريظة » وقد بقي مجروحاً إلى أن استدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحكم في بنى قريظة .

(١) وتعرف باسطوانة أبى لبابة ، وهي السارية التي كانت عند باب أم سلمة زوجة رسول الله .

(٢) راجع غزوة الخندق في هذا الكتاب

فأتاه قومه فاحسبوه على حمار وكان رجلاً جسيماً وأقبلوا معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يقولون : يا أبا عمرو أحسن في مواليك فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم . فلما أكثروا عليه . قال : لقد آن لسد أن لا تأخذ في الله لومة لائم . فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشثل فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد بن معاذ عن كلبته التي سمع منه .

فلما انتهى سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قوموا إلى سيدكم فأنزلوه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكم فيهم قال : فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وأن تُسبي ذراريهم وأن تقسم أموالهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد حكمت فيهم بحكم الله وحكم رسوله . فأمر رسول الله ﷺ أن تكون النساء والذرية في دار ابنة الحارث امرأة من بني النجار وأمر بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد . ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فغندق بها خنادق ثم أمر يقتل كل من أئيت . فبئت إليهم فجاؤا إليه أرسالا تضرب أعناقهم ويقفون في تلك الخنادق وكان فيهم عدو الله حبي بن أخطب . وكعب بن أسد رأس القوم وهم ٦٠٠ أو ٧٠٠ وقيل إنهم كانوا من ٨٠٠ إلى ٩٠٠ .

وقد قالوا لكعب بن أئيد وهم يُنهب بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالا : يا كعب ما ترى ما يصنع بنا ؟ قال كعب : في كل موطن لاتعتلون . ألا ترون الداعي لا ينزع وأنه من ذهب به منك لا يرجع ، هو والله القتل .

فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ ثم رد عليهم التراب وأتى بحبي بن أخطب وعليه حلة له قحاحية (على لون الورد) قد شققها عليه من كل ناحية كوضع الأتلة أئمة أئمة لئلا يسلبها . مجموعة يدها إلى عنقه بجبل . فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال : أما والله ما لئت نفسي في عداوتك . ولكنه من يخذل الله يخذل ثم أقبل على الناس فقال : أيها الناس لا بأس بأمر الله . كتاب الله وقدره وملحة (قتال) قد كتبت على بني إسرائيل . ثم جلس فضربت عنقه وضربت عنق كعب بن أسد سيد بني قريظة . وكان للتولي قتل بني قريظة على ابن أبي طالب والزيير بن العوام . وعند قتلهم الرجال صاحت نساؤهم وشقت جيوبها ونشرت شعورها وضربت خنودها وملأت المدينة نواحاً .

عن عائشة رضي الله عنها قالت :

« لم يقتل من نسايتهم إلا امرأة واحدة . قالت والله إنها لعدى تحدث معي وتضحك ظهراً وبطناً ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقتل رجالهم بالسوق إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة ؟ قالت أنا والله : قلت وذاك مالك ؟ قالت : أقتل . قلت ولم ؟ قالت حدث أحدثته . قالت فأنطلق بها فضربت عنقها فكانت عائشة تقول : ما أنسى حباً منها طيب نفس وكثرة ضحك وقد عرفت أنها تقتل . »

- ٢٣٩ -

قول : أشقت عائشة رضى الله عنها على بئانة لطيب نفسها ومرحاً حتى آخر لحظة من حياتها وكانت مع ذلك تمل أنها ستقتل لأنها قتلت أحد المسلمين بإلقاء الرمح عليه وهو خلادين سويد إذ لم تستطع أن تنيش بد زوجها فنالت جزاءها . ولم يقتل من نساء بنى قريظة غيرها . وكانت تدعى هذه المرأة بئانة^(١) امرأة الحكم القرظي كانت طرحت رحي على خلاص بن سويد قتلتها بإرشاد زوجها لأنه أحب ألا تبقى بعده فيتزوجها غيره ولم يقتل أحد من المسلمين في هذه النزوة غير خلاص ، وشهد خلاص العقبة وبدراً وأجداً .

غنائم المسلمين

أمر رسول الله ﷺ أن يجمع ما في حصونهم من الحلقة والسلاح وغير ذلك فصنع فوجد فيها ١٥٠٠ سيف و ٣٠٠٠ درع و ٢٠٠٠ رمح و ٥٠٠ ترس و حَقَّة^(٢) ووجد أثك كثير وآنية كثيرة وجمال نواضح أى يسقى عليها الماء وماشية وشياه كثيرة . نفخس ذلك مع النخل والسبي ثم قسم الباقي على الناعمين وكانت أسهم القسمة ٣٠٧٢ سهماً لأن المسلمين ٣٠٠٠ والليل ٣٦ للفرس سهران ولصاحبه سهم . ثم بث رسول الله سعد بن زيد الأنصاري أخا بنى عبد الأشهل بسبيلاً من سبيل بنى قريظة إلى نجد فأبتاع لم منها خيلاً وسلاحاً واصطلى لنفسه من نسايمهم (ريحانة) بنت عمرو بن جفاعة فكانت عند رسول الله حتى توفى عنها وهي في ملكه وعرض عليها أن يتزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت يا رسول الله بل تتركني في ملكك فهو أخف عليّ عليك . فتركها ثم أسلت .

وفاة سعد

لما انقضى شأن بنى قريظة انخر جرح سعد بن معاذ فأت منه شهيداً . قال ابن إسحاق حدثني معاذ بن رفاعة الزرقى قال من شئتم رجال فومى إن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ حين قبض سعد بن معاذ في جوف الليل متجعراً بجماعة من استبرق فقال يا محمد من هذا الميث الذى فطعت له أبواب السماء واهتز له العرش ؟ قال قدام رسول الله ﷺ سريماً يحرق ثوبه إلى سعد فوجده قد مات . وعن الحسن البصرى قال : كان سعد رجلاً بادئاً فلما حله الناس وجدوا له خفة فقال رجال من المسلمين والله إن كان لبادنا وما حملنا من جفاة أخف منه . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : إن له خلة غيركم والذى شفى بيده لقد استبشرت للملائكة بروح سعد واهتز له العرش . وعن جابر بن عبد الله قال : لما دفن سعد ونحن مع رسول الله ﷺ

(١) والى السيرة الحلبية بئانة وقيل مزنة . والى الطبرى أن اسمها بئانة وكذا فى أسد الغابة .

(٢) المطقة : صرب من التروس . وقيل هى من الجلود حاصة . وقيل هى من جلود الإبل مقورة .

سَبَّحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَبَّحَ النَّاسُ مَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ فَكَبَّرَ النَّاسُ مَعَهُ . قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ مِمَّ سَبَّحْتَ قَالَ لَقَدْ تَضَائِقُ عَلَى هَذَا الْعَبْدِ الصَّالِحِ قَبْرُهُ حَتَّى فَرَجَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَدْ دُفِنَ سَعْدٌ بِبَيْتِيقِ الْفَرَقْدِ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « كُلُّ نَائِمَةٍ تَكْذِبُ إِلَّا نَائِمَةَ سَعْدِ بْنِ مَعَاذٍ » وَأُمُّ سَعْدٍ كَيْشَةَ بِنْتُ رَافِعِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بِنْتُ عُبَيْدِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ عَبْدِ بْنِ الْأَيْمَرِ . وَهِيَ أُولَى مَنْ بَالَعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ نِسَاءِ الْأَنْصَارِ .

خسائر المسلمين في غزوة بني قريظة

خَلَادُ بْنُ سُوَيْدٍ - طَرَحَتْ عَلَيْهِ رَحَى . أَمَّا أَبُو سَنَانٍ بْنُ مَحْصَنٍ فَاتَى وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُحَاصِرَ بَنِي قَرِظَةَ فُدِفَ فِي قَبْرَةٍ بَنِي قَرِظَةَ الَّتِي يَدْفَنُونَ فِيهَا إِلَى الْيَوْمِ وَإِلَيْهِ دُفِنُوا أَمْوَانُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ .
وَقَدْ اسْتَغْلَطَ بَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ الْأَجَانِبَ قَتْلَ بَنِي قَرِظَةَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ . لَكُنْهُمْ تَقْضُوا عَهْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَعَ أَنَّهُ حَالَتُهُمْ وَأَمْنُهُمْ وَمَنْعُهُمْ حُرِيَةَ الدِّينِ وَالْمَالَةِ وَمَعَ هَذَا اتَّفَقُوا مَعَ الْمَدُونِ فِي أَرْحَ السَّاعَاتِ وَحَارَبُوا الْمُسْلِمِينَ فَكَانَ جَزَائُهُمُ الْحَكْمُ بِالْإِعْدَامِ . وَإِنَّا نَجِدُ فِي التَّارِيخِ الْحَدِيثَ مَا يَعْتَلِلُ ذَلِكَ قَدْ قَضَى مُحَمَّدٌ عَلَى بِلَاشِ السَّكْبَرِ عَلَى الْمَالِكِ فِي الْقِتْلَةِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَأَمَّرُونَ عَلَيْهِ وَبِذَلِكَ تَخَلَّصَ مِنْ عَدُوَانِهِمْ وَأَمِنَ شَرَّهُمْ .

ما نزل من القرآن

في أمر الخندق وبني قريظة

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَمْرِ الْخَنْدَقِ وَأَمْرِ بَنِي قَرِظَةَ مِنَ الْقُرْآنِ الْقِسْطَ فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ يَذْكُرُ فِيهَا مَا نَزَلَ مِنَ الْبَلَاءِ وَنَعَمَتِهِ عَلَيْهِمْ وَكُفَايَتِهِ لِمَا يَأْتِيهِمْ حِينَ فَرَجَ اللَّهُ ذَلِكَ عَنْهُمْ بَعْدَ مَقَالَةٍ مِنْ قَالٍ مِنْ أَهْلِ الْبَفَاقِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَحْزَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ وَالْجُنُودُ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ وَبَنُو قَرِظَةَ وَكَانَتِ الْجُنُودُ الَّتِي أَرْسَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَعَ الرِّيحِ لِلْإِسْكَةِ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا﴾ فَالَّذِينَ جَاءَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ بَنُو قَرِظَةَ وَالَّذِينَ جَاءَهُمْ مِنْ أَسْفَلٍ مِنْهُمْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿هَٰئِلَاتِ الْأُمُومُونَ وَذَلَّلُوا زَاوَا لَا شَدِيدُ الْعِقَابِ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ قَوْلُ مُعْتَبِ بْنِ قُسَيْدٍ إِذْ يَقُولُ مَا قَالَ ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ الْيَرْبِ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنَّ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ قَوْلُ أَوْسَ بْنِ قَيْطِىٍّ وَمَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ رَأْيِهِ مِنْ قَوْمِهِ ﴿وَلَوْ دَخَلَتْ بَعْدَهُمْ

مِنْ أَطْفَالِهَا ثُمَّ سُبُلُوا الْفِتْنَةَ لَا تَوْتَمَّا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا بَسِيرًا وَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونِ
الْأَذْيَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا فِيهِمْ بَنُو حَارِثَةَ وَهُمْ الَّذِينَ هُمَا أَنْ يَشْلُوا يَوْمَ أَحَدٍ مَعَ بَنِي سُلَيْمٍ هُمَا بِالْمَنْشَلِ
إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ قَرِيبًا
تَتَّقُونَ وَيُغَارُونَ قَرِيبًا وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطُورُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ ظاهروهم أى عادوهم من أهل الكتاب وهم بنو قريظة . من صياصيهم من الحصون والأطلام
التي كانوا فيها .

يهود المدينة

وما آل إليه أمرهم

كان بين الأوس والخزرج حروب قديمة فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة لقبهم بالأنصار لأنصارهم هم الذين
نصروه فتأخى الثريقان وانمحي ما كان بينهما من العداوة وصاروا بنعمة الإسلام إخواناً وأخى عليه الصلاة والسلام
بين المهاجرين والأنصار . أما يهود المدينة فقد كانت بنو قريظة والنضير حلفاء الأوس وبنو قينقاع حلفاء الخزرج
وقد عاهدهم رسول الله ﷺ وأقرهم على دينهم وأموالهم لكنهم ثاروا وقضوا عهده وتمتتوا في مناقشته وحسدوه
على انتصاراته وكادوا له وعادوا ينكرون عليه نبوته . فلما رأى رسول الله ﷺ منهم القدر وشدة العناد ودم
اللسان ، أراد التخلص منهم متحسباً الفرص فدعا بنى قينقاع إلى الإسلام بعد غزوة بدر وكانوا يسكنون بالمدينة ،
فلما أبوا وأجابوه بكل جرأة غزاهم وأجلاهم إلى أذرعات بالشام في السنة الثانية من الهجرة وأرسل من قتل كعب
ابن الأشرف الشاعر الذي كان يهجو رسول الله ﷺ بأشعاره ويحض كفار قريش على قتاله وذلك في السنة الثالثة
من الهجرة . وغزا في السنة الرابعة بنى النضير . وقد تقدم سبب هذه الغزوة . وأجلاهم عن المدينة فذهب من سار
إلى الشام ومنهم من ذهب إلى خيبر . ثم غزا بنى قريظة في السنة الخامسة لأنهم هم الذين حاربوا الأحراب عليه في
غزوة الخندق وانضموا إلى الأعداء في أخرج للواقف . وبعد غزوة بنى قريظة لم تم لليهود قائمة بالمدينة وخضع
للناقصين كل الخاضوع وقد كانوا فئة قليلة أما المدينة فلم تعد ملجأً للمضطهدين بل صارت مركزاً لسلطة دينية عظيمة
واستطاعت إخضاع جزيرة العرب بعد سنين قليلة .

سرية القرطاب^(١)

وإسلام ثمانية بن أنال الحنفى

كانت هذه السرية لعشر خلون من الحرم سنة ست من الهجرة .

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مسلمة الأنصارى فى ثلاثين راكباً إبلا وخيلاً . وأمره أن يسير الليل ويكن النهار وأن يشن الغارة عليهم فعمل ما أمر به فلما أغار عليهم هرب باقيهم بعد من قتل وكان القتل منهم عشرة وقيل نحو العشرين واستاق ١٥٠ بعيراً و ٣٠٠٠ شاة فدخلوا الجزور بعشرة من الغنم .

وقدم المدينة لليلة بقيت من الحرم وغاب تسع عشرة ليلة وأسرى ثمانية بن أنال

روى ابن إسحاق عن أبى هريرة رضى الله عنه أن خيلاً لرسول الله ﷺ أخذت رجلاً ولا يشعرون . من هو حتى أتوا به رسول الله . فقال أتدرون من أخذتم ؟ هذا ثمانية بن أنال الحنفى فربطوه بسارية من سواري المسجد بأمره ﷺ لينظر حسن صلاة المسلمين واجتماعهم عليها فيزق قلبه ففرج إليه رسول الله ﷺ فقال ماذا عندك يا ثمانية ؟ قال عندى خير يا محمد إن قتل تقتل ذام ، وإن تنم تنم على شاكر ، وإن كنت تريد للال فصل تعط منه ما شئت . فتركه حتى كان الندم قال له ما عندك يا ثمانية ؟ قال ماقلت لك : إن تنم تنم على شاكر . فتركه حتى كان بعد الندم قال : ما عندك يا ثمانية ؟ قال عندى ماقلت لك قال : أطلقوا ثمانية فأنطلق إلى محل قريب من المسجد فاشقتل ثم دخل المسجد فقال : (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) ثم قال والله يا محمد ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك وقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلى . والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك فأصبح بلدك أحب البلاد إلى . وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فإذا ترى ؟ فيشره النبي صلى الله عليه وسلم بخير الدنيا والآخرة وأمره أن يعتصر . فلما قدم مكة يابى وبنى الشريك عن الله قال له قاتل صبوت ؟ قال لا . ولكن أسلمت لله رب العالمين مع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا تأتيتكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها النبي صلى الله عليه وسلم وقيل إنه منع من مكة لليرة من اليمامة حتى أكلت قريش العلهز^(٢) .

ثم صار ثمانية رضى الله عنه من فضلاء الصحابة وهدى الله به خلقاً كثيراً من قومه ولم يرتد مع من ارتد من أهل اليمامة ولا يخرج عن الطاعة قط وقام مقاماً حميداً بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حين ارتدت اليمامة مع مسلمة قال : (بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الرحيم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب) ثم قال : فأين هذا من هذيان مسلمة ؟ فأطاعه ثلاثة آلاف وانحازوا إلى المسلمين .

(١) القرطاب من بى بكر وكانوا يزلون بناحية صربية وهى قرية لى كلاب على طريق البصرة إلى مكة وهى لك مكة أقرب وبها جبل يسمى البكرات وبين ضربة والمدينة سبع ليل . (٢) الور والدم .

غزوة بني لحیان

كانت في أول شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة (يونية - يولية سنة ٦٢٧ م) وسببها أن رسول الله ﷺ حزن على عاصم بن ثابت وأصحابه القراء الذين قتلوا ببئر معونة في شهر صفر من السنة الرابعة . فأظهر ﷺ أنه يريد الشام ليصيب من القوم غرة فخرج من المدينة فملك على غراب^(١) على طريقه إلى الشام ثم على نخيض ثم على البقاء ثم صفق ذات اليسار فخرج على بيت ثم على صخيرات اليمام ثم استقام به الطريق على الحجة من طريق مكة ثم أسرع السير حتى نزل على غران وهي منازل بني لحیان^(٢) إلى بلد يقال لها ساية . وكان معه ٢٠٠ رجل ومعه ٢٠ فرساً واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم .

وقد وجد رسول الله ﷺ أن القوم قد حذروا وتمنوا في رموس الجبال . فأقام يوماً أو يومين بيت السرايا من كل ناحية من نواحيهم . ثم خرج حتى أتى عسفان فبعث أبا بكر رضي الله عنه في عشرة فوارس لتسمع بهم فريش فيذعروهم ثم رجع رسول الله ﷺ ولم يلق كيلاً . وكانت غنيته ﷺ عن المدينة أربع عشرة ليلة .

إغارة عيينة بن حصن

ثم قدم رسول الله ﷺ المدينة فلم يم إلا ليالي قلائل حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الخزاعي في خيل لنظقان^(٣) على لقاح رسول الله ﷺ بالناقة وكانت عشرين لقة وفيها رجل من بني غفار وأمرأته قتلوا الرجل واحتملوا للمرأة في القلاح .

والرجل الذي قتله هو ابن أبي ذر رضي الله عنه واسمه ذر وكان يرعى الإبل وأمرأته التي أسروها اسمها ليلى وقد نجت لأنهم أوثقوها وكانوا يرمونهم بين يدي بيوتهم فانطلقت وركبت ناقة للنبي ﷺ ليلا على حين غفلتهم . ويقال إن الناقة اسمها المضياء . فانطلقت ولما علموا بها طلبوها فأجبرتهم ونذرت لنجوتهم . فلما قدمت على النبي ﷺ وأخبرته بذلك . وقالت : يا رسول الله إني نذرت لله تعالى أن أعمرها إن نجاني الله عليها . قال : بشما جزيتها أن حلت الله عليها ونجها أن تنصريها . إنه لا نذر لأحد في مصيبة ولا لأحد فيما لا يملك إنما هي ناقة من إبل . ارجني إلى أهلك على بركة الله .

(١) جبل بناحية المدينة . (٢) غران واد بين أمج وعسفان . (٣) ٤٠ فارساً .

غزوة ذي قرد

وهي غزوة النسيابة

ذو قرد ماء على نحو بريد من المدينة مما يلي بلاد غطفان . وكانت في ربيع الأول سنة ست (يوليو ٦٢٧ م) وفي البخارى أنها كانت قبل خير بثلاثة أيام وبعد الحديبية بعشرين يوماً . وسببها إغارة عيينة بن حصن الفزاري على لقاح رسول الله ﷺ كما تقدم .

لما أغاروا على اللقاح في يومهم ذلك جاء الصريح فنادى : الفرع الفرع ، ونودى : يا خيل الله اركبي . وأول من نذر بهم سلة بن عمرو بن الأكوخ الأسلمي .

ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم في خمسمائة واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم كعادته . وخلف سعد بن عبادة رضى الله عنه في ٣٠٠ رجل يحرسون المدينة . وعقد لواء للمتناد رضى الله عنه في رعيه . وقال امض حتى تلصق الخيول وأنا على إثرك .

وكانت نتيجة هذه الغزوة أنهم أدرکوا العدو فهزموه وقتلوا رؤساء واستغنوا اللقاح . وقيل بعضهم لم يقتل من المسلمين إلا رجل واحد وهو حمز بن نضلة . وسار رسول الله ﷺ حتى بلغ ذا قرد في اتجاه خير فالتجأ العدو إلى بني غطفان . وقد أبل في هذه الغزوة سلة بن الأكوخ بلاء حسناً وكان رامياً .

قتل أبو قتادة مسعدة بن حكة الفزاري فأعطاه رسول الله ﷺ فرسه وسلاحه ولقي عكاشة بن محسن رضى الله عنه في طريقه أبان بن عمرو وابنه حمراً على بنيير فانتظما بالرمح قتلتها جميعاً .

وكانت مدة غير رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة أيام وصلى بنى قرد صلاة الخوف .

سرية النخمر

أو سرية عكاشة بن محسن الأسدي

النخمر ماء لبني أسد على ليلتين من قيد - قلعة بطريق مكة - وكانت في شهر ربيع الأول سنة ست من الهجرة .

خرج عكاشة رضى الله عنه في أربعين رجلاً فنذر به القوم فهربوا فنزّلوا على بلادهم فوجدوا ديارهم خالية لهم . فبث للمسلمين طليعة فأروا أثر النعم قريباً فتصدوها فأصابوا رجلاً منهم فأمّنوه فدلّم على نم لبني عم لم

فأغاروا عليها فاستبقوا ٢٠٠ بعير وأطلقوا الرجل وقدموا بالإبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يلقوا حرباً . .

سرية محمد بن مسلمة الأنصاري

إلى ذي القصة^(١)

كانت في شهر ربيع الثاني (لوافق شهر أغسطس سنة ٦٢٧ م) خرج محمد بن مسلمة ومعه عشرة إلى بني ثعلبة فورد عليهم ليلاً بمن معه . وقد كمن لهم للمشركون لشعورهم بمجيئهم إليهم . فتركوا محمد بن مسلمة حتى نام هو وأصحابه ، ثم أحلقوا بهم فاشعر المسلمون إلا بالنيل قد خالطهم فوثب محمد بن مسلمة ومعه قوس فصاح في أصحابه . السلاح افوثبوا فتراموا بالنيل ساعة من الليل ثم انحاز أصحاب محمد إليه وقد قتلوا من القوم رجلاً . ثم حل القوم عليهم بالرمح فقتلهم إلا محمد بن مسلمة فوقع جريحاً فحمله رجل من المسلمين حتى ورد به المدينة جريحاً .

فبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة عامر بن الجراح في ربيع الآخر في أربعين رجلاً إلى منازلهم فأغار عليهم فلم يجد أحداً ووجد نعماً وشاء ففاته وأصاب رجلاً واحداً فأسلم فتركه وأخذ نعماً من نعمهم فاستاقه وشيئاً من متاعهم وقدم به للمدينة .

وظاهر من إرسال محمد بن مسلمة في عشرة رجال أن السبب هو ما بلنهم من أن بني ثعلبة وأغار أجمعوا على أن ينفروا على سرح للمدينة وهي ترمي بهيفاء^(٢) وكانت للثنية قد ازدادت بسبب ماغنه للمسلمين . فلما قتل محمد ابن مسلمة بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة طالباً لثأر للقتولين .

سرية زيد بن حارثة

وفي شهر ربيع الآخر أيضاً كانت سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم بالبحوم^(٣) فأصابوا نعماً وشاء ووجدوا جماعة منهم فأسروهم .

ثم سرية زيد بن حارثة أيضاً إلى العيص وكانت في جمادى الأولى سنة ست (سبتمبر سنة ٦٢٧ م) . وسببها أنه عليه الصلاة والسلام بلغه أن عيراً قد أقبلت من الشام فبعث زيد بن حارثة ومعه سبعون راكباً

(١) موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً في طريق الرينة (الوالدي) .
(٢) ناحية بين تل على أربعة أميال من المدينة .
(٣) ناحية بين تل على أربعة أميال من المدينة .

- ٢٤٦ -

ليعرض لها فأدركها وأخذها وما فيها وأخذ يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية بن خلف وأسر منهم نساء منهم أبو العاص بن الربيع . وأم هالة بنت خويلد . أخت خديجة . وكان أبو العاص من رجال مكة المدودين تجاراً ومالاً وأمانة . وهو زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم : فدخلت زينب على رسول الله ﷺ فأنشأته أن يرد عليه ما أخذ منه قبل . وقال لها أكرهي منواه ولا يخلص إليك فإنك لا تحلين له . ثم ذهب أبو العاص إلى مكة فأدى إلى كل ذي مال له ثم أسلم وخرج فقدم للمدينة .

وكانت زينب هاجرت قبله إلى المدينة وتركته على شركه ثم بعد أن أسلم وهاجر ردها ﷺ إليه .
وكان صلى الله عليه وسلم يرضى وهو حامل أمامة بنت زينب من أبي العاص .

سرية أخرى لزيد بن حارثة

هذه السرية إلى حِمْيَر أرض بنزلهلجذام وراء وادي القرى وذلك من جهة الشام وكانت في جمادى الآخرة سنة ست (أكتوبر سنة ٦٢٧ م) .

وسبها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد أوفد دحية بن خليفة الكلبي^(١) بكذاب إلى قيصر يدعو إلى الإسلام فأعطاه جائزة وكساه . فلقبه الهنيد بن عارض في الطريق وهو عائد قتلوا عليه الطريق وأصابوا كل شيء كان معه عند حسمى فسمع بذلك نفر من بني الضبيب رهط رفاعه بن زيد الجذامي ممن كان أسلم فاستنفذوا ما كان في أيديهم وردوه على دحية .

قدم دحية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك ، فبعث زيد بن حارثة في ٥٠٠ رجل ، فكان زيد يسير بالليل ويكن بالنهار ، ومعه دليل من بني عذرة فأقبل بهم حتى هجموا على القوم ، فأغاروا عليهم ، وأكثروا فيهم القتل وقتلوا الهنيد وابنه ، وأخذوا ماشيتهم ونساءهم فأخذوا من الإبل ١٠٠٠ بعير ومن الشاة ٥٠٠٠ ومن السبي مائة من النساء والصبيان . ولا شك أن هذا الإحصاء تقريبي كما يستدل عليه من الأرقام ثم رحل رفاعه بن زيد الجذامي في نفر من قومه فدفع لرسول الله ﷺ كتابه الذي كان كتبه له ولقومه حين قدم عليه فأسلم . فلما قرئ الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كيف أصنع بالقتل ؟ فقال رفاعه أنت أعلم يا رسول الله لا تحرم عليك حلالاً ولا تحل لك حراماً فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً إلى زيد فرد عليهم كل ما أخذ منهم .

(١) كان دحية من أهل الناس وجهاً وكان جليل يأتى صلى الله عليه وسلم في موته . أسلم قديماً وشهد المشاهد التي شهد بدر مع رسول الله وبقى إلى خلافة معاوية وشهد اليمام .

سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل

إسلام الأصم بن عمرو السكبي

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا دومة الجندل في ربيع الأول سنة خمس (يولية سنة ٦٢٦ م) وقد قدم ذكرها .

أما هذه السرية فكانت في شعبان سنة ست (نوفمبر سنة ٦٢٧) أمر رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف أن يجهز لهذه السرية وقد أصبح وقد أعم بعمامة من كرايس سوداء فأدناه رسول الله صلى الله عليه وسلم منه فأفذه بين يديه وعمه بيده . ثم أمر بلالا أن يدفع إليه اللواء ، ثم جد الله وصلى على نفسه صلى الله عليه وسلم ثم قال : « خذْ يَا ابْنَ عَوْفٍ اغزُوا جَمِيعًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ وَلَا تَفْلُتُوا وَلَا تَقْدِرُوا وَلَا يَمْشُوا وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيَدًا فَهَذَا عَهْدُ اللَّهِ وَسِيرَةُ نَبِيِّهِ فِيكُمْ » فأخذ عبد الرحمن اللواء . وبغض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كلب بدومة الجندل وقال إن استجابوا لك فاسلموا فتزوج ابنة ملكهم . فسار عبد الرحمن بجيشه وكانوا ٧٠٠ رجل حتى قدم دومة الجندل فكث ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام وقد كانوا أبوا أول مقدم عليهم أن يعطوا إلا السيف . ثم أسلم في اليوم الثالث (الأصم بن عمرو السكبي وكان نصرانياً) وكان ملكهم ورئيسهم وأسلم معه ناس كثير من قومه وأقام عبد الرحمن يقيتهم بالجزية وتزوج ثمار بنت الأصم وقدم بها للدينة وفازت بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أم ابنة أبي سلمة .

سرية علي بن أبي طالب

إلى بني سمد بن بكر

خرج علي رضي الله عنه ومعه (١٠٠) رجل إلى بني سمد بن بكر ، في شعبان سنة ست . وكان قد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم ساعدوا في جمع الناس لإمداد يهود خيبر فأغاروا على نم وشاء كثيرة وهرب الرعاء وساقوا النمل والشاء معهم وكانت ٥٠٠ بئر و ٢٠٠ شاة وقدم علي رضي الله عنه ومن معه للدينة .

سرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة

كانت هذه السرية في رمضان سنة ست من الهجرة . وسببها أن زيد بن حارثة رضي الله عنه خرج في تجارة

إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم (وهذه أول مرة خرج فيها أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في تجارة إلى الشام) . فلما كان بوادى القري لقيه ناس من فرارة من بني بدر فضربروه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم . وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فبعثه إليهم في جيش فأحاطوا بمن وجدوه من بني فرارة فقتلوه وأخذوا (أم قرفة) وهى بنت ربيعة بن بدر الفرزاري . وكانت ملكة رئيسة وذات شرف في قومها وكانت عجوزاً كبيرة فأسرها قيس بن الحسر وقيل ابن سحل فقتلها قتلاً قتيماً ، ربط رجلها بحبلين ثم ربطها إلى بعيرين حتى شقها . وإنما قتلها كذلك لسبها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل لأنها جهزت ثلاثين راكباً من ولدها وولد ولدها . وقالت لم اغزوا للدينه واقتلوا محمداً . وقدم زيد بن حارثة من وجهه ذلك ففرع باب النبي صلى الله عليه وسلم فقام رسول الله ﷺ إليه وهو يجر ثوبه حتى اعتنقه وقبله وسأله فأخبره بما ظفر به . ذكر هذه الفزوة الواقدي وذكرها السيد دحلان في الجزء الثاني من كتاب السيرة النبوية . وإلى أشك في تفاصيل القصة بهذه الصفة . أشك في اسم قيس هذا الذى أسر أم قرفة فقد قيل : إنه ابن الحسر وقيل ابن سحل وقيل ابن الحسن ^(١) . وأشك في أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يملك بامرأة . ويقتلها هذا القتل الشنيع مع العلم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن اللثة ، وأوصى عبد الرحمن بن عوف حين أرسله إلى دومة الجندل قتال : « اغزوا جميعاً في سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً فهذا عهد الله وسيرته خبيثة فيكم » .

وليس بين سرية عبد الرحمن بن عوف وسرية زيد بن حارثة إلى أم قرفة غير شهر واحد . وسيأتى في سرية عبد الله بن عتيك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهام أن يقتلوا وليداً أو امرأة . وعلى كل حال لا يمكن أن يبلغ النبي قتل أم قرفة على هذه الصورة الشنعاء من غير أن يبدي استياءه ، لذلك كان ماروى من التمثيل بأم قرفة . مردوداً

سرية عبد الله بن عتيك

لقتل سلام بن أبي الحقيق .

رمضان سنة ٦٦ هـ - ديسمبر سنة ٦٢٧ م

كانت هذه السرية لقتل أبي رافع عبد الله أو سلام بن أبي الحقيق اليهودى وهو من أعداء رسول الله ﷺ

(١) جاء في أسد الغابة « قيس بن الحسر الكنانى الشاعر » واختلف في اسمه فقيل أيضاً قيس بن سحل وسماه ابن إسحاق مسجراً . وقد أخرج أبو عمر قيس بن الحسر وذكر فيه أنه غزا مع زيد بن حارثة أم قرفة وقتلها ولم يذكر أنه مثل بها .

الذين حاربوا الأحزاب يوم الخندق وأعان للشركين بالمال الكثير .

وقد اختلف المؤرخون في تاريخ هذه الفزوة ، فقد قيل إنها كانت في ذى الحجة سنة خمس بعد الخندق . وفي البخاري قال الزهري بعد قتل كعب بن الأشرف الواقع سنة ثلاث ، وذكرها أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في السيرة الثالثة في النصف من جمادى الآخرة . أما الواقدي فإنه زعم أن هذه السرية التي وجهها رسول الله ﷺ إلى أبي رافع أو سلام بن أبي الحقيق ، إنما وجهها إليه في ذى الحجة من سنة أربع من الهجرة . والثابت أن سلام بن أبي الحقيق كان من الذين حاربوا الأحزاب في غزوة الخندق ، وغزوة الخندق كانت في السنة الخامسة وكان سلام هذا ممن ذهب إلى خيبر بعد إجلاء بني النضير ثم إنه بعد الخندق أخذ يمرض بني فزارة والقبائل الأخرى ، ولذلك ترجح أن هذه السرية كانت في السنة السادسة كما ذكرها السيد دحلان فقد قال : « إنها كانت في رمضان سنة ست » (شهر ديسمبر سنة ٦٢٧ م) .

خرج إلى رسول الله ﷺ خمسة من الخوارج وهم :

(١) عبد الله بن عتيك (٢) عبد الله بن أنيس (٣) أبو قتادة (٤) الأسود بن خزاعي (٥) مسعود ابن سنان الأسلمي . واستأذنه في قتل سلام بن أبي الحقيق ، وهو يخبر لأن الأوس كانوا قد أصابوا كعب بن الأشرف فأراد الخوارج أن لا يكون للأوس فضل عليهم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأمرهم صلى الله عليه وسلم بقتله ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة^(١) وأمر عليهم عبد الله بن عتيك فذهبوا إلى خيبر فكنوا فلما هدأت الرجل والحركة جاءوا إلى منزله وكان في حصن مرتفع فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرهم ، قال عبد الله بن عتيك اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعل أدخل الحصن ، فأقبل حتى دنا من البواب ثم تقنع بثوبه ليخفى شخصه ، كأنه يقضى حاجته مخافة أن يعرف فدخل واختبأ عند باب الحصن ، ثم صعد إليه وكان عبد الله بن عتيك يتكلم اليهودية ، فقدمه أصحابه ليتكلم بكلام أبي رافع ، فاستفتح باب غرفته فرأته امرأته . فقالت : من أنت ؟ قال : جئت أبا رافع يهدية . فتحت له وقالت ذاك صاحبك . فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح ، فأشار إليها بالسيف فسكت . قال فقالت أبا رافع لأعرف موضعه فقال من هذا ؟ فأهوت نحو الصوت فصرته ضربة وأنا دمشت فأغنت شيئاً ، ولم أقتله وصاح أبو رافع . فخرجت من البيت وكنت غير بعيد فقالت امرأته : يا أبا رافع هذا صوت عبد الله بن عتيك . قال : نكلك أمك وأين عبد الله بن عتيك ؟ قال ثم دخلت عليه كأنى أغنيته وغيبت صوتي قلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ قال لأملك الويل ! إن رجلاً في البيت ضربني قبل بالسيف فصرته ضربة أغنته ولم أقتله فصاح وقام أهله وصاح امرأته ثم وضعت ظلة السيف في بطنه حتى دخل في ظهره وسمعت صوت العظم فصرت أنى قتلتها .

وفي الطبري : « ولما صاحبت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها السيف ثم يذكر نهى رسول الله ﷺ فيكف يده » .

قال ابن عتيك : فجعلت : أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى درجة فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقى فصعبتها بجامة ؛ وكان عبد الله بن عتيك سعي البصر ولما علم ابن عتيك أنه قتل أبا رافع أخبر رسول الله ﷺ .

ووقع في بعض الروايات أن الذي قتل أبا رافع عبد الله بن أنيس والصواب ما في صحيح البخاري أن الذي قتله هو عبد الله بن عتيك وفي أسد النابة « وهو الذي قتل أبي رافع بن أبي الحقيق بيده وكان في بصره ضعف الخ » .

سرية عبد الله بن رواحة

إلى أسير بن رزام

كانت سرية عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي إلى أسير بن رزام ^(١) اليهودي مخيبر في شوال سنة ست من الهجرة (يناير سنة ٦٢٨ م) وسببها أنه لما قتل أبو رافع سلام بن أبي الحقيق أمرت يهود عليها أسيراً فاقترح عليهم طريقة للائتمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقروه عليها ؛ وحاصلها أن يذهب إلى غطفان ويجمعهم ويسير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في عقر داره . فسار إلى غطفان فلما بلغه ﷺ وجه عبد الله بن رواحة في ثلاثة نفر في شهر رمضان سرراً ليستكشف له الخبر فذهب إلى ناحية خيبر ثم عاد فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما سمع ورأى ، وقدم عليه أيضاً خارجة بن حسيل وقال له تركت أسيرين رزام يسير إليك في كتائب يهود فندب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس له فانتدب له ثلاثون رجلاً فبث عليهم عبد الله بن رواحة قدموا عليه فقالوا إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه يستعملك حل خيبر ويحسن إليك قطع في ذلك فشاوهم يهود فخالقوه في الخروج وقالوا ما كان عهد يستعمل رجلاً من بني إسرائيل قال بلى قد ملنا الحرب . فخرج أسير وخرج معه ثلاثون رجلاً من اليهود مع كل رجل زيف من المسلمين فلما كانوا بقرقرة ندم أسير على مسيره إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد الفتك ببعد الله بن رواحة فقتل له وهو يريد السيف فالتصم به عبد الله ثم ضربه بالسيف قطع رجله فضر به أسير بمخروش في يده من شوحطأفه . وفي رواية عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه وأهوى أسير يده إلى سيفي قتلته له (يتضح من ذلك أن أسيراً كان أعزل) فدفع بميرى وقلت غدرأ أي عدو الله مرتين . فزلت فسقت بالقوم حتى افرد لي أسير فضر به بالسيف فأنذرت عامة فخذوه وساقه فسقط عن بغيره ومال أصحاب

(١) أسير بن رزام بهذا اللفظ لكن من مؤيد يقول إنه ابن زارم ويكتبه هكذا Olier Idn Zarim وهو تحريف .

الذي صلى الله عليه وسلم على أصحابه يقتلهم ولم يفلت منهم غير رجل واحد ولم يصب من المسلمين أحد ثم قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثوه الحديث فقال : « حقا قد نجماكم الله من القوم الظالمين » .

سرية كرز بن جابر الفهري

كان كرز بن جابر الفهري رضى الله عنه أحد رؤساء قريش أسلم بعد الهجرة واستشهد عام الفتح وهو الذي خرج رسول الله لطلبه في غزوة بدر الأولى وقد مر ذكرها .

كانت هذه السرية في جادى الأولى سنة ست وسبعمائة أن أنلساً من عكل وعربية^(١) يبلغ عددهم نحو ثمانية قدموا على رسول الله ﷺ فبايئوه على الإسلام وتلقوا بكلمة التوحيد وكانوا حين قدموا للدينه سقلاً مصفرة ألوانهم عظيمة بطونهم (قال مستر مورر إنهم كانوا مصابين بداء الطحال) .

فقالوا يارسول الله إنا كنا أهل ضرع (أى ماشية وإبل) ولم نكن أهل ريف وكرهنا الإقامة بالمدينة فلو أذنت لنا فخرجنا إلى الإبل فأمر لم بدود من الإبل^(٢) ومهملراع وأمرم بالحقوق بها ليشرروا من ألبانها وأبوها فأنطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة وصحت أجسامهم باتباعهم إشارة رسول الله ﷺ كفروا بعد إسلامهم وقتلوا راعى رسول الله ﷺ وكان عبداً له ، اسمه يسار . وحين قتلوه مثلوا به قططوا يده ورجله وجعلوا الشوك في عينيه واستاقوا النود وحمل يسار ميتاً إلى قباه فدفن هناك . فهؤلاء أعراب قساة غلاظ القلوب يقابلون الإحسان بالإساءة يكرمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهب لهم للماشية ويرسل معهم الراعى راقع بهم ويصف لهم الدواء الشافى لمرضهم فيأخذون الإبل ويشربون ألبانها وتصحب أجسامهم ثم يمحذون النعمة ويكفرون بعد إسلامهم ويقتلون ذلك الراعى الأمين للسكين ويمثلون به أشنع تمثيل ويسرقون الإبل . جرائم متعددة يقرءونها : فهل هؤلاء يستحقون العفو والإحسان والمعاملة الحسنة ؟ كلا بل الحكمة تقضى بقطع دابرهم واستئصال شأقتهم ليكونوا عيرة لمن اعتبر ولتلايمحروا بعد ذلك أحد من أمثال هؤلاء الاصوص الفتنة الخائنين أن يبث بالإسلام وللمسلمين . وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه عليه الصلاة والسلام لما جاءه الصريح بما وقع منهم بث في آثارهم خيلاً من المسلمين قريباً من المشركين وأمر عليهم كرز بن جابر الفهري رضى الله عنه فلتقمم بغائبهم فأمر النبي ﷺ بقطع أيديهم وأرجلهم وحمل أعينهم ولم يفلت منهم أحد وتركوا في ناحية الحرة في الشمس حتى ماتوا .

وأُنزل الله في هؤلاء : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية وهؤلاء كفروا وقتلوا ومثلوا وقطعوا الطريق وسرقوا .

(١) عكل : حى من قضاة ، وعربية حى من بجيلة (٢) حى من الثلاثة إلى العصرة

أمر الحديبية

ذو القعدة ٥٦هـ - (فبراير سنة ٦٢٨م)

الحديبية هي بئر سمي للكان باسمها ؛ وهي قرية متوسطة ليست بالكبيرة وبينها وبين مكة مرحلة وبينها وبين المدينة تسع مراحل وبعضها في الحل وبعضها في الحرم .
وسببها أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى في منامه أنه دخل البيت هو وأصحابه آمنين محلقين رموسهم ومقصرين .

فخرج رسول الله ﷺ من المدينة في ذي القعدة من السنة السادسة (فبراير سنة ٦٢٨ م) معتمراً « زائراً البيت » لا يريد حرباً بعد أن مضى عليه ﷺ ست سنوات بعد الهجرة في المدينة لم يزر فيها مكة ولم يمتنع ولم يخرج فاشتاق إليها فخرج في هذه السنة معتمراً واستنفر العرب من البوادي ومن حوله من الأعراب عن أسلم ليخرجوا معه وهو يخشى من قريش أن يتعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت فأبطأ عليه كثير من الأعراب خشية من قريش أن يحاربوه فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم من العرب وساق معه الهدى (مايهدى إلى الحرم من النعم) وأحرم بالعمرة بذى الحليفة بعد أن صلى بالمسجد الذي بها ركعتين ليأمن الناس حر به وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت ومطمئناً له وأخرج معه زوجته أم سلمة رضي الله عنها ، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه للصلاة وأباً رهم حافظاً للمدينة وجملة أصحابه الذين خرجوا معه من ١٤٠٠ إلى ١٦٠٠ وركب رسول الله راحلته القمراء .

أما مارواه ابن إسحاق من أنه ﷺ ساق معه الهدى ٧٠ بدنة^(١) وكان الناس ٧٠٠ رجل فكانت كل بدنة عن عشرة فر ، فلا بد أن يكون هذا المدد في بدء خروجهم قبل أن ينضم إليه ﷺ من عداهم من الأعراب . ولم يخرج ﷺ معه بسلاح إلا سلاح للسافر ، السيوف في القرب^(٢) ، فلما كان بـسُفان^(٣) لقيه بشر بن سفيان الكعبي ، قال له يا رسول الله هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فخرجوا ومعهم العوذ اللطافيل^(٤) قد لبسوا جلود النور وقد نزلوا بذى طوى يحلقون بالله لا تدخلها عليهم أبداً . وهذا خالد بن الوليد في خيلهم^(٥) قد قدموا إلى

(١) الهدى ما يهدى إلى الحرم من النعم . والبدنة : ناقة أو برة تنحر بمكة . سميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها والجمع بدن .

(٢) جمع قرباب وهو التمدد .

(٣) سفان بضم السين بين الجلفة ومكة ، وهي من مكة على مرحلتين وهي حد تامة .

(٤) العوذ : جمع عاذ ، وهي الناقة ذات اللبن . واللطافيل : الأمهات التي معها أطفالها والمراد أنهم خرجوا بما ذكر لإزادة طول القتال وعدم القرار . (٥) لم يكن خالد بن الوليد قد أسلم خلافاً لما زعمه بعض المؤرخين من أنه كان مع المسلمين وكان مع خالد ٢٠٠ فرس لتع تقدم المسلمين .

سكراع النعم^(١) قال رسول الله ﷺ « يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلو بيني وبين سائر العرب فإنهم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وأفرين وإن لم يفسلوا قاتلوا وبهم قوة فأتقن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله حتى يظهره الله أو تنفد هذه الساقة . ثم قال من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها ؟ فقال رجل من أسلم أنا يا رسول الله . فسلك بهم طريقاً وعراً (واسم هذا الرجل حزة بن عمرو الأسلمي) فخرجوا منه بعد أن شق عليهم وأفضوا إلى طريق سهلة عند منقطع الوادي . قال رسول الله ﷺ للناس قولوا نستغفر الله وتوب إليه قالوا ذلك . قال والله إنها لاهبطت إلي عرست على بني إسرائيل فلم يقولوها .

ثم أمر رسول الله ﷺ الناس فقال اسلكوا ذات البين بين ظهري الحوض في طريق على ثنية للرار مهبط الحديبية من أسفل مكة فسلك الجيش ذلك الطريق فلما رأت خيل قريش فترة الجيش قد خالفوا ، رجسوا راكضين إلى قريش (ذكر أن فرسان قريش كانوا ٢٠٠ منهم عكرمة بن أبي جهل وكان قائدهم خالد بن الوليد) .
خرج رسول الله ﷺ حتى إذا سلك في ثنية للرار بركت ناقته التصواء فقال الناس خلاّت^(٢) فقال « ما خلاّت وما هو لها بمخفق ولكن حبسها حابس الغيل عن مكة لا تدعوني قريش اليوم إلى خلة يأتوني صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها » .

ثم قال للناس انزلوا . قالوا يا رسول الله ما بالوادي ماء ينزل عليه فأخرج سهما من كنانته فأقطعاه رجلا من أصحابه فقتل به في قلب من تلك القلب ففرزه في جوفه فجاش بالرواء حتى ضرب الناس عنه بعلن^(٣) واختلف في من نزل في القلب بسهم رسول الله ﷺ فقيل هو سائق بدنه ناجية بن جندب وقيل إنه البراء بن عازب وقيل عبادة بن خالد وفي البخاري عن البراء بن عازب رضى الله عنهما أنه ﷺ جلس على البئر ثم دعا بإفناء فضض ودعا ثم صبه فيها . ثم قال دعوها ساعة فأرووا أنفسهم وركابهم حتى ارتحلوا . وفي حديث جابر عند البخاري ومسلم قال علقش الناس يوم الحديبية وبين يدي رسول الله ﷺ ركوة يتوضأ منها فأقبل الناس نحوه فقال ما بالكم ؟ قالوا يا رسول الله ليس عندنا ما نتوضأ به ولا نشرب إلا مائى ركوتك^(٤) فوضع يده في الركوة فجعل للاء فيور من بين أصابعه كأمثال الميون فشربنا وتوضأنا وهذه من معجزات رسول الله ، وجمع ابن حبان بينهما بأن ذلك وقع في وقتين . وكانت قصة الركوة قبل قصة البئر .

فلما اطمان رسول الله ﷺ أنه بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة فسلكوه وسألوه ما الذي جاء به فأخبرهم أنه لم يأت يريد حرباً وإنما جاء زائراً للبيت ومعظما لرحمته . ثم قال لم يحوا بمقابل بشر بن سفيان . فرجوا إلى قريش . قالوا يا ممشر قريش إنكم تجعلون على محمد إن محمداً لم يأت لقتال ، إنما جاء زائراً لهذا البيت ،

(١) موضع قريب من مكة (٢) بركت من غير علة (٣) أى حتى رووا ورويت إياهم حتى بركت حول الماء لأن عطن الإبل ، مباركها . (٤) الركوة : دلو صغير .

فأهوم وجبهوم (أى قابلهم بما يكرهون) وقالوا وإن كان جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عتوة أبدا ولا نتحدث بذلك عنا العرب .

وكانت خراعة عيبة تصح رسول الله ﷺ مسلما ومشركا لا يخفون عنه شيئا كان بمكة .

ثم بشوا إليه مكرز بن حفص أخوا بني عامر فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا قال هذا رجل غادر فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه قال له رسول الله ﷺ نحو ما قال لبديل وأصحابه فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ .

ثم بشوا إليه الحليس بن علقمة وكان يومئذ سيد الأحابيش ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال إن هذا من قوم يتألمون^(١) فابشوا الهدى في وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادى في قلاته وقد أكل أوباره من طول الجليس عن محله ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاما لما رأى . فقال لم ذلك . فقالوا له اجلس فإنما أتيت أعرابى لا علم لك^(٢) . فضنب الحليس عند ذلك وقال : يامشر قريش والله ماعلى هذا حالناكم ولا على هذا عاقدناكم . أيصد عن بيت الله من جاء معظما له ، والذي نفس الحليس بيده لتعلن بين محمد وبين مجاهله أو لأفترن بالأحابيش فرة رجل واحد . فقالوا له : كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأفترسنا ما نرضى به . ثم بشوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفى فقال يامشر قريش إناى قد رأيت ما يابى منكم من بشتموه إلى محمد إذا جاءكم من التنصيف وسوء اللفظ وقصرهم أنكم والد وأنى ولد وكان عروة لسبعة بنت عبد شمس - وقد سمع بالذى نابكم فجمع من أطاعنى من قوى ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى . قالوا : صدقت ما أنت عندنا بتهم . فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ فجلس بين يديه ثم قال :

يا محمد أجمع أوشاب الناس^(٣) ثم جئت بهم ببيضتك (أى أصلك وعشيرتك) لتفضها بهم ؛ إنا قريش

قد خرجت معها الموذ للطفيل قد لبسوا جلود الثور يماهدون الله لا تدخلها عليهم عتوة أبدا (تكرر هذا الكلام قد قاله « بشر بن سفيان ») وإيم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا عنك غدا^(٤) .

وكان أبو بكر الصديق جالسا خلف رسول الله ﷺ فقال له (امصص بظفر اللات^(٥) أنحن تنكشف عنه؟) يريد : وهل نحن نهزم عنه أى تتخلل عنه .

قول أبى بكر « امصص بظفر اللات » مبالغة منه في سب عروة فإنه أقام معبود عروة وهو صنمه مقام امرأة تحقيرا للمعبود وعادة العرب الشتم بذلك . وقد ساء أبى بكر قول عروة إن أصحابه ﷺ ينكشفون عنه غدا أى يفرون قتال له ما قال وأجابه بما فيه تحقير له والمعبود .

(١) أى يصيدون ويظلمون الإله (٢) أى فإرايت من محمد مكينة .

(٣) يعنى أخلط الناس (٤) يريد أن أصحابه صلى الله عليه وسلم يفرون عنه غدا (٥) الظفر فى قول أبى بكر رضى الله عنه : قطعة تبقى فى فرج المرأة بعد الحتان . وليل إلى تغطيتها الحاتنة . واللأت : اسم صنم كانت تعبده تحف لأن عروة كان بالطائف فالات كانت معبوده .

فقال عروة بعد أن سمع هذه الإهانة : من هذا يا محمد ؟ قال هذا ابن أبي قحافة . قال أما والله لو لا يد كانت لك عندي لكفأتك بها ولكن هذه بها .

قال الزهري إن اليد للذكورة هي أن عروة كان يحمل دية فأعانه فيها أبو بكر رضي الله عنه بعون حسن .

ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يكلمه وللنيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديد فجعل يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول : اكفف يدك عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ألا تصل إليك ، فيقول عروة ويحك ما أفظك وأغافلك انقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له عروة من هذا يا محمد ؟ قال هذا ابن أخيك للنيرة بن شعبة . قال أي غدر ! وهل غسلت سوانك إلا بالأمس .

ولشرح هذا الموقف : قول : للنيرة بن شعبة هو ابن أخي عروة . وقد كان أثناء حديث عروة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً على رأس رسول الله ﷺ ومعه السيف بقصد الحراسة وعليه اللقير^(١) فكان للنيرة كلما أهوى عروة ييده إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ضرب يده بنمل السيف^(٢) ويقول اكفف يدك عنه ، وكانت عادة العرب أن يتناول الرجل لحية من يكلمه ولا سيما عند الملاطحة يريدون بذلك التحية والتواصل ، وفي الناب إنما يصنع ذلك النظير بالنظير فيما رأى عروة لمكاته ورفضه في قومه أنه نظير للنبي صلى الله عليه وسلم وما علم حينئذ أنه لا نظير له فاللائق منه . لكن رسول الله لم يمنه تأليفاً له .

قال ابن هشام : أورد عروة بقوله هذا (أي غدر وهل غسلت سوانك إلا بالأمس) أن للنيرة بن شعبة قيل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من قتيب قتهايج الحيان من قتيب بنو مالك رهط للفتولين ، والأحلاف رهط للنيرة فودى عروة للفتولين ثلاث عشرة دية وأصلح الأمر .

وبعد أن قال عروة ما قال كله رسول الله صلى الله عليه وسلم بنحو مما كلم أصحابه وأخبره أنه لم يأت يريد حرباً .

فقام من عند رسول الله ﷺ ورجع إلى أصحابه بمكة وقد بهره مارأى من احترام أصحابه صلى الله عليه وسلم له . رأى أن رسول الله ﷺ لا يتوضأ إلا ابتدر أصحابه وضوءه ولا يبيض بصافاً إلا ابتدره ، بذلك به من وقع في يده وجهه وجلده ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ولا يحلون النظر إليه تعظيماً له ﷺ فقال لتريش :

(١) زرد يسج على قدر الرأس . (٢) وهو ما يكون أسهل القرب من فضة أو غيرها .

- ٢٥٦ -

« أى قوم ، فوالله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي . والله ما رأيت ملكاً قط يعظله أصحابه ما يعظم أصحاب محمد عذراً . والله ما ينضم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا نوحاً كادوا يقتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده إجلالاً وتوقيراً وما يمدون النظر إليه تعظيماً له ، وإنه قد عرض عليكم خطه رشد فاقبلوها ولقد رأيت قوماً لا يسلونہ لشيء أبداً فروا رأيكم » وقال : إني أخاف أن لا تُنصروا عليه .

فلم يسمع القوم ما قاله عروة بن مسعود وما رغبهم فيه من الصلح فانصرف هو ومن تبعه إلى الطائف ثم أسلم عروة بعد ذلك لما انصرف رسول الله عن قتيب ثم قتل لما دعاهم إلى الإسلام .

قال ابن إسحاق وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على بئر له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ففعلوا به جهل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله فتمتته الأحابيش فغلبوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبعث قريش أربعين أروبيين وأوحسنيين رجلاً منهم ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً فأخذوا أخذاً فأتى بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ففما عنهم وخلى سبيلهم وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجارة والنبل ، ثم دعا عمر بن الخطاب لبيته إلى مكة فبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له فقال : « يا رسول الله إني أخاف قريشاً على نفسي وليس بمكة من بني عدى بن كعب أحد يمنعني . وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها . ولكني أدلك على رجل أعز بها مني : عثان بن عفان ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عثان ابن عفان فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحربهم وأنه إنما جاء زائراً لهذا البيت ومعظماً لحرمته . فرضى عثان لأنه كان غائباً من مكة ولم يكن له أعداء بها ثم إنه من بني أمية .

فخرج عثان إلى مكة فلقه أبان بن سعيد بن العاص^(١) حين دخل مكة أو قبل أن يدخلها فحمله بين يديه ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانطلق عثان حتى أتى أبا سفيان وعظاء قريش فبلغهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرسله به . فقالوا لعثان حين فرغ من رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم : إن شئت أن تطوف بالبيت فلف . فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله صلى الله عليه وسلم واحتبسته قريش عندها .

فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين أن عثان بن عفان قد قتل .

وقيل إن عثان بن عفان دخل مكة ومعه عشرة من أصحابه بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليزوروا أهاليهم ولم يذكروا أسماءهم . وقيل إن قريشاً احتبست عثان عندها ثلاثة أيام وأشاع الناس أنهم قتلوه وهو العشرة

(١) أبان بن سعيد بن العاص هو ابن عم عثان أسلم بعد ذلك .

الذين معه . وعلى كل حال أباطا عثمان رضى الله عنه عن الرجوع فخلق عليه المسلمون ، فلما بلغ ذلك الخبير رسول الله ﷺ قال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، أى قاتلهم .

بيعة الرضوان

دعا رسول الله ﷺ المسلمين إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ^(١) وأمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن ينادى الناس إلى البيعة .

قال سلمة بن الأكوع رضى الله عنه : بايئناه وبأيته الناس على عدم الفرار وأنه إما الفتحة وإما الشهادة ، وفى رواية : بايئناه على الموت . ولم يتخلف أحد من المسلمين حضرها إلا الجند بن قيس أخو بنى سلة فكان جابر بن عبد الله يقول : والله لكانى أنظر إليه لاصفاً يابط ناقته قد ضبا إليها يستتر بها من الناس ، وقيل إنه كان يرى بالتفاف . وكان أول من بايئه ﷺ أبو سنان الأسدى وهو أخو عكاشة بن محصن رضى الله عنهم .

ولما لم يكن عثمان رضى الله عنه حاضراً بايع عنه النبي ﷺ على تدبير حياته ، فوضع يده اليمنى على يده اليسرى وقال : اللهم هذه عن عثمان فإنه فى حاجتك وحاجة رسولك وفى ذلك إشارة منه إلى أن عثمان لم يقتل . ولما بايع القوم أخذوا بشار عثمان جرياً على ظاهره الإشاعة وثبتيها وتقوية لم وقد بايع عثمان بعد رجوعه من مكة . وكان عدد الذين بايئوا (١٤٠٠) .

قال تعالى يذكر هذه البيعة فى سورة الفتح ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعُواكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾

تأثير البيعة فى قريش

لما علمت قريش بهذه البيعة خافوا وأشار أهل الرأى فيهم بالصلح على أن يرجع ويسود من قابل . فقيم ثلاثاً معه سلاح الراكب ، السيوف فى الترتب والقوس .

الصلح

بمست قريش سهيل بن عمرو ^(٢) أخا بنى عامر بن لؤى إلى رسول الله ﷺ وقالوا له : انت محمداً فصالحه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا علمه هذا فوالله لا نتحدث غنا العرب أنه دخلها علينا عنوة أبداً فلما قبل سهيل

(١) شجرة هناك من أشجار السمر وهى شجرة الطلح . وقد بلغ عمر رضى الله عنه فى خلافته أن ناساً يصلون عند العجرة التى كانت البيعة عندها ويطلقون بها نفاثات رضى الله عنه من اصماغ الأمر وظهور البدعة وأن أبداً كالأستام فأمر بها فقطعت .

(٢) كان سهيل سياسياً قادراً وخلياً معهما .

قال رسول الله ﷺ قد أراد القوم الصالح حين بشوا هذا الرجل وطالت المراجعة بينه وبين النبي ﷺ . فلما التأم الأمر بينهما على الصالح على ترك القتال ولم يبق إلا الكتاب وعند ذلك وثب عمر بن الخطاب قائماً أباً بكر فقال : يا أبا بكر أليس رسول الله ؟ قال بلى . قال : أو لسا بالمسلمين ؟ قال بلى . قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى . قال : فلام نعلی الدینة^(١) في ديننا . قال أبو بكر : الزم غزوة^(٢) فإني أشهد أنه رسول الله قال عمرو أنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله . ألت رسول الله ؟ قال بلى . قال : أو لسا بالمسلمين ؟ قال بلى . أو ليسوا بالمشركين ؟ قال بلى . قال فلام نعلی الدینة في ديننا ؟ قال أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيئني فكان عمر يقول : ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعنت من الذي صنعت يومئذ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيراً .

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب فقال اكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل لا أعرف هذا أي الرحمن الرحيم ولكن اكتب باسمك اللهم . فكتبها وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ثم قال اكتب هذا ماصحاً عليه محمد رسول الله ﷺ بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ولم أصدك عن البيت ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . قال رسول الله ﷺ اكتب هذا ماصحاً عليه محمد بن عبد الله سهيل ابن عمرو . اصطالحاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمداً من قريش بنير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه وإن بيننا عيبة مكفوفة وإنه لا إسلال ولا إغلال وإنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه (وكان على رضى الله عنه وبعض الحاضرين من المسلمين منهم أسيد بن حضير وسمد بن عباد يمارضون في محو كفة رسول الله) وتواثب خراعة وقالوا نحن في عقد محمد وعهده وتواثب بنو بكر فقالوا نحن في عقد قريش وعهدهم وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقت بها ثلاثاً ملك سلاح الراكب : السيف والقرب لا تدخلها بنيرها . وكتبت نسخة أخرى من هذا العقد لتبقى عند المسلمين لأن سهيلاً قال يكون هذا الكتاب معي وقيل إن الذي كتب النسخة الأخرى محمد ابن مسلمة ولم يكن أحد في القوم راضياً بجميع ما رضى به النبي صلى الله عليه وسلم غير أبي بكر .

وقد جاء في كتاب الصلح « وإن بيننا عيبة مكفوفة » أي أموراً مطوية في صدور سليمة إشارة إلى ترك المؤاخذة بما تقدم بينهم من أسباب الحرب وغيرها وأنه « لا إسلال ولا إغلال » أي لا سرقة ولا خيانة .

(١) أي المصلة القديمة .

(٢) أي ركابه . يريد اسم قوله وفعله ولا تخالفه فاستمار له الفرز كالذي يمسك بركاب الراكب ويسير بغيره .

مزايَا هذا الصلح

قل النووي عن العلماء « أن للصاحبة للترتبة على هذا الصلح هي ماظهر من ثمراته الباهرة وفوائده للتظاهرة التي علمها النبي صلى الله عليه وسلم وخفيت عليهم فحمله ذلك على مواقتهم وذلك أنهم قبل الصلح لم يكونوا يختلطون بالمسلمين ولا تظهر عندهم أمور النبي صلى الله عليه وسلم كما هي ولا يجتمعون بمن يسلمهم بها منفصلة . فلما حصل الصلح اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة وجاء المسلمون إلى مكة وخلقوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحوهم وسمعوا منهم أحوال النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته الظاهرة وأعلام نبوته للتظاهرة وحسن سيرته وجبل طريقته وعابنوا بأنفسهم كثيراً من ذلك فالت إلى الإيمان حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة فأسلموا فيما بين صلح الحديبية وفتح مكة كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهما وازداد الذين لم يسلموا ميلاً إلى الإسلام . فلما كان يوم الفتح أسدوا كلهم لما قد تم لهم من الليل » .

وإنما نضيف إلى ذلك أن مزايَا هذا الصلح التي غابت عن أصحابه صلى الله عليه وسلم ولم تخف عنه عظيمة جداً فقد اعترف له صلى الله عليه وسلم في هذه المعاهدة بأنه قوة مستقلة نظير قريش وأن الهدنة توجد للمسلمين فرصة لتشر دينهم في جزيرة العرب بلا معارضة ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم كان واثقاً من جهة أخرى من إخلاص أصحابه وجههم له وشدة تمسكهم بالعقيدة الإسلامية فلا ينضمون إلى قريش بينما كان يتوقع إسلام بعض القبائل فوق ذلك قد سمح له بزيارة مكة لتأدية الفريضة الدينية مع المسلمين في العام بالتقابل والإقامة بها مدة ثلاثة أيام من غير أن يتعرضوا لهم بسوء وبسبب مجاء في هذه المعاهدة من الزايَا ازداد عدد المسلمين زيادة عظيمة فيمد أن كان عدد جيش الحديبية (١٤٠٠) بلغ عددهم عند فتح مكة بعد عامين (١٠٠٠٠) وفي دائرة الماراف الإسلامية « أن محمداً فاز في صلح الحديبية على قريش فوزاً سياسياً بالهراً ^(١) » .

لما فرغ رسول الله ﷺ من الصلح وأشهد عليه رجالاً من المسلمين ، أبابكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة ، ورجالا من قريش حوطباً ومكرزاً ، قام إلى هديه فنعره ثم جلس لحلق رأسه وقيل إن الذي حلقه في ذلك اليوم خراش بن أمية بن الفضل الخزاعي وكان حجاباً . فلما رأى الناس أن رسول الله ﷺ قد نحر وحلق توابوا ينتحرون ويحلقون . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : حلق رجال يوم الحديبية وقصر آخرون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يرحم الله المحلقين . قالوا وللتصرين يارسلو الله ؟ قال يرحم الله المحلقين . قالوا وللتصرين يارسلو الله ؟ قال يرحم الله المحلقين دون للتصرين ؟ قال لم يشكوا .

(1) Encyclopaedia of Islam.

وأهدى رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية في هديه جملاً لأبى جهل في رأسه برة من فضة فينظ بذلك للشركين وكانت بدنه صلى الله عليه وسلم التي نحرها بالحديبية ٧٠ وفرّق رسول الله صلى الله عليه وسلم الهدى على الفقراء، وكانت إقامته صلى الله عليه وسلم بالحديبية نحو عشرين يوماً .

قال الزهرى في حديثه : ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من وجهه ذلك قافلاً حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَفْزَعَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ ثم كانت القصة فيه وفي أصحابه حتى انتهى إلى ذكر البيعة فقال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ إِنَّمَا يَنْكَثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ يَتْلُوَنَّهُ أُجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

واختلف الناس في المراد من الفتح فقال ابن عباس وأنس والبراء بن عازب رضي الله عنهم : الفتح هنا فتح الحديبية . وقيل الفتح المراد هو فتح مكة فنزلت السورة عند مرجعه من الحديبية عدة له بفتحها وعبر فيه بالماضي لتحقق وقوعه .

وترجح أن الفتح المقصود هو فتح الحديبية لأن هذه الآية نزلت بعد انصرافه منها وهذا الفتح مقدمة لفتح مكة وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والحاكم من حديث مجمع بن جارية الأنصاري الأوسى قال : شهدنا الحديبية فلما انصرفنا عنها وجدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند كراع النعم ^(١) وقد جمع الناس وقرأ عليهم (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) فقال رجل يارسول الله أو فتح هو ؟ قال : إى والذى نفسى بيده إنه لفتح . وروى موسى بن عقبة والزهري والبيهقي عن عروة بن الزبير قال أقبل النبي صلى الله عليه وسلم راجعاً فقال رجل من أصحابه ماهذا بفتح . لقد صددنا عن البيت وصددنا ورد صلى الله عليه وسلم رجلين من المؤمنين كانا خرجا إليه فبلغه صلى الله عليه وسلم قول ذلك الرجل فقال بئس الكلام بل هو أعظم الفتح قد رضي للشرك أن يذفوك بالراح عن بلادهم ويسألوك القضية ويرغبوا إليكم في الأمان ولقد رآوا منكم ما كرموا وأظفركم الله عليهم وردكم سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح . أنسيتم يوم أخذ إذ تصعدون ولا تلون على أحد وأنا أدعوك في آخركم . أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ؟ فقال المسلمون صدق الله ورسوله هو أعظم الفتوح والله ياتى الله ما فكرنا فيها فكركم فيه ولأنت أعلم بالله وأمره منا .

وصارت تلك الشجرة التي وقفت عندها البيعة يقال لها « شجرة الرضوان » وبلغ عمر بن الخطاب في خلافته أن ناساً يهلون عندها فتوقد لهم وأمر بها قطعت خوف ظهور البدعة .

(١) هو موضع أمام عفان ؛ بناحية الحجاز بين مكة والمدينة .

تنفيذ المعاهدة

قد راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم تنفيذ هذه المعاهدة بدقة فكان في مدة الصلح يرد الرجال للمهاجرين ولا يرد النساء بعد الامتحان وكان الامتحان أن تستصاف المرأة للمهاجرة أنها مهاجرة ناشراً ولا هاجرت إلا لله ورسوله . قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فلما هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضى الله عنها وكانت أسدت بمكة وبايت قبل أن يهاجر ﷺ ثم خرجت في مدة الصلح مهاجرة ماشية على قدميها من مكة إلى المدينة وصحبت رجلاً من خزاعة وهي أخت عثمان ابن عفان لأمه - لم يردّها النبي صلى الله عليه وسلم لأن الشرط يقضى برجوع الرجال قط . ولما خرج أخوها حمارة والوليد في ردها بالمهد ، أخبرها رسول الله بأن النساء المؤمنات لا يرجعن وأن الشرط في الرجال قط وأن النساء يتحصن فرجنا إلى مكة وأخبرنا قريشاً بذلك فرضوا به .

ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم أباً بصير^(١) فذهب - بعد أن قتل خنيساً الذي كان جاء في طلبه - إلى محل في طريق الشام يمر به ذوو البيرة واجتمع إليه جمع من المسلمين الذين كانوا احتبسوا بمكة فكاكوا يسألون إليه وأغلث أبو جندل بن سهيل بن عمرو الذي رده صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وخرج من مكة في سمين راكباً أسدوا فلقضوا بأبي بصير وكرهوا أن يقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في مدة المدنة خوفاً من أن يردم إلى أهلهم وانضم إليهم ناس من غفار وأسلم وجهينة وطوائف من العرب ممن أسلم حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل قطعوا مارة قريش لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه ولا تمر بهم غير إلا أخذوها حتى كتبت قريش له صلى الله عليه وسلم تسأله بالأرحام إلا آوام ولا حاجة لهم بهم فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي جندل وأبي بصير أن يقدما عليه وأن من منهم من المسلمين يلحق ببلادهم وأهلهم ولا يترضوا لأحد من بهم من قريش ولا لعيرهم فقدم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما وأبو بصير مشرف على اللوت لمرض حصل له فأت كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في يده يقرأه فدفعه أبو جندل مكانه وجعل عند قديمه مسجداً وقدم أبو جندل على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ناس من أصحابه ورجع إليهم إلى أهلهم وأمنت قريش على عيرهم وتحقق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية « سيجعل الله لأبي جندل وأصحابه فرجاً ومخرجاً » .

ولما أمن الكفار القتال اختلطوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام فأسلم كثير منهم . وكان أبو بكر الصديق يقول ، ما كان فتح في الإسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد ﷺ وربه . والعباد يجعلون والله لا يجعل لسجدة العباد حتى تبلغ الأمور ما أريد .

(١) أبو بصير ، اسمه عتبة بن أسيد بن جلوية البجلي ، حليف بني زهرة .

- ٣٦٢ -

رسل النبي ﷺ

إلى الملوك والأمراء

يدعوم إلى الإسلام

قبل أن نذكر كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء يجدر بنا أن نلقي نظرة على حالة الإمبراطورية الرومانية ودولة الفرس .

كانت الحروب ناشبة بين الإمبراطورية الرومانية والفرس في سنة ٦٢١ م انتصرت جيوش الفرس واستولت على الشام ومصر وآسيا الصغرى وذلك قبل الهجرة بسنة . وكان الفرس وقتئذ يهددون القسطنطينية وأخيراً ظهر هرقل وأمر على إعادة مجد دولته وفي زمن الهجرة (سنة ٦٢٢ م) كان الإمبراطور الروماني يطاردهم في آسيا الصغرى . وفي الوقت الثانية من وقائمه سارت جيوشه إلى قلب بلاد الفرس نفسها . وفي أثناء السنوات الثلاث التي كان فيها يسترد هرقل مجد الإمبراطورية كان رسول الله ﷺ في نزاع مع قريش وأعقب ذلك حصار الفرس للقسطنطينية الذي كان قبل حصار المدينة في غزوة الأحزاب بنصف سنة (يوليو سنة ٦٢٦ م) وفي الوقت الثالثة والى هرقل انتصاره السابق فانتصر انتصاراً تاماً في أول ديسمبر سنة ٦٢٦ م في وقعة نينوى وبذلك أنكسرت جيوش الفرس وتشتت شملهم وفي التاسع والعشرين من هذا الشهر فركمى إلى عاصمة ملكه . وفي فبراير سنة ٦٢٨ م قتل ابنه (شيرويه) واستولى على العرش وعقد معاهدة صلح مع الإمبراطور الروماني على أن تبقى حدود الدولتين على ما كانت عليه من قبل وفي حوالى هذا الوقت كان النبي صلى الله عليه وسلم يمتد صلح الحديبية مع رؤساء قريش وفي ربيع هذه السنة خرج هرقل لزيارة القدس .

فما رجع رسول الله من صلح الحديبية ، ورأى سرعة إسلام الأفراد والقبائل ، وجد أنه قد آن الوقت لتعميم الدعوة إلى الإسلام في خارج جزيرة العرب . فاختار لذلك الترض رسله من تجار المسلمين الذين سبق أن زحلوا إلى البلاد التي يريد دعوة ملوكها إلى الإسلام ممن يعرفون عاداتهم .

خاتم رسول الله ﷺ

قبل لرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أراد إرسال كتبه إلى الملوك يدعوم فيها إلى الإسلام إنهم لا يقرمون الكتاب إلا إذا كان ختموا فاحتض على الله عليه وسلم خاتماً من فضة وكان نقشه ثلاثة أسطر : (محمد) سطر (رسول) سطر (الله) سطر والأسطر الثلاثة قرأ من أسفل إلى فوق فحمد آخر الأسطر . ورسول في الوسط والله فوق . وكانت الكتابة مكتوبة لتكون على الاستواء إذا ختم به فكان ذلك الخاتم في يده صلى الله عليه وسلم

- ٢٦٣ -

ثم في يد أبي بكر ثم في يد عمر ثم في يد عثمان رضي الله عنهم حتى وقع في بحر أريس في السنة التي قتل فيها عثمان رضي الله عنه فالتسوه ثلاثة أيام فلم يحمده .

كتب رسول الله ﷺ

كان ﷺ يفتتح أكثر كتبه بلفظ « من محمد رسول الله إلى فلان » وربما اختصها بلفظ « أما بعد » وربما اختصها بلفظ « هذا كتاب » وربما اختصها بلفظ « سلم أنت »

وكان يصرح في الغالب باسم المكتوب إليه في أول المكتابات وربما اكتفى بشهرته فإن كان المكتوب إليه ملكا كتب بعد ذكره اسمه « عظيم القوم الغلانيين » وربما « كتب صاحب مملكة كذا » .

وكان يبر عن نفسه ﷺ في أثناء كتبه بلفظة الأفراد مثل « أنا » و « لي » و « جاءني » و « وفد علي » وما أشبه ، وربما أتى بلفظ الجمع مثل « بلغنا » و « جاءنا » نحو ذلك .

وكان مخاطب المكتوب إليه عند الأفراد بكاف الخطاب . مثل « لك وعليك » وتاء الخطاب . مثل « أنت قلت كذا وضلت كذا » وعند التثنية بلفظها مثل : « أنتما ولكا وعليكما » وعند الجمع بلفظها مثل « أنتم ولكم وعليكم » وما أشبه ذلك .

وكان يأتي في صدور كتبه بالسلام ، فيقول في خطاب السلم « سلام عليك » وربما قال : « السلام على من آمن بالله ورسوله » وفي خطاب الكافر « سلام على من اتبع الهدى » وربما أسقط السلام من صدر الكتاب .

وكان يأتي في صدور الكتب بالتحميد بعد السلام . فيقول : « فإني أحد إليك الله الذي لا إله إلا هو » وربما تركه . وقد أتى بعد التحميد بالشهادة وقد لا يأتي به . وكان يتخلص من صدر الكتاب إلى المقصود تارة بأما بعد وتارة بغيرها .

وكان ينظم كتبه بالسلام تارة ، فيقول في خطاب السلم « والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » وربما اقتصر على السلام . ويقول في خطاب الكافر « والسلام على من اتبع الهدى » وربما أسقط السلام من آخر كتبه .

١ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى هرقل (Heraclius)

كان إرسال الكتاب إلى هرقل سنة ست من الهجرة بد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الحديبية وكان وصوله إليه في الحرم سنة سبع وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية بن خليفة الكلبي أن يدفعه إلى عظيم بصرى وهو الحارث ملك غسان ليُدفعه إلى هرقل وكان هرقل قد نذر أنه إذا ظهر على الفرس وأخرجهم من بلادهم زار القدس حاجاً ماشياً على قدميه شكراً لله . فخرج في خريف سنة ٦٢٨ م (السنة السابعة من الهجرة) وفاء بنذرته . وفي أنشاء سفره سلم إليه حاكم بصرى كتاب النبي صلى الله عليه وسلم وكان دحية لما انتهى إلى الحارث أرسل معه عدلى بن حاتم ليوصله إلى هرقل . وهذا نص الكتاب :

(بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من أتبع الهدى أما بعد . أسلم تسلم . وأسلم يوثق الله أجركم مرتين وإن تقول فإن إثم الأكارين عليك ^(١)) عن عبد الله بن عباس قال ^(٢) : « حدثني أبو سفيان بن حرب قال : كنا قوماً تجاراً وكانت الحرب بيننا وبين رسول الله قد حصرتنا حتى نهكت أموالنا فلما كانت الهدنة بيننا وبين رسول الله لم تأمن إلا نجد أماناً فخرجت في نفر من قريش تجار إلى الشام وكان وجه متجرباً منها غرة قدمناها حين ظهر هرقل على من كان بأرضه من فارس وأخرجهم منها وانتزع له منهم عليه الأعظم وكانوا قد استلبوه إياه فلما بلغ ذلك منهم وبلغه أنه صلى الله عليه وسلم قد استنقذ له وكانت حصن منزله خرج منها عثمى على قدميه متشكراً لله حين رد عليه مارد ليصل في بيت للقدس وتيسط له البسط وتلقى عليها الرياحين . فلما انتهى إلى إيلياء وقضى فيها صلاته ومعه بطارقه وأشراف الروم . أصبح ذات غداة مهموماً قلب طرفة إلى السماء ، قال له بطارقه والله قد أصبحت أيتها الملك الغداة مهموماً . قال أجل . أريت في هذه الليلة أن ملك الختان ظاهر . قالوا أيتها الملك : ما نعلم أمة تحتن إلا يهود وهم في سلطانك وتحت يدك فابت إلى كل من لك عليه سلطان في بلادك فره يفضرب أعناق كل من تحت يده من يهود واسترح من هذا الهم . فوافقه لهم لني ذلك من رأيهم يذرونه إذ أنه رسول صاحب بصرى رجل من العرب يقوده وكانت الملوك تهادى الأخبار بينها فقال أيتها الملك إن هذا الرجل من أهل الرب من أهل الشتاء والإبل يحدث عن أمر عجيب حدث ببلادهم فله عنه فلما انتهى به رسول صاحب بصرى إلى هرقل قال هرقل لترجمانه: سلمه ما كان هذا الحدث الذي كان

(١) الأكار هو الفلاح . والراد ثم رعاك الذين يثبوتك ويتقادون لأمرك (٢) راجع العدى الجزء الثالث .

بيلاده ؟ فسأله : قال خرج بين أظهرنا رجل يزعم أنه نبي قد انبأه ناسن وصدقوه وخالفه ناس . وقد كانت بينهم ملاحم في مواطن كثيرة فتركهم على ذلك . قال فلما أخبره الخبر ، قال جردوه فجردوه فإذا هو مخنون . قال هرقل هذا والله الذي أريت لا ماتولون . أعلاه نوبه . ثم دعا صاحب شرطته فقال له قلب لي الشام ظهراً وبطناً حتى تأتيني برجل من قوم الرجل يعني النبي صلى الله عليه وسلم .

قال أبو سفيان : فوالله إنا لبغزة إذ هجم علينا صاحب شرطته فقال أنتم من قوم هذا الرجل الذي بالحجاز ؟ قلنا نعم . قال انطلقوا بنا إلى الملك فانطلقنا معه فلما اتينا إليه قال : أنتم من رطل هذا الرجل ؟ قلنا نعم . قال فأياكم أمس به رجلاً ؟ قلت أنا . قال أبو سفيان : وإيم الله مارأيت من رجل أرى أنه كان أنكر من ذلك الأغلف يعني هرقل . قال : أدنه فأقعدني بين يديه وأقعد أصحابي خلفي . ثم قال : إني سأسأله فإن كذب فردوا عليه ، فوالله لو كذبت ماردوا عليّ ولكني كنت امرأ سيداً أنكرتم عن الكذب وعرفت أن أيسر مافي ذلك إن أنا كذبت أنه يحفظوا ذلك عليّ ثم يحذثوا به عني ، فلم أ كذبه . قال أخبرني عن هذا الرجل الذي خرج بين أظهركم يدعي ما يدعي . قال فبجعت أزهده له شأنه وأصغره له أمره . وأقول له أيها الملك ما بهكم من أمره ؟ إن شأنه دون ما يملك فبجعل لا يلبث إلى ذلك . ثم قال : أنبئني عما أسألك عنه من شأنه . قلت سل عما بدا لك . قال كيف نسبه فيكم ؟ قلت محض أوسطنا نسباً . قال فأخبرني هل كان أحد من أهل بيته يقول مثل ما قال فهو يقشبه به ؟ قلت لا . قال : فهل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث لتردوا عليه ملكه ؟ قلت لا . قال : فأخبرني عن أتباعه منكم من هم ؟ قال قلت الضمفاء والساكين والأحداث والنساء . وأما ذوو الأسنان والشرف من قومه فلم يقبهم منهم أحد . قال : أخبرني عن تيمه أيحبه ويلزمه أم يقيه ويفارقه ؟ قال قلت ماتبهم رجل قفاره . قال : أخبرني كيف الحرب بينكم وبينه ؟ قال قلت سجال بidal علينا ونلال عليه . قال فأخبرني هل ينذر ؟ فلم أجد شيئاً مما سألتني عنه أغرزه فيه غيرها . قلت لا ونحن منه في هدنة ولا نأمن غدره . قال فوالله ما لفتت إليها متى ثم كر على الحديث .

قال سألتك كيف نسبه فيكم فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً وكذلك يأخذ الله النبي إذا أخذه لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً . وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بوله فهو يقشبه به فزعمت أن لا . وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه فزعمت أن لا . وسألتك عن أتباعه فزعمت أنهم الضمفاء والساكين والأحداث والنساء وكذلك أتباع الأنبياء في كل زمان . وسألتك عن يقيمه أيحبه ويلزمه أم يقيه ويفارقه ، فزعمت أن لا يقيمه أحد فيفارقه وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه . وسألتك هل ينذر فزعمت أن لا . فلئن كنت صدقتني عنه ليقبني على ماتحت قدح هاتين ولوددت أني عنده فأغسل قدميه . انطلق لسألتك . قال قمت من عنده وأنا أضرب إحدى يدي بالأخرى وأقول : أي عباد الله لقد أمر أمر ابن أبي

كبشة^(١) أصبح ملوك بني الأصفر يهابونه في سلطانهم بالشام . قال وقدم عليه كتاب رسول الله ﷺ . فأخذ الكتاب فجعله بين غذبه وخاصرته .

وفي البخاري أن قيصر لما صار إلى حمص أذن لعفاه الروم في دسكرة له ثم أمر بأبوابها فغلقت ثم أطلع قال: يامعشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتابعوا هذا النبي فخاصوا حيصة حر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد أغلقت ، وقالوا أندعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيد الأعرابي ؟ فلما رأى نهرهم وأيس من إيمانهم قال ردوهم على وقال: إني قلت مقالتي أخبر بها شدتكم على دينكم قد رأيت . فسجدوا له ورضوا عنه . إله فلم يسلم هرقل .

وجميع المصادر الأجنبية تنكر هذه الحوادث التي جرت بين هرقل وأبي سفيان مما يدل على ميله إلى الإسلام لأنه كان عريقاً للسيعة متمسكاً بها فلا يتصور أن يقول لأبي سفيان « لئن كنت صدقتني عنه لينابني على ما تحت قدمي هاتين ولوددت أني عنده أغسل قدميه » ولا يمكن أن يدعو قومه إلى اتباع النبي وترك النصرانية وهو رئيسها في وقت كان يحتفل فيه باسترداد الصليب الأعظم من الفرس .

٢- كتاب رسول الله ﷺ

إلى الحارث بن أبي شمر النسائي

بث رسول الله صلى الله عليه وسلم شجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر النسائي وكان أميراً بلحمن من جهة قيصر ومعه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا نصه :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله فإني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبق ملكك) وختم الكتاب .

قال شجاع فأنهت فوجدته مشغولاً بتهيئة الضيافة لقيصر وقد جاء من حمص إلى إيلياء حيث كشف الله عنه جنود فارس شكراً لله تعالى .

قال شجاع فأثت على بابه يومين أو ثلاثة قتلت لحاجبه : إني رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حاجبه لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا وجعل حاجبه يسألني عنه صلى الله عليه وسلم وما يدعو إليه فكنت أأحدثه

(١) أمير أمراء بني كبة : أي عظم أمرهم . وفي رواية: ما زلت مرعوباً من محمد حتى أسلمت ، وقوله ابن أبي كبة : قيل : إنه جد لأمته بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم ، كان يكنى أبا كبة وكان خالفاً قريشاً في عبادة الأصنام فجهلوا به النبي صلى الله عليه وسلم لمخالفته لهم في عبادتها .

- ٣٦٧ -

ففرق حتى ينلوه البكاء ويقول إلى قرأت في الإنجيل وإلى أجد صفة هذا النبي بينه وكنت أظنه يخرج بالشام فأراه خرج بأرض القرط^(١) فأنا أو من به وأصدقه وأنا أخاف من الحارث بن أبي شمر أن يقتلني . وكان هذا الحاجب رومياً اسمه مري .

قال شجاع وكان يكرمني ويحسن ضيافتي ويخبرني باليأس من الحارث ويقول وهو يخاف قيصر . قال فخرج الحارث يوماً فوضع التاج على رأسه فأذن لي عليه فدفت إليه الكتاب فقرأه ثم رمى به وقال من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه ولو كان باليمن نجته . على الناس . فلم يزل جالساً حتى الليل وأمر بالليل أن تعمل ثم قال أخبر صاحبك بما ترى . وكتب إلى قيصر يخبره بخبري فصادف قيصر يابلياء وعنده دحية رضى الله عنه وقد بعث رسول الله ﷺ فلما قرأ قيصر كتاب الحارث كتب إليه ألا تسر إليه والله عنه ووافي يابلياء^(٢) . ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم خبره قال « باد ملكه » ويقوم من هذا أنه لم يسلم .

٣ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى كسرى عظيم الفرس

(Cbosroes Eparwiz)

كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كسرى أبرويز بن هرمز وبعث بالكتاب مع عبد الله بن حذافة السهمي لأنه كان يتردد على كسرى كثيراً وهذا نص الكتاب :

(بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً . أسلم تسلم فإن أبيت فليكلمك الجوس) أى لئلم أتباعك .

فقرئ كسرى كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله « مرق الله ملكه » .

ويلاحظ في هذا الكتاب أن النبي قال فيه « وأنى رسول الله إلى الناس كافة » وفي هذا رد على من زعم من للشرقيين وغيرهم أن محمداً أرسل إلى العرب فقط ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ سورة سبأ .

ثم كتب كسرى إلى أمير له باليمن يقال له « باذان » أن ابث إلى هذا الرجل الذى بالجواز رجلين من عندك جلدتين فليأتيا نى به . فبعث « باذان » قهرمانه وهو « بابويه » . وكان كاتباً حاسباً بكتاب قارس وبث معه رجلاً

(١) أى بأرض العرب ، والقرط : شجر يدعى بورقه وثمرة عند العرب .

(٢) قوله والله عنه : أى تشاغل عنه ، ويابلياء بيت المقدس ومعناه بالبرانية بيت الله Aelst Capitolina

من الفرس يقال له « خرخرسة » وكتب معها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمره أن ينصرف معها إلى كسرى وقال لبابويه : انت بلد هذا الرجل وكله وأنتى بخبره فخرجنا حتى قدما الطائف فوجدنا رجلا من قریش بنخب من أرض الطائف فسلمنا عنه قالوا هو بالمدينة . واستبشروا بهما وفرحوا وقال بعضهم لبعض أبشروا قد نصب له كسرى ملك اللوك . وكفيم الرجل فخرجنا حتى قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه بابويه . فقال إن شاهنشاه ملك اللوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك وقد بعثنى إليك لتتلاقى معي فإن قلت كعب فيك إلى ملك اللوك ينفعك ويكفه عنك وإن أبيت فهو من قد علمت فهو مهلكك ومهلك قومك وغرب بلادك . ودخلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد حلقا لحاهما وأعفيا شوابهما ففكره النظر إليهما ثم أقبل عليهما فقال : ويلكما من أمركما بهذا ؟ قالوا ربنا . يعنينا كسرى فقال رسول الله : لكن ربى أمرنى بإعفاء لحيتى وقص شاربى . ثم قال لهما ارجعا حتى تأتيا نى غدا وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخير من السماء أن الله قد ساط على كسرى ابنه (شبرويه) قتلته فى شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا بعد ماضى من الليل كذا وكذا .

قال الواقدي : « قتل شبرويه أباه كسرى ليلة الثلاثاء لشر ليل مضيئ من جمادى الأولى من سنة سبع لست ساعات مضت منها » .

فدعاهما فأخبرهما قتالا هل تدرى ما تقول إنا قد شننا عليك ما هو أيسر من هذا أفكتب هذا عنك وتخبره اللوك ؟ قال نعم أخبراه ذلك على وقولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى وينتهى إلى منتهى الخلف والحافر وقولا له إنك إن أسلست أعطيتك ماتحت يديك وملكتك على قومك من الأبناء . ثم أعطى « خرخرسة » منطقة فيها ذهب وفضة كان أهدها له بعض اللوك ففرجا من عنده حتى قدما على باذان فقال والله ملعنا بكلام ملك وإنى لأرى الرجل نبيكا يقول ولتنتظرن ما قد قال فائن كان هذا حقا ما فيه كلام ، إنه لنبى مرسل . وإن لم يكن فسرى فيه رأينا .

إسلام باذان

لم ينشب باذان أن قدم عليه كتاب شبرويه وهو :

« أما بعد فإنى قتلت كسرى ولم أقتله إلا غضبا لفارس لما كان استحل من قتل أشرافهم وتجييرهم فى ثغورهم فإذا جاءك كتابى هذا فخذ إلى الطاعة عن قلبك وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك فلا تبعه حتى يأتيك أمرى فيه » فلما انتهى كتاب شبرويه إلى باذان قال إن هذا الرجل لرسول فأسلم وأسلمت الأبناء معه من فارس من كان منهم باليمن فكانت حمير تقول لخرخرسة ذو المعجزة للمنطقة التى أعطاه إياها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنطقة بلسان حمير للمعجزة فبنوه اليوم ينسبون إليها خرخرسة ذو المعجزة . وقد قال بابويه لباذان ما كلمت رجلا قط أهيب عندى منه . فقال له باذان هل معه شرط ؟ قال لا .

- ٣٦٩ -

ولما أسلم باذان ولاء النبي صلى الله عليه وسلم على مخاليف اليمين وكان منزله بصنماء دار مملكة التباينة وبقي حتى مات بعد حجة الوداع فولى النبي صلى الله عليه وسلم ابنه (شهر) بن باذان على صنماء وولى على كل جهة واحداً من الصعابة وضوان الله عليهم .

ثم ملك الله للسليمان ملك كسرى وخزائنهم وأموالهم في خلافة عمر رضى الله عنه ومزقه الله كل ممزقاً تحتياً لدعوته صلى الله عليه وسلم .

وقد أنكر الأستاذ نورث (C.R. North) في كتابه الذى أسماه موجزاً عن الإسلام (An outline of Islam) طبعة سنة ١٩٣٤ ص ٣٤ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسل كتاباً إلى إمبراطور الروم وآخر إلى إمبراطور الفرس وزعم أن ذلك ليس له أساس تاريخي . وهكذا ينكر مؤرخو الترجمة حتى الحقائق الثابتة .

٤ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى المقوقس عظيم القبط^(١)

سنة ٦٢٨ - ٦٢٧ م

بسم رسول الله حاطب بن أبى بلتعة رضى الله عنه إلى المقوقس . وذلك أنه ﷺ عند منصرفه من الحديبية قال أيها الناس أيكم ينطلق بكتابي هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله فوثب إليه حاطب بن أبى بلتعة وقال أنا يارسول الله فقال : بارك الله فيك يا حاطب وهذا نص الكتاب :

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) مِنْ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الْمُقَوْسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ^(٢) أَسْلِمْتَ تَسَلَّمَ بِوَيْكَ اللَّهُ أَخْرَجَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَلَيْتَ لَكَ أَمَّا كُلُّ الْقِبْطِ يَأْخُذُ الْكِتَابَ تَمَازُجاً إِلَى كَلْفَةٍ سِوَاهُ بَيْتِنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا قُولُوا أَنُشْهِدُوكُمْ بِآثَانِ مُسْلِمُونَ) وختم الكتاب .

وهذا الكتاب محفوظ بدار الآثار في الآستانة . قيل عثر عليه عالم فرنسي في دير بمصر قرب أخميم في زمن سعيد باشا .

(١) اسم المقوقس بالغة القبطية Ptochios ومعنى المقوقس مطول البناء . وهذا لقب كل من ملك مصر وكان اسم هذا المقوقس « جرجس بن ميناء » .

(٢) أى بدعوته وهى كلمة المجاهدة التى يدعى إليها أهل الملل الكافرة .

فسار لحاطب بالكتاب حتى قدم على المقوقس إلى مصر فلم يجد فذهب إلى الاسكندرية وأعطاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فضعه إلى صدره وجعله في حتى عاج ودعا كاتباً له بالعربية يكتب بالعربية فكتب : (إلى النبي صلى الله عليه وسلم : بسم الله الرحمن الرحيم محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبياً قد بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام) وذكر له ما كان من إكرامه لحاطب وقيل إنه دفع له مائة دينار وخمسة أثواب ودعاه رجلاً عاقلاً لم يجد بمصر أحسن ولا أجل من مارية (مريم) وأختها سيرين وهما من أهل حنّ من كورة أفسنا ، قرية بصعيد مصر^(١) فبث بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهدى له بغلة وعسلاً من بنها . وقيل بئث له غير ذلك عشرين ثوباً من قباطى مصر وطيباً وعوداً ومسكاً . ولكنه لم يسلم وقد قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الهدايا ، فأخذ مارية لنفسه ، وأهدى سيرين لحسان بن ثابت وهى أم عبد الرحمن بن حسان . والبغلة تسمى « اللبل » وكانت شهباء ولم يكن في العرب يومئذ بغلة غيرها ودعا في عسل بنها بالبركة . وقد ذكر المرحوم حنفى ناصف بك أصناف الهدايا التى أرسلها للمقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهى :^(٢)

- ١ - مارية بنت ثعمون وكانت أمها رومية .
- ٢ - جارية أخرى يقال لها سيرين ولكنها أقل جلالاً من مارية .
- ٣ - جارية أخرى يقال لها قيسر .
- ٤ - جارية سوداء يقال لها بريرة .
- ٥ - غلام أسود يقال له هابو .
- ٦ - بغلة شهباء وهى التى سميت بدليل .
- ٧ - فرس مسرج مليح وهو الذى سعى بيمينون .
- ٨ - حمار أشهب وهو الذى سعى ببيغفور .
- ٩ - مربعة فيها مكحلة ومراة ومشط وقارورة دهن ومقص وسواك .
- ١٠ - جانب من عسل بنها .

(١) جاء في الحديث الشريف : « أهدى المقوقس إلى النبي صلى الله عليه وسلم مارية من حنّ من رستاق أفسنا » وفى كتاب الانتصار لابن دقاق :

« وأفسنا بلدة قديمة بها آثار عظيمة وكان مقياس صغير يقاس به ماء النيل وبعضه باقى إلى الآن وهى على شفة النيل المصرية قناة الأشموين - قال : إن الأشموين ذات كيان عظيمة وإن بابنها أشموين بن مصر وقتل عن القبط أن أشموين بن سرداباً تحت الأرض من الأشموين إلى أفسنا » وقرية الأشموين بمحافظة أسيوط . (٢) راجع مجلة الهلال السنة ٤١ الجزء الأول ص ٧٨ .

- ٢٧١ -

١١ - مقتل من الذهب

١٢ - عشرون ثوباً من قباطى مصر

١٣ - جانب من المود والدند^(١) والمسلك

١٤ - قلدح من قوارير

ويقال إنه كان من ضمن الهدية طيب قال له النبي صلى الله عليه وسلم « ارجع إلى أهلك نحن قوم لأننا كل حق نحور وإذا أكلنا لانشبع »

وقد أسلمت مارية قبل أن تصل إلى المدينة هي وسيرين بدعوة حاطب بن أبى بلتمة

مارية القبطية

وصلت مارية إلى المدينة سنة ٨ هـ

كان رسول الله يعجب بمارية القبطية وكانت بيضاء جملة فأنزلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأختها على أم سليم بنت ملحان فأسلمتها فوعلى مارية بالمالك وحولها إلى مال له بالعارية كان من أموال بنى النضير فكانت فيه في الصيف وفي خراقة النخل فكان يأتيها هناك وكانت حسنة الدين ووهب أختها سيرين لحسان ابن ثابت الشاعر فولدت له عبد الرحمن وولدت مارية لرسول الله غلاماً فباه إبراهيم . وتوفيت في خلافة عمر سنة ١٦ هـ ودفنت بالبقيع وكان عمر يجمع الناس بنفسه لشهود جنازتها وصلى عليها

إبراهيم بن رسول الله ﷺ

لما ولد إبراهيم علق عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بشاة يوم سابعه وحلق رأسه فصدق بزنة شعره فضة على الساكنين وأمر بشعره فدفن في الأرض وكانت قابلة مارية سلى مولاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرجت إلى زوجها أبى رافع مولى رسول الله فأخبرته بأنها قد ولدت غلاماً فجاء أبرافع^(٢) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فبشره فوهب له عبداً وغار نسار رسول الله صلى الله عليه وسلم واشتد عليهن حين يرزق منها الولد . كانت ولادة إبراهيم في ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة (إبريل سنة ٦٣٠ م) ولد بالعالية وتنافس فيه نساء الأنصار أيتهن ترضعه فدفعه رسول الله إلى بردة أم بنت النضر بن زيد بن لبيد بن خدش بن عامر بن غم بن عدى بن النجار وزوجها البراء بن أوس بن خالد فكانت ترضعه .

(١) الدند : العليب ، غير عربي . (٢) اسمه إبراهيم ، مولى رسول الله وكان للعباس رضى الله عنه فوهب له صلى الله عليه وسلم وكان إسلامه بركة مع إسلام أم الفضل ولا يعرف النبي بإسلام العباس ، أمته وزوجه مولاته سلى وشهد فتح مصر . تولى خلافة علي

ه - كتاب رسول الله ﷺ

إلى النجاشي أصحمة

التبع المهاجرون الأولون إلى الحبشة فأكرمهم النجاشي وبقا هنالك آمنين من اضطهاد قريش ولما هاجر رسول الله إلى المدينة عاد أربعمائة من المهاجرين والتحقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وبقي منهم في الحبشة نحو خمسين أو ستين تحت حماية النجاشي وقد حمل عمرو بن أمية الضمري رسالتين إليه يدعو به في إحداها إلى الإسلام وفي الأخرى يأمره أن يزوجه أم حبيبة^(١) وهذه صورة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي الذي يدعو به إلى الإسلام :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ الْأَصْحَمِ مَلِكِ الْحَبَشَةِ . سَلَّمَ أَنْتَ^(٢) فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ ، لِلَّكَ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيِّمُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ . أَلْبَتُولُ الطَّيِّبَةِ الْحَصِينَةِ^(٣) خَلَعَتْ بَيْسِي مِنْ رُوحِهِ وَفَضَّحَهُ كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ وَفَضَّحَهُ وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ وَخُذْهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَالْوَلَاةِ عَلَى طَاعَتِهِ وَأَنْ تَتَّبِعَنِي وَتُؤْمِنَ بِأَنِّي جَاءَنِي فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ وَقَدْ بَشَّرْتُ إِلَيْكَ ابْنَ عَمِّي جَعْفَرًا وَنَفَرًا مَعَهُ مِنَ السَّلَمِينَ فَإِذَا جَاءَكَ فَأَقْرِمْهُمُ وَدَعِ التَّجْبُرَ فَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى اللَّهِ قَدْ بَلَغْتُ وَنَصَحْتُ فَاقْبَلُوا نَصِيحِي وَالسَّلَامُ عَلَى مَنْ أَتْبَعَ الْهُدَى ﴾ ..

فلما وصل إليه الكتاب وضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض ثم أسلم وكتب الجواب للنبي صلى الله عليه وسلم وهذا هو :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ . مِنَ النَّجَاشِيِّ الْأَصْحَمِ بْنِ أَبِيجَرٍ : سَلَامٌ عَلَيْكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُ اللَّهِ الَّتِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الَّذِي هَدَانِي إِلَى الْإِسْلَامِ . أَمَا بَدَّ قَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا ذَكَرْتَ مِنْ أَمْرِ عِيسَى فُورَبَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ عِيسَى مَا يَزِيدُ عَلَى مَا ذَكَرْتَ . وَقَدْ عَرَفْنَا مَا بَشَّرَ بِهِ إِلَيْنَا وَقَدْ قَرِينَا ابْنَ عَمِكَ^(٤) وَأَحْبَابَهُ فَأَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ صَادِقًا مُصَدِّقًا وَقَدْ بَايَعْتُكَ وَبَايَعْتَ ابْنَ عَمِكَ وَأَسَلْتُ عَلَى يَدَيْهِ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَأَرْسَلْتُ إِلَيْكَ بَابِي أَرَاهُ ابْنَ الْأَصْحَمِ بْنِ أَبِيجَرٍ فَإِنِّي لَا أُمَلِّكَ إِلَّا نَفْسِي وَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَتِيكَ فَلَتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ^(٥) . »

(١) أم حبيبة بنت أبي سفيان . كانت هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيدة بن جحش . مات بالحبشة نصرانيا ثم تزوجها رسول الله كاسيًّا .
(٢) أي أنت سالم لأن السلم يعني السلامة (٣) أي العفيفة (٤) يعني جعفر بن أبي طالب (٥) راجع ابن إسحاق .

قال ابن إسحاق « وذكر لي أن النجاشي بعث ابنه في ستين من الحبشة في سفينة فإذا كانوا في وسط البحر غرقت بهم سفينتهم فهلكوا » .

وهذا الكتاب الذي أرسله النجاشي يؤيد إسلامه صراحة وأنه يرى في عيسى عليه السلام ما يراه الإسلام

إسلام النجاشي

إن رواية ابن إسحاق صريحة بأن النجاشي أحسبه أسلم . وقد قرأ جعفر بن أبي طالب عليه سورة مريم وقول عيسى : (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتُ) الآية . وفي هذه الآية نص عيسى عليه السلام على إثبات عبوديته وقال تعالى : (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ اتْلُوهِ الْقُرْآنَ فِيهِ يُسْمِعُونَ مَا كَانَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ مِنْ قَوْلِهِمْ وَإِذَا سُبْحَانَكَ إِذَا قُلْتُمْ لَهُمْ قُلْ لَكُمْ كُنْ فَيَكُونُ) وفي قوله عيسى بن مريم إشارة إلى أنه ولد هذه المرأة وابنها لأنه ابن الله . وقال عز شانه : (وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ) .

وقد شك بعضهم في إسلام النجاشي لكن المصادر التاريخية المهمة تصرح بإسلامه^(١) وفي قول عمرو بن العاص أنه بايع النجاشي على الإسلام وسيأتي ذكر ذلك في موضعه ولكنه كان يخفي إسلامه لأن أمته كانت مسيحية نفى أن يشوروا عليه .

وعما يقوى إسلام النجاشي أنه كان مسيحياً نسطورياً^(٢) ومذهب نسطور قائم على التوحيد وينكر ألوهية المسيح فمن ذلك قوله (لا تقولوا مريم أم الله لأنها من البشر ويستحيل أن يولد الإله من البشر)

وقد ذكرت أن مجيراً الراهب الذي أكرم النبي عليه الصلاة والسلام عندما رحل إلى الشام وعرفه بعلامات فيه ، كان متبعاً لهذا المذهب . ونسطور هذا كان رجلاً جليل القدر متبحراً في الديانة المسيحية والذي يدل على مكانته الرفيعة في الدين المسيحي أنه كان بطريرك القسطنطينية من عام ٤٢٨ إلى ٤٣١ م^(٣) وله أنباع كثيرون من القباوسة لكنه اضطهد لعقيدته ونفى . فإذا كانت عقيدة النجاشي كما علمت هي عقيدة نسطور فالراجح أنه أسلم عندما عرض عليه الإسلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرأ عليه سورة مريم التي تنطبق على مذهبه ولأن الإسلام يحارب عبادة الأصنام ويدعو إلى التوحيد وينكر ألوهية عيسى عليه السلام ويقر نبوته .

وجاء في مسند الشافعي (من كتاب الجنائز والحدود) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم نفى للناس

(١) راجع سيرة ابن هشام والطبري وأسد الغابة ترجمة عمرو بن أمية الضمري (٢) راجع كتاب حياة محمد تأليف ايرفنج Iving وكتاب مسند موير الجزء الرابع . (٣) راجع دائرة المعارف الإنجليزية .

النجاشي اليوم الذي مات فيه وخرج بهم إلى الصلى فصف بهم وكبر أربع تكبيرات وهذا دليل على إسلام النجاشي لأن رسول الله ﷺ لا يصلى إلا على مسلم .
وفي صحيح البخاري عن جابر رضى الله عنه : قال النبي ﷺ حين مات النجاشي : مات اليوم رجل صالح قوموا فصلوا على أخيك^(١) أسحمة .

زواج أم حبيبة

بنت أبي سفيان برسول الله ﷺ

عن محمد بن عمر قال : أرسل رسول الله ﷺ إلى النجاشي ليزوجه « أم حبيبة » بنت أبي سفيان^(٢) ويبيت بها إليه مع من عنده من المسلمين . فأرسل النجاشي - جارية له يقال لها أبرهة إلى أم حبيبة يخبرها بخطفة رسول الله ﷺ إليها فأعطتها أوصاحا لها وفقتا^(٣) سرورا بذلك ، وأمرها أن توكل من يزوجها فوكلت خالد بن سعيد بن العاص فزوجها فخطب النجاشي على رسول الله ﷺ وخطب خالد فأنكح أم حبيبة ثم دعا النجاشي بأربعمائة دينار صداقها فدفعها إلى خالد بن سعيد فلما جاءت أم حبيبة تلك الدنانير جاءت بها أبرهة فأعطتها خمسين مثقالا . وقالت كنت أعطيتك ذلك وليس بيدي شيء وقد جاء الله عز وجل بهذا . فقالت أبرهة : قد أمرني الله أن لا آخذ منك شيئا وأن أرد إليك الشيء أخذت منك فردته ، وأنا صاحبة دهن للملك وثيابه وقد صدقت محمدا رسول الله ﷺ وآمنت به وحاجتي إليك أن ترضيه مني السلام . قالت نعم . وقد أسر للملك نساء أن يبعثن إليك بما عندهن من عود وعنبر فكان رسول الله ﷺ يراه عليها وعندها فلا ينكره . قالت أم حبيبة فخرجنا في سفتين وبث معنا التواني حتى قدمنا الحارث ثم ركبنا الناهر إلى المدينة فوجدنا رسول الله ﷺ بخير فخرج من خرج إليه وأقمت بالمدينة حتى قدم رسول الله ﷺ فدخلت إليه فكان يسألني عن النجاشي وقرأت عليه من أبرهة السلام فرد رسول الله ﷺ عليها . ولما جاء أبو سفيان تزويج النبي ﷺ أم حبيبة قال « ذلك الفحل لا يقرع أهله » .

وقد أراد رسول الله ﷺ بزواج أم حبيبة بنت أبي سفيان أن يستميل أبها إلى قضيتهم . وقد كان وصول مهاجري الحبشة إلى المدينة في فصل الخريف في جمادى الأولى السنة السابعة من الهجرة (أغسطس سنة ٦٢٨ م) وفي سيرة ابن هشام أسماء من عابدوا من الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ

وكنيت بابنتها حبيبة بنت عبيد الله بن جحش واسمها رملة وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله فولدت

(١) في الإسلام كما جاء في شرح البخاري للفظلاني (٢) أمها صفية بنت أبي العاص عمة عثمان بن عفان بن أبي العاص . قيل اسمها رملة وقيل هند وهي أخت معاوية بن أبي سفيان (٣) الوضع : الخفيل ، والنفقة : حلفة من قصة كاثام لانس إليها والجمع فتح بالفتح وتفتح وكانت نساء الأهلية يلبسهن في أصابع القدمين .

هناك حبيبة فتعصر عبيد الله ومات بالحبيسة نصرانياً وبقيت أم حبيسة مسلة بأرض الحبيسة ثم خرجت وقدمت إلى المدينة بعد أن تزوجها رسول الله . وقيل إن الذي وكلته أم حبيسة لقمع النكاح عثمان بن عفان . وتوفيت أم حبيسة سنة ٤٤ هـ .

٦ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى هوزة بن على الحنفي صاحب البجامة^(١)

أرسل رسول الله ﷺ كتاباً إلى هوزة بن على الحنفي صاحب البجامة مع سليل بن عمرو العامري وهذه صورة الكتاب :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هُوْذَةَ بْنِ عَلِيٍّ . سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى وَأَعْلَمُ أَنْ رَبِّي سَيُظْهِرُ إِلَى مُنْتَهَى الْخَلْفِ وَالْخُلَافَةِ فَأَسْلِمَ تَسْلَمَ وَأَجْمَلَ لَكَ مَا تَحْتَ يَدَيْكَ ﴾ .

فلما قرئ على هوزة الكتاب رد ردّاً لطيفاً على سليل . قال الواقدي إن أركون دمشق الرومي من عظماء النصارى كان عند هوزة فقال له هوزة جاءني كتاب من النبي يدعوني إلى الإسلام فلم أجبه فقال الأركون لم لا تجيبه ؟ قال ضنفت يديني وأنا ملك قومي ولئن تمته لن أملك . قال لي والله لئن اتبعته ليملكنك وإن انطير لك في اتباعه وإنه للنبي العربي الذي بشر به عيسى بن مريم عليه السلام وإنه مكتوب عندنا في الإنجيل محمد رسول الله... وأركون هذا أسلم على يد خالد بن الوليد في خلافة أبي بكر الصديق . ثم إن هوزة كتب للنبي ﷺ جواب كتابه وقال فيه :

« ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاناً فأجعل لي بعض الأمر أتبعك » وكأنه أراد الشراكة في النبوة أو الخلافة بعده ﷺ وأجاز سليلاً بجائزة وكساه أثواباً من نسج هجر قدم بكتابه على النبي ﷺ وأخبره بخبره فلما قرأ الكتاب على النبي ﷺ قال : « باد وباد ما في يديه » . ولما انصرف رسول الله ﷺ من الفتح بلغه موت هوزة وقيل إن رسول الله ﷺ قال : أما إن البجامة سيظهر بها كذاب يقتل بعلدي ، وكان سن هوزة ١٥٠ سنة .

(١) البجامة : بلاد بالفرق كثيرة التغيل على نحو ست عشرة مرحلة من مكة ، وهوزة رئيس قبيلة مسيحية وهي بنو حنيفة بالبجامة ، وسليل بن عمرو الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم كان ممن أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة .

٧ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى المنذر بن ساوى التميمي

كان المنذر بالبحرين . بعث النبي صلى الله عليه وسلم العلاء بن الحضرمي رضى الله عنه ومعه كتاب يدعو به إلى الإسلام وهو :

(بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك فإني أحد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . أما بعد . فإني أذكرك الله عز وجل فإنه من ينصح فلنما ينصح لنفسه وإنه من يطلع رسله ويقع أمرهم قد أطلعني ومن نصح لهم فقد نصح لي . وإن رسله قد أثنوا عليك خيراً وإني قد شفتك في قومك فأتروا المسلمين وأسلموا إليه وعلوت عن أهل الذنوب فأقبل منهم . وإنك مما تصلح فإن نزلت عن عملك ، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته ، فعليه الجزية) .

وهذا جواب كتاب أرسله للمنذر جواباً لكتاب أرسله صلى الله عليه وسلم إليه قبل ذلك يدعو به إلى الإسلام فأسلم وحسن إسلامه . ولم يعرف نص الكتاب الأول ولا حامله والظاهر أنه العلاء . وكتاب رسول الله الثاني يمنع الحرية لمن لا يريد الدخول في الإسلام على شرط دفع الجزية ، وكان أهل البحرين إما مجوساً أو يهوداً فلما عرض عليهم للمنذر الإسلام دخل فيه من أحب ومنهم من كرهه وبقى على دينه .

وذكرى الطبري ، أن للمنذر بن ساوى مات بالقرب من وفاته صلى الله عليه وسلم وقدم عليه عمرو بن العاص وحضر وفاته . وجاء في أسد الغابة في ترجمة نافع أبي سليمان مولى للمنذر أن للمنذر سار من البحرين حتى وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنا في الطبراني وابن قانع .

٨ - كتاب رسول الله ﷺ

إلى ملكي عُمان

عُمان - بضم العين وتخفيف الليم - ، بلدة باليمن على ساحل بحر اليمن والهند في شرق هجر . أما عُمان بنتح المين وتشديد الليم فبلدة بالشام . والمراد هنا البلدة الأولى .

بعث رسول الله بكتابه مع عمرو بن العاص إلى جنيفر وعبد ابني الجندى وهذا نصه :

(أما بعد . فإني أدعوكم بدعاية الإسلام . أسلموا أسلموا . فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . وإنسكبا إن أقررتما بالإسلام ، ولتيسكبا . وإن أبيتا أن تقررا بالإسلام ، فإن ملككما

— ٢٧٧ —

زائل عنكما وخطي تحمل بإحسبكما وتظهر نبوتى على ملككما) .
 . وكعب الكتاب ، أبى بن كعب وختمه صلى الله عليه وسلم وكان جيفر أكبر سنا من عبد ومقدما عليه
 فى اللك إلا أن عبدا كان أسهل خلقا وألين عريكة . فتقابل عمرو جيفر وسده كتاب رسول الله قراءه وقرأه أخوه
 وسأله من الإسلام وأسلما وأسلم معهما خلق كثير ووضعت الجزية على من لم يسلم .

نتيجة إرسال الرسل

إلى الملوك والأمراء .

ذكرنا الكتب التى أرسلها رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام بد صلح الحديبية
 وقبل فتح مكة . ولا شك أن فى ذلك قوة عجيبة وشجاعة عظيمة لأن رسول الله وإن كان قد عقد الصلح مع مكة
 لكنه لم يكن قد تم له فتحها ولم يسلم أهلها وهذه الكتب ليس من السهل إرسالها إلى هؤلاء ولا سيا إلى هرمل
 وكسرى والقوقس يدعوهم فيها إلى الإسلام ولو كان غير رسول الله لخشى عاقبة ذلك فإن هؤلاء ملوك أقوياء
 على تخوم بلاده ولكان إرساله الرسل سابقا لأوانه . إلا أن رسول الله لما كان وإتقا من قوة رسالته ونصر الله
 سبحانه وتعالى أقدم على إرسال رسله بقلب ثابت وعزم صادق فكانت النتيجة ما يأتى :

١ - أنه ﷺ تمكن من معرفة سياسة هؤلاء الملوك والأمراء نحوه وميلهم إليه فكانت هذه الكتب

بمثابة جس نبضهم .

٢ - إسلام « باذان » أمير اليمن ومن معه .

٣ - أن القوقس وإن كان لم يسلم إلا أنه أظهر الود بتلقفه مع رسول الله ﷺ وإرساله الهدايا .

٤ - إسلام النجاشى على ما هو مشهور فى كتب التاريخ وإن كان لم يستطع حل شعبة على الإسلام .

٥ - إسلام النذر بن ساوى التميمى صاحب البحرين .

٦ - إسلام ملكى عُمان وإسلام خلق كثير معهما .

فول لا شك أن الإسلام قد ربح بإرسال الرسل إلى هؤلاء الملوك والأمراء . وعلا شأنه وصارت له مكانة

دينية وسياسية بين الدول وذلك قبل فتح مكة .

- ٢٧٨ -

غزوة خيبر^(١)

عمر ستة ٥٧ - أغسطس سنة ٦٢٨ م

خيبر واحة كبيرة على ثمانية برد من المدينة إلى جهة الشام (والبريد اثنا عشر ميلاً عربياً فشكل المسافة كلها ٩٦ ميلاً عربياً) .

وسكان خيبر يهود . وهي ذات حصون ومزارع ونخل كثير ، وكان سكانها غير مجتمعين في صعيد واحد بل كانوا متفرقين في الوديان المجاورة ويقعون بيوتاً حصينة وسط النخيل وتحول القمح . وكانت خيبر مركزاً للسائس اليهود الذين هاجروا إليها .

- حصون خيبر -

حصون خيبر الأساسية ثلاثة . وكل منها مؤلف من عدة حصون وهي كالآتي :

(١) حصون النطاة وهي أربعة : (الناعم - الصب - الكتيبة - بقة) .

(٢) حصون الشق ، اثنان : (حصن أبي - وحصن البري) .

(٣) حصون الكتيبة وهي ثلاثة : (حصن القمص - الوطيح - سلام) .

قال الترمذی . وخيبر موصوفة بكثرة الحلي لا تفارق الحلي أهلها وكان أهلها يهود موصوفين بالمكر والنخب ومنها كان السوأل بن عدياء المشهور بالوفاء .

كان يهود خيبر رجالاً محاربين ولم تعد حصون منيعة وهي سبعة ذكرناها آتفا . وقد كانوا عدا ذلك أهل مكر وخداع ، فأراد رسول الله التخلص من جوارهم كما تتخلص من يهود المدينة الذين لجأ بعضهم إلى خيبر .

وكانت غزوة خيبر سنة سبع من الهجرة (أغسطس سنة ٦٢٨ م) وذلك أن رسول الله ﷺ لما عاد من الحديبية أقام بالمدينة ذا الحجة وبعض الحرم من السنة السابعة وولى تلك الحجة المشركون ثم خرج في بقية الحرم إلى خيبر وكان معه ١٦٠٠ مسلحين تسليحاً حسناً منهم ٢٠٠ فارس ، ويلاحظ أن عدد الفرسان في هذه الغزوة قد ازداد لأنهم لم يكونوا في الغزوات السابقة يماززون الثلاثين وذلك بفضل عناية رسول الله ﷺ بتربية الخيل . وخرج معه من نسائه أم سلمة رضي الله عنها وهي التي كانت خرجت معه إلى الحديبية واستخاف على المدينة سباع بن عرفة الغفاري واستنفر ﷺ من حوله من شهد الحديبية يفترون معه وجاء الخلفاء عنه في غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء النعمة ،

(١) مسمى خيبر بالجنة البعيرة الحصن أو القلعة .

قال لا تخرجوا معي إلا راغبين في الجهاد فأما الغنيمة فلا (لأن الفرض الأساسي هو الجهاد لا الغنيمة)، وكان الله قد وعد رسوله صلى الله عليه وسلم عند انصرافه من الحديبية في سورة الفتح بمغانم كثيرة بقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾.

وفي البخاري عن أنس رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ أتى خيبر ليلا فنام هو وأصحابه دونها، ثم ركبوا إليها بكرة فصبحوها بالقتال» وفي رواية لابن إسحاق أنه ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه قفوا ثم قال: «اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقلن، ورب الشياطين وما أضلن، ورب الرياح وما ذرين، إنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها. ونموذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها أقدموا بسم الله» وسار الجيش أربعة أيام إلى أن وصلوا خيبر.

فلما أصبح خرجت اليهود إلى زروعهم بمساحيهم ومكانتهم. ودفع رايته العقاب إلى الحباب بن النضر، ودفع راية لسط بن عبيدة، ونزل بواد يقال له الرجيع بينهم وبين غطفان ثلثا بدموم، وكانوا حقاكم ومظاهرين لم على رسول الله ﷺ وإن غطفان تجهزوا وقصدوا خيبر، فسموا حسا خلقهم فظنوا أن للسليخ خلفهم في ذواربهم فرجعوا وأقاموا وخذلوا أهل خيبر. وكان أهل خيبر ١٠.٠٠٠ مقاتل.

وكان يهود خيبر أدخلوا أموالهم وعيالم في حصن الكتيبة، وجعلوا القنطرة في حصن النطاة. وكان النبي ﷺ نزل قريبا من حصن النطاة فأشار عليه ﷺ الحباب بن النضر بالتحول قائلا إن أهل النطاة لي بهم معرفة ليس قوم أبعد مدى منهم ولا أعدل رمية منهم وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم ولا تأمن من بياتهم يدخلون في حر النخل^(١) فتحول رسول ﷺ وتحول الناس إلى موضع حائل بين أهل خيبر وغطفان^(٢) وابتقى هناك مسجدا على به طول مقامه بخيبر وأمر بقطع نخيل أهل حصون النطاة فوقع للسليخ في قطعها حتى قطعوا ٤٠٠ نخلة ثم نهام عن القطع، فسا قطع من نخيل خيبر غيرها، وقاتل ﷺ يومه ذلك أشد القتال وعليه درعان وبيضة ومفر وهو على فرس يقال له الظرب في يده قنطرة وترس وفي ذلك اليوم قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة برحى أقيمت عليه من حصن ناعم، ألقاها عليه مرحب اليهودي وكان الحر في ذلك اليوم شديداً ومكث ﷺ سبعة أيام يقاتل أهل حصن النطاة يذهب كل يوم بمحمد بن مسلمة للقتال ويخلف على عمل المسكر عثمان بن عفان رضي الله عنه فإذا أمسى رجع إلى ذلك الحبل ومن جرح من السليخ يحمل إليه ليداوى جرحه. وكان اليهود كماداتهم يجارون أمام الحصون لأنهم يخشون الحرب في الليدان فإذا انهزموا عادوا إلى حصونهم وأغفروها دونهم.

ولما كانت الليلة السادسة أتى رجل من يهود خيبر في جوف الليل إلى النبي ﷺ وأخبره أنه خرج من حصن

(١) أي النخل المجتبع يسه على يمين. (٢) وكانوا ٤٠٠٠ وسيدم عينة بن حصن إلا أن غطفان رجعوا وتركوا أهل خيبر.

النظاة من عند قوم يمشون من الحصن في هذه الليلة ويذهبون إلى حصن الشق يحملون فيه ذرايرهم ويتهاونون للقتال وأخبره أن في حصن الصمص من حصون النظاة ، في بيت فيه تحت الأرض منجنيقاً ودبابات ودروعاً وسيوفاً فإذا دخل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقفه على أسرارِهِ .

.. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تأخذه الشقيقة^(١) في بعض تلك الأيام فبيعت أناساً من أصحابه فلم يكن فتح ومنهم أبو بكر وعمر بن الخطاب .

ثم قال ﷺ لحمد بن مسلمة لأعطين الراية غداً لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله . لا يولى الدبر يفتح الله عز وجل على يديه فيكنه من قاتل أخيك .

وفي القد بئ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى علي رضي الله عنه ، وكان أرمداً شديداً الرمد ، فجئ به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عصب عينيه فمقد له لواءه الأبيض ونقل في عينيه ودلكهما فبرأ حتى كان لم يكن بهما وجع . وقال علي رضي الله عنه فما رمدت بعد يومئذ . ثم دعا النبي صلى الله عليه وسلم لعل رضي الله عنه بقوله : « اللهم اكفه الحر والبرد » قال علي رضي الله عنه فما وجدت بعد ذلك لا حرّاً ولا برداً . فكان يلبس في الحر الشديد الثياب الخشوة الثخين ويلبس في البرد الشديد الثوب الخفيف فلا يبالي بالبرد .

فلما أخذ علي الراية قال : أقاتلهم حتى يكونوا مثلتنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اغد على رسلك حتى تنزل بلحمتهم ثم ادعهم إلى الإسلام . فإن لم يطيعوا لك بذلك قاتلهم فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم .

فخرج علي رضي الله عنه حتى ركز الراية تحت الحصن ثم خرج إليه أهل الحصن ، وكان أول من خرج إليه منهم الحارث أخو مرحب وكان مشهوراً بالشجاعة قتلته علي وأنزله اليهود إلى الحصن (وهو حصن ناعم) ثم خرج إليه مرحب لابساً درعين ومقتلاً سيفين ومعاً بمماتين ، وليس فوقهما مغنراً وحجراً قد تقبه قدر البيضة ، ومعه رمح فبرز له علي رضي الله عنه ، ثم حمل مرحب على علي وضربه فطرح ترسه من يده فتناول علي رضي الله عنه باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه الحصن ثم إن علياً ضرب مرحباً ففترس فوق السيف على الترس فصدته وشق للفرس والحجر الذي تحته والعمامتين وفاق هامته حتى أخذ السيف بالأضراس .

وقيل إن محمد بن مسلمة هو الذي قتل مرحباً اليهودي انتقاماً لأخيه محمود ، والصحيح الذي عليه أكثر أهل السير والحديث أن علي بن أبي طالب هو الذي قتل مرحباً .

ثم خرج ياسر أخو مرحب يطلب البراز وكان أيضاً من مشاهير فرسان اليهود وشجعانهم فخرج إليه الزبير

(١) وجع يأخذ نصف الوجه والرأس .

رضى الله عنه وقتله ، وعند ذلك قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « فذاك عم وخال ، لكل نبي حوارى » وحوارى الزبير^(١) .

وكان أول حصن فتحه المسلمون هو حصن الناعم من حصون النطاة على يد علي رضي الله عنه ، ثم القموص . ولم يزل القتال ناشباً بين المسلمين واليهود ، وللمسلمون يفتحون حصونهم حصناً بعد حصن حتى أنهم فتحوها جميعاً .

وقتل من اليهود ٩٣ واستشهد من المسلمين ١٥ رجلاً^(٢) وأخذ رسول الله ﷺ كنز آل أبي الحقيق وكان من بنى النضير الذى حمله حبي بن أحطب لما أجلي عن المدينة ، وأمر رسول الله بقتل كنانة وأخيه الربيع لأنهما أخفيا مال حبي وقد علم رسول الله بمكان المال وأتى إليه به وقوم بمشرة آلاف دينار ، ووجد في الكنز أساور ودماج وخلائل وأقراط وخواتم عقود الجوهر والزمرد وعقود أظفار مجزع بالذهب ، وأصاب المسلمين جماعة قبل فتح الحصون ، فلما فتح حصن الصعب ، وكان أكثر الحصون طعاماً ، فيه شعير وتمر وودك أى سمن وزيت وشحم ومتاع وماشية وكان به ٥٠٠ مقاتل أمر النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين أن يأكلوا ويلبثوا ولا يخرجوا به إلى بلادهم ، وكان صاحب الغنائم أبا اليسر كعب بن زائد الأنصارى .

فتحت الحصون كلها عنوة إلا حصن الوطيح وحصن سلالم فقد مكث للمسلمون على حصارها أربعة عشر يوماً فلم يخرج أحد منهم فهم رسول الله أن يعمل عليهم وأن ينصب عليهم المنجنيق فلما أيقنوا بالهزيمة سألوا رسول الله الصلح على حقن دماء المقاتلة وترك القرية والخروج من خيبر وأرضها بذراريهم وألا يصحب أحد منهم إلا ثوباً واحداً فصالحهم على ذلك وعلى أن ذمة الله تعالى ورسوله بريئة منهم إن كتموه شيئاً . فتركوا ما لهم من أرض ومال وصغراء وبيضاء والكرعاء والحلقة والابز إلا ثوباً واحداً . ووجد للمسلمون في الحصنين للذكور ١٠٠ درع و ٤٠٠ سيف و ١٠٠٠ رمح و ٥٠٠ قوس عربية بجماها ووجدوا في أثناء الغنمية صحاف متعددة من التوراة فجاءت يهود تطلبها فأمر رسول الله ﷺ بدفعها إليهم وبهذه المناسبة نذكر ما كتبه الأستاذ ولفنسون في كتابه تاريخ اليهود ببلاد العرب صفحة ١٧٠ :

« ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان ويحفظونه له هذه اليد حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ ب م إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم وما فعله التصعبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة . هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين من ذكرناهم وبين رسول الإسلام » ٨١ .

(١) الحواري : الخامس . (٢) عدد قتل المسلمين في طبقات ابن سعد ١٥ وفي سيرة ابن هشام ٢٠ .

ونضيف إلى ذلك أن هذه ليست أول مرة تسامح فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك فيها صحائف اليهود للقدسة ولم يتعرض لها بسوء ولم يحرقها مع شدة عدائهم له فقد سمح لهم قبل ذلك بأخذ صحفهم للقدسة للشتمة على وصية موسى لبني إسرائيل عند إجلائهم من المدينة في غزوة بني النضير كما تقدم .

ثم جمع رسول الله ﷺ السي فكان من نصيب دحية بن خليفة الكلبي صفية بنت حيي وكانت امرأة حسنة فتنافس الناس فيها فجاء رجل إلى النبي ﷺ وقال يا نبي الله أعطيت دحية صفية سيدة بني قريظة والنضير لا تصلح إلا لك . فقال ادعوه بها فلما نظر إليها النبي ﷺ قال لدحية خذ جارية من السي غيرها فأخذ أخت كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق زوج صفية وكانت صفية بنت حيي من سبط هارون أخى موسى عليهما السلام فاصطفاه لنفسه وجعلها عند أم سليم التي هي أم أنس خادمه ﷺ حتى اهتدت وأسلت وكانت غاية في الجمال ثم أعفها وتزوج بها وجعل عشقها صداقها وكان اسمها زينب فسمها رسول الله ﷺ (صفية) وكان عمرها ١٧ عاماً . وفي اللوالب أنه ﷺ أخذ صفية لأنها بنت ملك من ملوكهم .

وفي هذه التزوة سميت اليهودية الشاة للنبي ﷺ وأهدتها إليه ، واسمها زينب بنت الحارث امرأة سلام ابن مشكم وأخت مرحب ابنتاً تقتل أيها وزوجها وأخيها .

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما فتحت خيبر وأطمأن ﷺ بعد فتحها أهديت للنبي صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم فلاك منها مضغة ثم لفظها حين أخبره العظم أنها مسمومة وازدرد بشر بن البراء قنعة فقال ﷺ ارضوا أيديكم ، وأرسل إلى اليهودية فقال هل سممت هذه الشاة ؟ قالت من أخبرك ؟ قال أخبرني هذه التي في يدي مشيراً للذراع . قالت نعم . قال لها ما حلك على ذلك ؟ قالت إن كنت نبياً يملكك الله وإن كنت كاذباً فأرجم الناس منك . وقد استبان لي أنك صادق وأنا أشهدك ومن حضرك أفي على دينك وأن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ففأعفا ﷺ ولم يعاقبها^(١) وتوفي من أصحابه الذين أكلوا معه بشر بن البراء رضي الله عنه واحتجهم رسول الله ﷺ على كاهل من أجل الذي أكل من الشاة .

وبعد فتح خيبر قدم من الحبشة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ومن معه من المسلمين وهم ستة عشر رجلاً فتلقى النبي ﷺ جعفرًا وقبّل جبهته وعاشقه وقام له ثم قال . « ما أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدم جعفر » وقال ﷺ لجعفر رضي الله عنه « أشبهت خلقي وخلقى » فرقص جعفر رضي الله عنه لسروره بهذا الخطاب ولقرط ما أصابه من الفرح لم ينكر عليه ﷺ رقصه ، وجعل ذلك أصلاً لرقص الصوفية عندما يمدون من لذة اللواجيد

(١) اختلف العلماء هل قتلتها النبي صلى الله عليه وسلم أولاً ؟ قال القاضي عياض : إنه لم يقتلها أولاً حين اطلع على فعلها ، وقيل له اقتلها ، فقال لا . فلما مات بعمر بن البراء من سلبها لأوليائه فقتلوا ما قصاصاً . فالنحو عنها كان قبل أن يموت بعمر .

في مجالس الذكور والجمعاء . وقدم من الحبشة أبو موسى الأشعري وأخواه أبو رهم وأبو بردة وجماعة من قومه فأسهم لهم ولم يسهم لأحد غلب عن فتح خيبر منها شيئاً إلا أن شهدا معه .

وقد قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائم خيبر فأعطى الراجل سهماً والفرس ثلاثة أسهم بيد أن خسمها خمسة أجزاء ثم دفع ﷺ لأهل خيبر الأرض ليعملوا فيها يشطروا ما يخرج منها من ثمر أو زرع وقال لهم إنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم . ثم استمروا على ذلك إلى خلافة عمر رضي الله عنه إلى أن وقعت منهم خيانة وغدر ببعض المسلمين فأجلاهم إلى الشام بعد أن استشار في ذلك الصحابة رضى الله عنهم .

ولما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر فكان ببعض الطريق فلما كان آخر الليل قال : هل من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام ؟ قال بلال أنا يا رسول الله أحفظه عليك فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل الناس فناموا وقام بلال يصلي ماشاء الله أن يصلي ثم استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمقه فلبثت عينه فنام فلم يوقظهم إلا مس الشمس وكان رسول الله ﷺ أول أصحابه هباً . قال ماذا صنعت بنا يا بلال ؟ قال يا رسول الله أخذ بنفسى الذى أخذ بنفسك . قال صدقت ، ثم اقتاد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعيره غير كثير ثم أتاه فوضاً وتوضاً الناس ثم أمر بلالاً فأقام الصلاة فصرى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس فلما سلم أقبل على الناس فقال : إذا نسيت الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها فإن الله تبارك وتعالى يقول : « وأقم الصلاة لذكري » . وكان فتح خيبر في صفر .

تحريم لحوم الجوارح الأهلية^(١)

نهى رسول الله ﷺ في خيبر عن أكل لحوم الجوارح الأهلية فإنهم أصابهم جوع فوجدوا ثلاثين حماراً خرجت من بعض الحصون فأخذها رهط من المسلمين وذبحوها وجعلوا لحومها في القدور والبرام وجعلوا يطبخونها للأكل ففر بهم النبي ﷺ فسألم عما في القدور والبرام . قالوا لحوم الجوارح الأهلية أى الخفاطة للإنس فهام ﷺ عن أكلها حتى إن القدور أكتفت وهى تفور وروى البخارى مثل ذلك وأمرهم بنسل القدور .

إصابة الصحابة بالحصى

في خيبر

لما قدم رسول الله ﷺ خيبر ، كان التمر أخضر فأكثر الصحابة من أكله . فأصابهم الحصى . فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ . قال بردوا لها الماء في الشنان (أى القرب) ثم صبوا عليكم منه بين أذانى الفجر واذكروا اسم الله عليه ، ففعلوا فذهبت عنهم الحصى .

(١) الجوارح بضم الجيم : جمع حمار .

هنا ماصاب الصحابة من أكل التمر الأخضر . وفي مصر يباع التمر الأخضر قبل نضج البلح فيمضض
آكلوه بالحلى ولا سيما الأطفال فيجب على الحكومة تحريم بيعه بتاتا قبل نضجه فإنه عسر الهضم

صلح أهل فدك

فدك بلدة يهودية بالقرب من خيبر - لا علم أهلها بالهزيم خيبر خافوا فيمشوا إلى رسول الله ﷺ يصلحونه
على النصف من فدك قدمت عليه رسلم قبل ذلك منهم فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة لأنه لم يوجف
عليها بجمل ولا ركاب يصرف ما يأتيه منها على أبناء السبيل فكان ينفق منها ويمود منها على صغير بني هاشم وزوج
منها إيمانهم . ولما مات رسول الله ﷺ وولي أبو بكر الخلافة ، سأله فاطمة رضى الله عنها أن يجعلها أو نصفها لها فأبى
وروى لها أنه ﷺ قال : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة » أى على المسلمين .

غزوة وادى القرى

وادى القرى ، وادى بين الشام واللدنية وهو بين تياء وخيبر ، فيه قرى كثيرة وبها سعى « وادى القرى »
نزلها اليهود وزرعوها .

لما انصرف رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم من خيبر نزل وادى القرى أصيلا مع القروب وأهله يهود فدعاهم
إلى الإسلام فامتنعوا لحاصرهم ﷺ أربعة أيام وهيا أصحابه للقتال قتل منهم أحد عشر رجلا وفتحها رسول الله ﷺ
وغنمه الله أموالهم وأصاب المسلمون أغانا ومتاعا كثيرا وقسم رسول الله ﷺ ما أصابه على أصحابه وترك الأرض والنخل
بأيدي اليهود وعلمهم عليها وولاهم عمرو بن سميد بن العاص وصالحه أهل تياء على الجزية لما بلغهم فتح وادى القرى
وولاهم يزيد بن أبى سفيان . وكان إسلامه يوم فتحها . وتياء بلدة معروفة بين المدينة والشام على سبع مراحل
من المدينة ثم رجع إلى المدينة بعد أن بسط نفوذه على القبائل اليهودية شمالى المدينة .

قال مسر موير : إن غزوة وادى القرى كانت فى جمادى الثانية سنة سبع (سبتمبر سنة ٦٢٨م) لأنه أخرج الزحف
على خيبر بشهر جمادى الأولى (أغسطس سنة ٦٢٨ م) .

ويجمل بعضهم غزوة خيبر وغزوة وادى القرى غزوة واحدة لأنه لم يرجع من خيبر .

خمس سرايا

في خريف وشتاء السنة السابعة الهجرية

(سنة ٦٢٨ م)

بعد عودة رسول الله ﷺ من خيبر قضى بقية الخريف والشتاء في المدينة وفي هذه الأثناء بث خمس سرايا منها ثلاث في شهر شعبان :

١ - سرية عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومعه ثلاثون رجلاً إلى قبيلة بني هوازن بمكة تربة ، دار بقرب مكة فلما علموا بمجيئهم هربوا فانصرف راجعاً إلى المدينة .

٢ - سرية أبي بكر الصديق رضى الله عنه إلى بني كلاب ، قبيلة بنجد فسبى منهم جماعة وقتل آخرين .

٣ - سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بفدك ومعه ثلاثون رجلاً . فلما وصلوا إلى محل القوم لقوا رعاء الشاء فاستباق بشير النعم والشاء وانحدر إلى المدينة ثم أدركه العدد الكثير من بني مرة عند الليل فباتوا يرمونه بالنبل حتى فئيت نبل أصحابه فأصيبوا وولى من ولى وجرح بشير وعاد إلى المدينة بصعوبة .

٤ - وفي رمضان كانت سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى أهل المنعة بناحية نجد على ثمانية برد من المدينة في مائة وثلاثين رجلاً فهجموا عليهم في وسط محالم وقتلوا كثيراً منهم واستلقوا نساء إلى المدينة وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد رجلاً يقال له نهيك بن مرداس الأسلمي وفي رواية أن اسمه مرداس بن نهيك بدأ أن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله . قال رسول الله ﷺ : يا أسامة من لك بلا إله إلا الله قال يا رسول الله إنما قاله لثقتاً من القتل . قال : (هل شقت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟) قال أسامة لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إله إلا الله .

٥ - وفي شوال أرسل بشير بن سعد أيضاً إلى يمن وجناب وهي أرض لنظفان ومعه ثلاثمائة رجل لجمع تجمعا بأرض غطفان وأعدم عينة بن حصن للإغارة على المدينة فلما بلغهم مسير بشير هربوا وأصاب لهم نساء كثيرة فغنمها . قال الواقدي وفي هذه السنة (السابعة) رد رسول الله ﷺ زينب ابنته على أبي المصعب بن الربيع وذلك في الحرم (أسر أبو المصعب يوم بدر فنزل عليه رسول الله ﷺ بلا فداء بسبب زوجته زينب بنت رسول الله ﷺ) ورد عليه رسول الله ﷺ زينب بنسكاح جديد وقيل بالنسكاح الأول وأسلم قبيل فتح مكة .

قال وفيها قدم حاطب بن أبي بلتعة من القوقس ببارية وأختها سيرة وبنته دهل وحماره ينفور وكساء وبث معها بضعى فكان معها . وفي هذه السنة اتخذ النبي ﷺ منبره الذي كان يخطب الناس عليه واتخذ له درجتين ومعدلاً . وفي الطبري أنه عمل سنة ثمان .

عمرة القضاء^(١) (أو عمرة القضية)

ذو القعدة سنة ٥٧ هـ - فبراير سنة ٦٢٩ م

قد اختلف في سبب تسمية هذه العمرة عمرة القضاء . فقال مالك والشافعي والجمهور لأنه قاضى قريناً سنة الحديبية فالمراد بالقضاء الفصل الذي وقع عليه الحكم لأنها قضاء عن العمرة التي صد عنها لأنها لم تكن فسدت حتى يجب قضاؤها بل كانت عمرة تامة . وقال أبو حنيفة وأحمد إن من صد عن البيت فعليه القضاء قسميتها قضاء على هذا ظاهراً (وهذه العمرة ليست من الفزوات) .

لما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة من خير أقالم بها شهري ربيع ومجدي . ورجب . وشعبان . وشوال . ثم خرج في ذي القعدة في السنة السابعة (فبراير سنة ٦٢٩ م) في الشهر الذي صد فيه للشركون بالحديبية معتمر أعمرة القضاء مكان عمرته التي صد عنها واستعمل على المدينة عوف بن الأصبط الديلي ويقال لها عمرة القصاص لأنهم صدوا رسول الله ﷺ في ذي القعدة في الشهر الحرام من سنة ست فاقص رسول الله ﷺ منهم وأمر ألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية وخرج معهم غيرهم أيضاً فكانوا ألفين سوى النساء والصبيان وساقمهم ﷺ ستين بدنة وحمل السلاح والدروع والرمح وقاد مائة فارس خوفاً من غدر أهل مكة فلما سمع به أهل مكة خرجوا عنه وتحدثت قریش بينها أن محمداً وأصحابه في عسر وجهد وشدة فصفوا له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه . فلما دخل رسول الله ﷺ اضطلع بردائه وأخرج عضده اليمنى^(٢) ثم قال رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ثم استلم الركن وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه حتى إذا واره البيت منهم واستلم الركن النجاشي مشى حتى يستلم الركن الأسود ثم هرول كذلك ثلاثة أطواف ولللسون يطوفون معه . وكان بين يديه لما دخل مكة عبد الله بن رواحة أخذاً بخنطام ناقته . وكان للشركون على جبل قبعان ثم سعى رسول الله ﷺ بين الصفا والمروة على راحلته وبعد فراغه نحر هديه عند المروة وحلق رأسه هناك ثم أمر مائتين من أصحابه أن يذهبوا إلى أصحابه يبعثون بأجيج (موضع على ثمانية أميال من مكة) يقيمون على السلاح ويأتى الآخرون ليقضوا نسكهم فقاموا وأقام ﷺ بمكة

(١) معنى العمرة في العمل : الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة فقط ، والقرن بين الحج والعمرة ، أن العمرة تكون للانسان في السنة كلها والحج وقت واحد في السنة . ولا يجوز أن يحرم به إلا في أشهر الحج ، حوال وذو القعدة . وعشر في ذي الحجة . وتقام العمرة أن يطوف بالبيت ويبس بين الصفا والمروة ، والحج لا يكون إلا مع الوقوف برفة في يوم عرفة . والعمرة مأخوذة من الاعتار وهو الزيادة .

(٢) الاضطباع الذي يؤمر به طائفت البيت أن يدخل الرداء تحت إبطه الأيمن ويرد طرفه على يباره ويبدى مكبة الأيمن ويغطي الأيسر . سمي بذلك لإبداء أحد الضعفين .

ثم لما كما شرطه قريش في الهدنة فلما كان الظهر من اليوم الرابع جاءه سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى قالا : نشدك العهد إلا ما خرجت من أرضنا فرد عليهما سعد بن عبادَةَ رضى الله عنه فأسكتته صلى الله عليه وسلم وأذن بالرحيل .

جاء في البخارى من حديث البراء فلما دخلها^(١) ومضى الأجل^(٢) أتوا علياً رضى الله عنه فقالوا قل لصاحبك اخرج عنا فقد مضى الأجل فنرح رسول الله ﷺ .

زواج رسول الله ﷺ

بميونة رضى الله عنها

تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ميونة بنت الحارث الهلالية سنة سبع في حمرة القضاء وكان اسمها برة فسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ميونة وهي أخت أم الفضل زوج العباس رضى الله عنها وأخت أسماء بنت حميس لأمها زوج حمزة رضى الله عنه . وكان الذى زوجها إياها العباس بن عبد المطلب وأصدقها عنه صلى الله عليه وسلم أربع مائة دينار وأراد صلى الله عليه وسلم أن يبنى بها في مكة فلم يمهله يبنى بها وقال لم ما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم فصنعت لكم طعاماً ؟ فقالوا لا حاجة لنا في طعامك اخرج عنا من أرضنا . هذه الثلاثة قد مضت فخرج فبنى بها بسرف قرب مكة . ولقيت ميونة رضى الله عنها من سفهاء مكة عشاء ، فن أبى رافع رضى الله عنه لقينا عشاء من أهل مكة من سفهاء المشركين من أذى ألسنتهم للنبي ﷺ ولميونة . قلت لم : ما شئتم ، هذه والله الخليل والسلاح ببطن يأجج وأنتم تريدون شق الصف واللمة فولوا راجعين منكسين ، وميونة هي آخر امزأة تزوجها رسول الله ﷺ وآخر من توفي من أزواجه ، قال ليرفع في كتابه حياة محمد « إن النبي لم يتزوج بميونة بنت الحارث إلا سياسة يريد بها استمالة رجلين قويين لأن ميونة كانت أرملة مسنة تبلغ من العمر إحدى وخمسين سنة وهذان الرجلان هما خالد بن الوليد ابن أخت ميونة وهو البطل المشهور الذى حارب محمداً صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد ولما أسلم سمي سيف الله وجديقه عمرو بن العاص » .

وهذا ما قلناه في سبب تمدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فإن خالد بن الوليد أسلم بعد زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بخاتمة ميونة بقليل وأسلم معه في يوم واحد عمرو بن العاص . وميونة رضى الله عنها آخر زوجاته صلى الله عليه وسلم .

(١) مكي مكة . (٢) الأيام الثلاثة .

ما قبل سرية مؤتة من الحوادث

في خلال الصيف أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة سرايا قبل غزوة مؤتة وهي :

١ - سرية الأخرم : في ذي الحجة سنة سبع (إبريل سنة ٦٢٩ م) في خمسين رجلا إلى بني سليم . خرج الأخرم يدعوهم إلى الإسلام فملحوا بوجهه فأمطروا المسلمين وابلا من النبل وأحاطوا بهم من كل ناحية حتى قتل عامتهم وجرح أميرهم ثم تعامل حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في أول صفر .

٢ - سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني اللوح بالكديد^(١) في صفر سنة ثمان (يونية سنة ٦٢٩ م) خرج المسلمون حتى إذا كانوا بقديد لقوا الحارث بن مالك الليثي المعروف بابن البرصاء وهي أمه فأخذوه . فقال إنه جاء يريد الإسلام ولكنهم أوثقوه وخلفوه عليه رجلا وشنوا عليهم الفارة واستاقوا النعم وحملوا ابن البرصاء وعادوا إلى المدينة وأسلم ابن البرصاء وتوفي آخر خلافة معاوية رضى الله عنه وله حديث واحد وهو قوله سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الفتح « لا تغزى مكة بعد اليوم إلى يوم القيامة » .

٣ - سرية أخرى لغالب بن عبد الله الليثي : لما رجع غالب بن عبد الله الليثي من سرية الأولى بعثه رسول الله ﷺ إلى موضع مصاب أصحاب بشير بن سعد بفلك (وقد تقدم ذكر سرية بشير التي جرح فيها) ومعه ٢٠٠ رجل وذلك في شهر صفر سنة ثمان . وقد نجحت هذه السرية نجاحاً تاماً فقد قاتل المسلمون ساعة ووضعا السيف وقتلوا منهم قتلى وأصابوا منهم نساء وذرية فساقوها وعادوا إلى المدينة .

٤ - سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى جمع من هوازن يقال لهم بنو عامر بالسبي^(٢) في شهر ربيع الأول سنة ثمان (يولية سنة ٦٢٩ م) ومعه أربعة وعشرون رجلاً فأصابوا نساء كثيرة ونساء واستاقوا ذلك حتى قدموا للمدينة وكانت غيبتهم خمس عشرة ليلة .

٥ - سرية كعب بن عمر الغفاري إلى ذات أطلاح من أرض الشام وراء ذات القرى في ربيع الأول سنة ثمان في خمسة عشر رجلاً فوجدوا جمعا كثيرا فاجأوا على الخليل فدعاهم المسلمون إلى الإسلام فلم يستجيبوا لهم ورشقوهم بالنبل قاتلهم الصحابة أشد القتال حتى قتلوا ولم ينج من غير رجل جريح في القتل . قال ابن سعد : هو الأمير . فلما برد عليه الليل تعامل حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر فشق عليه ذلك وهم بالبحث عليهم لكن بلغه أنهم ساروا إلى موضع آخر فتركهم .

(١) ماء بين عصفان ولديد . (٢) ماء من ذلت عرف على ثلاثة مراحل من مكة .

- ٢٨٩ -

إسلام عمرو بن العاص

سنة ٨ هـ (سنة ٦٢٩ - ٦٣٠ م)

عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هيصم بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي السهمي يكنى أبا عبد الله وقيل أبا محمد؛ وأمه النابتة بنت حرملة، سبية من بني جلدان بن عتيك بن أسلم ابن يذكر بن عترة وأخوه لأمه عمرو بن أئانة المدوي وعقبة بن نافع بن عبد قيس النهري.

سأل رجل عمرو بن العاص عن أمه قتال سلى بنت حرملة تلقب النابتة من بني عترة أصابتها رماح العرب فبيعت بمكاظ فاشتراها الفاكه بن المغيرة ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت له فأنجبت فإن كان جبل لك شيء نغذه. وهو الذي أرسلته قريش إلى النجاشي يسلم إليهم من عنده من المسلمين، جعفر بن أبي طالب ومن معه فلم يفعل وقال له يا عمرو كيف يهرب عنك أمر. ابن عمك فوالله إنه لرسول الله حقاً. قال أنت تقول ذلك؟ إني والله فأطعني: فخرج من عنده مهاجراً إلى النبي ﷺ فأسلم عام خير وقيل أسلم عند النجاشي وهاجر إلى النبي ﷺ وقيل كان إسلامه في صفر سنة ثمان قبل الفتح بستة أشهر وكان قد همّ بالانصراف إلى النبي ﷺ من عند النجاشي ثم توقف إلى هذا الوقت وقدم على النبي ﷺ هو وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة العبدي فتقدم خالد وأسلم وبايع ثم تقدم عمرو فأسلم وبايع على أن يفتروا ما كان قبله فقال له رسول الله ﷺ: الإسلام والهجرة يجبان ما قبلهما^(١).

وحدث عمرو بن العاص رضى الله عنه عن سبب إسلامه كما رواه ابن إسحاق وغيره. قال عمرو لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جئت رجلاً من قريش كانوا يرون رأبي ويسمعون مني فقلت لم تعلمون والله أني أرى أمر محمد يصلو الأمور علواً منكراً وإني قد رأيت أمراً فأترون فيه؟ قالوا وماذا رأيت؟ قال رأيت أن تلحق بالنجاشي فنكون عنده فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإننا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد وإن ظهر قومنا فتحن من قد عرفوا فلن يأيتنا منهم إلا خير. قالوا: إن هذا الرأي قلت فاجمعوا لنا ما نهدي له وكان أحب ما يهدي إليه من أرضنا الأدم فجئنا له أدماً كثيراً ثم خرجنا حتى قدمنا عليه فوالله إنا لندعه إذ جاءه عمرو بن أمية الضمري وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابي هذا عمرو بن أمية الضمري لو قد دخلت على النجاشي لسأله إياه فأعطانيه فضربت عنقه، فلذا قلت ذلك رأيت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد فدخلت عليه فوجدت له كما كنت أصنع فقال مرحباً بصديق. أهديت إلى من بلادك شيئاً؟ قلت له نعم أيها الملك قد أهديت إليك أدماً كثيراً،

(١) يجبان: أي يشان ويحويان ما قبلهما من الكفر والمعاصي والتدبوت.

ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه ثم قتل له إني قد رأيت رجلاً خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا فأعطينيه لأخيه فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا ، فنضرب ثم مديده فضرب بها أفضه ضربة ظننت أنه قد كسره فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقا منه ثم قات له أيها الذلّك والله لو ظننت أنك تكبره هذا ماسأ نفسك . قال أنساني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى عليه السلام لتقتله؟ قلت أيها الذلّك أكذا هو؟ قال ويحك يا عمرو ألعني واتبعه فإنه والله ليلى الحق وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده. قلت أفتبايعني له على الإسلام؟ قال نعم فبسط يده فبايعته على الإسلام ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه وكتمت أصحابي إسلامي ثم خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ فالتقيت خالد بن الوليد وذلك قبيل فتح مكة وهو مقبل من مكة قتل له أين بأبا سايان؟ قال والله لقد استقام لليسم وإن الرجل لنبيّ أذهب والله فأسلم. ففتحي متى؟ قتلت والله ماجئت إلا لأسلم . فقدمنا للدبنة على رسول الله ﷺ فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع ثم دنوت فقلت يا رسول الله إني أبايعك على أن ينفر لي ما تقدم من ذنبي ولا أذكر ما تأخر ، فقال رسول الله ﷺ يا عمرو بايع فإن الإسلام يجب ما كان قبله وإن الهجرة تجب ما كان قبلها فبايعته ثم انصرفت ^(١) .

روى الزبير بن بكار أن رجلاً قال لعمر بن العاص رضى الله عنه مأبطاً بك عن الإسلام وأنت أنت فى عتلك؟ قال كنا مع قوم لم علينا تقدم وكانوا ممن توازى أحلامهم الجبال فلذنا بهم فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا وتدبرنا فإذا حتى نين فوق الموقع الإسلام فى قلبى .

وفى إسلام عمرو على يد النجاشي لطيفة هي أن صحابياً أسلم على يد تايبيّ ولا يعرف مثله .

وقد كان عمرو بن العاص رجلاً سياسياً حريصاً وقد ثلثنا قوله من فيه عن ذهابه إلى الحبشة وسبب إسلامه ومنه يبين أنه فكر طويلاً فى انتشار الإسلام وفى مركزه فرأى أخيراً أن خير ما يخلص به من حرج مركزه هو أن يهاجر إلى الحبشة مؤمناً من قبل قريش بقصد قتل عمرو بن أمية الضمري فلما منه أن النجاشي سيبله بإياه تقدم له الهدايا ترفاً إليه واعتمد على صداقة ذلك له . وبذلك يكون قد خدم قريشاً من جهة وأقام بالحبشة بعيداً عن النضال بين رسول الله وقريش حتى إذا انتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتح مكة كان هو آمناً بالحبشة لئلا يكتن النجاشي لم يسله عمرو بن أمية الضمري ولا غيره من المسلمين وغضب عليه وفوق ذلك عرض عليه الإسلام فلم ير بداً من مبايعة النجاشي على الإسلام لأنه رأى أن النجاشي نفسه قد أسلم اعتقاداً منه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأنه سيظهر على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده وفى قول عمرو دليل واضح على إسلام النجاشي .

وكان إسلام عمرو قبل الفتح فى السنة الثامنة من الهجرة (سنة ٦٢٩ - ٦٣٠ م) وكان يبلغ من العمر إذ ذاك

(١) راجع سيرة ابن هشام .

نحو اثنتين وأربعين سنة وقد اكتسب الإسلام بإسلامه وروايتي بن الوليد فائدين عظيمين وبطلين كبيرين فاما بدور مهم في تاريخ الفتح الإسلامي ونشر الدعوة وإعزاز الدين .

وقد روت أم سلمة زوج رسول الله ﷺ وكانت من المهاجرات إلى الحبشة تفاصيل ذات شأن عن إقامة المسلمين بها وإيفاد قريش لعبد الله بن ربيعة بن النيرة الخزومي وعمر بن العاص والتدبير التي درها عمرو والمناقشة التي حصلت بحضرة النجاشي وحضور البطارقة والقتال الذي نشب بينه وبين من نازعه بسبب اعترافه بضعة المبادئ الإسلامية مما يذكره عمرو بن العاص وهذه روايتها رضى الله عنها :

قالت : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي أمنا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسقم شيئاً نكرهه . فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدبن وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرون من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم فجعلوا أدماً كثيراً ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهذوا له هدية ثم بعثوا بذلك مع عبد الله بن ربيعة بن النيرة الخزومي وعمر بن العاص بن وائل السهمي وأمروهما أمرهم وقالوا لهما ادخلا إلى كل بطريق هديته قبل أن تسكنا النجاشي فيهم ثم قدما إلى النجاشي هداياه ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم . قالت فخرجا قدما على النجاشي ونحن عنده بجبر دار وعند خير جار . فلم يبق من بطارقته بطريق إلا هداه إليه هديته قبل أن يسكنا النجاشي ثم قال لكل بطريق منهم إنه قد صبا إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فاروقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم . وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم . فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم فإن قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهما نعم . ثم إنهما قربا هداياهما إلى النجاشي قبلها منهما . ثم كلماه فقالا له : أيها الملك إنه صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء فاروقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائهم لتردهم إليهم فهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبهم فيه . ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمر بن العاص من أن يسمع النجاشي كلامهم . قالت بطارقته حوله : صدقوا أيها الملك ، قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فأليردهم إلى بلادهم وقومهم . فغضب النجاشي ثم قال لهما الله اسم الله إذا لا أسلمهم إليهما ولا أكاد قوماً جاوروني وزلوا بلادى واخاروني على من سواى حتى أَدْعُوهم فأَسْأَلُهم ما يقول هذان في أمرهم فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني . ثم أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فقدم فلما جامع رسول الله ﷺ اجتماعاً ثم قال بعضهم لبعض ما تقولون للرجل إذا جئتموه ؟ قالوا قول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا ﷺ كائن في ذلك ما هو كائن . فلما جاءوه وقد دعا النجاشي أساقفته تنشروا مصاحفهم حوله أسلمهم فقال : ما علمنا الدين الذي فارقم فيه قومكم ولم تدخلوا في دين أحد من هذه الأمم ؟

فكان الذي كله جعفر بن أبي طالب فقال له :

« أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نبد الأضنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش وقطع الأرحام ونسبي الجوار ، يأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نمبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فصدقناهم وأمانا به واتبعناهم على ما جاء به فعبدا الله وحده فلم نشرك به شيئا وحرمنا ما حرم علينا وأحلنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فذبونا وقتلونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله وأن نستحل من الخبائث ما كنا نستحل ، فلما قهرونا وظلمونا وشقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلدك واختارناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيها الملك ، فقال له النجاشي : هل مئكت مما جاء به الله من شيء ؟ فقال له جعفر . . نعم فقال له النجاشي : فأقرأه علي ، قرأ عليه صدرا من (كهيعص) فيكي والله النجاشي حتى أخضل لحيتي وبكت أساقفتي حتى أخضروا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ثم قال النجاشي : إن هذا والله والذي جاء به عيسى ليخرجنا من مشكاة واحدة . انطلقنا فوالله لا أسلمهم إليك أبدا ولا أكاد ، قالت أم سلمة : فلما خرجنا من عنده قال عمرو بن الماص والله لأبئنه غدا ببيهم عندهم ثم استأصل به خضراهم . قالت : فقال له عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجليين فينا لا تفعل فإن لم أرحمك وإن كانوا قد خالفونا . قال والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد الله . ثم غدا عليه الغد فقال له أيها الملك إنهم يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيما ، فأرسل إليهم فأسألمهم عما يقولون فيه . فأرسل إليهم بأسألم عنه . قالت ولم ينزل بنا مثله فاجتمع القوم فقال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه ؟ قالوا : قول والله فيه ما قال الله وما جاء به نبينا كائننا في ذلك ما هو كائن . فلما دخلوا عليه ، قال لهم ما تقولون في عيسى ابن مريم ؟ فقال له جعفر بن أبي طالب : قول فيه الذي جاء به نبينا : « هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول » فغضب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عودا ، ثم قال ماعدا عيسى بن مريم ما قلت هذا الود . فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال فقال وإن نحرتم والله اذهبوا فأنتم سيوم^(١) بأرضي من سيكم غرم ثم من سيكم غرم . فما أحب أن لي دبرا^(٢) ذهبيا وأنى آذيت رجلا منكم . ردوا عليها هذا يوم فلا حاجة لنا بها فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه يوما أطلع الناس في فأطيعهم فيه . قالت فخرجنا من عنده مقبحين مردودا عليهما ما جاء به وأقننا عنده بخير دار مع خير جار . قالت فوالله إنا

(١) السيوم : الآمون . (٢) الدبر بلسان المجبة : الجبل .

على ذلك إذ نزل به ينهى من ينزاعه في ملكه . قالت فوالله ما علمنا حزناً قط كان أشد من حزن حزنا مذك ذلك
تخوفاً أن يظهر ذلك على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرفه ، وسار النجاشي وبينها
عرض النيل . قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : من رجل يخرج حتى يحضر وقعة القوم ثم يأتيها بالهجر؟
قال الزبير بن العوام أنا وكان أحدث القوم سناً فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثم سبى عليها حتى خرج إلى ناحية
النيل التي بها ملتقى القوم ثم انطلق حتى حضرم ، قالت ودعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له
في بلاده واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهو بمكة^(١) .

هاتان روايتان عن ذهاب عمرو بن العاص إلى الحبشة وما جرى بينه وبين النجاشي خاصاً بالمهاجرين المسلمين
الرواية الأولى عن عمرو نفسه والثانية عن أم سلمة والرواية الأولى مذكورة في سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق
والثانية في مسند الإمام أحمد بن حنبل . ويستفاد من رواية عمرو بن العاص أنه ذهب إلى الحبشة موفداً من قريش
ومعه آدم كثير ليقدمه إلى النجاشي هدية له بقصد تسليم المهاجرين كلهم أو بعضهم إليه وأنه تمكن من مقابلة
النجاشي وطلب منه ذلك فنضب غضباً شديداً وأبى إجابة طلبه ورد هديته إليه لكن عمراً لم يذكر للنقشة التي
حدثت أمام النجاشي بينه وبين جعفر بن أبي طالب بحضور البطارقة في أمر عيسى بن مريم عليه السلام واقتناع
النجاشي بما أجاب به جعفر رضى الله عنه . غير أن عمرو بن العاص قال إن النجاشي صاغه وأسلم . وقالت أم سلمة
لأنه ظهر من ينزاعه في ملكه (على أثر إقراره بما قاله جعفر طبعاً) وما لاشك فيه أن عمرو بن العاص لم ينجح في
مهمته سواء أكان موفداً من قبل قريش أم ذاهباً من تلقاء نفسه ليرى له مخرجاً من موقفه إزاء رسول الله
صلى الله عليه وسلم لأنه بقي إلى ذلك الوقت ولم يسلم بعد أن انتشر الإسلام في المدينة وماجاورها وقوى السلون
وصاروا يهددون مكة بخلاف إن هو بقي على حاله ولم يسلم أن يظهر الإسلام في مكة أيضاً فيضع عند ذلك
مضطراً . فلما رأى أن النجاشي لم يسلم له بشيء وأنه متمسك بمراعاة حسن جوار من عنده من المهاجرين
ومصدق برسالة النبي صلى الله عليه وسلم عاد وهو موطن النفس على أن يذهب توأماً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنده وقد
تم له ذلك بالفعل فأسلم هو وخالد بن الوليد .

(١) راجع الجزء الأول من مسند الإمام أحمد بن حنبل حديث جعفر بن أبي طالب .

خالد بن الوليد وإسلامه

خالد بن الوليد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو سليمان وقيل أبو الوليد القرشي المخزومي أمه لبابة الصغرى وهي بنت الحارث بن حزن الهلالية وهي أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن خالة أولاد العباس بن عبد المطلب الذين من لبابة .

وكان أحد أشرف قريش في الجاهلية وكان إليه اغبة وأعنة الخليل في الجاهلية . أما القبة فكانوا يضربونها يجمعون فيها ما يجهزون الجيش . وأما الأعنة فإنه كان يكون للتقدم على خيول قريش في الحرب فكان رجلاً حريئاً فارساً .

ولما أراد الإسلام قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعمرو بن العاص وطليحة بن أبي طلحة العبدي فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال لأصحابه رمتكم مكة بأفلاذ كبدها . وقد قدم أن ذكرنا في أمر الحديبية أن النبي ﷺ سار حتى انتهى إلى عسفان فلقية بشر بن أبي سفيان الكعبي وقال لرسول الله هذه قريش قد سمعوا بمسيرك فخرجوا معهم العوذ الطافيل قد لبسوا جلود النمرود قد نزلوا بذى طوى يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً وهذا خالد بن الوليد في خيل قريش قد قدموه إلى كراع النسيم .

قال خالد بن الوليد : لما أراد الله عز وجل فيما أراد من الخير قذف في قايي الإسلام وحضر لي رشدي وقلت قد شهدت هذه اللوإمان كلها على محمد ﷺ فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أفي في غير شيء . وأن محمداً يظهر . فلما جاء لعمرة القضية تقيت ولم أشهد دخوله فكان أخى الوليد بن الوليد دخل معه فطلبني فلم يجده فكتب إلى كتاباً فإذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإني لم أر أحب من ذهب رأيك عن الإسلام وعقلك ومثل الإسلام يجهله أحد ؟ قد سألت رسول الله ﷺ عنك فقال أين خالد ؟ قلت يأتي الله به . قال ما مثله يجهل الإسلام ولو كان يحمل نكابته مع المسلمين على المشركين كان خيراً له ولقدمناه على غيره فاستدرك يأخى ماقد فأنك من مواطن صالحة »

فلما جاءني كتابه نشطت للخروج وزادني رغبة في الإسلام وسرتني مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيت في للنم كافي في بلاد ضيقة جذبة فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة . فلما أجمعت على الخروج إلى المدينة لتقت صفوان بن أمية قتلت بأبا وهب أما ترى أن محمداً ظهر على العرب والعجم فلو قدمنا عليه واتبعناه فلنشره

شرف لنا؟ فقال لو لم يكن يبقى غيرى مالتيمته أبداً . قتلت هذا رجل قتل أبوه وأخوه . بديرتي عكرمة بن أبي جهل قتلته مثل ما قتلت لصفوان قتال مثل الذي قال صفوان . قلت فأكتم ذكر ما قتلت لك ، قال لا أذكره . ثم قتلت عثمان بن طلحة الحنظلي قلت هذا لي صديق فأردت أن أذكر له ثم ذكرت قتل أبيه طلحة وعصمة وأخوته الأربعة مسافع والخللاس والحارث وكلاب فإنهم قتلوا كلهم يوم أحد فسكرت أن أذكر له ثم قلت له إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر لو صب فيه ذنوب من ماء نلجرج . ثم قلت له ما قتلت لصفوان وعكرمة فأسرع الإجابة وواعدني إن سبقني أقام بمحل كذا وإن سبقته إليه انتظرت . فلم يطالع الفجر حتى التقينا ضلونا حتى انتهينا إلى الهدنة^(١) فوجدنا عمرو بن العاص بها . فقال مرحباً بالقوم . قتلنا وبك . قال أين مسيركم ؟ فأننا الدخول في الإسلام . قال وذلك الذي أقدمني . وفي لفظ قال عمرو لخالد يا أبا سليمان أين تريد ؟ قال والله لقد استقامت إليهم^(٢) وإن هذا الرجل لنبي فاذهب فأسلم فحتى متى ؟ قال عمرو وأنا والله ما جئت إلا لأسلم فأصطحبنا جميعاً .

فوصلوا المدينة وقال خالد: فلبست من صالح ثيابي ثم عدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أخى قال أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سرَّ بتدومكم وهو ينتظركم فأسرعنا المشى فأطملت عليه فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يتيسم حتى وقفت عليه فسلمت عليه بالنبوة فردَّ عليَّ السلام بوجه طلق قلت إني أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . قال الحمد لله الذي هدانا لهذا الذي كنا كنا في ضلال مبين . قال لا يسلك إلا إلى خير . قالت يا رسول الله ادع الله لي يفر تلك الواطن التي كنت أشهدك عليك . قال ﷺ : « يا رسول الله يا أبا سليمان أين تريد ؟ قال والله لقد استقامت إليهم^(٢) وإن هذا الرجل لنبي فاذهب فأسلم فحتى متى ؟ قال عمرو وأنا والله ما جئت إلا لأسلم فأصطحبنا جميعاً .

وكان عمرو بن العاص أسن منها .

قال خالد بن الوليد: اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٣) فخاض رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها في هذه التلنسة فلم أشهد قتالا وهي هي إلا تبين لي النصر . والأكثر على أنه مات بمصر سنة ٢١ وعمره بضع وأربعون سنة في خلافة عمر بن الخطاب .

(١) هو اسم محل (٢) أي تبين الطريق وطهر الأمر .

(٣) لها عمرة الجيزة .

- ٣٩٦ -

سريّة مؤتة

لمحاربة الروم

جمادى الأولى سنة ٥٨ - سبتمبر سنة ٦٢٩ م

مؤتة من عمل البلقاء وهي مدينة معروفة بالشام على مرحلتين من بيت المقدس جنوب شرق البحر الميت وكانت في جمادى الأولى سنة ثمان (سبتمبر سنة ٦٢٩ م) .

وقد سعى البخاري هذه السرية غزوة، وإن لم يخرج فيها النبي صلى الله عليه وسلم لكثرة جيش المسلمين فيها . وسببها أن النبي ﷺ كان أرسل الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصرى من جهة هرقل وهو الحارث ابن أبي شمر النسائي فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو النسائي ، وهو من أمراء قيصر على الشام فقال ، أين تريد ملكك من رسل محمد ؟ قال نعم . فأوثقه وضرب عنقه ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره .

فلما بلغ رسول الله ، اشتد الأمر عليه وجهز جيشاً لمقاتلة ملك الروم .

هذا هو السبب الذي ذكره أغلب المؤرخين إلا أن ابن إسحاق لم يذكر سبباً لهذه السرية وهذه أول سرية حارب فيها المسلمون جيشاً مسيحياً من أعظم جيوش العالم في ذلك الوقت .

فأمر رسول الله ﷺ مولا يزيد بن حارثة رضى الله عنه على ثلاثة آلاف وندب رسول الله ﷺ الناس وقال إن أصيب زيد بن جعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس فإن أصيب فليرتض للمسلمون رجلاً من بينهم يحملونه عليهم أميراً . أى قائداً للجيش .

وكان ممن حضر يهودى اسمه النعمان فقال يا محمد إن كنت سميت من سميت أصيبوا جميعاً لأن أنبياء بني إسرائيل كانوا إذا استعملوا الرجل على القوم ثم قالوا إن أصيب فلان فلو سموا مئة أصيبوا جميعاً . ثم جعل يقول لزيد أعهد أى أوص فإنك لاترجع إلى محمد إن كان نبياً . قال زيد أشهد أنه سول صادق بار وعقد ﷺ لواء أبيض ودفعه إلى زيد ، ولم يسبق زيد تولى القيادة من قبل ، وأوصاه أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوهم هناك إلى الإسلام فإن أجابوا والا فاستميتوا عليهم بالله وقتلهم . فأسرع الناس بالتروج وعسكروا بالجرف (١) .

(١) موضع على ثلاثة أميال من المدينة لجهة الشام .

وصية رسول الله للجيش

قبل رحيله إلى مؤتة

قال رسول الله يوصي الجيش : « أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيراً . اغزوا باسم الله في سبيل الله من كفر بالله . لا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً قانياً ولا منعزلاً بصومعة ولا تحربوا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء » .

هذه وصية عظيمة إلى جيش المسلمين قبل مسيره إلى مؤتة لمحاربة الروم ، وهي جدية بأن تقتل مراراً وتبدريها رؤساء الجيوش في العالم قاطبة ويمولوا بمقتضاها حرقاً - إن كان لا مناص عن الحرب ولا مفر منها - فإن الحروب الحديثة التي دارت رحاها تجاوزت الحدود في البنى والظلم والتسوية والتعدى على السكان الآمنين الذين لا شأن لهم في القتال فهدمت بيوتهم وخربت المدن ، قتلت أهلها كل شقاء بتصور . ولم يحسب للغيرين القساة حساب الأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين ، ودور المرضى والجرحى . كل ذلك في القرن العشرين ، زمن للدنية وتقدم العلوم ! !

ألا فليبدروا هذه الوصية الجليلة الصادرة عن قلب مأوه الرحمة والإنسانية . قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشه عن الغدر وقتل الأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين للمنعزلين في الصوامع ، ونهى عن قطع الأشجار وهدم البيوت ، حتى يبيت المحاربين فضلاً عن المساكين .

فهذا قانون الإسلام في الحروب وهو قانون إنساني محض وهذه أوامر رسول الله الذي يأمر للمسلمون بأوامره ويقيمون سنته .

ولما فصل الجيش من المدينة سمع العدو بمسيرهم ، وقام ذريحيل بن عمرو النسائي فجاء أكثر من مئة ألف من الروم وضم إليهم القبائل القريبة للموالية فلما نزل المسلمون معان من أرض الشام بلنهم أن هرقل قد نزل مأب من أرض البلقاء^(١) فأقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم ، وقالوا نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بمدد عدونا ؛ إما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنفوض له فشجع الناس عبد الله بن رواحة على اللقى قال : « إن التي تكرمون للتي خرجت لها ، إياها تطالبون الشهادة وما قتال الناس بمدد ولا كثرة ولا قوة ، وإنما قتالهم بهذا الدين الذي أكرمنا الله به فربما فعل ، وإن تكن الأخرى فعلى الشهادة وليست بشر للزلتين » فقال الناس لقد صدق ابن رواحة .

(١) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي الفري فصبتها عمان . وفيها قرى كثيرة ومزارع واسعة . وبجودة حطنها يضرب المثل . ومن البلقاء قرية الجبارين .

ففضوا إلى مؤنة ووافاهم للشركون تحت إمرة أنيودور أحي هرقل بجاء منهم من لا قبل لأحد به من المدد البكتير الزائد على مئة ألف والصلاح والخليل وآلات الحرب مع من انضم إليهم من قبائل العرب المنتصرة من بني بكر ونلم وجنام مئة ألف . فقاتل الأمراء الثلاثة يومئذ على أرجلهم فأخذ اللواء زيد بن حارثة قاتل المسلمين معه بشجاعة على صفوفهم حتى قتل طعناً بالرمح ثم أخذ اللواء جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه قاتل به وهو على فرسه فأجله القتال وأحاط به فتزل عن فرس له شقراء ففقرها وقاتل حتى قتل . وإما عقرها خوفاً أن يأخذها العدو فيقاتل عليها المسلمين ولما أخذ اللواء قاتل قتالا شديداً قطعت يمينه فأخذ اللواء يساره قطعت يساره فاحتضنه وقاتل حتى قتل ووجد فيه بضع وسبعون جرحاً ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح . ثم أخذ اللواء عبد الله ابن رواحة وتقدم به وهو على فرسه لجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم نزل عن فرسه وقاتل حتى قتل^(١) .

روى سعيد بن منصور أنهم دفنوا يومئذ زيداً وجعفرًا وعبد الله بن رواحة رضى الله عنهم في قبر واحد . ثم أخذ اللواء ثابت بن أرقم المجذلي البلوى حليف الأنصار وكان من أهل بدر فقال يامعشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم . قالوا أنت . قال ما أنا بفاعل فاصطلحوا على خالد بن الوليد . وفي الصحيح : حتى أخذ الراية « سيف من سيوف الله » ، قاتلهم خالد بن الوليد قتالا شديداً وكان لم يمس على إسلامه إلا ثلاثة أشهر تقريباً^(٢) وقد تفرق المسلمون لما قتل عبد الله بن رواحة وانهزموا حتى لم يَرِ انثنان جميعاً فاستطاع خالد بن الوليد بعد أن أخذ اللواء وتولى القيادة أن يجمع شملهم وجعل مقدمته ساقطة وميمته ميسرة فظن العدو أن الدد جاءهم . قال ابن إسحاق فلما أخذ الراية (خالد) دافع القوم وخاس بهم ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف . ونهى ابن إسحاق اثني عشر قتيلاً من المسلمين في هذه النزوة ولا نعلم عدد قتلى العدو . وكانت مدة القتال سبعة أيام .

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بما حدث في ساحة القتال قبل رجوع الجيش إلى المدينة ونادى في الناس الصلاة جامعة ثم صعد المنبر وعيناه تذر فان قال :

(١) عبد الله بن ثعلبة بن امرئ القيس بن عمرو بن امرئ القيس الأكبر الأنصاري الخزرجي ثم من بني الحارث يكنى « أبا محمد » وقيل « أبا رواحة » وقيل « أبا عمر » وأمه كريمة بنت واقد بن عمرو بن الإطناية من بني الحارث بن المازرج أيضاً وكان من عهد البقية وكان يقبى بني الحارث بن المازرج وذهب برباً واحداً والحندي والمديبيي وعمره القضاء والشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا التفتيحوا بعده . وكان من الشعراء الذين يناضلون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن شعره في النبي صلى الله عليه وسلم :

إني تفرست فيك الخير فأنفاه
أنت الرسول فمن يحرم نوافله
الله يعلم أني ثابت البصر
والوجه منه فقد أزرى به الفدر
(٢) وهذه أول مرة يجارب فيها خالد مع المسلمين بعد إسلامه .

« يا أيها الناس باب خير . باب خير . أخبركم عن جيشكم هذا الفأزى أنهم اسلقوا فلقوا العدو . قتل زيد شهيداً فاستغفروا له . ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيداً فاستغفروا له . ثم أخذ الراية عبد الله ابن رواحة وأثبت قدميه حتى قتل شهيداً فاستغفروا له . ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير فسه ولكنه سيف من سيوف الله فأب بنصره » فن يومئذ سُمي خالد « سيف الله » .

قال بعضهم كون ما وقع يوم مؤنة فتحاً ونصراً واضح لإحاطة العدو بهم ونكاثهم عليهم لأنهم كانوا أكثر من مائتي ألف والصحابة رضى الله عنهم ثلاثة آلاف وكان مقتضى العادة أنهم يُقتلون عن آخرهم .

وفي هذه النزوة فرت طائفة من الصحابة إلى المدينة لما عابوا كثرة جوع الروم فصار أهل المدينة يقولون لهم « أنتم القرارون » ورسول الله ﷺ يقول « بل هم الكرارون » ولقي هؤلاء الذين رجعوا إلى المدينة شراً حتى إن الرجل يحىء إلى أهل بيته يدق عليهم بابه فيأبون بفتحون له ويقولون ، هلا تقدمت مع أصحابك قتلت ؟ حتى إن ثراً منهم جلسوا في بيوتهم استحياء كلما خرج واحد منهم صاحوا به وصار رسول الله ﷺ يرسل إليهم رجلاً رجلاً . وأول من جاء بخبر الجيش يعلى بن أمية رضى الله عنه فلما قدم قال له النبي ﷺ « إن شئت فأخبرني وإن شئت أخبرتك » . قال فأخبرني يا رسول الله لأزداد يقيناً فأخبره رسول الله ﷺ الخبر كله ووصف له ما كان قتال « والذي بئثك بالحق ما تركت من حديثهم حرفاً واحداً وإن أمرهم لكأ ذكرت » . لكن مستر « موبر » اعتبر تلك الرواية التي ذكر فيها أن النبي ﷺ أخبر بما حدث في ساحة القتال قبل أن يصل الخبر خوفاً ، لأن الخبر كان قد وصل رسول الله ﷺ من أول رسول أرسله خالد بن الوليد إلى المدينة ، وعلى ذلك فليست هناك معجزة كما يقول المسلمون ، لكنه لم يعلق شيئاً على معجزة رسول الله ﷺ التي تنبأ فيها بإصابة زيد وجعفر وعبد الله بن رواحة قبل أن يذهبوا إلى الحرب وقد أصيبوا جميعاً بالرتيب كما ذكر . فكان حقا عليه وهو مؤرخ أن يصرح برأيه في هذه المسألة لا أن يذكرها بلا تعليق ويفض الطرف عنها . والحقيقة أنه لا رأى أن هذه المعجزة واضحة وضوح الشمس في رابعة النهار لم يشأ أن يقرأها ويعترف بها .

مواصلة رسول الله ﷺ لآل جعفر

عن أسماء بنت عيسى رضى الله عنها زوجها جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه . قالت دخل على رسول الله ﷺ يوم أصيب جعفر وأصحابه فقال اثنى بيني جعفر فأثبته بهم فشمهم وذرفت عيناه . وفي رواية وبكى حتى قطت لحيته الشريفة فقلت يا رسول الله يا أبا أنت وأمي ما بك كيك ؟ أبلت عن جعفر وأصحابه نى ؟ قال نعم أصيبوا هذا اليوم . قالت فممت أصبح واجتمع على النساء وجعل رسول الله ﷺ يقول لى بأسماء لا تقولى هجرا ولا تنفري خذاً وقال اللهم قدمه إلى أحسن الثواب واخلفه في ذريته بأحسن ما خلقت أحداً من عبادك في ذريته » .

— ٣٠٠ —

وخرج رسول الله ﷺ إلى أهله فقال : لا تنفلوا عن آل جعفر أن تصنموا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم . وقيل إنه دخل على فاطمة وهي تقول : وإعماه ، قال على مثل جعفر فلتبك البواكي . ثم قال صلى الله عليه وسلم : اصنموا لآل جعفر طعاماً فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم . وهذا الطعام الذي جعل لآل جعفر رضى الله عنه هو أصل طعام التعزية وتسميه العرب « الوضيعة » .
ولحسان بن ثابت قصيدة في رثاء جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه .

إسلام فروة بن عامر الجذامى

كان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب بعمان فأهدى إلى النبي ﷺ بناته البيضاء وبعث إليه رسالة بإسلامه مع رسول فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم فلما اجتمعت الروم لصلبه على ماء لم يقال له عفرى بفلسطين قال :

ألا هل أتى سلمى بأن حليها على ماء عفرى فوق إحدى الرواحل
على ناقة لم يضرب الفحل أمها مشدبة أطرافها بالمناجل
قال ابن إسحاق زعم الزهرى أنهم لما قدموه ليقتلوه قال :

بلغ سراة المسلمين بأننى سلم لربى أعطى وبنانى

وقال مسيو برسيفال M. C de Paceval إن الصلب وقع بعد غزوة مؤتة عقاباً على ذنبه . والراجح أن ذلك كان بعد فتح مكة سنة تنع وهي سنة الوفود ودخول العرب في دين الله أفواجا .

سرية عمرو بن العاص

أوسرية ذات السلاسل^(١)

جمادى الآخرة ٥٨ - اكتوبر سنة ٦٢٩ م

كانت غزوة مؤتة في جمادى الأولى وقد تولى القيادة فيها خالد بن الوليد بعد أن قُتل الأسماء الثلاثة الذين تقدم ذكرهم وكان قد أسلم حديثاً مع عمرو بن العاص . فأظهر كفاية حرية أمام جيش الروم العظيم وتمسك من جمع شمل الصحابة بعد أن تفرقوا وعاد فريق منهم إلى المدينة فرجع خالد سالماً ولم يتحبل المسلمون إلا خسارة قليلة .

(١) على حدود الشام وهي وراء وادي القرى يضم البين الأولى وفتحها لعتان . وبينها وبين المدينة عشرة أيام .

وفي جادى الآخرة أى بعد شهر (١) أكتوبر سنة ٦٢٩ م (جاء دور عمرو بن العاص فأرسله رسول الله ﷺ إلى بلاد بلي^(١) وعذرة في (٣٠٠) مع سراً للمهاجرين والأنصار ومعهم (٣٠) فرساً وسببها أنه ﷺ بلغه أن جماعاً من قضاة تجمعوا للإغارة على المسلمين وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة منتهزين فرصة انهزام المسلمين في مؤتة .

وسميت هذه السرية (ذات السلاسل) لأن الأعداء ارتبط بعضهم إلى بعض مخافة أن يفروا وقيل سميت بذلك لأن بها ماء يقال له السلسل .

عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : بعث إلى النبي ﷺ يأمرني أن آخذ ثيابي وسلاحي فقال يا عمرو إني أريد أن أبثك على جيش فينمك الله ويسلك . قلت لم أسلم رغبة في اللال . قال « نعم للال الصالح للرجل الصالح » فقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء فسار هو ومن معه وكان يكن النهار ويسير الليل فلما قرب منهم بلغه أن جوع العدو كثيرة فبعث رافع بن مكيت الجهني إلى رسول الله ﷺ يستمده . فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواء وبث معه (٢٠٠) من سراً للمهاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعاً ولا يختلفا فأراد أبو عبيدة أن يتولى القيادة . فقال عمرو إنما قدمت على مدداً وأنا الأمير . قال أبو عبيدة ولكن أنا على ما أنا عليه وأنت على ما أنت عليه . وكان أبو عبيدة رجلاً سهلاً يتعاطى أمر الدنيا قال يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال لي لا تختلفوا وإني إن عصيتي أطعك فأطاع له أبو عبيدة فكان عمرو يصلى بالناس وسار حتى وصل إلى العدو فحمل عليهم المسلمون فهبوا في البلاد وتفرقوا مذعورين بعد أن اقتتلوا ساعة فهزمهم المسلمون ولم يثنوا شيئاً .

أما البلاذري فيقول إن المسلمين غنموا .

وأرسل عمرو بن العاص رسولا إلى النبي ﷺ ينبئه بانتصاره في أول غزوة له وأنه عزز فغوز رسول الله ﷺ على تخوم الشام ثم عاد إلى المدينة .

وقد حدثت عمرو بن العاص نفسه بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يبعثه على قوم فيهم أبو بكر وعمر إلا لمنزلة عنده . قال عمرو فأنيته ﷺ حتى فعلت بين يديه قتلت يا رسول الله : أى الناس أحب إليك ؟ قال عائشة قلت إني لست أعنى النساء إنما أعنى الرجال . قال : أبوها قلت ثم من ؟ قال ثم عمر بن الخطاب فهد رجلاً فكنت مخافة أن يضلني في آخرهم وقلت في نفسي لا أعود أسأله عن هذا .

(١) بلاد بلي وعذرة هي وراء ذات القرى بينها وبين المدينة عشرة أيام ، وبلي قبيلة كبيرة يسبون إلى بلي بن عمرو بن الحاف ابن قضاة . وكذا عذرة يسبون إلى عذرة بن قضاة .

سرية أبي عبيدة بن الجراح

سمى البخاري هذه السرية بفزوة «سيف البحر»^(١) بكسر السين واشتهرت «بسرية الخبط» بعث رسول الله ﷺ في شهر رجب سنة ثمان (نوفمبر سنة ٦٢٩ م) أبا عبيدة بن الجراح على رأس ثلاثمائة رجل . وكانت فيهم عمر بن الخطاب إلى أرض جُبينة ليلقي عبراً لقريش ولحاربة حتى من جُبينة ، فنجد ما كان معهم من الزاد فأكلوا الخبط وهو ورق السلم وأصابهم جوع شديد . قال أهل السير : ثم أخرج الله لهم دابة من البحر تسمى العنبر وهي سمكة كبيرة فأكلوا منها .

وفي شعبان سنة ثمان (ديسمبر سنة ٦٢٩ م) أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا قتادة رضى الله عنه إلى نجد ومعه خمسة عشر رجلاً وأمره أن يشن الغارة على غطفان بأرض محارب قتلتهم وسبي سبياً كثيراً واستاق النعم . وفي أول شهر رمضان من هذه السنة أرسل رسول الله ﷺ أبا قتادة أيضاً إلى إضم على ثلاثة برد من المدينة في ثمانية رجال ليروم قريشاً أنه توجه إلى تلك الناحية بعد أن نقضت قريش العهد حتى يفاجئهم على غير استعدادهم لحربه . خرج أبو قتادة ومن معه فلقوا عامر بن الأصبط الأشجعي فلم عليهم بتحية الإسلام فقتله علم بن جثامة (واسمه يزيد بن قيس) لشيء كان بينه وبينه وأخذ بيعة ومثاعه فلما قدموا على رسول الله ﷺ وأخبروه الخبر نزل فيهم القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَقَبَّلُوا وَلَا تَقُولُوا لَنْ أَتِيَ الْإِسْلَامَ أَلْسَلَامَ كُنْتُمْ مُؤْمِنًا﴾ الآية .

والاختلاف في المراد بهذه الآية كثير جداً . قيل نزلت في القنادر . وقيل في غالب الليث . . .

ثم إن أبا قتادة ومن معه لم يلقوا جمعاً ولنعم أنه ﷺ خرج من المدينة وتوجه إلى مكة فلقوه بالسيف فأخبروه الخبر . فسأله علم أن يستغفر له فقال « لا غفر الله لك » زجراً ، كيلا يتهلوا الناس بقتل النفس المؤمنة . فقام علم وهو يتلقى جموعه يبرديه فما مضت له سابعة من الليالي حتى مات . وذكر الطبري أن علم بن جثامة توفي في حياة النبي صلى الله عليه وسلم فدفعوه فلقطته الأرض مرة بعد أخرى فأمر به فأنقي بين جبلين وجعل عليه حجارة وقال رسول الله ﷺ « إن الأرض لتقبل من هو أشد منه ولكن الله أراد أن يريك آية في قتل المؤمن » .

غزوة فتح مكة

رمضان سنة ٨ هـ — (يناير سنة ٦٣٠ م)

لما كان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وبين قريش كان فيما شرطوا لرسول الله ﷺ وشرط لهم أن

(١) ساحل البحر .

— ٣٠٣ —

من أحب أن يدخل في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده فليدخل فيه . ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه . فدخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ودخلت خزاعة في عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعهده .

والسبب في دخول خزاعة في عقد رسول الله ﷺ أن خزاعة كانت حليفة جده عبد المطلب حين تنازع مع عمه نوفل في ساحات وأفنية من السقاية كانت في يد عبد المطلب فأخذها منه نوفل فاستنفض عبد المطلب قومه فلم ينهض معه منهم أحد وقالوا لا ندخل بينك وبين عمك . ثم كتب إلى أخواله بنى النجار فجاء منهم سبعون وقالوا ورب هذه البنية لتردن على ابن أختنا ما أخذت منه وإلا ملأنا منك السيف فرده . ثم حالف نوفل بنى أخيه عبد شمس فخالف عبد المطلب خزاعة وكان عليه الصلاة والسلام عارفاً بذلك ولقد جاءته خزاعة يوم الحديبية بكتاب جده عبد المطلب قرأه عليه أبى بن كعب رضى الله عنه فأقرهم النبي صلى الله عليه وسلم .

وقد كان بين بنى بكر وبين خزاعة حروب وقتل في الجاهلية وتشاكلوا عن ذلك لما ظهر الإسلام فلما كانت هجرة الحديبية ووقف القتال بين المسلمين وقريش ، اغتصمها طائفة من بنى بكر يقال لهم « بنو فثالة » ، ذلك أن شخصاً منهم هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يتنقى بالمجاهة . فسمه غلام من خزاعة أى من القبيلة التي دخلت في عقد رسول الله فثارت ثأثرته فضربه وشجته فثار الشريرين القبيحين مما كان بينهم من العداوة . فطلب بنو فثالة من أشرف قريش أن يمينهم بالرجال والسلاح على خزاعة فأمدوهم : فقاموا خزاعة ليلاً وهم آمنون على ماء لم يقال له الوثير وقتلوا منهم عشرين أو ثلاثة وعشرين وقاتل معهم جمع من قريش مستخفياً (منهم ، صفوان بن أمية . وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبى جهل . وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو - وهؤلاء أسلموا جميعاً بعد ذلك) وما زالوا بهم حتى أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعي بمكة فلما ناصرت قريش بنى بكر على خزاعة وهضوا ما كلف بينهم وبين رسول الله من اللياق ، ندموا . وجاء الحارث بن هشام إلى أبى سفيان وأخبره بما فعل القوم . فقال :

« هذا أمر لم أشهده ولم أغب عنه . وإنه لشر والله ليفزونا محمد . ولقد حدثني هند بنت عتبة (يعنى زوجته) أنها رأت رؤيا كرهتها . رأت دماً أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالبلدة . ففكره القوم ذلك » .

وعند ذلك خرج عمرو بن سالم الخزاعي ، سيد خزاعة حتى قدم على رسول الله المدينة ودخل المسجد ووقف على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجالس في المسجد بين الناس وأنشد :

يا رب إني ناشد محمدًا حلف أئينا وأبيبه الأتلا

قد كنتم ولدًا وكنا والدًا كمت أسلفنا لم نزرع بدا

فانصر هداك الله نصر أعتدا وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا إن سم خففا وجهه تربدا
في فيلق كالجبر يجرى مزبدا إن قريشا أخلفوك الموعدا
وقضوا ميثاقك للأوكدا وجعلوا لي كداء رسدا
وزعموا أن لست أدعو أحدا وهم أذل وأقل عددا
هم يتسونا بالوتير هجدا وقتلونا ركعا وسجدا

قال رسول الله ﷺ نصرت ياعمر بن سالم ودمعت عيناه وفي رواية قام ﷺ وهو يجر رداءه ويقول : لا نصرت إن لم أنصركم بما أنصر به نفسي . وفي رواية قال : والذي نفسي بيده لأمنعهم مما أمنع منه نفسي وأهل بيتي . وعن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت : لقد رأيت رسول الله ﷺ غضب مما كان من شأن بني كعب غضبا لم أره غضبه منذ زمان ثم قال ﷺ لعمر بن سالم وأصحابه بعد أن علم منهم حقيقة ما حدث : ارجعوا وتفرقوا في الأودية فرجعوا وتفرقوا وكان عددهم نحو أربعين راكبا من خزاعة وقصد رسول الله ﷺ بتفرقهم إخماء بجيئهم .

وخرج بدليل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدوا على رسول الله ﷺ للدينة فأخبروه بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بنى بكر عليهم ثم انصرفوا راجعين إلى مكة ولكن لم يبلغنا ماذا قال وقد بديل وبماذا أجابهم رسول الله ﷺ

قريش تبعث أبا سفيان إلى المدينة

كان رسول الله ﷺ قال للناس كأنكم بأبي سفيان قد جاء ليشدد العقد وي زيد في اللدة . ومضى بدليل بن ورقاء وأصحابه فلقوا أبا سفيان بسفان قد بعثته إلى رسول الله ﷺ ليشدد العقد وي زيد في اللدة وقد خافوا مما صنعوا . فلما لقي أبو سفيان بدिला ، قال من أين أقبلت يا بدليل ؟ وظن أنه قد أتى رسول الله ﷺ ، قال سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي ، قال أو ما أتيت محمدا ؟ قال لا . فلما راح بدليل إلى مكة قال أبو سفيان لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى فمدي إلى مبرك ناقته فأخذ من بهرما فقتله فرأى فيه النوى (وهذا من فراسة العرب) فقال أحلف بالله لقد جاء بدليل محمدا ، ثم خرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ للدينة فدخل على ابنته أم حبيبة بنت أبي سفيان (زوج رسول الله ﷺ) فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه . فقال يا بنية والله ما أدرى أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت مشرك نجس فلم أحب أن نجس على فراش رسول الله ﷺ . قال والله لقد أصابك بدى شر قالت : « بل هداني الله تعالى للإسلام وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر . واعبأ منك وأنت سيد قريش وكبيرها » فقال : « أنا أترك ما كان يبعد أبائي وأتبع دين محمد ؟ » . ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فسكلمه في تجديد العقد وزيادة مدة الهدنة فلم يرد عليه شيئا . ثم ذهب إلى أبي بكر فسكلمه أن يكلم له رسول الله ﷺ قال « ما أنا بقاعل » . ثم أتى عمر بن الخطاب

- ٣٠٥ -

فكلمه فقال أنا أشفع لكم إلى رسول الله ؟ فوالله لو لم آخذ إلا الذر لجاهدكم . ثم خرج فدخل على عليّ ابن أبي طالب رضى الله عنه وعنده فاطمة ابنة رسول الله وعندهما الحسن بن عليّ غلام يذب بين يديهما فقال : يا عليّ إنك أمسّ القوم بي رحماً وأقرهم منى قرابة . وقد جئت في حاجة فلا أرجع كما جئت خائباً . اشفع لنا إلى رسول الله . قال ويحك يا أبا سفيان والله لقد عزم رسول الله على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه . فالتفت إلى فاطمة فقال يا ابنة محمد هل لك أن تأمرى بئيك هذا فيجبر بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟ قالت والله ما بلغ بئى ذلك أن يجبر بين الناس وما يجبر على رسول الله أحد قال : أبا الحسن إنى أرى الأمور قد اشتدت على فاطمى حتى . فقال له والله ما أعلم شيئاً يفتى عنك ولكنك سيد بنى كنانة فم فجر بين الناس ثم الحق بأرضك . قال أو ترى ذلك مغنياً عنى شيئاً ؟ قال لا والله ما أغان ولكن لا أجد لك غير ذلك . فقام أبو سفيان في المسجد . فقال :

« أيها الناس إنى قد أجرت بين الناس » ثم ركب بعيره وانطلق .

قول : أراد أبو سفيان من ذهابه إلى المدينة أن يشدد القيد . وزيد في المدة ولكن النبي ﷺ أعرض عنه ولم يجبه بشئ . ووجد من أبى بكر وعمر وعليّ وفاطمة رضى الله عنهم كل إعراض ولم يصد أحد منهم بشئ . حتى يس ورجع يخفى حينئذ لكنه على كل حال كان يعلم أن رسول الله قد عزم على أمر إزاء ما كان من تعدى بنى بكر ومساعدة نفر من قريش لم في هذا التصدي لأن ذلك قضى للمهد .

أما ما تخيله بعض المستشرقين من أن أبا سفيان اتفق مع رسول الله على أنه إذا دخل مكة اجتنب سفك الدماء وأن أبا سفيان يقوم من جانبه بمنع أهل مكة من المقاومة فهذا لا أسس له وليس في السير شئ يدل على هذا الاتفاق . وقد قالوا أيضاً إن رسول الله كان ينتظر أى فرصة تفتح لمكة فلتساق الاعتياد على خزاعة فتظاهر بالنضوب ووعد بأخذ الثأر والاتصار لم . والحقيقة أن اعتداء بنى بكر قضى صريح للمهد . وكيف لا ينضب وقد قتل من خزاعة وهم جلفاءه أكثر من عشرين نفراً وقد لجأوا إليه وناشدوه أن يدفع عنهم هذا الاعتداء . والدليل على أن أبا سفيان عاد من غير أن يفتى بأى اتفاق أنه لما قدم على قريش قالوا ما وراءك ؟ قال جئت محمداً فكلمته فوالله ما رد على شيئاً . ثم جئت ابن أبى قحافة (أبا بكر) فلم أجد عنده خيراً . ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى القوم ، ثم جئت عليّ بن أبى طالب فوجدته ألين القوم وقد أشار عليّ بشئ صنعته . فوالله ما أدرى هل ينينى شيئاً أم لا . قالوا وبماذا أمرك ؟ قال أمرنى أن أجبر بين الناس فقلت . قالوا فهل أجاز ذلك محمد ؟ قال لا . قالوا وبلك والله إن زاد على أن لمس بك فافنى عنا ما قلت . قال لا والله ما وجدت غير ذلك .

غير أن قريشاً لما طالت غيبة أبى سفيان اتهمته أشد التهمة وقالوا قد صاباً واتبع محمداً سرراً وكتم إسلامه .

(٢٩١ - عم)

- ٣٠٦ -

ولكنه لم يصباً ولم يتبع رسول الله ﷺ إنما طالت غيبته بسبب أنه أكثر من الالتجاء والتحدث إلى أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار ليشفعوا له إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما طال انتظاره وأيس منهم عاد إلى مكة من غير أن ينال طائلاً .

استعداد رسول الله ﷺ

للزحف على مكة

أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعد سراً للزحف على مكة . وكان يقول « اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يروننا إلا بنفة ولا يسمعون بنا إلا فلفنة » وقال لمائشة رضى الله عنها ، جهنينا وأخفى أمرك . فجهزت قعقاً وسويقاً وديقاً وذلك قبل أن يستشير أحداً . ثم أخبر أبا بكر أنه يريد قريشاً وقال له : أخف ذلك يا أبا بكر . وأمر الناس بالجهاز وطوى عنهم الوجه الذى يريد . وأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين فى كل ناحية يقول لهم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة » وذلك بعد أن تشاور مع أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فى السير إلى مكة . فذكر له أبو بكر ما يشير به إلى عدم السير حيث قال له : « هم قومك » وحضه عمر حيث قال : « نعم . هم رأس الكفر . زعوا أنك ساحر وأنت كذاب » وذكر له كل سوء . كانوا يقولونه : « وإيم الله لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة » فندب ذكر رسول الله ، أن أبا بكر كإبراهيم وكان فى الله أئين من اللين . وأن عمر كنوح وكان فى الله أشد من الحجر وأن الأمر أمر عمر . وأمر بالأقارب ، وأوقف بكل طريق جماعة ليعرف من يمر بها وقال لهم لا تدعوا أحداً يمر بكم تفكرونه إلا ردتموه .

كتاب حاطب إلى مكة

ولما علم الناس بمسير رسول الله إلى قريش ، كتب حاطب بن أبى بلتعة البدرى ، حليف بنى أسد كتاباً إلى مكة^(١) يخبرهم بمسير النبي صلى الله عليه وسلم وأرسله مع امرأة^(٢) استأجرها بمشرة دنائير وكساها برداً وقال لها أخفئى ما أسأطعت ولا تخرى على الطريق فإن عليه حراساً . فجلت الكتاب فى ضفائر رأسها خوفاً من أن يطلع عليها أحد ثم خرجت به وسلكت غير الطريق وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخيبر من السماء بما صنع حاطب فبعث على بن أبى طالب والزيير بن العوام فقال أدركا امرأة قد كتبت معها حاطب بن أبى بلتعة بكتاب

(١) كان الكتاب موجهاً إلى ثلاثة من كبراء قريش وهم : سهيل بن عمرو ، وصنوان بن أمية ، وعكرمة بن أبى جهل .
(٢) اسم هذه المرأة سارة وهى مولاة لبنى عبدالمطلب وسأى ذكرها فيمن أهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه يوم فتح مكة .

- ٣٠٧ -

إلى قريش يحذرهم ماقد أجمعنا له في أمرهم فنبغوه منها وخالوا سبيلها (وقد كان حاطب رسول الله ﷺ إلى القوقس سنة ست) .

فخرجنا حتى أدركنا هذه المرأة بالخليقة ، خليقة بنى أبي أحمد فاستنزلاها فالتسا في رحلها الكتاب فلم يجدنا شيئا فقال لها على بن أبي طالب إني أحلف بالله ما كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا كذبنا ولتخرجن لنا هذا الكتاب أو لتكشفنك . فلما رأت أجد منه قالت أعرض فأعرض غلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها فدفعته إليه فأتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا فقال يا حاطب ما حلك على هذا ؟ فقال يا رسول الله أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت ولكني كنت امرأ ليس لي في القوم من أصل ولا عشيرة وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل فصانعتهم عليهم فقال عمر بن الخطاب يا رسول الله دعني أضرب عنقه فإن الرجل قد نافق (أي خالف الأمر) . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنه شهد بدرا وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر ، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . فانزل الله عز وجل في حاطب ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا عَبْدًا وَعَدُوًّاكُمْ أُولَئِكَ إِلَى قَوْلِهِ إِلَيْكَ أَنَبَا إِلَى آخر القصة .

وقد جاء في كتابه ما يأتي :

« من حاطب بن أبي بلتعة إلى سهيل بن عمرو وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية . أما بعد يا معشر قريش فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءكم بجيش عظيم يسير كالمسيل فوالله لو جاءكم وحده لصره الله وأنجز له وعده فانظروا لأضكم والسلام » .

وفي رواية أن لفظ الكتاب :

« إن رسول الله ﷺ أذن في الناس بالفرز ولا أراه يريد غيركم وقد أحببت أن تكون لي عندهم يد » . وعلى كل حال فإن في إرسال هذا الكتاب لقريش إنشاء لسر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتمه ولولا أن حاطبا كان من الجاهدين في غزوة بدر لما قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ترى أن عمر كان يريد ضرب عنقه . وقيل إن عمر رضى الله عنه قال قاتلك الله ترى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأتقاب وتكتب إلى قريش !

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لسفرو واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين بن خفاف الفهاري ^(١) وقيل استخلف ابن أم مكتوم وبه جزم الحفاظ الدعيالي .

وخرج لشهر مضين من شهر رمضان سنة ثمان (أول يناير سنة ٦٣٠ م فصام رسول الله ﷺ وصام للناس

(١) أبو رهم الفهاري اسمه كلثوم بن الحصين أسلم بعد قدوم النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وشهد أهدأ فرى بهم في نحره فسمى « النحر » . واستخلفه النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة عام الفتح فلم يزل عليا حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف وشهد بيعة الرضوان وبايع تحت الشجرة وغزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك .

- ٣٠٨ -

معه حتى إذا كان بالكديد ما بين (عُصفان وأمّج) أفاطر رسول الله ﷺ ثم مضى حتى نزل مرّة الظهران في عشرة آلاف من المسلمين ، وكان قد بعث إلى من حوله من العرب وطلب حضورهم وم : أسلم وغفار . وأشجع وسلم . وبعث رسلا في كل ناحية وقيل إن العشرة آلاف خرج بهم من نفس المدينة ، ثم تلاحق به ألفان فيكون المجموع ١٢٠٠٠ ، ولم يتخلف عنه أحد من المهاجرين والأنصار .

وذكرت السيرة الحلبية أن عدد الجيش كان كما يأتي .

٧٠٠	مهاجر ومعه	٣٠٠	فرس
٤٠٠	من الأنصار ومعه	٥٠٠	»
١٠٠	من مزينة ومعه	١٠٠	»
٤٠٠	من أسلم ومعه	٣٠	فرسا
٨٠٠	من جهينة ومعه	٥٠	»
٩٨٠			
٩٨٠٠			

لكن هذا العدد أقل من المشهور بكثير بل هو أقل من خرج من المدينة وحدها .

وكان معه ﷺ من زوجاته أم سلمة وميمونة رضى الله عنها . وكان خروجه بعد العصر . ولم يزل رسول الله ﷺ مفعراً رهاقاً بالمسلمين حتى انسلخ الشهر لأنه وإن قدم مكة قبل تمام الشهر لكنه كان في أهية القتال ، وقد عُيِّت الأخبار عن قریش فلا يأتيهم خبر عن رسول الله ﷺ ولا يدرون ماهو فاعل . وخرج في تلك الليلة أبو سفيان ابن حرب وحكيم بن حزام^(١) وبديل بن ورقاء الخزاعي ، يتجسسون الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلوا يسرون حتى أتوا مر الظهران . قال العباس : - وكان قد خرج من مكة - سمعت أبا سفيان وهو يقول : والله ما رأيت كال يوم قط نيراناً . فقال بديل : هذه والله نيران خراقة حمشها الحرب . فقال أبو سفيان : خراقة ألأم من ذلك وأذل قال العباس عرفت صوته ، قلت يا أبا حنظلة ، (يعني أبا سفيان) قال أبو الفضل ؟ (العباس) قلت نعم فقال ليبيك ذاك أبي وأمي فما وراك ؟ قلت هذا رسول الله ﷺ ورأى قد دلف إليكم بما لا قبل لكم به . بعشرة آلاف من المسلمين . قال فما تأمرني ؟ قلت تركب عجز هذه البغلة فأستأمن لك رسول الله ﷺ فوالله لئن ظفر بك ليضربن عنقك فردني فخرجت به أركض بغلة رسول الله ﷺ نحو رسول الله ﷺ فكلما مرت بنار من نيران المسلمين ونظروا إلى قالوا عم رسول الله ﷺ على بغلة رسول الله ﷺ حتى مرت بنار عمر بن الخطاب ، فقال لأبي سفيان :

(١) حكيم هو ابن أخي خديجة زوجة رسول الله ﷺ وابن عم الزبير بن العوام . وهو من سلسلته الصريح وكان من أشرف قریش ووجهها في الجاهلية والإسلام وكان من المؤلفة عليهم وكان مولده قبل عام الفيل بثلاث عشرة سنة وواش ١٢٠ سنة ، ستين سنة في الجاهلية وستين سنة في الإسلام . وتوفي سنة ٤٤ هـ أيام معاوية وشهد بدرآ مع الكفار ونجا منهزماً . وكانت بيده دار الندوة لباعها من معاوية . ثبأه أئب درهم وتصدق بشهنا .

الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد ثم اشتد نحو النبي صلى الله عليه وسلم وركضت البغلة وقد أردفت أبا سفيان حتى اقتضحت على باب القبة وسبقت عمر بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البليء، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله هذا أبو سفيان عدو الله قد أمكن الله منه بغير عهد ولا عقد، فدنسى أضرب عنقه. قلت يا رسول الله إني قد أجزته^(١) ثم جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه قلت والله لا ينجيه اليوم أحد دوني فلما أكره فيه عمر قلت مهلا يا عمر فوالله ما صنع هذا إلا أنه رجل من بني عبد مناف، ولو كان من بني عدو ابن كعب ما قلت هذا. فقال مهلا يا عباس فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم وذلك لأني أعلم أن إسلامك كان أحب إلي رسول الله من إسلام الخطاب لو أسلم. فقال رسول الله ﷺ اذهب فقد أمناء حتى تغدو به علي بالنساء فرجع به إلى منزله، فلما أصبح غدا به على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال بآبى أنت وأمي، ما أوصلك وأحلك وأكرمك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عنى شيئاً. فقال ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال بآبى أنت وأمي ما أوصلك وما أحلك وأكرمك! أما هذه في النفس منها شيء. فقال العباس قتلته ويحك تشهد شهادة الحق قبل والله أن تضرب عنقك. قال قششد^(٢) فقال رسول الله ﷺ للعباس حين تشهد أبو سفيان، انصرف يا عباس فاحبسه عند خطم الجبل بمضيق الوادي حتى تمر عليه جنود الله. قلت له يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً يكون في قومه فقال نعم «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. ومن دخل المسجد فهو آمن. ومن أغلق عليه بابه فهو آمن» فخرجت حتى حبسته عند خطم الجبل بمضيق الوادي فمرت عليه القبائل فيقول من هؤلاء يا عباس! فأقول سَلِّمْ فيقول مالي ولسليم تضمر به قبيلة فيقول من هؤلاء؟ فأقول أسلم فيقول مالي ولأسلم وتمر جهينة فيقول مالي ولجهينة حتى مر رسول الله ﷺ في

(١) قد آن لنا أن نكتب شيئاً عن نزعة أبي سفيان فهو صحر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الأموي ويكنى أبا حفصة بآبته حفظة، ولد قبل القيل بـسنتين وكان من أشرف قريش وكان تاجراً يجهز التجار ماله وأموال قريش إلى الشام وغيرها من أرض المصم وكان يخرج أحياناً بنفسه وكانت إليه راية الرؤساء التي تسمى «الغاب» وإذا حيت الحرب اجتمعت قريش فوضعت يدها الرئيس وهو الذي قاد قريشاً كلها يوم أحد وكان أبو سفيان صديق العباس وأسلم إليه الفتح وشهد حنيناً والملائم مع رسول الله وأعطاه رسول الله من غنائم حنين مائة بئر وأربعين أوقية كما أعطى سائر اللؤلؤة وأعطي ابنه يزيد ومساوية وفقت عين أبي سفيان يوم الملائم. قال يونس بن عبيد كان عتبة بن ربيعة وأخوه شعبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وأبو سفيان لا يغط لهم رأى في الجاهلية فلما جاء الإسلام لم يكن لهم رأى. وروى أنه لما أسلم ورأى المسلمين وكثرهم قال للعباس: لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً. قال إنها النبوة، قال نعم. وفقت عينه الأخرى يوم اليموك وشهد اليموك تحت راية ابنه يزيد. ولما عمى أبو سفيان كأن يقوده مولاه، وتوفي سنة إحدى وثلاثين وكان عمره ثمانياً وعشرين سنة وقيل كان عمره ثلاثاً وتسعين سنة.

(٢) قول أبي سفيان لرسول الله لا دعاه إلى أن يصعد أن محمداً رسول الله «أما هذه في النفس منها شيء» يعني أنه يشك في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم. ولكنه أسلم خوفاً من أن يضرب عنقه وكان الرسول في سنه المم.

كتيبته الخضراء^(١) وفيها للهاجرون والأنصار في الحديد لا يرى منهم إلا الحدق فقال من هؤلاء يا أبا الفضل ؟ قلت هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار ، قال يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أختك عظيماً ! قلت وبك إنما النبوة . قال نعم إذن ، قلت الحق الآن ب قومك فخرهم . فخرج سريعاً حتى أتى مكة فصرخ في المسجد : (يا معشر قريش هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به) قالوا فـهـ . قال (من دخل دارى فهو آمن) قالوا وبك ما تنفى عنا دارك . قال : (ومن دخل المسجد فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن) : كذا في رواية ابن إسحاق . ففرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد وذكر موسى بن عقبة وغيره أن العباس قال قلت يارسول الله أبو سفيان وحكيم وبديل قد أجزتهم وهم يدخلون عليك قال أدخلهم فدخلوا عليه ، فبكوا عنده عامة الليل يستخبرهم فدعاهم إلى الإسلام ، وأن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ، فشهد بديل وحكيم ، وقال أبو سفيان ما أعلم ذلك والله إن في النفس من هذا شيئاً فأرجئها ، وفي رواية قال له ﷺ يا أبا سفيان أسلم تسلم . قال كيف أصنع باللات والعزى قال له عمر آخرأ عليها . وكان عمر رضى الله عنه خارج القبة ثم قال عمر أما والله لو كنت خارج القبة ماقلتها . قال أبو سفيان وبك يا عمر إنك رجل فالحش . دفعى مع ابن عمى فإياه أكلم النعم .

وكان ممن لقبه ﷺ في الطريق أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه ﷺ وأخوه من الرضاع من حليمة السعدية ، وكان مع أبى سفيان ولده جعفر وعبد الله بن أبى أمية الخزيمى ابن عمته صلى الله عليه وسلم عاتكة بنت عبد المطلب وهو أخو أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم لأنها لأن أمها عاتكة بنت عامر بن قيس . يقال إن الذين كانوا يشبهون النبي صلى الله عليه وسلم : جعفر بن أبى طالب - والحسن بن على - وقم بن العباس - وأبو سفيان بن الحارث .

وكان أبو سفيان بن الحارث من الشعراء اللطبيين وكان سبق له هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وإياه عارض حسان بن ثابت بقوله :

ألا أبلغ أبا سفيان عفى مغفلة قد برح الخفاء
هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

وكان لقاء أبى سفيان ومن معه النبي صلى الله عليه وسلم بقيق العقاب فيما بين مكة والمدينة . فالتصا الدخول على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسكته أم سلمة فيها قالت يارسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، قال لا حاجة لي بهما أما ابن عمى فهتبع عرضى ، وأما ابن عمتى وصهرى فهو الذى قال بمكة ما قال : (يعنى قوله : والله لا آمنت بك حتى تتخذ سداً إلى السماء فخرج فيه وأنا أنظر ثم تأتى بصك وأربعة من اللاتكة يشهدون أن الله أرسلك)

(١) كتيبته الخضراء - لبهم الحديد والعرب تطلق الحضرة على السواد كما تطلق السواد على الحضرة وكان عدد الذين يليسون الدروع ٢٠٠٠

فلما خرج أخير إليهما بذلك ومع أبي سفيان بنى له فقال والله ليأذن لي أو لأخذن بيد نبي هذا ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فلما بلغ رسول الله ﷺ رق لها ثم أذن لها فأسلما وأنشد أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره مما كان مضى منه :

لعمرك إني يوم أحمل راية لتغلب خيلُ السلات خيل محمد
لكالدملج الحيران أظلم ليله فهذا أواني حين أهدى وأعتدى
وهاد هداني غير شقى ودلني^(١) على الله من طردت كل مطرد
أصد وأناى جاهدا عن محمد وأدعى ولو لم أنسب من محمد
م ما هم من لم يقل بهوام وإن كان ذا رأى يُلم ويفند
أريد لأرضيهم ولست بلائط مع القوم ما لم أهد في كل مقعد
قل لتقيف لا أريد قتالها وقل لتقيف تلك عيرى أو عدى
وما كنت في الجيش الذي نال عامرا وما كان عن جرى لسانى ولاید
قبائل جاءت من بلاد بعيدة تزانع جاءت من سهام ومردد

قال ابن إسحاق فزعموا أنه حين أنشد رسول الله ﷺ قوله ودلني على الله من طردت كل مطرد . ضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال : « أنت طردتني كل مطرد » وقال علي رضي الله عنه لأبي سفيان بن الحارث عند إذنه ﷺ له في الدخول عليه انت من قبل وجهه قتل له ما قال إخوة يوسف : « تالله لقد أترك الله علينا وإن كنا لخاطئين » فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً ، ففعل ذلك أبو سفيان فقال له ﷺ : « لا تنزيبَ عليكم اليومَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » .

رسول الله ﷺ

يأذن لأصحابه بالإفطار في رمضان

صام رسول الله ﷺ في سفره إذ كان الشهر رمضان وصام الناس حتى إذا كانوا بالكديد (محل بين عسفان وقديد) أفطر ونادى منادى رسول الله : من أحب أن يصوم فليصم ومن أحب أن يفطر فليفطر . وفي بعض الأيام صبر رسول الله ﷺ على رأسه ووجهه من شدة العطش وهو صائم وفي رواية أنه ﷺ لا يبلغ الكديد بلته أن الناس

(١) ويروى : « ودلني على الحق » ، وزوى : « ودلني مع الله » .

شق عليهم الصيام وأنهم ينظرون فيما فعل أى من صومه ، فاستوى على راحته بعد العصر ودعا بإناء فيه ماء وقيل لبن فشرب ثم ناوله لرجل يجنيه فشرب . قيل له بعد ذلك إن بعض الناس صام فقال : أولئك هم العصاة لأنهم خالفوا أمره لم يفتار ليقنوا على مقاومة العدو ، ولأنه ﷺ قال للصعبة لما دنوا من عدوهم ، إنكم قد دنوتم من عدوكم . والفتار أقوى لكم . فلم يزل رسول الله يفطر حتى انتهى شهر رمضان .

عقد الألوية والرايات

عقد رسول الله ﷺ الألوية والرايات بقديد ودفعها للقبائل كما يأتي :
أعطى لبنى سليم لواء وراية . ولبنى غفار راية . ولأسلم لواءين . ولبنى كعب راية . ولزينة ثلاثة ألوية .
ولجينة أربعة ألوية . ولجماعة أسلموا من بكر لواء . ولأشجع لواءين .

نيران جيش المسلمين

لما نزل ﷺ من الظهران أمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار لتراها قريش أو تسمع بها فتزغب عن كثرتها وجعل على الحرم عمر بن الخطاب رضى الله عنه .
قال الواقدي خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة قتائل يقول يريد قريشاً وقائل يقول يريد هوازن وقائل يقول يريد ثقيفاً .
ثم دعا رسول الله ﷺ أن تسمى عليهم الأخبار واستجاب الله لرسوله ﷺ فأخذ البيون والأبصار من أهل مكة ولم يبلغهم سيره وهم منتفون محزونون خائفون .
وقد كان زحف الجيش سريعاً جداً فإنه وصل إلى نهر الظهران وهي على مرحلة من مكة في اليوم السابع أو الثامن .

ولما رأى أبو سفيان بن حرب كثرة النيران قال ما رأيت كالألوية نيراناً قط ولا عسكرياً .
وأمر رسول الله ﷺ كل قبيلة أن تكون عند راية صاحبها وتظهر مامنها من القوة والعدة فأصبح الناس على ظهر ، وقدم بين يديه الكتائب ومرت القبائل على قادتها والكتائب على راياتها فجعلت القبائل ككتيبة (وفاي) أثناء مرور الجيش كان أبو سفيان واقفاً ينظر إليهم) فأول من قدم خالد بن الوليد رضى الله عنه في بنى سليم ثم مر على أثره الزبير بن العوام ثم مرت كتيبة بنى غفار وكان يحمل رايتهم أبو ذر وهكذا إلى أن مر الجيش بأسره كما تقدم غير أنه لا حاذى سمد بن عباداً أباً سفيان قال « يا أبا سفيان اليوم يوم للحمعة . اليوم تستحل الكعبة »

قتل أبو سفيان بإعباس حينما يوم الدمار^(١) وسمع مقالة سعد بن عبادَةَ أحد الصحابة قَال يارسول الله ماأمن أن تكون لسعد صولة في قريش . فقال لمي رضى عنه أحرکه فخذ الزاية منه ثم أمره أن يسلمها لابنه قيس بن سعد بن عبادَةَ لأنه ﷺ خشي تغير خاطر سعد فأمر بدفعها لابنه .

وأمر رسول الله ﷺ أن تركز رايته بالحجون قال الحلي في السيرة « وفي ذلك الحُلُ يُبنى مسجد يقال له مسجد الزاية » ودخل ﷺ من الثانية العليا وأمر خالد بن الوليد ومن معه أن يدخلوا من الثانية السفلى .

روى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه ﷺ أقبل يوم الفتح من أعلى مكة على راحلته القصواء مردفا أسامة بن زيد رضى الله عنهما خلفه^(٢) ودخل واضعا رأسه الشريف على راحلته تواضعا لله تعالى حين رأى ذلك الفتح العظيم وكثرة المسلمين وهو يقول « اللهم إن العيش عيش الآخرة » وكان دخوله يوم الاثنين وكان مصجرا بشقة برد حيرة حراء .

وكان لواؤه ﷺ يوم دخل مكة أبيض ورايته سوداء تسمى القباب وكانت من برد لمانشة رضى الله عنها وهى التى كانت يجيبر واغتسل لدخول مكة .

وقد أمر رسول الله ﷺ رؤساء الجيش أن يكفوا أيديهم وقال : « لا قاتلوا إلا من قاتلكم » ، فاندفع خالد ابن الوليد رضى الله عنه حتى دخل من أسفل مكة وقد تجمع بها ناس من بنى بكر وبنى الحارث بن عبد مناف وناس من هذيل الذين استنصرت بهم قريش ، قاتلوا خالداً ومنعوه الدخول وشهروا السلاح ورموه بالنبل وقالوا لا تدخلها عنوة ، فصاح خالد في صحابه قاتلهم فانهزموا شر انهزام وقتل من بنى بكر نحو ٢٤ رجلا ، ومن هذيل أربعة حتى انتهى بهم القتال إلى الحزورة وكانت سوقا بمكة^(٣) ثم دخلوا الدور وارقت طاغية منهم على الجبال هربا وتبسم للمسلمون فصاح حكيم بن حزام وأبو سفيان « يا معشر قريش علام تقتلون أنفسكم ؟ من دخل دارى فهو آمن ومن وضع السلاح فهو آمن » فجعلوا يقتحمون الدور وينلقون أبوابها ويعطرون السلاح في الطرق فيأخذهم المسلمون . وقتل من المسلمين رجلا ن أخطأ الطريق أحدهما كرز بن جابر القهري والآخر خالد الأشقر الخزاعى . قال موسى بن عقبة قال رسول الله ﷺ بعد أن أطمأن لخالد رضى الله عنه : قاتلت وقد نهيتك عن القتال . قال . هم بدأوا بالقتال ورمونا بالنبال وقد كفت يدي ما استطعت قال ﷺ فضاء الله خير .

وكان دخوله ﷺ لمشر يثين من رمضان (يناير سنة ٦٣٠ م) ومعه صلى الله عليه وسلم زوجته أم سلمة

(١) ما يترك حاجته (٢) وهذا من مزيد تواضعه على الله عليه وسلم لأن أسامة خادمه وابن خادمه ولو كان فيه ذرة من الكبر لا نل ذلك في هذا اليوم العظيم الذى تبصه فيه الأنظار إليه على الله عليه وسلم .

(٣) كانت الحزورة سوق مكة وقد دخلت المسجد لما زيد فيه . وفى الحديث وقف النبي صلى الله عليه وسلم بالحزوة قال : يا أيها مكة ما أملكك من بلدة وأحبك إلى ولولا أن قوى أخرجوني منك ما سكنت غيرك .

- ٣١٤ -

وميمونة رضى الله عنها ، وأم سلمة هي بنت أبي أمية بن النخعة الخزومي واسمها هند ، وأماميمونة فهي بنت الحارث وهي خالة خالد بن الوليد .

المحكوم عليهم بالقتل

وقد استثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أناساً من الدخول في الأمان وأمر بقتلهم وهم خمسة عشر ما بين رجل وامرأة وهذه أسماءهم :

- ١ - عبد الله بن أبي سرح بن الحارث العامري (أخو عثمان بن عفان من الرضاعة) .
- ٢ - عبد الله بن خطل .
- ٣ - عكرمة بن أبي جهل .
- ٤ - الحويرث بن قُيد .
- ٥ - مقيس بن صبابة .
- ٦ - هبار بن الأسود بن الطلب .
- ٧ - نكسب بن زهير بن أبي سلمى للزنى .
- ٨ - الحارث بن هشام الخزومي وهو أخو أبي جهل لأبويه .
- ٩ - زهير بن أمية الخزومي أخو أم سلمة .
- ١٠ - صفوان بن أمية بن خلف الجهمي .
- ١١ - وحشى بن حرب قاتل حمزة مؤلاء هم الرجال ، وأما النساء فهن :

١٢ ، ١٣ - قيتان كانتا عند عبد الله بن خطل فتنباهن بهجاء النبي صلى الله عليه وسلم وللسلبيين

١٤ - سارة مولاة لبنى الطلب بن عید مناف

١٥ - هند بنت عتبة زوج أبي سفيان أم معاوية

وأكثر هؤلاء أسلموا . وفيما على نذر سبب إهدار دمهم

(١) أبا عبد الله بن أبي سرح فإنه كان أسلم ثم ارتد ولحق بمكة وصار يحكم بكلام قبيح في حق النبي صلى الله عليه وسلم فأهدر دمه ﷺ يوم التتبع . فلما علم بإهدار دمه لجأ إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه وكان أخاً له في الرضاع قتال بأخى استأمن لدى رسول الله ﷺ قبل أن يضرب بمضى . فضربه عثمان رضى الله عنه حتى هدا الناس وأطمانوا

ثم أتى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصار يقول عثمان يا رسول الله أمتته فبايحه والنبي ﷺ يمرض عنه مرارا. ثم قال نعم فيسقط يده فبايحه وأسلم وحسن إسلامه .

وفي السيرة الحلبية : وإتاما أمر ﷺ بقتل ابن أبي سرح لأنه كان أسلم قبل الفتح وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أملى عليه سميعاً بصيراً ، كتب علياً حكياً . وإذا أملى عليه ، علياً حكياً كتب غفوراً رحماً . وكان يفعل هذه الخيانات حتى صدر عنه أنه قال إن محمداً لا يعلم ما يقول . فلما ظهرت حياته لم يستطع أن يقيم بالمدينة فارتد وهرب إلى مكة . وقيل إنه لما كتب « ولقد خلقنا الإنسان من سلالَةٍ من طينٍ » إلى قوله : « ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » تعجب من تفصيل خلق الإنسان فنطق بقوله - فيبارك الله أحسن الخالقين - قبل إملائه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اكتب ذلك . هكذا أنزل . فقال عبد الله ، إن كان محمد نبياً يوحى إليه ، فأنا نبي يوحى إلي . فارتد ولحق بمكة . فقال لقريش ، إني كنت لأصرف محمداً كيف شئت . كان يلى على « عزيز حكيم » فأقول أو علم حكيم . فيقول ، نعم كل صواب . وكل ما أقوله يقول ، اكتب هكذا نزل إلخ .

وأخطأ الأستاذ در منجم في كتاب (حياة محمد) فقال إن اسمه عبد الله بن سعد والصواب ما ذكرنا (٢) عبد الله بن خطل : فإنه كان ممن قدم للمدينة قبل الفتح وأسلم وكان اسمه « عبد العزى » فباه النبي صلى الله عليه وسلم (عبد الله) وبشه لأخذ الصدقة وأرسل معه رجلاً من الأنصار يحميه وكان مسلماً ففزل منزلاً وأمره أن يذبح له تيساً ويصنع له طعاماً ونام ثم استيقظ فلم يجد صنع له شيئاً وهو نائم فلما عليه قتله ثم ارتد مشركاً وكان شاعراً فجعل يهجو النبي صلى الله عليه وسلم في شعره . وكان له قينتان تفنيانه بهجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان يوم فتح مكة ركب فرسه ولبس درعه وأخذ بيده قناة وصار يقسم لا يدخلها محمد عنوة ، فلما رأى خيل المسلمين خاف وذهب إلى الكعبة وألقى سلاحه وتعلق بأستارها فوجده رسول الله عند طوافه وهو بهذه الحال فقال اقتلوه فإن الكعبة لا تعيد عاصياً ولا تمنع من إقامة حد واجب . فقتل واختلف فيمن قتله . فأما القينتان واسمهما فرتنا وقريبة فقتلت قريبة واستؤمن رسول الله لفرتنا فأمنها فأسلت وعاشت إلى خلافة عثمان .

(٣) عكرمة بن أبي جهل : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله لأنه كان من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أشد الناس على المسلمين ولما بلغه أن النبي صلى الله عليه وسلم أصدر دمه هرب ليأتي نفسه في بئر أو يموت تأثماً في البلاد أو كما قول الآن : هرب لينتصر غرقاً أو جوعاً . وكانت امرأته أم حكيم رضى الله عنها بنت عمه الحارث بن هشام رضى الله عنه أسلت قبله فاستأمنت له رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمنه فقال هو آمن نخرجت في طلبه فأدر كته فرجع معها وأسلم أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بعد ذلك من

فضلاء الصحابة وخالد بن الوليد ابن عمه وقتل عكرمة في اليرموك .

(٤) الحويرث بن نُقيد : أهدر دمه رسول الله ﷺ لأنه كان يعظم القول فيه ﷺ وينشد المجاء فيه ويكثر أذاه وهو بمكة وكان قد شارك هبار بن الأسود في نخس جل زينب بنت رسول الله ﷺ لما هاجرت من مكة . قتله على رضى الله عنه .

(٥) مقيس بن صباية : كان قد أسلم ثم أتى على أنصاري قتله وكان الأنصاري قتل أخاه هشام بن صباية خطأ في غزوة « ذى قرد » فظنه من العدو فجاء مقيس فأخذ الدية ثم قتل الأنصاري ثم ارتد ورجع إلى قريش فأهدر رسول الله دمه قتله نائلة بن عبد الله اللبي ، رجل من قومه .

(٦) هبار بن الأسود : كان شديد الأذى للمسلمين ، وكان عرض لزينب رضى الله عنها بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت فنخس بها الجمل حيث سقطت على صخرة وأسطعت جبينها ولم تزل مريضة حتى ماتت واشترك معه في النخس الحويرث بن قبيد الذي مر ذكره ، وأهدر دم هبار بن الأسود يوم الفتح فهرب واختفى ثم جاء النبي ﷺ واعترف بذنبه وأسلم ففعا عنه ومنع للمسلمين من سبه مع أنه كان سبياً في وفاة ابنته .

(٧) كعب بن زهير : كان شاعراً وكان يهجو النبي ﷺ بشعره ، وكان يميز أخاه بجرا الإسلام فأهدر دمه فلما بلغه أنه ﷺ أمر بقتله خاف وخرج حتى قدم المدينة بعد رجوع النبي ﷺ من فتح مكة وأسلم أمامه وأنشد قصيدته للمروعة التي أولها :

* بات سعاد قلبى اليوم متبول *

وقال فيها :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله ساول

فلما وصل إلى هذا البيت رمى عليه الصلاة والسلام إليه بردة كانت عليه وإن معاوية رضى الله عنه في زمن خلافته بذل له فيها عشرة آلاف درهم فقال ما كنت لأؤثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أعطانيه أحداً . فلما مات بث معاوية إلى وريثه بشر بن أفا فأخذها منهم وهى البردة التى كانت عند السلاطين ؛ وكان الخلفاء يلبسونها في الأعياد ، وقيل لما قتلت في وقعة التتار .

وقد كان كعب بن زهير من غول الشعراء ، وكذا أبو زهير وأخوه بجير وابنة عتبة بن كعب وابن ابنه النعمان بن عتبة . (٨) الحارث بن هشام : كان شديداً على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين وابنه عبد الرحمن بن الحارث بن هشام .

(٩) زهير بن أمية : كان أيضاً شديداً في كفره ، كالحارث بن هشام فأهدر رسول الله دمه يوم الفتح فهربا

واختبأ في بيت أم هانئ بنت أبي طالب على رضى الله عنه فأجارتهما فأجاز صلى الله عليه وسلم جوارهما ثم جاءت بهما فأسلما وحسن إسلامهما .

(١٠) صفوان بن أمية : كان من أشد الناس عداوة وأذية لرسول الله وللمسلمين فأهدر رسول الله دمه فاخفى وأراد أن يلقى نفسه في البحر ، فجاهد ابن عمه عمير بن وهب الجهمي رضى الله عنه وقال : يا بني الله إن صفوان سيد قومه وقد هرب ليقذف نفسه في البحر فأمنه . فإني أمنت الأحمر والأسود . فقال رسول الله أدرك ابن عمك فهو آمن . فقال أعطني آية يعرف بها أمانك فإني قد طلبت منه العود فقال لا أعود معك إلا أن تأتيني بعلامة أعرفها فأعطاه صلى الله عليه وسلم عمامته التي دخل بها مكة فلحقه بها وهو يريد أن يركب البحر قتله صفوان أغرب عني لا تكلمني . قال : أي صفوان فذاك أبي وأمي جئتكم من عند أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس وهو ابن عمك عزه عزك وشرفه شرفك وملسكم ملكك . قال إني أخافه على نفسي . قال هو أحلم من ذلك وأكرم وأراه العمامة التي جاء بها فرجع معه حتى وقف على رسول الله . فقال إن هذا يزعم أنك أمنتني قال صدق . فقال أمهاني بالخيار شهرين . فقال ﷺ : أنت بالخيار أربعة أشهر . ولما أراد ﷺ الخروج إلى حرب هوازن استقرض منه أربعين ألف درهم ؛ وطلب منه دروعاً كانت عنده . قال : أغصباً يا محمد ؟ قال : لا ولكن عارية مرجوعة أو مضمونة ثم خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم حين خرج لحرب هوازن وهو على شركة فلما قسم رسول الله غنائم هوازن مجدين أعطاه مائة من الإبل ثم مائة ثم مائة ثم رآه صلى الله عليه وسلم يرمق شعباً مملوفاً نماً وشاء . قال له ﷺ : يجبك هذا ؟ قال نعم . قال هو لك وما فيه . فقبض صفوان مافي الشعب وقال إن للولك لا تطيب نفوسها بمثل هذا ؛ ما طابت نفس أحد قط بمثل هذا إلا نبي . أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله فأسلم وحسن إسلامه ؛ وترك المدة التي كان طلبها .

(١١) وحشى بن حرب : أهدر رسول الله دمه لأنه قتل حمزة رضى الله عنه يوم أحد ، وكانت الصحابة أحرص شئ على قتله ، فلما صنعت مكة هرب إلى الطائف ولما خرج وفد الطائف ليسلوا ضاقت عليه للذاهب فخرج حتى قدم على رسول الله وشهد شهادة الحق ثم خرج وحشى مع من خرج لقتال أهل الردة في خلافة أبي بكر فقتل مسيلة الكذاب بحربه التي قتل بها حمزة رضى الله عنه . فكان يقول أرجو أن تكون هذه بتلك أي أن هذه تكفر تلك .

(١٢ ، ١٣) أما التيفتان فقد تقدم ذكرها .

(١٤) وأما سارة مولاة بنى الطلب فقد أهدر رسول الله دمها لأنها كانت مغنية بمكة فتني بهجاء النبي ﷺ وقيل هي التي كان معها كذاب حاطب بن أبي بلتعة^(١) وكانت قدمت المدينة تشكو الحاجة وتطلب الصلاة فقال لها

(١) راجع السيرة النبوية لدحلان وتاريخ أبي الفداء .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان في غنائك ما يفتيك؟ قالت إن قريشا منذ قُتل من قتل منهم يبدر تركوا الفناء فوصلها وأوقر لها بغيراً طامعاً فرجعت إلى مكة وكان ابن خطل ياتي إليها هجاء رسول الله فتفتي به فاخفت عند فتح مكة ثم استؤمن لها رسول الله فجاءته وأسلمت وحسن إسلامها، وعاشت إلى خلافة أبي بكر .
(١٥) هند بنت عتبة بن ربيعة زوج أبي سفيان وأم ابنه معاوية .

أهدر دمها رسول الله لأنها مثلت بعمه حمزة رضى الله عنه يوم أحد^(١) ولاكت كبده ، فلما كان يوم الفتح اختفت في بيت أبي سفيان زوجها ثم أسلمت . قيل إن بين إسلامها وإسلام زوجها ليلة واحدة وكانت هند امرأة ذات أفة وعقل . حضرت قتال الروم يوم اليرموك مع أبي سفيان ، وكانت تشجع المسلمين وتحرضهم على القتال مع بقية النسوة اللاتي كن معها .

من هذا يتبين أن عدد الذين أهدر دمهم رسول الله خمسة عشر ، لم يقتل منهم إلا أربعة وأسلم الباقون . قال مستر مور إن الذين قتلوا فعلاهم أربعة فقط . وقد اختفى عتبة ومعتب ابنا أبي لهب ثم أسلما واختفى أختها سهيل بن عمرو وكان ابنه مسلماً ثم أسلم بالجحرانة^(٢) .

وجاء في كتاب تاريخ الأمم الإسلامية للرحوم الشيخ محمد الخضرى بك ص ١٨٧ ما يأتى :

« وأمر حين دخوله مكة بقتل أفراد ذوى جرائم خاصة بهم قتل أكرمهم » وهذا ليس بصحيح فالذين قتلواهم الأقول لا الأكثر . وضربت لرسول الله قبة من آدم بالحجون ، فضى الزبير بن العوام براءته حتى ركزها عندها وجاء رسول الله فدخلها فقيل له ألا تنزل منزلك؟ قال : وهل ترك عقيل لنا منزلاً^(٣) ؟ .

الطواف : ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة ومعه المسلمون استلم الركن بمحجته (المحجن عصا في طرفها عتاقة كالصولجان) وكبر فكبر للمسلمون لتكبيره ورجعوا التكبير حتى ارتجت مكة تكبيراً حتى جعل يشير إليهم رسول الله أن اسكتوا وللشركون فوق الجبال ينظرون ، فطاف بالبيت ومحمد بن مسلمة أخذ بزمام الناقة سبعا يستلم الحجر الأسود كل طوفة بمحجته ، وكان ذلك يوم الاثنين لمشر يقين من رمضان كما قدم وهو حلال غير محرم . ولما فرغ رسول الله من طوافه نزل عن راحلته ثم انتهى إلى القام فسلى ركبتين ، ثم انصرف إلى زمره وقال : لولا أن تغلب بنو عبد المطلب لزعزعت منها دلوأ فزع له العباس دلوأ فشرب منه وتوضأ والمسلمون يتسددون وضوءه يصبونه على وجوههم وللشركون يصعبون ويقولون : مارأينا مسلماً قط أبلغ من هذا ولا سمناً به .

(١) رابع غزوة أحد (٢) الجحرانة هي ماء بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب .

(٣) عقيل هو ابن أبي طالب ، ابن عم رسول الله وأخو علي وجعفر لأبويهما وهو أكبرهما ، خرج مع العنكرين إلى بدر مكرها فأسر يومئذ . أسلم قبل الحديبية . وتولى عقيل في خلافة معاوية .

دخوله الكعبة

جلس رسول الله في ناحية المسجد وأبو بكر رضى الله عنه قائم على رأسه بالسيف ثم دعا عثمان بن طلحة حاجب الكعبة فأخذ منه مفتاح الكعبة ودخلها وصلى ركعتين بين العمودين اليمانيين ، ثم وقف على باب الكعبة وقال :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له . صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين إلا سداة البيت ^(١) وسقاية الحاج . ألا وقتل الخطأ مثل العد . السوط والمصا فيها الدية مغفلة فيها أربعون خلفة ^(٢) في بطونها أولادها . يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعلما بالآباء . الناس من آدم وآدم خلق من تراب . ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ ﴾ الآية . يا معشر قريش ويا أهل مكة ما ترون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيرا . أخ كرم وابن أخ كرم . ثم قال :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » - فأعقبتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد كان الله أمكنه من رقابهم عنوة وكانوا له فينا فيذلك يسمى أهل مكة « الطلقاء » ^(٣) أما مفتاح الكعبة فقد رده رسول الله إلى عثمان بن طلحة وقال خذوها يا بني أبى طلحة خالد لا ينزعها منكم أحد إلا ظالم ^(٤) ودفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب ^(٥) .

وفي هذا اليوم صار رسول الله سيد مكة بعد أن هاجر منها مضطهدا واستولى جيشه عليها وقضى على الشرك وهدم الأصنام كما سيأتى .

بيعة أهل مكة

اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله فجلس لهم على الصفا وعمر بن الخطاب تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسفل من مجلسه يأخذ على الناس فبايع رسول الله على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا ، وكذلك كانت بيعة لمن بايع رسول الله من الناس على الإسلام ، وبينما رسول الله يبايع الناس ، جاءه رجل فأخذته الرعدة ، فقال رسول الله هون عليك ، فزنى لست بمك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد . ومن جملة

(١) سداة البيت : خدمة . (٢) الخلفة : الناقة الحامل .

(٣) ومن ذلك كان على عليه السلام يقول لما وية « أتى يستوى الولو والمثق » ينى اعتناقكم حين مكنتنا الله من رعاكم .

(٤) هاجر عثمان بن طلحة إلى رسول الله في هدنة المدينة مع خالد بن الوليد ولبيهم في الطريق عمرو بن العاص كما تقدم فأسلموا وأقام عثمان بالمدينة ، فلما تولى رسول الله ، انتقل إلى مكة فأقام بها حتى مات سنة ٤٢ هـ .

(٥) العباس بن عبد المطلب هو جد الخلفاء العباسيين .

من بابه في ذلك اليوم على الإسلام « معاوية بن أبي سفيان » فرحب به رسول الله ثم كان من كتاب الوحي .
فلما فرغ رسول الله من بيعة الرجال بايع النساء واجتمع إليه نساء من نساء قريش فبين هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان
متنقبة متفكرة لحدها وما كان من صنعها بحمرة فهي تخاف أن يأخذها رسول الله بحدها ، فلما دنون منه ليبايعه
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تبايعني على أن لا تشركن بالله شيئاً . وقالت هند : وإنك لتأخذنا علينا أمراً
ما تأخذنا على الرجال وسنؤتيه . قال ولا تسرقن . قالت والله إني كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة
وما أدري أكان ذلك حلالاً أم لا ؟ فقال أبو سفيان - وكان شاهداً لما يقول - أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه
في حل . قال رسول الله وإنك لهند بنت عتبة ؟ قالت أنا هند بنت عتبة فأعف عما سلف ، قال : عفا الله عنك . قال
ولا تزين . قالت يا رسول الله هل ترى الحرة ؟ قال ولا تقتلن أولادكن . قالت قد رينام حضاراً وقتلهم يوم بدر
كباراً فأنت وم أعلم (فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب) ، ولا تأتين بيتان تغتربه بين أيديكن
وأرجلكن . قالت والله إن إتيان البيتان لتبيع ولبعض التجاوز أمثل قال ولا تصينني في معروف . قالت ما جلنا
هنا المجلس ونحن نريد أن نصيبك في معروف . فقال رسول الله لعمر : يا عمر ، واستغفر لمن رسول الله .
وكان رسول الله لا يوافق النساء ، ولا يمس امرأة وتمسه إلا امرأة أحلها الله له أو ذات محرم منه . إنما كان رسول الله
يبايع النساء بالكلام ولما أسلمت هند ، عمدت إلى صنم كان في بيتها وجعلت تضربه بالقدم وتقول :
« كنا منك في غرور » .

هذا وقد ذهب الشافعي وأحمد رضي الله عنهما إلى أن رسول الله دخل مكة وملكها صلحاً ويرى أبو حنيفة
والأكثر أنهما قد فتحها عنوة . وعلى كل حال لم يحارب رسول الله قريشاً ولم يأمر أحداً من قواده بحربهم بل دخل
مكة بلا حرب ، فلم ينتقم من اضطهاده وأخرجوه من بلده وتأمرؤا على قتله بل صفح عنهم عند القدرة
بل لم يحمل عند دخوله مكة سيفاً .

هدم الأصنام

دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح وعلى الكعبة (٣٦٠) صنماً لكل حي من أحياء العرب صنم
قد شدا أقدامها بالراس . فجاء ﷺ ومعه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم فيخر لوجهه وهو يقول :
(جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْأَيْلُ إِنَّ الْأَيْلَ كَانَ زَهُوقاً) . وأمر بكسر هبل^(١) وقد أخرجت جميع الأصنام من المسجد
وأحرقت ومحت كل صورة بالكعبة وأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في أيديهما الأزام التي كانوا
يستقسمون بها ، ونادى منادى رسول الله ﷺ بمكة من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنماً
إلا كسره ، فكسروا الأصنام التي كانت في بيوتهم بلا تردد ثم بعث رسول الله السرايا لكسر الأصنام التي حول

(١) راجع باب عبادة الأصنام .

- ٣٢١ -

مكة لأنهم كانوا اتخذوا لهم أصناماً جعلوا لها بيوتاً يعظمونها ويهدون لها ويطوفون بها كما يطوفون بالكعبة ، فكان في كل حيٍّ ضمُّ فيها « الرزى ومناة وسواع وبوابة وذو الكفنين » .

أذان بلال على ظهر الكعبة

أمر رسول الله ﷺ بلالاً رضي الله عنه أن يؤذن ظهر يوم الفتح على ظهر الكعبة ، فلم يرق أذان بلال لبعض من سمعه من أهل مكة فن قال : « أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً ؟ » وقال الحكم بن العاص « والله إن هذا لحلت عظيم . عبد بن جح يصيح على بنية أبي طلحة ! » ولم يقل أبو سفيان شيئاً خشية أن يعلم بقوله رسول الله ﷺ حتى من الحصباء وصار بعض من قرش يستهزئون ويمكرون صوت بلال غيظاً وكان من جلهم أبو محذورة^(١) وكان من أحسنهم صوتاً فلما سمعه رسول الله ﷺ أمره أن يؤذن لأهل مكة وكان سنة ١٦ سنة .

إسلام أبي قحافة (عثمان بن عامر التيمي)

والد أبي بكر الصديق

ذهب أبو بكر رضي الله عنه وجاء بأبيه عثمان ويكنى بأبي قحافة يقوده وقد كف بصره فلما رآه ﷺ قال : هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتية ؟ فقال أبو بكر : هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي أنت إليه . فأجلسه بين يدي رسول الله ﷺ ففتح رسول الله ﷺ صدره وقال : « أسلم تسل » فأسلم وهما رسول الله ﷺ وأبا بكر بإسلام أبيه . ويلاحظ أن إسلام أبي قحافة تأخر إلى فتح مكة فلم يسلم إلا بعد عشرين سنة أي بعد أن أسلمت قریش . قال للسعودي : « توفي أبو قحافة في خلافة عمر بن الخطاب وهو ابن تسع وتسعين سنة وذلك في سنة ١٣ هجرية وهي السنة التي استخاف فيها عمر بن الخطاب » وهو أول من ورث خليفة في الإسلام . أقام رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم بمكة بعد فتحها ثمانية عشر يوماً (كما اعتسده البخاري) بقصر الصلاة في مدة إقامته بها لأنه كان يترقب السير إلى حرب هوازن لسماحه بتجهزهم لحاربه .

ولما فتح رسول الله ﷺ مكة أشار إلى الأصنام فسقطت لوجها ، فقال راشد بن خصص :

قالت لهم إلى الحديث قفلت لا يأبى عليك الله والإسلام
لو ما شهدت محمداً وقبيله بالفتح حين تكسر الأصنام

(١) اسمه أوس بن معمر بن لؤذان بن دبيعة بن عرج بن سعد بن جح . غلبت عليه كنيته . توفي بمكة سنة ٥٩ هـ .

لأبت نور الله أضى ساطعاً والشرك ينشئ وجهه الإخلاص
 وكان راشد هذا سادن صنم بنى سليم الذى يدعى سواعاً . قال له رسول الله ﷺ : ما سمكت؟ قال غاوى بن
 غلام : قال : أنت راشد بن عبد الله .
 وبعد فتح مكة ترك العرب عبادة الأصنام واعتنقوا الإسلام وحاربوا مع رسول الله ﷺ حتى كان ذلك انتصاراً
 عظيماً وفتحاً مبيناً . وقد حرم الإسلام الصور والرمية وسواى بين الناس ورفع شأن المرأة ومنحها حقوقاً كانت
 محرومة منها وقضى على الفسق والفجور وحرم وأد الأولاد وحروب الجاهلية والأخذ بالثأر وشرب الخمر وأكل لحم
 الخنزير وللبسر والربا والرشوة مما كان شائعاً فى الجاهلية ونشر العدل بين الناس وأمنهم على أرواحهم وأموالهم
 واحترم حرمة النازل وأوجب احترام الوالدين وحماية الأرمال والأيتام وفرض الزكاة وحض على الرفق بالحيوان إلى
 غير ذلك مما هو مفصل فى كتب الشريعة .

سرية خالد بن الوليد

إلى المزنى^(١)

بعد أن قضى رسول الله ﷺ على الأصنام التى كانت على الكعبة ومحاكل صورة بها وكسرت الأصنام التى
 كانت فى البيوت بأمره، وجه نظره إلى هدم الأصنام الأخرى المجاورة لمكة حتى تطهر البلاد من الوثنية ويمهد الله
 الواحد القهار وثبت دعائم الدين الصحيح فبعث حين فتح مكة مجلس ليلال بقين من شهر رمضان سنة ثمان من
 الهجرة خالد بن الوليد إلى المزنى ليهدمها فخرج فى ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهى إليها فهدمها ثم رجع إلى
 رسول الله ﷺ فأخبره . فقال هل رأيت شيئاً؟ قال لا . قال لم تهدمها . فارجع إليها فهدمها . فرجع خالد وهو
 متغيظ فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ناشرة الرأس فجعل السادن^(٢) يصيح بها ففرض بها خالد فجزلها^(٣)
 اثنين ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال : نعم تلك المزنى وقد بثت أن تعبد ببلادكم أبداً ، وكانت بنخلة (على
 بعد ليلة من مكة) وكانت لقرش وجميع بنى كنانة ، وكانت أعظم أصنامهم وكان سدنتها بنو شيبان من بنى سليم .
 قال ابن حبيب : المزنى شجرة كانت بنخلة عندها وثن تعبده غطفان فلما بث رسول الله ﷺ خالد بن
 الوليد قطع الشجرة وهدم البيت وكسر الوثن، والبيت كان مبنياً على المزنى وكانوا يهدون لها كما يهدون للكعبة
 ويعولون وينحرون عندها .

(١) المزنى تأبث الأعر مثل الكعبة تأبث الأكبر . والأعر بمعنى المزرى والمزى بمعنى المزينة ومن أحدث من اللات ومناة
 وكانت العرب وفريش تسمى بها عبد المزنى .

(٢) السادن : الحامد . (٣) جزلها : قتلها .

سرية سعد بن زيد الأشملي

إلى مناة

مناة صنم للأوس والخزرج وغسان وكانت بالمثلل^(١) ومناة من أقدم الأصنام وكانت العرب تسمى عبد مناة وكانوا يحجون إليها ولم يكن أشد إعظاماً لها من الأوس والخزرج .

بعث رسول الله سعد بن زيد الأنصاري الأشملي^(٢) إلى مناة ليهدها^(٣) وذلك لست بقين من شهر رمضان فخرج في عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعليها سادن . (خادِم) فقال السادن ما تريد ؟ قال هدم مناة . قال أنت وذلك . فأقبل سعد يمشي إليها فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها . قال السادن مناة دونك بعض غضبانك فضربها سعد قتلها وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدموه ولم يجدوا في خزانها شيئاً . وما ذكر من أن الذي ذهب لهدمها سعد بن زيد الأشملي هو ما مشى عليه في اللواهب تبعاً لطبقات ابن سعد وفي سيرة ابن هشام أنه على بن أبي طالب رضى الله عنه .

وسعد بن زيد الأشملي هو الذي كان بعثه النبي ﷺ بسبيلاً من سبيلها فزطه إلى نجد ليتابع بهم خيلاً وسلاحاً ومن الضحك حقاً ، اختفاء تلك المرأة السوداء في الصنم لتخيف من يتعدى عليه وليهم عباده بماله من قوة وروية .

سرية عمرو بن العاص

إلى سِوَاع

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة بعد فتح مكة عمرو بن العاص إلى سِوَاع - اسم صنم لهذيل - على ثلاثة أميال من مكة وكان بأرض يقال لها زُحاط من بطن نخلة وكانت سدنة من بني لحيان ، قال عمرو فانتهيت إليه وعنده سادن فقال ما تريد ؟ قلت أمرني رسول الله أن أهدمه . قال لا تقدر على ذلك . قلت لم ؟ قال تمنع . قلت حتى الآن أنت في الباطل ويحك وهل يسمع أو يبصر ؟ قال فدنوت منه فكسرتة وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئاً . ثم قلت للسادن كيف رأيت ؟ قال أسلمت الله . ولم نجد في كتب التاريخ عدد الذين كانوا مع عمرو بن العاص رضى الله عنه عند ما ذهب إلى هدم سِوَاع .

(١) جبل على ساحل البحر يهدأ منه إلى قديد . (٢) شهد سعد بن زيد بدرًا .

(٣) مناة : اسم صنم في جهة البحر مما إلى قديد بالمثلل على سبعة أميال من المدينة . وكانت الأزدي وغسان يهلون له ويحجون إليه (بالوت) .

سرية خالد بن الوليد

إلى جذيمة

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في شوال سنة ثمان من الهجرة إلى بني جذيمة من كنانة وكانوا بأسفل مكة على ليلة ناحية يَلَسَّمْ وهو يوم التَّمِيعاء داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه مقاتلاً ففرج في ٣٥٠ رجلاً من المهاجرين والأنصار وبني سليم فالتهمى بهم خالد فقال من أنتم؟ قالوا : مسلمون قد صلبنا وصدقنا بمحمد وبينا للساجد في ساحاتنا وأذنا فيها . قال : فما بال السلاح عليكم؟ قالوا : إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة نفخنا أن تكونوا هم فأخذنا السلاح . قال فضعوا السلاح فوضعوه . فقال لهم استأثروا . فاستأثر القوم . فأمر بعضهم فكشف بعضاً وفرقهم في أصحابه . فلما كان في السحر نادى خالد : من كان معه أسيرٌ فليداقه^(١) . فأما بنو سليم قتلوا من كان في أيديهم ، وأما المهاجرون والأنصار فأرسلوا أسراهم فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ما صنع خالد فرفع يديه فقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » وبعث على بن أبي طالب ومعه مال فودى لهم قتلهم وماذهب منهم ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره .

كانت بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهلية عوف بن عبد عوف أبا عبد الرحمن بن عوف والفاكه بن للنيرة (عم خالد) وكانا أقبلتا تاجر من اليمن حتى إذا نزلا بهم قتلوهما وأخذوا أموالهما . فلما أرسل خالد بن الوليد إلى بني جذيمة وقتل منهم من قتل مع أنه لم يؤمر بقتالهم تبرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم مما صنع خالد لأنهم أعلنوا إسلامهم . وكان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف كلام في ذلك إذ قل له عبد الرحمن : علمت بأمر الجاهلية في الإسلام . فقال خالد إنما تأرت بأبيك . فقال عبد الرحمن بن عوف كذبت . قد قتلت قاتل أبي ولكنك إنما تأرت بمك الفاكه بن للنيرة حتى كان بينهما شيء . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال مهلا ياخالد . دع عنك أصحابي فوالله لو كان لك أحدٌ ذهباً ثم أفتقته في سبيل الله ما أدركت عُدوةَ رجل من أصحابي ولا روحته ؛ قال النبي كان يقول الحق ولا يبخس أحداً مهتماً أو من قوة . لذلك لم يُخْفَ عن خالد استقباه مما فعل .

- ٣٢٥ -

غزوة حنين

١٠ شوال سنة ٥٨ هـ - فبراير سنة ٦٣٠ م

حُنين واد في طريق الطائف إلى جنب ذى الحجاز بينه وبين مكة ثلاث ليال وتسمى غزوة أوطاس^(١) اسم لوضع كانت به للوقعة وهو واد في ديار هوازن . وتسمى الغزوة أيضاً غزوة هوازن . وهوازن اسم قبيلة كبيرة من العرب فيها عدة بطون وكانت هذه الغزوة في ١٠ شوال سنة ثمان من الهجرة (فبراير سنة ٦٣٠ م) .

وسببها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة خافت أشراف هوازن وتقيف أن يسير إليهم ويفزؤهم فزعموا على قتاله قبل أن يقاتلهم ويقال إنهم كانوا يستعدون للقتال قبل فتح مكة وذلك حين سمعوا بخروج رسول الله من المدينة وهم يظنون أنه إنما يريد فأسندوا الرئاسة والقيادة إلى مالك بن عوف أحد بني نضر وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فاجتمع إليه من القبائل جموع كثيرة منهم بنو سعد بن بكر وهم الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مسترضعاً فيهم ومعهم دؤيد بن الصمة رئيس بني جشم وسيدهم وكان شجاعاً مجرباً لكنه كان شيخاً بلغ مئة وعشرين سنة وقيل أكثر من ذلك وقد عصى وصار لا ينفع إلا برأيه وخبرته ومعرفته بالحروب . وكان قائد تقيف كنانة بن عبد ياليل وقد أسلم بعد ذلك .

قوة العدو واستعداداته

كان قائد هذا الجيش كما قلنا مالك بن عوف فأمرهم أن يسوقوا معهم إلى الحرب كل شيء : اللواشى والأموال والنساء والأبناء كي يهزموا إلا أنهم اشترطوا عليه أن يأخذ برأى دريد بن الصبة لأنه شجاع وخبير بالحروب ، فلما تزلوا بأوطاس قال دريد : مالى أسمع رضاء البعير ونهاق الجبر وبكاء الصغير ويعار الشاء وخوار البقر ؟ فقيل له إن مالك بن عوف ساقهم إلى القتال ، فاستدعاه فلما جاء سألهم قال أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله يقاتل عنهم ، فلم ير رأيه وأشار عليه برد الذرية والأموال فلم يقبل ورماه بضعف الرأى لكبر سنه . ثم أمر مالك بالخليل فجعل صفواً ثم جعل النساء فوق الإبل واللقاة صفواً ثم جعل الإبل والبقر والغنم وراء ذلك كيلا يفروا ويقاتلوا عن مالهم ونسائهم وذرائعهم . ثم قال للناس إذا رأيتموني شددت عليهم فشدوا عليهم شدة رجل واحد .

(١) يجوز أن يكون متولاً من جم وطيس وهو التنور وقيل الوطيس : تقرة في حجر تفرق تحتها النار فيطبخ فيه اللحم . ويومئذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الآن حى الوطيس ، وذلك حين استمرت الحرب . وهو أول من قاله .

وكان جملة من اجتمع من بني سعد وتقيف ٤٠٠٠ وانضم إليهم من سائر العرب جموع كثيرة وكان مجموعهم كلهم نحو ٢٠.٠٠٠ وكانت موازن رماة .

قوة جيش المسلمين واستعدادهم

كان مع النبي صلى الله عليه وسلم ١٢.٠٠٠ (منهم ١٠.٠٠٠ الذين جاؤوا معه من المدينة لفتح مكة و٢.٠٠٠ من الذين أسلموا في فتح مكة) قال أبو بكر « لا نغلب اليوم من قلة » وقيل قالها غيره .
وذكروا رسول الله عند عزمه على الخروج أن عند صفوان بن أمية دروعاً وسلاحاً فأرسل إليه فأعطاه مئة درع بما يكتفيها من السلاح وفي رواية ٤٠٠ درع وسأله رسول الله أن يكتفيهم حملها إلى موضع القتال ففعل . واستعار أيضاً من نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وهو ابن عمه عليه السلام ٣٠٠٠ رمح وقال كأي أنظر إلى رماحك هذه تصف ظهر للمشركين .

خرج رسول الله من مكة يوم السبت لست خلون من شوال سنة ثمان من الهجرة (٢٨ يناير سنة ٦٣٠ م) وأهل مكة معه ركباً و مشاة حتى النساء ومن لم يكلل لإسلامه . واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم عقاب ابن أسيد بن أبي العيص على مكة أميراً وكان شاباً وترك معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي يعلم الناس الأحكام والشرائع لأنه كان عالماً بالقرآن ومتبحراً في الدين .

ترتيب صفوف المسلمين وتوزيع الرايات

ولما اقترب رسول الله عليه السلام من مكان العدو رتب أصحابه وصفهم ووضع الألوية والرايات من المهاجرين والأنصار بالكيفية الآتية :

- ١ - علي بن أبي طالب - لواء المهاجرين .
- ٢ - راية لسعد بن أبي وقاص .
- ٣ - راية لعمر بن الخطاب .
- ٤ - الحباب بن المنذر - لواء الخزرج .
- ٥ - أسيد بن حضير - لواء الأوس .

ورتب قبائل العرب ووزع عليهم الألوية والرايات ولبس رسول الله درعين والبيضة والمغفر وركب بنتله دلال وقدم سلباً من يوم خرج من مكة واستعمل عليهم خالد بن الوليد فلم يزل في مقدمته حتى ورد الجمرانة .

جواسيس المدو

أرسل مالك بن عوف رئيسي هوازن ثلاثة نفر من الجواسيس ينظرون إلى جيش المسلمين فرجعوا خائفين ونصحوا بالعودة فرامهم بالجلن وحبسهم عنده خوفاً أن يشعروا ذلك في جيشه فتبسط مهمهم ونغور عزائمهم

جاسوس المسلمين

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من أصحابه وهو عبد الله بن أبي حذرد الأسلي وأمره أن يدخل في جيش العدو ويسمع منهم ما أجعوا عليه فكث يوماً أو يومين ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره أنه اتبع إلى خباء مالك بن عوف وعنده رؤساء هوازن فسمعه يقول لأصحابه إن محمداً لم يقاتل قوماً قط قبل هذه المرة وإنما كان يلقي قوماً أغماراً لا علم لهم بالحرب فيظهر عليهم فإذا كان السحر فصفوا مواشيكم ونساءكم وأبناءكم من ورائكم . ثم صفوا . ثم تكون الحملة منكم واكسروا أغلاد سيوفكم فقلقوه بعشرين ألف سيف واحلوا حملة رجل واحد واعلموا أن القلبة لن حل أولاً .

القتال

لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمحنيين وانحدر في الوادي وذلك عند غيش الصبح خرج عليهم القوم وكانوا قد كنوا لهم في شهاب الوادي وهضايقه محلاً بإشارة دريد بن الصمة فحمل عليهم المسلمون فأنكشوا ثم انشغلوا بالفتنائهم ، وذلك يذكرنا بما حدث في غزوة أحد فمنهم لما رأوا العدو ولَّى هارباً انشغلوا عن الحرب يجمع الغنائم وفارق الرماة للسكان الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالبقاء فيه فأنكشفت المسلمون وكرّ عليهم خالد بن الوليد الخ . وفي هذه الغزوة لما انشغل المسلمون بالفتنائم استقبلهم العدو بالسهم فنادوا منزهين لا يلقى أحد حل أحد وانكشفت خيل بني سليم مولية وكانت مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فتبعهم أهل مكة والذئس فانهزموا . وكانت هوازن رماة .

ثبات رسول الله ﷺ

وقد ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ثبت في غزوة أحد وكان ثباته سبباً في كسب اللقطة فإنه انحاز

- ٣٢٨ -

ذات الحنين ومعه نفر قليل منهم أبو بكر . وعمر . وعثمان . وعلى . والعباس وابنه الفضل . وأبو سفيان
ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عمه صلى الله عليه وسلم . وأسامة بن زيد . وربيعة . والحارث بن عبد المطلب .
وعتبة . ومعتب (ابنا أبي لهب) . وأمين بن أم أيمن ، واختلف في عدد من ثبت مع رسول الله . وقيل لأنهم
لم يبلغوا مئة وكان رسول الله يركض وهو على بقلته نحو هوازن وهو يقول :
« أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب » . ولم يقل أنا ابن عبد الله لأن العرب كانت تنسبه إلى جده
عبد المطلب لشهرته ولوت عبد الله في حياته .
وأخذ كفنا من تراب فرماه في وجوه المدو فأثلا شامت الوجوه . فانهزموا . وهذا الرمي وقع مثله في غزوة
بدر وهو من معجزاته ﷺ .

الانتصار بعد الهزيمة

لما ثبت رسول الله ﷺ ولم يبق معه إلا بعض أصحابه ، قال لعمه العباس اصرخ : يا مبشر الأنصار
يا أصحاب السمره^(١) . وكان العباس عظيم الصوت ، وفي رواية قال له ناد : يا أصحاب البيعة يوم الحديبية يا أصحاب
سورة البقرة . فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنت على أولادها فأترهم أن يصدقوا الحملة على المدو فاقفلوا قتالا شديداً
فنظر إلى قتالهم فقال « الآن حمى الوطيس^(٢) » فولى للشركون الأديار والسلمون يقتلون ويأسرون فيهم
ويقيمون آثامهم وقتل بعض المسلمين ذرية المدو فبهام رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الذرية وقال
« من قتل قتيلاً فله سلبه » . وقتل دريد بن الصمة^(٣) قتله ربيعة بن رفيع السلمي وجرح خالد بن الوليد
جراحات أهلت به . فقتل النبي صلى الله عليه وسلم في جرحه نهريئ . ولما وقعت الهزيمة أسلم ناس من كفار
مكة وغيرهم .

غنائم المسلمين

كانت غنائم المسلمين كما يأتي :

أسر من المدو خلق كثير ومن النساء نحو ٦٠٠٠ وغنم للمسلمون من الإبل ٢٤٠٠٠ بعير . ومن الفقم
أكثر من ٤٠٠٠ شاة . ومن الفضة ٤٠٠٠ أوقية .

(١) الشجرة التي كانت تحتها بيعة الرضوان (٢) الوطيس : التنور . وحمى الوطيس من الكلمات التي لم تسمع إلا منه صلى الله عليه وسلم
وهي مثل يضرب لشدّة الحرب (٣) من حكم دريد : لا أكمل والفاحشة في النساء فإنها عار أبدي وعقوبة غد ، وعليكم بسلامة الرحم
فإنها تغنم القتل وتزين النسل . من أسدى إليكم خيراً فأضطروه له ولا فلا تميزوا أن تكونوا مثله .

- ٣٢٩ -

تقسيم الزنائب

بدأ رسول الله ﷺ بالأموال قسمها وأعطى للزينة قلوبهم^(١) أول الناس فأعطى أبا سفيان بن حرب ٤٠ أوقية من الفضة و ١٠٠ من الإبل وكذا ابنيه يزيد ومعاوية وأعطى حكيم بن حزام ١٠٠ من الإبل ثم سأله مئة أخرى فأعطاه إياها . وأعطى النضر بن الحارث بن كلفة ١٠٠ من الإبل وكذا أسيد بن جارية الثقفي والحارث ابن هشام . وصفوان بن أمية . وقيس بن عدى . وسهيل بن عمرو . وحويطب بن عبد الرزى . والأقرع ابن حابس التميمي . وعيينة بن حصن . ومالك بن عوف .
وأعطى العباس بن مرداس ٤٠ من الإبل فقال في ذلك شعراً فأعطاه ١٠٠ من الإبل ، وأعطى خزيمة بن نوفل ٥٠ بغيراً وكذا العلاء بن حارثة وسعيد بن ربوع وعثمان بن وهب وهشام بن عمرو الماسري . فبلغ ما أعطى ممن ذكروا ١٤٨٥٠ من الإبل وأعطى ذلك كله من الخمس (قال ابن سعد وهو أثبت الأقاويل عندنا) ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الناس والفنائهم ثم فضاها على الناس فكانت سهام كل رجل أربعة من الإبل وأربعين شاة فلن كان فارساً أخذ اثني عشر من الإبل و ١٢٠ شاة . وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم له .

رد السبي

قدم وفد هوازن على النبي ﷺ وهم أربعة عشر رجلاً ورأسهم زهير بن سرد وفيهم أبو برقان عم رسول الله من الرضاة وهو من بني سعد . وقد جاءوا مسلمين فسألوه أن يمن عليهم بالسبي فرضى رسول الله ﷺ ورضى المسلمون بما رضى به رسول الله ﷺ وردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ولم يخاف منهم أحد غير عيينة بن حصن وكان من الأعراب الجفنة فإنه أبى أن يرد عجزاً صارت في يده منهم ثم ردها بعد ذلك ووفد عليه ﷺ مالك بن عوف رئيس هوازن فرد عليه أهله وماله وأعطاه مئة من الإبل كما تقدم وأسلم وخسن إسلامه واستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه .

الزنائب والأنصار

لما رأته الأنصار ما أعطى رسول الله ﷺ في قریش والعرب تسكوا في ذلك وقالوا نحن الرجل إلى أهله قال رسول الله ﷺ : يا معشر الأنصار أما ترضون أن يرجع الناس بالنساء والبغير وترجعون رسول الله ﷺ إلى رجالكم ؟ قالوا رضينا يا رسول الله ﷺ بك خطأ وقصاً . فقال رسول الله ﷺ : « اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » .

(١) الزينة قلوبهم : النساء للزينة والإحسان والوردة وكانوا من أشرف العرب ، فمن كان يبعثه دفناً لأذاه ، ومنهم من كان عليه طمناً لإسلامه وإسلام أتباعه ، ومنهم من كان يبعثه ليليت على إسلامه ففرب عهده بالأمالية . قال بعضهم ففانولك أبو بكر الصديق ونفا الإسلام منهم وقال « انقضت الرضا » .

رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة

انصرف رسول الله ﷺ وكان قد انتهى إلى الجمرانة ليلة الخميس لحس ليال خلون من ذى القعدة فأقام بها ثلاث عشرة ليلة . فلما أراد الانصراف إلى المدينة خرج ليلة الأربعاء لاثنتي عشرة بقين من ذى القعدة ليلاً فأحرم بمكة ودخل مكة فطاف وسعى وحلق رأسه ورجع إلى الجمرانة من ليالته كباث ثم غدا يوم الخميس حتى خرج على سرف^(١) ثم أخذ الطريق على مر الظهران ثم إلى المدينة .
ولقد أنزل الله تعالى في هذه الواقعة في سورة التوبة :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾ .

وفي هذه الغزوة سمى طلحة بن عبيد الله « الجواد » لكثرة إنفاقه على المسكر وقيل سمى « الفياض » .

سرية أبي عامر الأشعري

أو سرية غزوة أوطاس (هوازن)

أبو عامر الأشعري هو عم أبي موسى الأشعري وكان أبو عامر من كبار الصحابة . لما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من حنين بسطه على جيش إلى أوطاس خلف الفارين من هوازن وكان للتهزمون اضمسوا ثلاث فرق : فرقة منهم لحق بالطائف . وفرقة بنخلة . وفرقة بأوطاس . فأتى إليهم أبو عامر فإذا هم مجتمعون فناوشوه القتال وقتل منهم أبو عامر تسعة مبارزة بعد أن يدعو كل واحد منهم إلى الإسلام وأقلت منه العاشر ثم استشهد أبو عامر ، قتله أخوان هما البلاء وأوفى ابنا الحارث بن جشم . ثم خلف أبا عامر أبو موسى رضي الله عنه باستخلاف عمر له فأقره الناس قاتل القوم حتى هزمهم وظفر المسلمون بالنخلة والسبيل .

سرية الطفيل بن عمرو الدوسي

إلى ذى الكفئين

لما أراد رسول الله ﷺ السير إلى الطائف بسط الطفيل بن عمرو^(٢) الدوسي إلى ذى الكفئين^(٣) وذلك في شوال

(١) يفتح أوله وكسر ثانيه وهو موضع على ستة أميال من مكة (٢) كان الطفيل شريفاً شاعراً ليلاً وقد تقدم ذكر إسلامه فليراجع (٣) ذى الكفئين صنم من خضب لعمرو بن حمة الدوسي .

سنة ثمان من الهجرة ليهدمه وأمره أن يستمد قومه ويؤاقيه بالطائف فنخرج سريعاً إلى قومه فهدم ذا الكعبين وجعل
يخس النار في جوفه ويحرقه ويقول :

يا ذا الكعبين لست من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إلى حششت النار في فؤادكا

والحدر معه من قومه ٤٠٠ سراعاً فوافوا النبي صلى الله عليه وسلم بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام وقدم

بداية ومنجنيق .

هذا وقد ذكرت الدبابات والمنجنيق لأول مرة في غزوة خيبر .

غزوة الطائف

شوال سنة ٨ هـ فبراير سنة ٦٣٠ م

كانت غزوة الطائف في شوال سنة ثمان من الهجرة (فبراير سنة ٦٣٠ م) وقد تقدم ذكر الطائف عندما
سافر إليها رسول الله بعد وفاة أبي طالب وخديجة يتنمس من حثيف النصره فغذوه وعاد إلى مكة وكان ذلك سنة
عشر من البعثة . أما في هذه المرة فإنه خرج من حنين يريد الطائف لينزوها لما علم أن مالك بن عوف وجعاً من
أشراف قومه لحقوا بالطائف عند انهمامهم وقد كانت حثيف رَمَوْا حصنهم وأدخلوا فيه ما يصلحهم لسنة فلما نهزموا
من أوطاس دخلوا حصنهم وأغلقوه عليهم وتهاؤا القتال وكان معهم مالك بن عوف النضري وسار رسول الله فزل
قريباً من حصن الطائف وعسكر هناك فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة وقتل منهم
اثنا عشر رجلاً فيهم عبد الله بن أبي بكر الصديق يومئذ فاندمل الجرح ثم انتفض به بعد ذلك فأت منه وأصيب
عين أبي سفيان فأبى النبي ﷺ وعينه في يده فقال يارسول الله هذه عيني أصيبت في سبيل الله فقال له إن شئت
دعوتُ فردت عليك وإن شئت فعين في الجنة قال : في الجنة ورمى بها من يده^(١) .

فارتفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضع مسجد الطائف الذي أنشأه بعد ذلك وكان معه ﷺ من
نساءه أم سلمة وزينب فضرب لها قبتين وكان يصلي بين القبتين الصلاة مقصورة ودام حصار الطائف ثمانية عشر
يوماً . ونصب عليهم المنجنيق ونثر الحسك سقبين من عيدان حول الحصن ونادى منادى رسول الله : أيما عبد نزل
من الحصن وخرج لنا فهو حر فخرج منهم بضعة عشر رجلاً فأعققتهم رسول الله .

(١) وقلت عنه الثانية في اليومك عند مفاتحة الروم وكان يحرض المسلمين على قتال الروم والبيان لهم .

- ٣٣٢ -

وأمر رسول الله بقطع أعنانهم وتحريقها قطعاً للسلون قطعاً ذريعاً ثم سألوهم أن يدعوا فتركها . ولم يؤذن رسول الله في فتح الطائف فأمر عمر بن الخطاب فأذن في الناس بالرحيل فضج الناس من ذلك ثم أذعنوا .

واستعمل للسلون في هذه الفزوة الدبابة وهي آلة من آلات الحرب تجل من الجلود يدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها .

ويجدر بنا أن نذكر حادثة لطيفة . وذلك أنه كانت في سبي حنين أخت رسول الله ﷺ من الرضعات وهي الشفاء ، قيل وأما حليلة رضى الله عنها ولما قالت له الشفاء أنا أختك يا رسول الله قال وما علامة ذلك ؟ فأخبرته بضعة عنها إياها حين كان مسترضاً عندهم وأرته إياها ففرها وتذكر ذلك . فقام ﷺ وبسط لها رداءه وصنع مثل ذلك بأمة حليلة رضى الله عنها حين جاءته ودعمت عيناه . وقال للشفاء لما أن عرفها « سلى تمنلى واشفى تشفى » وقيل إن قومها قالوا لها إن هذا الرجل أخوك فلو أتيتك فسلته في قومك لرجونا أن يماينا فاستوهبته السبي وم ستة آلاف رأس فوهبهم لها ، فاعرفت مكربة مثلها ولا امرأة أمين على قومها منها وخيرها ﷺ قال إن أحببت فمئذى محبة مكروم وإن أحببت أن أمصك وترجمي إلى قومك ، قالت بل تمتننى وأرجع إلى قومي فأعطاهما نعماً وشاء وغلاماً يقال له مكحول وجارية .

بعث قيس بن سعد

إلى صداء

بعث رسول الله قيس سعد بن عبادت الخزرجي إلى ناحية اليمن بعد انصرافه من الجمرات في ٤٠٠ فارس وأمره أن يقاتل قبيلة صداء ، حتى من اليمن . وفي معجم البلدان صداء بخلاف باليمن بينه وبين صنعاء اثنتان وأربعون فرسخاً سمى باسم القبيلة . قدم زياد بن الحارث الصدائي فسأل عن ذلك البعث فأخبر به فقال يا رسول الله أنا واهدم إليك فارد الجيش وأنا أنكفل بإسلام قومي وطاعتهم فقال أذهب إليهم فردهم فقال إن راحتي قد كلفت فبعث صلى الله عليه وسلم إليهم فردهم ورجع الصدائي إلى قومه فقدموا بعد خمسة عشر يوماً فأسلموا وقيل كتب إليهم فجاء وفدهم بإسلامهم فقال رسول الله إنك مطاع في قومك يا أخا صداء قال بل الله هدام قال ألا تؤمنني عليهم ؟ قال بلى ولا خير في الإمارة لرجل مؤمن فتركها وأمره رسول الله أن يؤذن في صلاة الفجر فأذن فأراد بلال أن يقيم فقال رسول الله إن أخا صداء أذن ومن أذن فهو يقيم .

سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى تميم

بعث رسول الله في الحرم سنة تسع من الهجرة (إبريل سنة ٦٣٠ م) عيينة بن حصن الفزاري إلى بني تميم في خمسين فارساً من العرب ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري فكان يسير الليل ويكن النهار فهجم عليهم في صحراء فدخلوا وسرحوا مواشيهم فلما رأوا الجمع وآوا وأخذ منهم أحد عشر رجلاً ووجدوا في الحلقة إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبياً فلبسوا إلى المدينة فأمر بهم رسول الله فحبسوا في دار رملة بنت الحارث فقدم فيهم عدة من رؤسائهم^(١) فلما رأوهم بكى إليهم النساء والذراري ففجئوا فجاءوا إلى باب النبي صلى الله عليه وسلم وكلوه في شأن السبي فرد إليهم رسول الله أسراهم واختلف في عدد الوفد فقيل كانوا سبعين وقيل كانوا ثمانين وقد أسلخوا وقبوا في المدينة مدة يتعلمون القرآن والدين .

وسبب هذه السرية أن رسول الله بعث بشر بن سفيان المدوي السكابي إلى بني كعب من خزاعة لأخذ صدقاتهم وكانوا مع بني تميم على ماء فأخذ بشر صدقات بني كعب . فقال لهم بنو تميم وقد استكبروا ذلك : لم تعطوهم أموالكم ؟ فاجتمعوا وانتهزوا السلاح ومنعوا بشرًا من أخذ الصدقة فقال لهم بنو كعب : نحن أسلفنا ولا بدق ديننا من دفع الزكاة فقال بنو تميم : والله لا ندع بغيراً واحداً يخرج بشر ذلك قدم المدينة وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك فبعث رسول الله عيينة بن حصن الفزاري إلى تميم كما تقدم .

سرية الوليد بن عتبة إلى بني المصطلق

بعث رسول الله الوليد بن عتبة بن أبي معيط لأخذ الصدقات من بني المصطلق^(٢) وكانوا قد أسلخوا وبنوا للساجد وكان بينهم وبين الوليد عداوة في الجاهلية . إلا أنهم لما سمعوا بمجيء الوليد لأخذ الصدقات ، خرج منهم عشرون رجلاً بالإنابل والتمن يودونها عن زكاتهم فرحابه وتغلباً لله ولرسوله فظن أنهم يريدون قتله لرؤية السلاح معهم مع أنهم إنما خرجوا بالسلاح تيمناً فرجع من الطريق قبل أن يصلوا إليه فذهب إلى المدينة وأخبر النبي ﷺ

(١) منهم عطار بن حابس وإبراهيم بن بدر والأقرع بن حابس وقيس بن الحارث ونسيم بن سدد وعمر بن الأعمى ورباح بن الحارث (٢) بطن من خزاعة .

أنهم ارتدوا ولقوه بالسلاح يحولون بينه وبين الصدقة فهم رسول الله أن يبعث إليهم من ينزومهم وبلغ ذلك التوم
 قدم عليه الركب الذين لقوا الوليد فأخبروا النبي الخبر على حقيقته فزلت هذه الآية :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِثَالِهِ ^(١) ﴾ .

قرأ عليهم القرآن وبعث معهم عبيد بن بشر يأخذ صدقات أموالهم ويعلمهم شرائع الإسلام
 ويقرئهم القرآن :

والوليد بن عقبة كان أخاً لعثمان رضى الله عنه من أمه . أسلم يوم فتح مكة هو وأخوه خالد بن عقبة وهو
 الذى صلى صلاة الصبح بأهل الكوفة أربع ركعات فقال: أزيدكم سكران ولما شهدوا عليه الشرب أمر به عثمان
 فجلده وعزل من الكوفة ^(٢) والفاستق الذى ذكر فى الآية للتقدمة هو الوليد بن عقبة فهو الذى جاء إلى رسول الله
 وأخبره بارتداد بنى المصطلق وأنهم لقوه بالسلاح . وكان الوليد شراب خمر وكان شاعراً كريماً .

سرية قطبة بن عامر

إلى ختم

فى صفر سنة تسع من الهجرة أرسل رسول الله قطبة بن عامر بن حديدة فى عشرين رجلاً إلى حى من ختم
 بناحية تبالة ^(١) وأمره أن يشن الغارة عليهم فخرجوا على عشرة أبعة يعقبونها فأخذوا رجلاً فألوه فاستعجم عليهم
 فجعل يصيح بالحاضر ويحذرهم فضرروا عتقهم أمهلوا حتى نام الحاضر فشنوا عليهم الغارة فاقتتلوا قتالاً شديداً
 حتى كثرت الجرحى فى الفريقين جميعاً وقتل قطبة بن عامر مع من قتل وساقوا النعم والشاة والنساء إلى المدينة وجاء
 سيل أتى لخال بينهم وبينه فما يحملون إليه سبيلاً وكانت سهماتهم أربعة أبعة أربعة أبعة والبعر يبدل بشرة من
 النعم بعد أن أخرج الخمس .

سرية الضحاك بن سفيان

إلى بنى كلاب

فى شهر ربيع الأول سنة تسع من الهجرة أرسل رسول الله جيشاً إلى الترمطاء عليهم الضحاك بن أبى بكر
 السكلاي . وكان من الشجعان الأبطال - ومعه الأسيود بن سلمة بن قرط فلقوم بالرجح رُج لاوة ^(٢) فدعوم إلى

(١) سورة المجرات (٢) راجع كتاب عثمان بن عفان للمؤلف .

(٣) تبالة : بلدة من أرض تهامة فى طريق اليمن . (٤) موضع بنجد .

- ٣٣٥ -

الإسلام فأبوا قتالهم فهزموهم وغنم أموالهم ، فلقى الأصيد أباه سلة وسلة على فرس له في غدير بالزج فدعا أباه إلى الإسلام وأعطاه الأمان فسبه وسب دينه فضرب الأصيد عرقوبى فرس أبيه فلما وقع القرس على عرقوبيه ارتكز سلة على رمح في لواء ثم استمسك به حتى جاءه أحدهم فقتله ولم يقتله ابنه .

سرية علقمة بن مجزز المدلجي

إلى الحبشة

كانت سرية علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة في شهر ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة (يولية سنة ٦٣٠ م) وسيبها أنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أناساً من الحبشة تراياهم أهل جعدة فيث إليهم علقمة بن مجزز في ثلاثمائة فأنهى إلى جزيرة في البحر وقد خاض إليهم البحر فهربوا منه . فلما رجع تعجل بمض القوم إلى أهلهم قبل بقية الجيش فأذن لهم فتعجل عبد الله بن حذافة السهمي فيهم فأمره على من تعجل وكانت فيه دعابة (مزاح) فزولوا ببعض الطريق وأوقدوا ناراً يصطلون عليها ويصطنعون . فقال لهم : أليس طاعتي وإجابة ؟ قالوا . بلى . قال فاقصصوا هذه النار . فقام بمض القوم فاحتجزوا حتى ظن أنهم واثبوت فيها . فقالوا جلسوا إنما كنت أضحك فيعلم ذلك رسول الله ، قال : من أمركم بمصية فلا تطيعوه وعلقمة هذا هو الذى بشه عمر بن الخطاب إلى الحبشة فهلك هو وجيشه . أما عبد الله بن حذافة فهو من قدماء المهاجرين من شهد بدرًا ومات بمصر في خلافة عثمان رضى الله عنه .

سرية على بن أبى طالب إلى الفُلس

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبى طالب إلى الفُلس ، صنم كان بنجد تبده طيئ ليهمه وذلك في شهر ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة في ١٥٠ رجلاً من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرساً ومعه راية سوداء ولواء أبيض فشنوا الغارة على محلة آل حاتم مع الفجر فهزموا الفُلس وخرّبوه وملأوا أيديهم من السبي والنتم والغنائم والفضة والذهب سقانة بنت حاتم الطائي وأخت عدى بن حاتم ، وهرب عدى إلى الشام . ووجدوا في خزانة الفُلس ثلاثة أسياخ : رؤس وب والخنم وسيف يقال له الجمانى وثلاث أذراع واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على السبي بالقتادة واستعمل على الماشية والرقة عبد الله بن عتيك فلما نزلوا ركك^(١) اقتسموا الغنائم وعزل للنبي صلى الله عليه وسلم صفياء رسولاً والحذم ، ثم

(١) الركك علة من عمل سلس أحد جبل طي . وعبد الله بن عتيك هو أحد قلة أبى رافع بن أبي الحقيق اليهودي . والزنة : ردى النعاج .

— ٣٣٣ —

ضار له بئذ السيف الآخر ، وعزل الخس وعزل آل حاتم فلم يقسمهم حتى قدم بهم المدينة وقد من رسول الله على سفانة فأسلت وحسن إسلامها وكان ابن عليها سبياً لإسلام أخيها عدى بن حاتم ، فإنها خرجت حتى قدمت الشام على أخيها . قال ماترين في هذا الرجل ؟ قالت أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن بك نبياً فلا سابق إليه فضيلة ، وإن يكن ملكاً فلن تزال في عز اليمن وأنت أنت . قال والله هذا هو الرأي ، قدم على رسول الله وأسلم .

غزوة تبوك

أو السرة

رجب سنة ٨٩ - سبتمبر - أكتوبر سنة ٦٣٠ م

تَبُوكُ موضع بين وادي القرى والشام بينه وبين المدينة من جهة الشام أربع عشرة مرحلة وبين دمشق إحدى عشرة مرحلة وهي غزوة السرة . مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ النُّصْرَةِ ﴾ وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة (سبتمبر - أكتوبر سنة ٦٣٠ م) وهي آخر غزواته صلى الله عليه وسلم وكان الوقت حين خروجه حرّاً شديداً وقحطاً شديداً ولذلك لم يور عنها كمادته في سائر الغزوات بل بيئها للناس وأخبرهم أنه يريد الروم وكانوا من شدة الحر ينحرون البعير فيشربون مافي كرشه من الماء فسميت غزوة السرة أى الشدة والضيق وهي آخر غزواته ﷺ .

وسببها أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام وأن هرقل قد رزق أصحابه لينة وأجابت معه نمل وجذام وعاملة وغسان وقدموا مقدمتهم إلى البلقاء ^(١) وقيل إن الإمبراطور هرقل كان في حمص .

إخلاص الصحابة وصدقاتهم

ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى الخروج وأعلمهم للكان الذي يريد ليتأهبوا لذلك وبث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستغفرهم وأمر الناس بالصدقة وحجهم على النفقة وألحان ^(٢) فجاءوا بصدقات كثيرة فكان أول من جاء أبو بكر الصديق رضي الله عنه فجاء بماله كله ٤٠٠٠٠ درهم فقال له صلى الله عليه وسلم : هل أبقيت لأهلك شيئاً ؟ قال : أبقيت لم الله ورسوله . وجاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله فقال له : هل أبقيت لم شيئاً ؟ قال نعم نصف مالي . وجاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بمائتي أوقية . وتصدق عاصم بن عدى

(١) سورة التوبة . (٢) البلقاء : كورة من أعمال دمشق بين الشام ووادي القرى .

(٣) الحلان بضم الحاء ، ما يعمل عليه من الدواب في الهبة خاصة .

بسمعين وسقاً من تمر^(١) وجهز عثمان رضى الله عنه ثلث الجيش .

البكّاءون

جاء البكّاءون وهم سبعة يطلبون من رسول الله ما يركبون عليه فقال ما أجدا ما أحملكم عليه وقيل كانوا أكثر من سبعة . فلما جال لم ذلك انصرفوا باكين وهم الذين قال الله فيهم ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ .

المتخلفون

وجاء ناس من المنافقين يستأذنون رسول الله في التخلف من غير علة فأذن لهم وهم بضعة وثمانون رجلاً وقال قائل من المنافقين لا تنفروا في الحر زهّادة في الجهاد وشكاً في الحق وإرجافاً بالرسول وكان من التخلفين عبد الله بن أبي ابن سلول .

المذدّرون

وجاء للمذدّرون من الأعراب وهم الذين يعتذرون بالباطل ليؤذن لهم في التخلف فاعتذروا إليه فلم يسدّهم وقيل هم أسد وغطفان .

واستخلف رسول الله على عسكره أبا بكر الصديق يصلّى بالناس واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة (قال ابن سعد وهو أثبت عندنا ممن قال استخلف غيره) واستخلف على بن أبي طالب على أهله عليه السلام مدّة غيبته بقبوك فأرجف المنافقون بطل بن أبي طالب^(٢) وقالوا ما خلفه إلا استغلا له وتحتّم منه . فلما قال ذلك المنافقون أخذ على سلاحه ثم خرج حتى أتى رسول الله وهو بالجرف^(٣) فقال يا نبي الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استغفاني وتحتّم مني . فقال كذبوا ولكني إنما خلفتك لما ورائي فأرجع فأخلفني في أهلي وأهلك ألا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟ إلا أنه لا نبي بعدي فرجع على إلى المدينة .

(١) الوسق : حل بئر . يقال عنده وسق من تمر . قال الأزهري : الوسق ستون صاعاً يصاع التي على الله عليه وسلم والصاع حصة أرطال وثلاث . (٢) أرجف المنافقون : أي أكثروا من الأخبار البينة واختلاق الأقوال الكاذبة .

(٣) الجرف : موضع على ثلاثة أميال من المدينة نهر الشام .

ولما ارتحل رسول الله عن ثنية الوداع متوجها إلى تبوك عقد الألوية والرايات فدفع لواءه الأعظم لأبي بكر ورايته العظمى للزبير ودفع راية الأوس لأسيد بن حضير وراية الخرج للعباب بن المنذر ودفع لكل بطن من الأنصار وقبائل العرب لواء أو راية .

عدد جيش المسلمين

سار رسول الله بالناس وهم ٣٠.٠٠٠ والخيال ١٠.٠٠٠ وقد كان هذا الجيش بسد تحلف المناقبين وغيرهم ، أعظم جيش تألف في العرب .
فقد رسول الله تبوك ومعه هذا العدد من الجيش فأقام بها عشرين ليلة يصلى بها ركعتين .

بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر

أرسل رسول الله خالد بن الوليد في ٢٠ فارساً في رجب سنة تسع سرية ، إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل وبينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة وكان أكيدر من كندة قد ملكهم وكان نصرانياً وكان ملكاً من قبيل هرقل فأتى به خالد وقد خرج من حصنه في ليلة مقمرة هو وأخوه حسّان ففقدت عليه خيل خالد بن الوليد فاستأسر أكيدر وامتنع أخوه حسّان وقاتل حتى قتل وهرب من كان معهم فدخل الحصن وأجار خالد أكيدر من القتل حتى أتى به رسول الله على أن يفتح له دومة الجندل ففعل وصالحه على ٢.٠٠٠ بئر و ٨٠٠ فرس و ٤٠٠ درع و ٤٠٠ رمح ففعل للنبي صلى الله عليه وسلم صديقاً خالصاً ثم قسم ما بقي بين أصحابه فصار لكل رجل منهم خمس فرائض ثم خرج خالد بن الوليد بأكيدر وأخيه مصاد وكان في الحصن وبما صالحه عليه فقلأ إلى المدينة فقدم بأكيدر على رسول الله فأهدى له هدية وصالحه على الجزية وحقق دمه ودم أخيه وخلي سبيلهما وكتب له رسول الله كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم عليه وختمه بومئذ بفقره وكان رسول الله استعمل على حرسه بتبوك عباد بن بشر فكان يطوف في أصحابه على العسكر .

ثم انصرف رسول الله من تبوك إلى المدينة بعد أن أقام بها نحو عشرين ليلة ولم يبق كيدا ولما دنا من المدينة تلقاه عامة الذين تحلفوا فقال رسول الله لأصحابه لا تكلموا رجلاً منهم فأعرض عنهم رسول الله والمسلمون حتى إن الرجل ليمرض عن أبيه وأخيه وجعل للناضون يحلفون ويتذرون قبيل ظاهرم وعلايتهم واستغفر لهم وقد كانوا يخبرون عنه أخبار السوء وكان قدوم رسول الله من تبوك في رمضان .

المعجزات وخوارق العادات

في هذه الغزوة وقع لرسول الله بعض المعجزات وخوارق العادات والإخبار بالغيبات نذكر منها :
كان رسول الله حين مر بالحجر نزلاً واستقى الناس من بئرهما فلما راحوا منها قال رسول الله لا تشربوا من ماءها شيئاً ولا تقوضوا منها للصلاة وما كان من عجين مجتموه فاعلقوه الإبل ولا تأكلوا منه شيئاً ولا يخرج أحد منكم اللبنة إلا ومعه صاحب له ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله إلا رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته وخرج الآخر في طلب بئير له ، فأما الذي ذهب لحاجته فإنه خنق على مذهبه وأما الذي ذهب لطلب بئيره فاحتملته الريح حتى طرحته في جبل طهي فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ألم أنهيكم أن يخرج أحد إلا ومعه صاحب ؟ ثم دعا للذي أصيب على مذهبه فشفي وأما الآخر الذي وقع بجبل طهي فإن طيئاً أهدته لرسول الله حين قدم المدينة .

ولما أصبح الناس ولا ماء معهم شكوا ذلك إلى رسول الله فدعا الله فأرسل الله سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس واحتلوا حاجتهم من الماء .

وضلت ناقه رسول الله ببعض الطريق فخرج أصحابه في طلبها وعند رسول الله رجل من بعض أصحابه يقال له عمارة بن حزم الأنصاري وكان في رحله زيد بن لصيت القيقاعي وكان منافقاً فقال زيد بن لصيت وهو في رحل عمارة وعمارة عند رسول الله : أليس يزعم محمد أنه يخبركم عن خبر السماء وهو لا يدري أين ناقته ؟ فقال رسول الله وعمارة عنده إن رجلاً قال إن هذا محمداً يخبركم أنه نبي وهو يزعم أنه يخبركم بخبر السماء وهو لا يدري أين ناقته ؟ وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله وقد دلني الله عليها وهي في الوادي من شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها فانطلقوا حتى تأتوا بها ، فذهبوا فجاؤا بها إلى آخر القصة . ثم مضى رسول الله سائراً فبعث فبعث عنه الرجل فيقولون : يا رسول الله تخلف فلان فيقول : دعوه فإن يك فيه خير فسيلحه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه حتى قيل يا رسول الله تخلف أبو ذر وأبطأ به بعيره فقال دعوه فإن يك فيه خير فسيلحه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه ، وتلوم أبو ذر على بعيره فلما أبطأ عليه أخذ متاعه لحمله على ظهره ثم خرج يبيع أثر رسول الله ماشياً ونزل رسول الله في بعض منازل فنظر ناظر من المسلمين قال يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده فقال رسول الله : كن أباً ذر . فلما تأمله القوم قالوا يا رسول الله : هو أبو ذر قال رسول الله : « يرحم الله أباً ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبيت وحده » وقد تحقق قوله عليه الصلاة والسلام ، فإن ضئان رضي الله عنه لما نفي أباً ذر نزل أبو ذر الرثبة^(١) فأصابها بها قدره ولم يكن معه أحد إلا أمر أنه وغلامه فأوصاهما

(١) قرية من قرى المدينة .

— ٣٤٠ —

أن غسلاي وكفناي ثم ضماني على قارعة الطريق فأول ركب يمر بكم فقولوا هذا أبو ذر صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه . فلما مات فلا ذلك به ثم وضاه على قارعة الطريق فأقبل عبد الله بن مسعود ورهط من أهل العراق محمرا فلم يرهم إلا جنازة على الطريق فبدأت الإبل تعأوها وقام النلام فقال هذا أبو ذر صاحب رسول الله فأعينونا على دفنه فاستهل عبد الله بن مسعود يبكي ويقول صدق رسول الله « تمشي وحلك . وتموت وحلك وتُبت وحلك » ثم نزل هو وأصحابه فواروه ثم حدثهم ابن مسعود حديثه وما قال له رسول الله في سيره إلى تبوك واسم أبي ذر (جندب بن جنادة) ومات في سنة ٣٢ هـ

هدم مسجد الضرار بقاء

لما رجع رسول الله من تبوك قبل أن يدخل المدينة جاءه جماعة من المنافقين وسأله أن يأتي مسجدهم بقاء ليصل فيه وهو (مسجد الضرار) الذي بنوه مضاهة لمسجد بقاء لإضرار المسلمين وتفريق كلمتهم وجماعتهم وكان المنافقون يجتمعون فيه ويميرون النبي صلى الله عليه وسلم ويستهنئون ، فعدا رسول الله بقميصه ليايسه ويأتيهم فأثرل الله عليه :

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنْ صَادَقَ لَهُمْ خَارِبَ اللَّهِ وَرَسُولُهُ مِنَ الْقَبْلِ وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَا الْخُسْفَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ .

(سورة التوبة)

فعدا رسول الله مالك بن الدخشم ومن بن عدى بن عامر بن السكن ووحشيًا وقال انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه فخرجوا مسرعين حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم^(١) قال مالك أنظروني حتى أتيتكم بنار فدخل عند أهله فأخذ من سفب الفضل فأشعله ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا للمسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله وأمر رسول الله أن يتخذوا ذلك للوضع كناسة تلقى فيه الجيف والفضلات .

كان أصحاب مسجد الضرار أتوه وهو يجهز إلى تبوك فقالوا يا رسول الله إننا قد بنينا مسجداً لدى العلة والحاجة واليلة للطيرة واليلة الشانية وإنما نحب أن تأتينا فضلي لنا فقال إني على جناح سفر وحال شغل ولو قدما إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فلما نزل بنى أوان أنه أخبر المسجد من السماء .

وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً : خذام بن خالد ومن داره أخرج مسجد الشقاق . وثعلبة بن حاطب .

(١) ذكر اسم مالك بن الدخشم في السيرة النبوية لدخلان بالنون مكثاً « الدخثن ورهط الدخثن » وصحته بالهم كما جاء في تاريخ الطبري ولدى أسد الغابة وزاد اللام .

- ٣٤١ -

وَمُعْتَبٍ بِن قُشَيْرٍ . وَأَبُو حَبِيبَةَ بِن الْأَزْعَرِ . وَعِيَادُ بِن حُنَيْفٍ . وَجَارِيَةُ بِن عَامِرٍ وَابْنَاهُ مَجْمَعُ بِن جَارِيَةٍ ، وَزَيْدُ بِن جَارِيَةٍ . وَنَبْتَلُ بِن الْحَارِثِ . وَبِجَادُ بِن عُثْمَانَ . وَوَدِيعَةُ بِن نَابِتٍ .
أَمَّا مَالِكُ بِن الدَّخْشَمِ الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ وَهُوَ أَحَدُ الَّذِينَ هَدَمُوا مَسْجِدَ الضَّرَارِ فَقَدْ كَانَ يَتَّبِعُهُمُ بِالنِّفَاقِ وَهُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ عُقْبَانُ بِن مَالِكٍ لِرَسُولِ اللَّهِ إِنَّهُ مَنَافِقٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟ قَالَ بَلَى وَلَا شَهَادَةَ لَهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ أَلَيْسَ يَصَلِّي قَالَ بَلَى وَلَا صَلَاةَ لَهُ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ : أُولَئِكَ الَّذِينَ نَهَى اللَّهُ عَنْهُمْ . وَلَا يَصِحُّ عَنْهُ النِّفَاقُ وَقَدْ ظَهَرَ مِنْ حَسَنِ إِسْلَامِهِ مَا يَنْتَعِ مِنْ أَتَمَامِهِ .

لماذا بنى مسجد الضرار ؟

وصف الله مسجد الضرار بصفات أربع :

(١) بقوله ضراراً ، والضرار محاولة الضر .

(٢) وبقوله وكفراً قال ابن عباس يريد به ضراراً للمؤمنين وكفراً بالنبي عليه السلام وبما جاء به .

(٣) وبقوله : وتفرقاً بين المؤمنين لأن المناقين قالوا بنى مسجداً ففصل في فيه ولا نصلي خلف محمد فإن أئمتنا فيه

صلينا معه وفرقنا بينه وبين الذين يصلون في مسجده فيؤدى ذلك إلى اختلاف الكلمة وإعلان الألفة .

(٤) وبقوله : وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله .

هذه هي الأسباب التي بنى المناقون من أجلها مسجد الضرار كما ذكرت في القرآن الكريم . ثم إنه تعالى لما وصف هذا المسجد بهذه الصفات الأربع قال : وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى أى ليحلفن ما أردنا بيناته إلا القلة الحسنى وهو الفرق بالمسلمين في التوسعة على أهل الضعف والملة والعجز عن النصير إلى مسجد رسول الله وذلك أنهم قالوا لرسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذى العلة والحاجة واللبلة المطيرة واللبلة الثانية ثم قال تعالى : ﴿وَأَلَّهُ يَشْهَدُ لَهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ والمعنى أن الله تعالى أطلع الرسول على أنهم حلفوا كاذبين^(١) .

وقد تقدم أن هذا المسجد كان ماله الهدم والحرق وصار موضعاً لإلقاء الجيف والتعلات .

موت عبد الله بن أبي ابن سلول .

« رأس المناقين »

وفي هذه السنة - التاسعة - في شهر ذي القعدة مات عبد الله بن أبي ابن سلول « رأس المناقين » بعد أن

مرض عشرين ليلة .

(١) راجع تفسير النضر الرازي « سورة التوبة » .

وحدث أنه لما كان عبد الله مريضاً عاد رسول الله فطلب منه أن يصلي عليه إذا مات ويقوم على قبره . ثم إنه أرسل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يطلب منه قبضه ليكنف فيه فأرسل إليه القميص التوفاني فردّه وطلب منه الذي على جسده ليكنف فيه فقال عمر رضى الله عنه : لا نعط قبضك ، الرجس النجس . فقال عليه الصلاة والسلام إن قميصي لا ينفى عنه من الله شيئاً فاعلم الله يدخل به ألقاً في الإسلام وكان المناقون لا يفارقون عبد الله . فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجو أن ينفعه أسلم منهم يومئذ ألف ، فلما مات جاءه ابنه يعرفه فقال عليه الصلاة والسلام لأبني صل عليه وادفنه . فقال إن لم تصل عليه يارَسُولُ الله لم يصل عليه مسلم . فقام عليه الصلاة والسلام ليصلي عليه فقام عمر خال بين رسول الله وبين القبلة ثلاثاً يصلي عليه فنزل قوله تعالى :

﴿وَلَا تَصَلُّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَهْمُ عَلَى قَبْرِهِمْ إِنَّمَا كُنْفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾

(سورة التوبة)

قال الزجاج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فنعها مناهنا .

وفي الصحيح من حديث ابن عباس رضى الله عنه : فضلى عليه ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت (أنى الآية السابقة) ولم يأخذ رسول الله يقول عمر رضى الله عنه جرياً على ظاهر حكم الإسلام واستصحاباً لظاهر الحكم وإلزاماً له ولده الذى تحقق صلاحه واستئلاً لقومه .

وعن عبد الله بن عباس قال سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لما توفى عبد الله بن أبى سؤل ودعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام إليه فلما وقف عليه يريد الصلاة تحولت حتى قُت في صدره فقلت يارسول الله أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبى القائل يوم كذا ، كذا وكذا ، وأندد أيامه ورسول الله عليه السلام يبتسم حتى إذا كثرت عليه قال آخر عني يا عمر إني خيرت فاخترت وقد قيل لى استغفر لم أو لا تستغفر لم إن تستغفر سبعين مرة فلن يغفر الله لم فلو أنى أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت قال ثم صلى عليه ومشى معه فقام على قبره حتى فرغ منه : قال أتعجب لى وجرائى على رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله ورسوله أعلم فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ولا تصل على أحد منهم مات أبداً فاصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله .

حجة أبى بكر الصديق

بعث رسول الله في السنة التاسعة في شهر ذى الحجة (مارس سنة ٦٣١ م) أبابكر الصديق يمح بالناس فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة وبث معه بشرين بدنة قلدها وأشعرها بيده الشريفة وساق أبو بكر

رضى الله عنه خمس بذات ثم تبعه على رضى الله عنه على ناقة رسول الله « التصواء » فقال له أبو بكر : استعملك رسول الله صلى الله عليه وسلم على الحج ؟ قال لا ولكن بمضى أقرأ براءة على الناس وأنبذ إلى كل ذى عهد عهده ، وكان العهد بين رسول الله وبين المشركين عاما وخاصا . فالصام ألا يصد أحد عن البيت إذا جاءه . ولا يخاف أحد في الأشهر الحرم . والخاص بين رسول الله وبين قبائل العرب إلى آجال مسماة وكانت عادة العرب ألا ينبذ العهد إلا من كان قريبا ممن أراد النبد . فلذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا رضى الله عنه ولم يكتف بأبي بكر رضى الله عنه فخرج بالناس . قرأ على بن أبي طالب براءة^(١) على الناس يوم النحر عند الحجر ونبذ إلى كل ذى عهد عهده . وقال لا يحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان ثم رجعا قافلين إلى المدينة . وقد كان على رضى الله عنه يصلى خلف أبي بكر إلى أن رجع إلى المدينة . وفى ذلك رد على الرافضة فإنهم زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم عزل أبا بكر رضى الله عنه عن إمارة الحج بلى .

سرية خالد بن الوليد

إلى بنى الحارث بن كعب بنجران

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في شهر ربيع الأول سنة عشر (يونية سنة ٦٣١ م) سرية في أربعائة إلى بنى الحارث بن كعب بنجران^(٢) وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثا فإن استجابوا لك فاقبل منهم وأقم فيهم وعلمهم كتاب الله وسنة نبيه ومعالم الإسلام ، فإن لم يفعلوا فقاتلهم . وكان أهل نجران على شريعة عيسى عليه السلام فخرج خالد حتى قدم عليهم فبعث الركبان يضرّبون في كل وجه ويدعون الناس إلى الإسلام ويقولون : يا أيها الناس أسلموا أسلموا فأسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم إليه . فأقام خالد فيهم يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه . ثم كتب خالد إلى رسول الله ﷺ .

« بسم الله الرحمن الرحيم . لحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد . السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد يا رسول الله صلى الله عليك فإنيك بعثتني إلى بنى الحارث بن كعب وأمرتني إذا أتيتهم ألا أقاتلهم ثلاثة أيام وأن أدعوهم إلى الإسلام فإن أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه وإن لم يسلموا فقاتلتهم . وإني قد علمت عليهم فدعوتهم

(١) سورة براءة من التوبة . قال صاحب الكشاف التوبة لها عدة أسماء : براءة والتوبة والفتنة والمبصرة والصدرة والخزبة والفاضة والثيرة والمافرة والمنكفة والمدممة وسورة المذاب .

(٢) موضع بين اليمن ونجد .

إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم ركبانا : ثابتي الحارث أسلموا تسلموا فأسلموا ولم يقاتلوا ، وأنا مقيم بين أظهرهم وأمرهم بما أمرهم الله به وأنهم عما نهاهم الله عنه وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكتب إلى رسول الله والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته » وهذا الكتاب شرح فيه خالد مهمته وأنه قام بها كما أمر . فكتب إليه رسول الله ﷺ .

« بسم الله الرحمن الرحيم من محمد النبي رسول الله إلى خالد بن الوليد . سلام عليك . فإني أجد الله إليك الذي لا إله إلا هو : أما بعد فإن كتابك جاءني مع رسلك بنجران أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن يقاتلوا وأجابوا مادعوتهم إليه من الإسلام وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله وأن قد هدام الله بهدهم فيشرم وأنذرهم وأقبل وليقبل منك وفدوم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

فأقبل خالد بن الوليد إلى رسول الله وأقبل وفد بني الحارث بن كعب فيهم قيس بن الحصين بن يزيد بن قنان ذو النصة . ويزيد بن عبد اللدان . ويزيد بن الحجيل . وعبد الله بن قريط الزبدي . وشداد بن عبد الله القناني . وعمر بن عبد الله الضبابي فلما قدموا على رسول الله فرأهم قال من هؤلاء القوم كأنهم رجال الهند ؟ قيل يا رسول الله هؤلاء بنو الحارث بن كعب . فلما أوقفوا عند رسول الله سلموا عليه . فقالوا نشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله . قال رسول الله : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ثم قال رسول الله أنتم الذين إذا زجروا استقدموا . فلما راجعهم منهم أحد . ثم أعادها رسول الله الثانية والثالثة والرابعة ، قال يزيد بن عبد اللدان نعم يا رسول الله ، نحن الذين إذا زجروا استقدمنا . فقالوا أربع مرات . قال رسول الله : لو أن خالد ابن الوليد لم يكتب إلى فيكم أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رؤوسكم تحت أقدامكم . قال يزيد بن عبد اللدان : أما والله يا رسول الله ما حدثناك ولا حدثنا خالد . قال فن حدثتم ؟ قالوا حدثنا الله الذي هدانا بك . قال صدقتم . ثم قال رسول الله . هم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية ؟ قالوا لم نكن تغلب أحدا . قال رسول الله بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم . قالوا يا رسول الله ، كنا تغلب من قاتلنا أنا كسنا بني عبيد وكنا نجتمع ولا نفرق . ولا نبدا أحدا نظل قال صدقتم . ثم أمر رسول الله على بلحارث بن كعب قيس بن الحصين فرجع وفد بلحارث ابن كعب إلى قومهم ولم يمسكوا بعد أن قدموا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله .

وفاة إبراهيم

توفي إبراهيم بن رسول الله من زوجته مارية
في شهر ربيع الأول سنة عشر (يونيه ٦٣١ م) وكان عمره ستة عشر شهراً

دخل رسول الله ﷺ وهو معتمد على عبد الرحمن بن عوف وإبراهيم يحود بنفسه، فلما مات دعت عينا رسول الله ﷺ له عبد الرحمن : أي رسول الله الذي تنهى الناس عنه ، متى يرك للسلون تبكي يبكوا . فلما سريت عنه عبرته قال إنما هذا رحمة وإن من لا يرحم لا يؤرم إنما تنهى الناس عن النباحة وأن يندب الرجل بما ليس فيه . ثم قال لولا أنه وعد جامع وسبيل مثناه وأن آخرنا لاحق بأولنا لو جدنا عليه وجداً غير هذا وإننا عليه لحزونون ندعم الدين ويمزن القلب ولا نقول ما يسنخ الرب ونفضل رضاعه في الجنة ، وأمر النبي ﷺ بدفن إبراهيم في البقيع^(١) . وصلى عليه ﷺ وكبر أربعا وقد أجمع جواهر العلماء على الصلاة على الأطفال إذا استهلوا ولما دفن أمر برش قربة ماء على قبره وهو أول قبر رُش عليه الماء . ولما سوى جدته كان رسول الله ﷺ رأى كالجعر في جانب الجذث فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسوي بإصبعه ويقول : « إذا عمل أحدكم عملاً فليقتنه فإنه مما يسلى نفس الصاب » .

وانكسفت الشمس يوم مات إبراهيم فأذاع الناس : إن الشمس كسفت حزناً على موت إبراهيم فقال رسول الله ﷺ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد » . ولو كان النبي بخادعاً أو كاذباً لاستغل هذه الفرصة السانحة وأذاع في طول البلاد وعرضها أن الشمس إنما انكسفت لوفاة ابنه أو لوافق الناس على ما أذاعوا وأن هذه إحدى معجزات النبوة ، لكنه أبى إلا الصدق وأذاع الحقيقة .

قال مسيوودر منجم في كتابه حياة محمد (فصل ٢١) بمناسبة هذا الحادث : « إن محمداً كان واسع العقل فرد على هذه الخرافة الجليلة بقوله (إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد وهذه كلمات لا يقولها بخادع » . وهذا ما قلناه لأن الخادع يتعاق بالآوهام ويسارع إلى انتهاز مثل هذه الفرص ولكن الذي كان صادقاً في أقواله . صادقاً في أفعاله . لا يستند إلى الأكاذيب في رفع شأنه وتميز مركزه .

قال النووي في تهذيب الأسماء : وأما ما روى عن بعض للتقنين « لو عاش إبراهيم لكان نبياً » فباطل وجسارة على الكلام في الغيبات ومجازفة وهجوم على عظم من الزلات .

(١) مقبرة أهل المدينة .

أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل

بعثهما إلى اليمن

أبو موسى الأشعري واسمه عبد الله بن قيس . أسلم قديماً ثم أرسله رسول الله إلى زبيد وعدن فكان عاملاً عليهما . واستدل العلماء بإرساله على أنه كان عالماً فطناً حاذقاً ولولا ذلك لم يوله النبي صلى الله عليه وسلم الإمارة ولذلك اعتمد عليه عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم . ونسبته الخوارج والروافض إلى الفعلة وعدم الفطنة لما صدر منه في التحكيم بصين . وسيأتي ذكر ذلك في كتابنا (على) رضي الله عنه إن شاء الله .

وأما معاذ بن جبل فهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار وشهد يثرباً وأحدًا وللشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أنصاري خزرجي وكان عمره لما أسلم ثمان عشرة سنة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خذوا القرآن من أربعة : من ابن مسعود . وأبي بن كعب . ومعاذ بن جبل . وسالم مولى أبي حذيفة » .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أرحم أمتي بأمتي أبو بكر » وذكر الحديث وقال : « وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » .

وكان معاذ رضي الله عنه ممن يتنون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من أحسن الناس وجهاً وأحسنهم خلقاً وأسمحهم كفاً فكثرت ديونه فأرسله رسول الله إلى اليمن وقال : « لعل الله يحرك ويؤدي عنك دينك » . وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : « إنك ستأتي قوماً أهل كتاب فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فإن هم أطاعوا لك بذلك ، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على قرائهم . فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياكم وكرائم أموالهم واتق دعوة اللغوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وعن معاذ أنه قال : لما بعثني ﷺ إلى اليمن قال : قد بعثتك إلى قوم رقيقة قلوبهم ، فتقاتل بين أطاعك من عصاك .

ولما بعث رسول الله معاذاً خرج يرضيه ومعاذ راكباً ورسول الله ﷺ يمشي تحت ظل راحلته فلما فرغ قال : يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عاى هذا ولعلك أن تمر بمسجدى وقبري فيسكن معاذ رضي الله عنه لقرائه . ولم يزل معاذ على اليمن إلى أن قدم في خلافة أبي بكر ثم توجه إلى الشام فات بها .

بعث على بن أبي طالب إلى اليمن

بعث رسول الله ﷺ على بن أبي طالب إلى اليمن في شهر رمضان سنة عشر (ديسمبر سنة ٦٣١ م) فخرج على ٣٠٠ فارس فلما انتهى إلى تلك الناحية فرق أصحابه فأتوا بنهب غنائم ونساء وأطفال وكانت الغنائم نعاماً وشاء ثم لقي جميعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا للمسلمين بالنبل والحجارة وخرج منهم رجل من مدحج يدعو إلى البارزة فبرز إليه الأسود بن خزاعي قتلته الأسود وأخذ سابه ثم صف على رضى الله عنه أصحابه ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان قتل منهم نحو عشرين رجلاً ففرقوا وانهمزوا فكف عن طلبهم قليلاً ثم دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام وجمع على الغنائم فجزأها خمسة أجزاء فكتب على سهمها لله وأقرع عليها فخرج أبو السهام الخمس وقسم على أصحابه بقية الغنم ثم قتل على رضى الله عنه فوافى النبي بمكة قد قدامها للحج سنة عشر وكان ذاك في الربيع .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث علياً رضى الله عنه إلى اليمن سنة ثمان وهو أول بعث إلى اليمن بعد فتح مكة وبعثه إلى همدان فأسلت جميعاً فكتب على رسول الله ﷺ يأسلامهم فلما قرئ الكتاب جز ساجداً ثم رفع رأسه وقال السلام على همدان . أما البعث الثاني فكان في رمضان سنة عشر إلى مدحج .

حجة الوداع

في شهر ذى الحجة سنة عشر من الهجرة (مارس سنة ٦٣٢ م) حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع وسميت بذلك لأنه ودع الناس فيها . وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت خرج رسول الله ﷺ إلى الحج فجلس لياليتين من ذى القعدة فلما كان بسرف أمر الناس أن يحلوا بعرة إلا من ساق الهدى وكان رسول الله قد ساق الهدى وناس معه . قال ابن إسحاق ثم مضى رسول الله ﷺ على حجة فأمر الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم وخطب الناس خطبته التي بين فيها ما بين غمده الله وأنتى عليه ثم قال :

« أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً أيها الناس إن ههنا أموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا وإنكم ستلقون ربكم فيسألکم عن أعمالکم وقد بلغت فن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها وإن كل ربا موضوع ولكن لکم رؤوس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع وأن أول دماءكم أضع دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وكان

مسترضاً في بني ليث فقتلته هُذَيْلٌ فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية . أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يش من أن يُبْعد بأرضكم هذه أبداً ولكنه إن يُطع فيا سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم فأخذوه على دينكم . أيها الناس إن النسوة زيادة في الكفر يُضِلُّ به الذين كفروا يحملونه علماً ويحرمونه علماً ليواثقوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله وإن الزمان استدار كهيشته يوم خلق الله السموات والأرض^(١) وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُمٌ . ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . أما بعد أيها الناس فإن لكم على نساءكم حقاً ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تنكرونه وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فإن اتبهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف واستوصوا بالنساء خيراً فلهن عندكم عوان لا يملككن أنفسهن شيئاً وإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله فاعقلوا أيها الناس قولي فإنني قد بليت وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أسراً يبتأ : كتاب الله وسنة نبيه أيها الناس اسموا قولي واعقلوه فلعن أن كل مسلم أع للمسلم ، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه فلا تظلمن أنفسكم . اللهم هل بليت فذكر لي أن الناس فالوا اللهم ثم قال رسول الله ﷺ : اللهم اشهد^(٢) ! ه وكان الذي يبلغ عنه برفة ربيعة بن أمية بن خلف لكثرة الناس وقد تنبأ رسول الله في هذه الخطبة بأن أجله قد قرب وأنه لا يحج بعد هذه المرة لقوله في أولها : « فإنني لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً » ، وأوصى الناس بالنساء خيراً ومنع الرجال من معاملتهن بالظلم وحضهن على معاشرتهم بالمعروف ، وكان أن للرجال حقاً عليهن فكذلك للنساء حقاً عليهم ، وهذا من غير شك رضى لسانهن فلم تعد المرأة كية مهملة أو مهضومة الحقوق بعد أن عنى الرسول بها في خطبته ، فليقيم ذلك للسلمون في جميع أنحاء الأرض ، وليعملوا بنصح الرسول .

وتسمى هذه الحجة أيضاً حجة التمام والكمال لنزول قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾^(٣) . ورسول الله صلى الله عليه وسلم واقف برفة ولم يحج رسول الله بعد أن هاجر غير هذه الحجة . ولم يترك الحج وهو بمكة قط لأن قريشاً في الجاهلية لم يكونوا يتركون الحج وإنما يتأخر منهم من لم يكن بمكة أو عاقه ضعف . قال ابن الأثير في النهاية : كان يحج كل سنة قبل أن يهاجر .

(١) يعني أن الحج قد عاد في ذي الحجة .

(٢) قيل لم يزل على النبي صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من الترائي ولا تحليل شيء ولا تحرمة ولم يش رسول الله بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وعشرين ليلة ، أو اثنين وعشرين ليلة ، ولم يحصل في الصرمة بعدها زيادة ولا نسخ ولا تبديل البتة .

- ٣٤٩ -

واستعمل على المدينة أبا دجانة الساعدي وقيل سباع بن عرفة الغفاري . وكانت نساؤه كلهن معه . وكان دخوله مكة صبيح الرابع من ذى الحجة يوم الأحد .

يقول مستر موير « الزاجح أن الذي خرج من المدينة يوم السبت ٢٥ ذى القعدة (٢٣ فبراير سنة ٦٣٢ م) وبلغ مَرَف (١) مساء الأحد في اليوم العاشر ودخل مكة يوم الثلاثاء »

وخرج معه ﷺ ٩٠٠٠٠ وقال أكثر من ذلك وأما الذين هجروا معه فأكثر من ذلك طبعاً لانضمام أهل مكة إليهم والذين أتوا من اليمن مسلمين .

قال ابن إسحاق : وحدثنى عبد الله بن نجيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقف بعرفة قال : هذا الموقف - للجبل الذي هو عليه - وكل عرفة موقف ، وقال حين وقف على قَرَح صبيحة المزدلفة (٢) : هذا الموقف وكل للمزدلفة موقف ثم لما نحر بالنحر بمنى قال هذا النحر وكل منى منحر ، فقضى رسول الله ﷺ الحج وقد أرام مناسكهم وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم من الموقف ورمى الجمار وطواف البيت وما حل لهم في حجهم وما حرم عليهم . ثم عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة .

بعث أسامة بن زيد

قتل رسول الله ﷺ فأقام في المدينة بقية ذى الحجة والمحرم وصفر وضرب على الناس بئناً إلى الشام أمر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه وأمره أن يوطئ الخيل تحوم البقاء والله وادم من أرض فلسطين فتجهز الناس وأوعب مع أسامة بن زيد المهاجرين الأولين . فبينما الناس على ذلك اجتأ ﷺ شكواه التي قبضه الله عز وجل فيها واعترض المناقون على بعث أسامة . فرد عليهم أنه حقيق بالإمارة وإن قلم فيه لقد قلم في أبيه من قبل وإن كان خليقاً لها وكان سن أسامة عندئذ عشرين عاماً . فاعترضوا على توليته قيادة الجيش لعمره سنة .

عدد الغزوات والبعوث

وكان جميع ما غزا رسول الله ﷺ بنفسه بناء على ما ذكره ابن إسحاق ٢٧ غزوة وبوئته وسرايا ٣٨ . قال الطبري : وكانت غزواته بنفسه ستاً وعشرين غزوة ويقول بعضهم إنها كانت سبعمائة وعشرين غزوة ، فن قال هي ست وعشرون جعل غزوة النبي صلى الله عليه وسلم من خيبر إلى وادي القرى غزوة واحدة لأنه لم يرجع من خيبر حين فرغ من أهلها إلى منزله ولكنه مضى منها إلى وادي القرى فحصل ذلك غزوة واحدة . ومن قال هي سبع وعشرون

(١) موضع على ستة أميال من مكة (٢) قرح : القرن الذي يقف الإمام عنده بالمزدلفة عن بين الإمام . وازداف : تحرب ، ومنه سمى الشعر الحرام مزدلفة لأنه يتحرب فيها ، وهي ما بين وادي عسر ومازى عرفة .

غزوة جبل غزوة خيبر غزوة ، وغزوة وادي القرى غزوة أخرى فيجعل المدة سبعاً وعشرين .

الوفود

وفدت على رسول الله وفود كثيرة نذكرها هنا مع الاختصار ، فقد وفد عليه وفد هوازن بالجرانة ، وكذا وفد عليه مالك بن عوف النضري وذلك في أواخر سنة ثمان وكذا وفد عليه بنو تميم في سرية عيينة بن حصن وكان ذلك في الحرم سنة تسع ووفد عليه نصارى نجران بالمدينة بعد الهجرة وكانوا ستين راكباً جاءوه بمجادلونه في شأن عيسى عليه السلام ، وصلحوا النبي صلى الله عليه وسلم على الجزية وكتب لهم كتاباً وأرسل معهم أباً عبيدة عامر بن الجراح رضى الله عنه وقال لهم هذا أمين هذه الأمة ، وفي أهل نجران والرد عليهم أنزل الله أكثر آيات سورة آل عمران . ووفد عليه عليه السلام الداريون : أبو تميم الداري وأخوه نعيم وأربعة آخرون على دين النصرانية وكان وفدهم عليه مرتين مرة بمكة قبل الهجرة ومرة بعدها . ولما قدم رسول الله إلى المدينة تمتن تبوك في رمضان وفد عليه وفد ثقيف . ووفد عليه وفد بني عامر بن صعصعة وفيهم عامر بن الطفيل العامري وأربد بن قيس وجبار بن سلمى ، رؤساء القوم وكان عامر بن الطفيل سيدهم ، وكان من أجل الناس وكان مضرباً الفدر بالنبي عليه السلام وطلب من رسول الله أن يجعل له الأمر بعد أن أسلم . ولما خرج عامر بن الطفيل ومن معه إلى بلادهم أصيب في الطريق بالطاعون ومات ولم يسلم وقد وهم بعضهم فادعى بقاء عامر بن الطفيل على الإسلام إلى أن مات ، وذلك إنما هو عامر بن الطفيل الأسلمي فإنه صحابي .

ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد ضمام بن ثعلبة سنة تسع وسأله ضمام هل الله سبحانه وتعالى أمره بعبادة الله وحده لا شريك له وخلع الأصنام وبالزكاة وصوم رمضان وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً ؟ فقال رسول الله اللهم نعم . فأسلم ورجع إلى قومه وسب اللات والعزى وما زال يدعوهم إلى الإسلام حتى أسلموا جميعاً رجلاً ونساء . ووفد عليه عليه السلام وفد عبد القيس وكانت منازلهم بالبحرين ، وكان فيمن وفد منهم الجارود ، وكان نصرانياً قد قرأ الكتب وقيل كان مجيئهم سنة عشر فرض عليه رسول الله الإسلام ، فأسلم وأسلم أصحابه ، وسألوه عن النبي فقالوا يا رسول الله إن أرضنا أرض وحة لا يصلحنا إلا النبيذ فتهاهم عن شربها .

فوفد بنو حنيفة بن الجهم بن صعصع بن علي بن بكر بن وائل وفدوا عليه عليه السلام وكانوا سبعة عشر رجلاً ومعهم مسيلة الكذاب ، وكان أمره عند قومه كبيراً فسلم النبي صلى الله عليه وسلم وسأله أن يشركه معه في النبوة وهو الذي ادعى النبوة في حياة رسول الله كما ادعى النبوة الأسود العنسي صاحب صنعاء ، وصار مسيلة يتكلم بالهذيان ليضاهي به القرآن ، فمن ذلك أنشأ سجعاً على منوال سورة الكوثر فقال : « إنا أعطيتك الجواهر فصل لربك وهاجر . إن مفضل رجل فاجر » وقد وضع عن قومه الصلاة وأحل لهم الخمر والزنا ترغيباً لهم في اتباعه ا

ووفد عليه عليه السلام وفد طي^(١) وفيهم قبيصة بن الأسود وسيدهم زيد الخليل كان جواداً فارساً حسن الخلق فرض رسول الله عليه الإسلام فأسلم وأسلم من معه وحسن إسلامهم^(٢).

ووفد عدى بن حاتم الطائي . كان عدى نصرانياً عظيماً في قومه فأسلم ومن الوفود وفد عروة المرادي ووفد بني زبيد ووفد كندة ، قبيلة باليمن ينسبون إلى كندة لقب جدم ثور بن عفير ، وله صلى الله عليه وسلم جدته منهم وهي أم جده كلاب وفيهم الأشعث بن قيس . وكان وجهياً في قومه فأسلم وارتد بعد النبي صلى الله عليه وسلم وعاد إلى الإسلام في خلافة أبي بكر ، ووفد أزد شنوءة وهم من الأزد وفيهم صرد بن عبد الله الأزدي ، وكان أفضالهم فأقره على من أسلم من قومه ، ووفد الحارث بن كعب ، ووفد رفاعة بن زيد الجذامي ، ووفد همدان فيهم مالك بن نمط ، وكان شاعراً مجيداً فلقوا رسول الله مرجعه من تبوك ، ووفد تجيب وهي قبيلة من كندة وجعلوا يسألون رسول الله عن القرآن والسنة ، ووفد بني ثعلبة ، ووفد بني سعد هذهم من قضاة أسلموا وبايعوا رسول الله على الإسلام ورجعوا إلى قومهم فرزقهم الله الإسلام ، ووفد بني فزارق وفيهم خارجة بن حصن أخو عيينة بن حصن ، مقرن بالإسلام ، ووفد بني أسد فيهم حضرمي بن علفر فأسلموا وقالوا يا رسول الله أسلفنا ولم تقاتل كما قاتلتك العرب فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ يَمْشُونَ عَلَىٰ آبَاءِهِمْ لَا يُعْمَلُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا كُفٌّ لِلْإِيمَانِ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿ وأقاموا أياماً يتعلمون القرآن ، ووفد بني عذرة ، قبيلة باليمن وبنها عن سؤال الكهنة والذباح التي كانوا يجذبونها لأصنامهم . ووفد بني وهم من قضاة أسلموا وكان شيخ الوفد أبو الضبيب^(٣) فقال يا رسول الله إن لي رغبة في الضيافة فهل لي في ذلك أجر ؟ قال نعم وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة . قال يا رسول الله فما وقت الضيافة ؟ قال ثلاثة أيام ، قال فما بعد ذلك ؟ قال صدقة ولا يحمل للضيف أن يقيم عندك فيخرجك ، أي يضيق عليك . ووفد بني مرة ورأسهم الحارث بن عوف ، ووفد خولان وهي قبيلة من اليمن وكان لهم صنم يعبدونه اسمه « عم أنس » ولما رجعوا هدموه ، ووفد بني محارب وفيهم خزيم بن سوار وكانوا أغلظ العرب وأشدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام عرضه نفسه على القتال في الواحش يدفعهم إلى الله تعالى ، ووفد ضداموم حمى من عرب اليمن بايعوا رسول الله عليه السلام على الإسلام ثم رجعوا إلى قومهم وفتنوا الإسلام فيهم وكان زيد بن حارث الصدائي مطاعاً في قومه . ووفد سلامان فيهم خبيب بن عمرو السلامي فأسلموا ، وسأل خبيب رسول الله عن أفضل الأعمال قال الصلاة في وقتها وصلوا معه يومئذ الظهر والعصر . ووفد بني عيس ، ووفد مزينة وهي قبيلة تنسب إلى مزينة امرأة عمرو بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر ، ووفد الأشعرين قوم أبي موسى الأشعري وهم منسوبون إلى أشعر بن أد فأسلموا وبايعوا وقال في حقهم رسول الله « أنا كم أهل اليمن كأنهم السحاب وهم خيار من في الأرض » وقال: الأشعريون كصرة فيها مسك . ووفد دوس وهم قوم أبي هريرة ينتهي نسبهم إلى الأزد

(١) سأل رسول الله زيداً ما أهلك ؟ قال : أأزبد الخيل . قال : بل أنت زيد الخير . وكان شاعراً ، عن ابن خلدون (٢) تصغير النيب : الدابة المعروفة .

وكان قدومهم بخير سنة سبع . ووفد بهراء قبيلة من قضاة قدموا من اليمن أسلموا وتسلموا القرائض ثم انصرفوا إلى أهلهم باليمن . ووفد غامد قبيلة من الأزد باليمن سنة عشر . وأقروا بالإسلام . وكتب لهم رسول الله كتاباً فيه شرائع الإسلام وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أبي بن كعب الأنصاري^(١) أن يعلمهم القرآن . ووفد الأزد ينسبون إلى جدم الأعلى وهو الأزد بن النوث وهم الذين قال في حقهم رسول الله (حكماً علماء كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء) . ووفد بني المنتفق وهي قبيلة من عامر بن ضمصة وفيهم لقيط بن عاصر بن صبرة بن عبد الله بن المنتفق قال عنهم رسول الله : إنهم من أتقى الناس لله في الدنيا والآخرة . ووفد النخع قبيلة من اليمن وهم آخر الوفود وكان وفتح سنة إحدى عشرة في النصف من الحرم وعدد مائتا رجل . قدموا مقرين بالإسلام وقد كانوا يابوا معاذ بن جبل .

وفاة رسول الله ﷺ

يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ - ٧ يونيو سنة ٦٣٢ م

مرض رسول الله صلى الله عليه وسلم في أواخر صفر سنة ١١ هجرية (٦٣٢ م) وكانت مدة مرضه ثلاثة عشر يوماً (وقيل سبعة أيام) وكان في ابتداء مرضه في بيت زوجته ميمونة ولما اشتد مرضه استأذن زوجاته أن يمرض في بيت عائشة فخرج يهادي بين العباس بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب حتى دخل بيت عائشة وأمر أن يهرق عليه للماء فصبوه عليه لما كان يشعر به من الحمى ، وقال ما زال أجداً ألم الطعام الذي أكلت بخير وهذا أوان إقطاع أجهري من ذلك السم^(٢) . ولما تمدر عليه الخروج للصلاة ، قال مروا أبا بكر فليصل بالناس . وقالت له عائشة يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء . قال مروا أبا بكر فليصل بالناس ففادته مثل مقاتلتها ، فقال إنك صواحب بوسف . مروا أبا بكر فليصل بالناس ، فصلى بهم سبع عشرة صلاة أولاهما عشاء ليلة الجمعة وآخرها صبح يوم الاثنين .

وفي تقديم أبي بكر للصلاة إشارة إلى أنه الخليفة بعده . فقالوا إن النبي ﷺ رضي لدنيا أفلأ نرضاه لدنيانا ؟ غير أن النبي خرج مصوب الرأس لأنه كان يشكو ، وجلس في أسفل مراقبة من المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : يا أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم ، هل خلدني قبلي فمين بُعث إليهم فأخذ فيكم ، ألا إني لاحق بربي وإنكم لاحقون بي فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصي المهاجرين فيما بينهم فإن الله تعالى يقول :

(١) كان أبي بن كعب نعيماً ، قصيراً ، أبيض الرأس واللحية . شهد الغزاة الثانية وبدراً وما بعدها من المعاهد وكان كاتب الوحي وأحد السبعة الذين حفظوا القرآن على عهد رسول الله وأحد الفقهاء الذين كانوا يفتون على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأقرأ الصحابة لكتاب الله ، مات بالمدينة ، ودفن بها سنة ثلاثين (٢) الأهر : عرق مستطيل والصلب والغلب متصل به ، فإذا انقطع لم يبق سماعة

﴿وَالْمَصِيرُ إِنَّا لِلْإِنْسَانِ أَكْفَى خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾
 وإن الأمور تجري بإذن الله ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يجعل بجة أحد
 ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، فهل عسى إن توليت أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم
 وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم . ألم يشاطروكم في النار .
 ألم يسمعوا لكم في الديار . ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة . ألا فمن ولى أن يحكم بين رجلين قليل
 من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم . ألا ولا نستأثروا عليهم ، ألا وإنى فرط لكم وأنتم لا تحقون في . ألا فإن
 موعدكم الخوض . ألا فمن أحب أن يردده على غداً فليتكف يده ولسانه .

وهذه آخر خطبة للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يصعد المنبر بعد ذلك اليوم . وقد أوصى المسلمين بالحبة والاتحاد
 وصلة الرحم ، للهاجرين منهم والأنصار ، وهو في أشد حالات المرض ونهاهم عن التقاطع .

ثم أغنى على رسول الله وأرأسه في حجر عائشة رضى الله عنها وكانت تدعوه بالشفاء وكان يقول : إن
 الموت لسكرات . وقالت فاطمة لما تشاء السكب . واكراب أبنائه ، فقال : لا كرب على أئيك بعد اليوم .

وفي البخارى من حديث أنس رضى الله عنه . أن المسلمين يتناهم في صلاة النحر من يوم الاثنين وأبو بكر
 يصل لهم ، لم يفتأهم إلا رسول الله ﷺ قد كشف سيفه^(١) حجرة عائشة رضى الله عنها ففطر إليهم وهم في
 صفوف الصلاة ثم تبسم بضحك^(٢) فنكس أبو بكر رضى الله عنه ليعمل الصف وظن أن رسول الله ﷺ يريد
 أن يخرج للصلاة . قال أنس وهم للسلون أن يفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده ﷺ أن
 أتموا صلاتكم ثم دخل الحجرة وأرخى الستر . زاد في رواية فتوفي من يومه . واجتمع حوله أصحابه فيكون
 قالت عائشة رضى الله عنها : توفي رسول الله ﷺ في بيتي وبين سحري ونحري^(٣) والرد أنه توفي وهو في
 حجرها وكان أبو بكر رضى الله عنه غائباً فلـ عمر بن الخطاب رضى الله عنه سيفه وتوعد من يقول مات
 رسول الله ﷺ مع أنه سمع خطبة رسول الله ﷺ التي قال فيها « يا أيها الناس بلغنى أنكم تخافون من موت
 نبيكم . هل خلد نبي قبلى فيمن بئس إليه فأخذ فيكم . إلا إلى لاحق برى » .

فأقبل أبو بكر رضى الله عنه حين بلغه الخبر إلى بيت عائشة رضى الله عنها فكشف عن وجه رسول الله ﷺ
 فجثا يقبله ويبكى ثم خرج فقال : أيها الحالف على رسلك^(٤) . فلما تكلم أبو بكر رضى الله عنه جالس عمر فحمد الله
 أبو بكر وأثنى عليه ثم قال :

(١) السيف : السران القروان بينهما فرجة .

(٢) تبسم بضحك : فرحاً بأجاءهم على الصلاة وانفاق كلمهم وإقامة شريعته .

(٣) السحر : الصدر ، والنحر : موضع القلادة من النتي . (٤) أى الله ولا تعجل .

(أَلَا مَنْ كَانَ يُمِدُّ مُحَمَّدًا فَإِنَّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَتَّى لَا يَمُوتَ) وقد قال تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ وقال : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ) الآية . قد شج (١) الناس ليكون رواه البخاري . فكان أجزع الناس كلهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فلما سمع قول أبي بكر قال : فوالله لكانى لم أنل هذه الآية قط .

ووقوف أبي بكر هذا للوقت يدل على رباطه جأشه عند الكروب وضبط النفس وعلى حكمته وشجاعته . فإن رسول الله لما توفى طاشت العقول ففهم من خيّل ومنهم من أقعد ولم يطق القيام ومنهم من أخرس فلم يطق الكلام ومنهم من أضنى (٢) وكان عمر رضى الله عنه ممن خيّل ، وكان عثمان رضى الله عنه ممن أخرس فكان لا يستطيع أن يحكم ، وكان على رضى الله عنه ممن أقعد فلم يستطع أن يتحرك ، وأضنى عبد الله بن أنيس فمات كذاً وكان أئمتهم أبو بكر . فال القرطبي وهذا أول دليل على كمال شجاعة الصديق رضى الله عنه لأن الشجاعة هي ثبوت القلب عند حلول المصائب ولا مصيبة أعظم من موت رسول الله فظهرت عنده شجاعة الصديق وعلمه رضى الله عنه .

وروى أن بلا رضى الله عنه كان يؤذن بعد وفاته ﷺ وقبل دفنه فإذا قال : أشهد أن محمداً رسول الله ارتج المسجد بالبكاء والتعجب .

وكانت وفاته ﷺ يوم الاثنين في شهر ربيع الأول سنة ١١ هـ قرية بلا خلاف ، واختلف في أى الاثنين كانت وفاته فقال قتادة الحجازي إن رسول الله قبض يوم الاثنين لليتين مضتا من شهر ربيع الأول ، وقال الواقدي توفى يوم الاثنين لثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، ودفن من الغد نصف النهار حين زاغت الشمس وذلك يوم الثلاثاء ، وكان عمره ثلاثاً وستين سنة قرية ، وركته عمته صفية . وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب . وأبو بكر . وحسان بن ثابت وغيرهم .

وغسلوه ﷺ وعليه قبضه يعضون للماء فوق القميص ويدلكونه بالتميص (٣) غسله على بن أبي طالب رضى الله عنه والماء من بئر غرس التي بقاء ، وكان العباس وابنه الفضل يمينانه في قلب جسمه الشريف وكفونه في ثلاثة أثواب بيض من التطن ليس فيها قميص ولا عمامة ، ولما فرغوا من جهازه ﷺ وضع على سريره في بيته ثم دخل الناس عليه ﷺ أرسلوا أى جماعات متتابعين يصلون عليه وحفر له ﷺ في المكان الذى توفى فيه بعد أن رموا فراشه الذى توفى عليه وفرش عليه قطيفة كان يابسها ويفترشها قال أبو بكر رضى الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول (ما مات نبي قط إلا يدفن حيث تقبض روحه) قال على وأنا أيضاً سمعته . وكان الباشا للحفر

(١) يقال نزع الباك : إذا غس بالبيضاء في حلقه من غير استحباب . . (٢) أى أنه الرض .

(٣) راجع البيهقي في دلائل النبوة .

أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري رضى الله عنه ، حفر لحناً في موضع فراشه حيث قبض ، ونزل في قبره عهد المباس وعلى والفضل وقثم بن المباس رضى الله عنهم . ورش قبره عليه السلام بلال بقربة بدأ من قبل رأسه وجعل عليه من حصباء العرصة حمراً وبيضاً ورفع قبره عن الأرض قدر شبر .

ولا يفوتنا أن نذكر أن للناقلين أكثروا من التحدث بتأثير أسامة حتى بلغ رسول الله فخرج وهو مريض عاصباً رأسه من الصداع فرد عليهم . ومما قاله في الشأن « قد بلغني أن أقواماً يقولون في إمارة أسامة ولعمري لئن قالوا في إمارته لقد قالوا في إمارة أبيه من قبله وإن كان أبوه خليقاً للإمارة وإنه خليق لها فأغذوا بهت أسامة » وهذا يدل على أن رسول الله كان مهتماً لآخر لحظة في حياته بهت أسامة وبشئون المسلمين وتوحيد كلمتهم .

وقد توفي رسول الله ﷺ ودرع عمره مائة عند يهودى في ثقة عياله وما ترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً . عن عائشة رضى الله عنها « ولقد مات وما في يتي شيء ، يأكله ذوكبد ^(١) إلا شطر شعير في ردف فأكلت منه حتى طال على فأكلته حتى فياليتنى لم آكله » وروى الترمذى عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه ، توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشيع هو ولا أهل بيته من خبز الشعير وما ترك رسول الله إلا سلاحه وفضلته وأرضاً جعلها صدقة .

رثاء أبى بكر

وقال محمد بن عمر الواقدي عن رجاله ، قال أبو بكر الصديق يرى رسول الله ﷺ :

يا عين بكى ولا تسمى وحقَّ البكاء على السيد
على خير ختلف عند البلا . أبسى يُنيب في الملح
فصلَّ للملك ، ولَّيَّ البسا د وربُّ البلاد على أحد
فكيف الحياة لتفقد الحيد ب وزن الماشر في للشهد
فليت المات لنا كلنا وكنا جميعاً مع المهتدى

وقال رضى الله عنه : أيضاً :

ما رأيت نبينا متجداً ضاقت على يعرضهن الدور

- ٣٥٦ -

وارتمت روعةَ مستهائمٍ والدهِ والعظم منى واهنٌ مكسور
أعقيقٌ وبحك إن حيك قد ثوى وقيت منفرداً وأنت حسير
يألفني من قبل مَهْلِكٍ صاحبي غُيِّبْتُ في جدثٍ ، على صُخور
فَلْتَحْدُثَنَّ بدائعٌ مِن بَعْدِهِ نَمِيْ بَهْنِ جَوَانِحٍ وصدور

رثاء حسان بن ثابت

والله ما حلت أُنثى ولا وضتُ مثلَ النبي رسول الأمة الهادي
أسمى نساؤك عَطْلَنَ البيوتِ فما يضرين خلف قفا سِتْرِ بأوتاد
مثل الرَوَاهِبِ يلبسن السوح وقد أيقنَ بالبؤس بعد النعمة البادي

وقال أيضاً :


ما بال عينك لا تنام كأنما كُحِلَتْ مآقيها بكحل الأرمد
جزعاً على الهدى أصبح ثاوياً بإخيرٍ من وطئ الحمى لا تبعد
يلويح أنصار النبي ورهطه بعد الغُيْبِ في الضريح للحد
جنبي يتيك - التَّزَبُّ لهُ لِيَتَنَى كُنْتُ لِلْغَيْبِ في الضريح للحد
يا بَكْرَ أَمَنَةِ البَارِكِ ذَكَرَهُ ولَدَتَهُ مُحْصَنَةً بَعْدَ الْأَسَدِ
نوراً أضاء على البرية كلها من يَهْدٍ للنور المبارك يهتدى
أأقيم بمدك بالمدينة بينهم بالهف نفسى ليقى لم أولد
بأبى وأُمى من شهدت وفاته في يوم الاثنين النبي المهدي
فطلات بعد وفاته متلدداً باليتى صُبِحتُ مُسَمَّ الْأَسَدِ
أو حلَّ أمرُ الله فينا عاجلاً في راحة من يومنا أو من غد
فقوم سِيعَتَنَا فَنَلْقَى سَيِّدًا محصاً مضاربه كريم الحقد
يلرب فاجمنا ممّا وُثِينَا في جنة ثقفا عيون الحسد
في جنة الفردوس واكتبها لنا يا ذا الجلال وذا العلا والشؤدد
والله أسمع ما حيت بهالك إلا بصكيت على النبي محمد

- ٣٥٧ -

ضائق بالأنصار البلاد فأصبحوا سوداً وجوههم كالون الإند
ولقد ولدناه وفينا قبره وفضل نعمته بنا لا يُحمد
والله أهدها لنا وهدى به أنصاره في كل ساعة مشهد
جلى الإله ومن يحف برشه والطيون على المبارك أحمد

وقال أيضاً:

يا عين جودى بدمع منك سِيل ولا تَمَنَّ من سَح وإعوال
لا ينفذ لي بعد اليوم دمعك إني معاص وإني لست بالسالى
فإن منعك من بعد بذلك إني مثل الذى قد غرّ بالآل
لكن أفيض على صدرى بأريه إن الجوامح فيها هاجس صالى
سَح الشَّيب وماء الترب يمنحه ساق يحمله ساق يزلزال
حامى الحقيقة تَسألُ الرديقة فكألك العناة كَرِيم ماجد عال
كشافُ مكرمة مطعامُ مسغبة وهاب عانية وَجَناء شلال
عَفْ مكاسبه جزل مواهبه خيرُ البرية سمح غير نكال
وارى الزناد وقواد الجياد إلى يوم العاراد إذا شَبَّت بأجذال
ولا أُرَكِّى على الرحمن ذا بشر لكن علك عند الواحد العالى
إني أرى الدهر والأيام تفعنى بالصالحين وأبقى ناعم البال
يا عين فابكى رسول الله إذ ذكرت ذات الإله فتم القائد الوالى

ومن رثاه  شعراً ، كعب بن مالك وأروى بنت عبد المطلب وعاتكة بنت عبد المطلب وصفية وهند
بنت الحارث وهند بنت أئمة وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وأم أئمن

ما نزل من القرآن بالمدينة

نزل على رسول الله بالمدينة من القرآن اثنتان وثلاثون سورة . أول ما نزل ، وبيل للطفين ثم سورة البقرة ثم سورة الأنازل ثم سورة آل عمران ثم الحشر ثم سورة الأحزاب ثم سورة النور ثم المتعنة ثم إنا فضعنا لك ثم سورة النساء ثم سورة الحج ثم سورة الحديد ثم سورة محمد ثم هل أتى على الإنسان ثم سورة الطلاق ثم سورة لم يكن ثم سورة الجمعة ثم تنزيل السجدة ثم للؤمن ثم إذا جاءك المنافقون ثم المجادلة ثم المجرات ثم التحريم ، ثم التناهي ، ثم الصف ، ثم اللائدة ، ثم براءة ، ثم إذا جاء نصر الله والفتح ، ثم إذا وقعت الواقعة ، ثم والمائدات ، ثم المؤمنان وكان آخر ما نزل : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ إلى آخر السورة ، وقد قيل إن آخر ما نزل عليه : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَابْتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ وهي الرواية الصحيحة .

مراتب الوحي

والرد على المستشرقين

نذكر في هذا الفصل مراتب الوحي ثم نرد على المستشرقين الذين زعموا أن رسول الله كانت تعترية نوبات صرعية إنكاراً لنزول الوحي .

ولنبدأ بمراتب الوحي وهي سبعة :

- ١ — الرؤيا الصادقة فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .
- ٢ — ما كان يلقى للملك في قلبه من غير أن يراه ، ويخاط الله فيه علماً ضرورياً يعلم به أنه وحى لا إلهام .
- ٣ — خطاب الملك حين كان يشغل له رجلاً فيخاطبه حتى يبي عنه ما يقول .
- ٤ — كان يأتيه غمطاً له بصوت مثل صلصلة الجرس وكان هذا النوع أشده عليه ، وفي حديث لابن عباس : كان ﷺ يبالغ من التنزيل شدة .
- ٥ — رؤية جبريل في صورته التي خلقه الله عليها فيوحى إليه .
- ٦ — ما أوحاه الله إليه وهو فوق السموات من فرض الصلوات وغيرها بسماع الكلام الأزلّي الذي ليس بحرف ولا صوت من غير واسطة مع الرؤية للذات للقدس .
- ٧ — ما أوحاه الله إليه بلا واسطة أيضاً ، بل بسماع الكلام الأزلّي لكن بلا رؤية كما وقع لموسى عليه السلام .

هذه هي مراتب الوحي وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمانى من الوحي شدة فظن المستشرقون أن هذه الشدة التي كانت ترى عليه إنما هي نوبة صرعية ، لكن أعراض الصرع للدوسة طبيياً تختلف ما كان يشاهد عليه ﷺ عند نزول الوحي .

فالمصروع تغمته النوبة فجأة فيقطع كلامه ويسقط من يده ما قد يكون قابضاً عليه وتثبت حدقة عينه ويصفر وجهه وقد يصبح صبيحة عالية ويقع منشيئاً عليه كمن أطلق عليه عيار نارى ولا يبذل أى مجهود للخلاص من حاله ، ولهذا كثيراً ما يصاب بمجروح وقد يصاب بمجروح خطرة إذا سقط بالقرب من نار وتقلص عضلات الوجه في النوبة الصرعية ومنها عضلات الفك . فيعض للمصروع لسانه ويمتزج لعابه بالدم ويسيل من فمه وإذا ترك وشأنه نام ساعات فإذا أفاق شكك صداعاً وارتباكاً في العقل . ثم إن الجروح التي تصيب رأس المصروع من السقوط فجأة تسبب له سهجاً في الدماغ .

هذه هي أعراض الصرع الطبية . فكيف يقال إن رسول الله كان تغمته نوبات صرعية ولم يزل أنه سقط منشيئاً عليه أو أصيب بمجروح في رأسه أو عض لسانه أو شفتيه أو سال الدم منه أو أصيب بمجروح أو قد ذكركه أو واحد عن مبدئه ؛ بل لم يقل أحد من الرواة إنه صاح صياحاً عالياً . اليس في مخالفة حالته للأعراض الصرعية التي يعرفها كل طبيب رد كاف على هؤلاء المستشرقين ؟

كان رسول الله بعد شدة الوحي يلقى القرآن بوضوح وحضور ذهن ، ويقر الأطباء أن المصروع لا يمكن أن يكون حاضر الذهن بعد النوبة ، ومحال أن يعيش صحيح الجسم قوياً طول حياته . كذلك لا يمكن أن يكون المصروع نبياً أو مشرعاً حافظاً لقواه العقلية والجسمية وهذا ما مرّح به أحد مؤلفي السيرة وهو مستر بودلى في كتابه عن حياة الرسول طبعة سنة ١٩٤٦ صفحة ٥٥ - ٥٦^(١) . وقال أيضاً : « إن المعجزات ترجع إلى ألفى عام قبل المسيح وعلى ذلك فالذين يسخرون من محمد على جبل حراء فليسخروا من موسى على جبل سيناء ومن المسيح على جبل الجليل » ، فالحالة التي كانت تغمته ليست نوبة صرعية قطعاً . ومن شاء فليراجع الكتب الطبية في هذا الموضوع ليتأكد من أعراض الصرع التي ذكرناها ، إنما كانت تتباه شدة من الوحي ، لأنثبت أن نزول ومن أهم أعراض الصرع ، اضطلال القوى العقلية فضلاً عن الجسمية . وهذا يخالف حالة رسول الله فإنه لبث محافظاً على قواه طول حياته ولم يمد من مبدئه وعن تبليغ الرسالة حتى آخر يوم من حياته فدعا إلى الله وحارب عبادة الأصنام والشرك وبقي متصفاً بجليل صفاته وكرم أخلاقه حتى قبضه الله تعالى .

(1) The Messenger by R. V. C. Bodley

زوجات رسول الله ﷺ

تزوج رسول الله خمس عشرة امرأة، ودخل ثلاث عشرة وجمع بين إحدى عشرة؛ وتوفي عن تسع أولاهن (خديجة) بنت خويلد ولم يتزوج عليها حتى ماتت.

ثم تزوج (سودة) بنت زمعة وكانت تحت ابن عمها السكران بن عمرو وهو من مهاجرة الحبشة ثم قدما مكة فمات بها ولم يقب فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم بعده في رمضان سنة عشر من النبوة بعد وفاة خديجة. توفيت (سودة) في شوال سنة ٥٤ هـ في خلافة معاوية بالمدينة.

ثم تزوج (عائشة) بنت أبي بكر سنة اثنتين ولم يتزوج بكرة غيرها. عقد عليها بمكة وهي ابنة ست سنين وبنى عليها بالمدينة وهي ابنة تسع وتزوج (حفصة) بنت عمر بن الخطاب وكانت تحت خنيس بن حذافة السهمي وكان رسول الله أرسله إلى كسرى ولما مات خنيس بن حذافة وتأيمت حفصة ذكرها عمر لأبي بكر وعرضها عليه فلم يرد عليه أبو بكر كلمة فنضب عمر من ذلك ففرضها على عثمان حين ماتت رقية بنت رسول الله فقال عثمان ما أريد أن أتزوج اليوم فانهلك عرالي رسول الله فشكا إليه عثمان فقال رسول الله: يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هو خير من حفصة ثم خطبها إلى عمر فتزوجها رسول الله بعد غزوة أحد سنة ثلاث وكانت سنها عشرين سنة وتوفيت سنة ٤٥ هـ في خلافة مروان بن الحكم وكان عمرها ستين سنة ثم تزوج (زينب) بنت خزيمة بن الحارث سنة ثلاث. يقال لها أم الساكين لكثرة إطعامها للساكين وصدقها عليهم وكانت تحت عبد الله بن جحش قتل عنها يوم أحد ولم تلبث عند رسول الله إلا يسيراً: شهرين أو ثلاثة حتى توفيت في حياته. ثم تزوج (زينب) بنت جحش وهي بنت عمته ﷺ سنة خمس وهي أول من مات من أزواجه في خلافة عمر ونكح أم الحكم وكانت قديمة الإسلام وكانت قد تزوجها زيد بن حارثة مولى رسول الله ليعلمها كتاب الله وسنة رسوله وكان اسمها برة فسمها زينب وبسببها نزل العجاف.

ثم تزوج (أم حبيبة) واسمها رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب وأمها صفية بنت أبي العاص عمة عثمان ابن عفان. أسلمت قديماً وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش فتنصر بالحبشة ومات بها وأبت هي أن تنصر وثبتت على إسلامها فتزوجها رسول الله وهي بالحبشة سنة ست. وروى مسلم بن الحجاج في صحيحه أن أبا سفيان طلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها فأجابته إلى ذلك وهذا مما يمد من أوهام مسلم لأن رسول الله قد تزوجها وهي بالحبشة قبل إسلام أبي سفيان ولم يختلف أهل السير في ذلك^(١) وأصدقها النجاشي أربعاً مائة دينار وكان ولها عثمان بن عفان.

(١) راجع الجزء الخامس من أسد الغابة «رملة» وتهذيب الأسماء للزوي «أم حبيبة».

• ثم تزوج (أم سلمة) بنت أبي أمية بن النخعي الخزرجي واسمها هند ، سنة أربع وكانت قبل النبي ﷺ عند أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي فولدت له سلمة وعمر ودره وزينب وتوفى خلفه عليها رسول الله ﷺ بعده . وكانت من المهاجرات إلى الحبشة وإلى المدينة وكانت سنها حين تزوجها رسول الله ﷺ ثلاثين سنة . وتزوج (ميمونة) بنت الحارث وهي خالة خالد بن الوليد وكانت قبل رسول الله ﷺ عند أبي رهم العامري . تزوجها رسول الله ﷺ سنة سبع في عمرة القضاء في ذي القعدة .

وتزوج (صفية) بنت حُصَي بن أخطب سنة سبع ولم يبلغ ١٧ سنة وكانت زوج سلام بن مشكم اليهودي ثم خلفه عليها كنانة بن أبي الحقيق وهما شاعران قتل عنها كنانة يوم خيبر ثم تزوجها رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم وتوفيت سنة ٥٢ هـ وتزوج (جويرية) بنت الحارث بن أبي ضرار سنة خمس سبيلها رسول الله ﷺ يوم الربيع وهي غزوة بني المصطلق وكانت تحت مسافع بن صفوان المصطلق ذي الشفرين . وعن عائشة قالت لما قسم رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن شمس أو لابن عم له فكانت على نفسها إلخ ...

ولما بلغ الناس أنه تزوجها قالوا أصهار رسول الله ﷺ فاطلوا جميع الأسرى الذين بأيديهم . وتزوج (خولة) بنت حكيم وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ صلى الله عليه وسلم . وتزوج امرأة يقال لها (عمرة) فطلقها ولم يكن بها وذلك أن أباهما قال له وأزبك أنها لم تمرض قط ، فقال ما لهذه عند الله من خير فطلقها . وتزوج امرأة يقال لها (أميمة) بنت النعمان فطلقها قبل أن يدخل بها . وخطب امرأة من بني مرة بن عوف فردة أبوها وقال إن بها برصاً فلما رجع إليها وجدها برصاء . إن رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم تزوج هؤلاء قبل تحریم ما زاد على الأربع وهن عائشة وميمونة وصفية وجنصة وهند وزينب وجويرية ورملة وسودة .

تعدد زوجات رسول الله

اعترض بعض الذين كتبوا سيرة الرسول من المسيحيين على كثرة أزواجه ﷺ وزعموا أنه كان شهوانياً . والحقيقة أن كثرة أزواجه لم تكن بدافع شهواني فإنه أراد بذلك أن يوجد بينه وبين أصحابه وكبار قومه صلة قوية وراطة مقينة بواسطة المصاهرة لأن ذلك مما يساعده ويشد أزره للدفاع عن مبدئه السامي ونشر الدعوة إلى الإسلام .

أما أنه لم يكن شهوانياً فأمر لا ينكر ، وظاهر من حياته وأطواره لأنه صلى الله عليه وسلم تزوج خديجة وكانت في الأربعين من عمرها وهو في عنوان شبابه في سن الخامسة والعشرين ولم يتزوج غيرها إلى أن توفيت

وكان عمره إذ ذاك خمسين سنة ، فإذا لم يكن إلى هذا العمر رجل شهوة بل كان رجلاً فانما بزوجة واحدة فهل من العذل أن تقول إنه كان شهوانياً بعد ذلك ؟

لم يكن رسول الله يعرف الفراغ بل كان في جهاد مستمر فلم يذق الراحة دليماً من مبدأ الرسالة إلى أن مات فكان يقضى أوقاته في نشر الدعوة ومحاربة الوثنية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع عن المسلمين وجمع شملهم وتعليمهم أمور دينهم وثبتت دعائم الدين الصحيح الخالية من الشوائب ، ومكافحة الأعداء باللسان والسيف . وكان مع ذلك يتبذل آناه الليل وأطراف النهار ، وعلى العموم فقد تحمل من الأعباء ما تنوء به الجبال ولم تشغله كثرة نسائه عن عبادة ربه وعن القيام بواجبات الرسالة .

وأما أنه كان يقصد من تمدد زواجه إيجاد روابط للصاهرة وتأليف القلوب لنشر الدعوة فهذا واضح أيضاً فإن زوجته (عائشة) هي بنت أبي بكر الصديق (وحفصة) بنت عمر بن الخطاب وقد كان عرضها عمر بعد موت زوجها على أبي بكر وعثمان فأبيا زواجها فتزوجها رسول الله (وأم حبيبة) هي بنت أبي سفيان وقد كان من أكبر أعداء رسول الله ومن أشرف قريش ، وعدا ذلك قد كانت أم حبيبة كما تقدم أسلمت قديماً وهاجرت إلى الحبشة وتنصر زوجها هنالك وأبت أن تنصّر معه فأكرمها النبي ﷺ بزواجها . وزوجته (ميمونة) هي خالة خالد بن الوليد الذي صار من أعظم أبطال المسلمين وقوادم الذين اكتسبوا شهرة خالدة . وأما زوجته « صفية بنت حيي » فإنما تزوجها لأنها بنت ملك من ملوك اليهود فلا تصلح إلا له ﷺ وقد تنافس المسلمون فيها لما وقعت في نصيب دحية بن خليفة الكلبي .

وقد كان رسول الله قوياً صحيح الجسم كما أنه كان ذا إرادة تقل الحديد ، وكان بشراً يأكل ويشرب ويشتمى ، وقد عصمه الله تعالى عن الذنوب . وتزوج (زينب بنت جحش) وكانت عند مولاه زيد بن حارثة وطلقها زيد بعد أن كرمها ، وتزوجها رسول الله لإبطال عادة التبني ونسخ تحريم الزواج بامرأة للتبني . هذا ملخص العلة في تمدد زواجه بعد أن بلغ من العمر الخمسين وبعد أن اقضى زمن شبابه : زمن حدة الشهوة . هذا ولا يخفى أن تمدد الزيجات كان عادة مألوفاً عند العرب .

على أن عقلاء الإنفرتج أدركوا حقيقة هذه المسألة فردوا على ما اقترأه بعضهم من قصار النفاذ . قال الفيلسوف الإنجليزي توماس كارليل :

« وما كان محمد أخاً شهوات برغم ما اتهم به ظلاماً وعدواناً ، وشد ما نجور ونغطيه إذا حسبناه رجلاً شهوياً لأم له إلا قضاء ما ربه من اللذات . كلا فما أبعد ما كان بينه وبين اللذات أية كانت . لقد كان زاهداً متشققاً في مسكنه ومأكله ومشربه وما يلبسه وسائر أمورهم وأحوالهم وكان طعماً عادة الخبز واللحم وربما تنابت الشهوة ولم توقد بداره نار . وإنهم ليدكرون - ونعم ما يدكرون - أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده . فهل بعد ذلك مكمرة وممجة ؟

- ٣٦٣ -

فبذا محمد من رجل خشن اللباس ، خشن الطعام ، مجتهد في الله قائم النهار ساهر الليل ، دائباً في نشر دين الله الخ .

هذا وقد كان لسيان ثلاثمائة امرأة وثلاثمائة سربة وقد كان لناود عليه السلام على زهده وأكله من محل يده تسع وتسعون امرأة وتمت بزواج امرأة أوروبا مائة .

المرأة في الاسلام

لم يكن للمرأة في الجاهلية أى شأن ، فلم يكن لها حق الميراث كالأطفال ويقولون : لا يرث إلا من طلعن بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة .

وأمر الله تعالى بمباشرة النساء بالمعروف حيث قال (وعاشروهن بالمعروف) .
وأمر النساء بالخضوع للرجال قال تعالى (الرجال قوامون على النساء) وحث رسول الله على معاملتهن باللين والرفق فأوصى بهن الأزواج حيث قال (استوصوا بالنساء خيراً) وشرط الإسلام رضا المرأة قبل الزواج ومنع أخذ الزوجة بغير رضاها وجاء في الحديث « الجنة تحت أقدام الأمهات » وللنساء في الميراث نصف ما للرجال ، وحرم القرآن وأد البنات ، ومنع الإسلام الزواج المؤقت (زواج التمتع) وحرم الزنا ولم يبيح تعدد الزوجات إلا عند توافر المصلحة « فإن خفتم ألا تمضوا فواحدة » وأباح الطلاق وصرح النبي أن أبغض الحلال عند الله الطلاق ، وتعدد الزوجات بلا شك خير من الزنا المستور وهو يمنع المهارة وعزوبة النساء المنتشرة في هذه الأيام بكثرة .

حكمة تعدد الزوجات

إن الدين الإسلامى لما كان ديناً عالمياً فقد أباح تعدد الزوجات قال تعالى : ﴿ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتًى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ وذلك لضرورات اجتماعية وشخصية :

فأما الضرورات الاجتماعية ، فهو نقص عدد الرجال عن النساء بسبب قتل الرجال في ميادين الحرب . هذا ولم يستطع رؤساء الحكومات ولا علماء الاجتماع ولا المصلحون ولا المؤتمرات الدولية منع الحروب . فقد نشبت الحرب العالمية وذهب ضحيتها الملايين من النفوس البشرية وهما الأمم تستمد الآن للحرب أخذاً بالنار وطمأنى التوسع والاستعمار ، وتنشئ الطائرات والأساطيل والدفاع وقد فشل مؤتمر نزع السلاح في مهمته . ولا تزال القبائل في إفريقيا وأمريكا وآسيا تشن الغارات ويقتل عدد كبير من رجالها ونتيجة هذه الحروب والغارات نقص عدد الرجال عن النساء نقصاً يقدر بحسب فظاعتها .

وقص الرجال عن النساء - خصوصاً إذا كان النقص عظيماً - ضاراً بالأمة من جهة وجوه منها قص الثروة لقلة الأيدي العاملة ، وضعف قوتها من الوجهة الحربية ، وتضررها لتأثرات النخيلين ومطامع الطامعين من الأمم القوية فلا يبعد مثل هذه الأمة التي أصيبت بنقص رجالها إلى قوتها وكثرة موالدها إلا تعدد الزوجات .

وقد كتب العالم الإنجليزي هربرت سبنسر في كتاب أصول علم الاجتماع :

« إذا طرأ على الأمة حال اجتاحت رجالها بالحروب ولم يكن لكل رجل من الباقين سوى زوجة واحدة وبقيت نساء عديدات بلا أزواج ينتج من ذلك قص في عدد المواليد لا محالة ولا يكون عددهم مساوياً لعدد الوفيات فإذا تقابلت أمتان مع فرض أنهما مقسولتان في جميع الوسائل للمعيشة وكانت إحداها لا تستفيد من جميع نساها بالاستيلاء فلا نستطيع أن نقاوم خصيمتها التي يستولد رجالها جميع نساها وتكون النتيجة أن الأمة للوحدة للزوجات تنفي أمام الأمم المديدة للزوجات » .

ثم إن زيادة عدد النساء بلا أزواج مدعاة لانتشار الفسق والتفجور والفاقة ، ولأشك أن إباحة تعدد الزوجات للقاذرين عليه علاج لكل ما تقدم .

فأما الضرورات الشخصية ، فعلوم أن الزنا محرم شرعاً فلو أن الإسلام حرم التعدد لضاعت السبل أمام المتدين الذي يبد الله وينبغ أو امره ويحتمل نواحيه لأن هناك ظروفاً شتى قاهرة تضطر الإنسان إلى الزواج بأكثر من امرأة واحدة نذكر منها :

١ - مرض الزوجة مرضاً مزمناً يجعل الزوج ينفر منها بحيث يجعلها غير صالحة للاماسة والمتنع وليس لها من يمولها إذا طلقها ولا تستطيع الكسب ولا يمكن أن تزوج بغيره فليس من الرومة والإنسانية طلاقها وليس من الحكمة منعه من التزوج لئلا يعطل نسله أو تميل به الشهوات الطبيعية إلى الزنا ^(١) ، وقد حدث مثل ذلك بالضبط لأحد الصالحين وكان قاضياً بالحكام الأهلية رحمه الله تعالى فإنه بعد أن تزوج بمدة يسيرة أصيبت زوجته بالشلل فكانت حالتها منفرة ولا تستطيع الحركة ولا ساول الطعام بيدها وليس لها من يمولها إذا طلقها بل يستحيل عليه ذلك لما جبل عليه من الرومة والشفقة . ولما كان متمسكاً بذنبه تزوج غيرها بعد أن قرر الأطباء عدم شفاها وخصص لها خادمة وكان يحملها بنفسه وقد طال مرضها وبقيت على هذه الحال إلى أن توفيت .

٢ - امتناع الرجل عن الاتصال بزوجه مدة الوضع والنفاس وما ينالها بسبب ذلك من الآلام والضعف .

٣ - جاذبية المرأة وجمالها وتأثيرها في الرجل مع قدرته على التعدد من الوجهة الجنسية والمالية .

٤ - بلوغ الزوجة سن الشيخوخة .

(١) كتاب المختارات الفتوية في التفرع وأصول الفقه للأستاذ أحمد أبي الفتح بك الطبعة الرابعة صفحة ٢٠

٥ - عقم المرأة مع رغبة الرجل في الذرية .

٦ - الرغبة في كثرة النسل رغبة في النفوذ والجاه .

٧ - الأسباب الاقتصادية فإن النساء والأولاد يساعدون الرجل في عمله وهذا مشاهد في البلاد الزراعية كالقطر المصري ، وقد يضطر الرجل أن يتزوج امرأة غنية بسبب سوء حالته المالية .

وقد كان تعدد الزوجات شائعاً عند العرب ولم يكن في الجاهلية قانون يحدد عدد الزوجات ، وقد أسلم غيلان ابن سلة وتحتة عشر نسوة فقال له رسول الله ﷺ : « أمسك أربعاً وفارق باقيهن » .
قال الأستاذ غوستاف لوبون :

« إن تعدد الزوجات على مثال ما شرعه الإسلام من أفضل الأنظمة وأنهضها بأدب الأمة التي تذهب إليه وتمتع به وأوقتها للأسرة عقداً وأشدها لأمرتها أزرأً وسيله أن تكون للمرأة المسلة أسعد حالاً وأوجه شأنًا وأحق باحترام الرجل من أختها الغربية » .

وقال : « ولست أدري على أي قاعدة يبنى الأوروبيون حكمهم بمحطاط ذلك النظام - نظام تعدد الزوجات - عن نظام التفرّد عند الأوروبيين المشوب بالكذب والنفاق ؟ ! على حين أرى هناك أسباباً تملأ على إثارة نظام التعدد على ما سواه . وليس عيباً بعد ذلك أن نرى الشرقيين الذين ينتجعون إلينا ويتقنون بين مدائننا يحارون من قسوتنا في الحكم على نظام تعدد الزوجات » وقال :

وقد حذب شوبنهاور الفيلسوف الألماني تعدد الزوجات فيهم^(١) :

« أما الآن لنا أن نعد بعد ذلك تعدد الزوجات حسنة حقيقية لنوع النساء بأسره ؟ » قال ذلك بعد أن شرح مضار الاقتصاد على زوجة واحدة فما قال : « في مدينة لندرة وحدها ثمانون ألف بنت عمومية سفك دم شرفهن على مذبحه الزواج ضحية الاقتصاد على زوجة واحدة . ونتيجة تعدت السيدة الأوريسية وما تدعيه لنفسها من الأباطيل » .

وقال : « إذا رجعنا إلى أصول الأشياء وحقيقتها لا نجد سبباً يمنع الرجل من الزواج ثانية إذا أصيدت امرأته بمرض مزمن تألم منه أو كانت عقياً أو أصبحت على توالى السنين عجوزاً » .

إن الرجل للزوج في الأمم المسيحية التي لا تنبىح تعدد الزوجات ، لا يقتصر في الحقيقة على امرأة واحدة بل نراه يتخذ كثيراً من الخليلات ويبيع نفسه للجمع بمن أحب منهن . لكنه إذا أبلى رأيه أو كتب في موضوع الزواج طعن على تعدد الزوجات وروى المسلمين بالهمجية والتصدى على حقوق الزوجة وزعم أنهم شهوانيون .

(١) وراجع الجزء الثاني من كتاب المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها تأليف الأستاذ عبد الله عيسى ص ٦٩ و ٧٤ .

ولذلك قال الأستاذ لوبون عن نظام نفرد « الزوجة » بين الأوربيين إنه : مشوب بالكذب والنفاق ... وصرح بذلك أيضاً شوبهور قال :

« أين لنا من يقتصر حقيقة على زوجة واحدة ، بل لا ننكر أننا في بعض أيماننا أو في معظمها كلنا أو جلنا نتخذ كثيراً من النساء » .

على أن الشريعة الإسلامية كما هو واضح من نص القرآن الكريم لم تبيح تعدد الزوجات . بلا قيد ولا شرط ، بل اشترطت العدل ، قال تعالى :

﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً ﴾ ، والمعنى فإن خفتم ألا تعدلوا بين هذه الأعداد كما خفتم ترك العدل فيما فوقها فاكفوا بزوجة واحدة ﴿ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْمَلُوا ﴾ والمعنى ذلك أقرب من ألا تعملوا أى لا تجوروا ولا تميؤا .

والذى يؤخذ من مجموع نصوص القرآن والسنة أن الزوج يعتبر آتماً إذا تزوج على امرأته لجرد الإضرار بها^(١) قال تعالى : ﴿ وَلَا تَضَارُّوهُمْ لِضَعْفِهِمْ ﴾ .

فالإسلام لم يبيح التعدد جزافاً بل اشترط العدل ، فكأنه في الحقيقة ضيق حدود التعدد ، فالذين يعددون الزوجات ويضربون صفحاً عن هذا الشرط ، هم في الحقيقة يخالفون الدين ، فلا شأن لنا بهم ، وفصلهم لا يؤخذ حجة على الدين .

بنو لا وبناته ﷺ

ولدت خديجة لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم الذى ولد بالمدينة ، فإنه من مارية القبطية من قرية حفن من كورة أنصاء ، وقد أهداها للقوس عظيم القبط إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؛ وأهدى معها أختها سيرين وهى التى وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت .

وأكبر بنيه القاسم ، وبه يكنى ؛ ولد قبل النبوة بمكة ؛ وهو أول من مات من ولده .

ثم ولد له زينب ؛ ثم رقية ثم فاطمة ؛ ثم أم كلثوم ؛ ثم ولد له فى الإسلام عبد الله (وهو الطيب والطاهر) وهؤلاء كلهم من خديجة ؛ ومات بعد القاسم عبد الله ؛ فقال العاص بن وائل السهوى « قد انقطع ولده فهو أبتر » فأنزل الله تعالى : « إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » وعبد الله هو آخر الأولاد من خديجة .

(١) المختارات الفخية ص ٢٠

(٢) الثاني : البفس . والأبتر : هو مقطوع الذنب ، ويقال لمن لا عقب له أبتر ، وكانت قريش يقولون لمن مات الذكور من أولاده أبتر .

أما إبراهيم فولد له سنة ثمان ومات وهو ابن ستة عشر شهراً وقيل ثمانية عشر ، في سنة عشر من الهجرة .

أما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه ﷺ .

وتزوج زينب أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس وهو ابن خالتها هالة بنت خويلد أخت خديجة لأُمها وأبيها . توفيت زينب سنة ثمان من الهجرة . ولدت لأبي العاص علياً وأمامة . وفاطمة تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ورقية وأم كلثوم تزوجها عثمان بن عفان . وتوفيتا عنده ولهذا سمي ذا النورين توفيت رقية يوم بدر في رمضان سنة اثنتين من الهجرة وتوفيت أم كلثوم سنة تسع من الهجرة . فالبنت أربع والبنون ثلاثة .

صفته ﷺ

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبيض مشرباً بحمرة واسع الجبين . عظيم الرأس من غير إفراط حسن الجسم . عظيم الجبهة دقيق الحاجبين مقرونها كانت الفرجة التي بين حاجبيه سيرة لا تبين إلا لمن دقق النظر ، أهدب الأشفار ، أدهج العينين ^(١) أفتى الأنف ^(٢) وأضح الخدين ليس فيها شوه ولا ارتفاع كك اللحية (كثير شعرها) أسودها عرقه في وجهه ، واسع الثم من غير إفراط ، والعرب تمتدح به لدلالة السعة على الفصاحة ، مفلج التنايا « متفرقها » قوى الأسنان ضخم الكراديس « رموس العظام » غليظ الكتفين واسمها ناعمها شثن الكفين والتقدمين ^(٣) بين كفيه خاتم النبوة وخاتم غدة حمراء ، مثل بيضة الحمامة اغليظ الأصابع من غير قصر ولا خشونة واسع الصدر سهل البطن ، غليظ التميمين ، سبابة قدمه أطول من الوسطى ، أشعر الترائعين وللنكبين وأعلى الصدر ، طويل الزندين ، لم يكن بالطويل ولا القصير وهو إلى الطول أقرب . شديد سواد الشعر ، شعره وسط بين الجمودة والسهولة ، إذا التفت التفت جميعاً ، نقي الثوب لين الكلام ، حسن الصوت قويه ، لا يقول هجراً ، ولا ينطق هذراً ، يخاطب كل إنسان على قدر عقله ، يكلم كل قبيلة بما تعرفه ، واسع الاطلاع بلفات العرب إذا فرح غرض طرفه ، ما رضى ضاحكاً إتماماً كان يتشم وكان الضحك منه نادرًا ولم يرقه ، ما تنادى قط ، وما احلم قط ، ليس بمسترخي البدن ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس غظ ولا غليظ ولا صخاب ولا فحاش ولا عياب ولا مزاح ، وكان يمزح ولا يقول إلا حقاً ، يقابل السيئة بالحسنة ، يصل من قطعه ويعطى من حرمه ويعفو عن ظله ، لا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه ويصبر للعرب على الجفوة في المنطق والمساءلة ، لا يقطع على أحد حديثه ، ولا يتكلم

(١) وقد جاء أشكل العينين أي في بياض عينيه حمرة وكانت في الكتب القديمة من علامات نبوته صلى الله عليه وسلم ، وعن أبي هريرة أكمل العينين ، والكحل سواد هذب العينين خلفه .

(٢) القائل الأنف : طوله ودهة أرنبته مع حذب في وسطه . (٣) أي غليظهما .

في غير حاجة ، وكان كلامه يحفظه عنه كل من سمع ، يعلم النعمة وإن دقت ، لا يفضب لنفسه ولا ينتصر لها وإنما يفضب إذا تعرض للحق بشيء ، ويكرم كريم كل قوم وبوليهم ويتفقد أحمابه ويسأل عنهم فمن كان غائبا دعا له ، ومن كان شاهداً زاره ومن كان مريضاً عاده ، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس (تواضعا) من جالسه أو ناديه لحاجة صابره حتى يكون هو للنصرف عنه ، من سأله حاجة لم يرده إلا بها ، عنده الناس في الحق سواء ، مجلسه مجلس حلم وحياء لا ترفع فيه الأصوات ولا يتنازعون عنده الحديث ، إذا تسكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير ، وقد قال ﷺ بثت لأنتم مكارم الأخلاق . وكان أشد الناس خشية وخوفاً من الله ، ما ضرب بيده الشريفة امرأة ولا خادماً من أهله ، حله يسبق غضبه ولا تزيد شدة الجهل عليه إلا حلماً أسغى الناس كفاً وأشدهم حياء ، يحب الفأل الحسن ويفير الاسم القبيح بالحسن ، يشاور أحمابه في الأمر ، وكان إذا كره شيئاً عرف في وجهه ولم يشافه أحداً بمكرهه ، ينازع صبيان أحمابه ويجلسهم في حجره ويقعدون في صدره الشريف فيقبلهم ويلتزمهم ، يشهد الجنائز ويقبل عذر المعتذر . ما وضع أحد نفسه في أذنه إلا استمر مصغياً له حتى يفرغ من حديثه ويذهب ، يمشي مع الأرملة والمسكين والضعيف في حوائجهم ، وما صافح أحداً بيده فيرسل يده ﷺ منه حتى يكون الآخر هو الذي يرسلها ، يبدأ من لقيه بالسلام ويبدأ أحمابه بالصالفة ، لم يرقط مادراً رجله بين أحمابه كان يجلس على الأرض والحصير والبساط ، يكرم من يدخل عليه وربما بسط له رداءه وآثره بالوسادة التي تحته ويغزم عليه إن أبى ، ويدعو أحمابه بأحب أسمائهم ويكنيهم ، ولا يجلس إليه أجد وهو يصلي إلا خفف صلاته وسأله عن حاله فإذا فرغ عاد إلى صلاته ، كان يركب الحمار وربما ركب عريان ويردف خلفه وكان يجلس على الأرض ويجب السواك ويكتحل بالإند عند النوم ثلاثاً في كل عين ، وحج على رحل رث عليه قطيفة ما تساوى أربعة دراهم وقال اللهم اجعل حجاً مبروراً لا رياء فيه ولا سمعة ، وكان غالب ما يلبس هو وأحمابه ما نسج من القطن وربما لبسوا ما نسج من الصوف والكتان ، يحلب شاته ويخضف نمله ويرقع ثوبه ويخدم نفسه ويقم البيت ، ما يرى فارغاً فط في بيته ، ويأكل مع الخادم ويطحن معه ويحمل بضاعته من السوق ، ويجب الطيب ويأمر به ، ويأمر أحمابه بالمشي أمامه . توفي ودرعه مرهونة عند يهودى على نفقة عياله . ما شيع ثلاثة أيام تباعاً من خبز البر حتى فارق الدنيا . وما أكل خبزاً منخولاً وكان بيت اللباني للتبابعة طاوياً . وما أكل على خوان قط إنما كان يأكل على السفرة وربما وضع طعامه على الأرض . لا يجمع في بطنه بين طعامين . إن أكل لحماً لم يزد عليه وإن أكل تمرأ لم يزد عليه وإن أكل خبزاً لم يزد عليه ، وكان يصلي على الحصير وعلى القروة للذبوغة وربما نام على الحصير فأثرت في جسده الشريف ، وكان ينام على شيء من آدم محشوا ليفاً .

وكان ﷺ أفصح الناس وأعذبتهم كلاماً وأسرعهم أداء وأحلام منطقاً حتى إن كلامه بأخذ بالقلوب ويسمى الأرواح . وكان إذا تكلم تكلم بكلام مفصل مبين ينده العاد ، ليس بهذر مسرع لا يحفظ ولا مقطوع مثله .

السكنات بين أفراد الكلام . لم يكن بكاءه بشهيق ووض صوت كما لم يكن ضحكه بقهقهه ، وكان يبكي أحياناً في صلاة الليل .

وخطب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأرض وعلى للنبر وعلى البعير وعلى الناقة . وكان إذا خطب اجرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش ، وكان لا يخطب خطبة إلا اقتضتها بحمد الله ، وكان إذا صدق للنبر أقبل بوجهه على الناس ثم قال السلام عليكم ويختم خطبته بالاستغفار ، وكان كثيراً ما يخطب بالقرآن وإذا قام يخطب أخذ بمصافحهم عليها وكان أحياناً يتوكل على قوس ولم يحفظ عنه أنه توكل على سيف .

ولم يكن ﷺ يفتأ أهله عند دخوله إلى المنزل بنقطة يتخونهم ، ولكن كان يدخل على أهله على علم منهم بدخوله ، وكان يسلم عليهم وكان إذا دخل بدأ بالسؤال أى سأل عنهم ، وربما قال هل عندكم من غداء وربما سكت حتى يحضر بين يديه ما تيسر ، وكان إذا دخل على أهله بالليل يسلم تسلياً لا يوقف النائم ويسمع اليتقان . وإذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول السلام عليكم السلام عليكم لم يكن يرد السلام بيده ولا رأسه ولا أصبعه .

وكان ﷺ إذا رُفِعَ يديه في الدعاء لم يحطها حتى يمسح بهما وجهه . وكان أكثر دعائه « يا مقبل القلوب ثبت قاي على دينك » وكان إذا أصابه غم أو كرب يقول « حسبي الرب من العباد . حسبي الخالق من المخلوقين . حسبي الرزاق من الرزوقيين . حسبي الذي هو حسبي . حسبي الله ونعم الوكيل . حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت . وهو رب العرش العظيم » وإذا اجتهد في الدعاء قال « يا حيُّ يا قيوم » وإذا أراد أسراً قال « اللهم خزني واخزني » وإذا جاءه أمر يُسرَّ به خَرَّ ساجداً شَكَراً لله عز وجل . وكان يجبه أن يدعى الرجل بأحب أسمائه .

وإذا عزى قال « رحمه الله ويؤجركم » وإذا هنا قال « بارك الله لكم وبارك الله عليكم » وإذا أراد سفر قال « اللهم بك أحول وبك أسير » وإذا سمع للؤذن قال مثل ما يقول حتى إذا بلغ حتى على الصلاة حتى على الفلاح قال « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

الشئبل المحمدية

عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة وستين عاماً وبدأ دعوته بعد سن الأربعين أى أنه ظل يكافح ويجهاد ثلاثاً وعشرين سنة في القضاء على الوثنية ونشر تعاليم الإسلام والحضارة المؤسسة على التوحيد والتضحية . فكانت ساعات عمره شهوراً وشهوره أعواماً وأعوامه أجيالاً . كان يجهاد بلسانه وسيفه ويملأ أصحابه وأتباعه أمور الدين ويؤدبهم ويهذبهم بالفعال والأقوال والاقتداء بسيرة النقية الطاهرة ويرشدهم إلى صلاح الدنيا والآخرة ويحذرهم ارتكاب المعاصي ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وينطق في أحاديثه بالحكم وجوامع الكلم التي (١٧ - عمد)

لم يسبق إليها أحد من البشر، ويقود أصحابه إلى ساحات الوغى وينظم الجيوش ويصدر الأوامر للقوادس ويمنهم على الجهاد والصبر، ويدبر لم يخطئ الحربية ويحكم بين الناس بالعدل . فكان مملئاً ومريباً ومؤدباً وواعظاً ومرشداً وبشيراً ونذيراً وخطيباً وإماماً وأباً باراً وأخاً صادقاً وقائداً ومشجعاً وقاضياً . وإذا دخل منزله علم نساءه وأحسن عشرتهن ووفق بينهن ، وإذا خلا إلى نفسه انقطع إلى عبادة ربه والتضرع إليه حتى لا يطبق أحدان يماريهن في صلواته ودعواته مهما اجتهد وإن نرى أعظم الناس قوة واقتداراً إذا انصرف إلى أمور الدنيا أو النظر في الشؤون العامة ، فرط في العبادة أو لم يستطع أداءها على الوجه الأكمل . ومن انصرف إلى العبادة ، أهمل النظر في شئون أهله وعشيرته ولفظ الدنيا . أما رسول الله ﷺ فقد جمع بين الدين والدنيا وفاز بالسعادتين بدرجة فالت القوة البشرية، لذلك تم على يديه في تلك السنوات القليلة ما مجرت عنه الأمم بأسرها في قرون .

إن من يطالع سيرة رسول الله ﷺ يلمع أن عليه السلام سيد الخلق حقيقة . مصفاً لجميع تلك الأخلاق السامية ليعترف بأنه عليه السلام سيد الخلق حقيقة .

كأنت أخلاقه عليه السلام غير متكلفة لأن للتكلف لا يدوم أمره طويلاً بل يرجع إلى الطبع وهذا مأ كسبها عظيمة وجلالا .

قالوا إن الخلق ملكة نفسانية يسهل على المتصف بها الإتيان بالأفعال الجميلة . والإتيان بالأفعال الجميلة شيء ومسهولة الإتيان بها شيء آخر فالخلة التي باعتبارها تحصل تلك السهولة هي الخلق .

فلم يك رسول الله ﷺ يتكلف شيئاً من الفضائل أصلاً . ثم إن اجتماع الفضائل في شخص واحد مع عدم التكلف أمر خارق للعادة لأن الإنسان خلقت فيه شهوات لا يمكن أن يردّها إلى حد الاعتدال من غير إفراط أو تفريط إلا إذا عود نفسه سنين عديدة واجتهد وقد لا يستطيع .

والعقل إذا شعر بنقيصة فيه وأراد محاربتها ومحوها بالتعود وقوة الإرادة كان لا بد من مرور زمن طويل حتى تزول وتنمحي ، وهو في أثناء محاربتها عرضة لأن تظهر عليه تلك النقيصة أو آثارها من حين لآخر بالرغم منه ، وعند ذلك يلاحظها الناس فيه فإن كان رجلاً عظيماً أمتبها عليه في تاريخ حياته فيقولون مثلاً كان بخيلاً ثم اعتاد السخاء أو جباناً فتشجع بمعاشره الشجعان والاعتداء بهم الخ .

ولم تر إنساناً له نقيصة واحدة قطع مع كثرة تجاربنا ومعاشرتنا الناس . نعم قد يتوهم كل إنسان أنه كامل لا عيب فيه ولا نقص ، لأن الدين لا ترى نفسها إلا بطريق المرأة ومرآة الإنسان أسدفاؤه وخلاته ومعاشرته . ثم إن اعتقاد المرء بكماله ونزاهته عن القبايح والردائل يمنه من الاطلاع على عيوبه وهفواته وسقطاته وإن كانت كثيرة، ولو أنه سمع رأى الناس فيه وإن كانوا أقل منه منزلة لتبين له كثير من المساوي التي كانت خافية عليه بسبب اعتقاده الكمال في نفسه .

فكذلك إذ قد يترض علينا أحد فيقول إنيك ترزع أنك لم تر إنساناً له نقيصة واحدة قطع مع أني لا أذكر

لنفسى عيوباً تؤخذ على" وكل الناس يدحونى وبوقرونى ، فهذا القول إنما هو ادعاء رجل محبوب أسمى .
فالأولى أن يسأل عن عيوبه حتى يبتدى إليها فيصلحها . قال أبو بكر الصديق وهو عن لا يحنى على أحد عمله
وفضله وصدقه وإخلاصه وقواه : « رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى » بى أن له عيوباً يريد الاعتناء إليها .
والناس الآن قد بلغ بهم الغرور والكبر والزهو ماجراًهم على القول بتزهمهم عن العيوب . لذلك حرموا من
إصلاح أنفسهم .

الخلق من العيوب واجتماع الفضائل في شخص فرد من السحليات إلا إذا خلق الإنسان معتدل للزواج ، معتدل
الشهوات ، صحيح الجسم صحيح العقل ، قوى الأعصاب من نسل سليم . ليس له ورثة مريضة ، خالٍ من مطامع
للادة . ومثل هذا الشخص لم يوجد .

أما اعتقاد الإنسان السكالم في نفسه فهذا من حبه لذاته ، ومن أحب ذاته أحب كل ذاته وأحب أن يوصف
بصفات السكالم ؛ وهذه غريزة تظهر في الأطفال ؛ فإنك إذا مدحت طفلاً صغيراً بما يفهم ظهرت على ملامحه سيما
السرور ، فإن كان قبيح المنظر ووصفته بالجمال أثنى على كلامك واتسم .
وقد سأل شاعر عن رجل خال من كل عيب لأنه لم يجد إنساناً كاملاً قال :
من ذا الذى ماسأ قط ومن له الحسى قط

فسمع هاتفاً يقول :

محمد الهادى الذى عليه جبريل هبط

وقال حسان بن ثابت يصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

خُلقت مُبرأً من كل عيب كأنك قد خُلقت كما نشاء

فالذى خُلِق مُبرأً من كل عيب إنما هو رسول الله كما قال حسان بن ثابت رضى الله عنه . أما أولو الفضل

من الناس فكفى أن تمد معانيهم على حد قول الشاعر :

ومن ذا الذى تُرضى سجاليه كلها كفى للره نبلا أن تُمد معانيه

اجتمعت الفضائل في رسول الله صلى الله عليه وسلم وتزهد عن المايب لأن الله سبحانه وتعالى اصطفاها من بين
خلقه لتبليغ رسالته وطهره من الأرجاس وحفظه من كل سوء وعلة وهذبه وأدبه ليكون قدوة يقتدى الناس به في
دينهم ودينام ، قل عليه الصلاة والسلام : « أدبى ربي فأحسن تأديبى » فأين نحن ممن أدبه ربه فأحسن تأديبه !!
ثم أثنى عليه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

قال رسول الله : « إنما بثت لأتكم مكارم الأخلاق » وبديهي أن الذى بث ليتم مكارم الأخلاق
لا بد أن يكون أتم الناس خلقاً ، فإنه من كان به قص أو عيب لم يصلح للقيام بمهمة إتمام مكارم الأخلاق .

- ٣٧٢ -

عن قتادة : سألت عائشة عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت « كان خلقه القرآن » : يعنى التأدب بأدابه والتخلق بمحاسنه والالتزام بأوامره وزواجره .

لقد جمعت عائشة رضى الله عنها أخلاق رسول الله فى هذه الجملة الوجيزة ، لأنها لو أرادت أن تذكر أخلاقه وصفاته بالتفصيل لما استطاعت ، فأحالت السائل إلى القرآن وما فيه من آداب وخلق وفضل ومعاملات إلخ .

وقال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ .

وقد ذكرت فى القرآن الكريم أسماءه ﷺ وكلها نوت ليست أعلاماً محضة لجرد التعريف بل أسماء مشتقة من صفات قائمة به توجب له اللدح والكمال . فنها « محمد » وهو أشهرها وهو اسم مفعول من محمد فهو محمد إذا كان كثير الاتصال التى يحمده عليها ، وأحد مشتق من الحمد أيضاً ، ومعناه أحد حامدين لربه ، وقال بعضهم أحق الناس وأولام بأن يحمده فيكون كمحمد فى المعنى ، وهذان الاسمان اشتقا من أخلاقه وخصاله الحمودة التى لأجلها استحق أن يسمى محمداً ﷺ ، وأحد هو الذى يحمده أهل السماء وأهل الأرض وأهل الدنيا والآخرة لكثرة خصاله الحمودة التى تفوق عد العاذين وإحصاء المحصين .

ومن أسمائه البشير فهو للبشر لن أطاعه بالثواب ، والنذير : للنذر لمن عصاه بالعقاب، وقد ثبت عنه فى الصحيح : « أنا سيد ولد آدم ولا نغفر » أى ولا نغفر أعظم من ذلك وسماه الله سراجاً منيراً ، وسعى الشمس سراجاً وهاجاً ، والنير هو الذى ينير من غير إحراق بخلاف الوهاج فإن فيه نوع إحراق .

قال أنس رضى الله عنه : كان ﷺ أحسن الناس خلقاً وكان عليه الصلاة والسلام أرجح الناس خلقاً ، وقال أيضاً خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين فما قال لى أف قط ، وما قال لشيء صنعت لم صنعت ولا لشيء تركته لم تركته .

هذا ما قاله أنس رضى الله عنه خادم رسول الله . فهل يستطيع إنسان عنده خادم أن يمايله بمثل هذه الداملة ؟ من ذا الذى لا يقول لخادمه أف وهى أقل ما يمر عن الاستياء وعدم الرضا والسخط ؟ ومن ذا الذى لا يمارض ولا ينهر ولا يشتم الخدام ؟ وهؤلاء الأدباء والعلماء والفلاسفة والأمراء والوجهاء . نراهم يسيئون معاملة خدامهم بل معاملة أصدقائهم وأقاربهم إذن هذه صفة كمال لا يمكننا بلوغها .

(عفوه وحلمه)

وروى أنه لما كسرت رباعيته ﷺ وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه وقالوا لو دعوت عليهم .

— ٣٧٣ —

قال : « إني لم أبحث لكم آناً ولكني بحثت دعاياً ورحمة . اللهم اهد قومي فإنهم لا يهدون » فبدلاً من أن يدعو عليهم لاعتقادهم عليه ، دعا لهم بالهداية . وهذا منتهى الحكمة وحسن الخلق .
والذي نعلمه من خلق الناس حتى أكابر القوم أن الواحد منهم لا يتحمل أن يوجه إليه أحد كلمة تخدش إحساسه ولو عفواً ، بل ينفضب ويحتد وينقم ويدبر الحيل للكيد ويتنهر الفرص للإيقاع به . فإين هذا الخلق ممن كسرت رباعيته تقابل الإساءة بالإحسان !

وقد عفا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شهر السيوف عليه يريد قتله ، وعن اليهودية التي سمعته في الشاة بعد اعترافها ولم يؤاخذ اليهودي الذي سحره . كل ذلك وهو قادر على توقييع أقصى العقوبة عليهم . فهل بعد ذلك حلم وعفو ؟ إنه ~~كان~~ ما كان ينفضب لنفسه ولا ينتصر لها وإنما ينفضب إذا انتهكت حرمت الله .

(كرمه)

وكان ~~رسول~~ أسخى الناس كفاً ما سئل شيئاً فقال لا وعن صفوان بن أمية قال أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وإنه لأبفض الناس إلى . فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي . ولما رأى صفوان كثرة ما أعطاه رسول الله ، قال : والله ما طابت بهذا إلا نفس نبي ، فأسلم . وكان الذي أعطاه رسول الله لصفوان غنماً ملائ وادياً بين جبلين وأعطى العباس من الذهب ما لم يطق حمله . وحملت إليه تسعون ألف درهم فوضعت على حصير ثم قام إليها يقسمها فارد سائلاً حتى فرغ منها وقسم الأموال في غزوة حنين فأعطى للؤلؤة قلوبهم أول الناس فأعطى أبا سفيان بن حرب ٤٠ أوقية من القضة و ١٠٠ من الإبل وكذا ابنه يزيد ومعاوية ، وأعطى حكيم ابن حزام ١٠٠ من الإبل ثم سأله أخرى فأعطاه إلهما . وأعطى النضر بن الحارث بن كلفة ١٠٠ من الإبل وكذا أسيد بن جارية التقي والحارث بن هشام و صفوان بن أمية و قيس بن عدى وسهيل بن عمرو و حويط بن عبد المزي والأفرع بن حابس التيمي وعيينة بن حصن ومالك بن عوف . وأعطى العباس بن مرداس ٤٠ من الإبل . قال في ذلك شعراً فأعطاه ١٠٠ من الإبل . وأعطى مخزومة بن نوفل ٥٠ بديراً وكذا السلاء بن حارثة وسعيد بن يربوع وعثمان بن وهب وهشام بن عمرو العامري . فبلغ ما أعطاه (١٤٨٥٠) من الإبل .
تدبروا في هذه المطايا الطائفة التي بيدها رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طيب نفس وهو لا يملك شيئاً ولا يحمل منها إلى بيته درهما ولا يقتني شيئاً وقد بيت طاولوا هو وأهله ، لا يجد ما يأكل ويعطى العباس من الذهب ما لا يطيق حمله ويهب للؤلؤة قلوبهم من الإبل ما يذهل أبايهم وينتلب عقولهم ولما رأى صفوان كثرة ما أعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم انبهر وأسلم .

سألتوا أنفسهم وأسألوا أكرم إنسان تعرفونه أو تسمعون عنه ، هل تسمح له نفسه بمثل هذه العظيمة الجزيلة مع حرمان شخصه منها كل الحرمان ؟ ليس أحد من البشر يبذل مثل هذا البذل ويحرم نفسه ، نعم إن في الناس أصحاب لللايين كما في أمريكا ، ولكنهم إن بذلوا شيئاً من الأموال في سبيل الخير أقبوا لأنفسهم أضعاف أضعافه ، وتمتعوا بجميع أنواع اللذات التي قد لا تخاطر لنا ببال ؛ هذا شأن من اتصفوا بالكرم وعرفوا بالبذل من سائر الخلق ، أما الأغنياء الذين يكدنزون اللال ويعضون عليه بالنواجذ ؛ ولا يجودون بشئ منه إلا مضطرين مرغمين فلا نرى بالتكلم عنهم لأنهم خارجون عن دائرة بحثنا فلا نفكر فيهم . بل هم أقل شأنًا من أن نذكرهم فهل أدركم بعد ذلك أن كرم رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يماذه كرم ولا يصل إليه أحد ؟

(شجاعته)

قال علي بن أبي طالب وهو من عُرف بالشجاعة : « كنا إذا حذى الوطيس أو اشتد البأس واحمرت الخدق اتخينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوح برسول الله ﷺ يومئذ وهو أقربنا إلى العدو . وكان من أشد الناس يومئذ بأساً » وقيل كان الشجاع هو الذي يقرب منه ﷺ قربه من العدو . وفي غزوة أحد لما انهزم ثبت رسول الله ﷺ إلى النهاية .

لئى شجاعة أعظم من شجاعة رسول الله ﷺ . لنده الغزوات والانتصارات فيها . قد فتح جزيرة العرب وقاد الجيوش ؛ واحتمل الجوع والبرد والحر وقطع الطرق الوعرة والمسافات الشاسعة ولم ترهبه كثرة عدد العدو وسلاحه . لنده كل ذلك فإن هناك مواطن ومواقف تستلزم من الشجاعة ورباطة الجأش ما هو أعظم من مواطن القتال والنزال ؛ ذلك أنه ﷺ قام يدعو إلى الإسلام وحده ، وينشر الدين وحده وبقي متمسكاً بمبادئه لا يحيد عنه قيد أنملة متبهاً الأوامر الإلهية محضاً النواهي بكل دقة ؛ مجاهداً في سبيل الله ونصرة المبدأ ؛ متبعلاً للإهانات والأذى والاضطهاد والمهجرة وقتل الأصدقاء والأقارب والتمثيل بهم وكل ما يتصوره العقل البشري من ضروب الآلام والمشقات والتناعب والمصاعب إلى أن فاز بالنصر للبين . فهل هناك شجاعة تعدل شجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ يقولون إن الشجاعة صبر ساعة . وحياته صلى الله عليه وسلم من مبدأ رسالته إلى أن توفاه الله تعالى صبر متوال يستغند شجاعة الشجعان وصبر الصابرين ولا يطاقه أحد من خلق الله . ومن ذا الذي يطيق أن يشغل عقله وجسمه وجميع مواهبه ليل نهار طول هذه السنين وأن يكون دائم الحركة دائم الفكر في تعليم الناس وتهذيبهم والقضاء بينهم وسياسة أمورهم وقيادة جيوشهم ووضع الخطط الحربية ؛ وتوزيع الفنائم والنظر في شئونهم الدينية من عبادات ومعاملات ومقابلة الوفود والتحدث إليهم إلى غير ذلك مما يطول بنا ذكره ؟

إن هذا السفر مهما كثرت صفحاته لا يتسع لذكر شمائل رسول الله ﷺ بالتفصيل ويكتفينا هذا القدر فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

اتباع التعاليم الإسلامية

علينا معاشر المسلمين أن نتمسك بالشريعة الإسلامية الفراء ونقتدى بأخلاق رسول الله حتى نصل إلى أوج السعادة في الدارين . وإن من تمنع في كتاب الله يجد أنه حوى مكارم الأخلاق ، قد حدث على القضايل والآداب السامية ونهى عن الرذائل والدنائل . وللدنية الحديثة مع ما بانته من الرق في العلوم والآداب فإنها لا تعد شيئاً في جانب تعاليم الإسلام النقية الطاهرة . فنحن أحق بالاتصاف بكل فضيلة والاقتصاد عن كل رذيلة من أية أمة أخرى .

لقد قضى للمسلمون على مخازى الوثنية وآفات الجاهلية . وفتح الله عليهم وسادوا الأمم وشروا العلوم بفضل عقيدتهم وبما اتصفوا به من صفات الجولة والأخلاق القوية التي استفادوها من القرآن الكريم وتعاليم رسول الله ﷺ .

إن من المحزن حقاً أن نرى الآن تدهور الأخلاق وانتشار الفساد والتهاون بأنواعه : تهاوناً في إقامة الشعائر الدينية . تهاوناً في اكتساب العلوم ومنافسة الأمم . تهاوناً في الحقوق الوطنية . تهاوناً في الدود عن كرامة الأمة والأسرة .

من المحزن حقاً أن نرى فوراً في المم وتقصيراً في الواجبات واستهتاراً بالفضائل وإقداماً على إقتراف الرذائل وميلهاة بالجرائم والمخازى والفضائح

هل كان سلفنا الصالح يتركون بلادهم طعمة ونهباً لكل طامع ولا يحركون ساكناً ؟ هل كانوا يتخاذلون ويتباغضون ولا يتعاونون ؟ هل كانوا لا يشفقون على الضعفاء وللساكين ولا يبرون الأقارب ولا يسودون للرضى ولا يفتنون للمهوفين ؟ هل كانوا جامدى الإحساس لا يشعرون بمصائب الناس ؟ هل كانوا يكتمون الحق ولا يحاربون الباطل ولا يهفون للظالم ، ولا يضمدون جراح المسكوم ؟ هل كانوا يتفلون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويدعون أنهم عاجزون مهوورون لا حول لهم ولا قوة ؟ ثم يتركون جبل الأمور على غاربها طمعاً في ربح قليل أو كبتير وجباً في المناصب والجاه وتعلقاً بزخارف الدنيا الزائلة إهمهم لو ضلوا ذلك لما قامت لهم قاعة وما كان لهم ذلك الأمر المجيد في تاريخ الدنيا .

إن الأجانب قد درسوا حالتنا الاجتماعية وما وصلنا إليه من انحطاط وجهالة وخور في العزائم ، وأخيراً حكوا بأن هذا راجع إلى جوهر ديننا وتعاليمه لينفرونا منه ويصدونا عنه لئلا ترجع إلى الإسلام شوكتها الأولى وعزمها القديم . وقد اغتر بكلامهم بعض قصار النظر من المسلمين فزروا آراءهم وطعنوا على الدين طعنات شتى زاعمين أنهم مصلحون . وهم في الحقيقة مفسدون يحربون بيوتهم بأيديهم . ولايتهم وقوا عند هذا الحد ، بل حلوا المحرمات

ونشروا الفساد وروّجوا الضلال وعلّقوا بمظاهر المدنية الغربية من خور وفجور ولهو وخلاعة وإباحية ومادروا أن علماء القرب وعقلاهم سائحون ناقون على انتشار الفساد ، وقد صرحوا مراراً وتكراراً أن هذه المساوئ منفذة بسقوط الأمم . مؤذنة بنجارتها مع أنها الآن في غاية القوة والمنعة .

ألا إن معاول الهدم أقوى أثراً وأسرع فعلاً من جهودات الصالحين فاهتوا الله فيما تكتبون وتخطبون وتصرحون . أقوموا بناء المجد التالذ وتزودوا من العلم النافع فإن من العلم ما هو أشد ضرراً من الجهل ، ومن لم يفده العلم قد باء بخسران مبین . ولا تجاروا الناس في أهوائهم ملمعاً في الاشتهار بينهم والتقرب إليهم . هذا ما أردت أن أكتبه بشأن الملائع الإسلامية من الأهمة ، وهذه نصيحة الخالصة للمسلمين عامة .

الاقتداء بأخلاق رسول الله

يجب على المسلمين الاقتداء بأخلاق رسول الله ﷺ لأنه خير قدوة لنا قال ذو النون المصري : من علامت الحب لله عز وجل متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه . وأنا أورد هنا بعض صفاته التي اكتسبناها من سيرته ونقّبه على التحلي بها وذلك بنهاية الاختصار .

١ - كان رسول الله ﷺ نقي التوب .

إن النظافة من الإيمان فالسلم يجب عليه أن يكون نظيف الثياب والأعضاء . إذ الرضوء فرض والغسل فرض . وقد قال تعالى لرسول الله « وثيابك فطهر » . هذا ما يأمرنا به ديننا وكان النبي ﷺ يمتنّ بنظافة الظاهر كما يمتنّ بنظافة الباطن ويحث على استعمال السواك وطهارة الثّم والأسنان ويتطيب ويمسح شعر رأسه ولحيته ويقيم بيته بنفسه أي يكتسه . والناس الآن يستنكفون من مباشرة نظافة البيت فتأمل !

٢ - لا يقول هُجرًا ولا ينطق هُجرًا^(١) .

وما أكثر قول الهجر والمهز عندنا . وما أكثر للماجنين والسبايين . فهلا اقتدينا برسول الله ﷺ ونأدبنا بأدبه في الكتابة والقول وجانبنا المهز والسب واللعن .

٣ - لا يقطع على أحد حديثه .

فانظر أيها المسلم إلى هذا الأديب والحلم وسعة العقل . فكثرة الكلام وقطع الحديث على المتكلم والمهزول والمزاح البارد والغبية والنميمة والراء ليس من خلق الإسلام ولا من اللروة .

٤ - يتفقد أصحابه ويسأل عنهم .

لا فرق في ذلك بين كبير وصغير غني وفقير . لكن الناس يحرصون الأغنياء بالسؤال عنهم ، ويكبر الأغنياء

(١) الهجر بالضم : النقص .

على الفقراء ويتفادون عليهم ويرون أنهم من طينة غير طينتهم ، ومن هذا نشأت المداوة والبضاضة ، وتفككت روابط الأسر والأمة ، وقد كان رسول الله مؤلفاً للقلوب فيصل من قطعه ويعطى من حرمة ويعفو عن غلله ويصبر للتريب على الجفوة في المنطق والسألة ويعود للربض ويشهد الجنائز .

٥ - إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس .

أين هذا الخلق الكريم المتواضع من الذين دأبهم التبصير في المجالس بحق وبغير حق وسواء كان المجلس خالياً أم مكتظاً . إن الناس يظنون أن التواضع ضعة وضعف لكن في التواضع رفعة . ولن يسود إنسان بالظانطة والنافطة .

٦ - كان أسعى الناس كفاً .

وإنما نذكر الناس أن البخل محموق وقد قال بعضهم إن البخل من سوء غان للرب الله ، ولا نعلم أن بخيلاً أحبه الناس واحترموه .

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالباً استعبد الإنسان إحسان

٧ - لم يرقط مادراً رجله بين أصحابه .

لكننا الآن نفعل كل ما يخالف الآداب بلا اكتراث ظناً منا أن ذلك من الحرية ، لكن الحرية في المجتمع لا تكون من طرف واحد . بل يجب مراعاة إحساس الأصدقاء والذس . فالأولاد يجب عليهم التأديب في حضرة آبائهم ومعلميهم وأقرانهم كما أنه على الآخرين مراعاة الأدب معهم للاقتداء بهم ومحبتهم .

٨ - كان يخدم نفسه .

ومن ذلك أنه كان يخفف نعله ويرفع ثوبه ويحمل حاجته ويكنس بيته ويحلب الشاة . وهذا اعتماد على النفس فليؤد كل عمله غير معتمد على غيره ولا مستنكف من العمل مهما كان ، وإذا كان رسول الله - وهو سيد الخلق والمسلمون أطوع إليه من بنائه - يكنس بيته بنفسه فهل يستنكف أحد منا زائلة أى شأن من شئون الحياة وهل تستنكف سيدة البيت أن تخدم نفسها وزوجها وأولادها ظناً منها أن ذلك مما لا يليق بها لثانها وترفها وحسن هندامها . إن الاعتماد على النفس هو القوة والبطولة والرق والاستقلال .

٩ - قال ﷺ « إذا عمل أحدكم عملاً فليقله » .

لما سوى جدث ابنه إبراهيم رأى حجراً في جانب الجدث فجعل يسويه بأصبعه ويقول « إذا عمل أحدكم عملاً فليقله فإنه مما يسلى نفس الصاب » .

الإقتان - أيها المسلمون الإقتان . فلا تسهينوا بالأعمال ولا يستعصروا أحدكم أمراً منها قل شأنه . فالعلم يحتاج إلى الإقتان والصناعة تحتاج إلى الإقتان والتجارة تحتاج إلى الإقتان . والنظام الذى هو أساس

المخاضة والعرمان ما هو إلا الإنسان؟ وما سوى ذلك فهو إهمال وتقصير يؤدبان إلى الانحطاط والارتباك والخراب.

١٠ - كان رسول الله يستشير أصحابه.

قال تعالى « وشاورهم في الأمر » إن الله سبحانه وتعالى أمر رسوله وهو سيد الخلق وأرجح الناس عقلاً وأغزرم علماً وأسلم رأياً أن يستشير أصحابه ولا يتفرد برأيه . قال الضحاك « أمره بمشاورتهم لما علم فيها من الفضل » وقال الحسن البصري « أمره بمشاورتهم ليستن به السلكون ويقيمه فيها المؤمنون وإن كان عن مشورتهم غنياً » .

فالاتياد بالرأى مناف للإسلام كما رأيت وهو من علامات الكبر والنفوسة وليس في الاستشارة أى ضعف بل إنها دليل على العقل وبعد النظر والرغبة في الإصلاح . والإسلام من مبدئه يقدر فوائد الاستشارة ويصل بها .

١١ - الثبات على المبدأ .

إن من تصنع سيرة الرسول يتضح له أنه صلى الله عليه وسلم لم يتحول عن مبدئه قيد أنملة واحتمل إيذاء المشركين بكل صبر ولم يذق الراحة طمعاً في سبيل نشر الدين ولم يقبل ما عرضته عليه قريش من ملك ومال وجاه ، فماذا كانت نتيجة ثباته على المبدأ ؟ كانت النتيجة أنه هزم المشركين وفتح بلادهم وهدم الأصنام ونشر الإسلام وتوفي بعد أن بلغ رسالات ربه بكل أمانة وبعد أن قام بالواجب عليه خير قيام فليتهير المسلمون بغيرهم وليقتدوا به في جميع أمورهم ليفوزوا بنعيم النارين .

معجزات رسول الله ﷺ

المعجزة هي الأمر الخارق للعادة للفرق بالتحدى ، وسميت معجزة لعجز البشر عن الإتيان بمثلاً . وهي تدل على صدق من ظهرت على يديه ، وشرط تسميتها بمعجزة أن تظهر على يد مدعى الرسالة على طبق دعواه .
إن أكثر معجزات رسول الله متواترة رواها جمع عن جمع وكانت تظهر في مواطن اجتماعهم وفي محافل المسلمين ومجتمع المساك والجند ولم ينقل عن أحد من الصحابة مخالفة ولا إنكار على من روى ذلك .

معجزة القرآن

من أعظم دلائل نبوته القرآن الكريم ، قد تحدى العرب بما فيه من الإعجاز ودعمهم إلى معارضته والإنيان بسورة من مثله ففجزوا عن الإنيان بشئ . مثله مع أنه كان أمياً وكانت قريش أهل البلاغة والفصاحة والشعر وكانوا يرتجلون الكلام البليغ في الحافل أرتجالاً قال تعالى : ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ ولم يقتصر إعجاز القرآن على نظمه وبلاغته بل تعداه إلى ما حواه من حكم وأخلاق ودين ونشرع وعلوم عقلية وأخبار عن الأمم الماضية وإخبار بالغيوب مع ما كان معروفاً من حال النبي ﷺ من أنه كان أمياً لا يكتب ولا يقرأ . وقد اعترف أهل الفصاحة والبلاغة بأن القرآن ليس من كلام البشر ولم يقدر أحد على معارضته ومنهم عتبة بن ربيعة فإنه لما سمع القرآن من رسول الله رجع إلى قريش وقال « والله لقد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط . والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا الكهانة . فوالله ليكون قوله الذي سمعت نبأ » . ومنهم الوليد بن المغيرة وكان للتقدم في قريش بلاغة وفصاحة فإنه لما قرأ عليه رسول الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ قال له أئده فأعاد ذلك فقال « والله إن له حلالة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمندق وما يقول هذا بشر وإنه ليلو ولا يعل » قالت قريش : قد صبا الوليد والله تصبان قريش كلها . أما أنيس أخو أبي ذر الذي ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية فإنه رجع بعد ما سمع القرآن من رسول الله وقال رأيت رجلاً بمكة يزعم أن الله أرسله فقال له أبو ذر فما يقول الناس فيه ؟ قال : يقولون شاعر . كاهن . ساحر . لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أنواع الشعر فلم يلتئم ولا يلتئم على لسان أحد ، وإنه لصادق وإنهم لكاذبون . وقد أسلم ضياد بن ثعلبة الأسدي عندما سمع رسول الله يقول :

(الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له) وأسلم عمر بن الخطاب الذي كان من أشد الناس على رسول الله يد أن قرأ القرآن في بيت أخته فاطمة بنت الخطاب ، وقد تقدمت قصته . وأسلم كذلك الطفيل بن عمرو الدوسي وهو شاعر مشهور بعد أن تلا عليه رسول الله آيات من القرآن وقال « والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ولا أسوأ أعدل منه » وقد أوردنا قصة إسلامه فلتراجع في موضعها .

ولما كان العرب أهل الفصاحة والبلاغة فقد كان المصنفون منهم يبدلون عند سماعهم القرآن من غير معارضت ولا مكابرة لأن الحق أحق أن يبع . أما الذين في قلوبهم مرض فقد كانوا يبدلون كل جمل من الناس من سماع رسول الله يتلو القرآن خشية أن يؤثر فيهم ويسلموا . وحكى أبو عبيدة أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ فسجد وقال « سجدت لفصاحة هذا الكلام » وسمع أعرابى آخر رجلاً يقرأ ﴿ فَلَمَّا أَسْنَأْ سَوَاءً مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾

فقال أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام . هذا ومعجزة القرآن باقية ما بقيت الدنيا وسائر معجزات الأنبياء . ذهبت للحين ولم يشاهدها إلا الحاضرون .

وحكى الأعمى أنه رأى جارية صغيرة السن بلغت خمس سنين أو ستا وهي تقول : أستغفر الله من ذنوبي كلها . قال الأعمى ، قتلت لها : من تستغفرن وأنت صغيرة لم يجر عليك قلم ؟ قالت :

أستغفر الله لذنبي كله . قتلت إنساناً لغير حله

مثل غزال ناعم في دله . انتصف الليل ولم أصله

قتلت لها فأتاك الله ! ما أنصحك ! قالت : أتند هذا فصاحة بد قوله تعالى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذْ خِفَتِ عَلَيْهِ فَأُثِيهِ فِي السَّيِّءِ وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّهُ إِلَيْكَ وَإِعْلَمُوهُ مِنَ الْعُرْسِلِينَ ﴾ .

لجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين : فالأمران : أن أرضعيه وأثيه ، والنهيان : ولا تحزني ولا تخزي ، والخبران : وأوحينا فلذا خفت وقيل الخبران والبشارتان ، إنا رآدوه إليك وجاهلوه من الرسلين فهو خبر من جهة وبشارة من جهة .

وقد حاول بعضهم معارضة القرآن بنجاء كلامه سخيفاً مضحكاً ، فمن ذلك قول مسيلة الكذاب وهو عري صميم « يا ضفدع كم تنفخ . أعلاك في اللئاء وأسفلك في الطين . لا للئاء تكلدوين ولا الشرب تمنعين » ولما سمع قوله تعالى ﴿ وَأَنَّا نَزَعْنَا عَرَفًا ﴾ قال « والزراعات زرعاً والحاصدات حصداً والداريات فحفا والطاحنات طحناً والحافرات خفراً والثارذات ثرداً واللاقات لقا لقد فضلت على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدر . الخ » ومن كلامه « ألم تر كيف فعل ربك بالخلي . أخرج من بطنها نسمة تسعى من بين ثراسيف وأحشا » وقال بعضهم « القليل وما أدراك ما القليل . له ذنب وثيل ومشفر طويل وإن ذلك من خلق ربنا لقليل » وهذا كلام لا طعم له ولا حلاوة فيه . خال من اللئى ، يحبه كل ذوق ولا يتألك سلمه من الضحك . وقد أراد بعضهم معارضة سورة الإخلاص فأخفق واعتدته رقة في قلبه فخاب ، وحاول ابن للتعق المعارضة فلم يستطع واعترف بإعجاز القرآن . والقرآن كله قليله وكثيره معجز .

وقد ورد في القرآن الإخبار بالنفيات مما سبق وما كان في وقت نزوله وبما سبق . بعد ذلك كقوله تعالى ﴿ لَنَذْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْأَكْرَامَ إِنَّا شَاءُ أَمِينِينَ ﴾ وذلك قبل عام الحديبية وقوله تعالى ﴿ وَعَلَيْتِ الْوُحْيُ أَذَى الْأَرْضِ وَهَمٌّ مِّنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُوهُمْ فِي بَضْعِ سِنِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا أَذًى كَرًّا وَإِنَّا لَهُ كَلَامُ فُطُورٍ ﴾ وقوله ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

لَيْسَتْخَلْقُهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿الآية وقوله ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخرها وقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَفْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فلما نزلت هذه الآية منع رسول الله أصحابه من حراسته . هذه الآية تدل على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم إذ كانت من أخبار النبوة لأنه لم يصل إليه أحد يقتل ولا قهر ولا أسر على كثرة أعدائه . وقوله تعالى : (سيهزم الجمع ويولون الدبر) .

نزلت هذه الآية بمكة والمسلمون مستضعفون فلم يدروا ما هذا الجمع الذي سيهزم ولا المراد من الآية فلما كان يوم بدر وكان بمندسبع سبعين من تروها ، لبس رسول الله درعه وهو يقول : سيهزم الجمع ويولون الدبر ، قال عمر رضي الله عنه فقلت المراد منها حينئذ .

وإني أتهز هذه الفرصة فأنشر إلى العالم الإسلامي رأى عالم انجليزى فى رسول الله وهو مستر بوسورث سميت مؤلف كتاب « محمد والإسلام »^(١) آملاً أن يتدبره القارئ بإيمان مع العلم أنه رجل مسيحي ولكنه منصف أثبت عليه نفسه إلا تقرير الحقيقة بنقض النظر عن أى اعتبار آخر . قال ما ترجمته :

« إن للصخرة الخالدة التي ادعاهها هي القرآن . والحقيقة أنها كذلك . وإذا قدرنا ظروف المعسر الذي عاش فيه واحترام أتباعه له احتراماً لا حد له ، ووازناهم بأهواء الكنيسة أو بقديس القرون الوسطى لتبين لنا أن أعظم ما هو معجز في محمد « رسول الله » أنه لم يدع القدرة على الإتيان بالمعجزات، وما قال شيئاً إلا فعله وشاهدته متفقاً لخال أتباعه . ولم ينسب إليه الصحابة معجزات لم يأنها أو أنكر صدورهما منه . فأى برهان على إخلاصه أقطع من ذلك ؟ وقد كان محمد يدعى إلى آخر حياته كما ادعى من مبدأ أمره أنه رسول الله حقاً . وإني أعتقد أن الفلسفة العالمية والمسيحية الصادقة ستعترف له بذلك يوماً من الأيام » .

انشقاق القمر

ومن معجزاته صلى الله عليه وسلم انشقاق القمر ، وقد نطق به القرآن قال تعالى : ﴿ أَفَتَرَبَّيْتُ الْبَاطِلَ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرَ . وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعِيرٌ ﴾ . وقد أجمع المسلمون على وقوع ذلك منه في زمنه عليه الصلاة والسلام وجاءت بذلك الأحاديث المتواترة من طرق متعددة تفيد القطع^(٢) .

قال الفخر الرازى في تفسيره :
والمفسرون بأسرهم على أن المراد أن القمر انشق وحصل فيه الانشقاق ودلت الأخبار على حديث الانشقاق .



Mr. Bosworth Smith : Mohammed and Mohammedanism (١)

(٢) روى انشقاق القمر عن : أنس بن مالك وجابر بن معلم وحذيفة وعبد الله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن مسعود

وفي الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة ، قالوا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الانشقاق بينهما معجزة فسأل ربه فشق ، وقال بعض المفسرين المراد سينشق وهو بعيد ولا معنى له ، لأن من منع ذلك وهو الفيلسوف يمنه في الماضي والمستقبل ومن يجوز لا حاجة به إلى التأويل ، وإنما ذهب إليه ذلك الذهاب لأن الانشقاق أمر هائل ، فلو وقع لم وجه الأرض فكان ينبغي أن يبلغ حد التواتر . قول : النبي صلى الله عليه وسلم لما كان يصعد بالقرآن وكانوا يقولون إنا نأتى بأفصح ما يكون من الكلام وعجزوا عنه ، فكان القرآن معجزة باقية إلى قيام القيامة لا يتمسك بمعجزة أخرى ، فلم ينقله العلماء بحيث يبلغ حد التواتر . وأما المؤرخون فقد تركوه لأن التواريخ في أكثر الأمر يستعملها للنجم وهو لما وقع الأمر قالوا بأنه مثل خسوف القمر وظهور شيء في الجو على شكل نصف القمر في موضع آخر فتركوا حكاية في تواريخهم ، والقرآن أدل دليل وأقوى مثبت له وإمكانه لا يشك فيه . وقد أخبر عنه الصادق الأمين فيجب اعتقاد وقوعه ، وحديث امتناع الخرق والانتقام حديث الثام وقد ثبت جواز الخرق والتخريب على السموات وذكرناه مراراً فلا نعيده .

ومن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت ، وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم . وقال الزمخشري في تفسيره :

انشقاق القمر من آيات رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعجزاته النيرة ، عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن الكفار سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم آية فانشق القمر مرتين . وكذا عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله عنهما . قال ابن عباس : افلق فلقين قلعة ذهبت وفلقة بقيت . وقال ابن مسعود رأيت حراء بين فلقى القمر . وعن بعض الناس أن معناه ينشق يوم القيامة وقوله : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ يرده وكفى به راداً . وفي قراءة حذيفة وقد انشق القمر ، أى اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق ، كما تقول أقبل الأمير وقد جاء للبشر بقدومه .

وفي تفسير الطبري : وقوله وانشق القمر يقول جل ثناؤه وانشق القمر ، وكان ذلك فيما ذكر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة قبل هجرته إلى المدينة وذلك أن كفار أهل مكة سألوه آية فأرهم  انشقاق القمر حجة على صدق قوله وحقيقة نبوته فلما أعرضوا وكذبوا وقالوا هذا سحر مستمر ، سحرنا محمد  قال الله جل ثناؤه : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ ﴾ وبنحو الذي قلنا في ذلك جاءت الآثار وقال به أهل التأويل .

وحدث أنس بن مالك أن أهل مكة سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرهم آية فأرهم انشقاق القمر مرتين . وعن عبد الله قال : انشق القمر ونحمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ذهبت منه

فرقة خاف الجبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا ، وعن عبد الله أيضا قال : انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر انهد يا أبا بكر ، فقال للمشركون سحر القمر حتى انشق . قال التسطواني شارح البخاري : وهذه معجزة من أمهات المعجزات الفارقة على معجزات سائر الأنبياء لأن معجزاتهم عليهم السلام لم تتجاوز الأرضيات .

وكان انشقاق القمر قبل الهجرة بخمس سنين .

فانشقاق القمر ثابت بنص القرآن ، أما من قال بأن للراد أنه سينشق ، فهو إما مفكر للمعجزات حتى المذكورة في القرآن ، وإما أنه لا يفهم اللغة العربية فقد قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَعْتَبٌ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّهُمْ مُسْتَعْتَبٌ ﴾ ، لأن الكفار لما رأوا انشقاق القمر بدأن سألوا رسول الله كاذبا وقالوا إنه سحر مستمر ، ولو كانت الآية تدل على أن القمر سينشق لما كان هناك معنى لقوله : وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، والآية هي معجزة الانشقاق والذين أنكروها بد رؤيتهم هم كفار قريش ، وكان ذلك دأبهم ، وقد روى أحاديث الانشقاق أهل السنن كالبخاري ومسلم والإمام أحمد والبيهقي وبقية أهل السنن وقد ذكرنا تفسير كبار المفسرين :

قال الشيخ حمزة فتح الله رحمه الله في كتابه « با كورة الكلام في حقوق النساء في الإسلام » : « ومن ذلك . يعلم أنه لا محذور في انشقاق القمر لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن تأويل آيته بوضع المستقبل موضع للماضي لتحققه لا داعي إليه فضلا عن كونه خلاف الصحيح . وقد ذكرت الجرائد الأجنبية مقالة عربتها جريدة الإنسان العربية التي كانت تطبع بالأسفانة العلية حاصلها : أنه عثر في ممالك الصين على بناء قديم مكتوب عليه أنه بنى عام كذا الذي وقع فيه حادث ساوى عظيم وهو انشقاق القمر نصفين فخر الحساب فوافق سنة انشقاقه لسيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم » ١٠١ .

ومن المعجزات نبع الماء من بين الأصابع روى حديث نبع الماء من بين أصابعه جماعة من الصحابة منهم أنس وجابر وابن مسعود ، وحدث ذلك يوم الحديبية وفي غزوة بواط أمام الجوع الكثيرة ولم يفكر هذا الحديث أحد من الصحابة .

وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال : « أتى النبي ﷺ بإناء وهو بالزوراء فوضع يده في الإناء فحصل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم » . قال قتادة قلت لأنس كم كنتم قال : ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر فالتفت فالتفت فالتفت فلم يجدوه فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوء فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في ذلك الإناء فأمر الناس أن يتوضأوا منه فرأيت للماء ينبع من تحت أصابعه فتوضأ الناس حتى توضأوا عن آخرهم .

(تكثر الطعَام) ومن معجزاته تكثير الطعام ببركته ودعائه وقد حدث ذلك مراراً .
(حين الجذع) كان مسجد النبي صلى الله عليه وسلم مستوقفاً على جذوع نخل فكان رسول الله إذا خطب يقوم إلى جذع منها ، فلما صنع له المنبر سمع لذلك الجذع صوت كهوت الشار . سمعه أهل المسجد حتى أرتج السجد وكثر بكاء الناس لذلك ، وما زال يحن حتى تصدع وانشق فنزل صلى الله عليه وسلم فالتزمه وحضنه فسكن . وحديث الجذع مشهور رواه من الصحابة بضعة عشر ، منهم أبي بن كعب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن عباس وسهل بن سعيد وأبو سعيد الخدري وبريرة وأم سلمة والمطلب بن أبي ذاعة ، كلهم حدث بمعنى هذا الحديث .

وروى حديث الجذع البخاري عن جابر بن عبد الله .

(إبراء البرى وذوى الباهات) وقد ذكرنا أنه رد عين قتادة وتقل في عين علي يوم خيبر ، وكان رسماً فبراً . الإسراء والمعراج ، نسج المنكبوت في الغار . وما وقع لسراقة . ودعاؤه لعبد الرحمن بن عوف بالبركة فصار أغنى العرب ، وكذا دعاؤه لثعلبة بالنفي ، ودعاؤه لمأوية بالتمكن في البلاد فتال الخلافة ، ولسمد بن أبي وقاص أن يجيب الله دعوته فما دعا على أحد إلا استجيب له ، وقال للنايفة لا يفضض الله فاك فما سقطت له سن وعاش ١٢٠ سنة . وتسبيح الحصى في يده . وكان رجل يقال له بسر بن راعي المير يأكل بشالة ، فقال لرسول الله ﷺ : « كل يمينك » قال لا أستطيع . قال : « لا استطعت » فما وصلت يمينه بعد إلى فيه . هذا قليل من كثير من معجزاته ﷺ .

وفي ترجمة رافع بن عميرة أنه كان أصاب في الجاهلية فدعاه الذئب إلى الحق برسول الله ﷺ وهو في ضأنه ، وقال رافع في ذلك :

رعت الضأن أحياها بكلي . من اللصت ألقى وكل ذيب
ولما أن سمعت الذئب نادى . يبشرني بأحد من قريب
سميت إليه قد شمرت ثوبي . على الساقين فأصده الركيب
فألتفت البني يقول قولاً . صدوقا ليس بالقول الكذوب
فبشرني بقول الحق حتى . تبينت الشريعة للذيب
وأبصرت الضياء مضى . حولي أما هي إن سميت ومن جنوبي

الاصت هو اللص . وشهد رافع غزوة ذات السلاسل وصحب أبا بكر الصديق فيها وخبره مشهور .

ومن معجزاته دعاؤه لعل رضى الله عنه بذهاب الحر والبرد فلم يحس بهما بعد . ولابن عباس بالفته في الدين

وعلم التأويل فصار مجزأ ، ولأنس بكثرة المال والولد وطول العمر فزق مائة ولد ، وعاش مائة عام ، وصارت نخله تخيل في العام مرتين ، وقال في عثمان : نصيبه بلوى عظيمة ، فكان ما كان .

خصائصه ﷺ

من خصائصه ﷺ تحريم أكل الصدقة ، وآل محمد ﷺ لا يأكلون الصدقة ، وأن يتم الكتابة أو الشعر وإنشاء وروايته لا التمل به . ويحرم عليه أنه إذا لبس لأمته (سلاحه) للقتال أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه . وهذا الأخير مما شاركه فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وخاتمة الأعين وهي الإيماء إلى مباح من قتل أو ضرب على خلاف ما يظهر . وإمساك من كرهته ، ونكاح الكنائس ونكاح الأمة لأنه لا يخشى العنت أذى الزنا . ومن خصائصه القبلية في الصوم مع وجود الشهوة قد كان يقبل عائشة وهو صائم . وله أن يتزوج في حال إحرامه وأن يصطفى من الفتيمة ما يشاء قبل القسمة ، وأن يتزوج من غير مهر كما وقع لعنيفة رضي الله عنها . وأن يدخل مكة بغير إحرام اتفاقاً . وأن يقضى بعله ولو في حدود الله تعالى . ويجمع له ﷺ بين الحكم بالظاهر والباطن مما وجعت له الشريعة والحقيقة ولا يكن للأنبياء إلا إحداهما . وأن يقضى لنفسه ولولده ، وأن يقبل الهدية ممن يريد وأن يقضى في حال غضبه وإباحة ترك إخراج زكاة المال لأنه بكيفية الأنبياء لا ملك لهم مع الله ، وما في أيديهم من المال ودية الله عندهم يبدلونه في محله ويعمونه في غير محله ، ولأن الزكاة طاهرة وهم مبرؤون من الدنس . وبما اختص به صلى الله عليه وسلم عين الأنبياء أنه يحرم نكاح أزواجه بعد موته . ومن خصائصه ﷺ العصمة من الذنب وعدم التأثرب والاختلام . وأبيح له التزوج فوق تسع وتزوجه محرماً وبلا ولي وشهود ، وبلغظ الهبة إيجاباً لا قبولاً وتزوجه من شاء لمن شاء . ومكنته بالمسجد جنباً ، وشهادته لنفسه ولقرعه وحكمه لها ، وشهادته كاثنتين .

وأنه خاتم الأنبياء ، وأول من تنشق الأرض عنه ، وأول شافع ومشفع ، وأول من يدخل الجنة وأقسم الله بحبياته . ويرى من خلفه ، ويصير في الظلام كما يبصر في الضوء . ولا في له في شمس ولا قر ، ولا يقع الثياب على جسده ، ويحرم رفع الصوت عنده ، وتداؤه باسمه ومن وراء الحجرات ، والتكفي بكنتيه ، ولا يورث .

موالي رسول الله

(١) زيد بن حارثة ، وأمه سملى بنت ثعلبة . ويكنى زيد « أبا أسامة » .

وهو أشهر موالى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبه . أصابه سباه في الجاهلية ، فأخذوا زيداً قتلوا به سوق عكاظ فاشتراه حكيم بن حزام لبعته خديجة بنت خويلد . فوهبه خديجة لرسول الله ﷺ بمكة قبل البوذة

وهو ابن ثمانى سنين فأعتقه وتبناه . قال ابن عمر « ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، حتى أنزل الله تعالى - ادعواهم لأبائهم - وخرج أبوه حارثة وعمه كعب لما علما أنه بمكة لفدائه ، فاختار رسول الله وقال لرسول الله ﷺ « أنت منى مكان الأب والعم » وذلك لما رآه من حسن المعاملة والحرية ، حتى قال : رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً . فأخرجه رسول الله إلى الحجير وقال « يا من حضر . اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأرثه » فانصرف بعدئذ أبوه وعمه مطمئنين مسرورين وهو أول من أسلم من اللوالى ، زوجه رسول الله (أم أيمن) فولدت له أسامة . ثم تزوج (زينب بنت جحش) وهى ابنة عمه رسول الله . وهى التى تزوجها رسول الله ﷺ بعد زيد . قالت عائشة لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كتماشيتا من الوحى ، لكتبكم هذه الآية : ﴿ وَإِذْ قَوْلَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنُصِتَ عَلَيْهِ . أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ . وَتُخَوِّفُ فَيْسُكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ - إِلَى قَوْلِهِ تَالَى - وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ . فإن رسول الله ﷺ لما تزوجها - يعنى زينب - قالوا إنه تزوج حليلة ابنه . فأنزل الله تعالى : (ما كان محمد أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) ولما سار رسول الله الجيش إلى الشام ، جعل أميراً عليهم زيد بن حارثة . وقد تقدم ذلك فى كتابنا هذا . ولم يسم الله تعالى أحداً من أصحاب النبي ﷺ ، إلا زيد بن حارثة .

(٢) شقران ، أشهر بهذا اللقب . قيل اسمه « صالح » وكان عبداً حبشياً لعبد الرحمن بن عوف فوهبه للنبي صلى الله عليه وسلم منصرفه من الحديبية وأعتقه . وكان يجذب بالنساء . قال له رسول الله وقد حدا بهن : « رويداً رويداً : يا أنجشة . رقاً بالتواوير » يعنى النساء . لأن الحداء إذا سمعتة الإبل ، أسرعت فى المشى فتزعج الراكب . والنساء لضعفهن يتأثرن من شدة الحركة ، وشبههن رسول الله فى ضعفهن بالتواوير ، وهى الأوتار من الزجاج .

(٣) أبو رافع : اختلف فى اسمه ، فقيل أسلم ، وقيل إبرام ، وقيل صالح ، قال أبو رافع : كنت مولى للعباس ابن عبد المطلب . وكان الإسلام قد دخل أهل البيت . فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وأسلمت أنا . وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم ، وكان يكتم إسلامه وكان ذا مال كثير متفرق فى قومه . وقد أعتق رسول الله ﷺ أبا رافع .

(٤) سلمان الفارسى : وكنيته أبو عبد الله من أهل أصبهان وقد تقدمت ترجمة حياته عند ذكر إسلامه فى كتابنا هذا .

(٥) سفينة : قيل كان من الفرس . وكان يسكن بطن نخلة (قرية قريبة من المدينة) كان لأم سلمة ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، فأعتقه وشرطت عليه خدمة رسول الله . قيل اسمه مهران وقيل رومان . كنيته

« أبو عبد الرحمن » وسماه رسول الله (سفينه) لأنه حل أمتة للصحابه قتل عليهم . قال رسول الله ، احمل . فلما أنت سفينه . وكان يؤذن لرسول الله ، وشهد معه بدرًا وأحلاً وسائر المشاهد :

(٦) أبو كبشة : واسمه « سليم » . اشتراه رسول الله وأعطه . شهد بدرًا وللشاهد كلها مع رسول الله ﷺ توفي في اليوم الذي ولى فيه عمر بن الخطاب الخلافة .

(٧) رؤفيع : أبو نمويهبة ، كان من مولدى مزينة ، اشتراه رسول الله فأعطه .

(٨) رباح الأسود : كان يؤذن لرسول الله أحيانًا .

(٩) فضالة : كان من أهل اليمن . نزل بالشام ، ولم يذكر عنه شيء غير ذلك .

(١٠) مِدْنَم : العبد الأسود ، أهداه رفاعه بن زيد الجذامى لرسول الله . فأعطه . قتل بوادى القري .

(١١) يسار : الراعى كان يرعى إبله قتله المرتبون وسملوا عينيه وحمل ميتًا إلى قباه ودفن هناك .

روى سلمة بن الأكوع : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له مولى اسمه « يسار » فنظر إليه وهو يحسن الصلاة فأعطه وبشته في قنقح في الحرة فكان بها . فأظهر ناس من عرنية الإسلام . وجاءوا وهم مرضى قد عظمت بطونهم ، فبعث النبي بهم إلى يسار فكانوا يشربون ألبان الإبل حتى انطوت بطونهم فقتلوا الراعى واستاقوا الإبل .

(١٢) مهران : قيل هو مولى آل أبي طالب واختلف في اسمه . عن عطاء بن السائب ؛ قال : أتيت بأم كلثوم بنت علي بشيء من الصدقة فردتها وقالت حدثني مولى للنبي ﷺ يقال له « مهران » : أن رسول الله ﷺ قال ، « إنا آل محمد لنامل لنا الصدقة » .

(١٣) مابور : الخصى . أهداه للقوقس إلى النبي ﷺ . قيل إنه هو الذى قُذفت مارية به . فبعث رسول الله عليًا ليقته فرآه خصيًا فتركه .

(١٤) سندبر .

ومن النساء أم أيمن ، وأميمة ، وسيرين التى أهديت له ﷺ مع مارية التبعية ، وهى أختها وقيل إن القوقس أهدى معها قنسر وأنها أخت مارية وسيرين .

حراسه ﷺ

كان لرسول الله حراس قبل أن ينزل عليه قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَفْضِلُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ^(١) فهم ، سعد بن معاذ حرسه صلى الله عليه وسلم ليلة يوم بدر . وفي ذلك اليوم لم يحرسه ﷺ إلا أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، شامراً

سيفه حين نام بالعرش . وقال بعضهم إن سعد بن معاذ كان مع أبي بكر في العريش يحرسانه في بدر . ومحمد بن مسلمة رضى الله عنه حرسه ﷺ يوم أحد . والزيبر بن العوام رضى الله عنه ، حرسه ﷺ يوم الخندق . وللنيرة ابن شعبة رضى الله عنه ، حرسه يوم الحديبية . وأبو أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، حرسه ليلة بئى بصفية ببعض طرق خيبر . وبلال . وسعد بن أبي وقاص . وذكوان بن عبد قيس رضى الله عنهم حرسوه بوادى القرى وابن أبي مرثد الثنوى ، حرسه في الليلة التي كانت في صبيحتها وقعة حنين حيث قال ﷺ ألا رجل يحرسنا الليلة قال : أنا يا رسول الله . فدعا له صلى الله عليه وسلم . وبعد نزول الآية وهى ﴿ وَاللَّهُ يَصْمِمْكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ترك الحرس . والمراد من قوله تعالى ، يصمك من الناس أى من القتل . وفيه التنبيه على أنه يجب عليه أن يجعل كل ما هو دون النفس من أنواع البلاء . ونزلت هذه الآية بعد يوم أحد . والمراد من الناس الكفار عن أنس رضى الله عنه ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرسه سعد وحذيفة حتى نزلت هذه الآية . فأخرج رأسه من قبة آدم وقال ، انصرفوا يا أيها الناس فقد عصى الله . وقد عصمه الله تعالى إلى آخر حياته .

أمناء رسول الله

منهم عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه . كان أمين رسول الله ﷺ على نسائه ، وكذا أسد بن أسيد الباعلى ، كان أمينه ﷺ على نسائه وهو من آخر من مات من أهل بدر . وبلال المؤذن كان أمينه على ثقاته . ومعيقيب ، كان أمينه على خاتمه الشريف .

شعراؤه صلى الله عليه وسلم

حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك رضى الله عنهم ، كانوا يناضلون عنه بشعرهم ويهجون كفار قريش .
(١) أما حسان بن ثابت فيقال له شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان من الأنصار . كان رسول الله ينصب له منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً ينافح عن رسول الله . ورسول الله يقول « إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافع عن رسول الله » وكان حسان يمشى إلى أبي بكر رضى الله عنه ليقتله على أنساب قريش فجعل يهجوم . فلما سمعت قريش شمر حسان قالوا هذا شعر ماغاب عنه ابن أبي قحافة .

قال ابن سيرين : انتدب لهجو رسول الله ﷺ من المشركين أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعبد الله بن الزبير . وعمر بن العاص ، وضرا بن الخطاب . وانتدب لهجو للمشركين ثلاثة من الأنصار ، حسان ابن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . فكان حسان وكعب يعارضانهم مثل قولهم في الوقائع

- ٣٨٩ -

والأيام والمآثر . ويذكرون مثالبهم . وكان عبد الله بن رواحة يعيهم بالكفر ويبادة مالا يسمع ولا ينفق ، فكان قوله : أهون القول عليهم . وكان قول حسان وكعب أشد القول عليهم . فلما أسلموا وقهوا ، كان قول عبد الله أشد القول عليهم . ووهب له النبي صلى الله عليه وسلم جاريته « سيرين أخت مارية القبطية » وعاش حسان ١٢٠ سنة : ستين في الجاهلية وستين في الإسلام ؛ وقيل إنه توفي قبل الأربعين في خلافة علي رضي الله عنه .

(٢) وأما عبد الله بن رواحة ، فهو خزرجي أنصاري أبيض من بني عبد الحارث يكنى أبا محمد ، وكان ممن شهد العقبة ، وكان تقيب بنى الحارث بن الخزرج ، شهد بدرًا وأحداً والخندق والحديبية وخيبر وعمره القضاء والشاهد كلها مع رسول الله ، إلا الفتح وما بعده لأنه كان قد قتل قبله ، وهو أحد الأسماء في غزوة مؤتة ، وكان من الشعراء الذين يناضلون عن رسول الله . ومن شعره في النبي ﷺ :

إني ترمست فيك الخير أعرفه والله يعلم ما إنى خافى البصر
أنت الذي ومن يحرم شفاعة يوم الحساب قد أزرى به القدر
ثبت الله ما أتاك من حسن تثبيت موسى ونصراً كالتى نصروا

فقال رسول الله : وأنت تثبتك الله يا ابن رواحة ، فقتل شهيداً في غزوة مؤتة كما تقدم .

(٣) وكان كعب بن مالك أنصارياً من الخزرج ، شهد العقبة . وليس يوم أحد لأمة وكانت صفراء ، وجرح أحد عشر جرحاً ، وكان من شعراء رسول الله وكان يخوف للمشركين . قال ابن سيرين . بلغنى أن دوساً أسلمت فرقا ، أى خوفاً من قول كعب بن مالك :

فضيئنا من تهامة كل وتر وخير ثم أغمدنا السيوف
تخبرنا ولو نطقت لقات قواطع دوساً أو تقيفا

فقات دوس ، انطلقوا فخذوا لأنفسكم ، لا ينزل بكم منازل بتقيف .

هؤلاء الشعراء الثلاثة ، هم الذين كانوا يناضلون عن رسول الله بشعرهم ، ويهجون قريشاً ويميئون عليهم عبادة الأصنام ، ويفخرون بانقصار المؤمنين وهم من الأنصار . أما المهاجرون فلم يكن فيهم شعراء كالأنصار يهجون قريشاً . وغالب الظن أن سبب ذلك هو أنهم تحاشوا هجاء مشركي قريش لما كان بينهم من الروابط العديدة ، فسكانوا يحاربونهم ولا يهجونهم بالشعر .

مؤذنه ﷺ

هم بلال وابن أم مكتوم بالمدينة ، وسعد القرظ (ذكره الحلي في السيرة ولم يذكره ابن الأثير في أسد الغابة)

وأبو محذورة رضى الله عنه بمكة ، وافتح الزبير وعنه مصعب وابن إسحاق والنسبي أن اسم أبي محذورة « أوس » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم تسميه بمحكي الأذان فأعجبه صوته فأمر أن يؤتى به ، فأسلم . يومئذ نأخذه بالأذان بمكة فنصره من خنين فلم يزل يؤذن فيها ، وكان أبو محذورة من أحسن الناس صوتاً ، توفي بمكة سنة ٥٩ هـ .

أما بلال بن رباح ، فهو مولى أبي بكر الصديق ، كان مؤذناً لرسول الله وكان من السابقين إلى الإسلام والمؤمنين في الله ، قدم ذكره ، كان يؤذن لرسول الله في حياته سراً وحضراً ، وهو أول من أذن في الإسلام وأذن لأبي بكر ولعمر بن الخطاب لما دخل الشام مرة واحدة ، فلم يركبوا كياً أكثر من ذلك اليوم ، ولما كان بلال بالشام ، رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وهو يقول : « ما هذه الجفوة يا بلال . ما أن لك أن تزورنا » فأتبعه حزياً ، فركب إلى المدينة فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وجعل يبكي عنده ويشترغ عليه ، فأقبل الحسن والحسين ، فجعل يقبلهما ويضمهما . فقال له أنشئنى أن تؤذن في السحر ؟ فلا سطع المسجد ، فلا قال : الله أكبر الله أكبر ، أرتجت المدينة ، فلا قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، زادت رجبها . فلا قال : أشهد أن محمداً رسول الله ، خرج النساء من خدورهن ، فما رأت يوم أكثر باكياً وباكياً من ذلك اليوم . وتوفي بلال بدمشق ودفن بباب الصغير سنة ٢٠ وهو ابن بضع وستين سنة . وقيل مات مجلب ودفن على باب الأبريين ولم يقب . وكان آدم ، شديد الألفة ، تحيفاً ، طويلاً ، أخى خفيف العارضين .. وروى أن بلالاً قال آخر الأذان : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

خدمته ﷺ

أشهر خدمته ﷺ من الرجال ، أنس بن مالك الأنصاري رضى الله عنه ، كان من أخص خدمته ، خدمه من حين قدم للمدينة إلى وفاته ﷺ عشر سنين . خدمه في السفر والحضر ، توفي بعد أن جاوز المائة ، وعبد الله ابن مسعود رضى الله عنه ، كان صاحب بسواكه ونعله إذا قام ألبسه إياها وإذا جلس جعلها في ذراعيه حتى يقوم ، وكان يمشي بالنساء أمامه حتى يدخل الحجر . وميميتب الرومي ، كان صاحب خاقه ، وعقبه بن عامر الجهني ، كان صاحب بقلته ، يتودعها في الأسفار وكان عالماً بكتاب الله وبالقرائن ، فصيحاً شاعراً وهو من الأنصار ، ولى مصر لمعاوية وتوفي بها . وأسقع بن شريك ، صاحب راحلته ، وبلال مؤذنه كان على فقتانه . ومن النساء أمة الله بنت ربيعة ، وخولة جدة حص بن سعيد ، ومارية أم الرباب ، ومارية جدة للثقي بن صالح بن مهران ، قالت مارية : ما مست شيئاً قط ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

خيله وبناله وإبله

كان له ﷺ سبعة أفراس وكان له ست بغال وكان له من الجر انسان ، وكان له من الإبل المدة للركوب ثلاثة .

فأما أفراسه ، فرس يقال له (السَّكَب) شبه بسكب الماء وانصبابه ، لشدة جريه ، وهى أول فرس ملكه ﷺ اشتراه من أعرابي وكان اسمه عند الأعرابي الفرس ، وكان أغر ، أى له غرة ، وهى بياض في وجهه محجلاً ، طلق النمين ، كيتاً ، أى بين السواد والحرة .

وفرس يقال له (المرتجى) سُمي به لحسن صهيله ، مأخوذ من الرجز الذى هو ضرب من الشعر . وكان أبيض .

وفرس يقال له (اللحييف) أهدها له ﷺ فروة بن عمرو من أرض البقاء بالشام .

وفرس يقال له (الزاز) أهدها له للقوقس .

وفرس يقال له (الظرف) الكريم الجيد من الخيل ، (والورد) وهو بين الكيت والأشقر . أهدها له تميم الدارى وأهدها صلى الله عليه وسلم لسمير بن الخطاب (وسَبَّحَة) أى سريع الجرى وقيل : كان له فرس يسمى اليسوب سُمي به لأنه كان أجود خيله .

أما بناله صلى الله عليه وسلم ، فبنته شهباء يقال لها (دُلْدُل) أهدها له للقوقس . والبلبل فى الأصل ، القنفذ . وهذه أول بنته ركبت فى الإسلام وكان صلى الله عليه وسلم يركبها فى المدينة وفى الأسفار وعاشت حتى ذهبت أسنانها فكان يدق لها الشعير وعصيت . وقاتل عليها على كرم الله وجهه الخوارج بعد أن ركبها عثمان رضى الله عنه ، وركبها بعد على ابنه الحسن ثم الحسين ثم محمد بن الحنفية .

وبنته يقال لها (فضة) أهدها له عمرو بن عمرو الجندى ووهبها ﷺ لأبى بكر رضى الله عنه . وبنته أهدها له كسرى وأخرى من دومة الجندل وأخرى من عند النجاشى .

أما حمرة ﷺ ، فحمار يقال له (يَغُور) وكان أشهب ومات فى حجة الوداع .

أما إبله صلى الله عليه وسلم التى كان يركبها ، فناقبة يقال لها (القَصُواء) وهى التى اشتراها من أبى بكر وهاجر عليها وناقبة يقال لها (الجداء) وناقبة يقال لها (المضياء) وهى التى كانت لا تسبق ويقال إنها لم تأكل ولم تشرب بعد وفاة رسول الله حتى ماتت وقد قيل إن هذه الأسماء الثلاثة اسم لناقبة واحدة .


أَسْمَاءُ أَسْلِحَتِهِ

كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم من السيوف تسعة ومن الدروع سبعة ومن القسي خمسة ومن الأتراس ثلاثة ومن الرماح اثنان ومن الحراب خمسة ومن الخوذ اثنان .

السيوف

(١) مأثور ، ورثه عن أبيه وقدم به المذينة (٢) المضبب أى القاطع ، أرسل به إليه سعد بن عباد بن عباد رضى الله عنه عند توجيهه صلى الله عليه وسلم إلى بدر (٣) ذو الفقار ، كان فى وسطه مثل قنطرة الظفر ، غنمه يوم بدر ، كان للعاص بن وائل . وكان لا يفارقه صلى الله عليه وسلم فى حرب من الحروب (٤) الصمصامة وهو سيف عمرو بن معد يكرب ، أهدها النبي صلى الله عليه وسلم لخالد بن سعيد بن العاص حيث استعمله صلى الله عليه وسلم على اليمن (٥) القللى نسبة إلى برج القلعة ، موضع بالبادية (٦) الخطف وهو الموت (٧) الرسوب ، أى الذى يرسب ويشتر فى الضربة ، وهو أحد السيوف التسعة التى أهدها بلقيس لسليمان عليه السلام (٨) الميخضم ، أى القاطع . وهما كانا معلقين على صنم ، طى الذى يقال له النلس (٩) التضبب ، من قضب الشيء : قطعه .

الدروع

(١) ذات الفضول ، لطولها ، أرسل بها إليه  سعد بن عباد حين سار إلى بدر . وكانت من حديد . وهى التى رهنها صلى الله عليه وسلم عند أبى الشحم اليهودى على ثلاثين صاعاً من الشعير ، وكان الدين إلى سنة (٢) ذات الرشح (٣) ذات الحواشى (٤) السفرية ، والنفر موضع يصنع به الدروع ويقال اسمها السعدية (٥) الفضة وهى من دروع بنى قينقاع (٦) البتراء ، قيل لها ذلك لتصرها (٧) الخرق ، قيل لها ذلك لثوبتها .

القسي

(١) قوس يقال لها « البيضاء » من شوط وهو من شجر الجبال ، يتخذ منه القسي ، وهو من سلاح بنى قينقاع (٢) الروحاء (٣) الصفراء ، من نبع ، وهو شجر يتخذ منه القسي ومن أغصانه السهام كسرت يوم أحد (٤) الزوراء ، ويقال لها السكقوم لانخفاض صوتها إذا رعى عنها . قيل وهى التى اندقت سببها يوم أحد (٥) قوس يقال لها السداد .

- ٣٩٣ -

الآراس

(١) ترس يقال لها « الأزلوق » . لأن السلاح يزلق عنها (٢) فتق (٣) تمثال عقاب أو كبش . فكرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أذعبه الله عز وجل ، وقيل وضع يده الشريفة عليه فذهب .

الرماح

(١) اللثى (٢) اللثوى ، من الثوى وهو الإقامة ؛ لأن المظنون به يقيم موضعه ولا ينتقل .

الحراب

(١) حربة يقال لها « النبعة » (٢) البيضاء (٣) حربة صغيرة تشبه السكاك يقال لها « العنزة » ، قيل جاء بها الزبير رضى الله عنه من أرض الحبشة أعطاهما له النجاشي وقاتل بها بين يدي النجاشي عدواً للنجاشي وظهر النجاشي على ذلك العدو، شهد بها الزبير بطلاً وخيبر ثم أخذها منه النبي صلى الله عليه وسلم منصرفه من خيبر فكانت تحمل بين يديه يوم العيد ، يحملها بلال رضى الله عنه فتركز بين يديه ﷺ ويصلى إليها وكذا كان يصلى إليها في أسفاره ويمشى بها وهي في يده (٤) للهر (٥) النمر .

الخوذ

الخوذ جمع خوذة وهي ما يحمل على الرأس من الزرد مثل القنصوة . نخوذة يقال لها « الموشح » وخوذة يقال لها « السبوغ » أو ذات السبوغ .

تأديب الله تعالى

لرسول الله صلى الله عليه وسلم

قال صلى الله عليه وسلم : « أدبى ربى فأحسن تأديبى » وقد جاء فى القرآن الكريم آيات فيها تأديب للنبي ﷺ . فكان عليه الصلاة والسلام يسيما ويعمل بها ويتجنب النواهي ويتبع الأوامر . وهو وإن كان معصوماً إلا أن الله سبحانه وتعالى كان يحفظه ويعظه ويأمره وينهاه ويصاتبه ويرشده إلى الصراط المستقيم ويبصره بكل شيء . فهذه العناية من الله تعالى بهذيبه صلى الله عليه وسلم وإرشاده ، وتمسك الرسول بطاعة الله تعالى باتباع أوامره واجتناب نواهيه بكل دقة ، جعلته سيد الخلق وأعظم قدوة للناس أجمعين . وقد أنشئ عليه الله تعالى فقال ﴿ وَإِنَّكَ لَمَلَكٌ خَلَقَ عَظِيمٌ ﴾ وهذا ثناء ليس بعده ثناء فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » فكان هو بمثل هذه المكارم ولا شك أنه وصل إلى هذه المرتبة العظيمة بتأديب الله تعالى .

إن الله سبحانه وتعالى علم رسوله عليه السلام كيفية الدعوة إلى سبيل الله وهداية الخلق وكيف يمدل بين الناس ومشاورة أصحابه وعلمه أن يصبر على أذى الناس ويصنع عن اللئيم ويمجى الحسن وكيف مخاطبهم ويمجادلهم الخ وهذه التعليمات المذكورة فى القرآن فى عدة مواطن عند المناسبات . ولم يكتم رسول الله شيئاً من هذه الأوامر والنواهي ، فكان أميناً على إثبات كل ما نزل به الوحي .

وقد رأيت أن أذكر الآيات التى أحب الله تعالى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتدبرها المسلمون ، إذ منها ما هو خاص بالرسول ومنها ما هو عام لجميع المؤمنين .

الشورى

أمر الله تعالى رسول الله بمشاورة أصحابه ، قال فى سورة آل عمران ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ . فالشورى الإسلامية أول شريعة أمرت بالشورى وقد كان للوكر قبل ذلك يستبدون برعاياهم ولا يرون الشورى واجبة عليهم . وقد أمر الرسول بمشاورة أصحابه وإن كان ليس فى حاجة إليهم ، ليقضى به غيره فى المشاورة وتصير سنة فى أمته .

اليتيم والسائل

قال تعالى فى سورة الضحى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَهْجُرْ ، وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ، وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾

أى لا تبيع وجهك إلى اليتيم وعامله بمثل ما عاملتك به . وروى أنها نزلت حين صاح النبي صلى الله عليه وسلم على ولد خديجة ، وقوله فلا تنهر أى فلا تزجر ، والمراد مطلق السائل .
ولقد عاتب الله رسوله في القرآن في شأن الفقراء في ثلاثة مواضع :

(أحدها) أنه كان جالساً بجاءه عثمان يعذق من تمر - أى يشارخ من تمر - فوضعه بين يديه . فأراد أن يأكل ، فوقف سائلاً بالبواب ، فقال : رحم الله عبداً يرحنا . فأمر بدفعه إلى السائل . فكره عثمان ذلك إذ أراد أن يأكله . النبي صلى الله عليه وسلم تفرج واشتراه من السائل ثم رجع السائل ففعل مثل ذلك ثلاث مرات ، وكان يعطيه النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى أن قال له صلى الله عليه وسلم : أسألك أنت أم بائع ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا السَّائِلُ فَلَا تَنْهَرْ﴾ .

(والثاني) أنه كان جالساً وحوله صناديد قريش ، إذ جاء ابن أم مكتوم ، الضرير . فضبط رقاب القوم حتى جلس بين يديه ، وقال : علفى بما علمك الله ، فشق ذلك عليه ﷺ ، فبس وتولى .
(والثالث) حين قالت له قريش ، لو جعلت لنا مجلساً وللفقراء مجلساً آخر . فهم أن يفعل ذلك . فنزل قوله تعالى ، واصبر نفسك مع الذين يدعون . . . الآية .

الصبر والعبادة

قال تعالى في سورة الإنسان : ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آيماً أَوْ كُفُوراً . وَادْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلاً﴾ .

أمر الله رسوله بالصبر في كل ما حكم به وتحمل للشاق في العبادات والطاعات وأداء الرسالة وألا يطيع الكفار والآمين . وللقصود بيان أن الناس محتاجون إلى مواصلة التنبيه والإرشاد . وقال تعالى ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ .

هجز الرُّجَز

قال تعالى : ﴿وَالرُّجُزَ فَاهْبِجْ﴾ والرجز اسم للتبجح للسقندر . وهو معنى الرُّجَس . قوله : والرجز فاهجر ، كلام جامع لمكارم الأخلاق . كأنه قال له ، اهر الجفأ والسفه وكل شيء قبيح ولا تفخق بأخلاق هؤلاء المشركين المتسلطين للرجز . والمراد للدوامه على ذلك المهجر . وقال : ﴿وَلَا تَمَنَّيَنَّ نَسْتَكُتْ﴾ أى ، ولا تمنن بهذه الأعمال الشاقة على ربك .

النهي عن تحريم ما أحله الله

قال الله جل شأنه في سورة التحريم :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(١) ينهى الله تعالى عن تحريم ما أحله الله له مرضاة لأزواجه عليهم السلام . قال في الكشف ، روى أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في يوم عائشة وعلت بذلك حفصة . فقال لها : اكتمى على . وقد حرمت مارية على نفسه وأبشرك أن أبكر وعمر يملكان ببدى أمر أمي . فأخبرت به عائشة وكانتا متصادقتين ، وقيل خلا بها في يوم حفصة ، فأرضاهما بذلك واستكنهما فلم تنكمت ، فطلقها واعتزل نساءه ، ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية ، وروى أن عمر قال : لو كان في آل الخطاب خير لما طلقك ، فنزل جبريل عليه السلام ، وقال راجعاً فإنها صائمة قوامة ، وإنها من نسائك في الجنة . وروى أنه ما طلقها وإنما نوه بطلاقها . وروى أنه عليه السلام شرب عسلاً في بيت زينب بنت جحش ، فحواطأت عائشة وحفصة ، فقالتا له : إنا نشم رائحة النافير^(٢) وكان رسول الله يكره النفل من الطعام ، فغرم العسل ، فغناه لم تحرم ما أحل الله لك من ملك اليمين أو من العسل ؟ قال مسروق : حرم النبي عليه السلام أم ولده ، وحلف ألا يقربها . فأنزل الله هذه الآية . فقيل له : أما الحرام خلال ، وأما اليمين التي حلفت عليها فقد فرض الله لكم تحلة إيمانكم . قال الشعبي ، كان مع الحرام يمين ، فعوتب في الحرام ، وإنما يكفر اليمين . فذلك قوله تعالى : ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ الآية . وقوله ، لم تحرم ، استفهام بمعنى الإنكار . والإنكار من الله تعالى نهى . والحلال لا يحرم إلا بتحريم الله تعالى . وللرأد من هذا التحريم هو الإمتناع عن الانتفاع بالأزواج .

المعفو والإعراض عن الجاهلین

قال تعالى في سورة الأعراف :

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ المعفو لغة ، التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه . وأصله الحق والطمس . وكل من استحق عقوبة فتركها فقد عفوت عنه . وعفا عن ذنبه عفواً : صفح . وقوله ، خذ العفو ، قيل الفضل الذي يجيء بغير كلفة . والمعنى ، اقبل لليسور من أخلاق الناس ولا تستقص عليهم . وفي حديث ابن الزبير ، أمر الله نبيه أن يأخذ العفو من أخلاق الناس . قال هو السهل اليسر ، أي أمره أن يحتمل أخلاقهم وقيل منها ما سهل ويسر ولا يستقصي عليهم . ويدخل في ذلك التساهل وعدم التشديد في كل ما يتعلق

(١) نوع من الصنع يميل من شجر العرط ، شجر البضاء ، غير أن رابحة كريمة وطمه حلو وهو يؤكل .

بالحقوق السالية ، ويدخل فيه أيضاً التخلق مع الناس بالخلق الطيب وترك الغفلة والغفلة . كما قال تعالى : ﴿ وَكَأَنَّهُمْ كُفْتُ فَنَّا غَلِيظُ الْقَلْبِ لَا تَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ وأما ما لا يجوز دخول المساهلة والمساهة فيه ، فالحكم فيه أن يأمر بالمعروف . وقال أيضاً : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْكَاهِلِينَ ﴾ وأمره الله تعالى أن يصل من قطعه ويعنى من حرمه ويعفو عن ظله . وهذا مطابق لهذه الآية .

التواضع للمؤمنين

قال تعالى في سورة الحجر :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَافَى وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ . لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

السبع المنافى هي فاتحة الكتاب ، وهو قول عمر وعلى وابن مسعود وأبي هريرة والحسن وأبي العالية ومجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، قرأ الفاتحة وقال : هي السبع للثاني - رواه أبو هريرة .

قال ابن عباس : « لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ » أى لا تمن ما فضلنا به أحدا من متاع الدنيا . وروى أنه نظر إلى نعم بنى المصطلق . وقيل وافت من بعض البلاد سبع قوافل ليهود بنى قريظة والنضير فيها أنواع من البز أى الثياب والطيب والجواهر ، وسائر الأمتة . فقال للسلمون ، لو كانت هذه الأموال لنا ، لتقوينا بها ولافتناها في سبيل الله تعالى . فقال الله تعالى لهم : لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع . والحاصل أن قوله : ولا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ، نهى له عن الالتفات إلى أموالهم . وقوله : ولا تحزن عليهم ، نهى له عن الالتفات إليهم . ثم قال : واخفض جناحك للمؤمنين ، اخفض معناه في اللغة شيع الرفع ، وجناح الإنسان : يده . وخفض الجناح ، كناية عن اللين والرفق والتواضع . والقصد أنه تعالى لما نهاه عن الالتفات إلى أولئك الأنبياء من الكفار ، أمره بالتواضع لقراء المسلمين . ونظيره قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ .

المجادلة بالحسنى

قال تعالى في سورة النحل :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ، أمر الله رسوله

أن يدعو الناس بإحدى هذه الطرق الثلاث : وهى الحكمة ، والوعظة الحسنة ، والمجادلة بالطريق الأحسن .

إيتاء ذى القربى والمساكين

قال تعالى فى سورة الإسراء :

﴿وَأَتَىٰ ذَا الْقُرْبَىٰ جَهْدُهُ وَالْيَسِيرِينَ وَالْبَيْنَ السَّبِيلِ . وَلَا يُبْذَرُ تَبَذُّرًا . إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ .

أمره الله تعالى أن يؤتى أقاربه الحقوق التى وجبت لهم فى الفى . والنعمة وأوجب عليه أيضاً ، إخراج حق المساكين وأبناء السبيل من هذين المثلين . والتبذير فى اللغة ، إفساد المال وإفراقه فى السرف إلا أنه لا سرف فى الخير .

معاملة العدو

قال تعالى فى سورة فصلت :

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ وَلَا الْسَيْفَ . ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ . فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ، يعنى ادفع سفاهتهم وجهالهم بالطريق التى هو أحسن الطرق ، فإنك إذا صبرت على سوء أخلاقهم مرة بعد مرة ولم تقابل سفاهتهم بالنضب ولا إضرارهم بالإيذاء والإيماش ، استحيوا من تلك الأخلاق للمنومة وتركوا تلك الأفعال القبيحة ، ثم قال فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، يعنى إذا قابلت إساءتهم بالإحسان وأضالم القبيحة بالأفعال الحسنة ، تركوا أفعالهم القبيحة واقلبوا من السداوة إلى المحبة ومن البغضاء إلى اللودة .

الاقتصاد فى الإفاق

الاقتصاد وسط بين الضيق والتبذير وكل فضيلة وسط بين رذيلتين ، قال الشاعر :

خير الأمور الوسط جب التنلى غلط

وقد ذم الله تعالى للقرين والبغلاء ، وذم للبذرين . والناس إما مقترون أو مبذرون ، وقليل منهم المتصدون وترى البخل يمل ويدبر تقيده ويترجم أن الحكمة تقضى بالتبذير وادخار الأموال لإفاتها فى وقت السر ويبقى هكذا مقترراً طول حياته ويخشى أن ينفق حتى فى أوقات السر والشدة . كذلك يمل البذير تبذيره

- ٣٩٩ -

ويبرده فينق أُمُواله في الحرمات والسكاليات حتى يأتي عليها ويصبح قبيراً لا يجد قوت يومه . قال تعالى : ﴿ إِنَّ
الْبَذْرَيْنِ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ وقال في حق الذين يكنزون للآل : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالنَّصِيبَ وَلَا
يُنْفِقُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُجْعَىٰ عَلَيْهِمْ فِي نَارِ جَهَنَّمَ هَكَايَٰ بِمَا كَانُوا يَكْنِزُونَ
وَيُظْهِرُهُمْ . هَذَا مَا كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ والسرف وإن كان مغموتا مذموماً إلا أنه
لا سرف في الخير .

وقد أمرنا الله تعالى بمراعاة الاقتصاد في النفقة فإن ذلك سبيل السادة ، قال تعالى في سورة الإسراء : ﴿ وَلَا
تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا . إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ
يَشَاءُ وَيَقْدِرُ . إِنْ كَانَ بِإِسْرَارٍ خَيْرٌ أَمْ بَصِيرًا ﴾ وقد شرح الله تعالى وصف عباده المؤمنين في الإِثاق في سورة
الفرقان فقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ، فها هنا أمر رسوله بمثل
ذلك الوصف فقال : ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، أى لا تمسك عن الإِثاق بحيث تضيق على نفسك وأهلك
في وجوه صلة الرحم وسبيل الخيرات . والمعنى : لا تجعل يدك في احتياضها كالمغلولة للمنعوعة من الانبساط
ولا تبسطها كل البسط ، أى ولا تتوسع في الإِثاق توسعة مفرطة بحيث لا يبقى في يدك شيء . ثم قال تعالى :
فَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا - أى يلوم نفسه ، وأصحابه أيضا يلومونه على تضيق المال بالكلية وإبقاء الأهل والولد في
الضر والحنة .

هذا مثل من الأمثلة العديدة لتأديب الله تعالى لرسوله ﷺ وقد ذكرنا الآيات التي وردت في هذا الصدد
مع تفسيرها تفسيراً مجملًا ليتعظ بها المسلمون وليعلموا عناية الله برسوله عليه الصلاة والسلام .

منزلة رسول الله ﷺ في القرآن

ذكرنا فيما تقدم ما كان من تأديب الله تعالى لرسول الله ﷺ تارة بالأمر وتارة بالنهي أو العتاب وقد وردت الآيات القرآنية بذلك . ونحن هنا نشبه منزلة الرسول في القرآن الكريم .

طاعة الله وطاعة الرسول

جعل الله سبحانه وتعالى طاعته مقرونة بطاعة رسول الله . وهذا تشریف له عليه الصلاة والسلام قال تعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ وقال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ . فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ وقال : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ . وقال ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ فطاعة الله هي طاعة الرسول . وقال تعالى ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَىٰ نَهْجٍ مَنِمٍ حَفِظًا ﴾ أي من أطاع الرسول لكونه رسولا مبعوثا إلى الخلق أحكام الله ، فهو في الحقيقة ما أطاع إلا الله .

الثناء على أخلاقه

قال تعالى يثني على أخلاقه صلى الله عليه وسلم ﴿ وَإِنَّكَ لَكَلِمٌ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ وليس بعد ذلك ثناء فإن حسن الخلق أعظم ما يصلح به الإنسان . فكان رسول الله هو للثل الأعلى وقدوة الخلق في محاسن الأخلاق التي لا يبد لها شيء . وقال رسول الله « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ » وقال تعالى ﴿ قَبِيحًا رَجِمَتْ مِنْ اللَّهِ لَبِئْسَ لَهُمْ وَثُوًّا كُنْتُمْ فَوَلَّا غِلْظَ الْقُلُوبِ لَا تَقْضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ فكان رسول الله ابن الجانب ، حسن الأخلاق ، جميل السجالات بعيداً عن الغلظة ، يمدل بين الناس ولا يظلم أحداً وبذلك اجتذب إليه المؤمنين . ولو كان فظاً لفرّوا منه ونبذوه واضعوا من حوله .

بعثة الرسول إحسان إلى كل العالمين

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ . يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَنِي ضَالِّينَ مُبِينٍ ﴾ قوله تعالى من أنفسهم أي من أهل

بلدم ومن أثارهم . وقد من الله عليهم ببعثة الرسول ، أى أنهم عليهم وأحسن إليهم بذلك . وهذا الإحسان عام في حق المالمين لأنه مبعوث إلى كل المالمين كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ إلا أنه لم ينفع بهذا الإنعام إلا من أسلم . فلهذا خص تعالى هذه اللة بالمؤمنين .

الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ الصلاة : الدعاء . يقال في اللة صلى عليه ، أى دعا له . وهذا للمنى غير معقول في حق الله تعالى فإنه لا يدوم له . لأن الدعاء للغير طلب نعمة من ثالث . لكن صلاة الله على رسوله ، رحمة وحسن ثنائه عليه . والصلاة من الملائكة : دعاء واستغفار ، ومن الله رحمة وفيه تنظيم النبي ﷺ وقد سئل النبي عليه السلام : كيف نهل عليك يارسول الله ؟ قال : قولوا : « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد . كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم . إنك حميد مجيد » .

التأديب في حضرة الرسول

قال تعالى يعلم المؤمنين أن يتأدبوا في حضرة رسول الله لعظم شأنه وعلو مرتبته ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ۚ وَلَا يَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .

نهى الله تعالى المؤمنين أن يرفعوا أصواتهم في حضرة رسول الله فوق صوته ﷺ ، لأن من يرفع صوته عند غيره ، يحمل نفسه اعتباراً زائداً وعظمة ، وقد يكون المراد للنع من كثرة الكلام عنده لأن ذلك لا يليق في مجلس الرسول لعظم قدره ، وللعن من رفع الصوت لا يكون إلا للاحترام وإظهار الاحشام ومراعاة الأدب ، وقوله أن تحبط أعمالكم ، أى تبطل أو تقسد ، وهذا إنذار لمن يرفع صوته .

وقال تعالى يثني على الذين يلزمون الأدب ويغضون أصواتهم لإجلالاً واحتراماً لرسول الله ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغْضَوْنَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِيَتَّقُوا ﴾ يقال غض صوته أى خفضه ولم يرفعه .

تحكيم رسول الله

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِى شَيْءٍ مِنْهُمْ ثُمَّ لَا يَصُدُّوا عَنْ أَفْسَهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيَسْلُبُوكَ نَسَابًا ﴾ شجر أى اختلف واختلط ، والحرج : الضيق . وهذا يدل على أن من لم يرض بحكم رسول الله ، لا يكون مؤمناً .

عاقبة ، شاقّة رسول الله

قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ .

فشاقّة الرسول موجبة لهذا الوعيد . ودلت هذه الآية على وجوب عصمة محمد صلى عليه وسلم عن جميع الذنوب . فلو صدر الذنب عن الرسول ، لوجب مشاقته لكن مشاقته صلى الله عليه وسلم محرمة بهذه الآية . فوجب أن لا يصدر الذنب عنه . ودلت أيضاً على أنه يجب الاقتداء بالرسول في أفعاله . إذ لو كان فعل الأمة غير فعله ﷺ ، لزم كون كل واحد منها في شق آخر من العمل فتحصل المشاقّة لكن للمشاقّة محرمة ، فيلزم وجوب الاقتداء به في أفعاله .

هذا بعض ماورد في القرآن الكريم خاصاً بمنزلة رسول الله وعظيم قدره ورفعة شأنه . فقد أمر الله أن يطيعه المؤمنون ، وقرن طاعته تعالى بطاعته ونهى عن عصيانه وأنذر من عصاه بنار جهنم لأن عصيانه من عصيان الله جل شأنه . ونهى عن مشاقته لأنه معصوم عن الذنوب . ومن كان معصوماً ، حرمت مشاقته . وأمر المؤمنين بالتزام الأدب في حضرته صلى الله عليه وسلم ونهى أن ترفع الأصوات في مجلسه فإنه ليس كأحدكم ، فلا يليق أن يرفضوا أصواتهم وأن يكثروا من الكلام أمامه . وإذا كانت مراعاة الأدب واجبة أمام الملوك والحكام فعلى أوجب أمام الرسول لأنه سيّد الخلق وأقربهم إلى الخالق وأعظمهم خالقاً . وقد منّ الله تعالى على الناس برسالته وجعلها رحمة لهم . قال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ وكان رسول الله يراعى الأدب مع أصحابه وكانوا يتقبسون من جليل صفاته ويتقنون به ، وقد أمرنا الله أن نصلى عليه ﷺ فاللهم وفقنا إلى طاعتك وطاعة رسولاك ، واهدنا الصراط المستقيم . إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير .

الأحاديث النبوية

وتدوينها

روى البخارى ، أن عمر بن عبد العزيز هو الذى أمر بتدوين الحديث . قال إن عمر بن عبد العزيز كتب إلى أبي بكر بن حزم الأنصارى للذى : « انظر إلى ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكْتبه . فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء . ولا يقبل إلا حديث رسول الله ﷺ ولتفشوا العلم حتى يعلم من لا يعلم . فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرّاً » .

وإن حزم هذا ، ولاء عمر بن العزيز لإمرة المدينة وتوفى سنة ١٢٠ هـ فجمع شيئاً من الآثار النبوية . ثم تابع العلماء فى التدوين والتصنيف . وتفرّد بالكوفة أبو بكر بن أبي شيبة بتكثير الأبواب وجودة الترتيب وحسن التأليف . ولكن هذه الآثار لما كانت فى مبدأ الأمر تؤخذ من الأفواه ، كان للصف إذا روى له أحد حديثاً ، طالبه بإسناده وعن أخذه فيذكر له سنده حتى ينتهى إلى النبى صلى الله عليه وسلم إن كان من كلامه ، أو إلى الصحابي أو إلى التابعي إن كان من كلامهما . وكان قد تسرب إلى تلك الآثار أشياء من الوضع فاحتاج المصنفون إلى تدوين قانون مخصوص يصح به السمين من الثبوت ، وجعلوا ذلك القانون على أعمدة (المعود الأول) فى فن التاريخ ليمل منه تاريخ الراوى ووفاته حتى إذا قال حدثني فلان ولم يكن مدرّكاً لزمه ، عدوا أنه كاذب عليه . ولهذا قال الإمام أحمد ، لما استعمل الرواة الكذب ، استعملناهم التاريخ .

(والمعود الثانى) فن الجرح والتعديل . كتولم فلان «تة» فلان «وضع» (المعود الثالث) النظر فى كيفية أخذ الرواة بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناقلة أو إجازة وتفاوت رتبها . وما للعلماء فى ذلك من خلاف بالقبول والرد . ثم أتبعوا ذلك بكلام فى ألقاظ تقع فى متون الحديث من غريب أو مشكل أو تصحيف أو مفترق منها أو مختلف وما يناسب ذلك أيضاً بالناسخ والنسخ من الحديث . وهو من أهم علومه وأصعبها . وقد دون علماء الحديث كتباً فى مصطلحه . فمنهم القاضى أبو محمد الرامهرمزي . فإنه ألف كتابه الحديث الناضل . والحاكم أبو عبد الله النيسابورى ، ثم تلاه أبو نعيم الأصفهاني ، ثم جاء بعدهم الخطيب البندادى ، صاحب تاريخ بغداد ، وألفى قواعد الرواية كتاباً سماه «الكتابة» ، وفى آدابها كتاباً سماه «الجامع لأدب الشيخ والسمع» . وقل من فنون الحديث إلا وقد صنف فيه كتاباً حتى إن كل من أنصف بمل أن الحديثين بعد الخطيب عمال على كتبه ، ثم جاء من تأخر عن الخطيب ممن أخذ نصيباً من هذا الفن فألف فيه . فجمع القاضى عياض كتاباً طبعه سماه «الإلماع» وجمع أبو حفص الليثي جزءاً سماه . «ملا يسع الحديث جهله» ثم كثرت المصنفات فى ذلك إلى أن جاء التتبع

الحافظ للسنة ، عبد الرحمن الشهرزورى المعروف بابن الصلاح تزيل دمشق ، لجمع لما ولى تدريس الحديث بالمدرسة الأثرية ، كتابه المشهور فى مصطلح الحديث ، فتهذب فنونه وأملأه شيئاً بعد شيء ، ثم تلاه بحجى الدين بنونى والحافظان : العراق وابن حجر .

ثم إنه من العلوم ، أنهم قسموا السنن المضافة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو صفة إلى ثلاثة أقسام (١) الصحيح (٢) الحسن (٣) الضعيف . وقسموا كلا منها أقساماً . فالأول الصحيح وهو ما اتصل بسنده بالرجال المدول ، الضابطين من غير شذوذ ولا علة . فالمدل : هو من له ملكة تحمله على ملازمة التقوى والروعة . والضابط : من ثبت ماسمعه فى صدره بحيث يتمكن من استحضاره متى شاء . ومن يضبط . كتابه أى يصونه عنده منذ سمع فيه وصححه إلى أن يؤدى منه ، وقوله من غير شذوذ معناه أن لا يشذ الراوى فىخالف فى روايته . من هو أرجح منه . وأن يكون خالياً من علة فادحة فيه كإرسال الرفع ورفع الرسل . ولهذا يتفاوت الصحيح فى القوة بحسب ضبط رجاله واشتهارهم بالحفظ والورع وتحريه واحتياطهم . ولهذا اتفقوا على أن أصح الحديث ما اتفق على إخرجه البخارى (١) ومسلم (٢) . ثم ما انفرد به البخارى ، ثم مسلم ، ثم ما كان على شرطهما ، ثم شرط البخارى ، ثم شرط مسلم ، ثم شرط غيرهما . القسم الثانى ، الحسن ، وهو ما كان رجال سنده معروفين ، مشهورين بالعدالة والضبط ، اشتهاراً دون اشتهار رجال الصحيح . والغريب ، ما استغربه أهل الحديث لمان . قرب حديث يكون غريباً ، لا يروى إلا من وجه واحد كأن تدور روايته على واحد وإن كان الحديث مشهوراً عند أهل العلم لكثرة من روى عن ذلك الواحد . ورب حديث إنما يستغربه لزيادة تكون فى الحديث . وإنما تصح إذا كانت الزيادة من يعتمد على حفظه . وأعلم أن قولهم هذا حديث صحيح أو ضعيف ، إنما هو بالنظر لظاهر الإسناد وليس هذا منهم على سبيل القطع . القسم الثالث الضعيف وهو ما ناقص إسناده عن أن يصل إلى رتبة الحسن ، فقدم وصوله إلى درجة الصحيح ، من باب أولى . وللضعيف أقسام كثيرة ، منها ما له لقب خاص كالضارب والمقلوب والموضوع والسكر ، ومنها ما ليس له ذلك .

(١) ولد البخارى سنة ١٩٤ هـ - ٨١٠ م وتوفى سنة ٢٥٦ هـ - ٨٧٠ م وقد اختار ٨٠٠٠ حديث فى صحيحه . ٦٠٠٠٠ و .

حديث جميعاً فى ست عشرة سنة .

(٢) ولد مسلم سنة ٢٠٦ هـ وتوفى سنة ٢٦١ هـ وقد جمع ٤٠٠٠ حديث بإسقاط المكرر .

مختارات من الأحاديث النبوية

- (١) آية المنافق ثلاث ^(١) إذا حدث كذب . وإذا وعد أخاف . وإذا ائتمن خان .
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)
- (٢) أبغض الحلال إلى الله الطلاق .
(عن ابن عمر . رواه أبو داود وابن ماجه)
- (٣) اتقوا الله واعدلوا في أولادكم .
(عن النعمان بن بشير . أخرجه الشيخان)
- (٤) اتقوا الظلم فإنه ظلمات يوم القيامة . واتقوا الشح فإنه أهلك من كان قبلكم ^(٢) .
(عن جابر . أخرجه مسلم)
- (٥) اجنبوا السبع اللوابق ^(٣) : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ^(٤) ، وقذف المحصنات الغافلات ^(٥) .
(عن أبي هريرة . أخرجه الشيخان)
- (٦) أحب الأعمال إلى الله ، أدومها وإن قل .
(عن عائشة . رواه الشيخان)
- (٧) أحب الناس إلى الله تعالى يوم القيامة وأدناهم منه مجلسا ، إمام عادل . وأبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأبدهم منه مجلسا ، إمام جائر .
(عن أبي سعيد . أخرجه الترمذی)
- (٨) البر ^(٦) حسن الخلق . والإثم ما حاك في صدرك ^(٧) وكرهت أن يطلع عليه الناس .
(عن النوفل بن سميان . أخرجه مسلم)
- (٩) إذا استأذنت أحدكم امرأته إلى المسجد فلا يمنعها .
(عن سالم عن أبيه . رواه مسلم)
- (١٠) إذا التقى المسلمان بسيفيهما قتل أحدهما صاحبه ، فاقاتل والمقتول في النار . قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال ، إنه كان حريصا على قتل صاحبه .
(عن أبي بكر . رواه الشيخان)

(١) المنافق ، الذى يظهر غير ما فى الباطن (٢) الشح ، البخل (٣) اللوابق ، المامى لأنهن مهلكات (٤) التولي يوم الزحف ، أى الفرار يوم القتال في سبيل الله (٥) قذف المحصنة ، رمعا بالفاحشة . والمحصنة : الشفيع (٦) الخير والفضل (٧) ما حاك في صدرك : أى مارسخ .

- (١١) إذا أُمِّ أحدكم الناس ، فليخفف . فإن فيهم الصغير والكبير والضعيف والريض وذو الحاجة . وإذا صلى نفسه فليطوّل ماشاء .
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)
- (١٢) إذا تقاضى إليك رجلان ، فلا تقض للأول حتى تسمع كلام الآخر . فسوف تدرى كيف تقضى .
(عن علي رضي الله عنه . رواه أحمد وأبو داود والترمذي)
- (١٣) إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب ، فله أجران . وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر .
(عن عمرو بن العاص . متفق عليه)
- (١٤) إذا رأى أحدكم جنازة ، فإن لم يكن ماشياً معها ، فليتم حتى يحلقها أو تحلقه أو توضع من قبل أن تحلقه .
(عن عامر بن ربيعة . رواه البخاري)
- (١٥) إذا مات ابن آدم ، انقطع عنه عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .
(رواه مسلم عن أبي هريرة)
- (١٦) أربع من كنن فيه ، كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خلة ^(١) منهن ، كانت فيه خلة من شاق حتى يذمها : إذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر .
(عن عبد الله بن عمر . رواه الشيخان)
- (١٧) ألا أنبئكم بأكبر الكبائر : الإشراف بالله ، وعقوق الوالدين ، وقول الزور .
(عن علي رضي الله عنه . رواه الشيخان)
- (١٨) الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك .
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)
- (١٩) الأرواح جنود مجتدة ^(٢) . فما تعارف منها اختلف وما تناكر منها اختلف .
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)
- (٢٠) إنا أن نستعمل على عملنا من أراد .
(عن أبي موسى . رواه الشيخان)
- (٢١) انظروا إلى من هو أسفل منكم . ولا تنظروا إلى من هو فوقكم . فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم .
(عن أبي هريرة . متفق عليه)
- (٢٢) إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات ، وواد البنات ، ومنعباً وهات . وكره لكم قبلا وقال ، وكثرة السؤال وإضاعة المال .
(عن الغيرة بن شعبة . رواه الشيخان)

- (٢٣) إن الله تعالى قد حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله .
- (٢٤) إن الدعاء هو العبادة . (عن عتيان بن مالك . رواه الشيخان)
- (٢٥) إن الدين يُسر ولن يُشادّ الدين ^(١) أحد إلا غلبه . فسددوا وقاربوا وأبشروا ، واستمعينا بالنذرة والرحمة وشئ من الدُّبَّة ^(٢) . (عن أبي هريرة . أخرجه البخاري)
- (٢٦) إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة ، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر سرها . (عن أبي سعيد الخدري . رواه مسلم)
- (٢٧) إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة ، هو من تركه الناس اتقاء خَشْيِهِ ^(٣) . (عن عائشة . رواه الشيخان)
- (٢٨) إنكم ستعرجون على الإمارة ، وستكون ندامة يوم القيامة . فنعمت للرضعة وبئست الفاطمة . (عن أبي هريرة . رواه البخاري)
- (٢٩) إن الميت ليعذب ببكاء الحي . (عن عمر . رواه الشيخان)
- (٣٠) إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى . فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هجر إليه . (عن عمر . رواه الشيخان)
- (٣١) إنما الطاعة في المعروف . (عن علي رضي الله عنه . رواه الشيخان)
- (٣٢) إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت . (عن ابن مسعود . أخرجه البخاري)
- (٣٣) إن من الشعر لحكمة . (عن أبي بن كعب . أخرجه البخاري)
- (٣٤) للؤمن المؤمن كالبنان يشدُّ بعضه بعضاً . (عن أبي موسى . رواه البخاري)
- (٣٥) إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوّز ^(٤) في صلاتي كراهية أن أشق على أمة . (عن قتادة . رواه البخاري)

(١) يشاد الدين : سبّ الدهر .

(٢) دُبَّة : أي يتشدد فيه ويكلف نفسه من العبادة فوق طاقته .

(٣) النحش : القول السيء .

(٤) تجوز في الصلاة : ترخص فأتى بأهل ما يمكن .

- (٣٦) إياكم والحسد . فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب .
 (عن أبي هريرة . أخرجه أبو داود . وابن ماجه من حديث أنس مثله)
- (٣٧) الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه وبقائه وبرسوله . وتؤمن بالبعث في اليوم الآخر .
 (عن أبي هريرة . رواه الشيخان)
- (٣٨) الإيمان يضع وستون شُعبة . والحياة شُعبة من الإيمان
 (عن أبي هريرة . رواه البخاري)
- (٣٩) بُنى الإسلام على خمس ، شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان .
 (عن ابن عمر . رواه البخاري)
- (٤٠) بنس الطعام . طعم الولية ، يُدعى إليه الأغنياء ، ويُترك الفقراء ، ومن ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله .
 (عن أبي هريرة . رواه الشيخان)
- (٤١) تجلبون من شر الناس عند الله تعالى يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه .
 (عن أبي هريرة . أخرجه الستة)
- (٤٢) لسموا باسمي ولا تكونوا بكفيتي . ومن رأى في المنام ، قد رأى . فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي .
 (عن أبي هريرة . أخرجه البخاري)
- (٤٣) تهادوا تحابوا .
 (عن أبي هريرة . رواه البخاري)
- (٤٤) ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم . قال أبو معاوية ، ولا ينظر إليهم . ولم عذاب أليم :
 شيخ زان . ومالك كذاب . وعائل مستكبر .
 (عن أبي هريرة . أخرجه مسلم)
- (٤٥) حق المسلم على المسلم ست : إذا تقيته فسلم عليه . وإذا دعاك فأجبه . وإذا استنصحك فانصحه . وإذا عرض
 فحمد الله فشمته . وإذا مرض فذه . وإذا مات فاتبعه .
 (عن أبي هريرة . رواه مسلم)
- (٤٦) الحياة لا يأتي إلا بخير .
 (عن عمران بن الحصين . رواه الشيخان)
- (٤٧) الحياة من الإيمان .
 (عن ابن عمر . متفق عليه)
- (٤٨) الحالة بمنزلة الأم .
 (عن البراء . رواه الشيخان)
- (٤٩) خذى من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك . قاله لهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان .
 (عن عائشة . رواه الشيخان)
- (٥٠) خياركم ، أحاسنكم أخلاقاً .
 (عن ابن عمر . رواه الشيخان)

(٥١) دخلت امرأة النار في هرة ربطتها . فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)
(خشاش الأرض : هوامها)

(٥٢) الدين النصيحة . قالوا لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم .
(عن تميم الداري . أخرجه مسلم)

(٥٣) الساعى على الأرملة والمساكين ، كالجاهد في سبيل الله أو القائم الليل ؛ الصائم النهار .
(عن أبي هريرة . رواه الشيخان)

(٥٤) سباب المسلم فسوق وقتاله كفر
(عن ابن مسعود . رواه الشيخان)

(٥٥) السجى ، قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار . والبخل بعيد من الله بعيد
من الجنة بعيد من الناس قريب من النار . ولجاهل سخي ، أحب إلى الله تعالى من عابد بخيل .
(عن أبي هريرة . أخرجه الترمذى)

(٥٦) السمع والطاعة حتى مالم يؤمر بمعصية . فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة .
(عن ابن عمر . أخرجه البخارى)

(٥٧) العائد في هبته . كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه
(عن ابن عباس . متفق عليه)

(٥٨) عليكم بالصدق . فإن الصدق يهدي إلى البر . وإن البر يهدي إلى الجنة . وما يزال الرجل يصدق ويتحرى
الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور
يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً .

(عن ابن مسعود . متفق عليه)

(٥٩) قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن
(عن عائشة . رواه الشيخان)

(٦٠) كل شراب أسكر فهو حرام
(عن عائشة . أخرجه الترمذى)

(٦١) كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته ، فالإمام راع ومسئول عن رعيته . والرجل راع في أهله وهو
مسئول عن رعيته ، والمرأة في بيت زوجها راعية وهى مسئولة عن رعيته . والغلام في مال سيده راع
مسئول عن رعيته .
(عن ابن عمر . أخرجه الترمذى)

(٦٢) كل مسكر خمر . وكل مسكر حرام
(عن ابن عمر . أخرجه مسلم)

(٦٣) كل معروف صدقة
(عن جابر . أخرجه البخارى)

- (٦٤) لا ترغبوا عن آباءكم . فمن رغب عن أبيه ، فهو كفر (عن أبي هريرة . رواه مسلم)
- (٦٥) لا تسبوا الأموات . فإنهم قد أفضوا إلى ماقدّموا (عن عائشة . رواه البخاري)
- (٦٦) لا تمنعوا النساء المساجد إذا استأذنكم إليها (عن عبد الله بن عمر . رواه مسلم)
- (٦٧) لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة . فهو يقضي بها ويعلمها (عن عبد الله بن مسعود . أخرجه البخاري)
- (٦٨) لا يحكم أحد بين اثنين وهو غضبان (عن أبي بكر . متفق عليه)
- (٦٩) لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني . والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة (عن ابن مسعود . متفق عليه)
- (٧٠) لا يحل لرجل مسلم أن يعطى العطية ثم يرجع فيها إلا الوالد فيما يعطى ولده (عن ابن عمر وابن عباس . رواه أحمد والأربعة)
- (٧١) لا يتخلّون رجل بامرأة إلا مع ذي حرّم (عن ابن عباس . رواه البخاري)
- (٧٢) لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر . (عن عبد الله بن مسعود . رواه مسلم)
- (٧٣) لا يدخل الجنة قتات - أى تمام (عن حذيفة . متفق عليه)
- (٧٤) لا يرث المسلم الكافر ، ولا يرث الكافر المسلم (عن أسامة بن زيد . متفق عليه)
- (٧٥) لا يرحم الله من لا يرحم الناس (عن جرير . أخرجه الشيخان والترمذي)
- (٧٦) لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن . ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن (عن أبي هريرة . رواه مسلم)
- (٧٧) لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . (عن أبي هريرة : أخرجه البخاري)
- (٧٨) لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (عن أنس . رواه البخاري)
- (٧٩) لم يبق من النبوة إلا البشارات . قالوا وما للبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة (عن أبي هريرة . رواه البخاري)
- (٨٠) ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب (عن أبي هريرة . متفق عليه)
- (٨١) ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فيبنى خيراً أو يقول خيراً (عن أم كلثوم بنت عقبة . أخرجه البخاري)

- (٨٢) ليس الصغير على الكبير وللمار على القاعد والقليل على الكثير .
 (عن أبي هريرة . متفق عليه) وفي رواية لسم - والراكب على الاني
 (٨٣) ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده القنمة والقنمان والتمرة والقرتان . ولكن المسكين الذي لا يجد
 غنى يفتنيه ولا يُفعلن له فيصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس .
 (عن أبي هريرة . رواه البخاري)
 (٨٤) ليس منا من ضرب الخلدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية .
 (عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق ، عن عبد الله . رواه مسلم والبخاري)
 (٨٥) ما من أمير يلى أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة .
 (عن معقل . رواه مسلم)
 (٨٦) ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة .
 (عن معقل . رواه مسلم)
 (٨٧) ما من مولود إلا يولد على الفطرة ^(١) . فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .
 (عن أبي هريرة . رواه البخاري)
 (٨٨) للسلم من سلم للمسلمون من لسانه ويده . وللهاجر من هجر ما نهى الله عنه
 (عن عبد الله بن عمر . رواه البخاري)
 (٨٩) من أحب أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ في أثره ، فليصل رحمه
 (عن أبي هريرة . أخرجه البخاري)
 (٩٠) من بدل دينه فاقتلوه
 (عن ابن عباس . رواه البخاري)
 (٩١) من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه
 (عن أبي هريرة . رواه الترمذي)
 (٩١) من حمل علينا السلاح فليس منا
 (عن ابن عمر . متفق عليه)
 (٩٣) من قتل نفسه بمديدة ، غديده في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً ، ومن شرب سما
 قتل نفسه ، فهو يتحساه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً . ومن تردى من جبل فقتل نفسه ، فهو يتردى ،
 في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً
 (عن أبي هريرة . رواه مسلم) .
 (٩٤) من كانت له امرأتان فال إلى إحداها دون الأخرى ، جاء يوم القيامة وشقه مائل .
 (عن أبي هريرة . رواه أحمد والأربعة وسنده صحيح)

(١) الفطرة هي الخلقة التي فطر عليها في الرحم من سعادة أو شقاوة .

- (٩٥) من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليقل خيراً أو ليصمت . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره .
(عن أبي هريرة . رواه مسلم)
ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فليكرم ضيفه .
(٩٦) من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا ، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة . ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة . ومن ستر مسلماً ، ستره الله في الدنيا والآخرة . والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه
(عن أبي هريرة . أخرجه مسلم)
(٩٧) من ولّاه الله شيئاً من أمور المسلمين فاحتجب عن حاجتهم وقصيرهم ، احتجب الله دون حاجته .
(عن أبي مريم الأزدي . أخرجه أبو داود والترمذي)
(٩٨) من قبل على ما لم أقل ، فليتبوأ مقعده من النار
(عن سلمة بن الأكوع . رواه البخاري)
(٩٩) للمؤمن الذي يخاطب الناس ويصبر على أذام ، خير من الذي لا يخاطب الناس ولا يصبر على أذام
(عن ابن عمر . أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن)
(١٠٠) والذي نفسى بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره ، خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله ، أعطاه أو منعه .
(عن أبي هريرة . رواه البخاري)
(١٠١) يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة^(١) فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج . ومن لم يستطع فليصم بالصوم فإنه له وجاء^(٢) .
(عن عبد الله بن مسعود . متفق عليه)

(١) الباءة ، النكاح (٢) وجاء : الحياء . أراد أن الصوم يقطع شهوة النكاح كما يقطعها الزواج .

- ٤١٣ -

جدول

بتواريخ الحوادث المشهورة

في السيرة النبوية

السنة للميلادية	
٥٤٥	ميلاد عبد الله والد رسول الله
٥٧٠	حادثة القيل
» - ٢٠ أغسطس	مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، فجر الاثنين من شهر ربيع الأول
٥٧٣	ميلاد أبي بكر الصديق
٥٧٥ - ٥٧٦	وفاة آمنة ، أم النبي صلى الله عليه وسلم
٥٧٨	وفاة جده عبدالمطلب
٥٨١	ميلاد عمر بن الخطاب
٥٨٢	رحلة النبي الأولى إلى الشام مع عمه أبي طالب
٥٨٠ - ٥٩٠	حرب الفجار
٥٩٥	الرحلة الثانية إلى الشام في تجارة لخديجة
»	زواجه بخديجة
٦٠٠ - ٦٠١	ميلاد علي بن أبي طالب
٦٠٥	تجديد بناء الكعبة
٦١٠	بلد الوحي
٦١٣ - ٦١٤	ميلاد عائشة
٦١٥	الهجرة الأولى إلى الحبشة « شهر رجب سنة خمس من النبوة »
٦١٧	مقاطعة قریش لعبي هاشم وبنی المطلب
٦٢٠	وفاة أبي طالب ووفاته خديجة

السنة لليلادية

سفره إلى الطائف	٦٢٠
الإسراء واللمراج « قبل الهجرة بسنة - ليلة الاثنين ٢٧ رجب »	٦٢١
فريضة الصلاة	»
بيمة القبة الأولى « سنة ١٢ من النبوة »	»
هجرته إلى المدينة « ١٢ ربيع الأول - يوم الاثنين وهو يوم وصوله إلى المدينة »	٦٢٢ - ٢٨ يوتيه
سرف القبة إلى الكعبة	٦٢٣
بعث حمزة « شهر رمضان على رأس سبعة أشهر من الهجرة »	»
سرية عبيدة بن الحارث « شهر شوال على رأس ثمانية أشهر من الهجرة »	»
غزوة الأبواء « شهر صفر على رأس اثنى عشر شهراً من الهجرة »	٦٢٣ يونيه
غزوة بواط « شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة »	٣٢٣ يوليه
غزوة المشيرة « جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة »	٦٢٣ أكتوبر
سرية عبد الله بن جحش « شهر رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة »	٦٢٣ نوفمبر
غزوة بدر الكبرى « رمضان على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة »	٦٢٤ يناير
غزوة بني قنقاع « شوال من السنة الثانية من الهجرة »	٦٢٤ فبراير
غزوة السويق « فى ذى الحجة من السنة الثانية »	٦٢٤ ابريل
قتل كعب بن الأشرف « ربيع الأول من السنة الثالثة »	٦٢٤ يوليه
سرية زيد بن حارثة « جمادى الآخرة من السنة الثالثة »	٦٢٤ سبتمبر
غزوة أحد « شوال سنة ثلاث »	٦٢٥ يناير
غزوة حمراء الأسد « شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً »	٦٢٥
بعث الرجيع « صفر من السنة الرابعة »	٦٢٥ مايو
سرية بئر معونة	٦٢٥ مايو
غزوة بنى النضير « ربيع الأول سنة أربع » وعمرهم انظر	٦٢٥ يونيه
غزوة دومة الجندل « ربيع الأول سنة خمس »	٦٢٦ يوليه
غزوة بنى المصطلق « شعبان سنة خمس »	٦٢٦ ديسمبر

السنة الميلادية

٦٢٧	فبراير	غزوة الخندق « شوال سنة خمس »
٦٢٧	إبريل	غزوة بنى قريظة « فى ذى القعدة سنة خمس »
٦٢٧	يونيه - يوليه	غزوة بنى لحيان « ربيع الأول سنة ست »
٦٢٧	يوليه	غزوة ذى قرد « ربيع الأول سنة ست »
٦٢٧	أغسطس	سرية النعمر « ربيع الثانى سنة ست »
٦٢٧	سبتمبر	سرية زيد بن حارثة إلى العيص « جمادى الأولى سنة ست »
٦٢٧	أكتوبر	سرية أخرى لزيد بن حارثة إلى حسمى « جمادى الآخرة سنة ست »
٦٢٧	ديسمبر	سرية عبد الله بن عتيك « رمضان سنة ست »
٦٢٨	يناير	سرية عبد الله بن رواحة « شوال سنة ست »
٦٢٨	فبراير	الحديبية « فى ذى القعدة سنة ست »
٦٢٨	مايو	إيفاد الرسل إلى الروم وپارس « سنة سبع »
٦٢٨	أغسطس	زواج رسول الله بأم حبيبة بنت أبى سفيان « جمادى الأولى سنة سبع »
٦٢٨	أغسطس	غزوة خيبر « شهر الحرم سنة سبع »
٦٢٩	فبراير	عمرة القضاء « فى ذى القعدة سنة سبع »
٦٢٩	سبتمبر	سرية مؤتة « جمادى الأولى سنة ثمان »
٦٢٩	أكتوبر	سرية ذات السلاسل « جمادى الثانية سنة ثمان »
٦٢٩	نوفبر	سرية الخيظ « شهر رجب سنة ثمان »
٦٢٩	ديسمبر	سرية أبى قتادة إلى نجد « شعبان سنة ثمان »
٦٣٠	يناير	فتح مكة وهدم الأصنام « رمضان سنة ثمان »
٦٣٠	فبراير	غزوة حنين « ١٠ شوال سنة ثمان »
٦٣٠	فبراير	غزوة الطائف « شوال سنة ثمان »
٦٣٠	إبريل	مولد إبراهيم « فى ذى الحجة سنة ثمان »
٦٣٠	إبريل	سرية عيينة بن حصن الفزاري إلى تبم « الحرم سنة تسع »
٦٣٠	يوليه	سرية عقبة بن مجزز للدلى إلى الحبشة « ربيع الآخر سنة تسع »
٦٣٠	يوليه	سرية على بن أبى طالب إلى القاسم « ربيع الآخر سنة تسع »

- ٤١٦ -

السنة لليلاية

٦٣٠	اكتوبر	غزوة تبوك « رجب سنة تسع »
٦٣١	مارس	حجة أبي بكر الصديق « في ذى الحجة سنة تسع »
٦٣١	يونيه	سرية خالد بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب بنجران « ربيع الأول سنة عشر »
٦٣١	يونيه	وفاة إبراهيم ابن رسول الله « ربيع الأول سنة عشر »
٦٣١	ديسمبر	بث على رضى الله عنه إلى اليمن « رمضان سنة عشر »
٦٣٢	مارس	حجة الوداع « في ذى الحجة سنة عشر »
٦٣٢	مايو	استعداد جيش أسامة للسفر إلى الشام « صفر سنة إحدى عشرة »
٦٣٢	٧ يونيه	وفاة رسول الله يوم الاثنين « شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة »

فهرس الموضوعات

صفحة	صفحة
٣٦ سوق عكاظ	٣ إهداء الكتاب
٣٧ حلف القنول	٥ مقدمة الكتاب
٣٧ هل سافر النبي إلى اليمن؟	٧ كلمة عن بلاد العرب
٣٨ ابتداءه ﷺ عن معاني الجاهلية	٨ أشهر تنور بلاد العرب
٣٨ وأد البنات	٩ ود ، وسواع ، ويثوث ، ويسوق ، ونسر
٣٨ الرحلة الثانية إلى الشام	(أصنام)
٣٩ تزوج رسول الله خديجة رضي الله عنها	١٠ نسبة الشريف ﷺ
٤١ تجديد بناء الكعبة	١١ مناقب أجداده ﷺ
٤١ سيدنا إسماعيل	١٢ السداة والسقاية
٤٢ تسميته بالأمين ﷺ ، والرد على من انحرف	١٤ نذر عبد المطلب ، جد النبي صلى الله عليه وسلم
بهذه التسمية	١٦ زواج عبد الله
٤٣ خلقه ﷺ في طفولته وشبابه	١٧ أصحاب النبل - كنيسة صلحاء
٤٥ رسالة محمد صلى الله عليه وسلم - إثباتها من	١٩ مولده ﷺ
التوراة والإنجيل	٢١ الاحتفال بمولده ﷺ
٤٨ إنذار يهود برسول الله صلى الله عليه وسلم	٢٢ أحمأوه ﷺ
٥٠ سلمان الفارسي وقصة إسلامه	٢٣ مرضاته ﷺ - إخوة النبي من الرضاع
٥١ بيع الترقد	٢٤ شق الصدر
٥٢ من نسي في الجاهلية بمحمد	٢٥ دحض مقريات بعض المستشرقين
٥٣ عبادة الأصنام والأوثان	٢٥ الحظ على قتل صغيراً
٥٦ الأريية الباحثون عن دين إبراهيم	٢٦ وفاة أمية - أم أين
٥٦ الرد على مستر كانون سل	٢٦ عبد المطلب يعني سيف بن ذي يزن
٥٧ ترجمة زيد بن عمرو	٣٠ وفاة جده عبد المطلب وكفالة عمه أبي طالب له
٥٩ بدء الوحي	٣٣ السفر إلى الشام - الرد على مستر مور
٦١ النبي للتظفر	٣٥ من هو بحيرا؟
٦٣ النبي الأحمى	٣٦ حرب التجارة

صفحة	صفحة
١٠٨ حصار الشعب وخبر الصحيفة	٦٧ فترة الوحى
١١٠ الطفيل بن عمرو الدوسى ، شاعر يحكم عقله ويسلم	٦٩ أبو بكر الصديق وإسلامه
١١١ وفاة أبى طالب	٦٩ أسماء الأصنام
١١٢ وفاة خديجة	٧٤ على بن أبى طالب وإسلامه
١١٢ سفر رسول الله إلى الطائف	٧٦ زيد بن حارثة وإسلامه
١١٤ الإسراء والمعراج	٧٧ الدعوة إلى الإسلام خفية
١١٧ تأثير خبر الإسراء فى قريش - للمراج	٧٩ الرد على مستر مرجليوث
١٢٠ هل رأى رسول الله ربه ليلة الإسراء ؟	٨٠ إيذاء للشركين لأبى بكر الصديق
١٢١ فريضة الصلاة	٨٢ إظهار الإسلام
١٢٢ عرض الرسول نفسه على قبائل العرب	٨٤ عبد الله بن مسعود ، أول من جهر بالقرآن
١٢٣ بدء إسلام الأنصار - بيعة العقبة الأولى -	٨٤ وصف عبد الله بن مسعود
إسلام سعد بن معاذ	٨٤ الضرب والشتم حيلة الجهال المتعصبين
١٢٤ بيعة العقبة الثانية	٨٥ القرآن يحجر ألباب العرب
١٢٤ تقياء الأوس والخزرج الذين بايعوا النبي	٨٦ قريش تتفاوض أباً طالب فى أمر رسول الله ﷺ
صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة	٨٨ تمذيب المسلمين
١٢٥ دار الندوة	٩٠ ماعرضته قريش على رسول الله ﷺ
١٢٦ القرآن وما نزل منه بمكة	٩٣ حماقة أبى جهل
١٢٧ الهجرة إلى المدينة - وصول رسول الله إلى المدينة	٩٤ قريش تتمتعن رسول الله
١٣١ أبو أيوب الأنصارى	٩٤ النضر بن الجارث
١٣٢ ذكر الهجرة فى القرآن	٩٦ إسلام جابر بن عبد الله
١٣٣ خطبة رسول الله فى أول جمعة صلياً بالمدينة	٩٧ الهجرة الأولى إلى الحبشة
١٣٤ معاهدة رسول الله ، اليهود	٩٨ شقاعة الترائيق - اقتراء الزنادقة على رسول الله
١٣٦ الخزرج والأوس وما كان بينهما وبين اليهود	١٠٤ إسلام حمزة رضى الله عنه
١٤١ مدينة يثرب	١٠٥ عمر بن الخطاب وسبب إسلامه
١٤٢ مرض المهاجرين بمعى المدينة	١٠٥ فاطمة بنت الخطاب
	١٠٨ الهجرة الثانية إلى الحبشة

صفحة	موضوع
١٤٣	مسجد رسول الله
١٤٣	الجحفة
١٤٥	ترويح النبي صلى الله عليه وسلم بمائشقرضى
	الله عنها
١٤٦	سرف القبلة عن بيت المقدس إلى الكعبة
١٤٧	الأذان
١٤٧	فرض صيام نهر رمضان وزكاة الفطر
١٤٧	عبدالله بن زيد
١٤٨	فريضة الزكاة
١٤٩	للؤاخاة بين المهاجرين والأنصار
١٥١	إسلام عبدالله بن سلام بن الحارث الإسرائيلي
١٥٢	عداء اليهود ومناقشتهم
١٥٤	أهل الصفة
١٥٦	الإذن بالقتال
١٥٧	بمحث حزة
١٥٧	أبو سفيان بن حرب
١٥٧	سرية عبيدة بن الحارث
١٥٨	» سعد بن أبي وقاص
١٥٨	غزوة ودان أو غزوة الأبواء
١٥٩	غزوة بواط
١٥٩	غزوة بدر الأولى أو غزوة سفوان
١٥٩	غزوة المشيرة
١٦٠	سرية عبد الله بن جحش الأسدي
١٦١	سرية (غزوة بدر الثانية أو بدر الكبرى)
	قوة قريش - قوة المسلمين - رسول الله يستشير
	أصحابه - الخلاف بين أبي سفيان وأبي جهل
١٨٧	أسباب انتصار المسلمين في موقعة بدر
١٧٨	فضل أهل بدر
١٧٩	وفاة رقية بنت رسول الله
١٧٩	زواج فاطمة بنت رسول الله
١٨١	غزوة بني سليم
١٨١	ابن أم مكتوم
١٨١	غزوة بني قينقاع
١٨٣	غزوة السويق
١٨٤	غزوة ذي أمر، وهي غزوة غطفان
١٨٥	زواج أم كلثوم بنت رسول الله
١٨٥	زواج حفصة
١٨٥	سرية زيد بن حارثة

صفحة	صفحة
٢٢١ غزوة للربيع أو غزوة بنى المصطلق	١٨٦ قتل كعب بن الأشرف
٢٢٢ قتل هشام بن صبابه	١٨٨ قتل ابن سئينة
٢٢٣ آية التيمم	١٨٨ مناقشة بعض المستشرقين في قتل كعب
٢٢٣ عائشة وحديث الإفك	١٨٩ غزوة أحد - الكرة على المسلمين - ثبات
٢٢٧ غزوة الخندق وهي الأحزاب - تحزب الأحزاب - أمي الدين خير - خروج الأحزاب وقواديم - حفر الخندق - سلمان منا أهل البيت - اعتراض صخره بيضاء ومعجزة الرسول - عدد الجيش - قضى المهدي اشتداد الحصار - اقتحام الخندق - حسان ابن ثابت يحثى القتال - استمرار القتال وفوات الصلاة - إن الحرب خدعة - حرب الطليعة - خطبة أبي سفيان - خسائر المسلمين - خسائر المشركين .	رسول الله - للنهزمون من المسلمين - رسول الله ومن ثبت معه - شجاعة امرأة وثباتهم مع رسول الله - إحدى معجزات رسول الله - قتل أبي بن خلف - إصابة رسول الله - الثلاثة بالمسلمين ومعجزة رضى الله عنه
٢٣٥ غزوة بنى قريظة - حكم سعد بن معاذ - غنائم المسلمين - وفاة سعد - خسائر المسلمين في غزوة بنى قريظة .	٢٠١ أسباب انهزام المسلمين في موقعة أحد - نداء أبي سفيان - استشهاده سعد بن الربيع الأنصاري - قتل غيريق - انتحار قزمان - دفن القتلى - رجوع رسول الله إلى المدينة - شتمانة اليهود والمناقبين - نزول لللائكة يوم أحد
٢٤٠ منازل من القرآن في أمر الخندق وبنى قريظة	٢٠٦ ذكر غزوة أحد في القرآن
٢٤١ يهود المدينة وما آل إليه أمرهم	٢٠٧ غزوة حراء الأسد
٢٤٢ ملكة القرطوا وإسلام ثمامة بن أثال الحنفي	٢٠٩ بشت الرجيع
٢٤٣ غزوة بنى الحليان	٢١١ سرية بئر معونة
٢٤٣ إغارة عيينة بن حصن	٢١٢ غزوة بنى النضير
٢٤٤ غزوة ذى قرد وهي غزوة الغابة	٢١٥ تحريم الخمر - الإصلاح الاجتماعي العظيم - حد الخمر
٢٤٤ سرية النمر، أوسرية عكاشة بن محسن الأسدي	٢١٧ غزوة ذات الرقاع
٢٤٥ سرية محمد بن مسلمة الأنصاري إلى ذى القصة	٢١٨ غزوة بدر الأخيرة
٢٤٥ سرية زيد بن حارثة	٢١٨ غزوة دومة الجندل
	٢١٩ تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش

- صلفة
- ٢٤٦ سرية أخرى لزيد بن حارثة
- ٢٤٧ سرية عبدالرحمن بن عوف إلى دومة الجندل - إسلام الأصم بن عمرو السكبي .
- ٢٤٧ سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر
- ٢٤٧ سرية زيد بن حارثة إلى أم قرة
- ٢٤٨ سرية عبد الله بن عتيق لقتل سلام بن أبي الحقيق .
- ٢٥٠ سرية عبد الله بن رواحة إلى أسير بن رزام
- ٢٥١ سرية كرز بن جابر القهري
- ٢٥٢ أمر الحديبية
- ٢٥٧ بيعة الرضوان - تأثير البيعة في قریش - الصلح - مزايا هذا الصلح - تنفيذ المعاهدة
- ٢٦٢ رسل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء يدعونه إلى الإسلام - خاتم رسول الله - كتب رسول الله
- ٢٦٤ ١ - كتاب رسول الله إلى هرقل
- ٢٦٥ سؤال هرقل لأبي سفيان بشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم
- ٢٦٦ ٢ - كتاب رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر النسائي .
- ٢٦٧ ٣ - كتاب رسول الله إلى كسرى عظيم الفرس - إسلام باذان - الرد على السشقر نورث .
- ٢٦٩ ٤ - كتاب رسول الله إلى القوقس عظيم القبط - مارية القبطية - إبراهيم ابن رسول الله .
- صلفة
- ٢٧٢ ٥ - كتاب رسول الله إلى النجاشي أصحمة - إسلام النجاشي . .
- ٢٧٤ زواج أم حبيبة بنت أبي سفيان برسول الله
- ٢٧٥ ٦ - كتاب رسول الله إلى هوزة بن علي الحنفي ، صاحب الجملة .
- ٢٧٦ ٧ - كتاب رسول الله إلى النذر بن ساوى التميمي
- ٢٧٦ ٨ - كتاب رسول الله إلى ملكي عمان
- ٢٧٧ نتيجة إرسال الرسل إلى الملوك والأمراء
- ٢٧٨ غزوة خيبر - حصون خيبر - تحريم لحوم الحر الأهلية - إصابة الصحابة بالحصى في خيبر
- ٢٨٤ صلح أهل فذك
- ٢٨٤ غزوة وادي القرى
- ٢٨٥ خمس سرايا في خريف وشتاء السنة السابعة الهجرة .
- ٢٨٦ عمرة القضاء
- ٢٨٧ زواج رسول الله بميمونة
- ٢٨٨ ما قبل سرية مؤتة من الحوادث
- ٢٨٩ إسلام عمرو بن العاص
- ٢٩٤ خالد بن الوليد وإسلامه
- ٢٩٦ سرية مؤتة لخزيرة الروم
- ٢٩٧ وصية رسول الله للجيش قبل رحيله إلى مؤتة
- ٢٩٨ عبد الله بن رواحة هو عبد الله بن ثعلبة
- ٢٩٩ مواساة رسول الله لآل جعفر
- ٣٠٠ إسلام فروة بن عامر الجناحي
- ٣٠٠ سرية عمرو بن العاص وأسرية ذات السلاسل
- ٣٠٢ سرية أبي عبيدة بن الجراح

صفحة	صفحة
٣٣٣ سرية عينة بن حصن الزارى إلى تيمم	٣٠٢ غزوة فتح مكة - قريش تبعث أباسفيان إلى المدينة - استمداد رسول الله ﷺ على مكة -
٣٣٣ سرية الوليد بن عقبة إلى بنى الصطلق	كتاب حاطب إلى مكة - رسول الله ﷺ يأذن لأصحابه بالإفطار في رمضان - عقد الأتوية
٣٣٤ » قطبة بن عامر إلى خثعم	والرايات - نيران جيش المسلمين - المحكوم عليهم بالقتل - دخول الكعبة - بيعة أهل مكة - هدم الأصنام - أذان بلال على ظهر الكعبة - إسلام أبي قحافة والد أبي بكر الصديق
٣٣٤ » الضحاك بن سفيان إلى بنى كلاب	٣٠٩ ترجمة أبي سفيان
٣٣٥ » علقمة بن مجزز المدلجي إلى الحبشة	٣٢٢ سرية خالد بن الوليد إلى العرى
٣٣٥ » علي بن أبي طالب إلى القلنس	٣٣٣ سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة
٣٣٦ غزوة تبوك أو العسرة - إخلاص الصحابة وصدقائهم - البكामون - للتخلفون -	٣٣٣ سرية عمرو بن العاص إلى سواح
المعدرون - عدد جيش المسلمين	٣٢٤ سرية خالد بن الوليد إلى جذيمة
٣٣٨ بئث خالد بن الوليد إلى أكيدر	٣٢٥ غزوة حنين - قوة العدو واستمداده - قوة جيش المسلمين واستمدادهم - ترتيب صفوف المسلمين وتوزيع الرايات - جواسيس العدو - جاسوس للمسلمين - القتال - الانتصار بعد الهزيمة - تقسيم الغنائم ورد السي - الغنائم والأنصار - رجوع رسول الله ﷺ إلى المدينة
٣٣٩ المعجزات وخوارق العادات	٣٢٩ للؤلؤة قلوبهم
٣٤٠ هدم مسجد الضرار بقاء	٣٣٠ سرية عامر الأشعري أو سرية غزوة أو طلس (هوازن)
٣٤١ لماذا بنى مسجد الضرار؟	٣٣٠ سرية الطفيل بن عمرو الدوسي إلى ذي الكففين
٣٤١ موت عبد الله بن أبي ابن سلول ، رأس المنافقين	٣٣١ غزوة الطائف
٣٤٢ حجة أبي بكر الصديق	٣٣٢ بئث قيس بن سعد إلى صداء
٣٤٣ سرية خالد بن الوليد إلى بنى الحارث بن كعب بنجران	
٣٤٥ وفاة إبراهيم ابن رسول الله	
٣٤٦ أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل ، بشهما إلى اليمن	
٣٤٧ بئث علي بن أبي طالب إلى اليمن	
٣٤٧ حجة الوداع	
٣٤٩ بئث أسامة بن زيد إلى الشام	
٣٤٩ عدد الفزوات والبحوث	
٣٥٠ الوفود	

صفحة
 ٣٨٧ حراسه ﷺ
 ٣٨٨ أمناء رسول الله
 ٣٨٨ شعراؤه صلى الله عليه وسلم
 ٣٨٩ مؤذنوه .
 ٣٩٠ خدمه
 ٣٩١ خيله وبناله وإبله
 ٣٩٢ أسماء أسلحته : السيوف . الدروع . القسي
 ٣٩٣ الأتراس . الرماح . الخراب . الخوذ
 ٣٩٤ تأديب الله تعالى لرسوله ﷺ . الثورى .
 اليتيم والسائل
 ٣٩٥ الصبر والمباة . هجر الرجز
 ٣٩٦ النهى عن تحريم ما أحله الله . الفجور والإعراض
 عن الجاهلين
 ٣٩٧ التواضع للمؤمنين . المجادلة بالحسنى
 ٣٩٨ إيتاء ذى القربى والسالكين . معاملة العدو -
 الاقتصاد فى الإفراق .
 ٤٠٠ منزلة رسول الله فى القرآن . طاعة الله وطاعة
 الرسول . الثناء على أخلاقه . بشة الرسول
 إحسان إلى كل الملائين . الصلاة على النبي
 صلى الله عليه وسلم . التأديب فى حضره الرسول -
 تحكيم رسول الله . باقية مشاققة رسول الله .
 ٤٠٣ الأحاديث النبوية وتدوينها
 ٤٠٥ مختارات من الأحاديث النبوية
 ٤١٣ جدول بتواريخ الحوادث المشهورة فى السيرة
 النبوية

صفحة
 ٣٥٢ أبى بن كعب الأنصارى
 ٣٥٢ وفاة رسول الله
 ٣٥٥ رثاء أبى بكر - رثاء حسان بن ثابت
 ٣٥٨ منازل من القرآن بالمدينة
 ٣٥٨ مراتب الوحي والرد على المستشرقين
 ٣٦٠ زوجات رسول الله
 ٣٦١ تعدد زوجات رسول الله
 ٣٦٣ للزاة فى الإسلام
 ٣٦٣ حكمة تعدد الزوجات
 ٣٦٦ بنوه وبناته ﷺ
 ٣٦٧ صفته عليه السلام
 ٣٦٩ الشامل الحمدية
 ٣٧٢ عفوه وحلمه
 ٣٧٣ كرمه
 ٣٧٤ شجاعته
 ٣٧٥ اتباع الصالحين الإسلامية
 ٣٧٦ الاقتداء بأخلاق رسول الله
 ٣٧٨ معزات رسول الله
 ٣٧٩ معجزة القرآن
 ٣٨١ انشقاق القمر
 ٣٨٣ نبع الماء من بين الأصابع
 ٣٨٤ تكثير الطعام . حنين الجذع . إبراء الرضى
 وذى العاهات الخ .
 ٣٨٥ خصائصه ﷺ
 ٣٨٥ موالى رسول الله

خاتمة الكتاب

أما بعد ، فيقول العبد الفقير إلى الله جلّ شأنه ، الراجي عفوه ومثوبته (محمد رضا) :
لقد انتهيت من تأليف هذا الكتاب الذي قضيت شطراً كبيراً من حياتي في جمعه وتصنيفه وتحقيق
موضوعاته ومسائله ؛ لأقدم للعالم الإسلامي كتاباً يعتمد عليه في السيرة النبوية الشريفة . على أني أعترف
أن الإنسان مهما تحرى الصواب ، فهو عرضة للخطأ والزلل . وحسب المؤلف أن يبذل وسعه
ويفرغ جهده :

فأرجو القارئ الكريم أن يفتقر ما قد يثر عليه من هفوات وسقطات ، قد لا يخلو منها كتاب .
فقوق كل ذي علم عليم . وما أوتينا من العلم إلا قليلاً . وقد قيل : « من ألف ، فقد استهدف » والله أسأل
أن يوفقنا إلى ما فيه رضاه ويهدينا سواء السبيل ويرينا الخير خيراً فنقبه ، والشر شراً فنجتنبه ، ويهينا
الصدق في القول والإخلاص في العمل ، ويتفهم بهذا الكتاب طلاب العلم وأن يصلح به النفوس
ويهدي الأمم الإسلامية إلى الاقتداء بسيد الخلق ، والعمل بسنته ، حتى يمدوا مجدهم ورضوا قدرهم .
اللهم آمين ؟

محمد رضا



